بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب اليمني

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الدار اليمنية
للنشر والتوزيع

توزيع
دار المناهل
للطباعة والنشر والتوزيع
تليفون : ٨١٤٧٠٣
٨١٤٦٩٧
ص.ب : ١٤/٥٦٤٥
بيروت - لبنان

عبد الله محمد الحبشي

الأدب اليمني

عصر خروج الأتراك الأول من اليمن

١٠٤٥ - ١٢٨٩ هـ

١٦٣٥ - ١٨٧٩ م

الدار اليمنية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه وسلم.

وبعد، فهذا جمعٌ من الأدب اليمني خلال مرحلة معينة من التاريخ جعلته تذكرة لي ولغيري.

وهو يشكل الحلقة الثانية من سلسلة دراسات عن تاريخ الأدب اليمني، بدأتها بدراسة الأدب في العصر الرسولي من سنة ٦٢٩ إلى سنة ٨٥٨هـ.

ثم هذا الكتاب، وهو جهد عنيت فيه بدراسة المرحلة التي تلت خروج الأتراك الأول من اليمن من سنة ١٠٤٥ إلى سنة ١٢٨٩هـ وفيها نبغ العديد من فحول الشعراء والعلماء، وصدرته بفصول تمهيدية وأخرى رئيسية، كما هي العادة عند الباحثين المعاصرين في مثل هذه الكتابات.

وقد حاولت فيه الجمع بين طريقتيْ الجمع والتبويب، وبين طريقة التقييم، ولم أغالِ في كلا الأمرين، حيث جعلته مزيجاً منهما.

على أن أهم ما يفخر به هذا البحث هو تلك النصوص الأدبية النادرة التي استقيتها من مخطوطات لم تر الطبع، ولم يعرفها الناس، كما أني كشفت عن شخصيات أدبية لم يتناولها البحث بعد.

فأرجو أن أكون استخرجت للناس شيئاً يستحق الجهد الذي بذلته في

سبيله، وما استغرقه من وقتي وجسمي ومالي.

فالقصد من ذلك كله هو خدمة الوطن وتراثه المغمور وبالله الاعانة وعليه التكلان .

عبدالله محمد الحبشي

صنعاء ١٩٨١/٩/٤

نبذة من التاريخ*

لما توفي الإمام القاسم في عام ١٠٢٩، بويع ولده محمد إماماً خلفاً له ولقب بالمؤيد، وقد خرج عليه ابن أخيه أحمد بن الحسن، وجهز الإمام المؤيد جيشاً لحربه واستطاع إعادته إلى طاعته، ثم خرج عليه مرة أخرى فجهز الإمام المؤيد بدوره جيشاً لحربه، فتمكن من دحره ولجوئه بنائب الإمام في (عدن) الحسين بن عبدالقادر، حيث أحسن هذا استقباله ورعايته طيلة إقامته لديه، ولكنه لما صدرت إليه الأوامر من الإمام بأن يرسل الأمير أحمد بن الحسن، غادر هذا (عدن) إلى (يافع)، وجمع منها جماعة غزا بهم مدينة (قعطبه)، ثم عاد إلى يافع وأقام بها حتى موت الإمام المؤيد.

ولما توفي المؤيد في عام ١٠٥٢ دعاه أخوه أحمد، وعارضه أخوه إسماعيل أمير (ضوران)، وقامت بين الأخوين مناوشة انتهت بتنازل الأمير أحمد لأخيه إسماعيل، واستتب الأمر لهذا وتلقب بالمتوكل.

وكان المتوكل قد بدأ نفوذ سيطرته عام ١٠٦٥ على بعض المناطق الشرقية،

---

* لخصناها من كتاب تاريخ اليمن السياسي للأستاذ محمد الحداد ص٢٢٦ لاستيفائه بالغرض المطلوب.

أما حول خروج الأتراك الأول من اليمن ودخولهم الثاني فيراجع كتابا:

١ـ الفتح العثماني الأول لليمن للدكتور السيد مصطفى سالم ص٣٥٤.

٢ـ الحكم العثماني في اليمن للدكتور فاروق أباظة ص٤٩ـ٨٧.

وقد رأينا الاضراب عن هذا البحث لعدم صلة كتابنا بهذا الموضوع.

بأن جهز جيشاً كبيراً بقيادة الأمير أحمد بن الحسن الآنف الذكر تقدم به أولاً إلى بلاد (البيضا)، وقام قتال بينه وبين الشيخ حسن الرصاص، أسفر عن مقتل الرصاص وانهزام جنوده وإذعان أخيه الشيخ صالح الرصاص لحكومة الإمام المتوكل، ثم إعلان العوالق والواحدي والعمودي ولاءهم للإمام أيضاً.

ولكنه سرعان ما خالفت بلاد (يافع) على الإمام وأخرجت عامل الإمام من بلادها، فجهز لحربها ولده الأمير محمد على رأس جيش كبير تمكن من إخضاعهم وقبض السلاح منهم.

ولما أدرك سلطان (حضرموت) بدر بن عبدالله الكثيري خضوع بلاد (يافع) للإمام المتوكل، راسل الإمام معلناً ولاءه له، فأقره الإمام على ولايته إلا (ظفار)، فإن الإمام ولّى عليها السلطان بدر بن عمر الكثيري، وكان بين السلطانين منافسة شديدة، وقد ظل السلطان بدر بن عمر والياً عليها حتى وثب عليه جعفر ابن عبدالله الكثيري في سنة ١٠٦٩، موعزاً من أخيه السلطان بدر بن عبدالله واستولى على (ظفار).

وقد جهز الإمام الأمير أحمد بن الحسن على رأس جيش لإعادة السلطان بدر ابن عمر الكثيري على ولايته (ظفار) الحبوضي، وتمكن أحمد بن الحسن من ذلك وقبض على السلطان جعفر بن عبدالله وبعث به إلى الإمام حيث حدد إقامته في صنعاء، وفي عام ١٠٧٠ أسند ولاية (الشحر) إلى السلطان علي بن بدر الكثيري.

وفي سنة ١٠٧١ جهز أحمد بن الحسن على رأس جيش إلى بلاد (الفضلي) في (أبين) واضطر السلطان حيدرة بن أحمد الفضلي إلى تسليم نفسه إليه بعد أن استأمن له سلطان الواحدي، وأدخل الأمير أحمد (أبين) وأعمالها في حكم الإمام المتوكل.

وفي عام ١٠٨٧ أعلن الأمير علي بن أحمد بن القاسم خروجه على الإمام المتوكل إسماعيل ودعوته لنفسه وذلك بسبب عزل الإمام له عن ولاية (صعدة)، فجهز الإمام لحربه الأمير أحمد بن الحسن، ولكن وفاة الإمام المتوكل وقيام أحمد

ابن الحسن بالدعوة أنهى خلاف علي بن أحمد كما أنهى دعوته.

توفي الإمام المتوكل إسماعيل سنة ١٠٨٧، وقد جمع الأمير أحمد بن الحسن إليه في (الغراس) العلماء والأعيان للتشاور فيمن يصلح للإمامة واستقـر رأي المؤتمرين على مبايعته وبايعوه ولقبوه بالمهدي.

وقد عارضه كل من القاسم بن المؤيد محمد بن القاسم، ودعا لنفسه في (شهارة) وتلقب بالمنصور وأخيه الحسين بن الحسن بن القاسم وتلقب بالواثق، والسيد محمد بن علي الغرباني ودعا لنفسه في (برط) والسيد أحمد بن إبراهيم المؤيدي، ودعا لنفسه في (صعدة)، ولكنه سرعان ما حسم الخلاف بين الأخوين المتعارضين ولزم الحسين بن الحسن الإقامة في داره في (رداع)، كما قامت الحرب بين الإمام المهدي أحمد بن الحسن، والمنصور القاسم بن المؤيد انتهت بصلح يقضي بأن يتنازل المنصور للمهدي، مقابل إقطاع المهدي إياه بلاد (حجه)، وعفار، وكحلان وبعض بلاد الشرفين، وبلاد السودة، وظليمة، والأهنوم من حاشد وتم الأمر على ذلك.

وفي سنة ١٠٩٢ توفي الإمام المهدي أحمد بن الحسن، فدعـا بعده الأمير محمد بن إسماعيل بن القاسم، وتلقب بالمؤيد، وبدأ النزاع يـدب في الأسرة القـاسمية، فعـارضه كـل من الحسين بن الحسن بن القـاسم في (رداع)، والقاسم بن المؤيد في (شهارة)، وعلي بن أحمد أبو طالب في (صعدة)، ومحمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم في (منصورة الصلو) وغيره كثير.

ولكن آل أمر الجميع إلى مبايعة المؤيد محمد بن إسماعيل فأقام في (ضوران آنس) وجرت له مع قبائل يافع وغيرها معارك تغلب فيها عليهم.

وتوفي المؤيد سنة ١٠٩٧.

ثم دعا بعده جماعة منهم الحسين بن عبدالقادر في (شبام كوكبان) وعلي بن أحمد أبو طـالب في (صعدة)، والحسـين بن الحسن في (رداع)، ويوسف بن المتوكل في (صنعاء)، وعلي بن حسين الشامي في (مسور خولان) وغيره.

وتم الأمر للمهدي محمد بن أحمد صاحب الكنى الثلاث (المهدي، والناصر والهادي)، واستقر بالمواهب بالقرب من (ذمار)، وتغلب الإمام المهدي على غيره من الدعاة، وقد تنازل الحسين بن عبدالقادر لخاله علي بن أحمد أبو طالب الذي قصر المهدي نفوذه على (صعدة) بعد حروب قامت بينهما، وكان على رأس قوات المهدي ولده الأمير إسماعيل، الذي حدث أن ثارت عليه قبائل (صعدة) الموالية للإمام علي بن أحمد أبو طالب وهو في طريق عودته إلى (صنعاء) وقتلته.

وأما الحسين بن الحسن صاحب (رداع) فإن الإمام المهدي تمكن من القبض عليه وقد استمر في المعتقل عشر سنوات ثم أطلقه.

وأما يوسف بن المتوكل فإنه وصل إلى المهدي وبايعه ثم عاد إلى (صنعاء) وعاد إلى الدعوة إلى نفسه في ناحية (خولان) وحشد جموعه إلى الإمام المهدي في (منصورة الصلو)، وكان من بين جموعه ولد المهدي عبدالله، الذي خرج على والده وانضم إلى يوسف بن المتوكل، وقامت معارك بين الجانبين، كانت كفة يوسف ابن المتوكل هي الراجحة، وحاصر الإمام المهدي حتى كاد أن يستسلم، ولكنه حدث هطول الأمطار، فباغتهم الإمام المهدي وهم مستكنون من المطر وألقى القبض عليهم جميعاً بعد انهزام جموعهم، وقيدهم في (قلعة الدملوه) ثم أطلقهم سنة ١١٠٩ وأعاد يوسف بن المتوكل الدعوة لنفسه بتشجيع من آل القاسم وبعض رؤساء القبائل، فعثر به المهدي مرة أخرى واستفتى في أمره العلماء بقتله فأفتوه إلا أحدهم رجح حبسه فاستجاب لأمره واعتقله ثم أفرج عنه سنة ١١١٣ وأقطعه بلاد (سنحان).

وجرت للإمام المهدي حروب مع أهل يافع، وبنى أرض، والعوالق ودثينة، والمصعبين، ومراد، وبيحان، وغيرهم في المنطقة الجنوبية من اليمن ومع مختلف قبائل حاشد في (سفيان وعمران، وخمر).

ثم عارض المهدي سنة ١١٢٤ الحسين بن القاسم بن المؤيد، فاستجاب له كثير من القبائل، وقامت معارك بين الإمامين، كان التفوق فيها للحسين بن القاسم الذي حاصره سنة ١١٢٧ في (المواهب) عاصمة المهدي واضطر إلى

التنازل له وتلقب بالمنصور.

وتمضي الحوادث متشابهة على هذا النسق المتكرر، فلا نرى فائدة في الحديث عن ذلك، وقد أغنانا عن البحث الأستاذ الحداد في كتابه القيم المشار إليه آنفاً فينظر هناك.

في العلاقات الخارجيّة

على أن الذي يمكن أن نستجده من البحث ونبتكره هو تلك العلاقات الخارجية .وكان لليمن في ذلك الوقت أثره بين دول العالم الأخرى بما فيها الحجاز والحبشة ومصر وتركيا. حتى قال الشاعر علي بن صالح بن أبي الرجال مخاطباً المهدي السابق الذكر:

أتحفته الملوك من كل أرضٍ — بهدايا بديعة الألوان
من دمشق ومن حماة ومصر — وبلاد الزنوج والتركمان
وأرشاه عالم حين جلا — عنه ضم العدو بالهندوان
رام تجديده لود أكيد — واتصال على مدى الأزمان
وأتى منه بالهدايا رسول — من خواصِّ الملوك ثبت الجنان

وها نحن سنتناول هذه الدول وغيرها كلًّا على حدة:

أولاً: الحجاز:

كانت الحجاز تحت حكم الأشراف (آل أبي نمي) على صلة وثيقة باليمن، وربما استعان بها بعض أمرائها لصد نفوذ السيادة العثمانية عليهم، بل إن بعض أشرافهم طلب من اليمن إرفاده بالجيش لصد الوجود التركي في بلاده مرات فكانت اليمن تفضّل الإحجام خشية من مجابهة الدولة العثمانية مرة أخرى.

وقد طلب المؤيد محمد بن القاسم من شريف مكة المحسن بن الحسين سنة

١٠٥٤ الانتماء إليه وضرب السكة باسمه، فسار مندوب الإمام ومعه رسالة بذلك، وكان الشريف المذكور قد وعد الإمام بذلك، فصادف وفاة الإمام في نفس تلك السنة. وفي عهد المتوكل إسماعيل كانت العلاقات قوية بين البلدين وقد وطدت وربما استعان بعض الأمراء ـ في المنافسة مع بعضهم البعض ـ بالجيش اليمني، وقد جاء ذلك في مكاتبات دارت بين المتوكل إسماعيل وبعض الأمراء، ومن ذلك ما كتبه الإمام المتوكل إسماعيل إلى شريف مكة زيد بن محسن جواباً على عدة رسائل يقول فيه: «وأمّا ما تعلق بجماعتكم من الأشراف جمع الله شملهم وألّف قلوبهم، فما يسع إلاَّ احتمالهم كيف كانوا، والصبر عليهم أنّى يكونوا فإن لهم أولاً حق الرحم، وهم العدة إن شاء الله.. وأما شأن الرعية والأفراد فإنما يستجلبون بالرفق والتيسير، ومداواة علل رؤسائهم وكبرائهم بشيء من الدنيا».

فكان الإمام يتملَّص من الزج بجيشه في مثل تلك الأمور الشخصية، وقد حدث أن وقع شقاق كبير بين الأمير مبارك بن شبير بن حسن بن نمي والشريف زيد بن محسن وقد أرسل الإمام من جانبه الأمير عزّ الإسلام محمد بن الحسين، فلما وصل إلى الأمير المذكور (لم ينصفه في السلام فضلاً عن الكلام وأظهر غلظة البدوان التي ربوا عليها وطلب من عز الإسلام محمد بن الحسين أموراً لا يحتملها الحال فتركه لحاله)[١].

وهكذا كان لليمن شأن بين الأمراء في الحجاز خلال تلك المدة ونحن نستشف ذلك من رسائل عديدة بعثها المتوكل إسماعيل إليهم وحفظتها كتب التاريخ اليمني، وقد بلغ من اهتمام الإمام المذكور أن يبعث سنة ١٠٦٨ مرشدين إلى جهات ينبع وما والاها من بلاد الحجاز للتعليم والإرشاد فأمر الفقيه الحسين ابن يحيى بن علي النحوي وكان له معاودة إلى تلك الجهات وأصحبه كتاباً هو النصيحة الكافية، فسبب هذا إحراجاً كبيراً لدولة الحجاز وكانت تظهر ولاءها للسيادة العثمانية في مصر. ولنترك المؤرخ الجرموزي يصف لنا ما حدث لذلك المندوب:

---

(١) تحفة الأسماع «خ»

«ولما وصل المندوب إلى الشريف زيد بن محسن عظم عليه الفعل ـ أي الموافقة على إرسال هذا المرشد إلى تلك الجهات الموالية للترك، وجاء الفقيه النحوي ـ مندوب الإمام ـ إلى مكة وبقي منتظراً رد الشريف حتى ساء ظنه فوصله بعض مشايخ حرب، وبعض الأشراف فقالوا له تمضي بكتاب الإمام ونحن معك، فقدم الفقيه المدينة فشاع أن هذا والٍ للإمام، فعظم ذكره، ثم وصله أهل ينبع وبعض مشايخ بوادي البلاد المذكورة ومضى معهم إلى ينبع وبلادها وأقيمت الجمعة واجتمع إلى الفقيه المذكور فقهاء بلاد ينبع ودعوا الناس إلى الإمام ورفعوا شعاره وكتب أعيان السلطنة العثمانية إلى صاحب مصر وربما إلى الآستانة بذلك، حتى حاول بعضهم اغتيال ذلك المندوب عن أمر الشريف لأجل لا يتهم بمعصية الدولة العثمانية، ولولا أن ذلك المندوب كان من الفرسان الأبطال لأردوه قتيلاً إذ وصلوا إليه في نحو١٢ رجلاً ليلاً وهجموا عليه وهو في منزله فصدهم وأصاب منهم قتلى، ثم إن أهل ينبع دافعوا عن مندوب الإمام حتى وصل عن طريق بيشة إلى اليمن سالماً.

وهكذا يبدو لنا موقف الحجاز في ذلك الحين موقف المراوغ حيث يريد إرضاء كل من الطرفين الخصمين الأتراك واليمن وقد دفعها إلى ذلك الموقف ضعفها وعدم القدرة على مجابهة أحد الطرفين .

ثانياً: الحبشة:

اهتمت اليمن في تلك الفترة بأمر الحبشة وحاولت تقديم المساعدات الثقافية لهذا القطر المجاور. وكان قد وصل سنة ١٠٢٧ وفد من قبل ملك الحبشة إلى اليمن ومعه هدايا تلك البلاد كالرقيق والزباد وسلاح الحبشة وضمن كتابه استدعاء رسول من الإمام لإفاضة ما في نفسه من الكلام، فطمع الإمام بإسلام ذلك الملك، وكان على دين النصرانية فبعث إليه العلامة الحسن بن أحمد الحيمي مع رسوله ذاك سنة ١٠٥٧، فوصلا إلى ذلك الملك إلاّ أنه رأى منه التراخي في الأمر الذي كلف به، وقد حدثنا عن رحلته الطريفة تلك في مؤلف مستقل سنتعرض إليه عند حديثنا عن الرحلات. ثم أعاد ملك الحبشة المكاتبة إلى

الإمام سنة ١٠٦٢ فأجابه بجواب طويل.

ثالثاً: الهند:

كانت علاقة اليمن بالهند أقوى من علاقاتها مع أي بلد آخر، في ذلك الوقت سوى الحجاز وكانت قد تمركزت جالية هندية كبيرة في اليمن تقوم بأعمال تجارية ناجحة ربما زاحمت تجارة اليهود هناك، ولم يتمركزوا في عدن وحدها بل دخلوا صنعاء كما سنشير إلى ذلك في موضع آخر.

وأما من الناحية الرسمية فإنه وقعت مبادلات دبلوماسية جرت بين البلدين وقد تعاطفت الدول المسلمة هنالك مع جيرانها في اليمن واستعانوا بهم في أغراض ثقافية علمية كثيرة، بل صادف في ذلك الوقت وجود ملك مسلم هناك يحب الاطلاع والثقافة وتقريب العلماء، وهو الملك محمد أورنك زيب بن شاه جهان.

فكان له مع قرينه الإمام المتوكل إسماعيل مراسلات ومناقشات علمية كثيرة جمعت في كتاب مخطوط. وقد جرت هذه المراسلات بواسطة رجل من الهند يقال له محمد بن إبراهيم بن أمير نعمان، وكان قد وصل هذا الرجل إلى اليمن ثم استأذن الإمام في الذهاب إلى الهند، فحمّله رسالة علمية طويلة شحنها بالآيات والأحاديث في فضل العلم رغبة منه في الميل إليه.

وفي رسالة بعثها إلى ذلك السلطان مع هدية فاخرة قال في الرسالة: «وبعد فإنه لما بلغنا عن السلطان الكريم الماجد الفخيم محمد أورنك زيب... ما يشرح الصدور من أخلاق التقوى ومحاسن الشيم وصدق حب الله وحب رسوله... فابتهجنا له حبوراً وحمدنا الله لكم على ما منحكم من ذلك سرّاً وجهراً...» إلى آخر رسالة الإمام.

وكان سلطان الهند قد طلب من الإمام تولية رسمية لمنطقته بقصد التبرك، فجاءه جواب الإمام بذلك مع التولية يقول:

«وبعد فإنه لما كان السلطان السعيد الميمون الحميد محمد أورنك زيب ممن

حظي بأسباب الخير وفتح له الباب الكريم. . . وكان من نعم الله عليه وعلينا ومنته الواصلة إليه وإلينا وصدق موالاته واتباعه لما أمر الله به من سبيلنا بمقتضى الدليل السابق، استخرنا الله عزّ وجلّ وجعلنا له ولاية صحيحة شاملة كاملة يصدر عنها إن شاء الله ويورد ويحل ويعقد في الدعاء إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الجمعة والجماعات، وتشييد مباني القربات والطاعات، ونصب حكام الشريعة المطهرة لفصل الخصومات وتفقد ما يجب تفقده من نصح المسلمين ومرافقهم وضعفائهم ومساجدهم. . .» إلى آخر هذه الرسالة الهامة.

وكانت رسائل سلطان الهند المسلم تصل مراراً إلى الإمام المتوكل إسماعيل حيث يشرح له فيها أخبار دولته ومناهضته لملوك الكفار المحيطين بناحيته، وقد حواها كتاب المؤرخ الجرموزي في سيرة المتوكل على الله إسماعيل وغيره.

ثم إن الدولة أرسلت وفداً من قبلها إلى الهند برئاسة الفقيه محمد الخولاني فوصل إليها وقد أدهشه ما فيها من عجائب وغرائب، وعند عودته إلى اليمن أخذ يحدث بما شاهد، من ذلك استغرابه لكثرة أهلها(وأن دار السلطان في مساحة صنعاء في الكبر، وديوانه نحو الميل، وأنه تزوج في ليلة واحدة من البانيان في عيدهم أربعة آلاف نفر من الأغنياء مع كل نفر منهم نوبة (فرقة موسيقية) وفيها ـ أي الهند ـ أصنام كثيرة ينفق عند كل صنم كل يوم أموال جزيلة وينذر لها الناذرون بالخمسين الألف، وأنه مات وزير للسلطان وهو هنالك فكان من جملة مخلفاته أربعمائة فيل، يأكل كل فيل في الليلة الواحدة زبدي أرز وبُر وأن السلطان دخل إلى (لاهور) من مدينة (مجنباذ) فتقدمه المتقدمون بشهر وتبعه المتأخرون بشهر، ثم كان الداخل معه بعد ذلك فوق خمسين ألفاً، وقال الخولاني المذكور (لولا أنه موكل به خمسة وعشرون نفراً لفتك الناس به هو وجماعته يوم دخولهم على السلطان وهلكوا، ولما أمكنهم أن يدخلوا أبداً لكثرة الناس).

إلى آخر رحلة الخولاني العجيبة إلى الهند وكانت هذه البعثة قد أرسلها المهدي أحمد بن الحسن من عدن قبل توليه الإمامة.

وقد صور لنا الأدب اليمني الكثير من صلات اليمن بالهند، من ذلك إشارة الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال إلى هدايا صاحب الهند إلى الإمام الناصر محمد بن أحمد يقول شعراً:

تظل الملوك الصيد في ظل بابه	إذا مد يمناه لها تتزاحم
وتهدي عظيماً من نفائس أرضها	وتأتي على قدر العظيم العظائم
فهذي هدايا الهند حطّت بسوحه	وأنف الحسود الفظ في الترب راغم
وفيها من الأنواع ما لا يحده	بحدٍّ ولا يحصيه بالعد ناظم

رابعاً: علاقات مع دول أخرى:

عمان: أظهرت عمان في الفترة التي صاحبت القرن الحادي عشر بطولة فائقة، في التصدي لغزوات البرتغال المتكررة على سواحل البحر، فكانت خير معين لليمن في هذه المهمة الشاقة، ولهذا فإن اليمن كانت تحسن إلى عمان لأجل عملها الكبير في هذا المضمار، وقد دفعت إليها مدفعين بغرض الدفاع ضد البرتغال. وفي رسالة بعثها سلطان عمان سلطان بن سيف اليعربي سنة ١٠٨٠ إلى الإمام المتوكل على الله إسماعيل يقول فيها: «وإن سألت أيها المحب عنّا ورمت كنه كيفية الحال، فأنا بحمد الله في حال يسر الودود ويساء له الحسود، ثم لتعلم أيها الملك المبجّل والسيد المجلل أنه قد وصل إلينا ـ في مدة أيام قد تصرمت ـ رجل من جنابكم يزعم أنكم أرسلتم بيده طروساً غير أنه يقول إن المركب الذي أقبل فيه غرق في اليم، فأدرك الطروس المسطرة حكم التلف، بيد أنه قد تناهى إلينا من نتائج لسانه أنكم علينا ومنا واجدون، لأجل قطع خدامنا في العام الماضي للمشركين (البرتغال) على بابكم، وأخذهم لسفنهم القاصدة إلى جنابكم ولعمري أنّا ندري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء، غير أنه يجب عن اقتراف المحارم، أما نحن فلم نسلك إلى ارتكاب ذلك سبيلاً إذ كنا لم نجهز مراكبنا ونحشد مخالبنا لسيارة رعيتك، ولا لاستباحة أهل حكمك، لكن جهزنا الجيوش والعساكر لتدمير عبدة الأوثان تعرّضاً مِنّا لرضاء رب العالمين، وحَاشى مثلك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام وأعداء الله

والإسلام، وأنت تدري ما جرى بيننا وبينهم من قبل في سواحل عمان، وفي سائر الأماكن والبلدان، من سفك الدماء، وكثر الصيال، وإنّا نأخذهم في كل موضع تحل به مراكبهم وتغشاه.

ولا زالت المكاتبات والرسائل متبادلة بين سلاطين عمان وأئمة اليمن حتى أوائل القرن الثالث عشر حيث نقف على رسالة بعثها سلطان عمان أحمد بن سعيد إلى عامل المخاء يشكو فيها أموراً أحدثوها في الميناء تتعلق بالتجار يقول:

«لتعلم أيها الرجل العاقل أنه اتصل بمسامعنا من رعايانا المترددين، إلى بنادر اليمن ممن يتكسب بالتجارة، بأنه أبدع عليهم بدعاً عديدة بعضها في بندر الحديدة، وبعضها في بندر المخاء، وكنا في شغل الجهاد لأعداء الله من الطائفة الإفرنجية محتفلين بتجهيز الأجناد في جانبيْ البحر والبر، واستطالت المنابذة في العامين الأولين حتى مَنَّ الله تعالى علينا بالنصر والظفر، فأخذتهم جنودنا المنصورة أخذةً رابية، ولم يبق منهم في البحر ولا في البر باقية، إلى آخر رسالة السلطان.

فدلت هذه الرسالة على صلة تجارية قوية بين البلدين.

إيران: وهي المعروفة في كتب التاريخ بخراسان، وكانت لها مع اليمن صلات حميدة في الفترة التي نتحدث عنها !وكثيراً ما جاء الرسل من قبل ملوكها إلى صاحب اليمن وقدموا التحيات والهدايا، وفي عهد المتوكل على الله إسماعيل سنة ١٠٧٤، وصل إليه من خراسان وفد من قبل ملكها الشاه عباس شاه الحسيني (فأكرمهم الإمام وأعطاهم من نفائس هدايا اليمن ما يليق بأهل تلك النواحي)[١] وأصحبهم رسالة إلى ملكهم جاء فيها:

«فالتواصل على مثلنا ومثلكم واجب وإن تناءت الديار والتراسل الذي جعله الله قائماً مقام التلاقي، لازم وإن بعدت الأقطار».

وفي عهد الناصر محمد بن أحمد وصل إلى اليمن سنة ١١١٣هـ وفد كبير من

(١) تحفة الأسماع «خ»

قبل ملك إيران الشاه حسين بن سليمان بن عباس، وموجب وصولهم ما وجدوه مكتوباً في ضربة الإمام الناصر والمهدي «فإنها طارت في الخافقين»[1]، فأرسل الشاه وفده لتبيين حقيقة صاحبها فقابلهم المهدي في المواهب ودخلوا عليه بأبهة عظيمة تدل على ضخامة مملكتهم، وكان بصحبته فريق من الموسيقيين، يقول صاحب (طيب أهل الكساء): «فدل هذا على قوة سلطانهم ورفاهية عيشهم والخصب بأوطانهم، وكان الإمام أمر بتزيين المداين عند تعريجهم عليها، وألزم العمال على طريقهم بإكرامهم في كل محلة دخلوا إليها، ولما وصلوا إليه أنزلهم بالجناب واختصهم بالقرب، ونوع لهم في الضيافة، وأمر من يتلقاهم عند دخولهم المواهب بالأعلام والطبول».

وقد صور هذه الحادثة الشعر اليمني فقال الأديب أحمد بن أحمد الآنسي المعروف بالزنمة مخاطباً المهدي:

فذا اليمن الميمون دانت له الدنا ... بمسطورها وشخص التشيع عنوان
فهذا قزل باش الذين نماهم ... من الفرس في أبنى الممالك إيوان
تقاذف أمواج البحار بجيشها ... وطاف عليها للطوائف طوفان
وسم فارس من فارس جاء قاصداً ... لسابقه في حلبة السبق ميدان
ورب وزير عن شهٍ شاه قد أتى ... إليك وكم للشاه تخدم فِرزان

ويقال إن رئيس هذا الوفد أعجب بديوان الهبل فأصحبه الإمام نسخة نفيسة إلى ملكهم مع جملة الهدايا.

الأحساء والقطيف: وصل إلى الإمام المتوكل إسماعيل سنة ١٠٧٣ وفد من قبل صاحب الأحساء والقطيف يطلب منه أن يبعث إليه بمرشدين في الدين وداعياً يدعو إليه، فبعث إليهم بالفقيه أحمد بن ناصر الحيمي لهذا الغرض وكتب معه رسالة إلى صاحب تلك الجهات وكان قبل هذا قد وصل إلى مقام الإمام سنة ١٠٥٩ مندوب من صاحب الأحساء فجهزه الإمام بهدية إلّا أنه توفي في الطريق

---

(١) طيب أهل الكسا «خ»

بمدينة شهارة، ثم وصل بعده مندوب آخر هو الشيخ راشد بن ذريح فَحَمَّلَه الإمام كتباً إلى ملكه، تعرب عن الصداقة.

التكرور: من بلاد السودان وقد كتب حاكمها رسالة إلى المتوكل إسماعيل. يقول الجرموزي في وصف رسالته وفيها تكلف بالعربية وليسوا منها في شيء ويشبه خطها الكوفي يقول في الرسالة:

«من الأمير الزاهد العابد مبتغي رضوان الله في كل وقت وحين، الحاج علي بن الملك الحاج عمر كان الله ولياً إلى محبنا على البعد والقرب السلطان صاحب اليمن عليه السلام ورحمة الله وبركاته، فها تعرف أن جدناواحد هو الملك سيف ابن ذي يزن وتُبّع الحميري، فلذلك أرسلت إليك أن المرء بينه وبين أقربائه إن لم يره فكأنه يراه فنحن ندعو إليك وكذلك أدع لنا فنحن كنا في بلادنا على حكمنا في البر والبحر بأمر الله ربنا تبارك وتعالى إن جدنا في الأصل واحد، لكن كبراءنا يتنقلون إلى هذا البلد منذ **نوح**، فاعلم أن بيننا وبينك مودة وقرابة لا غير والسلام. ويكتب الخط إليك في داخل مكة من بيت الله الحرام وبين مكة وبلادنا مسيرة سبعة أشهر وهديتك الخادم المليح، إن شاء الله سيصل إليك لا غير والسلام».

فهذه الرسالة إلى الإمام المتوكل إسماعيل تدل على بساطة أهل تلك البلاد الذين أرادوا عقد صلات حسنة مع اليمن.

وقد أجاب عليه الإمام المتوكل إسماعيل برسالة طويلة قال فيها في آخرها:

«وقد وصلنا ما وصلتمونا به من الخادمين وصدر إليكم ما هو إن شاء الله أخذاً بالسنّة النبوية زادها الله شرفاً من الهدية التي تكون بين الأخوين إن شاء الله ونحن بحق الأخوة قائمين».

وهكذا نجد اليمن في فترة القرن الحادي عشر قد حاولت عقد صداقات مع سائر بلدان العالم المسلم في ذلك الوقت.

البرتغاليون: شكل البرتغاليون على سواحل البحر الأحمر قوة خطيرة تهدد البلدان المطلة على تلك السواحل وكانت اليمن على رأس تلك البلدان. حيث امتدت في أكبر رقعة من تلك الشواطيء، لهذا كان اليمن عرضة لتهجمات

القراصنة البرتغاليين. وقد اتسم موقف اليمن في تلك الحملات بالضعف والركة، وذلك لعدم مراسهم بالحروب البحرية، فكان تمركز البرتغال في بعض القواعد البحرية علامة من علامات القرن العاشر وما بعده في تاريخ اليمن.

وكان دافعهم الأول في حركاتهم العسكرية تلك، هو الحُصُول على مكاسب تجارية بمعاملتهم مع أسواق الهند، ونقل بهارات تلك البلاد لبيعها في أسواق أوربا بأرباح كبيرة.

حتى كان ازدهار الأسطول البرتغالي على سواحل البحر دافعاً رئيسيّاً لغرض السيطرة التركية على اليمن حتى لا يهدد وجود تلك الأساطيل سلامة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة.

إلّا أنهم بعد خروج الأتراك من اليمن قد قاموا بحركات كبرى على سواحل البحر الأحمر، فتصدت لهم البحرية العمانية بأبطالها الأشاوس، فطاردوهم إلى قلاعهم في الهند وكان للسلطان سلطان بن سيف اليَعْربي الفضل الكبير في هذا العمل العسكري.

وهذا لا يعني أن اليمن وقفت موقف المتفرج، بل نجد لها مشاركات في صد تلك القوى الباغية.

ففي سنة ١٠٥٢ تقطع جماعة من البرتغاليين في البحر الأحمر للمارة فجهز إليهم أمير اللحية جماعة من الرجال من أولي الفتك والممارسة للحروب، فقبضوا عليهم وأرسلهم الأمير إلى الإمام فعرض عليهم الإسلام وهم زهاء سبعين نفراً فأسلموا، ففعل فيهم شعار الإسلام وهو الختان.

وفي سنة ١٠٦٢ تحرش جماعة من البرتغاليين بسفينة عابرة وقتلوا كل من فيها، فلما علم أمير اللحية النقيب سعيد المحربي ونائب المخاء الرئيس محمد ابن أحمد، أخذوا عليهم المسالك وحاصروهم حتى استسلموا فوصلوا بهم إلى بندر المخاء فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فأعملوا فيهم السيف فقتلوهم عن آخرهم وهم زهاء سبعين رجلاً.

وفي سنة ١٠٧٣ خرج جماعة من البرتغال من سواحل الهند في ثلاثة أغربة وأرادوا غزو عدن، فجرت بهم الريح إلى المخاء، فلما علم حاكمها الأمير زيد بن علي الجحّافي، جهز إليهم قوة ضاربة فقابلتهم في البحر وجرت معارك هائلة بين الفريقين وكادت الدائرة تقع على البرتغاليين لولا أنهم دبروا لهم حيلة، وهي أنهم أرسلوا قذائف نيرانهم على مخازن البارود في سفينة المسلمين فانفجرت بهم وغرق أكثرهم والبقية قتلوا وبعضهم أخذهم البرتغاليون أسرى إلى ملكهم في البرتغال.

وتكثر مناوشات البرتغاليين البحرية من حين لآخر، وقد قصدوا بندر المخاء سنة ١٠٨١ بعد أن أنذروا حاكمها الأمير الحسن بن المطهر الجرموزي بالحرب، لأنه لما وقعت الحرب بينهم وبين صاحب عمان، سلك معهم مسلك التواني، ولم يؤيدهم عليه، ولهذا فإنهم إليه قاصدون، ثم إنهم توغلوا في البحر حتى يقوم بمطاردتهم ثم ينعطفوا عليه فبقي الأمير يهادنهم بالمال حتى اجتمع لديه جيش كبير واستطاع أن يدمر فلوهم ويرغمهم على التقهقر إلى مواطنهم.

وأخبار البرتغاليين كثيرة على البحر الأحمر وقد أوردها كل من أرّخ للقرن الحادي عشر، ولم تكسر شوكتهم إلا بعد أن ظهرت قوة أوربية كبيرة من الإنجليز والفرنسيين، واستطاعوا احتلال بعض المدن والكف عن القرصنة البحرية (وحول البرتغال في اليمن خلال هذه الفترة يراجع بحثنا المنشور سنة ١٣٩٤هـ).

الدّولة في النّقْد السّياسي

أصبح لليمن بعد خروج الأتراك منها كيانها الكبير في العالم الإسلامي وقد مثلت قوة كبيرة جمعت حولها ألفاف الشعب في دولة واحدة على مختلف أصقاعهم، وهو أمر لم يحدث في التاريخ بصفة حقيقية إلاّ في عصرنا هذا.

إلاّ أن للاستقلال مساوىء كما كان له حسنات، وأشد مساوئه هذا التطاحن والتنافس الذي يحدث بين هواة المناصب والولايات، وعلى الرغم من أن الحكم هنا لم يكن وراثياً إلا أنه قد وقع صراع كبير بين كل من رأى في نفسه أهلية لتولي الحكم، ولم ينحصر الصراع على أولاد الخليفة المتوفى وحدهم بل تعداهم إلى غيرهم، وهكذا كان أكبر ما جرى في التاريخ خلال هذه الفترة، كان سببه ما ذكرناه.

وربما أذكى النزاع في كثير من الأحيان أطماع شخصية من قبل بعض الناس، حتى قال صاحب (رياض الرياحين) في عبارته المحلية:

«كل من لقي له سيد فعله إمام من جانب أنهم يشتوا دواليب خلفاء من بدعها ويجنبوا بما يقوم بأوده».

وقد كان من نتيجة تكرار التنافس على الحكم أن أصبحت البلاد عرضة للفوضى وثورات القبائل التي تكون في الغالب تحت ظروف قاهرة، وقد شهد آخر القرن الثالث عشر الكثير من ذلك، وصور لنا بعضاً من ذلك صاحب تاريخ

رياض الرياحين فقال:

«إنها أمور طويلة من تغلب أهل الفساد على الدولة في كل بلاد وتربشت الأمور، وقطعت الطرق ولم زد بقي للإمام دخل إنما تارة يدور ما عاد في الخزائن، وتارة يخرّج من ملكه دفعاً عن عرضه فما أظن ما نحن فيه خمسة وأربعين سنة إلا سبب هؤلاء في كل سنة إمام، وكل أحد يذهب ما عاد بقي من بيت المال، ما خلف السور».

تلك حالة القرن الثالث عشر وهو عصر التنافس على الزعامة والأخطار المحيطة بالبلاد من خارج ومن داخل.

وكان كثير من العقلاء قد أسدوا النصيحة لبعض هواة الحكم، ونسمع من ذلك ـ مثلاً ـ ما كتبه العلامة الحسين بن أحمد زبارة المتوفى سنة ١١٤١هـ إلى الإمام محمد بن إسحاق يثنيه عن عزمه في الدعوة إلى نفسه وتسليم الأمر لخصمه حقناً للدماء: (إنها عرضت لي نصيحة وأرجوها إن شاء الله صحيحة فقد عرفتم أن الدين النصيحة وذلك أنه لا تخفى على مولاي ما أهل الزمان عليه من التكالب والأطماع، وأنهم لا ينصرون الحق بالنفوس والأموال، وإنما هَمُّهم تحصيل الحطام وقلوبهم معك وسيوفهم عليك بلا كلام. وهذا الذي قد قام عنده ما لا يخفاكم من الذخائر والأموال والسلاح والكراع والرجال وقد تهيأت له الأسباب كما لا يخفى على ذوي الألباب ولا يتم لكم ما تريدون إلّا بسفك الدماء، وزعزعة الدهماء، وانتهاك الحرم، والترويع للنساء والأطفال، وقد عرفتم ما حصل مع والده من أجل حراز ونحوها، وما انتهب من أموال، وما قتل من رجال، وما حصل من الترويع والإفزاع، وآل الأمر إلى الصلح لترك النزاع، على أن بعض الشر أهون من بعض فإن تعرفوا أنه يتم لكم الأمر من دون ارتكاب عظائم وأهوال، ويكمل على أحسن حال، فهذا والله الذي يحبه ويرضاه وإن تعرفوا أنه لا يتم إلا بسفك الدماء وزعزعة الدهماء استخرتم الله سبحانه، ونظرتم ما هو أصلح لكم وللمسلمين).

فهذا نموذج مما كان يهمس به في آذان الراغبين في الحكم والمنافسين عليه

وكان أكثر الانتقاد يدور حول هذه المسألة.

وربما جاء ذلك النقد بمحض النصيحة والرغبة في الإصلاح فهذا العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١٠٩٢ حينما يقف على كتاب «نفخ الصور بذكر آل القاسم المشهور» وهو أرجوزة كبيرة يبعث إلى مؤلفها العلامة يحيى بن أحمد العباسي يطلب منه نصح من مدحهم فيقول:

غير أني وددت أنك توصي ... سادتي بالتقى ونظم الأمور
واصطبار على الشدائد في ... الدين وتدبير حالة الجمهور
مثلما كان من مضى من قديم ... من جدود لهم سوامي القدور
قل لهم يذكرون حشراً ونشراً ... ومماتاً بمظلمات القبور
والمساكين ينظرون المهما ... ت لهم ولا يحجبون بسور
والصلاة الصلاة بالذكر والفكـ ... ـر وبالستر ضافياً والطهور
يلزمون الورى بها ويصيـ ... ـبون نكالاً بتارك المأمور
تقمعون العصاة في كل فج ... بالمواضي وكل رمح خطور
وإذا الإمام نام لسهو ... ذكروه فذاك أي ذكور

وتكثر نصائح الأدباء في هذا الباب فمن ذلك قول محسن بن عبدالكريم المتوفى سنة ١٢٦٦ إلى المهدي عبدالله المتوكل:

مولاي إن مدار أمرك كله ... وملاك شانك دقه أو جله
إصلاح نيتك التي هي مركب ... للمرء تبلغه نهاية فعله
إن الذي خلق الخلائق كلها ... أعطاك كل فضيلة من فضله
ودعاك واسترعاك في هذا الورى ... لتكون عنه خليفة في عدله
فاسلك بهم سبل السداد وربهم ... بالعدل تربية الكبير لطفله
وانظر لتولية الأمور مكملاً ... فإذا وقعت على الخبير فولِّه
واستدن من شهدت مخايل سمته ... بصلاح سيرته وغاية نبله

ومن النقد ما وجه لأغراض سياسية وهذا ما نجده عند المعترضين على الحكم حيث يكون نقدهم ذاك هو المبرر لثورتهم على هذا الإمام أو ذاك الحاكم، ومنذ

عصر المتوكل إسماعيل نجد كثيراً من هذه الاعتراضات قد ملأت الآفاق، وقد أرّخ بعضها بالسنين فقال صاحب «طبق الحلوى» في حوادث سنة ١٠٦٠ «وفيها وصلت اعتراضات على الإمام من السيد صارم الدين إبراهيم بن محمد المؤيدي، وتولى جوابها الإمام يحيى بن أحمد الشرفي وشهاب الدين أحمد بن أبي الرجال».

وهذه الاعتراضات في عمومها تبين نوعاً من النقد السياسي لتلك الفترة وقد وصلت إلى الإمام المتوكل إسماعيل اعتراضات تطعن في سيرته وتتهمه بأمور منها: تعطيل باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها أخذه من الرعية بعض الأموال للدولة في تجهيز العسكر، ومنها تمكين الأقارب من الأموال والأسباب، ومنها أن أموال الجزية من اليهود وخراج عدن وهو مبلغ كبير لا يصرف في مصرفه، إلى آخر هذه الاعتراضات، وقد أجاب عنها الإمام المتوكل بكتاب حافل عنوانه (شفاء الصدور عن أقوال الزور) وكذلك بعض علماء عصره كالعلامة أحمد بن سعد الدين المسوري، وأحمد بن أبي الرجال وغيرهما.

وعلى كل فإن هذه الانتقادات لا تخرج عن بضعة أمور أجملها الداعي محمد بن علي الغرباني المتوفى سنة ١١٢٦ في انتقاده للإمام المؤيد محمد بن علي بن إسماعيل وذلك بعد أن ضمنها قصيدة قال فيها:

وإن تجيبوني جواباً مبرما ... ليس ملعثماً ولا مجمجما
هل سيرة النبي أسمى من سما ... صلى عليه ربنا وسلما
حق مبين باذخ البنيان

أم باطل وهل على الولاة أن ... تشيرها في الناس سرّاً وعلن
غير مبالين بمن حن وإن ... رام أن يخرج منها عن سنن
ما اختلفت دوائر الأزمان

أو ما عليهم أن يسيروا فيهم ... إلّا على وفق الذي يرضيهم
أيضاً ويرضى كل من لديهم ... من الألى قد ركنوا إليهم
من همج الولاة والأعوان

وما بـه لملكهم دوام حتّام لا يهضم أو يضام
ولا يناويه فتى همام وعزة تعنو لها الأيام
وإن يكن مصادم القرآن

كمثل إعطاء القوي المكثر وترك إعطاء الفقير المقتر
وخفض ذي الرفع الكريم الأخطر ورفع ذي الخفض المهين الأحقر
والعزف في الغواني والمغاني

والمكس في أسواق كل بلدة من عدن ومن وراء صعدة
والشحر أو أدنى خليج جدة لبائع ومشتري ذي شدة
وميسر وضارب وجاني

إلى آخر ما جاء في اعتراض الغرباني وهو ينقدهم في التفاخر بالبنيان، وتولية المبطلين من القضاة، وتكريم الأقوياء وإذلال الضعفاء، وإحداث المكس والضرائب إلى غير ذلك.

هناك صيحات مخلصة ترددت بين أوساط الناس من قبل رجال من المصلحين، أرادوا الإصلاح لذاته، وتسوية الأوضاع، وربما تعالت صيحاتهم على أثر ما يرونه في بعض الأحيان من فوضى وانفلات في الأمور.

وكان أكبر عوامل النقد للدولة، هو بسبب ثورات القبائل المتلاحقة، فهذا الشاعر علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥، يجد قبائل يافع قد دخلت البلاد فيبعث بقصيدة إلى الحاكم يقول فيها مبكتاً:

نام الخليفة عن أرباب دولته وقطعت كيلات القوم والعدد
وزين القوم تأسيس المكاس له وصيّروا همهم في المكس واجتهدوا
فاستحسن المال والأكياس واطرحت تلك الجنود وتلك الخيل والعدد
فأقبلت يافع والأرض فارغة ومالك الأمر والأعوان قد رقدوا
واستأصلوا جملة الأموال وارتحلوا والنار في مهجة المهدي تتقد
وأصبحت إب من دون البلاد كأن لم تغن بالأمس والأقطار ترتعد
والناهدات ذوات الحسن قد فقدت وقسمت ما يرى في أهلها النهد

وهكـــذا من أضـاع الجنـــد متكـلاً		عـــلى وزيـــر لئـيـــم رأيـــه نـــكـــد

فهنا النقد المباشر بسبب إهمال شؤون الدولة وعدم تفقد الجند، ونسمع في حادثة أخرى سنة ١١٤٥ كثيراً من القصائد النقدية تدعو إلى تصحيح الأوضاع وكان من أشهرها قصيدة العلامة محمد بن إسماعيل الأمير التي يقول فيها :

في دولـة الملك المنصـــور كم هلكت		بـــنـــادر ومخـــالـــيـــف وبـــلدان
في الشرق والغرب منها والتهايم بـل		والبحر قد ضاقهم في البحر حيتـان
لا تنس (قعـطبة) إن كنتَ ذاكـرهـا		فقـــد أبـاح حمـــاهـا قبـــل قحـطان
كذا المعاقل من (دمت) ومن (جبن)		ولحـج طـاف بها للحـرب طـوفـان
والبنـدر البنـدر المشهـــور من عـدن		سـارت بـأخبـاره في الأرض ركبـان
وهـل نسي أحد (بيت الفقيـه) وقـد		ضـجّـت بـأخـبـــار يـــام فـيه آذان
كم من عـزيـز أذلـــوه وكم جحفـوا		مـالاً وكم سبيت خـــود وصـبيـــان
ودع حفـاشـاً ومـــوراً والضحى ولا		تـذكـر حبـوراً ومـا لم يحص إنسـان
فـالنظم يعجـز عن حصر لما دخلت		من المـواطن في أخبـار قـــد كـانـــوا
فيـا بني القاسم المنصـور قـد سلبت		عـليـكـم المـلك أعــراب وبـــدوان
لم يبق من مجـدكم إلا القصـور لكم		بهـــا جـــوار وديـبـــاج وعـقـــيـــان
أو المــزامـــير تـــتـــلى كـــل آونـــة		كـــأنهن وحـــاشى الـــذكـــر قـــرآن
أو الثيـاب عـلى الأبـدان صـار لكم		في كـل حـين عـلى الأبـدان ألـــوان
بمـــال كـــل ضعيف من رعـــيتكـــم		فـــما يقام لكـــم في العـــدل ميـــزان

ثم يعرج في هذه القصيدة النقدية إلى الخلاف بين الأمراء من المتنافسين على الحكم فيقول :

والآن صـرتم عِـدا في ذات بينكم		كـــل لـــه قـــطعـــة قفـــر وعمـــران
وكلكم قـــد رقي في ظلم قـــطعتـــه		مـــراقيـاً مـــا رقـاهـــا قبـل خَـــوَّان
فـــما الإمـــام مـــلام في رعـــيتـــه		بـــل الجميـــع ســـواء فيـــه أعـــوان
فقـدمـوا العـدل والإنصـاف في أمم		قـد طـال منكم لهم ظلم وعـــدوان
ثم أصلحـوا بعـد هـذا ذات بينكم		واستنصحوا وانصحوا من خين أو خانوا

إلى آخر ما جاء في قصيدة ابن الأمير، وهي في عمومها، تشخص الداء الذي أصاب الدولة في ذلك الوقت من تنافس على السلطة وتفاخر بالأموال، وترك الرعية نهب الأقوياء منهم .

ونطالع في شعر القرن الثالث عشر كثيراً من التذمر السياسي الذي دعا فيه أربابه المسؤولين إلى النظر في حالة الناس بعد تغلب القويّ على الضعيف، ونسمع من ذلك شعر الأديب يحيى بن المطهر بن إسماعيل المتوفى سنة ١٢٦٧ :

شكوى البلاد ومن فيها من الفقره ... والشيخ والطفل والفجار والبرره
شكوى الرعية والأنعام أجمعها ... ما طبق السمع من ذا الخلق هل وقره
من الزمان إلى العَلّام ثم إلى ... بعض الأنام وها هم قد رأوا غِيَره
حتى المداين فيها الظلم متسع ... عَمَّ الفساد فهل من مبتغ خبره
إجْماله يقتضي التفصيل فاسمعه ... أو كنت تدريه تفصيلاً فخذ أثره
والقصد أبعاض ما أدريه لست أرى ... جمع الذي كان حصراً فهي مكتثره
والسيل يحدث أحداثاً وأوله ... قطر السحاب التي في الأفق منتشره
فكيف ذا في شهور بالضعاف وهل ... من منجد غير من يرضى بما ظفره
إن قيل هم دون عمال أخف فذا ... مبالغ إن والى الجور قد نشره
يسر ما جرح الباغي ويشكر كَيْ ... يرثي وكم عامل مظلومه حذره
هم أشد ولكن لا اختلاف لهم ... كم عامل قتل الشاكي وقد أسره

إلى آخر هذه القصيدة الناقمة على الإمام أفعالاً قبيحة وهي تدخل ضمن النقد السياسي المباشر، وفيها كثير من التفاصيل والوقائع وقد أضربنا عنها لتوخي الاختصار.

وقد شاركه في استنكاره ذلك جماعة من أدباء القرن الثالث عشر منهم الأديب محسن بن عبدالكريم المتوفى سنة ١٢٦٦هـ يقول في قصيدة مخاطباً أحد الولاة :

أما ترون أمور الناس قد ... والحق أصبح بين الناس مظلوما
والأخذ والنهب حتى في مداينهم ... كأنهم لم يروا فيا لنهب تحريما
والطرق تقطع والأموال ذاهبة ... ولا ترى بأمور الناس مهموما

وأصبح الناس فوضى لا عقيد لهم نرى به أمر هذا القطر منظوما

ومن النقد السياسي ما نجده قد مال إلى العيب على الحكام في ذلك الوقت في بذخهم وترفهم في المعيشة فنسمع من ذلك قصيدة علي بن صلاح الدين المتوفى سنة ١١٩١ التي يقول فيها:

ألَا أبلغا أهل البداوة والقرى ومن سار في حرّ الهجير ومن سرى
فقد مات دين المصطفى في زماننا ولم نر محزوناً عليه فيعذرا
أباهلكم هل كان دين محمد يساوي الذي تأتونه الآن منكرا
وهل كان في أبياته كبيوتكم مفارش حاكوها لكسرى وقيصرا
وهل قد حشا الحياك نسجاً له أتى من الهند مصبوغاً كما الروض نورا
وهل جمعتِ أبياته مثل دوركم وسايد ديباج تروقك منظرا
وقد وشيت من فضة ذهبية طرائف فيها للحياة مصورا

إلى آخر ما جاء في هذه القصيدة الناقدة وهو نقد يذم مسلكهم في الترف، وهذا النقد لا يطّرد مع بعضهم.

ومثل هذا النقد نجده عند الأديب الحسين بن عبدالقادر بن علي بن الحسين ابن المهدي المتوفى سنة ١١٩٨ يقول:

يا ناصح القوم قد أبلغتهم حججا فما وعتها من المنصوح آذان
لأنهم شغلوا عنها بزخرفة حوت أعاجيبها دور وحيطان
مات الذين إليهم سقت موعظة والتابعون لهم دانوا كما دانوا
وأحدثوا في الملاهي كل نادرة غريبة ضمها الموسوم (بستان)
شادو صوراً وفيها من مفارجهم ملاعب ما رآها قط إنسان
وكم عماير في (صنعا) مزخرفة ووسطها من صنوف الوشي ألوان
وكم طبالات خيل إنّما ربطت للفخر ملبوسها الديباج أفنان
قد استبدوا ببيت المال أجمعه وأخذه من ذوي الإسلام عدوان

وهكذا يمضي شعر الأديب الحسين بن عبدالقادر ثائراً مزمجراً حيث يرى أن

---

(١) جمع اصطبل. معروف

الدولة قد تفننت في إشادة القصور والدور، ولم يهمها من أمر الناس سوى تملّك خيراتهم .

وكان الشوكاني واحداً من أولئك النفر الذين خاضوا معمعة النقد السياسي وقد شاهد فترة الانفلات التي شهدها حكم الإمام المنصور علي بن العباس المتوفى سنة ١٢٢٤ في أواخر أيامه فقال ناصحاً وناقداً :

نداء لك الناس فالأمر أعظم   وإن أمير المؤمنين المقدَّم
فأمر جميع الناس في كل موطن   إليه ومنه العقد والحل ألزم
ونادبني المنصور قاسم الذي   بنى لهم مجداً يجلّ ويعظم
وناد رجال العلم جهراً فإنهم   بما جاء في كتم البيانات أعلم
وناد رجال الطعن والضرب كل من   له عند يوم الروع طرف ومخذم
وقل للذي ناديت من كل فرقة   أفي يقظة أم أنتم اليوم نوَّم
وما لكم غفل إذا كان دينكم   به طار ما بين البرية قشعم
أما لكم فكر فكل مفكر   يؤخر رجلاً فيكمْ، ويقدم
فحيناً رموكم بالجنون وتارة   يرونكم في سكرة تتغمغم
وكم قائل قد صرتم مثل آلة   يقلبها في كفه الدهر أبكم
وآخر قال الأمر أدبر عنكم   فدبَّرهم من ليس للرشد يفهم
وكم قد أطالوا القول في ذا وإنه   حقيق بأن القول فيه يعظم
وأصدق من هذا وأولى بأنكم   تركتم أموراً وهي أَوْلى وأحزم
فأولها لم تقبلوا نصح ناصح   يرى أنه فيها ينوب المقدم
وثان لها قدمتم في أموركم   غبياً إذا شدتم بناء يهدم
يحل أموراً محكمات عقودها   وفي كل حين رأيه يتصرم

وفي هذا النصح يرجع الشوكاني بلائمته على وزير الإمام في عدم تدبيره الأمور فيقول :

وكم أوحَشت أفعاله صدر مخلص   يدافع غيظاً في الجوانح مبرم
بنادر كم فيها جمود وهذه   زبيد وحيس والرزية أضخم

إلى آخر نقد الشوكاني .

حيَـاة المجْـتمع

شكل سكان المدن صورة المجتمع الحضاري لأهل اليمن في القرن الحادي عشر وما بعده. وكان الناس في هذه المدن، هم نفوذ الدولة وسيطرتها الحقيقية على الشعب، فالناس هنا قد انطبعوا على طاعة الدولة، وهي عادة قد لا نجدها عند سكان الأرياف إلا في القليل النادر. لذلك قال الشوكاني وهو يحلل طوائف المجتمع اليمني في عصره: (القرن الثالث عشر وما بعده):

«انقلبت إلى النظر في الأسباب الموجبة لنزول المحن وحلول النقم من ساكني هذا القطر اليماني على العموم من دون نظر إلى مكان خاص أو طائفة معينة فوجدت أهلها ما بين صعدة وعدن ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول ـ رعايا يأتمرون بأمر الدولة وينتهون بنهيها، ولا يقدرون على الخروج على كل ما يرد عليهم من أمر أو نهي مهما كان.

القسم الثاني ـ طوائف خارجون على أوامر الدولة متغلبون في بلادهم.

القسم الثالث ـ هم أهل المدن كصنعاء وذمار وهم داخلون تحت أوامر الدولة ومن جملة من يصدق عليهم اسم الرعية»[1].

إذن فالمجتمع هنا ينقسم في حقيقته إلى قسمين قسم خاضع للدولة قابل

(١) أنظر هذا النص في كتابنا «دراسات في التراث اليمني»

لكل أوامرها، وقسم لا يصدق عليه حكم الدولة وهم في الغالب سكان الأرياف النائية.

والناس في المدن أهل دعة وسكينة وقد انخرطوا في أعمالهم ووظائفهم وربما ضعفت حالتهم المادية حسب تقلب الأحوال من شدة ورخاء. وفي أيام الحروب وقلة الأمطار تصبح المعيشة في المدن أمراً لا يطاق فيفر الكثير منهم إلى البوادي ويكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وقد صوّر لنا الأديب يوسف بن يحيى المتوفى سنة ١١٢١ بؤس أهل المدينة فقال في أرجوزة يصف حالة أهل صنعاء في بحثهم عن المعيشة لهم ولحيواناتهم:

وإن ترج في سفح صنعاء للعلف	أشبهت من يبغ اللآلي بالصدف
التبن في العزة مثل الكيميا	يناله من حاز علم السيميا
فمن تموت فرسا أو عيرا	يقصيها ثم يسير سيرا
وإن يكن في ملك شخص بقره	لبطنها من التراب قرقره
إن أبصرت في دهرها قوس قزح	كادت تطير نحوها من الفرح
تحسبها وسط السماء قضبا	لكنها لا تستطيع الوثبا
صاحبها يعدها خزانة	وأستها في البيت «جب خانه»
لأن ما يجمع من أشياها	تجعله المرأة في «جباها»
تعده لخبزها وقيدا	من بعد ما تعصده عصيدا
وإن غدت «واردة» للماء	خافت عليها سارق الخراء
هذا الذي جرى بما هو العجب	وإنما يظلمها سوق الحطب
فإنه من عزة كالمندل	بالشقرى النذل أو من حنظل
وإن قصدت اللحم في باب اليمن	وجدت ذا القرنين عزى ذا يزن
في حلقه «حويدر» والراعي	كاتبه و«الثور» ذو الكلاع
فقرنه يباع بالدينار	وظلفه بدرهم للشاري
والجمل الذابح فيه مفترى	يجعله عند السماء كالمشترى
فلا ينال لحمة صغيره	حتى يبذل الدرة الكبيره
يهم من حسرته الذي أتى	يأكل مما قد يراه ميتا

أف لهـذه البلدة المشـومـة | فـإنها منتنـة كـالـثـومـة
قـد لعبت بـأهلهـا السـوداء | ولا بهـا بيضـا ولا صفـراء
وجـوههم من جهدهـا مغبـرة | وفي القلوب كلهـا كـالجمـرة
في كـل يـوم غـارة للدولـة | عليهـم وعسـكـر وصـولـة
يحكـم في أعيـانها شاويش | مثـل الحمار وأكله حشيش[1]

تلك حالة أهل المدن، بؤس وجهد جهيد في البحث عن العيش ونضوب في الموارد وخوف من الدولة إلى آخر ما جاء في أرجوزة الأديب يوسف بن يحيى.

وقد كان لاعتماد البلد على نفسه واكتفائه ذاتيّاً في الأمور المعيشية سبباً في عدم تأمين المواد اللازمة في كل الأوقات فـربما حـدث رخاء مفـرط في بعض الأحيان، وربما حدث عكس ذلك في أحيان أخرى إلا أن اليمن كانت تعتمد على نفسها في خيرها وشرها.

ولم تعتمد على الهجرة إلا في مناطق بعيدة من الجنوب حيث مارس أهلها الأسفار منذ أزمان بعيدة لشغفهم بالتجارة.

وكانت المجتمعات في ذلك الوقت شبه زراعية لاعتماد أكثر النـاس على الزراعة وانخـراطهم فيها جميعهم كبيـرهم وصغيرهم، وكـان تمركـز التجارة والتجار في المدن الكبيرة والمواني المعروفة. وقـد شكل التجـار في ميناء عـدن والمخاء قوة كبيرة حتى أن الدولة كانت تستعين بهم في بعض الأحيان. وفي عدن شهد الميناء حركة تجارية كبيرة، وكان أكثر التجار من الهنود ومنهم طوائف من الهند «البانيان» غير المسلمين، ومن طريف ما يذكر أن الصفي أحمد بن الحسين زار ميناء عدن قبل توليه الحكم في سنة ١٠٧٢هـ فوجد أكثر التجار فيها من الهنود يقول المؤرخ الجرموزي:ـ

«فآنسهم وأنزلهم منازل الكرم وصادف في ذلك الوقت قدوم مركبين من مراكبهم أحدهما يسمى «سواكن جي» والآخر يسمى «الصاحبي» كل مركب

---

(١) نشر العرف جـ٢ ص٩٥٩.

شحن بأربعمائة بندلة وألف وخمسمائة نفر، وكل بندلة تبلغ في الضخامة قدراً كبيراً لا يسعه باب الفرضة، ودخل الصفي أحمد بن الحسن هذه المراكب فاصطنع له أهل الهند فيها ضيافة لم ير الراءون مثلها، قال أحد الحاضرين فأكلنا وأكل الصفي واستطبنا ذلك، ثم إن الصفي سألهم عن الصانع لهذه الأطعمة فقالوا «البانيان» وهم «البراهمة» فقام كل واحد منهم يَتَقَيّأ ما أكله»[1].

يقول الجرموزي «ثم إن الصفي تفقد بندر (عدن) فوجد الفتن «الحروب» قد أخربته واختلاف الأيدي أهملته فأخذ في عمارته وجمع العمارين من بلاد يافع واليمن وصنعاء، فأول ما عمر من الدائر المتصل بالساحل مما يلي البحر نحو نصف ميل، وعمر دار السعادة، وعمر ستة دور غيرها ثم نقض مسجد الجامع وأصلحه وكذلك بعض المدارس أصلحها وعمّرها»[2].

وكان للتجار أماكن كبيرة في صنعاء وفي غيرها تسمى «سماسر» وهي عبارة عن نزل كبير يقصده الوافدون إلى المدينة ويضعون فيها أمتعتهم وحيواناتهم وقد عرف في صنعاء (سماسر) كبيرة أشهرها سمسرة محمد بن الحسن، وهي من أوسع ما وضع في ذلك (وانتفع بها التجار لا سيما أهل البادية وقد أسسها وأوقفها سنة ١٠٦٧ ،ومنع من دخولها تجار البانيان والحضارم)[3] ، ومن سماسر صنعاء الكبيرة في القرن الحادي عشر وما بعده سمسرة (مريد) وسمسرة (الصورعة) وسمسرة (الشماة) وسمسرة الشيخ أحمد الحاج وغيرها.

وقد ذكر صاحب قانون صنعاء جملة من البضائع المتجر فيها ومن أهمها (البز) وكان يصل من سائر بنادر اليمن إلى صنعاء في كميات هائلة. ويتاجر الناس بالصناعات المحلية وهي كثيرة، ويشتغل في صناعتها وتجارتها جماعة من الناس، ومن أهمها صناعة الخزف، وقد سد أكثر حاجات أهل اليمن من الأواني، ومنها صناعة النجارة ويصنع منها عدة أشياء دقيقة كالمفاتيح والمغالق

(١) الجرموزي: تحفة الأسماع «مخطوط».

(٢) الجرموزي: تحفة الأسماع

(٣) أبو طالب «طيب أهل الكساء» مخطوط. ثم إن ورثته فسخوا اللحام بعد ذلك.

وغيرهما. ومنها صناعة الصياغة وهي منتشرة في صنعاء وسائر المدن الكبيرة.

ومن الصناعات المهمة صناعة الأحذية وما يتعلق بها من الأدوات الجلدية وقد عدَّدَ لنا صاحب (قانون صنعاء) عدة أنواع من الأحذية كالفيلم والصعدَي والبشامق والنعل الركا والعَرْض والبحثات إلى غير ذلك.

وكانت صناعة الصابون من الصناعات الحضارية الدقيقة التي عرفتها صنعاء، وحدثنا عن طريقة صنعه العلامة اليمني أحمد بن عبدالله الواقدي «في القرن الحادي عشر» في كتابه (نور الأبصار وشفاء خواطر الأفكار).

يقول وهو يصف قاعدة أهل بلدة صنعاء في ذلك:

«يؤخذ من القلى جزء ومن الجير نصف جزء ويحكم سحقاً ويجعلان في حوض ويصب عليهما من الماء قدرهما خمس مرات ثم يحرك قدر ساعتين ويكون للحوض منفذ صغير مسدود فإذا نزل الماء سده ووضع عليه قدر الماء عشر مرات ويجعل على النار فإذا غلى شرّب الماء الأخير شيئاً فشيئاً، ثم الذي قبله حتى يكون سقيه بالماء الأول أجزاء فعند ذلك يصير كالعجين فيغرف إلى حصير حتى يجف بعض الجفاف ويبسط على حصيرة»[1].

تلك طريقتهم في صناعة الصابون كما وَصَفَها الواقدي في القرن الحادي عشر.

وربما عدم الصابون في بعض الأحيان فيتذمر من ذلك فئات كثيرة من الناس وهذا الأديب سعيد بن صالح السمحي المتوفى سنة ١١٢٢هـ يشكو من غلاء الصابون في عصره فيضع أبياتاً يدعو فيها الناس إلى ترك الثياب البيض ولبس السواد حتى لا تظهر فيها البقع يقول أديبنا متندّراً.

لقد غلا الصابون في دهرنا — غلا سواد ناظري والفؤاد
فحق للعالم أن يلبسوا — عند المسرات لباس الحداد

(١) نور الأبصار «مخطوط».

رزيـــة في النــاس من أجلهـــا سن بنو العباس لبس السواد[1]

وكان الصابون يستعمل في الحمامات بكثرة وقد شهـدت مدينـة صنعاء العديد منها، وكان على رأسها وأهمها حمام الميدان الذي أثنى عليه من الوجهة الصحية الطبيب اليمني أحمد بن عبدالله بن إسماعيل بن يوسف الواقدي بقوله:

«وأفضل الحمامات الموضوعة على القاعدة الصحيحة وأشرفها وأصلحها في أرضنا حمام الميدان بصنعاء اليمن، فإنه من موضوعات الحكماء لاتساعه وعلوه وصناعته المتقنة، وفرش حافاته خصوصاً المسلخ ويكفي فيه ارتفاع قبته، إلى غير ذلك وما عداه من الحمامات بصنعاء فدونه لضيق حـافاتهـا وبيوتهـا ومن ثم يدخنونها بالكندر فيكدر الطبـع السليم ويسدد ويجلب الـزكام لمبـرود ويحبسه لمحرور»[2]، وتلك حالة الحمامات في صنعاء كما وصفها طبيب مختبـر في ذلك الوقت.

وكانت الحمامات موئل الظرفاء ومنتزه الأدباء وقد أفردها الأديب أحمد بن محمد الحيمي بمؤلف مستقل جمع فيه العديد من نوادرهم حول الحمامات.

وقد دخل الأديب زيد بن يحيى بن الحسين من أدباء صنعاء في القرن الثاني عشر، حمّام سبأ وكان الوقت زمن برد فقال الأديب:

لله حمّـــام لــــه مــنــــة علـيّ قـد نلت بهـا المطلبـا
أصبحت مهمـوماً لبـرد الشتا ففـرقت همي أيدي «سبـا»[3]

ويدخل الأديب أحمد بن محمد الحيمي حمام «شكر» فيقول فيه:

لقد دخلنا حمام «شكر» فملنا لنعيم حواه من فرط «سكـــر»
وشكـرنـاه بـالـذي كـان منـه ولهـذا يقال حمـام «شكـر»[4]

وكان أكثر التجارة وأكبرهـا تكون في الغـالب في تجارة الأطعمـة وسائـر

---

(١) نسمة السحر «خ»

(٢) نور الأبصار «مخطوط».

(٣) حدائق النمّام، طبعة ثانية، الدار اليمنية للنشر والتوزيع.

(٤) حدائق النمّام «مخطوط»

منتجات البلاد الزراعية، وكان من أكبرها سوق «الحب» الطعام وفيه جماعة من القائمين عليه ولهم في ذلك نظامهم وقانونهم وربما توسطت الدولة في فرض الأسعار.

وكانت الأطعمة والتفنن في طباختها من الأمور الخاصة بأهل المدن، ! وقد عرفت اليمن في ذلك الوقت أكلات خاصة بها لم يشاركهم فيها أحد من العالم الإسلامي ومن أهم هذه الأطعمة وعلى رأسها أدام «الحلبة» وهو أكل تفنن في طباخته أهل اليمن وقد عرف منذ مدة طويلة ووصف طريقة صنعه في القرن الحادي عشر علامتنا الواقدي فقال:

«الحلبة مشهورة في صنعاء وجوارها خصوصاً كوكبان ومعتمدة صباحاً ومساءً على الأطعمة واشتهرت وشاعت بأرضنا ولهم فيها اليد الطولى، حتى أَلِفتها النفس، ويختلف إحضارها باختلاف الصنعة فمنهم من يجعل على الحبوب الماء مرتين أو ثلاثاً حتى تزول عنها المرارة وتجفف وتطحن طحناً جيداً وتذر على الماء وتضرب حتى تظهر اللعابية منها فتسقى قليلاً بالماء وتجعل على الطعام بعد غليها ساذجاً من غير أبازير وتجعل على السمن إن أمكن»[1].

فهذه الحلبة هي سيدة الأطعمة عند أهل اليمن وقد تفنن المتأخرون في صنعها وأضافوا إليها أشياء أخرى كالمرق والخضار والبيض واللحم إلى غير ذلك. وهي من الأشياء المنفرد بها أهل اليمن، وإذا أردت أن تعرف الرجل هل هو من اليمن أم من غيرها انظر إلى أكله فإن وجدت فيه شيئاً من الحلبة فاعلم أنه من أهل البلاد اليمنية. والحلبة وإن عرفت في بلاد أخرى إلا أنها لا تستعمل إلّا في حالات نادرة كالتطبب والمداواة لا غير.

ومن أشهر الأطعمة المتميز بها اليمن أيضاً «خبز اللحوح» وقد وصف طريقة صنعه الواقدي فقال: «اللحوح طعام مصنوع بأرضنا من جريش الذرة وقد شاع وفشا بأرض اليمن، وصنعته أن ينقع بالماء الحار، ثم يرهك بالمراهك وهي معمولة دون الرحا، ثم يخمر جيداً وقد أثبتت له آلة مصنوعة من تراب الخضار

(١) نور الأبصار «مخطوط»

والخزف مسطحة كآلة الكنافة المعروفة بالطواة من النحاس مركبة على شكل مخروط كالتنور» إلى أن يقول: ـ

«ثم يخرج بعد النضج وقد برز على وجهه ثقوب كبيرة غير نافذة وهي من غرائب الصنع ولا نعرف مخترعها، وهي من أسهل الصنع في أرض اليمن ويصعب على أهل الهند والعجم والروم لعدم معرفة قانون آلته المذكورة، ويعمل بعد أن يبرد، في صحون من الصيني أو غيرها ويجعل عليه مخيض اللبن المنزوع الدهنة المعدل بالأبازير كالكمون والنعنع»(1).

فهذان الصنفان من الأطعمة هما أشهر ما عرف به اليمن في هذا الباب وإن كنا نجد المحافل الكبيرة قد عرفت أنواعاً أخرى غير ما ذكر، وقد أشار إلى بعض الأطباق عند أهل صنعاء في القرن الثاني عشر الأديب عبدالله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧هـ فقال معرِّفاً بأسماء كثير من الأكلات المعروفة عند أهل بلده:

قسماً «برز» ابن الوزير «ممعيل» ... للسيد الحوثي صفوة أحمد
و«دجاج» جحاف و«دلته» التي ... دلت على معروفه المتردد
و«زلابيا» شرف المكارم إنه ... وسط الصحاف سبيكة من عسجد
و«قلية» المولى الجمالي أنه ... شرف أناف على السها والفرقد
من بعد «معصوب» ابن قيس إنه ... قد لذ لي من بعد بين أسود
و«هريش» مولانا الخطيب ومن له ... خطب يلين لها صميم الجلمد
وكذاك «قوزي» الشهاب فإنه ... جمع البهارات التي لم تعهد
وكذا «كبيبات» لعامل مسور ... من قبل قهوته التي لم تبرد
وكذاك طيب «سلتة» الأهنوم من ... حاز المكارم والجميل السرمد
و«بسيس» صاحبنا الرقيمي الذي ... يدعونه بالآنسي محمد
و«بشهد» فخرالدين فوق غدائه ... شهد الجميع بأنه لم يوجد
يتلوه «مطلي» الصفي فإنه ... صفي من الأحشاء أعذب مورد

(1) نور الأبصار «مخطوط»

و«فتوت» عبدالله أكبر ناشر   من ناشر برد العلى والسؤدد[١]

فهذه أنواع من المأكولات الشعبية في صنعاء وغيرها من البلاد اليمنية خلال تلك الفترة.

وقد عرفت البلاد أيضاً أنواعاً من المأكولات التي أدخلها الأتراك معهم، ومن هذه الأكلات الأرز و«الكشري» و«البالوزة» و«الخرميان» و«مختارخان» وغير ذلك من الأطعمة المعروفة عند أهل صنعاء وقد أشار إلى بعضها الأديب عبدالله ابن علي الوزير في مقامته «أقراط الذهب» في المفاخرة بين الروضة وبئر العزب» فتنظر هناك.

وفي هذا العصر ترسخت في المجتمعات عادة القهوة وشربها[٢] ومضغ القات وكان ظهورهما في وقت واحد يعود إلى القرن العاشر، وأصبحت القهوة من ضروريات المجالس في ذلك الوقت وولع الناس بقشر البن أكثر من ولوعهم بلبه على خلاف القاعدة في سائر البلاد الأخرى.

وكان البن من أهم ما تصدره اليمن إلى خارج البلاد، وقد ذكر ذلك الرحالة المغربي حسين بن محمد الورتلاني المتوفى سنة ١١٩٢ عندما زار مكة فقال: (يحمل من اليمن في كل سنة لكل أفق شرقاً وغرباً آلاف من الأحمال، فتدفع فيها أموال قلما تدفع في غيرها من التجارة فيبلغ الحمل منها في مكة إذا رخص فوق العشرين ريالاً وبمصر إلى الخمسين، وفي البلاد الشاسعة وبلاد الروم من القسطنطينية وغيرها فوق المئتين)[٣].

وقد أحدث ظهور القهوة في اليمن وانتشارها منه إلى العالم الإسلامي تغييراً اجتماعياً كبيراً في سائر البلدان وقد حلت مكان الضيافة عند بعض الناس لسهولة مؤونتها (فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود الضيوف إليهم)[٤].

---

(١) نشر العرف ج١

(٢) نزهة الأنظار

(٣) نزهة الأنظار

(٤) نزهة الأنظار (رحلة الورتلاني)

ووصل الأمر باليمن في شأن البن أن تصلها بواخر أوربا بقصد جلب هذا المشروب الجديد، حتى أن الدولة العثمانية شكت هذا الأمر إلى إمام اليمن في رسالة ذكرها صاحب (طيب أهل الكساء) فقال في حوادث سنة ١١٣٣ :

«وفيها ورد إلى الإمام من باشا جدة أحد أغواته رسولاً إلى الإمام من أجل الفرنج وشرائهم البن من بنادر اليمن، وإن المنع لهم من ذلك فيه مصلحة عامة للمسلمين، وإن توفر الثمن. . وبيد هذا الرسول كتاب من سلطان الترك فيه إبراق وإرعاد إذا لم يحصل امتثال وإسعاد فإن من أنذر فقد أعذر»[١].

فمثلت هذه الرسالة أهمية البن في مجرى الأحداث الكبرى وقد اشتهر في اليمن من أنواع البن أجناس مختلفة تختلف من حيث الجودة والرداءة، وكان من أحسنها في ذلك الوقت البن (الشرسي) نسبة إلى موضع تحت صنعاء يقال له شرس ويأتي بعده في الجودة البن (السودي) نسبة إلى السودة من اليمن أيضاً ثم الخلي من ناحية (شرعب) ثم الحرازي وهو من أضعفه[٢] ويقول الحارثي الواقدي في ذلك:

(القشر (قشر البن) معروف عندنا وأفضله ما رطب هواء محله وسخنت أرضه ودبر غرساً ومعاهدة).

وللأدباء في الولوع بالقهوة أشعار كثيرة سنوردها عند حديثنا عن أدب القهوة والقات.

أما القات فقد صاحب ظهوره ظهور القهوة وبدأ يتغلغل في المجتمع خلال هذه الفترة التي ندرسها، وكان الأدباء هم الفريق المتحمس له والمتعاطي لأكله بصورة واسعة ولهم فيه العديد من القصائد الرائعة في مدحه سنعرض لها في موضعها عند حديثنا عن الشعر الاجتماعي، وإذا كان للقات من فضل على اليمن ـ على مساوئه الكثيرة ـ فهو قد حمى البلاد من عادة تعاطي الحشيش وهو

(١) طيب أهل الكساء «مخطوط»
(٢) نور الأبصار.

آفة اجتماعية عرفتها مجتمعات عربية كثيرة في الشام ومصر وغيرهما، وأضراره السيئة على الجسم والعقل أشد شناعة من القات، ولا تكاد تذكر مع مساوىء الحشيش الكبيرة. وكان لانشغال الناس بالقات أثر في صرف الناس عن هذه الشجرة الخبيثة حتى لا تكاد تعرف إلا عند المتطببين.

ومع ذلك فربما أدخل الحشيش إلى اليمن فئات من الوافدين إليها، فكانت الدولة تنكل بكل من ظفر به ومعه شيء من ذلك،وفي ديوان الرقيحي (في القرن الحادي عشر) جاء ذكر شخص يسمى نعمه وقد حبس مع آخر يقال له صلاح المهتدي بعد أن وجدا يبيعان الحشيش[١].

وقد جمع القات، أشتات الناس في مجالس خاصة ودارت هناك مناقشات ومباحثات كان لها أثرها الكبير في إحياء الثقافة والآداب، وهو أحد أسباب ازدهار الأدب والشعر في ذلك الوقت حيث تدار فيه مفاكهات ومباحثات. وربما تغالوا في شرائه وشروه بالثمن الكبير. وقد حدد صاحب قانون صنعاء سعر القات الرسمي خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر للربطة الواحدة زنة عشر أوراق ببقشة ونصف.

وربما دفعهم القات إلى السهر فتفوتهم بذلك صلاة الصبح، وقد عرف عن كثير من الناس تساهلهم في ذلك حتى دفع الأمر العلامة محمد بن إسماعيل الأمير إلى تأليف رسالة حول هذا الشأن[٢]. واضطرت الدولة خلال القرن الحادي عشر إلى تعيين أشخاص يقومون بإيقاظ الناس لصلاة الفجر، وكان قد أصدر الأمر بذلك الأمير محسن بن الحسين أحد أمراء عصره فقال في ذلك الأديب الرقيحي (موريا):

قل للحسام وقاه الله ما طمعت ... فيه الأعادي من سوء وتعويق
أهل المدينة حسب الأمر كلهم ... لطاعة الله في أمر وتوفيق
فلا تدعهم نياماً في مضاجعهم ... فكل أيامهم أيام (تشريق)[٣]

---

(١) ديوان الرقيحي القسم الفصيح «مخطوط».
(٢) أنظر بحثنا مؤلفات محمد بن اسماعيل الأمير المنشور في مجلة الإكليل
(٣) ديوان الرقيحي «مخطوط».

وقال أيضاً في ذلك:

لقد شيد الـدين الحنيف حسامـه   حباه إلٰه الناس بالفتح والنصر[1]
وقد كاد فرض الفجر يعلق بالضحى   فعاد الورى يتلو إذاً سورة (الفجر)

وفي القرن الثالث عشر وَكَّلَ أحد الحكام من (يرشد الناس ومن نومة الفجر يوقظهم)[2].

وكل هذا بسبب انتشار القات وولوع الناس بالسهر.

وكما عرف الناس القهوة والقات كذلـك عرفـوا (الدخـان) وهو شـرب (المداعة) النارجيلة وقد عرف في اليمن بالتتن وهي لفظة تركية معناها (الدخان) وكان أول ظهوره في عهد سنان باشا، ووصل به إلى اليمن حكيم مغربي هو الشيخ علي المغربي سنة ١٠١٣هـ وجاء معه بشيء من بذوره فاستنبته في اليمن وصلح نباته وكان أول أمره تباع الأوقيـة منه بقرش فضة وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت وبيع بأكثر من ذلك، حتى انتشر وعرفه الناس فنزل سعره إلى أضعاف ذلك[3].

وربما رأى بعض الحكام عدم استساغة شربه فأصدر أوامر بإتلافه كما حدث ذلك في عهد المهدي أحمد بن الحسن حيث أمر سنة ١٠٨٩ بعدم جلب التتن من اليمن الأسفل إلى البلاد العلياء وأمر بإحراق ما وجد منه ومن آلاته فأخفاه أهل صنعاء حتى بيع في القراطيس وغنى المفاليس[4].

وكان من أكبر أعداء الدخان جمهور الصوفية وقد حاربـه في حضرمـوت الصوفي الحسين بن أبي بكر بن سالم المتوفى سنة ١٠٤٤ (واعتنى بإزالته من تلك الديار فتم له ذلك ونودي في الأسواق)[5].

---

(١) ديوان الرقيحي «مخطوط»
(٢) حوليات يمانية
(٣) من هامش مخطوطة في الطب. وكذا في غاية الأماني.
(٤) ابن الوزير: طبق الحلوى «مخطوط»
(٥) المحبي: خلاصة الأثر جـ٢ ص١١٤.

ويقول في ذمه الأديب عبدالصمد باكثير المتوفى سنة ١٠٢٥ :

ولا تجنــح إلى «التنبــاك» إني ... نصيحـك إن فيه أشياء تضرك
هـو العار الـذي يـدني ويـزري ... هـو الـداء الـدفـين فـلا يغـرك
دخـان منتــن داء عـضـال ... فـلا تتبـع إلـيـه فتى يجـرك
شــراب مـهلك لا تـشتــريـه ... وضم إليه نقدك في (مصرِّك)[1]

إلّا أن تحذيراتهم ذهبت سدى وولع الناس بشرب الدخان والنشوق وفضلوهما حتى على أقواتهم. وحتى قال الأديب عبدالله بن يحيى الشامي المتوفى سنة ١١٧٠ وقد كسدت أسواق التجارة في صنعاء سوى التنباك و(الكازرون) :

كـل الـســوق فـاتــر[2] ... إلا الـكــازرون مـا يبـور
فـيـه أمـوال جمـاهـر ... بيعـه والشـراء بـالجبـور
كـم قـايـم وعـاثـر ... (حوشة) فوق (عبدالغفـور)

* * *

يـكـتـب في المـلاحـم ... شغـل الخلق بـالكـازرون
كـم تخـضـع عـوالم ... من أجله سعـره زبـون[3]
و«الحـرم»[4] تـزاحـم ... فيهـا تـولعـه كـالجنـون
مـكشـوفـة تـداكـم[5] ... ما تتنقب من أهل الدقون[6]

فدل هذا النص أيضاً على تولع النساء بالدخان مع الرجال. وصاحب في أكثر الأحيان تعاطي القات ودخل مجالسه واختفى بذلك تناول القهوة وأصبحت لا تشرب إلا في اجتماعات العائلة فقط.

وتلك مطاعمهم ومشاربهم .

---

(١) ديوان عبدالصمد باكثير «مخطوط» والمصر ما يصر فيه من حزام أو منديل أو غيره.
(٢) ضعيف
(٣) صعب
(٤) جمع حرمة النساء
(٥) تلاكم.
(٦) ديوان الخفنجي «أنظرها فيه»

على أن حالة الناس كانت على درجات متباينة من الرخاء والشدة وكـان يصيب المجتمع ما يصيب الناس في المجتمعات القديمة من مجاعات وأوبئة وهي أمور معتادة متكررة ولنا أن نستجلي شيئاً من تلك المآسي لنعرف الفارق الكبير بين عصرنا وعصورهم الغابرة ففي فترات تنعدم المطاعم ويستسلم الناس للجوع الرهيب،وقد يحدث في سنين متتابعة النقيضين من غلاء الأسعار ورخصها ففي سنة ١١٣٦ مثلاً، وقع القحط في صنعاء وأكثر جبال اليمن وهلك أكثر الناس من الجوع وخلت القرى سيما بلد حجة والظفير ولاعتين والمحويت والرجم من ناحية كوكبان ولم يبق منهم إلا اليسير وأكل الناس الميتة واستوى سعر الحبوب وبلغ سعر (القدح) ثمانية قروش وبذل أهل اليسار ما معهم وتصدقوا به. ثم امتلأت الخيرات في سنة ١١٣٧ واستمر الرخاء حتى بلغ سعر الأربعة أقداح من الشعير بقرش، وستة أقداح من الذرة بقرش، وثمانية أقداح من الشعير بقرش[١].

فهذا في سنتين متتابعتين وقع الضدان وذلك لأن البلاد تعتمد أساساً على ما تنتجه في سنتها دون أن يكون هناك تخزين يذكر.

وفي سنة ١١١٥ وقع قحط شديد خلت منه بالبوادي عدة قرى وعمّ جميع الأقطار ومات فيه جمع كبير، حتى أن أهل قرية بالعدين أكلوا الأموات[٢] وكذا بقرية في حضرموت يقال لها «حذية».

ومن طرائف ما يحدث في تلك المآسي أنه حدث في جوع سنة ١٠٧٨ أن رجلاً غسلوه وكفنوه وظنوا أنه قد مات بصنعاء وكان من الغرباء فلما حملوه تحرَّك فوق نعشه ففتحوه وإذا هو يهتف بالطعام فأطعموه وأسقوه وإذا هو حي بخير وإنما ساخ وبطلت قواه بسبب الجوع[٣].

يقول المؤرخ يحيى بن الحسين بعد ذكر هذه الحادثة المؤلمة:
(وكثير من الناس طلب الطعام بالبكاء، ومنهم بالتمارض في الشوارع لأجل

(١) نشر العرف جـ١

(٢) طيب أهل الكساء «مخطوط».

(٣) يحي بن الحسين: بهجة الزمن «مخطوط».

رحمة الناس بالعطاء).

وأخبار من هذه الحوادث لا حاجة إلى ذكرها هنا، وربما اضطرت أسر إلى النزوح من قراها إلى قرى أخرى تحت وطأة الجوع كما حدث في قحط سنة ١٢٣٨ حيث اضطرت بعض عوائل من بكيل إلى النزوح إلى اليمن الأسفل (فخرجوا خرجة رجل واحد صغارهم وكبارهم ونساؤهم متشكلات بأشكال الرجال)[1].

وهكذا كان من تحت تأثير الجوع أشياء كبيرة غيرت سير التاريخ وحدثت حروب ومحن بسببه. وقد صوّر لنا الأديب أحمد بن محمد المعلمي المتوفى سنة ١٢٧٨هـ في «مقامة» أدبية ما أصاب أهل بلدته في بعض السنين من جوع وقحط فقال:

«اعلم أنه كان الناس في عام ١٢٣٣ في أتم الرضاء وأعمّ الرخاء، وعلى فضل من الله وسعته ودعته، فسلكوا مسلك الماضي، وظنوا أن الدهر لهم وفيهم ماضي، حتى أنفقوا جميع الذخائر المستعدة، والأموال المستجدة، فوقع في سنة ١٢٣٤ جدب عظيم، وهول جسيم، ذبح الناس بغير سكين، وبيّن العجز في الأغنياء والمساكين، وأظهر من بأسه العجب في جمادى الآخرة ورجب، وبقي البذر في التراب أسيراً قريباً من أربعين يوماً، ولم ينبت منه إلّا اليسير، فاغبرت المزارع لفقد الأمطار، ويبس البن بعد الازدهار وعميت عيون بسطوع الغبار وجفت الآبار، وغاضت الأنهار، ثم تضاعفت الأحزان في شعبان ورمضان، وضاق الحال في شهر شوال، وانقطع الرجاء لانتشار البلاء، فأخذ الرجال والنساء في الاستغفار والبكاء، لما عمّ الرعية من هجوم الرزية، ووقوع البلية، ولما انقطع الخريف والروابع بالجدب عظم الهول والخطب، وأيس كل آيس بدخول الخامس، فأجاد الكريم رب العرش العظيم، بنزول المطر وذهاب الهم والضَّجَر، فأحيا به الله الأرض بعد موتها، وظفر الناس من الغيث المدرار، بقوتهم وحرث الأنهار وأورقت الأشجار وانبسط الرخاء وانقبض الغلاء. فلما

(١) مجهول: حوليات يمانية

بلغ الزرع أول الحصاد، جاء الجراد إلى كل البلاد، أقصاها وأدناها، شامها ويمنها، وسهلها وجبلها، في يوم واحد، فغشي الناس من الغم ما غشي فرعون وجنوده من اليم، وقالوا هذه إحدى الكبر وأم العبر، وأيقن الصغار والكبار بالتلف والبوار، لعدم الحب والثمار، ولم يستقر بهم حال من الأحوال، إلا بالرحال عن البيوت والأموال، وصاروا تحت كل شعب وبإزاء كل كوكب. وامتد الجوع وعبس وأظلم حندسه وعسعس، وأسبل الله ستره، وعطف على الناس بحمرة و«الصحف» وبلغ سعر جميع الحبوب نصف قدح بقرش ولا تفاضل بينها ولا مزية، بل الحنطة والدجر على السوية، والقدح البن بتسعة قروش فانبسط الغلاء وانقبض الرخاء فباعوا المطرح الكبير الساقي البن الراحي بقرش، والمطرح الضَّاحي الحبري السلطاني الكبير بقرش وما زالوا كذلك حتى أسبل الله ستره العميم، وفضله العظيم وظل الناس في عام ثمان مائة وتسع بعد الثلاثين على خير مكين، وأرغد عيش ممين، يتقيلون في برد مجالس العمارة ويترفهون على نفائس التجارة والإمارة ولا يرتابون لخوف، ويعقبون بسين سيكون ولا سوف، ليلهم راحة، ونهارهم سماحة، فسرت فيهم حوادث الليالي وهم لا يشعرون، وأظهرت من العجائب عجب الأمر المخزون، وجثا عليهم الدهر الخئون بقبضة الوثاب ونادى من زفرات غيظه بالانقلاب والإياب، وهبت عواصف البغي، وتلاطمت بحار الطغي، وماجت وتحالفت على الرعا أيادي العمال، وتكاثرت الآمال، وشعبت الآراء والأقوال، وفسد المجال وتصلح المحال، وانطوى المشائخ على فساد نية، والدعاء بخبث الطوية، فتداعى أهل الرياء لمنافسة الولاة بعضهم بعضاً، وعقدت النية معضلات تلبسهم حتى لا يستطاع لها حلاً ولا نقضاً، ويا لها من علة قوية».

وهكذا كانت حالة الناس في ذلك الوقت كما صوّرها المعلمي بين جوع وشبع وبؤس ورفاهية.

وكانت الأسعار هي شغل الناس الشاغل، وقد حملت كتب التاريخ بعضاً من حديث الناس حول ذلك الموضوع، فقد حدثنا المؤرخ يحيى بن الحسين في «بهجة الزمن» في حوادث سنة ١٠٧٧ أنه «غلت الأسعار وضعفت البقش

وصغـرت وكثر فيهـا النحاس والغش، وكثـرت المماكسـة في البيـع والشـراء والمعاملة، واختلفت الحالة وحصل مـع أهل الأسـواق تغيّر مـزاج، والدعـاء والسخط والانزعاج حتى دعوا على الدولة جهاراً من غير حياء ولا خوف بحيث إني سمعت رجلاً من أسواقها وأهلها يقول هذه الدولة ما ترحم المسكين وأما الترك فإنهم يرحمون».

ومع ذلك فربما تدخلت الدولة في تحديد الأسعار ووضعت فيهـا قوانـين خاصة يلتزمها الناس كما رأينا ذلك واضحاً في القانون الذي ظهر في عهد المتوكل إسماعيل بن القاسم سنة ١٠٨٧ وقانون القاسم بن الحسين والمهدي عبدالله سنة ١٢٣٤.

وربما ولت الأسعار وأصبح كل شيء موجوداً كما حدث في سنة ١١٩٥ حيث وصل سعر القدحين الحنطة بقرش واحد والسليط «الزيت» عشرة أرطال بقرش وهذا غاية ما وصلت إليه البضائع من رخص وفي سنة ١٢٠١ كان سعر الحنطة القدح والربع بقرش والذرة قدح ونصف بقرش والشعير قدحين بقرش وهكذا.

وفي سنوات أخرى تنعكس الآية حتى أن المؤرخ لطف الله جحاف ذكر أنه وصل سعر القدح الحنطة في بعض السنوات ثلاثة ريالات وهذا مبلغ كبير في ذلك الوقت.

ولعلنا سنقدر قيمة الريال في الشراء إذا علمنا مقدار ما يحصل عليه العامل منه في ذلك الوقت وقد حصرهم قانون المهدي سنة ١٢٣٤ فذكر أجرة الحمالين و«المفالقة» (مفلقو الحطب) والسقائين والحمالين في سوق العلف أجرة الشكة التبن الذي تحملها البهيمة بقشة واحدة.

أجرة حمالين التنباك (الدخان) أجرة عدلة الجمل الكبير من البايـع أ بع بقش ومن المشتري كذلك.

أجرة حمالين سوق «القشر» و«السليط» وغيرهم أجرة من يحمل عدلة في المبتاع الكبير ربع بقشة.

أجرة السقايين وقيمة الماء في المسافة القريبة نصف بقشة، وقيمة القربة في المسافة المتوسطة ثلثي بقشة وقيمة القربة في المسافة البعيدة بقشة.

أجرة العامل «الأسطى الكبير «رئيس البنائين» ربع قرش وبقشتين ويلحقه كراء العدة الجميع بقشتين ونصف .

أجرة الأسطى التابع له ثمن قرش وخمس بقش.
وأجرة المناول للأسطى ثمن قرش وبُقشتين ونصف.

وأجرة الشاقي «العامل في البناء» ثمن قرش.

وأجرة «الموقص»(١) ثمن قرش وبُقشتين.

وأجرة الأسطى في الملاجين(٢) ربع قرش وبقشتين، ويلحقه كراء العدة بقشتين، وكراء السقالة بُقشتين .

أجرة الأسطى في المقاضضة ثمن قرش وخمس بقش.

أجرة الشاقي في المقاضضة(٣) ثمن قرش.

أجرة الحلاق على الرأس بُقشة.

أجرة الحجام على المحجم الواحد نصف بقشة.

أجرة الحمامي بقشة على النفر.

فهذه نماذج مما يحصل عليه العمال من أجور خلال القرن الثاني عشر وما قبله وما بعده، وهي في عمومها لا تصل إلى القرش الواحد لأكبر عامل منهم، فدَلَّ هذا على مكانة القرش في الأمور الشرائية، ومع ذلك فربّما تبرّم العمال من غلاء الأسعار وقلة الأجور، وقد حدث أن ثار الجند سنة ١٢٢٣ (وخرجوا أرسالاً غاضبين كارهين للدولة لقلة المدد، وتباعد المعاشات فمنهم من رحل من

(١) هو الذي يكسر الحجار ويصنع منها قوالب جاهزة للبناء.
(٢) جمع ملاجه وهو الطين يوضع على الجدران.
(٣) العمال الذين يقومون بوضع الجير على الجدران وغيرها.

بلاد كوكبان وكان خروجهم ليلاً من الخندق الجنوبي لصنعـاء، وقالـوا كانت الأرزاق (المعاشات) تـأتينا كـل شهر ثم بـاعدتمـوها وجعلتم معـاش الشهـر لشهرين، ثم باعدتموها، فجعلتم معاش الشهر وهو حقير لثلاثة أشهر. وكان ذلك منهم مع حصول القحط والجدب حتى بلغ القدح الحِنْطة عشرة قروش، وكذلك الذرة وبلغ سعر القدح الشعير ثمانية قروش ثم ارتفع السعر حتى بلغ القدح الحِنْطة اثني عشر قرشاً وبلغ الرطل السمن قرشاً عددياً وكذلك السليط وحسب معاش الجندي في الثلاثة أشهر فكان لا يكفي لأسبوع واحد[١]، وهكذا فإن تلك الأجور كانت لا تتوافق مع ضرورات الحياة في أيّام الغلاء والشدّة.

وإذا خرجنا عن دائرة الاسعار والأجور سنجد هناك فئة كبيرة من الصنّاع وأصحاب المهن قد شكَّلُوا حيِّزاً كبيراً من المجتمع ولهم أخبار وطرائف.

فقد اشتهر في ذلك الوقت من مهرة البنائين المهندسين حسن بن عبدالواسع العلفي، وقد حدثنا صاحب الحوليات عن قيامه ببناء دار الذهب وجسر السائلة سنة ١٢٣٠[٢].

وذكر لنا المؤرخ الوشلي عن بَنَّاءٍ قدير هو المهندس عبدالرحمن بن عبدالوهاب الأهدل.. في (القرن الثالث عشر)، وكانت له خبرة في أحكام البناء، وقد مرّ ذات يوم في أحد شوارع الحديدة فنظر إلى بيت مائل إلى السقوط، فقال لصاحبه أخرج أهلك فإنه الساعة الفلانية من هذا اليوم سينهدم، ومن حكمه البالغة أن منارة مسجد بالحديدة وهي في غاية الطول وإحكام البناء مالت إلى جهة القبلة وكان تحتها بيوت كثيرة بحيث لو سقطت أهلكت البيوت وأهلها فجُمع لها العمارون الذين في الحديدة فلم يعرفوا لها حكماً غير هدمها، فجيء بالأهدل المذكور فطلب إحضار مائة ريال أجرة للعملة فحفر حولها من الجهات الأربع إلى أسفل الأساس وملأ الحفرة من الماء من أول الليل فما أصبح الصباح

---

(١) درر نحور العين «خ»

(٢) حوليات يمانية

إلا وهي مستوية وقد زال ذلك الميلان منها، فبنى حولها وثبّت أساسها[1] وغير ذلك من أخبار هذا المهندس وكانت حديث الناس في (القرن الثالث عشر).

وشغل الناس والدولة في ذلك الوقت بالتنقيب عن آثار الغيول المندرسة، وتجديد بنائها للسقي والشرب وكان أشهر من قام بذلك علي بن مصطفى أحد القادمين إلى اليمن من دمشق في القرن الثاني عشر استخرج غيلا عرف باسمه وقد أجراه من صنعاء إلى الروضة سنة ١١٧٨[2].

وفي عهد المتوكل إسماعيل في القرن الحادي عشر عرفت عدة غيول نُقِّب عن بعضها والبعض شق من جديد وفي ذلك يقول المؤرخ «الجرموزي» (إن أكثر الناس في صنعاء كانوا يستقون من الآبار المعروفة حتى تم استخراج عدة غيول في هذه الفترة. وقد وقف بعض أهل (شعوب) على بلل في طين بالقرب من السد المعروف بسد الإمام، فتتبع أثره فظهر فيه ماء كثير فلما رآه يزداد أخبر بعض رجال الدولة[3] فخرج وأمر بحفره وتوسيعه وهو يزداد حتى أصبح غيلاً كبيراً وجعل عليه الأمناء للحفر والعمارة، ثم عمر بالحجارة وجعل فيه كظائم مستطيلة فكانت كل كظيمة قريبة من عمارة البئر وحفر لها موضع العبور إلى الطرقات ومواضع للصابون ولمن أراد الاغتراف والصلاة)[4].

وكان يقوم بهذه الأعمال الهندسية الدقيقة جماعة من مهرة العمال والمهندسين ولهم في ذلك الأعمال الكبيرة كالقصور الفخمة التي لا تزال آثارها باقية إلى الآن. وفي هذ العصر كانت بناية قصر الحجر المعروف، وقد قام بالإشراف على بنائه الوزير علي بن صالح العماري المتوفى سنة ١٢١٣.

وعرف هذا العصر جماعة من حذاق المغنين والتوسع في ابتكار الألحان الجميلة على الرغم من محاربة بعض أهل الشأن لهذا الفن. ففي بعض الأحيان تقوم الدولة بمصادرة آلات الغناء كما حدث في عهد المتوكل محمد بن يحيى سنة

---

(١) الوشلي: نشر الثناء الحسن «خ»
(٢) نشر العرف ج٢ ص
(٣) هو المهدي محمد بن الحسن
(٤) الجرموزي: تحفة الأسماع «خ»

١٢٦١ فقد (قام بتكسير الملهيات من الدفوف والمعازف والمطربات)(١).

ولنستمع لبعضهم وهو يردد ذمّه لجمهور المغنين في عصره فيقول:

الطبل والزمر باب جامعنا ظهراً وعصراً وتارة عتما
على لحون الغنا مصطنع كأنه من أشاطب الزنما
للزمر والنوبة التي معه تصغون آذانكم ولا صمما

ويعد القارة آلات الغنا والزمر والرقص من جملة المنكرات:

منكرات برزن في زي عادا ت حسان إليهن مِيل
ولقينا المحال ثم أبحنا منكرات منها الغنا والطبول
والمزامير والرقيص مع التحـ ـتاح والمحجرات ثم الخمول

ومع ذلك فإن نهي العلماء عن الغناء قد زاد الناس ولعاً به ولم يكترثوا بمثل تلك النصائح ومالوا إليه بكل فئاتهم كبيرهم وصغيرهم نساؤهم ورجالهم. وكان له أثره حتى في الإصلاح الاجتماعي وقد حدثنا لطف الله جحاف أنه لما منعت الدولة العلامة علي بن إبراهيم الأمير من الوعظ في مسجده سنة ١٢١٦ (عمل القصائد الملحونة وألقاها على المنشدين بالأبواب والأسواق والطرقات ينعي فيها على العمال والوزراء والقضاة وكل مفرط في دينه فوضعوا لها الألحان الرايقة فحفظها الصغير والرجل والمرأة والعالم والعامي) (٢).

فهذا بعض من أثر الغناء في المجتمع وقد عرفت في ذلك الوقت ألحان كثيرة كانت تغنى في مجالس الخاصة وقد انقرض أكثرها وذكر لنا منها الأديب أحمد بن الحسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢هـ الكثير منها وهي عدة ألحان كانت تُغَنّى في عصره وكان هو نفسه أحد الملحنين فمن هذه الألحان التي ذكرها:

لحن على قصيدة (نادي المنازل عساها أن تجيب)

---

(١) حوليات يمانية.
(٢) ديوان القاره «خ»
(٣) درر نحور الحور العين «خ»

لحن على قصيدة (لاح مثل القمر في جنح ديجور الأغلاس)

لحن يعرف بالغويدي وتغنى عليه حمينية الرقيحي التي أولها:

هات يا طير كرر على البان السجوع في سجوعك على البان مَعْنى

لحن على «أرقت مقلتي صادحات الوُرق»

لحن على «شق جيب الليل عن نحر الصباح»

لحن على «ديار الحي حَيّاك»

لحن على «فوج يا قبلي»

لحن على ««حادي المطايا ترفق جُرْتَ واحسادي»

لحن على «يالصب يا دري الشنب احرقت قلب مضناك»

لحن على «يا غصن مايس تثنى في غلايل وماس»

لحن على «بويرق الغور اليماني» يقول جامع ديوان الرقيحي هو لحن موزعي لحجي .

لحن على «مرحالي اللقش تايه يلين اعتداله» وهو لحن لحيدر أغا

لحن على «نسيم هل إلى الروضة الغنا تمشيت» وهو للسيدة زينب الشهارية

لحن على «ألا يا حوض الأشرف»

فهذه أشهر الألحان المغناة في أوائل القرن الثاني عشر، وقد تناقل الناس في ذلك الوقت لحن قصيدة الأديبة زينب الشهارية السابق الذكر.

واشتهر في القرن الثالث عشر لحن حمينية الوزير الشاعر علي بن صالح العَمّاري المتوفى سنة ١٢١٣ التي يقول فيها:

فايق الغزلان أقبل كالقمر حل السماك
قلت يا عذب المقبّل بالنعيم أسعد مساك

يـا رشـا يـا حـالي الـدلّ قـد سلب عقـلي هـواك
قـال رح مـيـل تميـل جي كـذا وأخّـر كـذاك

* * *

قلت كم لي بـك مـولـع قـال مـا عنـدي خبـر
قلت مـا تـرحم وتخشـع قـال قـلبي مـن حـجـر
قلت شـابـذ لـك وادفـع كـل يـوم أربـع صـرر
قـال رح مـيـل تميّـل جي كـذا وأخّـر كـذاك

. . . إلى آخرها وهذا اللحن يؤدى مع الرقص.

وقد حدثتنا كتب التاريخ عن كثير من أولئك المغنين والملحنين، لعل أشهرهم الأديب الكبير حيدر آغا من أهل القرن الحادي عشر وقد ذكره صاحب (نسمة السحر) ووصفه «باليد الطولى في الموسيقى وضرب العود وكان يُغنّي بشعره الموشح».

وكان معاصره الأديب أحمد بن الحسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢هـ أثيراً عند أهل عصره لتلك الخاصية وضرب العود حيث أشار إلى ذلك أحد معاصريه في قصيدة يمدحه فيها يقول:

ويعـرب آذاناً ويلحن إن شـدا وسل شاهداً عن لحنه عوده الرومي
وإسحاق لو أصغى لترجيع عوده لراح على الأوتار بالقطع كالخصم

وكان للمغني في ذلك الوقت مكانة مرموقة، حيث يتنافس في كسب ودّه أعيان عصره ويغدو فاكهة المجالس وأنيس النفوس، وربما كان من ثقافة المغني وآدابه أن يكون خفيف الظل سريع النكتة كثير الاستحضار للأشعار والماجريات ومن هؤلاء كثير سجلت أخبارهم كتب التاريخ وقد اشتهر في القرن الثالث عشر المنشد إسماعيل بن عبدالله الطل المتوفى سنة ١٢٢٤ يقول عنه جحاف: «لما خرج من الكتاب وهو صغير اشتغل بالأصوات والنغم فاستحوذ صوته رعاء الشاء والإبل وتحدث الرعاء عن حسن صوته».

ومن طرائف هذا المطرب أنه يزعم «أن له شيطاناً يلقي عليه الشعر والألحان وأنه شيطان يهودي لا دين له غير اليهودية».

وعرف بوضع الألحان في ذلك الوقت الفقيه محمد بن إسماعيل الأكوع المتوفى سنة ١٢٢١، يقول عنه جحاف: «كان لطيفاً أديباً حسن الصوت ذا نغمة تشاغل به أهل الفن والصناعة لصوته الحسن فأمّا صناعة الضرب بالعود فكان لا يحسنها».

ومن أشهر الملحنين خلال تلك الفترة الفقيه محسن مسعود، بَرَعَ في وضع الألحان وكان وحيد عصره في ذلك حتى أن العلامة علي بن أحمد إسحاق المتوفى سنة ١٢٢٠، وضع مؤلفاً في أخبار هذا الملحن أسماه «طالع السعود بفضائل محسن مسعود».

قلت ولعل هذا المغني هو صاحب لحن قصيدة علي بن أحمد بن إسحاق المذكور التي منها:

يا رسولي أمانة سر إلى عنـد بدري قف على الباب واقرع

وهو لحن مشهور ومعروف..

ويقول المؤرخ لطف الله جحاف إنَّ العلامة إبراهيم بن عبدالله الحوثي المتوفى سنة ١٢٢٣ كان محباً للاجتماع بالمنشدين ويحثهم على وضع الألحان لبعض القصائد، وكثير من الأدباء جمعوا بين الشعر والغناء كالأديب حيدر آغا وأحمد بن الحسين الرقيحي، وكان أحد حذاق هذه الصناعة ومنهم الأديب أحمد ابن علي مشرح الكوكباني المتوفى سنة ١١٧٠ كان صاحب موهبة شعرية وله يد في الإنشاد والغناء.

وعرف في ذلك الوقت طائفة من نُشّاد المحافل والأفراح يستقدمهم الناس في كل مهم وموجب، وكان من هؤلاء الفقيه محمد بن إسماعيل الخولاني المتوفى سنة ١٢٢٣ يصفه جحاف بقوله: «كان محبوباً عند الناس لكثرة ظرفه وحركاته المعجبة.. اتصل بالمنصور وأولاده، واستدعاه الخاص والعام والوزراء والأمراء

والحكام، وكان لا يحابي أحداً مع كثرة المجون ومحبة الدعة وملازمة الخلاعة باللسان طبيعة لا تطبعاً.

وفي تهامة يكثر عند النشاد الاستكثار من المديح النبوي والقصائد الوعظية وقد عرف في القرن الثالث عشر الفقيه عبدالله بن أحمد الزواك المتوفى سنة ١٢٨١ كان حسن الصوت والإنشاد للشعر واشتهر بذلك في الجهة، وكان يطلب للإنشاد في الأفراح من بلد إلى بلد كالمخاء وزبيد، والحديدة وغير ذلك[١].

وربما قيلت على ألسنة أولئك النشاد قصائد في مناسبات عائلية خاصة كالزواج أو القدوم من الحج إلى غيرذلك .وقد أبان لنا ديوان الرقيحي عن نص قصيدة مما يقال في تلك الحفلات من نظم الشاعر الرقيحي وهي في حفلة زفاف جاء فيها:

أبتدي بالله أول ... عز من مولى وجل
وبطٰه خير مرسل ... من رقى أعلى محل

بيت

زيد رفقتك إلٰهك ... خالق السبع الشداد
الذي أنشا بهاك ... وأظهرك تسبي العباد

بيت

أحضروا آلة حجابه ... قد طلع سعده وبان
والبسوه أسنى ثيابه ... واشعلوا له شمعدان

بيت

قم إلى الحمام بادر ... يا رشا تلك القصور
وانظر انواع المزاهر ... باسمة فيها الزهور

بيت

وانظر الغزلان تحويك ... خادمة لك في المقام

---

(١) الوشلي: نشر الثناء الحسن «خ».

تبتغي ما كان يرضيك حافظة شرط الذّمام

بيت

اعجنوا الحنا بكافور وامزجوه بالغاليه
واحجرين يا حور في القصور العاليه

. . . إلى آخر ما جاء في هذه الزفة.

وهكذا نجد الغناء قد شارك المجتمع في حفلاته وأفراحه وكان له دور في التوجيه والترفيه. ونشأت في ذلك الوقت جماعة من الظرفاء، يحضرون المجالس، ويكون همّهم الأول إضحاك الناس بنكاتهم ونوادرهم، وربما زاحموا بلطافتهم طائفة المغنّين وشاركوهم في حضور المحافل العامة، بل ربما جمع الرجل منهم بين شخصية المغني النشاد، وبين المضحك الظريف، وهم جماعة كبيرة تحدثت عن بعضهم كتب التاريخ، وكان من أشهرهم في القرن الثالث عشر الفقيه أحمد بن محمد العلفي المتوفى سنة ١٢١٣، كانت له مع أهل عصره نوادر ونكات عجيبة، وكان يحفظ شعر المتنبي وأبي العلاء المعري، وحدث أن اجتمع بالوزير الحسن بن علي حنش، فقال له نحن أفضل من الملائكة، فقال الوزير لماذا؟ قال لأن طعامنا من الحبوب والفواكه وطعامهم التسبيح، ونحن في هذه الأيام نطلع إلى الأسواق فنقول سبحان الله ما هذا العنب، سبحان الله ما هذا البلس، سبحان الله ما هذا الفرسك، فنكتفي فيها بالتسبيح ونخرج من الأسواق كما دخلنا. وحدث أن احتاج إلى بعض النقود فكتب إلى أحد الوزراء بحاجته فلم ينل منه شيئاً فأمسى في تفكير، وكتب إلى واحد ممن يعرفهم من رجال الدولة أن ولده مات ولا أجد ما أكفنه به فأحضروا دفنه فبعث إليه كل واحد بكفن ومال، وأصبحوا يتواردون إلى المسجد الجامع بالروضة، فلمّا أصبح قيل له إن وزراء الإمام وأعيان الدولة بالجامع ينتظرونك للجنازة، فخرج إليهم وهو يضحك واعتذر بأن ولده أصابه بلغم وشفاه الله فعلموا أنه خدعهم، وخرجوا وهم يضحكون ونوادر من هذه كثيرة، وهو نموذج واحد ممن كان يزخر بهم المجتمع في ذلك الوقت من ظرفاء ومضحكين[1].

---

(١) انظر ما كتبناه عنهم في صحيفة «الثورة» بعنوان شيوخ صنعاء والنكتة.

ويقترب من هؤلاء المضحكين فئة ممن تتعاطى الشعوذة والتنجيم، ولهم في ذلك حيل وطرق غريبة تكون في الغالب حديث الناس، وهم ما بين منجم وساحر. وقد سخر من أحدهم الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥هـ في قصيدة له فقال:

إذا قابل المحراب شاهدت بومة تهمهم في ليل من الصيف بارد

وقد قدم في ذلك الوقت سنة ١٢٠٠ من المغرب الفقيه عباس بن محمد المغربي، فكانت له حيل غريبة في السحر والشعوذة، من ذلك أنه إذا احتاج إلى دراهم، أخذ بياضاً وقَطّعه قطعاً على صورة النقود المتعامل بها ثم يجعلها في وعاء ويتلو، فينقلب دراهم وكان يضع خاتم أحد الناس في إناء ويجعل فيه ماء ثم يرتل فيسمع الحاضرون في ذلك الإناء صوتاً مفزعاً ويرتفع ذلك الخاتم فيقع في حجر صاحبه وكان قد اتصل بالمنصور عباس بن المهدي فأكرمه وكساه.

ومن هؤلاء المنجم محسن بن عبدالله الحسني المتوفى سنة ١٢٢٤ كانت تبدو منه أمور مضحكة في ذلك فربما قال هذه الزُّهرة فعلت معي كذا وكذا، وهذا المريخ المخنوث فعل معي كذا وكذا، وكان لا يستقر على حال من القلق، فتارة في صنعاء، وتارة في بئر العزب، وتارة بجدة، كل ذلك يفعله على حسب تأثير النجوم حسب زعمه، وحدثت له مع أهل عصره قضية مضحكة وهي أنه بنى بيتاً في بئر العزب، وارتقب له وقتاً يؤسسه فيه فرأى أن أنسب الأوقات للعمارة الثلث الأخير من الليل، فأحضر العمال والعمارين وقال إذا سمعتم صاحب المنارة في مسجد حنظل يسبّح قبل الفجر ألقيتم الحجارة على الأرض ففعلوا وأصبح يتحدث أنه قد اختار وقتاً وضع بيته فيه لا يهدمه الدهر فما هو إلاّ أن خرج منه العمار وأكمله، سقط على الأرض في اليوم الثاني من إكماله فكان الناس يضحكون من ذلك.

وفي القرن الحادي عشر سنة ١٠٧٠ اشتهر رجل من لاعه من بني ناشر يتعاطى الكيميا، وأنه يحيل المعادن إلى ذهب فوصل خبره إلى الإمام المتوكل إسماعيل وهو بصنعاء فَخَصَّصَ له مكاناً خاصاً فاحتال في ترويج صنعته خشية

من الفضيحة وأدرج في البوتقة برادة الفضّة مع تراب قد أعَدّه لذلك ثم نزع من البوتقة سبيكة قطع الإمام أنّها من أثر صنعته، ثم طلب من الإمام السماح بالعودة إلى بلده فأحسن إليه وأكرمه ولما رحل شَكَا به الغرماء أنه استدان منهم مالاً وسارَ عنهم ولم يقضه فعرف احتياله.

وكان الولوع بعلم الكيميا وتحويل المعادن من الأمور التي شغف بها بعض العلماء في هذا العصر ولهم في ذلك حوادث طريفة ولا حاجة لذكرها هنا. وقد وصلت هذه الفكرة إلى اليمن في وقت متأخر عن عصرنا هذا الذي ندرسه حيث شغف بها جماعة ذكر بعضهم صاحب كتاب «نور الأبصار» وأشار إلى عدم جدوى عملهم في هذا المضمار.

وقد ذكر المؤرخ لطف الله جحاف في حوادث سنة ١١٩١ من تاريخه في ترجمة الفقيه محسن بن أحمد بن عبدالقادر أنّه لما رأى الناس غافلين عن علم السيميا والكيميا، بدا له دعوى في معرفتها، فسلك في التغمير طريقاً، فكان له في ذلك ماجريات مضحكة، منها أنه لما سلك طريق الحجاز للحج وجد أقواماً قد فاجأهم المطر فأطفى نارهم، ورأى أهل تلك البادية يتطلبون النار فسألهم هشيماً فجاءوا به، فقال إن رأيتم إن وَجَّدت لكم ناراً ماذا يكون منكم؟ قالوا نجعل لك جعلاً، قال سأدع الله على هشيمكم أن يحرقه فالتفوا عليه، فأمرهم بالتفرق والبعد عنه وأخرج زجاجة، فقابل بها الشمس فلم يشعروا إلا وقد طلع الدُّخان فوقعوا عليه بغباوتهم يتمسحون به ويطلبون دعوته فقال لا أفعل إلّا أن تصلوني بالإرفاد فوصلوه بطعام وسمن وجميع ما يحتاجه المسافر.

وهؤلاء الظرفاء الذين جمعوا بين دعوى العلم المزعوم وبين إضحاك الناس يغص بهم المجتمع، وكانوا سلوة الناس وفاكهتهم.

ومن هذا القبيل الإكثار من حديث الجن والمجانين وأخبارهم المزعجة، وقد ذكر صاحب (طبق الحلوى) في حوادث سنة ١٠٧٥ أنه اتفق أن بيتاً بالقرب من دار النقيب جوهر سعدان حَرَّس على أهله الجان فتكرر الرجم إليه في الليل والنهار حتى كاد يسلب عقول أهله كما سلبهم الاستقرار.

وفي حوادث سنة ١٠٨١ اتفق بصنعاء أن بيتاً بزقاق الغول تسلط على أهله الغول، وكان السبب في ذلك أن نساء البيت رفضن طلب أحد الجان من إحضار ما أراده فأفسد على أهل البيت عدة أيام كلما هيئوه من الشراب والطعام، ثم عمد إلى ملبوسهم الفاخر فقطعه ثم رماه في البئر، وما زال يصابحهم ويماسيهم حتى أتلف معظم ما معهم من المتاع[١].

فمثل هذه الأخبار تشاع بين الناس ويكـون لها رهبـة في النفوس والجن حقيقة نزل بها القرآن إلاّ أن الاختلاف بين العلماء حول مسألة تأثيـرهم على الناس.

على أن هناك جمـاعة من حـذاق الأطبّاء والعلماء عـرفهم اليمن في ذلك الوقت، ولم يكن لهم شيء من الشعوذة والدجل وقد عرف هذا العصر الطبيب اليمني الكبير صاحب كتاب نور الأبصار وهو يعتبر خير تكملة لكتابي القانون لابن سينا والتذكرة لداود.

وكان من أبرز الأطباء في ذلك الوقت الطبيب أحمد الماس بن عبدالرحمن، يقول عنه المؤرخ جحاف أنه لا يجيد الخطَّ العربي وكانت كتبه كلها بالعبرانية، خدم بعض حكماء اليونان وله في صناعته عجائب وغرائب ذكرها من ترجم له.

وقد سد الأطبّاء ثغرة اجتماعية كبرى في حاجة الناس إلى المعالجة ولم يكن قد تطور الطب في ذلك الوقت فيكون الخطأ في المعالجة أكثر من الصواب إلاّ في حالات قليلة.

وكان من أشد ما يصاب به المجتمع في القرون السابقة، هو تلك الأوبئة الجماعية الفتاكة فتنتشر عدواها بين الناس وتصبح طواعيناً تفتك بالعديد منهم، وقد حدثتنا كتب التاريخ عن كثير من هذه الطواعين منها طاعون سنة ١٠٧٩، يقال إنه حصرت موتى أهل الروضة وحدهم فبلغوا نحو ألفين، وموتى أهل خولان بلغوا نحو ثمانية آلاف، وأمثلة من هذا القبيل كثيرة أعاذنا الله من ذلك.

---

(١) طبق الحلوى «خ»

وربما كثر الحديث بين الناس في ذلك الوقت حول العثور على بعض الآثار الحِمَيرية القديمة وما تحويه من كنوز عينية ثمينة، كالذهب والجوهر، فقد عثر في سنة ١٠٦٧ على كنز أثري كبير، وذلك بعد أن حفر أحدهم لأساس بناء قديم فانتهى به الحفر إلى قصر كبير في باطن الأرض، ووجد فيه عمارات حجرية مبنية بالنحاس.

وعثر في سنة ١٠٧٧ على موضع أثري آخر في بيحان، وجد فيه تمثال من الحديد، وفي وجهه قَصَّان، وإذا احتركت الريح يُسمع له صفير.

وأخبار العثور على الآثار في ذلك الوقت كثيرة، وأغلبها لم تدون ولم تحفظ مقتنياتها، إذ لم يكن البحث عنها بهدف المعرفة والتاريخ، وإنما لما تحويه من نفائس عينية كما أشرنا سابقاً.

وبجانب كل ذلك نجد للناس أعيادهم واحتفالاتهم وقد أحدثت الدولة في سنة ١٠٧٣ الاحتفال بشعار عيد الغدير، فكان له شأن كبير عند الناس.

وكانت دولة اليمن في ذلك الوقت قد قلَّدت الدولة العثمانية في الاحتفال بإرسال محمل إلى مكة للحاج اليمني، وتخصيص نخبة من الرجال لحراسته وذلك سنة ١٠٥٨.

إلّا أن أهم الأعياد التي عرفتها المجتمعات الإسلامية عامة هما عيد الأضحى وعيد الفطر وفيهما يحتفل كافة الناس بجميع فئاتهم.

وإذا خرجنا من البحث عن اهتمام الناس بشئونهم الاجتماعية وأحاديثهم واحتفالاتهم، سنجد هناك فئات اجتماعية أخرى كان لها تأثيرها الملموس في الكيان العام للمجتمع.

ففي هذا العصر عرفت أقلية دينية من اليهود وقد تمركزوا في عواصم البلاد الرئيسية وبعض المدن الهامة... وقد عاشوا في أمن واستقرار ولم يشتركوا في حروب الدولة الكثيرة حيث أعفتهم عن الإنخراط في سلك الجندية وتفرغوا لشئونهم الاجتماعية العادية. فكان اليهود يتمتعون بخيرات البلاد في حين كان

يسقط العديد من أبناء البلاد في تلك الحروب التي لا نهاية لها.

وقد عرفت عنهم صناعات يدوية كثيرة من أهمها صناعة الخزف وما يتعلق به وقد أجادوا فيها، حتى وضع صاحب قانون صنعاء أسعاراً خاصة لها تفوق غيرها.

وفي كثير من الأحيان احتكر اليهود عصر الخمر، وباعوه بالخفية لبعض أبناء أكابر الدولة، حتى أن المؤرخ يحيى بن الحسين ذكر في حوادث سنة ١٠٧٤:

«إنه شكا شيخ اليهود النقاش أن كثيراً من المسلمين طلب بيع الخمر منهم، ووجد عنده تواقيع كثير من أعيان الناس وسادتهم وفقهاء من الذين كانوا يشترون منه الخمر».

واستفحل أمر اليهود في عصر الخمر وبيعه للناس حتى اضطرَّ الدولة هذا إلى إصدار أمر سنة ١٠٧١، منعت فيه اليهود من عصر الخمر في بيوتهم، ولكن هذا الأمر لم يستمر تماماً.

وشارك اليهود في الاستفادة من خيرات البلاد ومنافعها طائفة من تجار الهند عرفوا في اليمن بالبانيان. وقد احتكروا أسواق التجارة الكبرى، وتحكموا في مصير سير الأسواق وبيعها، حتى أثَّر هذا في تجارة أهل صنعاء وشكوهم إلى المتوكل على الله إسماعيل، وفي ذلك يقول المؤرخ الجرموزي:

«كان قد كثر في اليمن طائفة البانيان من براهمة الهند لما رأوا من الأمان على أنفسهم وأموالهم، والعدل فيهم وفي غيرهم، فقلَّ مدينة أو سوق لم يخل منهم في برّ أو بحر، أوسهل ووعر، حتى لقد استقروا في سوق شهارة، ومال إليهم الناس للشراء منهم، والاستدانة والمرابحة في أموالهم لِمَا كان الناس عليه من الحرص وطلب الأخف في الثمن، والتيسير في المعاملة. فشقَّ ذلك على كثير من أهل البيع والشراء من المسلمين، وعظم ذلك في صنعاء، وشكوا ذلك إلى الإمام، فأمر أن يجعل مواضع خاصة بهم، فأقبل إليهم أهل الحاجات، فأعاد أهل صنعاء الشكوى، وحضر كبار البانيان وقالوا وماذا يوجد من ذنب إلى أهل

صنعاء، فتجّار صنعاء أفرطوا في الطمع، ونحن قبلنا القليل من الفائدة، وأمهلنا الضعيف، وأخذنا عوض البضاعة بضاعة أخرى، رعاية للأسهل للمعاملين لنا، فأمرهم الإمام بالإبقاء في مواضعهم. ثم إن التجار من أهل صنعاء قالوا لا تسعنا صنعاء وإيّاهم، وازداد أهل الحاجات بالإقبال على تجار البانيان، فأكثر أهل صنعاء الشكوى وقالوا إن أصحاب الإمام نصروا الكفار على المسلمين. ثم إن جماعة من عامة الناس هجموا على إمام الصلاة بالجامع الكبير ومعهم الشموع مسرجة، وكان ذلك بالليل وصرخوا في إمام المسجد قائلين: أيكون دعاؤكم لنصر الكافرين على المسلمين، فسكت عنهم حتى انصرفوا، ثم ساروا والشموع بأيديهم إلى مسجد صلاح الدين وارتقى بعض الناس المنارة وأخذ ينعي الإسلام، فأمر أحد أمراء الدولة في صنعاء بالقبض عليهم، فهرب من هرب وانتهب ثياب البعض منهم. ثم إن أهل صنعاء كتبوا بشأن هؤلاء إلى الإمام وهو في ضوران، فأمر بإحضار رؤسائهم وحبسهم، ثم إن الإمام فكر بأمر البانيان ورجّح له بعضهم جلاءهم من اليمن، بعد أن وجد عندهم أصناماً يعبدونها في حوانيتهم، فلم يرَ هذا الرأي ورأى أن توضع عليهم الجزية على كل نفر قرش في كل شهر[1].

وهكذا كان لتجار الهند من البانيان حركة تجارية كبيرة في صنعاء، خلال القرن الحادي عشر. ومنهم من استقر في البلاد وكان لهم صنم في المخاء يعبدونه، لم يلبث أن هدم بعد أن ألف بشأنه العلامة محمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢، رسالة تدعو إلى إزالته.

وربما انتقلوا إلى اليمن مع أولادهم ونسائهم، وقد جاء في شعر الأديب أحمد ابن الحسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢هـ قوله مداعباً أحد أولاد البانيان:

ولقد فتنت ببانيان لحظة ... يسطو بمرهفه عليّ ويعتدي
قد ضل عن سبل الهداية ليته ... يدنو إلى سبل اللقاء ويهتدي

ويقول الأديب حيدر آغا المتوفى بعد سنة ١٠٧٨ في بانيان آخر يسمى

---

(١) الجرموزي، المصدر السابق.

«رامه»:

فتنت من المجـوس ببـانيـان　　تـظل الشمس عـاكفـة أمـامـه
كـأن بـريقـه لمـا تـبـدى　　بـريق الغـور في أكنـاف رامـه

ولم يعرف اليمن فئات دينية أخرى سوى من ذكرنا. على أن هناك طبقات اجتماعية كثيرة أشرنا إلى بعضهم فيما سبق. وتعرف في الغالب بتخصصاتها ومهنها.

على أن المرأة كانت أهم فئة اجتماعية، وقد حظيت بقدر لا بأس به من التعليم والثقافة، فقد عرف العصر جماعة منهن مُرّسْن بالأدب والثقافة، وكان على رأسهن الأديبة زينب الشهارية، وهي أديبة عصرها، وسنتحدث عنها عند حديثنا عن الأدب.

ومن النساء في ذلك الوقت من عُرفن بالخوض في الفلسفة، حتى رُمين بالزندقة والإلحاد وقد حدثنا المؤرخ لطف الله جحاف عن العالمة زينب بنت محمد ابن الحسين بن الحسن بن القاسم، من أهل القرن الثاني عشر، وكانت مباينة لولدها عبدالله بن إسحاق «لاشتغاله بعلم الفقه والحديث، مائلة إلى الرفض، وقرأت القرآن وحفظت شيئاً من مسائل الاعتقاد، فرمت من خالفها بالكفر، وكانت لا ترى معرفة ولدها شيئاً في جانب معرفتها».

وقد ذكروا عن العالمة زينب بنت المتوكل أنها كانت تنوب في الأحكام عن زوجها محمد بن عبدالله بن الحسين المتوفى سنة ١٢٠١، وربما رجع إليها في بعض أحكامه القضائية.

إلا أن الأميّة قد تفشت بين النساء في الأرياف، حتى بلغ الأمر ببعضهن أنهن لا يعرفن الصلاة، فقد ذكر المؤرخ الجرموزي أن المتوكل إسماعيل اجتمع بنساء في السودة للإحسان إليهن «فتوسطت امرأة بين النساء مخاطبة لزميلاتها قائلة لهن تكذبن على الإمام إنكن مصليات وأنتن غير كذلك، ثم قالت أما أنا فلا أكذب مثلهن أنا لا أعرف الصلاة».

فهذا مثال من الأميّة المنتشرة بين نساء الأرياف. . ومع ذلك فربما كان لبعض النساء أثر كبير في قومها، وربما احتلت مكان الصدارة حتى وصلت إلى منصب الزعامة المطلقة ففي قبيلة يافع تولت الزعامة فيها امرأة في القرن الحادي عشر يقال لها «نور» وكانت تقود الجيش وتحارب، وفي سنة ١١٠١ تصدت لجيوش المهدي صاحب المواهب، وقادت أصحابها حتى أوصلتهم إلى حصن العر وتمنعت هناك فلم يستطع أحد الوصول إليها.

وفي القرن الثالث عشر كانت الشيخة صالحة تتولى زعامة بلاد الحجرية، وكانت لها أخبار يطول ذكرها، ففي سنة ١٢٠٩، بعث والي تعز إلى الحجرية النقيب سعيد أبو حليقة متخلصاً لحقوق الدولة في تلك النواحي، وقصد المذكور، وكانت هي صاحبة الحجرية فتسلم منها مالاً، ثم أرسل إليها أن ثمة بقية قدرها خمسمائة قرش فرانصة، فأبت تسليمها، وأظهرت له إغلاظاً في الجواب، فبعث بجوابها إلى والي تعز وألزمه الرجوع إليها وأخبرها أن المشاحجة في مثل ذلك، ربما جرت إلى فساد طويل، فغاظه جوابها، وقرر ألّا يعود حتى يأتي ببقية النقود، واستضعف أمر تلك المرأة، فجمعت الشيخة صالحة من لديها من الأتباع، وخرجت إليهم كاشفة رأسها تشكو طلب النقيب سعيد وتتظلّم فاجتمع حولها أصحابها وبرزوا للنقيب سعيد، وجرت بينهم معركة وقع فيها قتلى، فرضخ لأمرها وتركها لشأنها.

يقول المؤرخ لطف الله جحاف عن تلك المرأة:

«إنها تتقلد السيف، وتحمل الترس، وتقود الرجال، وتلبس النعال مترجلة على أتم صفة من صفات الشجاعة».

ومع ذلك فالمرأة هي المرأة في كل زمان ومكان، تهتم بشئونها الخاصة في الدرجة الأولى من حيث العناية بجمالها وملبسها، وقد شكا كثير من العلماء من تبرجهن في الأسواق، وخروجهن من البيوت، فقال العلامة يحيى بن المطهر:

كذا النساء كشفن لساق أو لمعصم

متبرجات مظهراتها بلا تلعثم
وقبلُ قد سألنا كم يرخين خلف القدم

ويقول القاره في ذلك:

وأبحنـا لكل أنثى أن تمـد الطر ف للمشتهى ولا تعـويـل
يتفـرجن من رءوس الـعـوالي يتبـرجن مـا هنـاك عـدول

وقد رأى بعض الحكام المشددين في القرن الثالث عشر، أن يمنع النساء من دخول الحمام ودخول الأسواق، والخروج من البيت من بعد أذان المغرب، وهذا غاية التشديد والمضايقة، ولكن هذا الأمر لم يدم طويـلاً، وبقيت المرأة تعتني بجمالها، وكانت أثيرة عند الناس كربّة بيت وأم وزوجة، وهي نصف المجتمع وقد شاركته في الأفراح والأحزان.

في الحياة الدّينيّة والثقافيّة

تطبعت الشخصية اليمنية بالدين الإسلامي، وكان لهم في الدفاع عنه ما حُبِّر في كتب التاريخ، ولعله من تحصيل الحاصل، أن نشير إلى حرصهم في التمسك بهذا الدين، وذكر عباداتهم وجهادهم، والأمر معروف ومشهور، وإنما نذكر من الدين هنا ما له صلة بالثقافة والعلم، وقد امتزج هذان الأمران ببعضهما البعض، وأصبح من المحال التفريق بينهما، فأغلب ما عرف من ثقافة في هذا البلد، إنما أتى لخدمة الدين وشرح الكتاب والسنة.

وقد كان للعلم مكانته وقداسته لتلك الأسباب الدينية، وفي العصور التي نعنيها، كان اليمن قد ورث المجد الإسلامي لحضارات العالم الإسلامي السابقة، واستفاد من أعمالهم وأفكارهم، وقد ساعد في وجودها وانتشارها أنها وجدت صدوراً واسعة رحبة ونفوساً متسامحة لا تعرف التعصب المذموم، وكان لانفتاح المذهب الزيدي على أفكار الملل والمذاهب الأخرى، أثر كبير في إذكاء الحركة العلمية في البلاد.

ثم كان لصيحات المفكر اليمني محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠، في ترك التمذهب والتعصب المذهبي أثر كبير، على من أتى من بعده، فكان خير خليفة له ظهر في عصرنا الذي ندرسه هو العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم المتوفى نحو سنة ١٠٩٩ ومن تلاه من فطاحلة المفكرين، كالعلامة صالح بن مهدي المقبلي المتوفى سنة ١١٠٨، والعلامة محمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة

١١٨٢، والعلامة محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ وغيرهم.

وكان لكتابات هؤلاء الأثر الكبير في ترك التعصب والتقليد، وغدا المجتمع اليمني مسرحاً لكل الأقوال والأفكار الإسلامية على مختلف أنواعها، فمن علماء مجتهدين لا يلتزمون بأي مذهب من المذاهب المعروفة إلى سُنّية إلى شيعة معتدلين وغلاة إلى حنابلة متشددين إلى ظاهرية إلى معتزلة . . إلخ . . إلخ.

وكل هؤلاء حوتهم بيئة اليمن العلمية وستجد السر في هذا الانفتاح، يعود أساساً إلى طبيعة المذهب الزيدي المتسامحة مع سائر الفرق المخالفة له، وهذا ما يفسر لنا أيضاً توسع العلماء في اليمن بكتب أهل المذاهب الأخرى، وحرصهم على نسخها وتناقلها فيما بينهم.

فتسمع مثلاً صيحات العلامة المقبلي في ترك التقليد والتعصب للمذاهب، حيث يقول: (استحكم الشر، وصار الناس شيعاً، يولد المولود في قوم لا من الانصاف شيئا، بل يجد شيعته مطبقين على من يخالفهم ليس على شيء، وإنما هي فتنة حادثة في الإسلام، ويمدحون نفوسهم بكل خير، وينزهونها عن الشر، ويعزون إلى المخالف نقيض ذلك).

هكذا كانت حالة الناس في عصر المقبلي الذي هو عصرنا الذي ندرسه، وقد زادوا غلوّاً في بعض المدن الإسلامية الكبيرة.

ولم يسلم من هذا أهل اليمن أنفسهم، إلا أن انفتاح البلاد على سائر النِّحَلِ والمذاهب، جعل هناك فئات من العلماء ترى الرجوع إلى الحق ديدَنَها، ثم تستفيد من بعضها البعض، دون أن يكونوا قد ورثوا هذا عن آبائهم وأجدادهم كما هو الحال عند غيرهم.

وقد أنصف المذهب الزيدي العلامة المقبليُّ على الرغم من اعترافه بعدم تقليده له وسائر المذاهب الأخرى.

(١) العلم الشامخ

(٢) نفسه

فالمذهب هنا على خلاف المذاهب الشيعيّة الأخرى إذ نجده مثلاً قد أنصف الشيخين. يقول المقبلي: «فالزيدية ليسوا من الرافضة، بل ولا من الغلاة، فإنهم الآن مستقر مذهبهم الترضي على عثمان، وطلحة، والزبير، وعائشة رضي الله عنهم، فضلاً عن الشيخين»(١).

وإذا كان المذهب الزيدي قد لقي إجحافاً كبيراً خارج اليمن، حيث نجد النظرة إليه نظرة عداء، وأنه مذهب ليس من المذاهب الموافقة وقد سمع المقبلي أحدهم وهو في مكة يقول عن هذا المذهب(٢): «أنا لا أدري ما الزيدية، إنما عندي لهم من البغض ما لا حدّ له».

نجد في النقيض من ذلك، تسامح هذا المذهب مع من خالفه، ولم ير التحامل على أحد منهم بل بلغ به التسامح إلى أن يستفيدوا منهم في أحكامهم الفقهية فيما ينقلون في كتبهم،يقول المقبلي: (وإذا نظرنا إلى ما عليه أهل المذهب الزيدي من الرفع من شأن المذاهب الأربعة، وخلط مذاهبهم بمذاهبنا في بطون الكتب، علمنا أن الأمة مرحومة)(٣).

و(اجمعوا على عدم تخطئة من خالفهم)(٤).

وهذا بعض من الانفتاح الذي أحدثه هذا المذهب، وما أثَّر به على الحركة العلمية في هذا العصر وما قبله.

وقد استوعب المذهب الزيدي سائر الفرق والأقوال، من خلال ذلك الانفتاح المشار إليه سابقاً.

فظهر منهم شيعة يميلون إلى مذهب الإمامية ويرون إنصافهم لأنهم (لم يشتغلوا بأذية الزيدية في حين يرميهم غيرهم بالابتداع)(٣).

وكان لهم بقية في الفترة التي ندرسها لعل أشهرهم العلامة الحسين بن علي

---

(١) نفسه (٣) نفسه
(٢) نفسه (٤) نفسه

العبالي المتوفى سنة ١٠٨٠ ، (كان من غلاة الجارودية بلا معرفة هناك ولا دراية، بل على جهة السماع والتقليد، ومع ذلك كان يضلل أئمة الزيدية، ويقدح في جناب الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى لقوله: (وحكم أبي بكر في فدك صحيح) وأيضاً في الإمام يحيى بن حمزه في هذه القضية، (ويكفر الطعن على المعتزلة، وينكر ظهور الدجال) إلى غير ذلك.

وكان العوام منهم من أكثر الناس تحمساً للتشيع المغالي مع جهل، وقد قال المقبلي مصوراً حالة العوام من الزيدية (وقد سرى داءالإمامية في الزيدية في هذه الأعصار حتى تَظَهَّرَ جماعة مع مذهب الإمامية وهو تكفير الصحابة ومن تولاهم، وانتموا إلى بعض أولاد الدولة لأنه لا اعتراض عليه. وأصبح الحمقى يصرحون بذلك، ويجعلون النصب تولي الصحابة، كما جعل أولئك الرفض تولي أهل البيت)(١).

وقال الشوكاني يصف بعض شيعة عصره من العوام:

تشيّع الأقوام في عصرنا ... منحصر في أربع من بدع
عداوة السنة والثلب للأسلاف ... والجمع وترك الجمع (٢)

إلى معتزلة خلص وكان لهم بهذا المذهب صلة قوية لم يؤثر فيها تقادم الأزمان بينهما وإجماع الأمة على القدح فيه، فالزيدية كما يقول المقبلي: (هم معتزلة في كل الموارد إلّا في شيء من مسائل الإمامة) .حتى قال العلامة الهادي بن إبراهيم الوزير: إن الزيدية والمعتزلة فرقة واحدة إذ لم يختلفوا فيما يوجب الإكفار والتفسيق)(٣).

وحتى قال أحد الأشاعرة: (أما الزيدية فلا ينبغي أن يعدوا فرقة مستقلة وإنما هم مقلدون للمعتزلة في الأصول، وللحنفية في الفروع)(٤).

---

(١) طبق الحلوى «خ»
(٢) العلم الشامخ
(٣) ديوان الشوكاني ص٢٣٤
(٤) العلم الشامخ

وهم (يوافقون المعتزلة في العقائد، وأما الفروع فأئمتهم يختلفون، منهم من يغلب عليه مذهب الحنفية ومنهم من يغلب عليه مذهب الشافعي موافقة لا تقليداً، ومنهم من لم يكن كذلك بل شأنهم شأن سائر المجتهدين).

وما زلنا نجد تراجم مفيدة لبعض أعلام المعتزلة من الزيدية في الفترة التي ندرسها، وقد قال صاحب طبق الحلوى في وصف العلامة علي بن الحاج المتوفى سنة ١٠٤٦: (إنه كان على رأي المعتزلة).

ويقول في ترجمة العلامة عبدالهادي بن أحمد الحسوسة المتوفى سنة ١٠٤٨: (كان مبرزاً في أصول دين المعتزلة) كذا.

وفي ترجمة أحمد بن صالح العنسي المتوفى سنة ١٠٦٩ (كان متبحراً في علم الكلام على قواعد المعتزلة).

وفي القرن الثالث عشر يقول العلامة جحاف في ترجمة محمد بن أحمد لقمان المتوفى ١٢٢٣: (لزم أقاويل المعتزلة ورغب عما سوى ذلك المذهب)[1] وآخرون لا حاجة إلى ذكرهم هنا.

... إلى سنّية لم يتقيدوا بأقوال المذاهب الأربعة المعروفة وقد عرف هذا المذهب جماعة منهم في عصرنا هذا العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم المتوفى نحو سنة ١٠٩٩، وقد أنشأ في المذهب الزيدي وألّف في تراجم علمائه وتاريخه الكثير من الكتب، إلّا أنه في آخر الأمر تجرد للتصدي لبعض غلاة المذهب مع اعتزازه به، ووضع عدة رسائل توحي بميله إلى أهل الحديث، لعل أشهرها رسالة (صوارم اليقين في الرد على شكوك القاضي سعدالدين)، ويعني به سعدالدين المسوري أحد أعلام عصره في الفقه والحديث، وقد انتقده في رسالته هذه حول مآخذه على أهل الحديث من غير الزيدية، وله رسالة أخرى بعنوان (مزيل الخفى في تعظيم صحابة المصطفى)، ويقول المؤرخ جحاف أنه عرف بالسنّي.

وتلا العلامة يحيى بن الحسين جماعة أخرى من المقتفين آثار أهل الحديث

---

(١) درر نحور الحور العين «خ»

لعل أشهرهم العلامة المقبلي، والأمير الصنعاني، ومحمد بن علي الشوكاني، ويحيى بن مطهر بن إسماعيل المتوفى سنة ١٢٦٨ وغيرهم.

ولم نجد منهم من تحول في تسننه إلى تقليد مذهب آخر سوى ما ذكر عن الفقيه عبدالرحمن بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١٠٦٨ يقول عنه المقبلي: (يعرف من تصرفاته أنه مال إلى المذهب الأشعري، وهو من أبناء الزيدية). ويقول المقبلي: (وكان الحيمي المذكور ممن يصرح باستحالة معرفة الأحكام من الكتاب والسنة تبعاً لمتأخرة الأشعرية فإن حظهم من ذلك الأوفر، مع أن المذكور متضلع من الحديث وأصوله).

وكان قد عاش في صنعاء وأخذ يدرس في الأمهات الست ونحوها من كتب الحديث فاعترضه بعض العلماء وساعده القائم في عصرهم وهو الإمام المؤيد محمد بن القاسم فمنعه من التدريس وحبسه، واحتجوا عليه أنه يملي الحديث ولا يبين المحكم من المتشابه»[1]، وقال عنه صاحب (طبق الحلوى): «ونقل عنه أنه انتقل عن مذهب الهدوية إلى مذهب آخر وحصل بينه وبين الإمام المؤيد محمد بن القاسم وحشة، وكان العلامة الحسين بن القاسم يكافح وينافح عنه».

فهذا هو الرجل الوحيد الذي آثر في تسننه تقليد مذهب معين أمّا البقية فهم أهل اجتهاد واختيار.

... إلى ظاهرية، وهو مذهب انقرض منذ مدة طويلة ولم يعرف في الأوساط الإسلامية إلا من خلال ما جاء في كتب ابن حزم وبعض تلامذته وفي اليمن في الفترة التي ندرسها وهي فترة جمود وتأخر نجد هذا المذهب قد لاقى ترحيباً من بعض علماء اليمن وظهر فيه العلامة الحسن بن أحمد الجلال المتوفى سنة ١٠٨٤، داعية إلى هذا المذهب، ومؤيداً لأفكاره، وقد أرّخ ذلك المؤرخ يحيى بن الحسين في (بهجة الزمن) فقال في حوادث سنة ١٠٦٠: (نسب إلى السيد الإمام الحسن بن أحمد الجلال، الجنوح إلى مذهب الظاهرية وطريقة ابن حزم من العمل بالبراءة الأصلية وإسقاط الاحتجاج بالأحاديث الآحادية،

---

(١) العلم الشامخ

وقصر التعليل على المتواتر وإنكاره حجيّة العوام، ودليل المفهوم وتحليل المتعة وإسقاط الأذكار في الصلاة والاعتدال والقول بأن الإمامة لا منصب لها معين، بل هي صالحة في جميع الناس وتحليل الزكاة للأغنياء والهاشميين وعدم وجوب الجمعة إلا بحضور الإمام الأعظم إلى غير ذلك.

فهذا المذهب انتهى أمره إلى أن وجد من ينقب عنه في عصرنا هذا ولا زال أتباع المذهب الظاهري من الزيدية، يظهرون من حين لآخر حتى نسمع بآخرهم في القرن الثاني عشر، وهو الفقيه علي بن محمد طامش المتوفى سنة ١١٨٩، يقول عنه المؤرخ جحاف: (لازم حضرة السيد محمد بـن إسماعيل الأمير وسمعه يثني على مؤلفات ابن حزم ويصفه بالإنصاف فتطلّب من كتبه بصنعاء فلم يظفر منها بشيء فسار إلى مكة وأخرج منها (المحلى) لابن حزم واشتغل به دهراً طويـلاً وجنح من بعد إلى مذهب الظاهرية وكان لا يعمل إلا بالحديث الصحيح، فنال من العلم منتهى مراده وكان حريصاً على تعليم الناس إذا رأى النازلين بصنعاء من الحضارم والمسافرين قصدهم، وحسن لهم العمل وإفراغ الوُسع فيما يرضي الله تعالى، وكان يذهب في اليوم الشديد البرد إلى المتعلمين إلى منازلهم وعلى عاتقه كتبه ويعلمهم)[(١)].

فهذا الرجل وغيره أمثلة نـادرة من الشخصيات المتفتحـة التي حفل بهـا عصرنا هذا.

على أن السر في ازدهار العلم في اليمن خلال فترة القرن الحادي عشر وما بعده يعود في الأساس إلى ما أخذ به أولئك الأعلام من اجتهاد وتحرر في العقائد ولم يأخذوه كتقاليد وموروثات مسلَّم بها، ففي هذا العصر كثر المجتهدون وهي ظاهرة تكاد تكون فذّة في العالم المحيط بهم من أقصاه إلى أقصاه وكل عالم ظهر هنا لا بد أن تجد له اجتهاداً في فرع من الفروع الفقهية حتى أن بعضهم شرط الاجتهاد في الحاكم والبعض خالف في ذلك.

ومن غرائب اجتهادات بعض العلماء في ذلك الوقت ما انتهى إليه اجتهاد

---

(١) درر نحور الحور العين «خ»

العلامة علي بن الحسين الشامي المتوفى في القرن الحادي عشر من كراهة شرب الخل والقهوة، وإرسال الذؤابتين وقد أدّبه على ذلك أحد حكام عصره بالسجن[١].

ومن اجتهادات العلامة علي بن إبراهيم الأمير المتوفى سنة ١٢١٩هـ أنه كان لا يرى الرأي ولا القياس ولا التقليد ولا الاستحسان ويقول بأنه لا منسوخ في القرآن أصلاً[٢].

وكان الخطباء والوعاظ قد مثّلوا جانباً من الحركة الثقافية والدينية ولهم في ذلك فنون متعددة، وقد ذكروا عن العلامة علي بن إبراهيم الأمير أنه كان (يجلس في موضع وعظه وينصب بين يديه كتاباً في التفسير فيقرأ الآية ثم يغمض عينيه فتسمع منه بحراً متلاطماً لا يتردد في لفظه أو يحصر في كلمة)[٥] وكان يقول في بعض وعظه:

طبل شيطاني ومزمار الهوى ... ضربا والنفس باتت ترقص
ورياض القلب قد أهملها ... عدم التقوى فباتت تنقص
أعرب اللفظ بقرآني وكم ... ألحن المعنى فهل لي مخلص
يا لقومي لم أجد محتسباً ... فاضلاً عن منكر يفحص

وكان كثيراً ما يحتفل للمولد النبوي فيجمع الناس له في ربيع الأول فيقرأ عليهم مولد النبي ﷺ وينشر فضائله ويكلم الناس في هذا الشأن. يقول جحاف: (وانحرفت عنه قلوب كثير من الأعيان والمنتسبين إلى العلم وبدّعوه فبدّعهم بحالاتهم، وأنكر عليهم عمائمهم الكبار، وإنكار طول أكمام قمصهم ومشيتهم الخيلاء وتجنبهم للضعفاء والمساكين).

ولما كان المذهب السائد في اليمن رحب الصدر متسع الاتجاهات امتزجت

---

(١) طبق الحلوى «خ»
(٢) درر نحور الحور العين «خ»
(٣) طبق الحلوى «خ»
(٤) طبق الحلوى
(٥) درر نحور الحور العين

به سائر المذاهب مع تسامح وتفهم، بل عرف عن بعض العلماء في ذلك عدم التحيز إلى مذهب معين، بل عدم التمذهب أصلاً وحتى احتار بعض العلماء في إطلاق اسم المذهب الزيدي على المذهب السائد في اليمن، فقال العلامة إسحاق بن يوسف بن المتوكل المتوفى سنة ١١٧٣هـ في سؤال شهير وجهه إلى علماء عصره يقول فيه:

أيها الأعلام من ساداتنا ... ومصابيح دياجي المشكل
خبرونا هل لنا من مذهب ... يقتفى في القول أو في العمل
أم تركنا هملاً نرعى بلا ... سائم نقفوه نهج السبل

إلى آخرها فأجاب عليه جمع كثير من العلماء منهم العلامة الحسن بن إسحاق ابن المهدي الذي يقول في أول جوابه:

هذا هو نظم سؤال جاءنا ... من بليغ لا يجاري مقول
قال فيه (هل لنا من مذهب ... يقتفى في القول أو في العمل)

إلى آخرها وأجاب عليه غيره ولولا خشية التطويل لأوردنا الكثير من ذلك.

ثم إنها سادت نظرة عامة من حسن الظن بالمسلمين وعدم الدعوة بالتكفير والإنكار بين كثيرمن صفوف العلماء. ونسمع العلامة إسحاق بن يوسف المتوفى سنة ١١٧٣ يقول في ذلك (إن إحسان الظن بالمسلمين، وحمل أفعالهم على السلامة، وتأويل ما ظاهره خلاف الحسن، مأمور به شرعاً وهذا في حق سائر المسلمين)(١).

وبهذا المنطق العلمي نجد اليمن لم يعرف التعصب أصلاً فكان متبع المذهب الشافعي، يرجع في القضاء إلى تابع المذهب الزيدي والعكس نجد الفقيه عبدالرحمن بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١٠٦٨ يرجع من مذهبه الزيدي إلى المذهب الشافعي، وكذا نجد الفقيه أحمد بن علي بن مطير الحكمي المتوفى سنة ١٠٦٨ يرجع من مذهبه الشافعي إلى المذهب الزيدي ويشرح كتاب الأزهار

---

(١) الوجه الحسن ص١٠

وأشياء من هذا.

ويحدثنا العلامة إسحاق بن يوسف عن الوحدة المذهبية بين الفريقين فيقول إن علماء اليمن قد تلقوا الكتب الإسلامية بالقبول وأخذوا من أدلتهم في الأصول والفروع وأسمعوهاواستجازوها، إلا أنها لم تظهر في اليمن فيما علمت إلا من أيام العلامة عبدالله بن حمزه وقبله لأن الهادي قريب العصر من البخاري، فخروجه إلى اليمن بينه وبين وفاة البخاري نحو ثلاثين سنة أو تزيد أو تنقص، ويبعد في مثل هذا الوقت أن يكون اشتهر كتابه في الأقطار [1].

وقد ذكر العلامة محمد بن إبراهيم الوزير، أن العلامة أحمد بن سليمان نقل عن كتب الصحاح في كتابه (أصول الأحكام) أن الأئمة أخـذوا تلك الكتب وسمعوها عن المشايخ، فقد ذكر العلامة عبدالله بن حمزة في كتابه (الشافي) طرقه في رواية كتب الحديث وأسنـدها إلى مؤلفيهـا، ثم من بعده من الأئمـة حتى اشتهرت وانتشرت وقرئت في صنعاء أيام صلاح الدين ووالده. وأما العلامة يحيى بن حمزه، والعلامة المهدي، فقد علم اعتمادهما على ما في تلك الكتب من الأحاديث كما تبينه التجريحات.

وأما العلامة عزالدين بن الحسن فإنه رحل في طلب الحديث إلى العامري في تهامة وأسمعه واستجازه.

وفي عصرنا الذي ندرسه أخذ المتوكل إسماعيل الحديث عن الفقهاء في تعز، ثم ابنه محمد بن إسماعيل، أخذ العلم عن الشيخ عبدالعزيز المفتي في أب.

وكان علامة اليمن الحسين بن أحمد زبارة يأخذ علم الحديث عن الشيخ الطاهر بن الحسين الأهدل.

وكان العلامة عبدالله بن علي الوزير المتوفى سنـة ١١٤٧ يقرر في كتـاب (تيسير الوصول) لابن الدَّيبع في جامع صنعاء[2].

---

(١) نفسه ص٢٩

(٢) نفسه ص٢٨ وما بعدها.

وأشياء من هذا القبيل لا حاجة لذكرها هنا وإنما أردنا أن ندلل على أن العلماء قد عاشوا في وئام تام لم تعكره خلافات مذهبية كما هو الحال عند أهل الأمصار.

وكان لهذا أثره في إذكاء الروح العلمية الحقة ووجود التنافس العلمي الشريف بعيداً عن التعصب والنزاع.

وقد ازدحمت صنعاء بالعلماء من سائر الفئات، وشاركها في ذلك بعض أمهات المدن اليمنية الأخرى، حتى قال العلامة الشوكاني وهو يشرح مزية علماء صنعاء في استقلالهم بالرأي وحرية الاجتهاد (قل أن يوجد بمدينة من المدائن ما يوجد الآن في صنعاء من رجوع أهل العلم بها إلى ما صح عن الشارع وعدم تعويلهم على التقليد وطرحهم للمذاهب عند قيام الدليل الناهض فإن هذه مزية وفضيلة لا تكاد تعرف في سائر الأقطار إلا في الفرد الشاذ)[1].

وشارك في تلك المزية بعض أمهات المدن اليمنية الأخرى.

ومع ذلك فإن العلماء أكثر الناس تواضعاً وعدم احتفال بأمرهم، حتى قال أحد الوافدين إلى اليمن وقد أنزله أحدهم في بيته (أنتم معاشر اليمانين لا تنزلون العلم منزلته، فقال له ما استنكرت من طريقتنا؟ قال رأيت اليوم مجلسكم للقراءة، فرأيت ما لم أره من الاطلاع على الفقه والتحقيق، بحيث إن كل إنسان من الحاضرين لو برز بإقليم من غير اليمن ،لعلا صيته وقل نظيره ،ومع هذا فأنتم لا تعتمّون إلا بعمائم سود، ولا تلبسون الجيد من الثياب)[2]، فهذه حالة العلماء في ذلك الوقت لا يؤبه لهم في كثير من الأحيان وقد زاد بعض الناس على هذه الخصلة خصلة أخرى، وهي غمط محاسن أعلامهم، فقد قال الشوكاني :(لا ريب أن علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار (اليمن) لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلا مجرّد التقليد لمن لم يطلع على الأحوال، فإن في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف، يتقيدون بالعمل بنصوص

---

(١) البدر الطالع

(٢) مطلع البدور «خ»

الأدلة ويعتمدون على ما صح في الأمّهات الحديثية ولا يرجعون إلى التقليد رأساً، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو مذهب من المذاهب من شيء منها، بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله، مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة وعدم إخلالهم بما عدا ذلك، ولو لم يكن لهم من المزية إلا التقيد بنصوص الكتاب والسنة وطرح التقليد فإنها خصيصة خص الله بها أهل هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة ولا توجد في غيرهم إلا نادراً)[1] إلى أن يقول: (ولكن أهل اليمن جبلوا على غمط محاسن بعضهم البعض ودفن مناقب أفضالهم).

فلهذا السبب جهل الكثير من الناس أمر اليمن في العلم والثقافة.

وإلا فالعلم قد ازدهر في هذه الفترة وكان له شأن كبير. وقبل الدخول في تفاصيل مناحي الثقافة التي عرفتها اليمن في ذلك الوقت نقف قليلاً عند صور تبين حالة العلم والعلماء في فترات ما بعد القرن العاشر الهجري، فقد لقي العلماء تشجيعاً كبيراً من قبل بعض الحكام، وقد ذكر عن الإمام المتوكل إسماعيل، أنه كان يعقد مجلساً خاصاً للعلماء يباحث معهم في شئون العلم، ففي سنة ١٠٨٣ ذكر صاحب طبق الحلوى أن الإمام عقد محفلاً للدرس في (مشكاة المصابيح) للحافظ التبريزي.

وكانت كتب المتوكل وحدها قد بلغت نحو ١٣ ألف كتاب وكانت المناقشات العلمية الدائرة بين العلماء من العوامل الرئيسية في إذكاء روح الثقافة في ذلك الوقت وقد سجلت لنا كتب التاريخ بعضاً منها، ففي القرن الحادي عشر في سنة ١٠٥٨ وقعت مناظرة علمية كبيرة بين الإمام المتوكل إسماعيل والعلماء، واتصلت بينه وبينهم مطارحات حول التكفير بالإلزام أو العكس، ووضع في ذلك رسالة العلامة عبدالقادر بن علي المحيرسي، ومنها مناقشة حول مسألة التأديب بالمال وحول مسألة المكوس والجباية، وحول

---

(١) البدر الطالع

الزكاة إلى غير ذلك وكانت تؤلف في كل مسألة عدة رسائل من قبل علماء العصر .

وربما وصلت أسئلة علمية من خارج اليمن إلى العلماء فأذكت نشاطاً كبيراً بينهم ، وهذا ملك الهند السلطان أورنقزيب يبعث بمسألة عويصة في الفرائض سنة ١٠٧٩ إلى علماء اليمن يقول عنها صاحب طبق الحلوى إنها (طلسم مستور) وقد فشل العلماء في حلها (وأجاب عنها القاضي المهدي بن عبدالهادي الثلائي ، وبعض علماء الشافعية ، إلا أن الكل قد عجز عن حل السؤال وأن الأمر في حله مشكلة) ،يأتي العلماء إلى اليمن فيكون لهم أثر في بعض المناقشات العلمية والأدبية فهذا العلامة جعفر الواعظ ، القادم إلى اليمن يصل بعقيدته في المذهب الأشعري ، فتدور بينه وبين العلامة أحمد بن أبي الرجال ، مناقشات علمية كبيرة حول مسألة الرجاء والشفاعة يقول المؤرخ يحيى بن الحسين : (احتد طبع كل منهما حتى أشار الإمام إلى القاضي أحمد بن أبي الرجال بتخفيف المقال)[١] .

وفي القرن الثالث عشر دارت مناقشة كبيرة بين علماء العصر حول (ماهية ماء الورد ، هل يعد من الطيب أم لا ، وكان على رأس من خاض في هذا العلامة يحيى بن المطهر ، وألّف رسالة في ذلك بعنوان (هصر الغصن الرطيب)يقول : (وسببها النزاع بين بعض الإخوان في شأن ماء الورد وكان سبق في بعض الأذهان أني قائل بأنه ليس بطيب مطلقاً وليس كذلك ولكني قائل أنه ليس بطيب شرعي فلا يتناوله خطاب الشارع محمد ﷺ فيما أمر بقبوله ونهى عن رده لعدم معرفته لتأخر وجوده وطال النزاع في ذلك)[٢] .

وربما دارت هناك مناقشات أدبية بين الأدباء في مسائل الأدب واللغة والشعر ففي مجلس ضم العلامة الحسين بن عبدالله بن مسعود الكوكباني ؛ والأديب أحمد ابن محمد الحيمي ، يدور النقاش في مسألة نحوية وهي حول حذف عامل كان عند قول ابن الحاجب ويحذف أي وجوباً مع القرينة والعوض ، وجوار مع القرينة ، وقال العلامة الحسين مسعود ، المراد بحذف العامل أي عامل كان فقط ، لا سائر

---

(١) بهجة الزمن «خ»
(٢) الأسلاك اللؤلؤية «خ»

أخواتها. وعبارة ابن الحاجب تقتضي حذف عامل كان وأخواتها كما عرفتم، فقال الحيمي نعم إنما اختصت بالحذف كان فقط لكثرة استعمالها[1] وهكذا يكون النقاش.

وفي مجالس الأديب الحيمي، يكثر الجدال الأدبي بينه وبين معاصريه ولا بأس بإيراد شيء من ذلك ففي مجلس جمع بينه وبين الأديب الحسين بن القاسم ابن محمد، دار النقاش حول قول ابن الحاجب في الكافية (وحذف المفعول إن استغنى عنه، وإلا أظهرت، قال المذكور لا يجوز حذف المفعول الثاني من الفعل الأول، فقال الحيمي: في كلامك نظر لأن القرينة موجودة، وهي منطلق آخر).

وقد وصف العلامة صلاح بن الحسين الأخفش المتوفى سنة ١١٤٢ الحياة العلمية في صنعاء فقال:

وكم بهـا من طـالب فقـير	يقنـع في الأرزاق باليسير
لا يجعـل الفقـر لـه ذريعـة	إلى اطـراح العلم والشريعـة
مستخـرج بفكـرة سـريعـة	جـل معـاني كتبـه البـديعـة
مـوزع أوقـاتـه شـطريـن	عـلى الذي ينفـع في الدارين

وهذا يجرنا إلى الحديث عن طلبة العلم والتعليم وقد شكل التعليم هنا لُبّ الحصيلة الثقافية لليمن، وكان الطلبة في الغالب ينزلون أماكن معدة لهم في المساجد يقال لها (المنازل)[2]، ويسكنها غالب الطلبة المهاجرين من القرى والمدن، ويغلب على بعضهم الرقة والخشية، وقد حدّثنا المؤرخ قاطن، عن واحد من سكان المنازل، وهو عبده بن أحمد الصعدي المتوفى سنة ١١٤٩، انه سكن من ابتداء طلبه العلم إلى أن توفي بمنزله من منازل جامع شبام، وكان محط رحال الفضلاء، ويقصد من كل محل لكتابة البصائر يقول عنه قاطن (وكان لا يسير عند أحد أصلاً إذا أراد أحد أن يضيفه حمل الطعام إلى منزله ولا يمكنه الخروج في الليل وحده لأنه كان يستوحش من الظلمة، وكان فقيراً وملبسه

---

(١) طيب السمر «خ»

(٢) مفردها منزلة

وفراشه لا يساوي خمسة عشر قرشاً).

فهذا نموذج واحد من سكان المنازل، حيث يغلب عليهم الرقة والخشوع وقد تخلوا عن روابط الدنيا حتى إذا ما تزوج أحدهم وخرج من منزلته، دخل فيما دخل فيه الناس.

وكان ولع الناس بالدراسة دافعاً رئيسياً للمنافسة فيها، وهذا يكثر في المدن الكبيرة، أما الأرياف فيقل فيها التعليم حتى أننا نجد كثيراً من العلماء يشكون من شدة الجهل في البَوَادي ويدعون إلى إرسال معلمين إليها.. فالعلامة محمد ابن إسماعيل الأمير يكتب رسالة إلى الإمام المهدي (يحرضه فيها على بعث معلمين للصلاة في جميع القرى والمدن والبوادي)، وكذا الشوكاني في كتابه «العدو الصائل».

وربما عم الجهل في بعض المدن الرئيس والمرءوس، فهذا الأمير في قصيدة يشكو غلبة الجهل في زمانه، فيقول فيها:

قد فشا الجهل فيه حتى غدا	العلم على طالبيه عاراً ووصمة
فإمام الزمان وهو أبو الخلـ	ـق نراه في الجهل يشبه أمه

ويصف الجرموزي في القرن الحادي عشر شدة الجهل في بلاد الرصاص وما يتصل بها من بلاد المصعبين وغيرها فيقول: (جهلة غمر وأنعام مكلفون لا يوجد فيهم من الألف من يصلي أو يعرف شيئاً من التكليف الشرعي ولا العقلي)[1]، ويصف سلطانهم بأنه جاهل لا يعرف شيئاً وأنها كانت تصله رسائل من الإمام، (فكانت تقرأ عليه فلا يعرف معانيها وربما يضحك ويقول هذا كلام مليح، ولكن واش يبغي مني الزيدي).

فهذا في رؤسائهم فما بالك بمرءوسيهم.

إلا أن المدن الكبيرة قد شهدت حركة علمية لا بأس بها وكان للأساتذة طرقهم في التدريس.. فطريقة العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة

---

(١) الجرموزي: تحفة الأسماع «خ»

١١٩١ (أن يبدأ مع المبتدئين بقراءة النحو، فيحققون معه متوسط المؤلفات منها، ويطالعون معه الكتب المطولة كالألفية وما عليها من الشروح، وشرح الكافية فنجم الدين الرضي، ثم ينتقلون إلى قراءة شرح التلخيص في المعاني والبيان، ومنهم من يعارض بقراءة المطول، ومنهم من يؤخر، ثم ينتقلون إلى شرح الغاية في الأصول، ثم ينتقلون عنها إلى الكشاف، وهذه عندهم النهاية في التحقيق، وهي طريقة العلامة أحمد بن الحسين الهبل، ثم ينتقلون إلى صحيح مسلم وشروحه ولا يتجاوزونه إلى غيره وإنما يطالعون سائر الكتب الحديثية مطالعة)(١).

فهذه طريقة مدرس في التدريس ومنهجه في قراءة الكتب المقررة في التعليم، وقد أبانت عن تلك الكتب التي يكلف الطلبة بتحقيقها.

أما طريقة العلامة أحمد بن عبدالرحمن الشامي المتوفى سنة ١١٧٢، فهي تختلف عن سابقتها، وهي أنه يورد الكلام على التلميذ، فإن أشكل عليه أو فهم غير المراد، استفسره وعدّ نفسه كالمتعلم، فإن لم يكن قد فهم المراد قرر، وإن يكن فهمه قاصراً كلمهُ بأسلوبه، أو يتغلب عليه الخوض فَهَّمه مراد المصنف في الكتاب على أسلوب ليس فيه تغليط ولا تغليظ، ثم لا يمل المراجعة، ولا يحتد له طبع ولا يعتريه كبر، بل إن ظهر الحق مع المراجع له، رجع وصرح بأن الحق ما قاله، وإن أشكل البحث راجعه وقرره في موقف آخر، فإذا كان الحق مع تلميذه أعلمه بأن البحث الفلاني فيه هو ما فهمته أنت،ونحن غلطنا أو حصل معنا تركيب أو نحو ذلك، وإذا رأى أنه أتعب تلميذه أدنى تعب استعطفه واعتذر إليه (٢).

هذا هو أسلوب مدرس قدير في التعليم لا يختلف تماماً عن الأساليب الحديثة المتبعة الآن.

وكانت الكتب المقررة عند الطلبة للدراسة هي من الكتب ذات المستوى

---

(١) درر نحور الحور العين «خ»

(٢) نشر العرف ج١ ص١٥١.

الرفيع في النحو والفقه والأصول.. ففي النحو اشتهر كتاب (الكافية لابن الحاجب) وحواشيها، ومن أشهرها حاشية الخبيصي وغيرها، وقد أعطانا العلامة الشوكاني في القرن الثالث عشر قائمة بأهم الكتب المقررة في الدراسة في عصره، ففي النحو (منظومة الملحة) للحريري و(الكافية) لابن الحاجب وشروحها و(مغني اللبيب)، وفي علم الصرف كتاب (الشافية) و(الزنجانية)، و(لامية الأفعال) و(المناهل الصافية) وغيرها، وفي البيان كتاب (التلخيص) و(مفتاح العلوم) للسكاكي، وفي فن المناظرة والوضع رسالة (أدب البحث) للعضد، ورسالة (الوضع) للجرجاني، ثم بعد ذلك يتجه الطالب إلى علم المنطق ويقرأ في فنه كتاب (التهذيب) في المنطق، (الشمسية) ثم يدرس كتب أصول الفقه وأهمها في الدراسة كتاب (المنتهى) لابن الحاجب وجمع الجوامع و(الغاية)، ثم يشتغل بشروح هذه المختصرات، ثم يأخذ بعد ذلك بطرف من كتب أصول الدين، وكتب التفسير وأشهرها (تفسير الرازي) و(تفسير الموزعي) في آيات الأحكام، وكتب القراءات (كالشاطبية) وغيرها، ثم يأتي على كتب الحديث والفقه وغيره مما استقصاه الشوكاني في كتابه (أدب الطلب) ص ١٠٧ وما بعدها.

وكانت كتب التدريس أثيرة عند الطلبة، وقد مدح حاشية الخبيصي على الرضي، جماعة من الأدباء، فقال الأديب محمد بن إبراهيم السحولي وقد اضطر إلى بيعها:

فارقته واحتياجي	إليه مثل قميصي
على سواه فؤادي	ما عشت غير حريص
لكنني لم أجد عن	فراقه من محيص
فمر حالي لما	أن مر وهو خبيصي[1]

وفيه تورية بالخبيص الأكل المعروف:

ويقول الأديب عبدالله الوزير المتوفى سنة ١١٤٧:

---

(١) طيب السمر «خ»

بيـع الخبيصي عنـدي مـعـلق بـالمـحـال
أبـيـعـه وهـو حـلو بـالله دعـني وحـالي[1]

ومن كتب الدراسة في النحو (حاشية السيد)، وهي من تأليف محمد بن عزالدين، المتوفى سنة ٩٧٣هـ وقد مدحها الأديب أحمد بن الحسين الرقيحي بقوله:

يـا طـالب العلم بـه قـد صفـا مـورد العـذب فـدع موردي
فـاقتطف الأزهـار حلو الجنى واعكف عـلى حاشيـة السيد[2]

وقد عرف في ذلك الوقت جماعة من المدرسين أوقفوا أنفسهم للتدريس وهم جماعة نذكر منهم العلامة عبدالله بن إسماعيل النهمي المتوفى سنة ١٢٢٨، كانت له (عناية بتخريج الطلبة والمواظبة على التـدريس وجلب الفوائـد إليهم بكل ممكن، ولا يمل من التدريس حتى يمل الطالب).

وقد مدح العلامة عبدالله بن علي الجلال المتوفى سنة ١٢٤٢ مجلس شيخه محمد ابن علي الشوكاني في التدريس فقال:

يـا لها حضـرة عليهـامن الفضـ ـل رواق ونـور عـلم مـنـير
حضـرة للعلوم في سوحهـا نشر وذكـر ولـلهـدى تـقـريـر
حضـرة سنـة الـرسـول لهـا فيـ ـهـا نفـاق وطـول شـرح ونـور
حضـرة من أقام فيهـا تـولى الـ ـهم من قلبـه وحـل السـرور
حضـرة حلقة بهـا السادة الأعـ ـلام أهل الذكاء الهداة البحور

ويمدح الأديب الحسين بن الحسـين العوامي المتـوفى سنة ١١١٥ شيخـه الحسين بن الحسن الأخفش المتوفى بعد سنة ١١٠٠هـ فيقول فيها:

وضيف من الطيف الملم بنا سرى فقلت له أهلاً وسهلاً لك اليسرى
عسى خبر عن ظبي نجد ورعية تزيل به عني لظى الفقد والحرا

---

(١) نفسه
(٢) ديوانه «خ»

أجل وكذا المحبوب يظهر جفوة ... ويـزداد مهما قيـل يحلو إذا مـرا
فقلت دعـوني أترك الحب سلوة ... وأمدح من في العصر أكرمهم طرا
إمـام لـه كـل العلوم روايـة ... ولكنـه دون الأنـام بهـا أدرى
فـما الأخفش المشهور في النحـو أو الفتى الكسائي وعمرو سيبويه وما الفرى
وتصنيف سعد الدين نحو مطول ... فـأمـر يسـير عنـد همتـه الغـرا

ويمـدح المؤرخ محسن بن حسن أبو طـالب المتوفى سنـة ١١٧٠هـ شيخه العلامة محمد بن إسماعيل الأمير فيقول:

يـا بدر قـد زهرت بـك الأيـام ... شهـدت لك الآيـات والأحكام
من يستـطيع ينـال ما قـد نلتـه ... وعـلى ثنـاك العـالمـون أقـامـوا
أبـرزت آيـات العلوم مجـوداً ... وحـلا لك التسهيـل والإدغـام
وحللت في صنعا فحل لهـا الهنا ... وزهت بك العليا وطـاب مقـام

وهكذا يكثر مـدح الطلبـة لشيوخهم، وهـو نوع من التعبـير عن التجلة والاحترام يقدمه الطلبة لأساتذتهم.

وربما أثنى أحد الشيوخ على بعض تلامذته بمكتوب يجيزه فيه نشر العلم عنه، فمن هذه الإجازات ما هو منثور وما هو منظوم فهذا العلامة الحسين بن يحيى الديلمي المتوفى سنة ١٢٤٩ يجيز تلميذه علي بن إسماعيل الشرفي بإجازة منظومة يقول فيها:

فقـد أجـزت مـا قـرا ... في فـقـه آل المـرسـل
وإنـني أجـبـتـه ... إلى بـلوغ الأمـل
مـنهـا تصـانـيف رقـت ... عـلى محـل زحـل

ثم يعدد المصنفات التي قرأها إليه.

وكـانت للطلبة وأسـاتذتهم ابتهـاج كبير عنـد الفراغ من المتـون المقـررة للدراسة، فهذا العلامة الشوكاني ينتهي من إقراء الطلبة كتابه (نيل الأوطار) فيقيم حفلاً كبيراً يحضره أعيان طلبته، ويقوم أحدهم وهو الفقيه القاسم بن إبراهيم بن الحسن فيلقي قصيدة طويلة في هذا الحفل يقول فيها:

أكـرم بـطيب اجتمـاع | لـه الـتهـاني تـنـظم
فـنـزه الـطرف فيه | فـهـو الجمال المنـعـم
إذا الـغـصـون تثـنـت | والـطير زهـواً تـرنـم

إلى أن يقول:

وانـظر مـقـام عـلوم | فيهـا الـنفـائس تـغنـم
زهـا بـشـرح كـتـاب | بـختـمـه المسـك يختم
وجـامـع الشمـل فيـه | سر الـعـلوم المـعـظم
من لف شـمـل المعـالي | بـنشر إفـضـالـه الجـم

إلى آخرها.

ولم تكن أيامهم كلها دراسة وبحث فربما تخللت أوقاتهم عطل رسمية لا يحيدوا عنها وهي يوم الخميس ويوم الجمعة بجانب عطل الأعياد المعروفة وقد طلب أحدهم من العلامة محمد إبراهيم المفضل المتوفى سنة ١٠٨٥ أن يدرسه في يومي العطلة وهما الخميس والجمعة فقال معتذراً:

وفي اليـومـين تـرويـح يسـير | يصون الفكر من كدر الملال[١]

على أن للثقافة في تلك المجتمعات حـديث كبير لا يقتصر عـلى الدرس والتعليم وحدهما. . . فقد تعدّاهما إلى نواحي كثيرة، وكانت الكتب هي مادة العلم ولبه وقشوره ويكثر شغفهم بها والعناية بجمعها، وقد كانت كتب المتوكل إسماعيل نحو ثلاثة آلاف مجلد كما أسلفنا. وعندما وصل إلى اليمن كتاب (فتح المتعال في مدح النعال[٢]) سنة ١٠٦٦ احتفل العلماء به ومدحه الأدباء[٣] بعدة

(١) نشر العرف ج١ ص٢٢٥ ومثله في نفحات العنبر «خ»
(٢) نعال النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
(٣) منهم الأديب أحمد بن أحمد الزنمه المتوفى سنة ١١١٥ والأديب سنبل سرور وعلى بن محمد العنسي والأديب عبدالله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ وغيرهم، وقد أشار إلى قصائدهم تلك وأوردها صاحب طبق الحلوى فتنظر هناك.

قصائد وما زال الأدباء يتشوقون في اليمن إلى الحصول على نسخة من كتاب (تاج العروس)، وقد بلغهم فراغ مصنفه منه في مصر في عشرة مجلدات فلم يتأت لهم ذلك. يقول جحاف (وكان إبراهيم بن محمد بن حسين قد وعد أدباء اليمن بأن يبعث لهم بتاج العروس حين وصوله إلى مصر فبعث منها بشرح الواو والياء وذكر أن الأصل عشرة مجلدات وأنه تعذر في تلك الأيام تحصيلها، وذكر أنه حَصَّل منها نسخة (أبو الذهب) قبل وفاته وضعها في خزانة الوقف، وإنما أرسل بشرح حرف الواو ليعلم المطلع أنه قد كمل هذا الشرح، فقد كان الشك في كماله حاصلاً وقد وقفنا على هذا الجزء من شرح القاموس بحصن (كوكبان) وقد ضمته خزانة العلامة عبدالله بن عيسى وذلك مع وصولنا سنة ١٢٢٨»[١]... ولم يتم لهم الحصول على بقية أجزاء (تاج العروس) إلا بعد ظهور المطبعة.

أما شغفهم بالكتب فحدث عنه ولا حرج، وهذا العلامة أحمد بن محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١١٩١ كان لا يشتغل بملبوسه ولا مفروشه ولا مركوبه ولا يتأنق فيها، إنما شغلته العلم وجمع الكتب ومطالعة الأسفار، وكان يضبط الكتب ويصححها ويقيد الشوارد، ولا يكاد يوجد كتاب من كتبه إلا وقد جرى عليه قلمه.

وعندما رحل الأديب عبدالله بن عيسى الكوكباني المتوفى سنة ١٢٢٤ إلى مكة التقى بأحد علمائها فكان يسأله بشغف زائد عن كتب ليست موجودة في اليمن، (وما سألته عن كتاب إلا قال هو عندي بلا ارتياب، فسألته عن كتب يقل وجودها باليمن منها (نفح الطيب) وعن (نفحة الريحانة) وعن (سلافة العصر) وعن (تاريخ) عبد الملك العُصَامي، وأطلعني على الكتابين الأخيرين)[٢].

فهذه بعض الكتب النادرة التي يبحث عنها أدباء اليمن في ذلك الوقت..

وهذا الأديب يحيى بن المطهر، يدخل على العلامة محمد بن علي الشوكاني، فيجده داخل كمة (مكان ضيق في البيت)، ينقب عن الكتب، يقول الشوكاني

(١) درر نحور الحور العين «خ»

(٢) الحدائق المطلعة من زهور ابناء العصر شقائق «خ»

واصفاً حالته تلك، وفرحته بالكتب «كنت في الكمة ففتح الباب فرأيت الكتب فحصل معي حاصل، سالت معه الدموع مع أنها لا تسيل على بيت ولا أهل ولا مال فقلت في تلك الحال:

سلام على تلك الدفاتر إن لي ... إليها غراماً فوق كل غرام
سلام عليها إن حييت وإن أمت ... فهذا وداع والدموع دوامي
على أنها ألقت مقاليد وصلها ... إليّ فهامت بي كمثل هيامي
ولكنني لو عشت ما عشت لم أقل ... شفيت غرامي أو قضيت مرامي [1]

ولكن كثيراً من العلماء في ذلك الوقت لم يحصلوا على الكتب المطلوبة لضيق ذات اليد، وقد حدثنا الأديب أحمد بن حسن بركات المتوفى سنة ١١٩٦ عن كتبه الموجودة في بيته فذكر أنه (لا يملك منها سوى كتاب، الأزرق في الطب)[2].

وهذا يجرنا إلى الحديث عن عارية الكتب وكانت وسيلة شائعة في ذلك الوقت، وقد استغنى بها بعضهم عن اقتناء الكتب، ولهم في استعارتها نماذج أدبية طريفة من ذلك ما كتبه الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ يطلب من أحد أصدقائه نسخة من كتاب البحر الزخار، فإذا به يوجه بأسماء عدة كتب:

لا شيء أحلا عند أهل النهى ... يا ذا العلا من (مثل سائر)
من دونه في الذوق (قطر الندى) ... وهو كزهر الروض «للناظر»
ونحن من بعدك نحتاجه ... يا (عمدة الكاتب والشاعر)
والغيث محتاج لدينا إلى ... تكملة من بحرك الزاخر
فابعث بها لي إنها تحفة ... يا بهجة الدنيا مع الصادر[3]

وكثيراً ما يماطل المستعير في إعادة الكتاب المعار، فتحدث هناك معاتبات في ذلك، وقد كتب الأديب أحمد بن محمد الحيمي إلى أحدهم وقد استعار منه كتاب

(١) الأسلاك اللؤلؤية «خ»
(٢) درر نحور الحور العين «خ»
(٣) ديوان ابن أبي الرجال «خ»

(المثل السائر) فأبطأ في رده:

أنت شهاب الدين لست ذا حاجة إلى اصطحاب (المثل السائر)
وإنما أنت لدى عارف مفتقر للفلك الدائر

وكتب الأديب أحمد بن عبدالواحد المحيرسي (القرن ١١) إلى أحد الأدباء وقد طلب منه إعارة كتاب:

طلبنا منك عارية كتاباً فلم ترجع لنا فيه جوابا
فإن يك منك إهمالاً لحقي وقد كنت الإمام المستجابا
فسوف أريك صبري واحتمالي وخير الصبر ما أرضى الصحابا

على أن كثيراً من العلماء قد حذروا في ذلك الوقت من إعارة الكتب وقال العلامة علي بن صلاح الدين المتوفى سنة ١١٩١:

لا ترسل الكتب إن ما كنت ذا حذر ولا تعرها فإن الكتب طياره
أما تراها بأجناح مهيئة تريد ألّا تراها غير دواره

وهكذا يكون شغف العلماء بالكتب بين العناية بها والحرص عليها.

وقد شاع التأليف في ذلك الوقت بين سائر أفراد العلماء حتى شكا من هذه الكثرة العلامة محمد بن علي الشوكاني في القرن الثالث عشر، ووصف بعضها بالسذاجة فقال: (يجمعون مؤلفات هي مما قمشت وطم حبل الحاطب صنع من لا يدري لمن لا يفهم)[٣].

في حين شاعت بين أصحاب المؤلفات الأدبية والتاريخية بدعة الولوع بالسجع وإقحامه في نثرهم ونظمهم حتى لا تكاد تميز مقاصدهم إلا بعد مشقة قصوى وقد أنكر عليهم طريقتهم تلك المؤرخ إبراهيم الحوثي، فقال في مقدمة كتابه (نفحة العنبر): (فإنها لا تفيد عباراتهم تشخيص الرجل ولا معرفة أحواله ولا الاطلاع على كنه حقيقته، وإنما تفيد تخيلاً في النفس وتأثيرها بقبض أو بسط

---

(١) طيب السمر «خ»
(٢) أدب الطلب ص ٥٦.

على نمط القياسات الشعرية والقضايا التخييلية) إلى أن يقول، (والتزام التسجيع مع قصد جميع ذلك يؤدي إلى التكلف والإتيان بما يمجه السمع وينبو عنه الطبع)[1].

وهكذا نجد الحوثي من الأوائل الذين عابوا على العلماء ذلك الإسفاف الذي ولع به أدباء عصره من إقحام البديع في كل نثرهم العلمي والأدبي.

على أن العصر قد شهد فطاحلة من المصنفين تكاد تقصر عنها المجتمعات المعاصرة لهم في مصر والشام والمغرب، ففيه ظهر من أكابر العلماء المصنفين العلامة الحسن بن أحمد بن الجلال، والعلامة يحيى بن الحسين بلغت مصنفاته نحو مائة كتاب، والعلامة المقبلي، والأمير والشوكاني وغيرهم، وكان العلامة إبراهيم بن عبدالقادر الكوكباني المتوفى سنة ١٢٠٧، يذكر عنه المؤرخ الحوثي طريقته في التصنيف فيقول: (كان طويل النفس حسن الأسلوب كثير التعرض للأطراف والتوشيح بالفوائد بديع الوضع عجيب الصنع، يستوفي ما يتعلق بذلك ونَفَسه ووضعه يشبه نفس العلامة ابن القيم حتى أنه يلتبس به، وكثيراً ما يحذو في رسائله حذو العلامة الجلال في صنعة التأليف، ويعجبه في مصنفاته استعمال التفاسير والفصول والأوجه).

فهذه طريقة عالم واحد من مشاهير العلماء في التصنيف، ويكثر أهل التأليف في ذلك الوقت وقد استقصينا ما وصلنا علمه من مصنفاتهم في كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي) فينظر هناك.

وقد راجت هناك صناعة الكتاب وقد تفرغ لها جماعة من النسّاخ كانت مهنتهم في الغالب فيها، وقد شاهد العلامة الحيمي جماعة من مهرة النسّاخ ووصف طرقهم، كان منهم الناسخ إسماعيل بن الحسين بن يحيى البصير، قبل أن يصاب بالعمى يقول عنه: (كنت قبل أن يصيبه العمى أجتمع أنا وإيّاه بالمواهب وهو ينسخ للإمام مصحفاً شريفاً، ويمد من زخرفته على أوراقه)[2]

---

(١) نفحات العنبر «خ»

(٢) طيب السمر «خ»

ويصف طريقة النساخ صلاح بن فرحان بن صغير بأنه (يخلط في رياض الطروس بين أقلام الريحان سوسنا).

وعرف عن الفقيه صالح بن عطية الدفعي أنه كان يكتب بيساره كما يكتب بيمينه، وقد استدعاه الإمام المهدي العباس المتوفى سنة ١١٨٩ أن يكتب بيساره ففعل وأجازه بجائزة.

وكثيراً من هؤلاء النساخ حواهم عصرنا وقد كان العلامة الشوكاني يستغرب من كثرة ما ينسخه معاصره العلامة علي بن إبراهيم مع اشتغاله بالتدريس و(إنه لا يترك النساخة يوماً واحداً ولو عرض ما يمنع فعل من النسخ شيئاً يسيراً ولو سطراً أو سطرين)(١).

وأكثرهم اشتغلوا في ذلك الوقت بالجمع والتصنيف فمن لم يؤلف جمع ملتقطات من الفوائد أسموها (سفنا) وهي تضم النادرة والقصيدة والفائدة الأدبية والفقهية والبلاغية إلى غير ذلك وهذه (السفن) حفظت نصوصاً أدبية كثيرة قد لا يضمها كتاب، وقد كثرت في هذا العصر السفن وكثيراً ما أثنى الأدباء على بعض ما يقفون عليه من سفن فهذا الأديب المرهبي يقف على سفينة العلامة محمد بن قاسم لقمان المتوفى سنة ١١٣٣ فيثني عليها بقوله:

هذي السفينة ملهى كل مقتبس	وطالب لفنون العلم ملتمس
تلقى بها الضَّب والنون المباين والـ	ـظبي الغرير إزاء الضَّيْغم الشرس
يرتادها الجذل المسرور والوجل الـ	ـمحزون فيها لكل مسرح النفس
أجاد تأليفها الندب السري ومن	أنار في ظلمة الأيام كالقبس(٢)

ويثني الأديب يحيى بن المطهر على سفينة العلامة علي بن إسماعيل المتوكل فيقول:

ولقد رأيت سفينة في طيها	كل البحور ودرها المكنون

---

(١) البدر الطالع ج١ ص٤٢٠

(٢) نشر العرف ج٢ ص٧١٠

هي نـزهـة للنـاظـرين نمـوذج لـلآخـرين وسلوة المـحـزون
بل برزة سكر الملا من ريقها الـ ـنزر العذيب ولفـظها المهتـون
مـا إن نظرت إلى حـلاهـا مـرة إلا وجـدت بـدمعي المحـزون
من خـاض في أوراقهـا عـاف التي لطفت له أوراقها كعيون[1]

إلى آخرها . . .

وربما جمعت تلك السفن ما لَذَّ وطاب من فنون الأدب ومنها ما حوى الغث والسمين، وكثير منها ما مَثَّل ذوق الجامع، وقد وقف العلامة محمد بن إسماعيل الأمير على سفينة لأحد الأدباء في عصره فوجدها مفتتحة بمرثاة كلب فقال:

كـان السفـاين سـابقـاً تـأتي بـأنـواع الخـطاب
وصـف الـقـدود والخـدو د أو الثغـور أو الـرضـاب
أو مـدح ملك قـد سـما ورقى عـلى هـام السحـاب
أو مـدح مـن حـاز العـلو م وصـار كـالبحـر العبـاب
أو ذكـر أيـام الـوصـا ل مـع الأحبـة والشبـاب
هـذي المقـاصـد للقصيد وروضـهـن المستـطـاب
وسفينـة الـولـد النجيب أتـت بمـرثـاة الـكـلاب
فـالشعـر أولى بـالـرثـا ء وبـالبكـاء والانتحـاب
إذ صـار طـوقـاً لـلكـلا ب الميتـات عـلى الـرقـاب
هـذا هـو الخسف الـذي وردت بـه آي الـكـتـاب
خسف لشمس الشعـر والـ ـقمـر المنيـرة والشـهـاب
صـلّوا صـلاة كسـوفـهـا إن كـان يشـرع في كتـاب
فـليحتسب أهـل القـريض (م) لمـا أتـاهـم من مصـاب[2]

فهذا عالم جاد لم يعجبه ما جاء في تلك السفينة من مختارات أدبية ومنهم من لم يجمع مختاراته في سفن مستقلة وإنما ضمنها هوامش كتبه. فهذا العلامة أحمد

(١) الأسلاك اللؤلؤية «خ»
(٢) ديوان محمد بن اسماعيل الأمير ص٥٦.

ابن عبد القادر المتوفى سنة ١١٧٩ يصفه صاحب النفحات بقوله:
(كان فاضلاً له شغله بالعلوم عاكفاً على التلاوة آناء الليل وأطراف النهار وكان في آخر أمره لا يرقد الليل لاشتغاله بالذكر والتلاوة ونسخ الكتب، وكان يكتب ما اطلع عليه في هوامش النسخ فربما كتب قضايا من التاريخ أو أبياتاً شعرية في هامش كتاب في الأصول أو العكس).

ونبغ في ذلك الوقت جماعة من الزهاد يرون التعمّق في دراسة العلوم مضيعة للوقت، وكان العلامة أحمد بن يحيى الأخفش من علماء القرن الثاني عشر يحذر من التعمق في العلوم، ويرى أن الدخول في زوائد علم البلاغة، مما يلهي عن ذكر الله تعالى والنظر في كتاب الله وقد رد عليه معاصره الحيمي بقوله: (يلزم هذا أن نبذ العلوم جميعها والنظر فيها من المهمات وليس كذلك فإن ثواب الناظر في العلوم جزيل)[1].

وكان العلامة لطف الله جحاف على تبحره في العلوم قد أنكر في آخر عمره ما ولع به أهل عصره من التعمق في علوم الآلة التي هي توابع للعلم، حتى أنهم اشتغلوا بها عن العلم الأصلي نفسه وهي دعوى سبق أن لَمَّحَ إليها ابن خلدون في مقدمته.

وقد أثار رأي جحاف جدالاً كبيراً بين علماء عصره وردّ عليه الأديب محسن بن عبدالكريم في مؤلف مستقل بعنوان (التحقيق الشاف في الرد على لطف الله جحاف)، وجاءت أسئلة من (كوكبان) إلى علماء صنعاء في شأن قضية جحاف تلك جاء في أحدها:

ماذا تقولون في علم ابن جحاف — إذ جاء بشيء جديد غامض خافي
هل عندكم يتلقى بالقبول وقد — أبدى ابتداعاً وأم المنهج الجافي
أم لا يقابل أصلاً بالقبول ولا — يعبأ به فأفيدوا السائل العافي
فقد تبجّح واستحلى طريقته — وكدَّر المنهل المستعذب الصافي

---

(١) طيب السمر «خ»

وإنمــا هــو كــالبــدوي داخله عجب لثوب رفا أطرافه الـرافي

يقول الأديب يحيى بن المطهر بعد إيراد هذا السؤال، وقـد أجاب عليـه العلامة محمد بن علي الحداد بجواب خلاصته أن ابن جحاف قد جـاء بعلم جديد فات الأوائل مع الاعتراف له بالإحسان، وأجاب العلامة محمد بن مهدي الضمدي بجواب مضمونه الحث للعلامة لطف الله جحاف على ما سلكه في دعواه[1].

وعرف عن بعض العلماء هناك التفرغ للعلم وانخراطهم فيه بالكلية حتى أنهم أوقفوا أنفسهم له وتركوا الزواج، لئلا يشغلهم عن بغيتهم وهم جماعة نذكر منهم العلامة الحسن بن محمد المغربي المتوفى سنة ١١٤٢، يقول عنه الحيمي واصفاً مذهبه في عدم الزواج (ومن سنته عدم التزويج والتمتع من ربات الحجال بحسنهن، فـما ساكن منهن إلفـاً فأحْسن، ومـا أساء فقبر العلم بـين أفخـاذ النسـاء)[2] الخ عبـارة الحيمي المسجعة ومنهم العـلامة صـلاح بن الحسـين الأخفش المتوفى سنة ١١٤٢ . والعلامة إبراهيم بن خالد العلفي المتوفى سنة ١١٥٦، وإسماعيل بن علي الخطيب وغيرهم كثير.

وكانت للعلماء في ذلك الوقت مناقشات ومباحثـات حول مسـائل العلم والكتب، فهذا العلامة عبدالله بن سعيد القرواني المتوفى سنة ١٢٢٣، يطالع كتب التاريخ بتمعن فيقول إنه (طالع أخبار الدولتين الأموية والعباسية فرأى عجباً من أولئك، وقال ما رأيت أحق بالملك من الأموية فإنهم كانوا يباشرون أمورهم بأنفسهم من غير أن يتخذ أحدهم وزيراً لذا استحقوا الصين وبلغوا الأقصى من الأندلس)[3].

ومن مباحثاتهم الطريفة تقرير العلامة محمد بن أحمد مشحم المتوفى سنة ١٢٢٣، لقاعدة المذهب الزيدي في أن الفرجين من أعضاء الوضوء وخلاف

---

(١) الأسلاك اللؤلؤية

(٢) طيب السمر «خ»

(٣) درر نحور الحور العين «خ»

غيرهم في ذلك فقال: (أنا قد أصلحت بين أهل مذهبنا وغيرهم في القول بأن الفرجين من أعضاء الوضـوء وأصلت قاعـدة وهي أن الرجـل إن فسا عقب الاستنجاء أو فساء دبره بعرق استنجا، وكان القول مع مذهبنا لأن الريح مع البلة يتطبع حوالي الدبر كفنجان القهوة إذا غسل وجمر، فإن الدخان يلتصق به وإن فسا ولم تكن عنه بلة في الدبر كان القوي مذهب الآخرين فلا يستنجي مع الريح كفنجان القهوة إذا جمّر على غير بلّة، فإن الدخان لا ينطبع به)[1] فهذا بعض من تقرير العلامة مشحم حول تلك المسألة الفقهية الدقيقة.

ومن طرائفهم العلمية ما ذكره المؤرخ جحاف عن حسين بن أحمد مشرح المتوفى سنة ١٢٢١ وكان جندياً يتولى حراسة باب السبح، وقـد حضر درس الفقيه حسين بن علي حنش في كتاب البدر التمام، فقال لأحد الحاضرين لو كان لي نسخة من الكتاب حضرت هذه القراءة فناوله أحدهم نسخة من كتاب غير الجزء المقروء فكان يمعن في الكتاب موهماً بأنه يتابع القراءة فكان الفقيه حنش يسأل القرّاء: أعندكم هذا اللفظ بعينـه، فيقولـون نعم، فيلتفت أحدهم إلى مشرح ويقول: كيف اللفظ عندك، فيقول كـما عندكم، فلما أكملوا القـراءة قال المقرر أرأيتم شدة حضور النقيب حسين مشرح، قالوا نعم، قال انظروا في كتابه فإذا هو كتاب آخر، فضحكوا منه فقال مشرح غاضباً، هكـذا الخونـة يصنعون لعنهم الله)[2].

وتكثر مناقشاتهم ومفاكهاتهم في العلم وهي كثيرة إذا أردنا التوسع فيها.

على أن هناك ظاهرة علمية أخرى عرفتها بيئات الثقافة في ذلك العصر وهي الولوع عند بعضهم بعلم الفلسفة وما يتعلق بها، حتى خاض فيها بعض أعلام العصر ممن عرف عنه تعاطي الحكمة وقد زعموا أن الفقيه محمد بن أحمد الهبل القرن (١٢) (ينقاد لمذهب الحكماء بأقبح مقاد، ويلتزم الإلحاد حتى يتساهل بأمر الصلاة والصوم وينكر المعاد)[3].

---

(١) المصدر نفسه «خ»

(٢) درر نحور الحور العين «خ»

(٣) نشر العرف ج٢ ص٤٤٥

وقد تبرّم الشوكاني من بعض هؤلاء وفلسفاتهم الفارغة، فقال في كتابه (أدب الطلب)، وقد ذكر تأثرهم بكتب الطوسي وغيرها فقال: (ولقد أهدت لنا الأيام ما لم يكن لنا في حساب من زعانف هم سقط المتاع وقد طاحت بهم الطوايح ورمت بهم الدواهي إلى مطالعة (تجريد) الطوسي وبعض شروحه وفهموا بعض مباحثه، فظنوا أنهم قد ظفروا بما لم يظفر به أرسطاطاليس ولا جالينوس دع مثل الكندي والفارابي وابن سينا فإنهم عندهم في عداد المقصرين، فقبح الله تلك الوجوه، فإنها صارت عاراً وشناراً على أهل العلم)[1].

فدلَّ نقد الشوكاني ذلك على كثرتهم. وكذلك نجد العلامة الحوثي يصرح في ترجمة شيخه العلامة إبراهيم بن عبدالقادر بإنكاره لتلك العلوم الفلسفية. وقديماً في القرن الحادي عشر أنكر المتزمتون مخالطة الأديب يوسف بن يحيى المتوفى سنة ١١٢١هـلوفدالعجم، وقد جاءوا في أبهة عظيمة إلى صاحب المواهب فخالطهم وآنسهم وأنسوا به لما رأوا من أدبه ومشاركته في العلوم العقلية والطبية، وموافقته لهم في الاعتقاد، فمنع عن مخالطتهم وأمر بالرحيل من المواهب إلى صنعاء)[2].

وكل ذلك خشية من تأثره بعلومهم الفلسفية بل بلغ ببعضهم أن يمقت علم المنطق، وهو علم مفيد في معرفة العلوم الإسلامية.

ويقول العلامة المزجاجي، إن كتب المنطق لم تكن معروفة في مدينة زبيد حتى دخل إليها حسام الدين عبدالرحمن الغوري الهندي في القرن الثاني عشر فعرف الناس كتب المعقول بعده، ولم يكن أهل زبيد مشتغلين إلا بالفقه، والحديث، والتفسير، والأصلينْ، وآلت هذه العلوم لا يتجاوزونها»[3].

أما في القرن الثاني عشر وما بعده فقد زاد عدد الفلاسفة بدليل نقد الشوكاني لهم، وقد كان لقدوم الفقيه يوسف العجمي من بلده إلى صنعاء في

(١) أدب الطلب ص١٢٥

(٢) نشر العرف ج٢ ص٩٥٧ ومثله في نفحات العنبر «خ».

(٣) المزجاجي: نزهة رياض الاجازة «خ».

القرن الثاني عشر أثر في زرع العلوم الفلسفية في هذه البلاد على ضآلتها، وقد تأثّر به العلامة رزق بن سعدالله الصنعاني المتوفى سنة ١١٩٢، يقول عنه المؤرخ جحاف :(ما زال حاله مستقيماً حتى نزل يوسف العجمي الرافضي بصنعاء وذلك سنة ١١٥١، وكان من أهل التحقيق لكتب الحكماء وعلوم الفلسفة، فاشتغل به ولازمه وأخذ عنه معارف الفلسفة».

ومن عجائب أخبار هذا الفيلسوف أنه (كان يعترض على حكمة الباري سبحانه، ويتكلم بما لا يجوز التفوه به، وكان يقول كان الأولى في الآية الفلانية أن يقال كذا وفي الآية الأخرى كذا وفي الحديث كذا).

يقول جحاف وهذا من بلايا علم الحكمة وكان يعظم الفلسفة وأهل الحكمة واليونانيين ويهاب اعتراضهم واشتغل بالفلك والكواكب.

(وأكب على الأزياج وحكم بها حكماً جازماً).

ومن اعتراضه على الله عزّ وجلّ ما نقله عنه جحاف أنه يقول :(قال الله في آية الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين، والعقل يقضي بالعكس).

يقول المؤرخ جحاف رحمه الله (وقد ولع كثير مما شاهدنا بهذه الوساوس، وقد غرس هذا الفيلسوف ثمار شيخه العجمي ونبغ على يده جماعة من الفلاسفة، ومع ذلك فالناس هنا لا يحبون الخوض في هذه العلوم، وقديماً في القرن الحادي عشر أصدر الإمام المتوكل على الله إسماعيل أوامره سنة ١٠٧٤، بإحراق كتب الصوفي ابن عربي لما فيها من فلسفة)[١].

وإذا خرجنا من دائرة العلوم ومباحثها، سنجد الناس هنا قد ولعوا بحديث الرحلة والرحلات وكانوا يستفسرون القادمين إليهم عن أحوال العالم المحيط بهم، وقد شاعت بينهم رحلة الحيمي إلى الحبشة، وتناقلها الناس في مجالسهم، وكانت هذ الرحلة قد وقعت بإشارة حكومية ذكرناها فيما سبق، وبعد عودة صاحبها إلى اليمن جمعها في مؤلف قال في مقدمته (وبعد فإنه سألني من لا يسعني

---

(١) بهجة الزمن «خ»

مخالفته أن أصف له ما ينبغي مذاكرته من سفرنا إلى الديار الحبشية، واتصالنا بملك الفرقة النصرانية).

وكانت رحلته إلى الحبشة في سنة ١٠٥٧، ومما جاء في مشاهدته ما رأى في بندر بيلول القريب من اليمن وقد وصف أهله بقوله: «وهم خلق كثير منكرين الصور يختلط رجالهم بنسائهم وكلهم عراة لا يتسترون، ولسانهم أعجمي ليس من لغة الحبشة، وكل من وصل إلينا يريد مجرد الاطلاع ومعرفة هؤلاء العرب الوافدين، فإذا وصلوا إلينا جعلوا ينظرون إلينا من بعد وهم يتعجبون بالنظر إلينا ونحن بالنظر إليهم أعجب، وقد حكي لنا أن رئيسهم متزوج باثنتي عشرة امرأة، وكانوا يعجبون من رمي البندق التي معنا غاية العجب»... إلخ ما جاء في رحلة الحيمي وهي مشهورة ومطبوعة.

ومن أشهر الرحالة اليمنيين في ذلك الوقت العلامة محمد بن علي الأهدل وهو من أهل زبيد في القرن الحادي عشر يقول عنه المؤرخ الجرموزي إنه رحل إلى مصر والشام والعراق وتركيا والديلم والمغرب، وله في رحلاته تلك أخبار عجيبة، من ذلك أنه حضر فتح مالطة، وأنه دخل مدينة في الروم يقال لها إسبارطة كثيرة الأنهار والبساتين ثم عاد إليها مرة ثانية سنة ١٠٦٠، فوجدها بحراً فسأل من كان قريباً منها أين صارت وكيف كان ذهابها؟ فقالوا إن الله سبحانه أرسل عليها الثلج ثم المطر فغطى عليها وعلى أهلها لم ينج منهم إلا من كان غائباً عنها[1].

ويصل إلى اليمن في تلك الفترة كثير من الرحالة وكان لأحاديثهم موقع في النفوس ومن هؤلاء الرحالة منصور بن يوسف بن منصور المصري الأزهري، وصل إلى اليمن سنة ١٠٧٣، وذكر أنه دخل الروم ووصف لهم صفة التدريس فيها وهي مراتب تسمى الأولى منها سقطة بمعنى خادم المدرس، ثم يرتقي إلى أن يصير (طارش هند) معناه أن المدرس يكتب له شيئاً، ثم يرتقي إلى أن يصير (ملازماً) ثم يرتقي إلى أن يكون مدرس خمسة ثم عشرة ثم خمسة عشر، إلى غير

---

(١) الجرموزي: تحفة الأسماع «خ»

ذلك وذكر أنه دخل بلدة تسمى توقاط وهي أول بلاد الأكراد، كثيرة الثلج والبرد وفيها أنواع النبات والأزهار وأن ثمن العشرة أرطال اللبن نصف درهم، ومن عجيب أمرهم أنهم يصطنعون لعبور الشط أخشاباً تسمى الكلك، وقال إنه دخل بغداد بعد خرابها فلم يجد فيها اسماً للعلم ولا موضعاً للدرس غير ثلاثة أنفس غرباً من بلاد السند إلى آخر ما وصفه في هذا الرحالة وأورده الجرموزي في كتابه بدهشة وانبهار.

وفي القرن الثالث عشر دخل إلى اليمن وافد هو الشيخ إسماعيل الموصلي وقد اتصل بالوزير علي بن صالح العماري سنة ١٢٠٤ ومما حدث به عن رحلاته أن «محتاج الكتاب في القسطنطينية كل يوم من البياض أربعمائة شدة عن ستة عشر ألف قائمة وإحدى عشر ألف قائمة في كل يوم، وهذا ما يحتاجه الوزراء ومن تابعهم».

وكانت هذه الأخبار مما يعجب لها الناس وقد فتحت أذهانهم لما يدور حولهم في العالم.

ويتحدث العلامة علي بن إبراهيم الأمير المتوفى سنة ١٢١٩، عن رحلته إلى زبيد فيعجب لسلوك بعض الصوفية فيها من ذلك أنه رأى (جماعة منهم أخذوا يغنون شعر العلوي والمزاح، ويصفقون بأيديهم ويرفعون أصواتهم بالصياح، بل جعلوا يتمايلون تمايل الأغصان مرت بها النسائم حتى لقد كادت تسقط من رءوسهم العمائم).

الحيَاة الأدبيَّة في البـلَاد العَربيَّة

أسفر القرن الحادي عشر الهجري وما بعده عن حصيلة شعرية كبيرة لسائر الأقطار العربية في تلك الفترات إلا أنه شعرٌ يكثر فيه النظم ويقل فيه الأدب بمعناه الإبداعي،ونظرة سريعة إلى تلك الحالة العلمية والأدبية في البلاد الإسلامية عامة خلال تلك الآونة نجد أن الناس قد تناسوا أو كادوا ماضيهم العريق وحضاراتهم الكبيرة، وهم وإن حفظوا بعضاً من السيادة السياسية في صورة الدولة العثمانية الكبرى التي لا تزال تزاحم بنفوذها الكبير قوى العالم المعاصر لها. إلا أنهم في المجال العلمي والأدبي تراجعوا ، ولم نعد نشهد تلك الحضارة الفكرية الزاخرة التي لمسناها في الأندلس ومصر والشام والعراق وفارس وكان الناس قد تناسوا جهود أسلافهم في العلم والحضارة وجهلوها، حتى لم يبق من آثارها سوى أوراق مهلهلة وأطلال معطلة.

ومع ذلك فإن للأدب بقية والشعر والأدب كترف فكري لا بد أن يسفر عن نفسه، وكان لا بد أن يتجاوب مع الناس والأحداث والطبيعة ولعل الأثر الأخير، كان له دور كبير في تبريز بعض البلدان على غيرها في مجال الأدب في هذه الآونة، ولهذا السبب نجد الشام بطبيعته الساحرة قد فاق بلداناً أخرى في هذا المضمار، وكذلك اليمن بجوه الساحر وطبيعته المعتدلة كان له دور الريادة بعد ركود الحضارات في البلدان العربية الأخرى.

ومن الإطلالة السريعة على الحالة الأدبية في البلاد العربية في تلك الآونة،

نجد أن الأدب قد ازدهر تحت تأثير بعض الحكام المحبين للأدب والشعر، حتى أنك لا تكاد تقف على قصيدة جيدة البناء والأسلوب إلا وهي في ممدوح من السلاطين أو الأمراء، ولكن ليست هذه هي الحالة المطردة في كل الشعر، ومن الأدباء من لاقى المشقة والبؤس في سبيل لقمة العيش، وهذا الأديب محمد بن عبدالله الموسوي المعروف بكبريت المتوفى سنة ١٠٧٠هـ، يصف حظه من المجد والبؤس والحرمان فيقول:

ما لي وللمجد والأيام عابسة — والحظ والحظ طول الدهر في عتب
ما أصعب الشيء ترجوه فتحرمه — لا سيما بعد طول الجهد والتعب

ويصف الأديب محمد بن عبدالله البحراني المتوفى في القرن الحادي عشر حله وترحاله في سبيل الحصول على لقمة العيش فيقول:

مضى العمر لا دنيا بلغت بها المنى — ولا عمل أرجو به الفوز في الحشر
ولا كسب علم في القيامة نافع — ولا ظفرت كفّي بمغنى من الوفر
فأصبحت بعد الدرس في الهند تاجراً — وإن لم أفز منها بفائدة البحر
طويت دواوين الفضائل والتقى — وصرت إلى طيِّ الأماني والنشر
وسوَّدت بالأوزار بيض صحائفي — وبيضت سود الشعر في طلب السفر
إذا جنني الليل البهيم تفجرت — على عيون الهم فيها إلى الفجر

وهذا الأديب علي المغربي المعروف بالأخضري من أهل ذلك الوقت يصف ملابسه بأنها على وشك التلف يقول:

لديّ صوف كجسمي بالضنا خلق — بال توالى عليه حادث الزمن
ما دمت أقلبه كيما أجدده — إلا وأنشدني (قلبي يحدثني)

يشير إلى الشطر القائل: (قلبي يحدثني بأنك متلفي).

وفي اليمن نجد الشاعر الحسن بن علي بن جابر الهبل، يشير صراحة إلى بخل الممدوحين وسوء حال الشعر يقول:

يا قالة الشعر مهلاً لا أبالكم — رويدكم ألهذا القدح إبراء

إنـا لفي زمن ود الفصيح بــه   لـو أنـه ألكن في القـول فـأفـاء
كم تمدحون ولا تعطون جائـزة   كـأنمـا مـدحكم بـالمنـع إغـراء
قـل للمساكـين أهـل الشعـر يـا تعب الأفكـار إن يصبهم منـه إثـراء
هـذي الملوك ملوك الأرض هل أحـد منهم على سنن المعـروف مشـاء
كم قد مدحنا فما أجدت مدائحنا   لأنهم إنمـا يعـطون من شــاءوا
مـا للقوافي إذا أقـوت معاهدها   أفي زمانك يـوهى الشعر إقـواء
من ذا الذي من مقام الذل ينهضنا   إن نـالهـا بنعـال الـذل إيـطاء
أف لهـا خطة يشقى مـلابسهـا   ضاقت بصاحبها للأرض أرزاء
وحـرفة أزجيت فينـا بضـاعتهـا   فـربح صـاحبهـا فقرٌ وإكـداء

وتلك حالة الشعر والشعراء كما صوّرها الهبل رحمه الله حتى أصبح الأديب يتمنى أن يكون ألكناً حتى توافق عجمته عجمة الحكام من المماليك والأتراك، وهذا في اليمن وقد رحل عنها الأتراك فما بالك بما عداها من البلدان التي ترزح تحت وطأتهم، كالشـام ومصر والعراق والحجاز، والذين خيموا بإطنابهم في تلك الأجواء المعاصرة لما نحن بصدده.

وانظر إلى أديب قد شغلت فكره وسيلة الحصول على لقمة العيش، كيف يتأتى له الإبداع والأصالة، حتى شاعت في تلك الآونة المقولة المعروفة لكل من بلي بالفقر والبؤس (أصابته حرفة الأدب) ـ ومع ذلك فالشعر والأدب يفرضان أنفسهما في كل الأجواء كما قلنا سابقاً، ورأينا اتجاهات إبداعية تظهر عند بعض شعراء الشام ومصر والحجاز، وأبرز ما لفت نظري فيها شعرهم في الحنين إلى الوطن، وقد برز هذا الاتجاه شعراء الشـام[1]، ولهم فيه المقـطعات الحسنـة كقول شاعرهم الأديب حسن زين الدين العاملي:

---

(١) وفي هذا المعنى يقول الصلاح الصفدي في أثناء حديثه عن رقـة أهل مصر والشام وكثرة نبوغ الشعراء والأدباء فيهم:

«والسبب في اختصاص أهل هاتين الدارين بهذه الخاصة «البديعة»، واقتناص شعرائهـا هذه الشوارد التي لجأت إلى الحصون المنيعة، عنصر الماء والهواء، وهما أصل كبير في اللطف والذكاء».

أنظر فض الختام ص١٣٩

(٢) (سلافة العصر) لابن معصوم ص٢٥٨

طول اغترابي بفرط الشوق أضناني — والبين في غمرات الوجد ألقاني
يا بارقاً من نواحي الحي عارضني — إليك عني فقد هيجت أشجاني
فـما رأيتك في الآفـاق معـترضـاً — ألا ذكــرتــني أهــلي وأوطــاني
كم ليلة من ليالي البين بتُّ بهـا — أرعى النجوم بطرفي وهي ترعاني
ويا نسيماً سرى من حيهم سحراً — في طيـه نشر ذاك الرنـد والبـان
أحييت ميتاً بأرض الشام مهجته — وفي العـراق لـه تخييل جثمـاني

إلى آخرها . .

ولهذا الشاعر من قصيدة أخرى في نفس المعنى يقول فيها[1] :

والــيــوم نــائي أجــلــي — مـن لـوعتي قـد اقـتـرب
إذ بــان عــني وطـني — وعـيــل صبــري وانـسلب

إلى آخرها . .

ولهم في ذلك مقاطع كثيرة ما أحقها بالإفراد في بحث مستقل .

على أن كثيراً منهم قد دعا إلى الغربة وتحبيذها، وهم شعراء البؤس والنكد، فهذا الشاعر حسن بن محمد بن الأعوج، يلاقي من أهل زمانه المصائب، فيقول داعياً إلى الأسفار:

حادي العيس سر بغير ارتيـاب — ففؤادي قــد حن لـلاغتــراب
لا أريـد الأوطـان والـذل فيهـا — واضـعٌ طوقـه بـأعلى الـرقـاب
ولــو أني قضيت فيهـا ســروراً — في شبــابي لم أكتئـب لمصــابي
بــل تـولت نضــارة العـز مني — بين عيش ضنك وفـرط اكتئابي
وإذا الضيم مــا أقـام فـأحبب — بـجيــاد تمــر مــرّ الـسحــاب
أو يكن في مقام ذي الليل فضل — قطع السيف وهو ضمن القراب
أدرك المسـك بـالتنقــل شـأنــاً — وهـو في أرضـه دوين التــراب

ويقول الشاعر محمد بن علي الحويزي المتوفى سنة ١٠٥٩ في تحبيذ التغرب :

فـدع أرضـاً بهــا أبصـرت ذلاً — ولا تنــزل بـضــيـم في بــلاد

(١) (سلافة العصر) لابن معصوم ص٥٠٧ .

وسر في الأرض ذا نقل ولولا انتقال البدر دام على الولاد
فدارك حيث صادفت اعتزازاً وأهلك ذوو الحفيظة والوداد
ولا تصحب سوى عضب نحيل تعشق متنه ضرب الهوادي

وقد أتى شعرهم في الحنين إلى الوطن والغربة، كمقدمات لقصائد المدح والهجاء والوصف والغزل، إلى غير ذلك من أنماط ألفوها في نظمهم، ولسنا بصدد رصد ذلك وكل ما في الأمر هو التمهيد لحديثنا عن (الأدب اليمني)، وتأثره بالأنماط المشار إليها وغيرها.

وكان من اختراعاتهم العجيبة حديثهم عن الجانب الاجتماعي وهو موضوع ربما سبقهم فيه شعراء قبلهم. إلا أن هذا الجانب ظل ظئيلاً بالنسبة إلى ما طغى على الأدب العربي من اتجاهات تقليدية معروفة سبقت الإشارة إليها قريباً.

ففي مجال الاجتماع كتبوا في مواضيع تمس الأفراد والمجموعات لعلنا نجد فيها روحاً من الإخلاص والوطنية أنظر إلى شاعرهم الأديب أحمد بن عوض العينتابي المتوفى سنة ١٠٤٨ يندد بدخول العثمانيين إلى مدينته بقسوة شديدة فيقول:

كانت دمشق الشام محسودة لكونها بالعين لم تطرق
آمنة من كل ما يختشى مأمنة للخائف المشفق
فجاءها ويلاه في غفلة أمر إليها قط لم يسبق
أمر (مرادي) له سطوة أخرست المنطيق والمنطق
قوم من الأتراك عاثوا بها على خيول ضمر سبق
من جهة المشرق قد أقبلوا والشر قد يأتي من المشرق
في رقعة الشام غدت خيلهم وذلت الأرخاخ للبيدق

ثم يعود في القصيدة إلى قومه وينعي عليهم سكوتهم عن هذا الغزو، وهو في هذا أقرب إلى الجانب السياسي منه إلى الاجتماعي.

وربما عالج الشعراء موضوعات أخرى تذهب إلى الإصلاح وكشف

الدجالين من المتصوفة، والمتجرين بالنسك والعبادة، فهؤلاء الصوفية يقول فيهم شاعر ذلك الوقت الأديب أحمد بن عيسى المرشدي مورياً:

صوفية العصر والأوان ... صوفية «العصر» و«الأواني»
فاقوا على قوم لوط ... بنقرزان لنقرزان

ويقول أحمد التحجواني المتوفى سنة ١٠٤٥ هجرية يذم بعض المتعطلين:

وأناس من الشآم نعتهم ... شامنا في جوانب الغبراء
تركتهم لا يألفون خليلاً ... من جميع الورى لفقد الوفاء
خرجوا يطلبون فضل ثواء ... ليتهم قد رضوا بفضل الثراء
ألفوا الكسب من وجوه البرايا ... ما دروا قدر مكسب الآباء
برح العجز فيهم فتراهم ... يبتغون الغداء وقت العشاء
قد أراقوا ماء الحيا والمحيا ... ثم جدوا في الكذب والافتراء

ومن اجتماعياتهم الطريفة هجاؤهم لسلوك بعض الناس، فهذا الأديب غرس الدين الخليلي يدخل مكة المشرفة فلا يجد من يستضيفه فيها فيقول:

جيران مكة جيران الإله لذا ... لا يعبأون بمن قد غاب أو حضرا
لولا الطبيعة عاقتهم لكان لهم ... إسراء روح بسر السر قد ظفرا

وصودف في هذه الفترة ظهور التنباك (الدخان) فقال شعراؤهم فيه الكثير من المقطعات من ذلك قول الشاعر علي المغربي يذم منتقديه:

لقد عنفونا في الدخان وشربه ... فقلت دعوا التعنيف فالأمر أحْوجا
ألا إن عفريت الهموم بصدرنا ... عصانا فدخَّنا عليه ليخرجا

وقال الأديب محمد بن علي البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ في الدخان أيضاً:

هات اسقني التبغ إن تبغِ الصفا سحرا ... حتى أخدر منه وهو إغشاء
لعل نار أسى بالبعد قد وقدت ... يوماً يكون لها بالقرب إطفاء
فاملأ كئوس رحيق كالحريق فقد ... أغنتك إذا وصفت باللطف صهباء
ودع ملام طبيب عابها سفها ... وداوني بالتي كانت هي الداء

ولهم في ذلك شعر كثير لا حاجة إليه هنا وقد جاراهم في ذلك أدباء اليمن، فقالوا في الدخان والقهوة شعراً لا يقل وجوده عن شعرهم، وسنعود إليه في موضعه.

ومن أنماط الشعر في ذلك الوقت احتفال الأدباء بالبدائع والمحسنات اللفظية، ولم يعد هذا الأمر محصوراً على النثر وحده، فقد طم سائر النواحي الأدبية، حتى عاب عليهم من عاب هذا الإسفاف الممل، وقلما نقف على شاعر لم يقل في هذا الاتجاه شعراً من جناس وتورية إلى تضمين إلى استعارة إلى اقتباس الخ... الخ.

ولولا خشية صك الأسماع بشيء من هذا، لأوردنا الكثير من هذا الشعر.

ومع ذلك ربما مال بعض الأدباء إلى ما هو نقيض لشعر البديع، فكتبوا في شعر الحميني والموشح وعارضوا فيه موشحات الأندلس الشهيرة فقال الأديب أبو الفضل العقاد معارضاً موشحة لسان الدين الخطيب التي أولها:

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا ليالي الوصل بالأندلس

قال العقاد المذكور:

ليت شعري هل أروي ذا الضمأ ... من لمى ذاك الثغير الألعس
وترى عيناي ربات الحمى ... باهيات بقدود ميّس

ومنهم من مال بشعره إلى الوعظ، وهو جانب آخر يدخل فيه كثير من نظمهم الموزون والرجز وإن كان قد غلب البحر الأخير،الذي يعده بعضهم بحراً من بحور الشعر المعروفة، وكنموذج من هذا النوع نقدم مقطوعة للأديب بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تتميز بالسلاسة والطرافة وهي من بحر الوافر يقول:

إلا يا خائضاً بحر الأماني ... هداك الله ما هذا التواني
أضعت العمر عصياناً وجهلاً ... فمهلاً أيها المغرور مهلا
مضى عمر الشباب وأنت غافل ... وفي ثوب العمى والغي رافل

إلى آخر ما جاء فيها وهي قليل من كثير.

وشاع في ذلك الوقت شعر الكدية والتسول، وهو نتيجة طبيعية لتدهور الحالة الاقتصادية، وركون الكثير منهم على البطالة والكسل، من ذلك قول أن منهم من وأسرع وأجمع

قصدت إليك من بلد بعيد ... وباعدت المنازل والرحابا
وجانبت الأقارب والأهالي ... وخليت الأخلة والصحابا
وغادرت الأحبة عن فراق ... مواصلة بكاءً وانتحابا
لأولى عن فواضلكم نصيباً ... وأعطي من فواضلكم نصابا
وأجمع بين إثراء وعز ... وأسرع نحو مثواي انقلابا

إلى آخرها وأنت تلمس فيها ظاهرة التسول واضحة جلية، على أن منهم من سلك بشعره أسلوباً آخر لعله أقرب الصيغ القديمة إلى أدبنا الحديث المعاصر، وهو جانب القصة الهادفة إلى الإصلاح الاجتماعي، وهذا قد ندر وجوده في أدب المتقدمين من أهل تلك الفترة التي ندرسها وما قبلها ولقد ظفرت بقطعة أدبية نادرة تعالج هذا الجانب من الشعر وهي للأديب زين الدين العاملي ونحن سنوردها على فحشها لمعالجتها ذلك الموضوع الطريف يقول:

كان في الأكراد شخص ذو سداد ... أمه ذات اشتهار بالفساد
لم تخيب من نوال راغبا ... لم تمانع عن وصال طالبا
دارها مفتوحة للداخلين ... رجلها مرفوعة للفاعلين
جاءها بعض الليالي ذو أمل ... فاعتراها الابن في ذاك العمل
شق بالسكين فورا صدرها ... في محاق الموت أخفى بدرها

وهكذا تمضي القصة مصورة تلك الأم الفاسدة وابنها الغيور، وقد دللنا بها هنا على شيء مما يقال في جانب القصة من شعرهم.

وتكثر الاتجاهات والأنماط في شعر القرن الحادي عشر وما بعد، ولو أردنا التوسع في هذه الأنماط لخرج بنا الحديث إلى مجلدات كثيرة، وإنما نمهد بهذا لما

يدور في اليمن من حركة أدبية مؤثرة ومتأثرة. وكان اليمن على صلة مستمرة بعالمه المحيط به وكانت الرحلات منه وإليه في كل عصر وزمان.

وربما تردد على ألسنة الأدباء في اليمن شعر لبعض من شعراء العربية في ذلك العصر، فكان لا بد لنا من التلميح إلى بعض مشاهير الأدب في تلك الأعصر، وأعني بها فترة ما بعد القرن العاشر:

في الشام

ففي الشام نبغ جماعة من الأدباء، نذكر منهم أدباء (جبل عامل) وقد عرفوا بالإجادة في كتاباتهم، وكان لهم دور كبير في ثقافة القرن العاشر وما بعده من القرون التي تلته، وفي القرن الحادي عشر نبغ الأديب محمد بن الحسين العاملي وله شعر جيد منه قوله:

خلياني ولوعتي وغرامي ... يا خليليَّ واذهبا بسلام
قد دعاني الهوى فلباه لبي ... فدعاني ولا تطيلا ملامي
إن من ذاق نشوة الحب يوماً ... لا يبالي بكثرة اللوَّامِ
خامرت خمرة المحبة عقلي ... وجرت في مفاصلي وعظامي

والى آخرها وهي جيدة.

ومنهم الأديب زين الدين العاملي، ومن شعره:

شام برقاً لاح بالأبرق وهنا ... فشكا من لاعج الوجد وأنا
دنف قد عافه صرف الردى ... وخطوب الدهر عما يتمنى

إلى آخرها، وفيها يبدو متأثراً بشعراء المتقدمين ومن اجتماعياته واصفاً تنقلاته ورحلاته:

سئمت لفرط تنقلي البيداء ... وشكت لعظم ترحلي الأفضاء
ما أن أرى في الدهر غير مودع ... خلاً وتوديع الخليل عناء
أبلى النوى جلدي وأوقد في ... الحشاء نيران وجد مالها إطفاء
فارقت أوطاني وأهل مودتي ... وحبائباً غيراً. لهن وفاء

إلى آخرها.

ومن أدباء الشام في ذلك الوقت، الأديب بدر الدين الغزي، له من قصيدة يقول فيها :

ألا طرقتنا قبيل منبلج الفجر   معطرة الأردان طيبة النشر
حيت فأحيت من حشا مدنف قضى   وما خلتها تقضي على الموت والنشر

وشعراء آخرون، لا مجال لذكرهم هنا.

في مصــر :

نبغ في هذه الفترة من أدباء مصر جماعة، منهم الأديب محمد بن أحمد الحتاتي ومحمد بن أبي بكر ياسين، ومحمد بن ناصر الجلبي وغيرهم :

ومن شعر الحتاتي السابق الذكر قوله :

أستودع الله أحلاماً مضين لنا   في غفلة الدهر أو في يقظة العمر
حيث التصابي معقود اللواء على   جيش من اللهو بين الأمن والظفر
أيام كانت شموس العلم تلمع من   أفق الأسارير والكاسات والثغر

وفي الحجاز كان للحركة الأدبية ازدهار كبير، وقد كانت محط الرحال لكل فئات الناس من أدباء وعلماء وعامة، ونحن نقتطف هنا من أشعارهم قول الأديب زين الدين عبد القادر الطبري[1] :

أستودع الله ظبياً في مدينتكم   سلامه كان لي في الحال توديعا
حلو المراشف إلا أن مبسمه   قد رصعته لآلي الثغر ترصيعا
مهفهف القد إلا أن عاشقه   على الوداد له ما زال مطبوعا
دنوت منه فحياني بمنطقه   فأنتج الفكر تأصيلاً وتفريعا

ومنهم أخوه علي بن عبدالقادر الطبري ومن شعره قوله :

هذه رياض الحسن أغصانها   غرد بالدوحة منها الهزار
يهتز فيها قد ذات الربا   رقيقة الخصر على الاختصار

---

(١) ابن معصوم (سلافة العصر) ص٢٩٦ .

بت ونـار الشوق قـد أضـرمت   بمهجتي أحــرقهــا الاسـتعـار
رام عــذولي هــدركن الهــوى   يـا كعبة الحسن بـك المستجـار
غضيت ذاك الـطرف عن ناظـر   هيجــه الـوجــد عفيف الإزار[1]

ومن أدباء الحجاز المشهورين في ذلك الوقت أيضاً الأديب أحمد بن عيسى المرشدي، له شعر جيد منه قوله أول قصيدة:

عوجا قليلاً كذا من أيمن الوادي   واستوقفا العيس لا يحدو بها الحادي
واستعطفا جيرة الشعب وقد نزلوا   على الكثيب فهم غيي وإرشادي
وسـائـلاً عن فؤاد تبلغــا أمـلي   إن التعلّل يشفي غلة الصادي[2]

وشعره كثير أنظره في سلافة العصر.

وهناك أدباء آخرون حفل بهم العالم العربي والإسلامي، لا نحسب بذكرهم هنا أننا نضيف شيئاً جديداً إلى البحث، فقد كتبت عنهم عشرات الكتب، وإنما أردنا بسياحتنا القصيرة هذه أن نخيم على الأدب المعاصر لأدبنا اليمني الذي نحن بصدد دراسته ومعرفة الوضع لتلك الآداب بتلك المجتمعات.

(١) سلافة العصر ص٤٩.
(٢) المصدر السابق ٦٢

في البيئة الأدبيّة

بعد جلاء العثمانيين من البلاد اليمنية، نشأت الدولة المستقلة وكان لها دور كبير في تطور الثقافة الأدبية والوطنية الخاصة، وقد ساعد على ذلك استقرار نسبي في الأوضاع الاجتماعية والسياسية.

وقد نشأت في ظل هذا الوضع طبقة اجتماعية مترفهة من أبناء الحكام وبعض الأعيان، تتذوق الأدب وتشجع أصحابه ومنهم من يقول الشعر ويتتبع الجمال في مواطنه العامة والخاصة، وإلى هذه الفئة يعود الفضل في تطور الحركة الأدبية في مجتمعات القرن الحادي عشر وما بعده، ورأينا هناك كادراً كبيراً من جمهور الأدباء وأعيان العلماء، يبدعون في إنتاجهم العلمي والأدبي تحت ظل تشجيع تلك الفئة المترفهة والموسرة.

وقد وجد المجتمع الأدبي في تلك الفترات حصيلة ثقافية كبيرة، خلفتها مجتمعات العلم والأدب في مصر والشام والأندلس، خلال القرون الإسلامية الزاهرة في القرن الخامس والسادس والسابع، فكان تأثر أهل اليمن بتلك الفترات أكثر من تأثرهم بما قبلها من القرون الإسلامية الأولى في حواضر بغداد العباسية، ومع ذلك فإن أهل اليمن قد استفادوا إفادة كبيرة من كل من سبقهم، ورأينا عصراً أدبياً عظيماً يعيد فترات النهضة والرقي في مصر والشام والأندلس بعد ركود وجمود عمّ سائر الأوساط الإسلامية، ولا نقول عصر اجترار كما يحلو لبعض الأدباء، لأننا نجد في هذا الأدب ابتكاراً وتجديداً فرضته

طبيعة البلاد اليمنية المختلفة عما سواها[١].

ولعل أبرز ما تركه أدب الحواضر الإسلامية في اليمن في تلك الفترة، هو ولعهم الشديد بجانب الصنعة في الثقافة الأدبية ومجاراتهم الكبيرة في اختراع الأنماط البديعيّة والجناسية في إنتاجهم الأدبي والشعري. وهو الأمر الذي سنلمح إليه فيما بعد، وقد وصلت إلى اليمن جلّ دواوين العربية وشغف الناس بنسخها وتناقلها.

وتأثروا بأدباء العربية الكبار ومنهم من لم يكتف بمطالعة تلك القصائد الطنانة، بل قام بحفظها، وقد ذكروا عن الأديب علي بن موسى أبو طالب المتوفى سنة ١١٩١ أنه كان يحفظ شعر أبي الطيب وأبي العلاء المعري[٢].

ويقول الحيمي في ترجمة عبدالله بن أحمد الخطيب أنه كان ذا لهج بشعر أبي الطيب[٣] ويقول في ترجمة يوسف بن الهادي أنه كان معجباً بشعر ابن نباته المصري، ومتأثراً به، وقد جمع شعره في مجلد كبير، ويقول الشوكاني في ترجمة إبراهيم الهندي أنه كان يتشبه في مدحه وحماسته بأبي الطيب[٤].

ونتيجة لهذا التأثر الكبير عند أدباء اليمن، نجدهم يكثرون من معارضات القصائد الشهيرة في الأدب العربي ومحاكاتها في الشكل والمضمون، فأنت تلمس أثر الأديب الشريف الرضي على الأديب اليمني أحمد بن الحسن الكوكباني في معارضته لقصيدة الأول:

يا ظبية البان ترعى في خمائلها ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

قال الأديب أحمد بن الحسن معارضاً:

---

(١) يعجبني في هذا الصدد قول الدكتور الأديب عبدالعزيز المقالح في كتابه شعر العامية في اليمن ص١٤٥: واضح أن العصر الوسيط في اليمن لم يكن عصر اجترار، بل كان عصر تنوير ديني وعصر ابتكار أدبي على الأقل في مجال الآداب العامية».

(٢) نشر العرف ج٢ ص ٣٠٥،

(٣) الحيمى (طيب الثمر) «خ»

(٤) البدر الطالع ج١ ص١٦

ألمت بالروض حياه وحياكا ... فقابل الشمس بدراً كان إياكا
وكاد يحكيك غصن البان منعطفاً ... هيهات ذلك ما حاكاك من حاكا
يا شادناً فتكت فينا لواحظه ... ظلماً ومدت لأهل الشوق أشراكا

وعارضها الأديب يوسف بن يحيى صاحب (نسمة السحر) فقال:

مليحة الوجه من بالهجر أغراك ... ومن بظلم الذي يهواك أفتاك
حليت بالدر حسناً قد جليت به ... تبارك الله ما أبهى وأحلاك
سكنت قلبي وفيه النار من ولهي ... وقد رضيت بذا إن كان أرضاك

وتأثرات كثيرة يجدها الباحث في ثنايا الكتب الأدبية عند أهل اليمن، لا مجال لذكرها هنا. وقد رأينا من الأدباء اليمنيين في تلك الآونة من صرح بإعجابه بشعراء الأندلس من حيث سلوكهم المسلك الوعر في قوافيهم، فقال الأديب محسن بن إسماعيل المتوفى سنة ١١٢٤ شارحاً رأيه في شعر المتأخرين:

إن هؤلاء الشعراء يجيء أحدهم بمائة بيت من روي الراء التي هي حمار الشعر، أو الدال ثم يزعم أنه لا يشق غباره، وإنما الشعراء المغاربة المخصوصون بتلك الجواهر التي لا تطاق كإبن بليطة في الطائية التي تفوت اللاحق، وابن الحداد في تائيته المهموزة التي مدح بها ابن صمادح، وكابن خفاجة، وابن هاني، وابن رشيق، ومن المشارقة: ابن التعاويذي، والسلامي، والسعيدي ونحوهم.

وهذا رأي ظريف يرى الإبداع في تلك القوافي الصعبة المأخذ، ومع ذلك فربما خرج شعراء اليمن من المعارضة والتأثير إلى المحاكاة الصريحة، فهذا الأديب عبدالرحمن الحيمي المتوفى ١٠٧٣ يسمع بأبيات ابن سكرة الهاشمي في كافاته الستة فيقول أديبنا على منواله:

---

(١) انظرها في (نسمة السحر) «خ»
(٢) المصدر السابق
(٣) نشر العرف ج٢ ص٤٠١

صنعاء إذا كنت مشغوفاً بمسكنها فاعدد لها من ذوات الحاء ما رسما
حب وحب وحمام معا حطب حضيـرة وحمار حرفة وحمى

قال بعضهم لما سمع أبيات الحيمي المشار إليها نسي الحلبة وهي شيء أساسي[1]، ولهم في معارضة بيتي النووي الشهيرين مقاطع كثيرة سنثبتها في حديثنا عن أدب الفقهاء، وقد كانت البيئة الأدبية تزدهر من حين لآخر كلما لاقت تشجيعاً من المهتمين بالأدب، وقد نشأت في هذا العصر طبقة كبيرة من الأدباء تتخذ من الأدب حرفة وتجعلها وسيلة لكسب المال الوفير، ومنهم من ترقى إلى أحضان الوزارة والمسئولية الحكومية الكبرى من خلال شعره وتقريب الحكماء له. ولا غرابة في ذلك فإن للشعر تأثيراً قوياً على النفوس يجعل كثيراً من الناس ينساقون إليه، وقد دوّن لنا الشعر والتاريخ كثيراً من صلة الأدباء بالحكام، ففي اليمن في الفترة التي ندرسها كان للشعراء صلة كبيرة بأمراء عصرهم، وقد قيل فيهم أكثر القصائد الجيدة من مدح ورثاء وإخوانيات، وطالما عكف الأدباء على أعتاب الأمراء لأخذ الصلات الجزيلة منهم، وقد صوّر لنا الأديب محمد بن الحسين المرهبي المتوفى سنة ١١١٤ في قطعة أدبية ساخرة مورياً فيها بسور القرآن وعلومه تزاحم الأدباء والعلماء على أبواب أحد الملوك والأمراء يقول مخاطباً ممدوحه:

«فإن الشعراء ببابك العالي كالنمل، ولو طاب ما يخرج من أفواههم لقلت كالنحل، قد ملوا الحجرات وأشبهوا بأكمامهم «الصافنات» وبسرعة عدوهم إلى السفرة العاديات فهم كالأنعام لدى (المائدة)، ما منهم إلا يرى الحذر في الأطعمة ولا يجيز الترتيل للقم الباردة، قد جودوا لكنهم يرون إظهار البلع في موضع الإخفاء، ويلزمون العشاء القصر، والمقلاة الإمالة، وهذا مخالف لما عليه القراء، طالما وقفوا في السفرة حيث لا يحسن الوقوف، وكم سمعت لهم عند رؤية الثريد (غنه) تنبي عن معرفتهم بمخارج الحروف يستجيدون في اللقم الإدغام، ولا يقنعون من الطبائخ بالأشمام»[2].

---

(١) (نسمة السحر) «خ».

(٢) ابن معصوم: (سلافة العصر) ص٤٧٣ وهذا النوع يعرف عند البديعيين بالتوجيه.

إلى آخر رسالة المرهبي التي يسخر فيها من سلوك شعراء عصره ونهمتهم على الأكل، إلا أنها أبانت عن تكريم الناس لهم، وحفاوتهم بهم، بتلك الولائم الضخمة التي كانت تقام.

وقد اعترف الأديب سعيد بن صالح السمحي المتوفى سنة ١١٢٢، بتكريم أحد ملوك عصره للأدباء فقال:

هو الشمس إشراقاً علينا وبهجة   فغير عجيب أنه يطمس الشعرا[٢]
لقد حرم الشعر الحلال امامنا   ولكنه ما حرّم الجود والبرّا

وفيه تورية أو جناس على قاعدة شعراء ذلك العصر.

وطالما استعان الأدباء بحاجات كثيرة توجهوا بها إلى أعيان عصرهم، فقضوها بسرعة، فهذا الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥، يطلب من أحد الأعيان جوخاً فيقول مع التعريض بحروف الهجاء:

أيا إنسان عين الجود عطفاً   على «صاد» أخا أدب وصدق
وقد ألف الثياب فجد بجوخ   ودع من «لام» في غيظ وحنق
بقيت لطرف أهل المجد «قاف»   و«كاف» للأنام وكل رق
وكاتبها لفرط البرد أضحى   لدى الأدباء كالواو الدمشقي

ومع ذلك ربما تبرّم الأدباء من كثرة الحجّاب على أبواب الملوك، فيكتب أحدهم وقد قصد المؤيد، فوجد من دون بابه حجّاباً غلاظاً فقال:

مولاي طال الانتظار فهل إلى   تقبيل كفك من قبول شافع
كيف السبيل ودون بابك قسوة   قاس الحجاب ودون ذلك مانع
هذي الثلاثة من موانع بيننا   وكما علمت لهن مطلك رابع[٣]

---

(١) (نسمة السحر) «خ»
(٢) (نشر العرف) ج٢ ص٢١٨.
(٣) (نشر العرف) ج١ ص٧٥ وهو الأديب أحمد بن أحمد الأنسي المعروف بالزنمة وسيأتي ذكر هذه الأبيات في ترجمته.

وهذا الأديب إبراهيم اليافعي المتوفى سنة ١١١٠ يقصد الأمير علي بن المتوكل إسماعيل ويمدحه بقصيدة طويلة ثم يتأخر عنه بالجائزة فيكتب إليه اليافعي مهدداً بالهجاء قائلاً:

جمال الهدى إنا نظمنا قصائدا ... حكمت لنا فيها وأنت المقلد
وعندك للنقدين ذهن وراحة ... فذا ناقد شعرا وهاتيك تنقد
وهل نحن إلا عصبة أدبية ... نقيم الثناء فيمن نشاء ونقعد
ولو هجت البدر المنير لأوضحت ... به وضحاً وهو الرفيع المسود
فإياك والشح المطاع فإنه ... لشرأب منه الهجاء يتولد[1]

وهكذا فإن الشعر في هذا العصر قد غدا مادة للكسب بعد أن أصبح متعة محببة للملوك والحكام، وهذا لا يتم إلا في عصر الاستقرار، وقد دلت تلك المقاطع السابقة مع ما قدمناه من قبل من شعر سياسي خطير ينقد الأوضاع الاجتماعية، على سماحة وأريحية من بعض الحكام في ذلك الوقت، ولهذا السبب نجد الشعر والأدب قد أجادا تحت شعار التسامح الأدبي والسياسي.

ومع ذلك فإن الشعر عند أدباء هذا العصر، ليس هو كل شيء في الوسيلة إلى التكسّب والحصول على لقمة العيش، فمن الأدباء من تولى المناصب الحكومية والقضائية كما أسلفناه من قبل، ومنهم من اعتمد على ساعده في البحث عن الكسب الشريف، وقد وجدنا أدباءً كباراً يحترفون حرفاً لا تمت إلى تخصصهم بشيء... فهذا الأديب الكبير أحمد بن الحسين الرقيحي يحترف الصباغة ويقول مفتخراً:

المجد في العلم والكف المسود من ... فن الصباغة لا في صحبة الدول
فما سعيت إلى هذا وذاك معا ... إلا لأجمع بين العلم والعمل

وكذلك احترف الأديب حسين بن علي موسى حرفة الخياطة، وجعلها

(١) (نشر العرف) ج١ ص٧.

وسيلة للكسب على الرغم من جزالة شعره وأدبه، ولم ينحدر به إلى هوة المدح والتزلف وآخرون[1] وربما صدرت نفثات من قبل بعض الأدباء يشكون فيها سوء حالتهم المادية، وأنت تلمس مثل هذه الشكوى في بيت الهبل:

لا تعتبر ضعف حالي واعتبر أدبي ... وغضَّ عن رث أطماري وأسمالي
فـما طِـلاَبِيَ للدنيـا بمتـنـع ... لكن رأيت طلاب المجد أسمى لي

ونجد في شكوى الأديب أحمد بن أحمد الأنسي الزنمة المتوفى سنة ١١١٥، من أبناء عصره ما جعله ينبذ الأدب ويصفع الشعر صفعاً حسب تعبيره يقول:

إليكم بني الآداب عني نصيحة ... أعيدوا لها مرأى أصيخوا لها سمعا
لقد ضاع مسك الشعر إذ ضاع نشره ... وأصبح ذاك الدر من لفظه جزعا
وما الشعر إلا كالنسيم وإنما ... يهز النسيم الغصن لا صخرة صلعا
فلو كنت يا ذا النظم موسى لكذبوا ... بآياته لو زدت تسعته تسعا
فها أنا قد أصبحت يا قوم تائباً ... عن الشعر بل قد صرت أصفعه صفعا

وتلك نفثات شعرية عبر فيها الشاعر عن بعض ما يعانيه أبناء فنه وهو كثير من قليل.

---

(١) منهم جماعة احترفوا فن الخياطة منهم الأديب أحمد عبدالقادر الناخوذة والأديب إبراهيم اليافعي، والأديب أحمد بن علي مشرح وغيرهم.

مجالس ومساجلات

على أن الذي أذكى جذوة النشاط الأدبي ـ في أغلب الأحيان ـ ليس الدعم المادي لبعض الأدباء ، وإنما هي تلك المجالس والندوات الأدبية وقد فخرت بعض البيوت بعقد تلك الندوات في أماكن خاصة بها تعرف باسم (المنظر) أو (المفرج)، ولم يكن القات هو السبب الرئيسي لاجتماع الأدباء في تلك الآونة إذ لم يكن منتشراً عند كافة الناس كما هو الحال الآن، وإنما يجمعهم الدافع العلمي والأدبي فقط، ولا غرابة في ذلك فقد شهدت البلاد صفوة مختارة من الأدباء والعلماء الذين تموج بهم المدينة صنعاء وبعض المدن اليمنية الكبيرة كشبام وكوكبان وزبيد وتعز.

وقد حدثتنا كتب التاريخ عن واحد من هذه المجالس الأدبية الكبيرة، وهو مجلس الأديب علي بن حسن الحوثي المتوفى بعد سنة ١١٩٠هـ وقد خصص للأدباء غرفة عالية من منزله أسماها «سمرقند» فكان يجتمع عنده الأدباء «ليل نهار وفي غالب الأيام»[١] وقيلت في تلك المجالس قصائد كثيرة جمعها صاحبها بعد ذلك في مؤلف تحت عنوان (عصارة القند ونفحة الورد فيما قيل في سمرقند) وكان أبرز رواد هذا المجلس الأديب أحمد بن يوسف الحديث المتوفى سنة ١١٩١هـ والأديب عبدالله بن أحمد بن اسحاق المتوفى سنة ١١٩١ أيضاً.

(١) نشر العرف ج٢ ص٢٠٠.
(٢) المصدر السابق ص٢٠١.

ولنا أن نقف على شيء مما يقال في تلك المجالس من مساجلات شعرية وأدبية قال الأديب علي بن حسن الحوثي في ذلك المجلس:

ويوم لنا في القرب نلنا بـه المنى ودارت علينـا فيه كـاس المسرَّة

فقال الأديب أحمد بن يوسف:

جعلنـاه تـاريـخ السـرور لأنـــه لعمري به كان اجتماع الأحبَّـة

وقال الأديب عبدالله بن أحمد بن إسحاق:

صفحنـا عن الدهـر المسيء لأنـه حبانـا بلذّات بهـا العيـن قــرت
فقد أعربت عن وصفها الورق إذ رقت على الدوح في الروض النضير وغنـت
ووافت إلى سـاحتهـا نسمــة الصبـا لتجلو صـــدى أفكـــارنـــا ثـم ولت
وقـــد عمّ إخـــوان الســـرور فلم أرَ وشـرع الهـوى إلا صـريعـاً بنشـــوة
دهشت لمـا بي من سرور فلم أغص عــلى درر نـــظمــتــهـــا ثــم عــزت
وعذراً لئن أحصـرت فيـه فكـم نبت لدى الروع بيض الهند قدمـاً وكلت

وربما خرجت لهؤلاء الثلاثة من هذه المجالس قصائد جماعية يتغنى به الأدباء في مجالسهم، ومن هذه المقاطع قول الثلاثة هذه الروضية:

حــبـــذا روض نــزلــت بـــه طـــاب فيــه الـــورد والصـــدر
رقـصــت أغـصـــانــــه طـربـاً وعـــلى أجـــيـــادهـــا درر
نـــظمـــت مـــن دمـــع غـــاديـــة في الحشـــا من بـــرقهـــا شـــرر
أو دمـــوع مـــن عـيـــون شـــج جـــعـلت في الخـــد تـبــتـــدر
أو ثغـــور في تـــرشـــفـــهـــا لـــي مـــن حـــر الهـــوى حضر
وسـعـى بـــالـــراح فـيـــه لـنـــا رشـــأ في طـــرفـــه حـــور
شـــمس راح عـنـــد شـــاربهـــا بـــذلـــت في وصـلهـــا الـــبـــدر

ومن هذه المجالس الأدبية الشهيرة مجلس الأديب العلامة يحيى امطهر المتوفى سنة ١٢٦٨، وكان له منزل كبير في مدينة صنعاء بموضع يقال له (بير طاهر).

ولنترك صاحب هذا المجلس يحدثنا عن شيء مما يدار في اجتماعه بالأدباء :

«وقع الاجتماع بجماعة، منهم الوجيه عبدالكريم بن أحمد بن إسحاق وأولاده إبراهيم بن عبدالله الحوثي والقاضي إسماعيل الحماطي، والفقيه أحمد الهندي، وكان ذلك أيام (عصير الورد) وقد قيل إن تأخيره بعد القطف قبل الاعتصار أولى وأذكى للرائحة، فجعلنا ما حصل بيوم الاجتماع في المقام بوسط المكان، وليس هو بالقليل، وعند دنو الليل أسرجت الشمعة وجعل مغرزها وأصلها بين الورد، ورش الورد، وعند ذلك تبادرت الأذهان إلى تشبيه تلك الهيئة فقال الأخ الحسام محسن بن عبدالكريم قبّة، من ياقوت فيها هلال من ذهب، وقال صنوه الصفي، الصبح فوق الشفق، أو نحو ذلك.

وقال القاضي إسماعيل واستوفى الرش نجم فوق عمود الفجر على شفق طرزه بالنجوم وقال الكاتب «يعني يحيى بن المطهر» مشبهاً للشمعة بالعين في طيفاتها ودموعها وضوئها فوق خد قد تكلل بالعرق[1].

ومما قيل في هذا المجلس من شعر يصف تلك الحالة، قول الأديب إسماعيل الحماطي :

كأن الشمع دانت إذ علت من جنى الورد تلافى عتيم
وقد رشت جوانبه ففيه حباب الماء كالدر النظيم
شهاب لاح فوق عمود فجر على شفق يطرز بالنجوم

وقال يحيى بن المطهر:

أشبه بشمعة لاحت دجا ... وقد نصبت على ورد شميم
بـه كـالـلول من أثـر لـرش ... قضى لـنـا بـعـين لـلـنـديـم
حكت طيفـاتها ودمـوع وجـد ... لرشح لا يـريـم بخـد ريـم

وربما خرجت هذه المجالس من البيوت إلى الشوارع العامة والمنتزهات، بل

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٠ .
(٢) يحيى المطهر: الأسلاك اللؤلؤية «خ» بقلم المؤلف.

ربما وجدناها في الدكاكين والأسواق العامة. وقد حدثنا صاحب نفحات العنبر عن دكان صغيرة للأديب إبراهيم بن أحمد اليافعي المتوفى بعد سنة ١١١٠ «كان يحظى فيه العمائم فيجتمع بدكانه من له ولع بشعره».

وقد حدثنا الحيمي ـ وهو أحد أساطين الأدب في اليمن ـ عن مجالسه الكثيرة مع أدباء عصره، فأورد لنا كثيراً مما يدار فيها من مباحث علمية وأشعار وغالباً ما تحضر بعض الكتب الأدبية وكان أشهرها في ذلك الوقت كتاب (ريحانة الألبا) للخفاجي، (وديوان ابن نباته) ولندع الحيمي يصف لنا مجلساً من مجالسه الأدبية يقول بسجعه المعروف: «اجتمعت أنا والأديب أحمد بن عبدالرحيم الكوكباني في مجلس ولدينا خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي في يوم صفت مشاربه، وقد رق الجو والأدب طلق المحيا، والنسيم قد خطر فحيا، ومجالس الاجتماع مقرطقة بالثريا، فدارت بنا كئوس الآدابِ، وهمل على روض مقامنا مذاكرة الزمان القطر بعد إجداب، وكل أحد أدى من ودائع الآداب الأمانة، وبكت جواهره من الهميان، فما غادر جمانه وأتى بالجد والمجون، وسلك في أودية كلها شجون، حتى انتهى الكلام ومضى القول بسلام إلى ذكر الرماة وما قيل فيهم من الأشعار فأملى أحمد بن عبدالرحيم في مليح رامٍ قول بعض الأدباء:

وأهيف القد ذي دلال ... طائر قلبي عليه واجب
كالشمس في كفه هلال ... يرمي إلى البدر بالكواكب

فقال الشيخ إبراهيم الهندي: ما سمعت أرشق من قول ابن فرناس في مليح رامي مورياً:

أتى إليَّ مايساً والردف قد أقلقه ... يرشق ثم ينثني لله ما أرشقه

فقلت أنا «يعني الحيمي» قد نظمت في صياد يرمي بالقوس فيحسن الرماية وأنشدتها:

ولم أنس صيّاداً يصيب بقوسه ... رنين عجيب عند إرسال نصله
وقد قطعت قبل الوقوع بقتله ... كأني بها للصيد أنَّت توجُّعا

هذا بعض ما يدار في مجالسهم الأدبية وهي مجالس تزخر بالمعرفة والموهبة،

فنادراً ما تخلو من مناقشة علمية أو أدبية أو نحوية إلى غير ذلك، وربما تذاكروا فيها الأشعار لشعراء العربية كما مرّ بنا في كلام الحيمي السابق.

وقد ولدت هذه المجالس أشعاراً كثيرة أتت فردية وأخرى جماعية تنبي عن موهبة أصيلة وبديهة سريعة. ونحن سنقف عند شيء من هذه المساجلات لتكتمل لنا الصورة عن تلك المجالس.

ففي مجلس الأديب يحيى بن المطهر قال يستحث العلامة إبراهيم بن عبدالقادر في الحضور إلى مجلس أنس وكان في الروضة:

سقى الروضة الغنا من الحزب صيّب يقبل عنا تربها حين يُسكب

فأجابه العلامة ابراهيم بن عبدالله الحوثي صاحب (نفحات العنبر):

وضاحك فيها نورها البرق نشوة وقهقه زهواً رعدها وهو مغضبُ
ومالت بها الأغصان لما تجاوبت بها ساجعات الطير تشدو فتطرب

فأجابها العلامة محمد بن إسماعيل الشامي:

ويحنو على العيدان شجواً بنقرها وأحسبها عن ذلك اللحن تعرب
سقتها الغوادي كل صيب مهجر سوابقه في ملعب الروض تلعب

فأجاب الثالث وهو الأديب أحمد علي الهندي:

وساق السحاب الثج نحو رباعها من البرق مصقول الغزار محبب
وألبسها نسج الرياح مطارفا رقاقاً تكاد الشمس عنها تحجب

يحيى بن المطهر:

فدام يجنيها يديها بنانه وصافحها كف النسيم المطيب
فما هي إلّا جنّة تزخرفت تضاءل منها ما هو مخصب

إبراهيم الحوثي:

فما الشعب ما صغد ونهر وغوطة تماثلها في الطيب بل هي أطيب
ففيها لمكروب سلوى وبهجة وفيها لمشتاق ملاه وملعب

محمد بن إسماعيل الشامي :

وفيها حباب الماء حب وإنه ... وإن أعجب الأشياء الحياء المحبب
وسائلها في النهر يصفو وإنه ... لما يغيظ السائلين ويغضب

أحمد بن علي الهندي :

وفيها صفات للمديح عميمة ... يقصر عنها ما يقال ويكتب
وما ذلك من عجب بها غير أنها ... حوت كل ما تهوى النفوس وتطلب

يحيى بن المطهر :

إذا ما جرى ذكر الرياض ومن بها ... طربت وما شوقي إلى البيض أطرب
ولكن إلى مأوى المكارم من إلى ... شمائله كل الفضائل تنسب

إبراهيم الحوثي :

إلى صارم الدين الإمام ومن به ... له ازدان شرق للبلاد ومغرب

ثم تستمر هذه المساجلة في وصف مناقب المدعو إلى هذا المجلس ، وسيلاحظ فيها تماسك المعنى واطراد الأسلوب على الرغم من كثرة المشاركين .

وربما دخلت المساجلة بين اثنين في تكوين بيت واحد ، فهذا الأديب المؤرخ لطف الله جحاف يقول :

علوٌّ ترى موقع النجم دونه

فيجيبه يحيى بن المطهر :

ومجد غدا أهل الهوى يعرفونه

لطف الله جحاف :

ونفسي تسامى سماك السماء

يحيى بن المطهر :

وتعلو علو البراق ترونه

لطف الله جحاف:

وعـزم عـزا كـل أمرٍ إلى

يحيى بن المطهر:

سما المجد أهل النهى يحسدونه[1].

إلى آخر هذه المقطوعة الفريدة.

وربما يحدث شيء في مجلس من مجالسهم فتتبادر الأذهان إلى وصف ذلك الشيء، ففي مجلس بين العلامة محمد بن علي الشوكاني، والأديب علي بن إسماعيل المتوكل تنذر السماء بهطول الأمطار ويتوالى البرق والرعد فيقول العلامة محمد بن علي الشوكاني:

هـذا السحاب وبرقهـا الخفـاق   من نحـو أرض شهـارة تنسـاق

فيجيبه الأديب علي بن إسماعيل:

سحب دموعي في الخدود نيـابة   عـنهـا وحن فـؤادي المشتـاق

الشوكاني:

حملت من الأحبـاب عرفـاً كلما   استنشقتـه هملت لـه الأحـداق

علي بن إسماعيل:

لا تنكـروني إن ثملت فللهـوى   فـعل كما للخمر حين يـذاق

الشوكاني:

وأنـا الذي عبث الهـوى بفؤاده   ولمثـل مـا بي يشفق العشـاق

إلى آخر ما جرى بينهما.

ونسمع في القرن الثالث عشر بين أدباء صنعاء مساجلة شعرية كبيرة في ذم الغيم ومدحه يقول الأديب أحمد بن عبدالكريم إسحاق:

---

(١) (الأسلاك اللؤلؤية «خ»)

ما احتجاب الشمس عن وجه السما		طاب إلا للخفافيش وراقا
أنا لا أرتاح في الغيم وقد		كان مشتقاً من الغم اشتقاقا
إن عندي سحب الجو قذا		كل من عاف قذا الكاس أراقا

(الخ) فيجيبه أخوه الأديب محسن بن عبدالكريم بقصيدة طويلة أولها:

إن للغيم على الأرض يدا		أنت لا تجحدها إلا شقاقا

ويتساءل الأديب يوسف بن إبراهيم الأمير، هل يلزم وجود كتاب أدب ينمق المجلس، أم يكتفى بالمناقشة والمحادثة؟

إذا طاب اجتماع الشمل يوماً		برغم البين والشوق الشديد
ونظم عقد أحباب لهم في		المطارحة اقتناصات البعيد
أيحسن في المقام حضور سفر		يفيد بمثل صورة مستفيد
متى تليت معانيه فمن بين		منتقد عليه ومستجيد
أم الأفكار بالأبكار تغنى		وتكفي لذة المعنى الجديد

فيجيبه على تساؤله هذا جماعة من أدباء عصره، منهم الأديب أحمد بن عبدالكريم:

رسوم الصحف تغني عن مغان		تزين بها الدمى عند الرشيد
وينسيك المنى نظراً إليها		ويجلو الهم عن قلب العميد

ويقول الأديب محسن بن عبدالكريم في جواب طويل منه:

وعند تجانب الأطراف منه		فالق السمع بالقلب الشهيد
وساجل من تجالس غير قال		بلا داع أساطير التليد
وإن ألجا الكلام إلى كتاب		رجعت إليه كالحكم المفيد

فيجيبه علي بن إبراهيم الأمير:

سماع رسائل الإخوان تتلى		معانيها بألسنة الوجود
من الذي يمليه مجمو		ع سفر راق من خير الفقيد

وما يملي لسان السفر أحلى		لسمعي من مفاكهة البليد
وغاية ما الصدور استودعنه		ذخائر مثل صدر ابن العميد
وهبك وجدت أرفع منه قدراً		فمهموم بتحصيل العصيد

فقال الأديب أحمد بن محمد المعروف بالشتارة:

ألا إن الكتاب بكل معنى له		معنى لذي رأي سديد
يفيدك علم ما لم تستفده		من الصابي إلى الخبر المفيد

ويتوسط الأديب عبدالله بن عيسى الكوكباني، بين الرأي القائل بتفضيل الحديث في المجالس، والرأي القائل بتفضيل الكتاب، فيرى الجمع بينهما:

نظام دونه نظم العقود		يسائلني عن الرأي السديد
وإذ طاب اجتماع الشمل يوماً		أيحلو السفر سفر في البرود؟
أم السمر الذين لهم حديث		ينوبوا من مفاكهة الجلود
فعندي فيه تذهيب عجيب		وإمضاء على القاضي الرشيد
بأن مجالس اللذات لا ينبغي		تجري على نوع وحيد
فلا تعدو سماعاً أو حديثاً		ولا شعراً بأنواع النشيد

واشترك في هذ المساجلة العلامة محمد بن علي الشوكاني، والأديب محمد بن إسماعيل الشامي، والمؤرخ لطف الله جحاف، والقاضي حسن العوامي، والأديب إسماعيل الحماطي. وغيرهم، ولولا خشية الإطالة لأوردناها كما هي، وقد دلت في عمومها على ما يدار من شعر وأفكار في تلك المجالس الأدبية:

وهكذا فإن هذه المجالس قد أذكت الحركة الأدبية وزادتها نشاطاً، وقد كانت صبغة اجتماعية تجمع بين شئون المجتمع والأدب والعلم.

وإلى هذه المجالس يعود الفضل في تكوين طبقة من الناس عرفت بالنشادين، يكون عملها في الغالب إسماع الناس الأناشيد والمدائح النبوية

---

(١) ذوب العسجد) «خ»
(٢) المصدر السابق وانظرها أيضاً في (نيل الوطر)

والقصائد الغزلية والحماسية وغيرها وما كانت توجد هذه الفئة لولا هذه المجالس الأدبية وقد أشرنا إليهم فيما سبق.

بل إن هذه المجالس أحيت في الناس الروح الفنية، ورأينا جماعة كبيرة من المغنين يبدعون في ألحانهم في هذه المجالس، كما نبهنا عليه في القسم الاجتماعي.

تجديد محدود

لا يجب أن نطمع بتجديد يذكر في أدب القرن الحادي عشر وما بعده؛ فالعصر شأنه شأن المجتمع المحيط به في شتى أنحاء العالم مجتمع موغل في التقليد والمحاكاة، وإذا كانت عصور القرن الخامس الهجري وما بعده قد ابتكرت فن البديع الشعري، والانخراط فيه فإن هذا العصر ظل راقداً على ذلك التجديد المزعوم إذا صح لنا أن نسميه تجديداً وغدا الإيتاء بشيء من ذلك أمراً عظيماً، وخطة أدبية رائعة ،ولهذا نجد الحَيمي ـ من شعراء هذا العصر ـ لا يكتفي باستعمال البديع في شعره وحسب، بل نجده قد غطى به كل نثره، وحاكاه في ذلك جل من عرفهم عصرنا هذا من أدباء وكتاب وشعراء وهذا ما سنلمح إليه في حديثنا على هذه الظاهرة.

وحتى أولئك الذين زعموا أنهم مجددون نجد تجديدهم محاكاة لشعراء العصر العباسي وعصور الحكم المملوكي في مصر والشام.

وهو تجديد يتمرد على القديم الموغل في قدمه، وكما سمعنا أبا نواس يعيب على الشعراء الجاهليين إغراقهم في وصف الطلول بقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم   فاجعل صفاتك لابنة العنب

نسمع مثال هذا في شعر العصر المملوكي فيقول عرقلة الدمشقي :

يا نديمي غنياني بشعري   واسقياني بُنّية العنقود
عرجا ما بين سطري ومقري   لا بأكناف عالج وزرود

ويقول ابن عنين:

تلك المنـازل لا أعقـة عـالـج ورمال كاظمـة ولا وادي القرى

ويقول في مثل هذا أيضاً الشهاب التلعفري:

يا صاح دعني من ذكر العقيق ومن منـازل ليس لي في نعتهـا شـان
مـالي وما لـربوع لست أعـرفها ما الحب نعم ولا الأوطان نعمان
لـولا الروادف تهتز القدود بهـا ما شاقني الرمل من يبرين والبان

نجد مثل هذا عند شعراء اليمن، ونسمع الأديب علي بن محمد العنسي المتوفى سنة ١١٣٩ شارحاً مذهبه في الأدب والشعر:

يـا سـميـري والـفـتـوة قـوم خلقـوا من سـلالـة الانسجـام
بـطراز «الـرفـا» بتشبيب «مهيـا ر»: بلطف «البها» بطبع «السـلامي»
قم فعرّج بنا على مرقص الشعـ ـر وفتش بنـا طـريق الغـرام
«كعيون المهـا» «ويا ظبية البـان» ألا فـاسقني أدر يـا غـلامـي
وأرحني من الكلام الذي يشمـ ـخ أنفـاً بـالبـأس والإقـدام
«كلبسنـا الحـديـد ثم اعتنقنا» ألـفـاً من مـثـقـف فـوق لام
ومن النـاسـك المشمـر كميـ ـه كنـظم الفقيـه في الأحكـام
ثم دعني من الصعود إلى رضوى وأعـني بـه وعـور الـكـلام
«قفا نبـك» أو أقيمـوا بني أمي وتلك الصخـور فـوق الرّكام
مـا لنـا والبكـا عـلى رسم دار خـل هـذا لعـروة بن حـزام

فالشاعر هنا استسمج شعر الجاهليين وفضل عليه شعر المحدثين من الإسلاميين، وهو قول سبقه فيه من استحب أدبهم، ولكنه دل على تذوق شعري رقيق طبع به غالب شعر هذه الفترة؟ وهذا التجديد ـ الذي هو ليس تجديداً في حقيقة الأمر ـ هو كل ما نفهمه من معنى التجديد في شعر فترة القرن الحادي عشر وما بعده.

نعم سنجد الشعر العامي في هذه الفترة قد فتح آفاقاً جديدة من الابتكار

والاختراع الذي فات شعر من قبلهم، حتى أشار إليه أحدهم وهو الخفنجي بقوله في آخر قصة تفرطه بيت البسيس:

وتـــم قـــولي في الـــقـــصـــيـــد وهـي مـن الـشـعـــر الجـــديـــد

فالخفنجي في شعره هذا مجدد وقدسار هو ومن تابعه في شعره العامي على أنماط جديدة من الشعر الفكاهي والاجتماعي والنقدي، وخفّفت قليلاً من رتابة الشعر الفصيح التقليدي.

إلا أن الشعر الفصيح ظل على أسلوبه المعتاد وإن كنا ظفرنا بشيء مما يمكن أن نعتبره تجديداً، فهو ذلك الشعر الذي يكون أقرب إلى السخرية منه إلى الجدّ، أنظر إلى الشاعر محمد بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١٢٢٤ يعاتب محبوبه:

توقع سلوّي إن أبيت سوى القلى فلا أنا يعقوب ولا أنت يوسف
أتحسبني فيـــما نعتـك صـــادقـــاً وقلت المحيـا البدر ليلة ينصف
وهـــا أنت ذا عنّي مـوار محجب ولم أنكر النوم الذي كنت أعرف
وصدقتني إذ قلت لحظك صارم فاعلمه تعلم أن قولي زخـرف
فلا الخد ورد لا ولا القـد ذابل ولا الثغر برق لا ولا الريق قرقف

وقد أجابه على أسلوبه الطريف هذا الشاعر أحمد بن حسن بركات:

إذا كنت يـــا بـدر المعـــارف تنصف فدعواك حمل الحب كالحسن زخرف
تقـــول لمن تهـــواه أغـــرقني البكـــا متى لحظة بالـدمـع عينيـك تـذرف
وتـــزعـم أن الجسم فيـــه نـحـــافـة وأنت بمـــا فيـه من الشحم أعـــرف
وقلت بـــأن النـــوم منـــك مجـــانب وهل ساعـة بالسهـد طرفـك يطرف
وكم قلت نـار الحب بـين جـوانحي تشب وقلبي من لظى الهجر يرجف
وهـا أنت ذا في شهـر تمـوز حـابس لنفسـك في حـر الـظهيرة مـوقف
وقـلت لـفــقـــدان الأحبـــة لم أذق طعاماً وجسمي من هوى البين مدنف
ونحن إذا حـــان الـطعـــام تـزاحمت عليـه لنـا أيـد عن الـزنـد تكشف
فـأكثـرنـا أكـلاً هـو العـاشق الـذي يـشـــار إليـــه بـــالـغـــرام ويعـــرف

وهناك تجديد آخر من الشعر لا نعرف ماذا نسميه كقول الأديب يوسف بن إبراهيم الأمير الذي يجمع فيه بين طريقة البديعيين في التركيب وبين استعمال الكلمات الغريبة العجيبة يقول:

زوجـاني فـإن شمس الأمـاني ... حـين لاحت وظلها زوجـاني
راجعـاني فقد تشوقت لـلوصـ ... ـل وراج اللقا وما راج عـاني
وألقفاني إذا استطعت فـإني ... كـدت أفنى شوقاً ولم ألق فـاني
شورباني بالموسى من غير قص ... ذاك شورى لمن على الشور باني
لحـسـاني فـإن خـدي مما ... قـد جرى فيه مثلما لـح سـاني
زلجاني[1] إلى الحمى واجنيا من ... روض خـدي فـما زل جـاني
صبعـاني فـإنني مثـل عـود ... صيرتني نار الجوى صب عاني
كـبسـاني إذا تـعبـت وكـبـا ... عصبي في الهوى كما كب سـاني
طلعـاني إلى الجباء[2] فخـلي ... مـذ رآني ببـابـه طـل عـاني
فـرغـاني مـن السـلو فمـالي ... جـلد لـلسـلو إن فـر غاني

وقد أعجبت هذه الطريقة شعراء العصر في ذلك الوقت فقال الأديب لطف الله جحاف المتوفى سنة ١٢٤٣:

كـرثـاني من المقاشيم[3] حمـلا ... كي تشـما وتسمعـا كـر ثاني
شلخـاني فقـد تمـولت حتى ... صرت لا أهتدي لمن شل خاني
نـومسـاني فقـد مشى بجفـوني ... وعيـوني في يقـظتي نـوم سـاني
والمحـاني شـزراً وقـولا حريو[4] ... سـار - بالجـرم - بيننـا والمحـاني

وهي طريقة عجيبة من الشعر اخترعها أدباؤنا بطبيعتهم المرحة الصافية وهذا التجديد هو الذي يمكن أن نفهمه لشعر هذه الفترة.

---

(١) زلجه أرسله بكامل هيئته
(٢) سطح البيت
(٣) جمع مقشامة البستان يزرع فيه الخضـرة
(٤) عروس

وإلا فإن هناك تجديداً آخر يدخل ضمن الشكل، وليس المضمون، فقد ابتكر هذا العصر نوعاً من القصيد لم يسبقه إليه أحد من العصور السابقة، وهو ذلك الشعر الذي يخلط بين الجد والهزل والعامي والفصيح، وقد ابتكر هذه الطريقة في الأدب اليمني الأديبان محمد بن هاشم الشامي والأديب سعيد بن علي القرواني.

وقد انتظرا وصول الأديب علي بن موسى أبو طالب إلى صنعاء عائداً من الحج فعدل إلى كوكبان فكتبا إليه هذه القصيدة الطريفة:

سلام على حاوي المحامد عن يد ... ومن في المعالي والندى يده الطولى
سلام يحاكي منه نفح سماته ... وناضر خلق يخجل الروض مطلولا

هـزل

عليك يا ابن موسى من محمد ومن سعيد ومن سائر الخبرة وفيهم خبير جديد ورغبة من الشوق الذي ما عليه مزيد عجيبه وهم من خبرتك والغرام يزيد.

جـدّ

وأنا على ما تعهدون من الوفا ... وحبل التصافي لم يحل قط محلولا
وخيل اشتياقي في الطراد لو انبرت ... لطافت بنا عرض البسيطة والطولا

هـزل

ولكن ربطناها على مذود القلوب ... فلولا الخصام من شوقها شقت الجيوب
فيا لطمتي لو تفتلت من صلا شعوب ... ويرخى لها التزجيم لا تدّي البعيد

جـدّ

وما شجو ثكلى ابتزها الدهر فردها ... تنوح على رسم عفا كان مأهولا
بأكثر من شجو القلوب لنا بكم ... لدى طلل أضحى به الدمع مطلولا

هــزل

فما طن لك خليت الإخوان في لوى   يطلوا من الشباك ومشـوار للحوى
وصحو يحبوك ياعلي من قـوى قوى   كمنك حلا والله على ما يقول شهيد[1]

وتمضي القصيدة بهذا الأسلوب الجاد الهازل في وصف شوق الأصدقاء إلى هذا الغائب. وهي طريقة جديدة في الأدب اليمني، وقد أعجب بها من أدباء القرن الثالث عشر الأديبان محسن بن عبدالكريم والأديب يوسف بن إبراهيم الأمـير، وقد عـزما للحـج فلم يتم لهما الحج في ذلـك العام فكتبـا إلى أحـد أصدقائهم بصنعاء:

سلام من النائـين عنكم عليكم   مبـاديـه تحلو عنـدكم وخـواتمـه
سـلام يفوق المسـك فاح ذكيـه   ويخجل زهر الروض فاحت كمائمه

هـــزل

وخمسة أنفار كل واحد بكم عميـد   وفي القلب كل الشوق منكم بكم يزيد
وكان شانسميهم لـو أنه خبـر مفيد   ولكن قد أنتو داريين فالكلام جديد

إلى آخرها، وهي طويلة أوردها مؤرخ اليمن زبارة في كتابه نيل الوطر. .

وربما جددوا أيضاً في الأوزان والقوافي والتوجيه بالشعر في أغـراض فنية دقيقة سنشير إليها فيما بعد.

---

(١) أنظرها في (درر نحور الحور العين) «خ»

أنماط من القصيد

ثم نمضي مع التجديد المبتكر في الأدب اليمني، لنجد فيه متابعة أخرى للمحاكاة العامة لسائر الآداب العربية السابقة لعصرنا هذا في مصر والشام والعراق والمغرب، فهو تجديد هنا وتقليد هناك. فقد أفاق اليمن هذه المرة على صحوة أدبية مدهشة جعلت كثيراً من الأدباء يستعيدون مجد العربية الغابر. بل وربما كانت اليمن في هذه المرة محط رحال كثير من الأدباء الكبار من سائر البلاد الإسلامية، وقد رأينا الأديب الموسوي يضع كتابه الشهير (نزهة الجليس) في بندر المخاء، ليقدمه إلى حاكمها الخزندار، فلا غرابة إذا ازدهر الأدب تحت ظل هذه الحركة الأدبية الملموسة من قبل الأدباء والحاكمين.

وسنجد في التجديد المقلد هنا تجديداً آخر في شكل القصيد، حيث لا يتطرق إلى المضمون. فهنا التشاطير والتخاميس والقوافي المزدوجة والقصائد المهملة إلخ، وكلها أنماط تثور على الشكل المعتاد للقصيدة العربية من شطرين إلى صور أخرى من تلك الأشطر والأبيات والقوافي.

ولا أظن الأدباء هنا يلعبون بقدر ما يغربون وقديماً بهر الناس الحريري وسلفه الهمداني بأنماط من هذا القبيل، فمد هذا التجديد نفسه على أكثر من أتى من بعدهم من أدباء العربية، حتى نجد هذا في اليمن نفسه منذ أقدم مدة في عصر الصليحيين وأديبهم علي بن الحسين بن علي بن القم، وطور هذه الطريقة ابن المقري في ألاعيبه الشعرية العجيبة.

«أما في عصرنا هذا فلهم أنماط جديدة من الشعر المقفى والموزون، بل نجد منهم من ثار على الوزن فهذا الأديب يحيى بن مطهر المتوفى سنة ١٢٦٧ يتساءل :(١)

«هل للشاعر أن يخرج عن أوزان الخليل»؟ ونقل في ذلك قولاً للجاحظ يعيب فيه عروض الخليل: «علم مولد، وأدب مبرد، ومذهب مرفوض وكلام مهجور، تستنكره العقول، مستفعل وفعول، مما لا فائدة فيه ولا حصول» إلخ قول الجاحظ.

وينقل أديبنا يحيى بن مطهر، وهو من أدباء هذه الفترة التي ندرسها ـ شعراً طريفاً لأبي فراس الحمداني في تكلف الشعراء لعلم العروض:

تناهض الناس للمعالي ... لما رأوا نحوها نهوضي
تكلفوا المكرمات كدّاً ... تكلُّف النظم بالعروض

وينقل عن ابن حجاج قوله:

مستفعل فاعل فعول ... هذا لعمري هو الفضول
قد كان شعر الورى صحيحاً ... من قبل أن يخلق الخليل

ويقول معلقاً على بيتي ابن حجاج السابقين: «قيل إنهما لم يدخلا في بحر من البحور الشعرية، ولو صح ذلك لكان عجباً يدل على أنه كان الأولى له عدم الاعتراض، وقد يقال إن الخروج إلى بحر مستقل دليل صحة الاعتراض وإنها لو انحصرت فيها دون ذلك لا يمكن الخروج عنها ولكنه لم يصح(٢).

ويخرج الأديب يحيى بن مطهر من ثورته على عروض الخليل ليقول: «والحق أن العروض من نزر الفائدة قليل الحدود» ويقول «التنصيص على تلك البحور ـ أي بحور الخليل لا يدل على أن ما خرج عنها ليس بشعر، بل هو شعر وقد وقع لغير واحد من فحول الشعراء ما هو خارج عنها.

تلك ثورة نظرية على عروض الخليل بن أحمد ولكنها لم تخرج إلى حيز

---

(١) (نزهة الجليس) «خ» ١

(٢) الأسلاك اللؤلؤية «خ»

التطبيق وإن وجدنا شيئاً منها ربما ألحقناه فيها بعد.

نعم وقفنا على بيتين للأديب أحمد بن حسن الجرموزي المتوفى سنة ١١١٥ يقول عنها الأديب يوسف بن يحيى أنه خرج فيها على قاعدة الخليل وهي:

كـل مـن رام الـعـلا ولم تهـم بـالجـود أنـامـله
لا تخـل نـجـحـاً لمـأربـه أو تخـل طـوع الأنـام لـه

يقول يوسف بن يحيى.. معلقاً على هذين البيتين: «نقلت من خطه تهم بالتا الفوقية فيكون الأنامل الفاعل وتكون القافية على مذهب غير الخليل بن أحمد وهو أنها من آخر حركة في البيت إلى أول ساكن يليه مع حركة الحرف الذي قبله[1].

لكن هذا قليل وربما أتى غير مقصود فلا نضخم هذا الأمر.

والآن نعود إلى التجديد الموغل في تقليده أو قدمه لنجد القصيدة قد تعددت أشكالها، فهذه التشاطير والتخاميس ليست سوى إلحاقات على قصائد سابقة تضاف إلى الشطر أو البيت، وهي كثيرة جدّاً، في الأدب اليمني لا أرى فائدة من إيرادها سوى الإشارة إلى نموذج واحد منها، هو قول الأديب الصوفي حاتم الأهدل مخمساً لقصيدة ابن النبيه الشهيرة:

رقم العـذول زخـارفـاً وتصنعـاً وأشاع نقض العهد عنك وشنَّعا
نـاجيتـه والنفس تقـطر أدمعـا أفديه إن حفظ الهـوى أو ضيعا

ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

حكم الغـرام فلذ به وبحكمـه واثبت على مفروض واجب رسمه
وأخضـع لعدل الحب فيـه وظلمـه من لم يذق ظلم الحبيب وظلمه

حلواً فقد جهل المحبة وادعى

يا من بلطف جمالـه قلبي رقص صبري على الأعتاب من جلدي نكص

(١) المصدر السابق
(٢) (نسمة السحر) «خ»
(٣) (خلاصة الأثر) خ١ ص٤٩٩

وثبات حملي حين زمرتم رقص يا صاحب الوجه الجميل تدارك
الصب النحيل فقد عفا وتضعضعا

إلى آخرها، وهي جميلة وجيدة.

ولهم في تلك التساميط، وهي كثيرة نكتفي منها بتسميط الأديب أحمد بن الحسين بن القاسم بن محمد من أهل القرن الحادي عشر. . لقصيدة الشريف الرضي الآتية التي يذم فيها أهل العصر:

صاح باب الجود أضحى مرتجى فاقتصد إن كنت من آهل الحجا
أهل هذا الدهر في الخلق شجا

صور رائعة لا يرتجى نفعها مثل تهاويل النمط
فخذ النصح ولا تعبأ بهم عن صدوق ممن اختص بهم
أصبح الأعيان من أكذبهم شمخوا مذ خلق الجد بهم
غلط الدهر ولم يبق الغلط

فكثير الرفد ذو شحّ وبه ينهر السائل عن مطلبه
عن ظلام البخل في غيهبه[1] . . . . إلى آخرها

وهي نموذج جيد من كثير مما يقال في هذا النوع من النظم.

وربما خرجوا عن الالتزام بقافية واحدة في القصيدة فتعددت فيها الأشطر والقوافي وأنت تجد لمثل هذ أمثالاً كثيرة، نكتفي منها بنظم محمد بن أحمد المتوفى سنة ١٢٢٣ إلى شيخه العلامة محمد بن علي الشوكاني التي يقول فيها:

صب يؤرقه النسيم إذا سرى من نحو صنعا حاملا طيب الرسائل
ويثير لوعته الحمام إذا علت في الدوح فرعاً والزهور له غلائل
وغدت تردد في الغصون هديلها وتميد سجعاً تدعي شجو البلابل
أذكيت يا ورقا الغرام وأنت لم تغْنيه قطعاً والغرام له دلائل

(١) نفحة الريحانة ج٣ ص٥٥٧

طوقت جيدك والخضاب أجدته | في الكف وضعا لم يكن عنها بناصل[1]

فهذه القصيدة وهي طويلة أجاب عليها العلامة الشوكاني، قد تعددت قوافيها وأشطرها، ولا شك أنها من الشعر الصعب، وتفننوا في استخدام الأحرف الهجائية، فمنهم من استعمل الحروف الثمانية والعشرين مبتدئاً بها كل بيت من القصيدة كقول الفقيه الحسين بن ناصر المهلا المتوفى سنة ١١١١هـ:

أ ـ أذاب فؤادي بارق الغور إنه | بنفحة مسك من حدائقها تترى
ب ـ بحقك خبرني عن الغور إنه | حديث صحيح ليس في القول منكرا
ت ـ تأمل به تلك المغاني تلق لي | لطائفاً فاقت في المحاسن مخبرا
ث ـ ثملت وقد دارت رحيقة وصفه | فأنهلنا التسنيم من تلك مسكرا

إلى آخر حروف الهجاء المعروفة.

ومنهم من استعمل الحروف وأوردها بألفاظها، ليكون منها ألفاظاً معينة وذلك كقول الأديب الحسن بن جابر الغفاري المتوفى سنة ١١٢٢ مكاتباً الشيخ لطف الله بن مهدي الغياث.

ما فيك لام، ولا طاء ولا فاء | ولست ممن إذا ما باينوا فاءوا
رفقاً بصب طويل النوح ليس له | في البين صاد ولا باء ولا راء
يا من له في البرايا لا بليت به | عين لها، العين ثم الباء، والتاء
كم لي بقربك يا مولاي من فرح | والتاء والراء دنت بالبين والحاء

إلى آخر هذه القصيدة الطريفة[2].

ومنهم من جمع الحروف المهملة وكون منها قصائد عجيبة كما فعل الأديب محمد بن هاشم الشامي المتوفى سنة ١٢٠٧:

أمل دوام وصلهم الملالا | وأولى سؤل أمهلم ووالا
ولا ورد الصدود لهم وداداً | ولا عهد الودود لهم مطالا

(١) المصدر السابق ج٣ ص٤٥٩
(٢) نسمة السحر

وَدام سرور دهرهم رواه وصارم سعد دهرهم الحوالا
ألوّح لا أصرح لا ولوه أسا على اللوام لم أسمع سؤالا

وهي طويلة أوردها المؤرخ زبارة في كتابه (نيل الوطر)[1] وربما سايره في هذا العمل جماعة من أدباء عصره فنكتفي بما أوردناه هنا، ولهذا الشاعر رحمه الله أساليب وابتكارات عجيبة سنشير إليها في موضع آخر.

وإذا خرجنا عن دائرة الحروف والقوافي، سنجد لشعراء اليمن في هذه الفترة مسايرات شعرية أخرى تفننوا في اختراعها، وكان لهم فيها الإجادة والابتكار، ومن هذه الأشياء ما عرف عندهم بالشعر التاريخي، وهو ذلك الشعر الذي تجمع أبياته أحرف من حروف (أبجد هوز) ذات الأرقام المعينة عند أهل الحساب، وقد استغلوا هذه الناحية وحاولوا أن يكتبوا بها [illegible] المخصوصة في أشعارهم، وغالباً ما يأتي هذا الشعر لمناسبات شخصية [illegible] أو فراغ من بناء الخ . .

ومن هذا الشعر ما كتبه الأديب عبدالله بن إسحاق إلى أخيه محمد بن إسحاق بعد فراغه من إكمال مفرج في منزله سنة ١١٣٦، فجاء كل بيت يحمل تاريخ هذا البناء حسب حروف الأبجدية.

يا مفرج البدر الذي لكماله نادى على الإقبال «يمن ختامه»
١١٤٦

طاب الهناء من طيبه ولذا غدا يزهو الصباء عن ورده وخزامه»
١١٤٦

عجز الصبا عن كتم سر شذاه إذ «يروى حديث المسك عن نمامه»
١١٤٦

(١) نيل الوطر ج٢ «النسخة المخطوطة»

وقد توسع الأدباء في هذه الناحية حتى بالغ فيها كثير منهم مبالغة مفرطة كما هو الحال عند الأديب علي بن صالح المعماري المتوفى سنة ١٢١٣ الذي أورد له الشوكاني نص رسالة نثرية التزم فيها صاحبها في كل فقرة تاريخاً معيناً هو سنة ١١٧٩ منها قوله: «يقول أفقر عباد الله علي العماري» «عمته مكارم الحليم الباري»، «بحمد الله استهل الإنشاء كما بدا وجه الهلال»، إلخ . . . ومن شعره هذه الرسالة(١):

وتبدي للدنيا سروراً وأنعما ... فدمت لنا ركن الهدى آمراً ناهي
تقدم شهر الصوم بالفور معلناً ... وطيب الثنا وافاك من طيبه الشاهي

وقد ظلت هذه الطريقة محببة عند شعرائنا حتى عصرنا الحاضر.

وما دمنا قد دخلنا في البحث في هذا النمط من القصيد، فلا بد أن نستكمل الموضوع وهو موضوع طريف غريب يدخل المعنى والشكل للقصيدة، ولا شك أنهم عرفوا أشياء من شعر أبي العلاء المعري فيما عرف عندهم بشعر لزوم ما لا يلزم ـ والمعري واحد من المجددين في شكل القافية ـ فنجدهم في اليمن قد تأثروا به، ونجد بعضهم قد حاكاه في شعره غير الملزم فيه.

فقال الأديب الحسن بن علي بن جابر الهبل في تعليل كسوف البدر:

لا بدع أن يكسف بدر السما ... ذاك لمعنى قد تحققته
لما بدا لي وجهه مشبهاً ... وجه حبيبي حين فارقته
ذكرت محبوبي فمن أجله ... صعدت أنفاسي فأحرقته

ولزوم ما لا يلزم هذا يجرنا إلى الحديث عن القافية الصعبة في الشعر وهي غالباً ما تكون في الضاد والظاء والطاء لقلة مفرداتها، فنجدهم قد كتبوا بها

(١) البدر الطالع ج١ ص٤٤٨
(٢) نوع من العطر

قصائد كثيرة ولا بأس بإيراد نموذج من طائية الأديب يوسف بن علي بن الهادي المتوفى سنة ١١١٥ التي يقول فيها:

دنــا مــزاراً بــعــدمــا شــطا ... فــصــيــر الــقــلــب لــه شــطا
مـهـفـهـف صــارم ألحــاظــه ... لم تثب أن قـد وأن قـطا
كم عــاذل صـوب عشقي لــه ... لمــا رأى عــارضــه خــطا
تــظهــر في ألحــاظــه سكــرة ... ومـا احتسى يـا صـاح إسفنطا
كم تــاه لمـا أن غــدا مـالكــا ... للخــافقـين القلب والقــرطــا

إلخ، وهي جيدة أوردها صاحب (نفحة الريحانة)[1].

وكل هذه المحاولات والمعارضات تثبت أن لليمن أدباً يزاحم بفنه آداب البلاد العربية الأخرى، وكأنهم أرادوا أن يقولوا ذلك فيما كتبوه من هذه الأعمال المتأثرة بآدابها، وأنهم يستطيعون أن يأتوا بما أتى به أهلها.

وكما رأينا منـافسة الأنـدلس لأدب المشارقـة في تلك القطع، والأعمـال الطريفة رأينا اليمن وهي تدلي بدلوها في هذا المضمار، ولكنها لم تصرح بمنافستها تلك جهرة لسبب واحد، هو أن اليمن يعتبر من المشرق وليس من المغرب كما هو الحال عند أدب المغاربة والأندلس.

ولكن تأخر اليمن عن المشاركة في الأدب العربي إبان زهوه ونشاطه، خلال الحكم العباسي وما تلاه من عصور، يجعلنا نحس بأن اليمن يريد أن يعوض ما فاته من آداب في تلك العصور، خلال عصرنا هذا الذي ندرسه، فلا غرابة إذا أحسسنا بما يشبه تلك المنافسة المتوهمة.

وكان لهـم في تلك القوافي والأشكال التي تدخل في شكل الحرف نفسه واختياره، نماذج كثيرة أوردنا منها فيما سبق قطعاً لا تسفر عن كل ما لهم من مشاركة في ذلك المجال.

وقد عرف عندهم في هذا النوع أيضاً نوع من الشعر أسماه المحبي عكس

---

(١) انظرها في نفحة الريحانة ج٣ ص٥٤٥

العجز على الصدر وهو كقول الأديب حيدر آغا الرومي من أدباء اليمن في هذا العصر[1].

زارني محبــوب قلبـي سحــرا | ســحــراً محبــوب قـلبي زارني
ينثني كــالغـصن لـينــا قــده | قــده كــالغصـن لينــا ينثني
ســرني لـمــا تــبـدى بــاســما | بــاســماً لمــا تــبـدى ســرّني
خصني من دون غيـري باللقـا | بــاللقا من دون غيـري خصني

وهكذا وكأنك تحس معي تكرار الناظم لهذه الأبيات معانيه وكلماته، وإلا فما الفائدة من أن يقول الشاعر زارني محبوب قلبي سحراً محبوب قلبي زارني، فيكفي في هذا كله أن يكتفي بالشطر الأول ليأتي بالمعنى المطلوب، ومع ذلك فإن هذا يمثل جانباً من النظم الشكلي للقصيدة.

ودخلت في قصائدهم تأثرات أدبية أخرى لا تعنى بالشكل، بقدر ما تعنى بالثقافة المحيطة بهم من علوم لا تمت إلى الأدب بصلة، فهم قد عاشوا بين بيئة علمية تعنى بالعلوم الدينية كالحديث والفقه والعقائد، وقد تكررت على أسماعهم عبارات الفقهاء وأسماء الكتب الكبيرة، فما كان منهم إلا أن أدخلوها في شعرهم لا ليبحثوا فيها ـ فهذا مجاله ما عرف عندهم بالشعر التعليمي ـ ولكن ليأتوا بأسمائها في صيغهم الشعرية تندراً وإبداعاً، وهذا ما يعرف عندهم بالشعر التوجيهي أي الموجه في أغراض فنية متنوعة.

لنستمع إلى الشاعر الأديب علي بن إبراهيم الأمير المتوفى سنة ١٢١٩ يصف نزهة من النزه المحيطة بصنعاء، فإذا به يعرض لمتون الكتب ومصطلحات علم الحديث فيقول:

وهــات حــدثـني بمــا أسنــد | للطير في الأشجار من (مرسل)
فقــد شــرحنــا متن (أزهـاره) | بــالضـايــع الهـازي بــالمنـدل
وذاع (مـرفوع) بـأيـدي الصبـا | عـلى الهوا صـونـاً من الأرجـل

---

(٢) نيل الوطر «النسخة الخطية»

ومثله ما نجد عند الأديب أحمد بن محمد الشحري (وهو من أدباء) القرن الحادي عشر باليمن):

ريم رماني من ظباء الفلا بسهم لحظ قد أتى (مرسلا)
فالشمس (تروي) عن سنا وجهه عن نوره عن خده لمجتلى
وقد روى «مكحول» عن طرفه لكن ضعف الخصر قد يعضلا

فهنا الأحاديث المرسلة والضعيفة والمعضلة عن مكحول وهو اسم راوية من رواة الحديث، ويعرض الأديب مطهر بن علي الضمدي المتوفى سنة ١٠٤٨ بأسماء المذاهب الفقهية فيقول:

من (شافعي) نحوكم يحنفكم إلى يا (مالكي) فأحمده
(زيدتني) حين صرت (معتزلي) وجداً كحر الجحيم أبرده
يا (رافضي) أنت (ناصبي) الهوى ما كنت قبل الفراق أعهده

ومثل هذه نجده عند الأديب إسماعيل بن محمد بن الحسن المتوفى سنة ١٠٧٨:

نصبت لي أشراك هدب فهلا (شافعي) واحد من (الزيدية)
أنا (شيعتها) و (بالنصب) جرتني إلى أن وقعت في (المالكية)

فهنا تسمع هذه الأسماء للمذاهب والكتب وقد أدخلت في سياق أدبي جميل يأخذ بنفسك وتنسى ما اعتدنا سماعه في متون الكتب الفقهية والعلمية من ملالة ورتابة.

ومن الشعراء من وجه شعره في أسماء سور القرآن فنجد الشاعر أحمد بن مجد الجابري الشحري ، ومن أدباء القرن الحادي عشر يسرد علينا حشداً كبيراً من أسماء تلك السور الكريمة.

أفديه غصناً وبدراً إن بدا ومشى حذار منه إذا ما ماس أو سفرا

بنور شمس جبين صاد كل فتى　　　و(نمل) زخرف ليل هيم الشعرا[1]

ومنهم من وجه شعره بأسماء الكتب وهذا كثير في الشعر اليمني، فمن ذلك ما قاله الأديب أحمد بن أحمد الأنسي المعروف بالزنمة المتوفى سنة ١١١٩؟

يا غاية السؤل شرحي للغرام غدا　　　مطولاً ما له فيه نهايات
وأنت كشاف ما ألقى وبهجته　　　فهل لمصباح وجدي فيك مشكاة
حديث وجدي قديم والمعاهد لي　　　فيها الشواهد تملا والمقامات[2]

فهنا أسماء كتب فقهية وأدبية كثيرة، منها غاية السؤال في علم الأصول للحسين بن القاسم والمطول في البلاغة للسكاكي والكشاف للزمخشري والمصباح للرصاص الخ .

بل ونجد في هذه القصيدة تعريضاً بمصطلح فن واحد من العلوم هو علم البديع .

بديع حسنك يا من لا نظير له　　　ما فيه للواله المضنى مراعاة
وطرفه في (انسجام) من مدامعه　　　وقلبه فيه للوجد استعارات
مستخدماً لك لكن ما اكتفيت به　　　بئس الجزا منك في الشرط الإساءات
فليت ليتك تثنى (الالتفات) لكي　　　يستدرك الصب منك الالتفاتات
(يطوي) وينشر قلبي من ثنيته　　　برق له من ثناياك ابتسامات
ومن خفوق فؤادي بل ورقته　　　وناره ثم للبرق (ابتسامات)[3]

ومن أطرف توجيهاتهم ما نجده للأديب الشحري السابق الذكر موجهاً فيه بأسماء الرواة من المحدثين يقول :

إن ماس حبي أو بدا خده　　　أظهرت فيه كل معنى دقيق
فقده لابن (رشيق) انتمي　　　وخده (الزهري) روى عن شقيق[4]

---

(١) نفحة الريحانة ج٣ ص٥٠٥
(٢) المصدر السابق ٣٦ ص٤٩٦
(٣) نفسه ج٣ ص٢٦٧
(٤) نفسه ج٣ ص٥٠٧

ويقول في هذا الجانب أيضاً:

ثغر الـذي أهــوى لـه بــارق ... قــد لاح لــلصــادر والــوارد
مبــرد في الثغــر عنــه روى ... وخـــده يروي عن الــواقـدي[1]

ونجد في هذا العصر من خرج بشعره من التوجيه بمصطلحات العلوم والكتب إلى التوجيه ببعض النواحي الاجتماعية وفي هذا طرافة وابتكار، أنظر إلى الأديب القاسم بن عبدالرب الكوكباني المتوفى سنة ١٢١٦ يشير إلى بعض المصطلحات الحكومية والسياسية فيقول:

شهر السيوف من اللواحظ واغتدا ... يـدعـو ببيعتـه مـريـد وصـالـه
فمددت كفي واشترطت شرايطاً ... منها بقاء الــود منه بحــالـه
والعــذل لا يصغي إليـه لأنــه ... داع إلى إعــراضــه ومــلالــه
و(زكاة) كنز الثغـر يصرفهـا إلى ... من يستحق الصرف من أموالـه
والصب من أهل الخصاصة غارم ... قلبـاً يسـوغــه زكـاة جمــالــه
فـوفى بشرطي بـرهة من دهـره ... وسمـاحة (السلطان) في إقبـاله
حتى إذا علقت بعـنقـي بـيـعـة ... منــه وذاب القلب من بلبــالــه
أبدى الصدود وزاد في إعـراضه ... عنّي وآيسني طـروق خيــالــه[2]

إلى آخر هذه المقطوعة الطريفة.

وهذا الشاعر محمد بن مهدي العشبي من أدباء القرن الحادي عشر يحرض في غزله بحارات تعز فيقول:

وأغيــد من تعـز بت أســألــه ... من أي حافات سرب الخرد الغيد
أجـاب من حافـة الهزاز قـامتـه ... لكـن أعينه من حـافـة السـود[3]

وأشياء من هذا القبيل لا حاجة إلى ذكرها هنا.

---

(١) نفسه ج٣ ص٦٠٣
(٢) نيل الوطر النسخة الخطية
(٣) نفحة الريحانة ج٣ ص٥٠١

على أن هذا العصر عرف فيه ما أسماه الأدباء بالرسائل المنظومة وهو أن يكتب أحدهم إلى الآخر رسالة من الشعر المنظوم وقد كثر هذا بين الأدباء في اليمن حيث تكثر النزه وتكثر الجولات وهنا نجد العديد من هذه الرسائل يستدعي فيها أصحابها أصدقاء لهم لمشاركتهم في نزهاتهم. من ذلك ما كتبه الأديب عبدالله بن أحمد العوامي المتوفى سنة ١٢٢١ إلى شيخه العلامة عبدالقادر بن أحمد:

سيدي عمدتي حبيبي ملاذي ... خضرم الفضل ذي الأيادي الجسام
الكريم العظيم علامة العصر ... وحيد الأنام عالي المقام
مفرد الجود والمكارم عبد ... القادر بن أحمد وجيه الأنام
حرس الله ذاته وحماه ... ووقاه حوادث الأيام
صدرت للسلام ثم لتجديد ... يد عهاد بألسن الأقلام
طال والله ما أعلل نفسي ... مذ رحلتم من كوكبان شبام
بتلاق يشفي غليل فؤادي ... واجتماع يبري من الأسقام[1]

إلى آخر ما كتبه الأديب العوامي وهي من الشعر المقفى المتماسك.

من هذه الرسائل ما كتب بشعر الرجز وهي أكثر ما كتب في هذا الجانب لوفاء هذا البحر بكثير من المقصود في رسائلهم منها رسالة الأديب صالح بن أحمد النصيري إلى صديقه اسماعيل القحيف يقول:

سيدنا الشيخ الجليل قدرا ... السيد السامي علا وفخرا
العلم العالم نور الدين ... محبنا في الله عن يقيني
حماه ربي ووقاه شرا ... ولا أراه في الزمان عسرا
وخصه بأفضل السلام ... وأفضل الإكرام والإنعام
وبعد ذا فقد أتى كتابكم ... واللفظ ذاك العذب من خطابكم

إلى آخرها وهي رسالة تغني عن مكتوب منشور يتحدث فيه صاحبه عن

---

(١) أنظرها في نيل الوطر ج٢ ص٥٨

أحواله وشئونه وما يريد من كتابته .

وهذا النوع من الشعر يجرنا إلى الحديث إلى نوع آخر من الشعر هو أقرب صلة به وهو شعر التراجم الذاتية ، وهو وإن عرفناه في الأدب العربي الحديث في القطع النثرية الجيدة التي كتبها بعض الأدباء المعاصرين الكبار كطه حسين في (الأيام) وأحمد أمين في (حياتي) والعقاد في (أنا) وتوفيق الحكيم في (سجن العمر) إلخ إلخ . . . إلا أننا هنا سنجد هذا النوع من التراجم من نصيب الشعر المنظوم وقد كتبوه في الغالب على بحر الرجز وكان أشهر من كتب فيه الأديب يوسف بن يحيى ابن الحسين المتوفى سنة ١١٢١ صاحب نسمة السحر يقول في ترجمته متحدثاً عن عمله وأدبه :

وإنــي لأحــفظ الــقــرآنــا ... غيبــاً يهـز لفـظه الصـوَّانـا
وأحفظ النحــو وعلم الصـرف ... حفـظاً بـه يمشي النحـاة خلفي
والـشعــر والـبيــان والمعــاني ... والمنطق المذكـور في اليـونـان [1]

وفي ترجمة الأديب محمد بن الحسين المرهبي المتوفى سنة ١١١٣هـ يحدثنا عن نفسه بما حدثنا يوسف بن يحيى يقول مخاطباً ممدوحه :

قصدتك يحدوني الرجا ويقودني ... إليك الهوى من بين مدن ومبعد
فقابلتني بالنكر والعرف شيمة ... لديك فلم أعـددت ما لم تعـود
وبالغت في إذلال حـر مــوحـد ... يجـود تـرتيــل الكتـاب المــردد
قرأ النحو قبل الفقه غـير مقصر ... عن الهضب من علم البيان المشيد
وعاد على الأصلين يبحث فيهـما ... شيوخهما لا مثـل بحث المقلد
وقد نقل التيسير عن شيخ وقته ... وعــالمــه المفتي سليــل محمــد
وأعني به عبدالعزيز الذي غدت ... فضـائله تهدي إلى كـل مشهـد
وطـالع في صنعـا موطـأ مالـك ... وراجـع في ضوران مسنـد أحمد

ثم يعدد الشاعر شيوخه وقراءاته.[2]

---

(١) انظرها كاملة في نشر العرف ج١ ص٧٦٧
(٢) نشر العرف ج٢ ص٩٥٥

وفي أرجوزة الفقيه محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ١١٠٩ يحدثنا عن رحلاته العلمية وعن أولاده وعن نفسه إلخ . . منها قوله :

من ثمرات رحلتي　　وحسنات غربتي
ما لم يدر في خلدي　　وليس من كسب يدي

ويقول عن ولده :

وكان ذاك العدد　　أحمد نسلي ولدي
لله در أحمد　　بر تقي سيد
كان تمام أنسي　　ومهجتي ونفسي
وقطعة من كبدي　　وبضعة من جسدي
وكم كفاني أمرا　　وشد مني أزرا
وكم كفاني الجمعة　　ونزلتي والطلعة (١)

وهكذا يحدثنا الفقيه السحولي عن شئونه الخاصة وسنلاحظ أن أكثر من برع في هذا الجانب من أدباء اليمن هم فئة الفقهاء، وهذا طبيعي لميل شعر هؤلاء إلى الجانب التقريري والعلمي (٢).

وإذا كنا قد تناولنا بعضاً من الملامح الشعرية للقصيدة في اليمن من حيث الشكل والأسلوب، فما علينا إلا أن ندخل إلى جانب الموضوع ولنا فيه حديث طويل.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٦١٤

(٢) ولا ننس هنا أرجوزة الأديب محسن بن عبدالكريم المتوفى سنة ١٢٦٦ وهي طويلة حواها ديوانه وقد ضمنها رحلته إلى مكة للحج يقول في أولها: بسم إلهي تحسن البداية وتصلح الأعمال في النهاية الخ .

فِي الصِّيَغ المحَلِّيَّة

يحق لنا أن نتساءل ـ وقد علمنا ندرة التجديد في الشعر اليمني في الأمور الفنية المتعلقة بالنظم من حيث هو صناعة وأدب إذ ما عسى أن يكون تجديده، وهنالك قوالب للشعر العربي عامة ليس لأحد الخروج عنها إلا في حالات قليلة فهناك شعر الغزل والمدح والرثاء والوصف إلى غير ذلك من أنماط متبعة في الأدب العربي عامة والأدب اليمني خاصة.

يحق لنا بعد كل هذا أن نتساءل عن الطرق التي يمكن أن نقول عنها، إن الأدب اليمني قد سنّ لنفسه فيها أنماطاً لم يشاركه فيها أحد من الآداب العربية الأخرى، ونحن نعلم أن الأديب اليمني لا يستطيع أن يخرج من جلده ليأتي لنا بتجديد مزعوم، وما دام يتكلم بالعربية وينظم الشعر في أوزان وقوالب متبعة عند غيره فلا اختراع ولا ابتداع، ويزيد الأمر شدة أنه جاء متأخراً وقد سبقته القرائح في كثير من الإبداع والإغراب حتى أني أكاد أجزم أن كل نظم قاله أديب في هذه الفترة لا بد أن يكون مسبوقاً فيه سواء قصد ذلك أم لم يقصد، وحتى جعل هذا نقاداً كباراً من أدبائنا كالحيمي ويوسف بن يحيى يظفرون بسرقات أدبية كبيرة لأدباء اليمن، هنا تجدني أنفض يدي من وجود الابتكار الفني لأتجه صوب الابتكار الموضوعي وأجد البيئة اليمنية المتميزة قد فرضت على الأديب الدخول في موضوعات أدبية طريفة قد لا يكون أحد من رجال الآداب العربية الأخرى شاركهم فيها، وإن شاركوهم فيها فهم لم يتوسعوا توسع أهل اليمن في ذلك، لأن البيئة تختلف هنا عما هو هناك.

ففي البيئة اليمنية حيث المدن الكبيرة الزاخرة بأدبائها تتميز بتضاريسها وطبيعتها المتباينة يظهر ما أسميه بشعر المدن والفخر لها أو الذم، وهذا معروف أيضاً في الآداب العربية الأخرى إلا أنه كان محدوداً قليل المادة والابتكار.

وفي البيئة اليمنية حيث يكثر الصراع على السلطة والإقدام والشجاعة المتميز بها أهل البلاد يظهر ما أسميه بالشعر السياسي وشعر السجون، وهو موضوع كبير رأينا الشعر العربي في العصر العباسي وبعض الدويلات يبرز فيه ويكون لليمن مشاركة معه.

وفي البيئة اليمنية نعرف ما نسميه بالشعر الاجتماعي والفكاهي و.. إلى غير ذلك مما سنحاول الإلمام به فيما بعد. وهي موضوعات يمكن أن نجد فيها وجه اليمن المتميز خلافاً لسائر الأنماط الأدبية الأخرى.

شِعْــرُ المــدُن

نشأت في البيئة الأدبية طبقة من الأدبـاء أولعوا بالنزهات وتتبع الجمـال الطبيعي في أماكنه الخاصة، وفي بيئة صنعاء حيث تحف البلاد بأشجار وأنهار وبساتين كانت فئات من الأدباء ترتاد تلك الأماكن وتولع بـوصفها، وكـانت ضاحية صنعاء بئر العزب والروضة هما شغل الأدباء الشاغل في الارتياد، وقد افتعل الأدباء فيها بينهم معركة أدبية. كل فريق يتعصب فيها لنزهته المفضلة، فنشأ عندهم ما عرف بالمفاضلات والمفاخـرات، وقد ظهـرت في ذلك قـطع فنية جيدة، ككتاب أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة وبئر العزب للأديب عبدالله علي إسماعيل الوزير وعراضها للأديب أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥٢ وقصائد أخرى للخفنجي والشامي وغيرهما في هـذا الموضـوع، وهو موضوع كبير سنشير إليه في حديثنا عن المقامات.

والذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى ما جاء في شعرهم من مدح أو ذم يتعلق بالبلدان، وقد كان الشعر هنا لا يخرج في مجموعه عن ثلاثة اتجاهات أولها.. شعر يتفنن في مدح تلك البلاد ووصفها من حيث جمال الطبيعة وأهلها إلى غير ذلك، ثانيها.. شعر سلك النقيض من ذلك حيث يغرق في الهجاء وتتبع المساوىء، ثالثهـا يدخل فيها يعرف عند المتـأخرين بشعـر الحنين إلى الـوطن والوطن في شعرنا هذا ليس هو قطر كبير بعينه من الأقطار المعروفة وإنما هي مدينة

أو قرية صغيرة يحن إليها الشاعر، وقد اغترب في إحدى المدن المجاورة كان يرحل أحدهم من شبام كوكبان ويستقر في صنعاء فيعتبر ذلك غربة وهجرة يحق له أن يكتب فيها القصائد الطوال في الحنين إلى وطنه.

وفي الواقع أن شعر المدن قد طغى على سائر الأشعار الجانبية الأخرى في عصرنا هذا، حتى قال أحد أدباء ذلك العصر وهو الأديب محسن بن عبدالكريم المتوفى سنة ١٢٦٦ متذمراً من ذلك:

فوا أسفا للشعر إذ صار مادحاً ... خرائب أوعار مساكن للنسر
وقد كان يأبى أن تفيض بحوره ... بسقط اللوى أو بالعذيب أو النهر

ويقول فيها:

فغير عجيب ذم صنعا وأهلها ... ومدح ربوع القريتين أو العر

وقد حظيت صنعاء وضواحيها بنصيب الأسد في شعر المدن ولا غرابة في ذلك فإن أكثر أدباء اليمن في ذلك الوقت هم من أهلها أو من الوافدين عليها، ولعل أقدم من فتح الجدال بين الأدباء في صنعاء وضواحيها هو الأديب اليمني إبراهيم بن محمد الوزير المتوفى سنة ٩١٤ في مقامته المنظرية التي تمدح فيها بالروضة ثم الإشارة إلى كل ضواحي صنعاء ومما جاء فيها قوله على لسان شعوب[١].

روضتي نزهة عين ... لقوي وضعيف
وصغير وكبير ... ووضيع وشريف
في ربيع ومصيف ... وشتاء وخريف
وحمام ساجعات ... فوق أغصان قطوف
كم غشت في مروجي ... من رشاق القد هيف

---

(١) ذوب العسجد «خ» وأوردها صاحب نيل الوطر ج٢ ص٤٠٥

في سـروب ومـروط وبـرود وشـفـوف
في زمـان زال فيـه كـل ذي كيـد مخـوف
رب يـوم في شعـوب لم يـكـدر بـصـروف
طـاب فيـه الشـرب واللهـو مـع السرب عكـوف
ومحـب زاد حبًّـا آمنـاً من كـل خـوف

ويقول على لسان الجراف:

جنـة الـدنيـا ريـاضي ومـروجي وغيـاضـي
(وسوادي) و(بيـاضي) ليس يلقى في البيـاض
حـبـذا جنـاتي الخضر وأمـواه حـيـاضـي
وغـوان في ربـوعـي ذات أجفـان مـراضي
وقدود كـالـعـوالي وعـيـون كـالمـواضـي
وعـلى زنـار صـنـعـاء نـافـذ حكمي ومـاضي

إلخ . . . ولا شك أن ابن الوزير هو المبتكر لهذا الفن إذا صحت نسبة تلك المقامة إليه .

أما في عصرنا هذا فقد شارك أكثر الأدباء في مدح صنعاء ووصف مروجها وربوعها، وقد كانت صنعاء غير صنعاء اليوم حيث كانت تحف بها الأنهار وتتخللها الأزهار والأثمار . . وقد تناقل الأدباء في ذلك الوقت أرجوزة العلامة صلاح بن الحسين الأخفش المتوفى سنة ١١٤٢ التي يتناول فيها محاسن صنعاء وخصائصها وهي أرجوزة تذكرنا بتلك التي كتبها العلامة عبدالله بن يحيى شرف الدين المتوفى سنة ٩٧٣ وهي أرجـوزة طويلة تقع في كتاب لهذا الناظم بعنوان (الدراري المشرقات)، وهي من أوفى ما كتب في هذا الموضوع وليس من موضوعنا الحديث عنها لتقدم ناظمها عن عصرنا هذا، أما أرجوزة الأخفش فهي :

قـد قيـل صنعـا جنـة الجنـان فكم خصـال قد حـوت حسان
يقصر عنها الوصف من حسان ابـن البيـان حـاضر المعـاني
حـديقـة أزهـارهـا تضـاحكت وجـنـة لجنـة المأوى حـكت

محروسة محمية من النكت فعين من سكنها ما إن بكت
يأمن فيها من إليها قد لجا سفينة يركب فيها من نجا
فإن يعبها عائب الخصوم فعيبها من جملة العيون
لا عيب إلا الجمع للعلوم وأهلها الأفاضل القروم
ما بلدة من البلاد في اليمن من جدة القصوى إلى أقصى (عدن)
كمثلها جامعة لكل فن غير السماع للموطا، والسنن
فكم بها من قارىء ومقري من ذي اليسار تؤمن أهل الفقر
كل له فن إليه يجري لكي يفوز في غد بالأجر
وكم بها من طالب فقير يقنع في الأرزاق باليسير
لا يجعل الفقر له ذريعة إلى اطراح العلم والشريعة
مستخرج بفكر سريعة جل معاني كتبه البديعة
موزع أوقاته شطرين على الذي ينفع في الدارين
وكم بها مساجد مشهورة آثارها بين الورى مأثورة
في كل عصر بالهدى مذكورة لم تحوقط ما حوته كورة
وكم مصل تارة وتالي وكم بها مقدماً وتالي
وجامع يغص بالأعمال وجامع بين التقى والمال
وبعض ذا في غيرها لا يعرف بل كله في البعض قد لا يوصف
كل لما لا نفع فيه يعكف معتذراً بعذر من لا ينصف
ثم هواها في الزمان عادل لا بارد ولا سموم قاتل
والبرد في بعض البلاد هائل كأنه من الثلوج نازل
ترى الفتى عند اشتداد البرد مزملاً يحمل ألف برد

فهذه خصاص صنعاء ومحاسنها يجملها لنا العلامة الأخفش في أرجوزته وكل من ينظم في مدحها يحوم ما حام حوله شاعرنا الأخفش فلا نطيل بشيء من هذا إلا أن أغلب ما قيل في صنعاء جاء حول ضاحيتها بئر العزب والروضة، وقد كانت بئر العزب قبل تطور العمران منفصلة عن المدينة الأم صنعاء وكذلك شعوب، فلهذا اعتبرناهما قريتين منفصلتين عن صنعاء فجاء الحديث عنهما مستقلاً

عن صنعاء وكان أقدم من فتح الجدال بين الروضة وبئر العزب هو العلامة المؤرخ أحمد بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١٠٩٢ في قصيدته الشهيرة في مدح الروضة وقد تناقلها الأدباء من خارج اليمن فأوردها المؤرخ الدمشقي المحبي في كتابيه خلاصة الأثر ونفحة الريحانة، وكذا الهاشمي في جواهر الأدب والشرواني في حديقة الأفراح وغيرهم وهذه القصيدة يقول فيها(١):

روضة قد صبا لها الصغد شوقاً ... وصفا ليلها وطاب المقيل
جوها سجسج وفيها نسيم ... كل غصن إلى لقاه يميل
صح سكانها جميعاً من الداء ... وجسم النسيم فيها عليل
إيه يا ماء نهرها العذب صلصل ... حبذا يا زلال منك الصليل
إيه يا ورقها المرنة غني ... فحياة النفوس منك الهديل
روض صنعاء فقت طبعاً ووصفاً ... فكثير الثناء فيك قليل
ته على الشعب شعب بوان وافخر ... فعلى ما تقول قام الدليل
نهر دافق وجو فتيق ... زهر فائق وجو ظليل
وثمار قطافها دانيات ... يجتنيها قصيرنا والطويل
لست أنسى انتعاش شحرور غصن ... طرباً والقضيب منه يميل
وعلى رأس دوحة خاطب الور ... ق مع الغصون طلا يسيل
ولسان الرعود تهتف بالسحب ... فكأن الخفيف منه الثقيل
وزهور الربا تعجب من ذا ... شاخصاً طرفها المليح الجميل
فانبرت قضبها تراقص تيهاً ... كخليل سقاه خمراً خليل(٢)

إلى آخر هذه القصيدة الفريدة وقد أبدع في وصف محاسن تتميز بها الروضة من جمال الطبيعة وغيره وقد فاخر بها منتزهات العالم فحق له ذلك.

وكان أبرز من فاخر بالروضة والإشادة بها من أدباء القرن الثاني عشر هو الأديب عبدالله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ وكان لهجاً بحبها وتفضيلها على

---

(١) أنظرها في طيب السمر للحيمي «خ»
(٢) أنظرها أيضاً في نشر العرف ج١ ص١٦٤

بئر العزب وكان يقول في تفضيل عنب الروضة على عنب بئر العزب:

هوى البئر من غربي «أزال» يلذ لي ... وكرم سواها في حلاوته فضل
نصحتك علماً بالهوى والذي أرى ... مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو

ويقول في ذم عنب بئر العزب:(١)

إذا بارك الله في مخرف ... فلا بارك الله ببئر العزب
أكلت بها الكحب طول الخريف ... وأفنيت فيها كثير الذهب

ويقول في مدح الروضة(٢):

ما يعدل الروضة الغنا وبهجتها ... سوى الجنان فلا تنقص ولا تزد
فنونها نعمة للناظرين وفي ... أفنائها نغمة للطائر الغرد
أقمارها عانقت أغصانها جذلاً ... فصافحتها قماراها يداً بيد
والفوح يحمل في أرجاء ساحتها ... مجامر الند في الحارات والسدد
والنهر يمشي الهوينا في مخارفها ... كأنه الملك يمشي مشي مقتصد
يسقي قوارير كرم للبياض بدا ... كلؤلؤ بين منثور ومنتضد
ورازقاً غدا في كف آكله ... كأنه ذهب في كف منتقد
الا اخطر الروضة الغنا في فكري ... إلا ودارت جنان الخلد في خلدي

ففي هذه القطعة الشعرية يبرز الشاعر محاسن الروضة من أفنان وأطيار وأقمار إلخ. وفي الأبيات الأخيرة يشير إلى أسماء أنواع من العنب المعروفة في صنعاء فهنا البياض و «القوارير» و«الرازقي» وقد أجمل الشاعر هذه الأنواع وغيرها في قطعة أو أخرى قال فيها:

تبدى لأطراف العيون بياضها ... فجودت زيتون القران لعاصم
وجادت على القهمى أصابيع زينب ... بصهباء خضر في قوارير حاتم
فقلت لدوال أرى سيسبانة ... كأن به عشّاً لبيض الحمائم

---

(١) نفسه ح١ ص١٦٥.
(٢) نفسه.

وعرقي كريم في المناصب ينتمي إلى جرش فخراً لكل المكارم
وحب العذارى حل جوفي صبابة فيا رازقي جد لي بحسن الخواتم

فهذه أنواع من العنب تتميز بها ضواحي صنعاء وهي (أطراف) و(عيون) وبياض وزيتون وعاصمي وقهمي وأصابع زينب وخضر وقوارير وحاتمي ودوال والسيسبان وبيض الحمام وعرقي وجرشي وعذارى وجوفي ورازقي.

ولعل أول من أشار إلى أسماء العنب في شعره هو الأديب أحمد الزنمة المتوفى سنة ١١١٩ يقول في إحدى قصائده[١]:

ما للعذارى الطاعنات نهودها الخاليات بأسود كأراقم
ولناعم القز القزاقز يانعاً يحكي الجواهر في شذور أعاجم

ويحدثنا المؤرخ إبراهيم بن عبدالله الحوثي في نفحات العنبر عن معركة أدبية جرت بين أدباء صنعاء في التفضيل بين الروضة وبئر العزب فيقول: «لم يزل الأدباء يختلفون في التفضيل بين بئر العزب والروضة وبعد إجماعهم على تفضيل هوى بئر العزب وطيب عنب الروضة اختلفوا في الترجيح بين الهوى والعنب فرجح المولى عبدالله بن علي الوزير طيب العنب ورجح القاضي علي بن محمد العنسي لطف الهوى».

وقد فصل العلامة عبدالله بن علي الوزير أقوال الفريقين في مقامته (أقراط الذهب) ومن الفريق القائل بتفضيل الروضة على بئر العزب العلامة أحمد بن يوسف الحديث المتوفى سنة ١١٩١م:

إنما الروضة في أيامها روضة تستوقف الطرف أنيقه
جنة ذات قطوف قد دنت حولها أوراق أعناب وريقه
وعيون كعيون الغيد قد حدقت منه بها كل حديقه

---

(١) (نفحات العنبر) «خ» وانظرها أيضاً في (نشر العرف) ج ١ ص ١٦٩.

(٢) (أقراط الذهب) ص ٨٦ بتحقيقنا.

ولهـا جـو رقـيـق لم يـزل كـل من حل بهـا يسقى رحيقـه
كم جنان حول صنعا قد غدت عنـدهـا مثـل مجاز وحقيقـه
هي أن حقـقتـهـا نعتـاً لهـا شبـه ملك وهي أتباع وسـوقـه
أنـا لا أرضى بـأن تغـدو لهـا في الأراضي الغوطة الغنا شقيقه

ومن هذا الفريق الأديب زيد بن علي الخيواني المتوفى سنة ١١٥٠ يقول:

ألا حبـذا دار بـروضـة حـاتم غدت بين تلك الدور واسطة السلك
ترى حولها الأعناب كالبحر منظراً وها هي في وسط الحظائـر كالفلك
كـان بها السبـع الدراري لشـاوهـا قنـاديل في أعـلى ذراهـا بـلا شـك

وظلت هذه المفاضلة دائرة بين بئر العزب والروضة حتى في أثناء القرن الثالث عشر حيث نسمع في هذا القرن أصواتاً أدبية منها قول الأديب محسن بن عبدالكريم بن إسحاق في قصيدته الحمينية والمعربة التي يقول فيها:

وما الروض إلا غادة قد تزينت لتأخذ من قلب الشجي بمجمع
فللطرف في ساحاتها أي مسرح وللنفس في أقطارها أي مـرتع
مـا لـلريـاض عـنـدي في الأرض مثـل يـوجـد
الجـو لا زوردي والأرض زبـرجـد
وفي الأصـيـل تهـدي إلى الـغصـون عـسجـد
كـل الـريـاض تفـدي في الحسن روضـة أحمـد

ولهذا الأديب في نفس القصيدة في التغني بمحاسن الروضة:

مفـارجها محجـوبة تحت شـرعة كحسنـاء في الشباك ذات تمنـع
وقد ظهر العنقود من تحت خلبها ظهور عيون العين من تحت برقع
تحن غـواديهـا إلى لثم تـربهـا فتهـوى هوي الشـائق المتسـرع
وتنحو نواحيهـا السيول مشـوقة لهـا في مجاريهـا حنـين المـولـع

أما الأديب أحمد بن عبداللطيف الباري الزبيري المتوفى سنة ١٢٨٦هـ فإنه استحسن الروضة لكنه يعيب فيها أربعة أشياء هي يبس الهوى وضعف الماء واعوجاج القبلة وقسوة بعض سكانها يقول:

يا حبذا الروضة الغناء كم جمعت   من المحاسن لولا أربع فيها
يبس الهواء وضعف الماء وقبلتها   معوجة وجفا في بعض أهليها

وإذا رجعنا إلى الفريق الثاني وهو المتحمس لبئر العزب سنجد المتزعم فيه الأديب علي بن محمد محمد العنسي المتوفى سنة ١١٣٩ وهو أديب مرموق في عصره وكان معجباً ببئر العزب ويفضلها على سائر النزه وله فيها مقطوعته المشهورة التي يقول فيها يذم الروضة ويستحسن بئر العزب[١]:

لم يطب في الروضة الغنا سوى   كرمها أما هواها فكرب
وبغربيّ «أزال» نزهة   جوها يسترقص القلب طرب
طلق الهم بها سكانها   فلهذا سميت بئر العزب

ويناصره في ذلك الأديب محمد خليل سمرجي من أدباء القرن الثاني عشر:

سقى البئر بسام الوميض المفلج   وفض ختام الروضة المتأرج
يأدكن مخضل الحواشي تنفست   على الروض من أعطافه ريح سجسج
إذا عبثت كف الجنوبِ بعقده   تطاير عن مكنون در مدحرج
وصرح عن عطف البروق تموجت   بإمكان ريا في القباء المفرج
مغان يروق الطرف في جنباتها   تورد خد الجلنار المضرج
وغصن تفري عنه مقلة نرجس   ونهر تفري درع ظل بنفسج
كأن ارتقاص الزهر في مشن مائة   لآلىء رشح فوق خد مبلج
تخال به ذوب الشعاع جداولا   سبيل بها في كل شعب ومنهج
فيا برق شيد في مناسج أفقها   من التبر أسلاكا ويا مزنه انسج
ويا لؤلؤ الأندا تحت زهورها   له صدفاً ليست بعشك فادرجي
رياض تريك الصبح إشراق نورها   سناء ووجه الصبح لم يتبلج
تقسمت الأنوار في صفحاتها   مدارج أنواء الربيع المدبج
إذا أمطرتها الشمس مزناً معصفراً   أهل به نوء من الغرب مدجي

---

(١) (ذوب العسجد) «خ».

(٢) (نشر العرف) ج ١ ص ١٦٩.

تنفس في وجـه النسيم ظـلالهـا | بنكهـة ثغـر الأقحـوان المفلج
وغصن شعاب الأفق صدر من الذي | جرى صعداً وانهار في كل مدرج[1]

وتلك صورة روضية كاملة يرسمها الشاعر لنزهته بئر العزب ويزيدها قيمة أن الشاعر كان من المقلين في نظم الشعر الفصيح وهو واحد من كبار الأدباء في عصره ،ونلمس في صورته تلك تدحرج الأثمار من عقود الأشجار وقد عبث بها النسيم . . وهذا الجلنار الذي يروق للطرف قد تعددت أشكاله وقد تناثـرت الأزهـار على صفحة الماء ثم شبه الأنـداء باللؤلؤ وقـد غطى وجـه الأزهـار كالأصداف الثمينة . إلى آخر صورة الأديب سمرجي .

وكان القرن الثاني عشر قد شهد حدة الجدال بين أدباء صنعاء في المفاضلة بين بئر العزب والروضة ، ويدفعهم في ذلك روح مرحة وشاعرية جيـدة وقد تناقلوا في ذلك الوقت قصيدة الأديب علي بن محمد العنسي الشهيرة في تفضيل بئر العزب والمفاخرة بها سائر النزه يقول :

وبالغرب من صنعا سقى الله سفحها | وبـاكـرهـا صـوب الحيـاة المتـدفق
حـدائق روض جوهـا يبعث الهوى | ويفعـل فعـل البـابـلي المـعتـق
مـنـاخ لأفـراح وأنس لأنـفـس | ولهـوى لمشتـاق وروح لـضـيـق
إذا لبست أغصـانها وشي روضهـا | رأيت لهـا زهـو المليـح المقـرطق
فسـاكنهـا لا يسكـن الهم قـلبـه | وإن لم تـصـدقني بـذا فـتحـقـق
أظن لصنعـا لـوعـة وصبـابـة | بهـا فلها فعـل العميـد المشـوق
أمـا عـانقتهـا وحـدهـا فتـرشفت | لـذيـذ اللمى من نهرهـا المتـدفق
ومـا رضيت بالبعـد عنها كغيـرهـا | أيـرضى المعنى بـالنـوى والتفـرق
تهيم بشـطيهـا وتهـوى نسيمهـا | وتصبـو إليهـا صبـوة المتشـوق
وينفـر عنهـا كـل فـدم مغفـل | بهيمي طبـع إن رأى الأكـل ينهق
قصـارى مناه أكلة تـدفـع الـطوى | ولو فوق حر الجمر أو جوف مطبق

---

(١) نفسه ج١ ص ١٦٧ .

فيا سفحها المهدي إلى القلب نشوة ... يلف بها شمل السرور الممزق
ترجل عن ظهر السحاب لك الحيا ... وقبّل ذاك الترب تقبيل شيق
ويا منبع العينين من سفح حدة ... لها لا لذاك السمح منك تشوقي
إذا ذكرت نهريك نفسي أنشدت ... «لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي»
وما شعب بوان وقد صاح طيره ... وقد هاجه رقص القضيب المصفق
بأحسن منها والمياه كأنها ... أراقم إن هبت بها الريح تفرق
وقد نثرت رمانها لنزيلها ... فما سار إلا فوق هام محلق
وفاض خليج النهر فوق مروجها ... وقد رق صافي نهره المتدفق
يحير رائيها وقد فرشت له ... بساطاً من الروض النضير المنمق
ألم ترها قالت لروضة حاتم ... على غيرنا يا أم كرب تشدق
فوالله لولا أن في الدرب منزلا ... حماك لعاثت فيك غارة منطقي
بنى لك في درب السلاطين معقلا ... يرد الأعادي فيلقا بعد فيلق
على أنني أعطي الجراف لأجله ... أماني وأثنى عنه سيفي وبندقي
فجدوله يسقيه ريق مائه ... فلا غرو أن يدعى الجراف إذا سقي
وما أنت يا ذهبان والفخر إنما ... تلوذ بأطراف الجبال وتتقي
كأن محلي عند مرآك ناظر ... إلى غلط في جانب الصفح ملحق
وليتك يا «سعوان» تدري بأنني ... بمثلك لا أدري ولو كنت مشرقي
أمن بعد أن جدلت ذهبان تبتغي ... جلادي وتقوى للوغى حين نلتقي
ولما رأى ثقبان ذهبان دونه ... قتيلا بكهف تحت صخر مفلق
دنا خاضعاً واستوهب العفو سائلاً ... وقام مقام المجتدي المتملق
وقد كان في حربي دمستقه الذي ... يصول به نحوي ويسطو إذا لقي
وكنت إذا كاتبته قبل هذه ... كتبت إليه في قذال الدمستقي
ويا «ظهر» كم من باطن لك لم يكن ... مجيد ومرسل (نجران) عنه تحققي
وما (ضلع) إلا شريكك في الذي ... أشير وإن صرحت بالأمر تفرق
ويا (عصر) الغربي عوفيت فاعتبر ... بغيرك لا تبرز بعرض ممزق
إذا كنت بالأشجار تحمى فقد قضى ... لي الحسن أني ذات جيد مطوق
فمن شاء أن يلهو بلحية أحمق ... أراه غباري ثم قال له الحق

هذه القصيدة من أوفى ما قيل في شعر البلدان وقد أبدع فيها شاعرنا الأديب العنسي، ولا غرابة في ذلك فهو من أساطين الأدب في عصره وفيها يتمدح بجمال بئر العزب وهوائها المعتدل، فهي أنس للنفوس وفرجة لمهموم ولهو لمشتاق، ثم ينعطف إلى مروجها فيصفها بزهو المليح وقد اكتسى حلته ويقول إن صنعاء لم تطق فراقها فلذا قربتها إليها وقد ولع بها سكانها وأعجب بجمالها كل حساس بالجمال كما ينفر عنها كل بهيمي الطبع لا يهمه من العيش إلا عيشة الحيوان، ثم يخاطب سفحها السامق ويقول له ترجل عن ظهر السحاب وقبل ترابها الأخضر فهنا الخصوبة والخضرة، ثم يدخل في المفاخرة بينها وبين نزهة المدينة ويبتدي بروضة حاتم ويقول على لسان بئر العزب على غيرنا يا أم كرب تشدق، «ثم ينعطف إلى ذهبان ويقول له كل قصارى أمرك أنك محتمي بالجبال من سطوة بئر العزب ثم ينتهي إلى سعوان ويقول له على لسان الروضة إن من مثلك لا يؤبه له وهكذا تمضي القصيدة شارحة فضل بئر العزب وهي من الشعر الجيد في البلدان، وقد أوردناها كاملة لجزالتها وقيمتها الفنية، ودخلت المفاخرة بين الروضة وبئر العزب، إلى الشعر الحميني ورأينا الأديب علي حسن الخفنجي المتوفى سنة ١١٨٠ يضع مفاخرة شهيرة بينهما يقول :

في أولها :

بئر العزب قالت لروضة أحمد	قد عندنا حمام ودور مشيد
وسوحنا فيها الهزار غرد	والغيم خيم فوقنا وأرعد
تحققي يا عجزة المخارف	ما فيك من معنى ومن لطائف
ومن مضى من شارع المخالف	يلقاه غولي في الظلام ممدد
أجابت الروضة يقول حالي	سوى سوى يا سعلة القزالي
توخري والله من قبالي	ما فيك من ذاك البياض مبزد

وتمضي القصيدة في المفاخرة بين الضاحيتين فتفتخر الروضة بالعنب الرزاقي وبتاريخها منذ عصر السلطان أحمد بن حاتم وبجامعها الشهير وحضائرها الكثيرة وأنهارها وسيولها والخ وتفاخر بئر العزب الروضة بحمامها الكبير وسوقها وسكنها وسمسرتها وغيلها المعروف بغيل آلاف وهوائها اللطيف إلى غير ذلك وهي شهيرة

أوردها المؤرخ زبارة في نشر العرف ج٢ ص ١٩٤ فلا حاجة إلى ذكرها هنا.

على أن الفخر بين البلدان كان من نصيب المقامات الأدبية وهو موضوع سنتناوله في موضعه إن شاء الله.

ولم تكن صنعاء وضواحيها هي المدينة الوحيدة التي استأثرت باهتمام الأدباء، فقد زاحمها في ذلك عدة مدن يمنية لا تقل جمالاً عن مدينة صنعاء وتوابعها، وكانت مدينة جبلة على رأس تلك المدن المنافسة لصنعاء، فهنا الطبيعة الخلابة وهنا الجبال المكسوة بالبساط الأخضر حتى أنها ربما تفوقت في ذلك على صنعاء نفسها، ومع ذلك فقليل هم الشعراء الذين تغنوا بجمالها من ذوات أنفسهم وإنما جاء مدحهم لها في مراسلات ومكاتبات إخوانية فهذا الأديب علي ابن المتوكل إسماعيل بن القاسم المتوفى سنة ١٠٩٦ يكتب إلى أخيه الحسن بن المتوكل وهو في جبلة قصيدة إخوانية جاء فيها في وصف جبلة(١):

يا صاح عج بي نحو جبلة إن لي ... قلباً إلى تلعاتها مشتاق
ربع عليه من النضارة رونق ... لما علاه من الغمام رواق
راقت منازلها ورق نسيمها ... فالماء في ساحاتها رقراق
وترى بدور الحسن وهي طوالع ... من دورها هالاتها الأطواق
من كل مصقول الترائب أهيف ... مثرى الروادف خصره محلاق
هي جنة الدنيا فما في وصفها ... كدر بذلك زانها الخلاق
هي نقطة البيكار في اليمن الذي ... جمعت به البركات والأرزاق
ما في سواه لرائد أو ناظر ... طمع فلا يحزنك منه فراق

وهذه مقطوعة يقف الشاعر فيها عند مميزات جبلة الطبيعية من غمام متجدد ونسيم عليل وماء في ساحتها رقراق إلى آخر تعبير الشاعر ثم ينعطف إلى جمال أهلها وبدورها الفتانة من كل مصقول الترائب أهيف مثرى الروادف إلخ.

ولا غرابة في هذا الوصف فهو يتردد كثيراً في ذكر محاسن البلاد عند شعراء

---

(١) نشر العرف ج ١ ص ٦٣٧.

اليمن وكأنهم أرادوا بذلك أن يجمعوا في وصفهم بين الجمال الطبيعي والبشري.

وكما افتخرت الروضة وبئر العزب بمحاسن خاصة بها نجد جبلة تفتخر أيضاً بميزات أخرى يوصلها أحد الأدباء في ذلك الوقت إلى خمس ميزات..

بخمس خصال جبلة قد تزينت ... تزين كف في أناملها الخمس
بها الجامع المحمي للفضل جامع ... فكم بركات حاز بالذكر والدرس
وصبح كصبح العيد لم أرَ مثله ... ولم أنس فيها قط ما حل من أنس
غدا كل يوم كاسياً في طلوعه ... لها حلة حمرا جلت طلعة الشمس
كفاها افتخار في المدائن أنها ... قد ارتفعت مثل العروس على الكرسي
وفيها ترى الخان العجيب لعامر ... صناعته يا صاح سالبة الحس
كذاك بها الحبس الذي هو روضة ... لحبس سرور فيه سمي بالحبس
ومجزرة يمشي بها الماء جارياً ... بها لم يزل ينفي القذاء من الرجس

فهذه خمس خصال تفتخر بها جبلة على سواها من المدن اليمنية أولاها الجامع وهو معروف منذ زمن السيدة أروى بنت أحمد، وثانيها إطلالة الصباح وهي ميزة حبتها الطبيعة جبلة، وثالثها ارتفاعها على قمة شاهقة، ورابعها الخان وهو نزل كبير يقصده القادمون وغيرهم، وخامسها الحبس وبناؤه العجيب ولا أرى أي فخر لجبلة في هذه الخصلة وسيأتي الرد عليه في هذه الخصلة فيما بعد، وسادسها المجزرة وانحدار الماء من تحتها.

وفي الواقع أنه حدث نزاع بين أدباء اليمن في تفضيل مدينتي (إب وجبلة) على بعضهما البعض كما حدث بين أدباء صنعاء وكان الأديب يحيى بن عبدالله البصير المتوفى سنة ١٢٤٤ يتزعم الفريق المتحمس لإب نسمعه يقول في ذم جبلة ومدح إب في رد على صاحب الأبيات السابقة.

أفق واترك التشبيب في مدح جبلة ... فقد حملت دار اليهود على الرأس
«وقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها» وراحت تحقر الخمس بالخمس
فلذ واعتصم من ذاك إن كنت نازلاً ... بساحتها وافرغ إلى آية الكرسي

ومن قال إن الحبس أصبح روضة فذاك لعمري صار مستوجب الحبس
وتشبيه خان ليس فخراً لجبلة فكم بات فيه من ذوي الكفر والرجس
فبالله صف أين الصعود لساقط أفي الخان أم في الحبس أو موضع الرجس
على أن إب اليمن لما تسورت حمت أهلها من مارد الجن والإنس
وعن موضع الجزر الذي هو نازح ولا عيب يعروها فيدرك بالحس
وجامع إب فاق فضلاً لأنه على وضع فاروق الهدى ثابت الأس
وليل به يزهو على صبح جبلة فطاب وطابت فهي عن صبحها تنسي
وفي برها المشهور منثور منظر وفيها أصيل زانه صفرة الشمس
فلا غرو إن تاهت وفاهت بقولها ألا إن أثواب الأصيل غدت تنسي

فهذه (إب) قد فاخرت جبلة بمحاسن لا توجد فيها فهذا سور (إب) المحيط بها وقد كفاهم سطوة الجن والإنس. وهذا الجامع الذي يتميز على جامع جبلة بأنه من وضع فاروق الهدى عمر بن الخطاب وهذا الليل الذي تنعم به المدينة يفوق بظلمته إشراق صبح جبلة إلى آخر المحاسن التي يعددها شاعرنا البصير، وهذا البصير واحد من كبار الشعراء الذين عرفوا بمدح البلدان وذمها وله في تخميس أبيات العلامة محمد بن علي الشوكاني في مدح المخادر أبيات أوردها المؤرخ زبارة في نيل الوطر.

وقد انضم إلى الفريق القائل بتفضيل (جبلة) من أدباء القرن الثالث عشر الأديب شرف الدين بن علي بن أيوب..

سقى جبلة الغنا حيا المزن صيباً وغنت بها ورق الحمام تطربا
فكن أطنب المداح في مدح سوحها وكم طاب مكلوم هواها وأطيبا
نواظرها تحلو النواظر ما لها نظائر تحكي كالمناظر والظبا
يعاودها الإصباح في لون عاشق ويهدي لنا فضلاً من النور مذهبا

إلى آخر هذه المقطوعة وهي كغيرها من شعر البلدان عند أدباء اليمن حيث يكررون وصف محاسن طبيعة بلادهم الساحرة في بلدانهم ويضيف أحدهم شيئاً إلى الآخر. غير ما أتى به الأول، ولا غرابة في ذلك فالقرائح والخواطر تتشابه في مثل تلك المواضيع.

وكما أبدع شعراء الشام في وصف طبيعة بلادهم الساحرة حيث رأينا لهم المقطعات الشعرية الجيدة كقول الشاعر الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ في وصف دمشق :

سقى دمشق الله غيثاً محسبا — من مستهل ديمة دفاقها
مدينة ليس يضاهي حسنها — في سائر البلدان من آفاقها
تود زوراء العراق أنها — منها ولا تعزى إلى عراقها
أهدت لها يد الربيع حلة — بديعة التفويف من خلاقها

نجد لشعراء اليمن قطعاً شعرية كثيرة على هذا المنوال في وصف جمال بلادهم كانوا فيها متأثرين بمن قبلهم ،ولاشك أنهم وقفوا على شيء من أشعارهم في ذلك فارتسم في أذهانهم بقية مما قرأوه ووقفوا عليه . أنظر إلى بلدانية الأديب يحيى بن المطهر المتوفى سنة ١٢٦٧ في وصف نزهة سناع «سنع» القريبة من صنعاء ليتضح لك كثير من ذلك التأثر :

ربع غدا بالقرب من صنعا حوى — أفنان أوصاف الجنان له اجتمع
ناهيك أن به مصلى فائقاً — بالحس تاه على سواه بما جمع
تجري الجواري في نواحيه كما — تجري الغمام على سماه إذا ارتفع
كلتاهما يهدي إلى أرض عميـ — ـم الوبل تسقى دمنة مما وقع
قالوا : أتعلم ما بغيليه وما — يدعا به علما فقلت له «سنع»
لا شك أن الحسن قد أرخى العنا — ن به وما بالجيد أجود مخترع

وكالعادة نجد الجانب الطبيعي قد تغلب على معالم هذه اللوحة ، ومن هذه البلدانيات ما يميل إلى جانب الذكريات كقول الأديب صلاح بن أحمد في شوقه إلى ذي مرمر والغراس ونواحيها :

لله أيامي بذي مرمر — وطيب أوقاتي بربع الغراس
والشمل مجموع بمن ارتضى — و«السر» فيه السر والناس ناس
وسفح «حذان» إلى جانبي — «غضران» من تلك الربوح الإناس
ملاعب تجري بها خيلنا — في السلم والحرب الشديد المراس
وزهر «زهران» لنا مجتبى — وقاته الهازم جند النعاس

والشامخ الفرد لنا موئل ... يمنعنا الله به كل باس
له من الزهر جون ومن ... جون غوادي المزن أبهى لباس

فهناك ذكريات طافت بخيال الشاعر لها صلة بتلك الأماكن المذكورة. وهو نوع من شعر البلدان يكثر في الأدب العربي وسنعود إليه عند حديثنا عن الحنين إلى الوطن. ومن هذه البلدانيات ما يدخل ضمن المكاتبات الإخوانية. فهذا الأديب العلامة إسماعيل بن صلاح الأمير المتوفى سنة ١١٤٦ يكتب إلى رفقة له من إخوانه وقد قاموا بنزهة إلى سناع في منزل رجل يقال له المطاع ولم يستدعوه إليها:

يهنكم الخروج إلى سناع ... ونزهتكم (بسلوان المطاع)
وأشجار هنالك باسقات ... وأنهار تسابق كالأفاعي
وبرقوق[1] تناهى الطيب فيه ... وأينع فهو يسقط في البقاع
فأحييتم بها زمن التصابي ... ومات الحاسدون بلا نزاع
وكان لكم بها يوم حميد ... وتم نظام عقد الاجتماع
وأخرني الزمان لسوء حظي ... وطول عناده وقصور باعي
وتقصير الصفي فلم يعرج ... علي وقد توفرت الدواعي
فوجهت العتاب إلى علي ... جمال الدين محمود المساعي
ليحكم في رعيته بعدل ... وإنصاف ويذكر كل راعي
فينقلب المطاع له مطيع ... ويحكم فيه بالأمر المطاع

فهنالك وصف للطبيعة وعتاب للإخوان وهذا يكثر بين الأدباء في صنعاء وغيرها عند خروجهم إلى مثل تلك النزهة.

---

(١) البرقوق: الخوخ.

ذمّ البُلدَان

وسنجد في النقيض لمدح البلدان عند أدبائنا هنا، ذمها والتنكر لمحاسنها وكثيراً ما ارتبط هذا الشعر بذكريات سيئة حدثت لبعض الشعراء تتعلق بتلك البلدان فدونوها في شعرهم . وذم البلاد اليمنية قديم في الشعر العربي ولعل أقدم نص في ذلك يعود إلى زمن بني أمية وقول شاعرهم زياد بن منقذ العدوي المعروف بالمرار المتوفى نحو سنة ١٠٠ هـ . .

لا حبــذا أنت يا صنعاء من بلد ... ولا شعــوب هــوى مني ولا نقم

وكثير من هذا الشعر لا يعبر عن الحقيقة بقدر ما يعبر عن وقائع فردية لا صلة لها بالواقع الملموس، وإلا فما قولك في صنعاء وقد أجمعت الأمة على جمالها ومحاسنها وتفنن الأدباء في وصفها نجـد من الأدباء من يشـذ عن ذلك نتيجـة لأوضاع سيئة تعرض لهــم.

وهذا الأديب الكبير يوسف بن يحيى بن الحسين صاحب «نسمة السحر» يتعرض لأذية في صنعاء من قبل عاملها فيكتب أرجوزة يذم فيها صنعاء وأهلها يقول . . .

ولن أحب يــا حبيبي صـنعــا ... فـأهلهـا بي قـد أسـاءوا صنعـا
لم ينـزلـوا بي منــزلي المعـروفـا ... وقـــد رجحت فـيهـم ألـــوفـا
مــديـنـــة قـليــلة الخـيــرات ... وأهلهـا بـالجهــل كـالأمــوات

أسعارها غالية عزيزة والحبة الحمراء فيها أبريزة
تراهم في سوقها أفواجا كأنهم لحبها دجاجا
والماء فيها شاسع المنال ينال بالحبال والرجال
لا دجن يرى بها ولا نهر ولا كمام للربى ولا ثمر
وربما يرى بها الشعير يأكله سكانها الحمير
ولا شعوب شاقني ولا نقم[1] أدخلت (.......) حرم
ولا سناع السوء والمحاقرة وزبطان فهو منها فاقرة
ومذبح الشؤم ولا عطان منازل يأوي بها الشيطان
وحدة وماؤها حميس وهو الذي في مذهبي خسيس
ومن يرر غبرة دار سالم ولم يذم عد في البهايم
ودار سلم عندها والجردا جردها رب السماء جردا
وبيت بوس ثم بيت حنيص أهل الوجوه الموحشات الرخص
وقد ذكرت الآن حاقر أمه وما علي واجباً من شتمه
كأنه أير الحمار القايم وحوله أكامة البهايم
وإن نظرت في الجبال ضينا حسبته ما بيننا ما بونا
مولياً بالإليتين نحوها لأير جربان القويم دلها
وصرف بذمه ما أحرى كأحدب غار العمان بحرا[2]

ففي هذه الأرجوزة سلك الشاعر غاية الهجاء والذم ولم يترك ضاحية وموضعاً لصنعاء إلا وذمه وقد يختلط الذم بالصور الساخرة وهي طريقة متبعة في مثل هذا البحر من الشعر .

على أن صنعاء كانت موضع التجلة والاحترام من قبل كل أدبائها ولم تدخل في مفاضلاتهم ومفاخراتهم ولهذا أعجب الأديب أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١ بطريقة الأديب عبدالله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ في مقامته

(١) جبل صغير مطل على صنعاء ـ.
(٢) ياقوت . معجم البلدان «مادة صنعاء» .

(أقراط الذهب) حين لم يتعرض لمدينة صنعاء بمدح أو ذم فقال: «وقد أحسن المؤلف صنعاً لما لم يذكر صنعاء في مفاخرة ومباراة ومسابقة في ميدان المجادلة والمجاراة ، فإن قدرها جليل وحسنها لا يحتاج إلى دليل.

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل»[١]

فكانت أرجوزة الأديب يوسف بن يحيى بدعا في الأدب اليمني خلال هذه الفترة على أن اهتمام الأدباء في اليمن انصب في ذم ما سواها من البلدان اليمنية الأخرى،وغالباً ما علق هذا الذم بانطباعات شخصية كما أشرنا سابقاً فلم يكن للذوق العام دخل في ذلك، وربما دخل هذا الذم إلى جانبي الشعر الفصيح والعامي ولا تزال عالقة في أذهاننا حمينية الشاعر عبد الرحمن الأنسي المتوفى ١٢٥٠ في ذم حيس وأهلها يقول فيها:

دورها الخاربات مأوى البوم ... ذات سقف وحائط مهدوم
والمساجد ترابها مركوم
والفخاذيذ يؤذي الناس ... صوتها والشميم
سوقها حيث ما خلا المفحار ... قد تجد فيه عديل
فيه غاية بضاعة العطار ... فلفل أو زنجبيل
لا مخيط بها ولا عمار ... غير عابر سبيل
عدمت من معلم الصبيان ... والأديب والحكيم

فهذا الذم يعم الناس والبلدان وربما أفادنا بنقد اجتماعي قيم يهدف إلى تصحيح الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية .

وكذلك نجد للعنسي حمينية في ذم العدين (وهي موطنه الأول) وتفضيل صنعاء عليها يقول:

ماذا يروقك في العدين وأهلها ... ما يعرفوا إلا الخمر والليم
أيش لو يجد الكرم في أصله ... عاده بطلة يا أخا التكريم

---

(١) (ترجيع الأطيار)

مـا بين زيتـون ما الـذهب مثله　　إن طـاب وجو في مزجه النسيم
هيهـات صنعـاء جنـة الـدنيـا　　وأوطـانها لا بـلدة الأسـقـام

إنه تفضيل من حيث حياة المعيشة فهنا الفواكه على مختلف أجناسها والجو العليل اللذان يوجدا في صنعاء ولا نجدهما في العدين.

ولهم في الشعر الحميني أشياء كثيرة في ذم البلدان ومدحها وقد وقعت في القرن الثالث عشر معركة حامية الوطيس بين أدباء اليمن في تفضيل ذمار وذمها وقد شارك فيها الشعر بجانبية الفصيح والعامي وكان على رأس المتحمسين لذم ذمار الأديب إسماعيل بن صالح الحماطي المتوفى سنة ١٢٣٢ وكان قد أقام بذمار مدة ولم تعجبه الإقامة بها فقال يذمها ويذم أهلها.

إذا سقت السحاب الجون أرضاً　　عـلى ظمـأ فـلا سقيت ذمـار
ولا بـرحت يعـاهـدهـا عهـاد　　جـهـام صـوبهـا ضر ونـار
وتضحى واخضرار العيش فيها　　لفرط الخوف والـوجل اصفـرار
بـلاد لا يـعـز بهـا نـزيـل　　لـه أهـل بـسـاحـتـهـا ودار
ودار أهـلهـا نـاس صـغـار　　وإن كـانت لهم جثث كـبـار
رعـاع طـوع ذي نهي وأمـر　　شعـارهم المـذلـة والصغـار
وإن نـزل الجليـل القـدر فيهم　　فغـايتـه اهـتمـام واحـتقـار
مـودتهم لـه تـزداد نقـصـاً　　كضـوء البـدر يـدركـه السـرار
عجبت بهـا لعيش كيف يصفـو　　ومن كـدر لسـائغـه وجـار
يـقـاسي دونهم همّـاً وغـمّاً　　يـلين ولا تـلين لـه الحـجـار
وقـد طلب الـتراب العـز حتى　　يـسـاويـه لعـزتـه النـضـار
أجـلّ صفـاتهـا أن لا ذمـام　　بهـا يـرعى ولا يحمـى ذمـار

وقد أثارت هذه القصيدة حفيظة الأدباء المعجبين بذمار إذ كيف يصح من هذا الشاعر أن يذم ذمار هذه المدينة العريقة في التاريخ ويصفها بأشنع الأوصاف وهي إحدى أمهات المدن اليمنية الكبرى وربما زاحمت بتاريخها ورجالها مدينة صنعاء الأم، وقد عرف عنها رجالها الأحرار في العلم والثقافة والقيادة. لهذا نجد

أدباء اليمن في ذلك الوقت قد رموا شاعرنا من قوس واحدة وتحمسوا في الرد عليه بمدحها وعد أوصافها في العديد من القصائد فأجاب عليه الأديب محمد بن علي ابن أحمد بن اسماعيل بأدب ولباقة فقال:

نظام يسحر الألباب وافي ... كزهر الروض باكره انهمار
يريك حماسة الآساد عتباً ... يمازحه عبوس وافترار
فمبتسم إلى خل وفيّ ... وعن أهل الجفاء له ازورار
براعة نظمه في ذم أرض ... بها للضيف لم يطب القرار
(إذا سقت السحاب الجون أرضاً ... على ظمأ فلا سقيت ذمار)
ولكن الضياء أتى إليها ... على هرم وقد خلت الديار
وكانت كالعروس لمجتليها ... وحليتها المحامد والفخار
محط ركائب الأعلام فيها ... ففي الأقطار صار لها اشتهار
فها هم طيّ أكفان تناءوا ... وذكرهم الجميل له انتشار
فكيف تقول ياخِدن المعالي ... لجانبك اهتضام واحتقار
وقد حليت عاطلها وأضحى ... إليك بكل مكرمة يشار

إلى آخر القصيدة في الاعتذار لذمار وأهلها .

وكان قبل زمن الحماطي في القرن الثالث عشر قد ثار جدال سابق في القرن الثاني عشر في ذم ذمار شارك فيه أهل ذمار أنفسهم حيث نسمع الأديب إسماعيل ابن أحمد القحيف المتوفى سنة ١١٢١ وهو من أهل ذمار يقول في ذم مدينته[1] :

لست أدعى في الورى حامي الذمار ... إن تصبرت على سكنى ذمار
بلد علمي وفهمي وقوى ... عقلي اليوم بها عند عواري
كل يوم أنا فيها مؤلم ... بزكام أو صداع أو دوار
بردها أخمد مني فكرة ... يورى القدح بها من غير نار
والبلا كل البلا من ريحها ... أخلقتني مزقت ثوب اصطباري
جرحت صدري وأوهت قوتي ... أتحفت فهمي بآفات كبار

(١) العنسي: وادي الدور

ولذا جاورني فيها الأسى ... ولذا أصبح دمع العين جاري
وأعذراني إن جرى في ثلبها ... سائق الأقلام مخلوع العذار
لا سقاها وابل القطر حيا ... لا ولا درت بها السحب السواري
كم وكم حاكت بها الريح على ... عاتق الأفق رداء من غبار
وإذا ما قرت العين بها ... رتعت في أرض صخر وحجار
أرضها لا تعرف النهر ولا ... مد فيها الدوح ظلا كالعذاري
ولذا ما عرفت أسماعنا ... سجع قمري ولا صوت هزار

هذا الذم الصريح يبين مساوىء ذمار وقد أتى من مختبر بحالها حيث أصابت صاحبنا في جسمه بجوها البارد الذي أخمد فكره وأصابه بالزكام والدوار، وهذه الزوابع الشديدة التي تنسج بروداً من الغبار في عنان سمائها إلى آخر ذم القحيف لبلدته ذمار،على أن مدينة ذمار بتاريخها العريق لا تعدم من يقف في وجه منتقصها ونسمع جماعة من الشعراء ينتصرون لها ضد خصومها وإن كان هذا الانتصار قد أتى متأخرّاً فكان قول الأديب عبدالقادر بن أحمد المتوفى سنة ١٢٠٧ . . [١]

نعم أرض للكمالات ذمار ... كم بها من ماجد حامي الذمار
أرضها مفروشة من سندس ... وصباها بفتيت المسك جاري
لا جبال حجبت عنها صبا ... لا ولا تحجب شمساً وبراري
ماؤها رق فخلنا أنه ... من هوى يطفى بها حر الأوار
وبها كل همام عيسه ... كل يوم ترتعي زهر الدراري
في ظلال العلم قالوا أبداً ... فإذا قالوا فدع كل مماري
لم يعبهم قط ضيق بسوى ... إنه يسلو بهم عن كل دار

إلى آخر ما جاء في قصيدة العلامة عبدالقادر بن أحمد ويتوسط الأديب علي ابن محمد لقمان المتوفى سنة ١١٨٦ بين الفريقين الذام لها والمثني عليها ويرى أن لأهلها فضل الكرام وشيمة الأحرار إلا أن هواءها غير مناسب للصحة يقول[٢]:

---

(١) (نيل الوطر) ج ١ ص ٢٧٤ .
(٢) المصدر السابق ح١ ص ٢٧٥ .

وإذا نظرت إلى ذمار وجدتها حسناء لم تلبس نفيس دراري
فكأنها بدوية ما زانها شيء سوى خلق براه الباري
لله حكم في البقاع وحكمه يجري به قدر على مقدار
فلأهلها إن أجدبت أرجاؤها صبر الكرام وشيمة الأحرار

إلى آخر شعر ابن لقمان. وكانت هذه القطع على مختلف عصورها تبين قدر اهتمام الأدباء بهذه المدينة التاريخية.

وكانت المواهب كعاصمة لبعض الدول في ذلك الوقت قد دخلت حلبة المدح والذم عند شعرائنا وهذا الأديب إسماعيل بن صلاح الأمير المتوفى سنة ١١٤٦ يشكو طول مكثه في المواهب وتوليه وظيفة بها فيقول [(١)]:

ولقد سئمت من البقا ء وطول مكثي في المواهب
أنا راغب عنها ولست إلى المقام بها براغب
فبقيت كالمحبوس قد ضاقت عليّ بها المذاهب
ونصبت فيها نائباً والنصب من أردى المناصب
من لي برفع نيابتي وأنا البريء من النواصب

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢٧٦.

الحنين إلى الوطن

وفي شعر الحنين إلى الوطن نجد نماذج رائعة من الأدب الراقي والحنين هنا ليس هو الحنين إلى الوطن الأم (اليمن)، وإنما هو حنين إلى مدينة أو قرية كان الشاعر قد عاش فيها فترة من عمره. لننظر مثلاً إلى حنين الأديب محسن بن الكريم المتوفى سنة ١٢٦٦ إلى وطنه صنعاء وهو في مقر عمله وصاب (الدن) فنجده يتساءل عن بروع صنعاء وأعنابها وفواكهها فيقول[1]:

يـا نسيماً قـد سـرت مهـلا ... نـقـعـت أنـفـاسـهـا غللا
وردت صـنـعـاء مـعـرضـة ... فـاكتست من جـوهـا حـللا
وتـلـوَّت واختـبـت وبـدت ... بـين الحـمـام لهـم وملا
وأتت صبحـا وصـاب وقـد ... حملت من طيبهم مـثـلا
هـا قـفي لي يـا نسيم كـما ... يـتـمـلا رايث عـجـلا
بـك أستشفي فـيـا عجبـاً ... لـعـلـيـل قـد شـفـا غـللا
خـبـريـني عـنـهـم فـلـقـد ... منعـوني الكتب والـرسـلا
هـل زهـت أعناب (روضتهم) ... وتـدلى كـرمـهـا ومـلا
هـل بها غنى الهـزار وهـل ... رقـصـت أغـصـانها جـذلا
وجـنـان البئـر مـا صنعت ... يـا سـقـاهـا وابـلاً هـطلا
هـل جرت فيها الفنون وهـل ... رق فـيـهـا الجـو واعـتـدلا
وأقـاحي الزهـر هـل ضحكت ... قـحـة والـورد هـل خجـلا

(١) المصدر السابق ٢٧٦.

هكـــذا قـــد كنـت أعهـــدهـــا لست أنسى عيشـهـــا الخضـــلا
تـــلك أوطـــاني نـــشـــأت بهـــا ولـبسـت الـعـمـــر مـقـتـبـــلا
وشـــربـت الصـفـــو مـن زمـن لا أرى الـــدنـــيـــا بـــه بـــدلا

ذلك هو حنين ابن عبد الكريم إلى وطنه صنعاء وقد اختلط فيه وصف الربيع والرياض بحنينه ذلك وقد تجسد هذا في حنين آخر، في الحنين إلى (وصاب) كتبه إلى بعض أصدقائه بصنعاء:

سلام على روح الأصايل بعدكم وريح تباشير الصباح محلقا
سلام امرىء لم تبق منه بقية من العيش إلا لوعة وتشوقا
إذا رتقت في عينه سنة الكرى أطاف بها طيف الجوى فتقلقا
وإن شرب الماء الزلال وعاده ادم كار الهوى عاد الأجاج المرنقا
وأما المغاني والرياض التي زهت بكم فنضت عنها جمالاً ورونقا
فلا الطائر الغريد في الدوح هازئاً كعهدكم سجعاً ولا الدوح مونقا
سقا الله دهراً في وصاب قطعته وعيشاً مضى في دن نعمان ريقا
شربت به كاس النعيم مصفقا وفاخرت خرطوم المدام مروقا
وسابقت في لهو الصباطيب الصبا ....
وماكرت في ورد الخدود تسلقا وخادعت في در الثغور تسرقا

وكما أثار نسيم الصبا حنين شاعرنا ابن عبد الكريم إلى وطنه صنعاء نجد الهزار قد هيج أشجان الشاعر محمد بن علي المعروف (بابن صاحب العدين) (من أدباء القرن الحادي عشر) إلى صنعاء أيضاً يقول[1]:

يا ساجعاً في الفنن بـــرب مغنى حسن
هيجت لي شـــوقاً إلى أحـبتي ووطـني
أظنـه قـد اغتـدى من بعـدنا كـالدمن
مـالي ومـا شـــردني من أهل صنعا اليمن
قـل لي هل الدنيا التي تـــولى المنى وتنسني

(١) (ذوب العسجد.) «خ».

إنها مقطوعة تعبر عن حسرة الشاعر على فراق وطنه.

أما الشاعر علي بن اسماعيل المتوفى في القرن الحادي عشر فيتذكر أحبائه بروضة صنعاء فيقول : -

يا ساكني روضة الغنا أعوذ بكم — من أن أكون محبّاً غير محبوب
عودوا لوصل فكم أبدى النوى جزعا — مكنون سر الهوى فيكم وتقريب
وزودوني من ريح الصبا أرجاً — يطفي لهيب حشا بالوجد مسلوب
مؤرق الجفن تذكي نار لوعته — ورق الحمام بترجيع وتطريب
لله يوم بشرقي الحمى وما — حواه في الدهر من حسن ومن طيب
والروض يضحك مفتر أزاهره — والسحب تبكي بدمع فيه مسكوب
والطاس في كأسها الفضي دائرة — مخضوبة من رطيب الكف مخضوب

ولنا حديث طويل في الحنين إلى الوطن وإذا كان الشعراء قد ذكرهم بأوطانهم نسيم الرياح وهديل الطيور وطيف الحبيب، كما جاء في المقاطع السالفة، نجد في الشعر الحميني أمثالاً لذلك ونسمع الأديب عبد الرحمن الآنسي المتوفى سنة ١٢٥٠ يسائل النسيم عن ساكني صنعاء فيقول في حمينة مشهورة.

عن ساكني صنعاء — حديثك هات وأفوج النسيم
وخفف المسعى — وقف كي يفهم القلب الكليم
هل عهدنا يرعى — وما يرعى العهود إلا الكريم

وفي حنين الشاعر محمد خليل سمرجي إلى صنعاء نجد لوعة وتشبيباً :

سقى جانبي صنعاء در سحابة — ترشف من ثدي الهناء رضيعها
منازل لم تستوف أقسام حسنها — منازل بدر التم لولا ربوعها
يمازج أهواء القلوب هواؤها — ويحيي اقتراحات النفوس ربيعها
أثاب بها ذهني ودَمَّث منطقي — شموس بغير النيرين طلوعها

ومن الحنين إلى الوطن ما يشبه الدعاء، وهذا يكثر في شعر هذا الجانب من شعر الوطن، أنظر إلى مقطوعة الفقيه أحمد بن محمد الشرفي المتوفى في القرن ١٢

لتجد الشيء الكثير من ذلك يقول في حنينه إلى بلاد الشرف وقراها :

شدى ليلاً فهيج لي ادكاري — وحلّ وميضه عقد اصطباري
ولاح فباح قلب الصب لمّا — رأى لمعانه فالدمع جاري
وحن إلى أحبته بنجد — حنين الحاسيات من الأوار
سقى ربع «القويعة» كل جون — بطي السير محلول الإزار
ولا برحت يد الأنواء تسقي — ثرى «الشعبين» بالديم الغزار
وفوج «الجاهلي» فإن فيه — أحبة مهجتي وبه قراري
ملاعب رب غانية إذا ما — تبدت خلتها شمس النهار
شغفت بها وغصن اللهو غضٌّ — وصوب صبابتي فيها شعاري

فهنا دعا إلى الله بالسيل الغزير لمواطنه تلك وتذكار أيامه بها .

ويتذكر الفقيه أحمد بن محمد قاطن المتوفى سنة ١١٨١ أهله وأحبابه في شبام كوكبان فيحِن إلى موطنه الأول فيقول :

زادني حب شبام أرقا — فرعاها الله عني وسقى
نشأت فيها وأحبابي بها — وبها الأتراب لي والأصدقا
يا أحيبابي بظفران والشعبة الغنا لقد عز اللقا
في رياض النرجس الغض الذي — طرح الأوراق منه ورقا
فهو صحن الدر فيه الكأس منه — عسجد يسقيك عرفاً عبقا
ذائب الدر جرى من تحتها — جدولاً يكسو رباها رونقا
فرعى الله شباماً إنها — تركت قلبي عميداً موثقا

وبعد فإن هذه القصائد وغيرها قد جسدت صدق الشاعر في حب وطنه والشوق إليه وأتت صادقة معبرة عن أحاسيسه .

في الشِعْر الفكَاهي

مثل شعر الفكاهة في الأدب اليمني خلال تلك الفترة جانباً من الروح المرحة لأدبائنا ، فكثيراً ما أضحك الشاعر أو تضاحك لأسباب دفعته إلى ذلك، ولم يكن الضحك هنا في كثير من الأحيان صادراً عن طبيعة تدعو إلى الضحك لذاته وإنما جاء يعبر عن حوادث اجتماعية دفعته إليه، ففي الشعر الهزلي الذي كتب على لسان المساجد في قصيدة الخفنجي الشهيرة وقصيدة زميله عبدالله ابن الحسين الشامي وغيرهما لم يكن يهدف الشاعر إلى الإضحاك وحده وإنما أراد إلفات النظر إلى حالة المساجد المزرية من حيث الأثاث والتنظيم. وكذلك نجد مثل ذلك النقد في القصة النثرية التي كتبها الأديب علي بن صالح أبي الرجال على لسان المساجد كما سنشير إليها عند حديثنا عن المقامة، أما في الشعر الهزلي فقد جاءت كثير من القطع الساخرة تسخر من مواقف اجتماعية معينة حدثت لبعض الأدباء فكان أن استغلوها في مجالسهم ومفاكهتهم وصوروها في شعرهم بأسلوب اجتماعي خفيف.

فقد حدث ـ مثلاً ـ أن قدم إلى اليمن القاضي أبو الفرج البصري وكانت له دعوى كبيرة في ادعاء الأدب مع ركة شعره، فوصل جبلة وعليه عباءة خضراء فمر به ثور هائج فنطحه تخيلاً منه أن العباءة عشب أخضر.

فما كان من أدباء اليمن إلا أن استغلوا هذه الحادثة. واجتمع الأديبان إبراهيم الهندي وإبراهيم اليافعي ونظما قصيدة في حالة القاضي تلك قالا :

قلقل ركابك واترك التعريسا حتى تجوز المربع المأنوسا
وانزل بجبلة حبذا من بلدة تحكي ببهجة حسنها الفردوسا
قد أمن الغزلان في فلواتها حتى لقد سكن الغزال الخيسا
ومن العجائب والعجائب جمة والدهر مثخن جرحه لا يوسا
أن الفتى القاضي أبا فرج غدا في دهره لا يأمن الجاموسا
جاموس جرث قد نحاه بكلكل كالطود دك وما أتاه موسى
يا قاضي الأدباء بل يا فاضلاً في المكرمات وفي الفخار رئيسا
صبراً لحادثة أتت من أقرن أصبحت فيها معلفا ونسيسا
فالمرء قد يزهو برونق لبسه فدع التلبس واترك التلبيسا[1]

فهذه الحادثة الطريفة التي نادراً ما تحدث لشخص اختبر الأمور وطاف بالبلدان تكون من نصيب صاحبنا البصري وهو أحد الطوافين، وقد صور أدباؤنا حادثته تلك ونصحوه بأن يترك الزهو برونق لبسه حتى لا تتكرر له الواقعة.

وتكثر مواقف أدبائنا الساخرة ففي اجتماع أدبي طريف وقع بضوران وجمع الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ والأديب زيد بن صالح ابن أبي الرجال وعلي عبده وحسن بن علي الكسار أحس الأديب علي الديلمي بريح يجري في أمعائه فكتب إلى صاحب المنزل الأديب زيد بن صالح بن أبي الرجال هذا البيت:

يا أخي قد جعثتني فسوة هي في الأحشاء كالأفعى تجري

فكتب الأديب زيد تحت بيته هذا البيت:

حرها في الجوف مني قد حكى لوعة للحب في أحناء صدري

فيضيف الأديب علي بن صالح على هذين البيتين .

إن تنفست بها طار الثرى وعلا النقع على بر وبحر

(١) (نسمة السحر) «خ».

قال جامع ديوان الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال[1] ثم حدث نزاع بين صاحب المنزل الأديب زيد بن علي بن صالح بن أبي الرجال وبين شقيقه علي حول تمزق هذه الأبيات في رقعتها فأبت لطافة الأديب علي الديلمي إلا أن يكملوها.

ثم عاد الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال إلى مدينة صنعاء وبينما هو من نقيل يسلح بعث برسالة إلى أخيه زيد بن صالح وكتب في آخرها هذه الأبيات منوهاً بفسوة الديلمي:

قل للأديب علي ... إذا أطال التصبح
تلك التي جعثته ... إرسالها ليس يصلح
لكن إذا سار صنعا ... ء أماطها عند يسلح

ثم يصل إلى صنعاء ويكتب قصيدة طويلة إلى صاحبه الديلمي حول الموضوع:

ألا قل للأديب الفرد ... إن أصغى إلى شوري
أتؤذيه وتجعثه ... وتخرجه من الطور
نسيم الجوف إن هبت ... بجنح الليل في الغور
ولم يقو على ضبط ... ولا حفظ لتامور
وكان الرأي فيها أن ... يسرحها على الفور
فما في الريح ما يحبس ... خلف الباب والسور
سوى الريح التي تجري ... لنفخ النار في الكير
ولكن ربما عادت ... سموما وسط تنور
فيرسلها بترديد ... وترجيع وتكسير
ولا يرضى بأن تبدى ... لديه نقر طنبور
ولا صوتاً كصوت الدلو ... إذ ينصب من بئر
وإلا فليسلسلها ... وجنح الليل ديجور

(١) ديوان الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال «خ».

ويتـركهـا ومـا تـرويـه　　في الآداب عـن بـور
ولا عـيـب إذا نمـت　　فـليسـت ريـح منـشـور
ويـرخي العـروة الـوثقى　　بـإتـقـان وتـدبير
فـقـد تخـرج إن هـبـت　　إلـيـه زر يـغـمـور
وقـد يخشى إذا جـازت　　عـلى الحـيـطان والـدور
وإن جازت على الأصحاب　　مـنهـا نفـحـة الـشـور
شـرى أن رام يـكـفـيـهـم　　أذاها كـرك سـمـوري
ولا تـركن عن الأطيـاب　　مـن مـسـك وكـافـور

فتصل هذه القصيدة إلى أسماع الأدباء في ضوران فتقيمهم وتقعدهم ويصبح الحديث بين الأدباء في ذلك الوقت حول فسوة الديلمي ويكتب الديلمي المذكور مذيّلاً على أبيات الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال :

ألا قـل لجـمـال الدين　　خـير مـهـذب شـاعـر
أرى تـلك الـتي عـبـرت　　وأنـت بـرغـمـهـا حـاضر
وأضـحى سـيـرهـا في الـريـ　　ـح سـير المثـل الـسـايـر
فـصـبـراً أيهـا الـنـدب　　والـله مـع الـصـابـر

فيجيبه الأديب علي بن أبي الرجال بمقاطع كثيرة نكتفي منها بقوله في أول رسالة إليه ـ وهذه العاهـرة التي تسنمت كثبان الجوف وملأت أحشاء سيدي بالجعث صدرت إليها هذه الأبيات المعجزة إعذاراً وخوفاً من العذرة فإن تنقصر وإلا بعثنا إليها حماراً من الحمر المستنفرة . .

أيـا نسمة الجـوف التي قد تنفست　　«بسقط اللوى بين الدخول فحومل»
ومـرت على غـور ونجـد وحـركت　　«غصوناً عـلى كثبان دارة جلجـل»
وبـات أديب القوم يـدعـو لجعثها　　«ألا أيها الليل الطويل ألا انجـلِ»
وعـطرت الأرجاء من شعب رامـة　　«رويدك مهلا بعض هذا التدلـل»
فقد ثار من مسراك في الجوف الحمى　　«كبـير أنـاس في بجـاد مـزمـل»

إلى آخر هذه القصيدة الساخرة وقد ضمنها أشطر قصيدة امرىء القيس الشهيرة وهذا غاية ما يصل إليه الاديب اليمني في السخرية .

على أن لشعراء القرن الثاني عشر فضل الريادة في مجال السخرية المغرقة في سخريتها، ويكفي أن نلمح إلى بعض من أعلامهم ليتضح لنا مقدار ما حفل به هذا القرن من أدباء في مجال الفكاهة، ففيه ظهر الخفنجي وصاحباه الفسيل والشامي وفيه ظهر ابن أبي الرجال السابق الذكر وهو أحد أعلام الفكاهة في عصره وفيه ظهر أيضاً غيرهما من الأدباء. .

وكان الأديب علي بن محمد العنسي المتوفى سنة ١١٣٩ أحد رجال الفكاهة في عصره على الرغم من توليه منصب قضائي كبير يجعله يترفع عن الإغراق في هذا الجانب، وقد وقفنا له على رسالة أدبية ساخرة يسخر فيها من أحد الولاة وقد حول إليه شعيراً تالفاً يقول فيها. .

«مولاي حامي الدين وحافظ بيضة المسلمين حولتم للملوك بعشرين قدحاً على الفقيه علي الزهواني الذي لا تقبض الحوالة منه إلا بالأماني فسلم للملوك منها أربعة أقداح شعير قد سهاعنها خازن الإمام صالح الدين في ذلك العصر. فتركه في زاوية من زوايا القصر ثم مرت عليه الأعوام والدهور في خلافة ولده المنصور، ثم تحالفت عليه العناصر في دولة محمد بن الناصر، ثم خلق منه الجسم والإهاب في أيام السلطان عامر بن عبد الوهاب، ثم عافته خيل المجاهدين في دولة المتوكل يحيى شرف الدين. . ثم تعاقبت على المخزن أيدي الخزان ولكنهم لم يبلغوا في التحري والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح والطبع المرضي والخلق الشحيح، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلف على الزوايا ولا أهمل المثل الساير كم في الزوايا من خبايا، فعثر في بعض لفتاته على تلك الزاوية التي اشتد ظلامها وخفيت أعلامها، فرأى شيئاً مجموعاً وتلا مرفوعاً، فنكته بمقص الدواة لينظر ما وراه، فلاحت له منه شعيرة بغير شعوره أسرف لأجلها في حبوره وتصحيف سروره، فأمر بإثارة ذلك الكنز المدفون والدفين المخزون، ثم عير فحصل منه أربعة أقداح فجاءت وفق الاقتراح، واتفق لسوء الحظ وصول رسول الغرير حال بعث مرقده آدم ذلك الشعير فكيل له في الغرائر على غرة وقيل له خذها واحذر العود بعد هذه المرة، ثم تحمل الحمالون ذلك النكد والرزق الزهواني المنكد.

إلى آخر رسالة العنسي الهزلية وقد اشتهرت هذه الرسالة[1] وتناقلها الأدباء وحينما وقف عليها الدكتور شوقي ضيف أعجب بها ونقل أكثرها في كتابه تاريخ الأدب العربي وقال عنها[2]: «الفكاهة واضحة في هذه الرسالة وهي تلسع ولا تجرح ولا تدمي فكاهة تحمل حيناً سخرية خفيفة دون أن تؤذي» على أن أسلوب القاضي العنسي في دعابته حول أقداح الشعير تلك نجد له ما يشبهه عند الأديب عبدالله بن صلاح العادل المتوفى سنة ١١٦٥ في سخريته من أقداح الذرة التي حولها إليه أحد الرؤساء وقد أكلها السوس فقال:

يا حبذا ذرة وافت وقد عدمت ... من لبها باعتراها الطيش والخيلا
فكلما سنحت ريح لها رقصت ... وشببت فيك أما في سواك فلا
دنوت منها فنادى ملك «وقزتها» ... هي المنازل فاضرب دونها الكللا
فقلت مهلاً أعاذ الله منزلنا ... من رؤية الجن في ساحاته نزلا
فاسترجعت ثم قالت وهي باكية ... أخي وأيسر ما لاقيت ما قتلا
سألتها عن تغير لونها فتلت ... «ومن نعمره» ثم استعجمت خجلا
فقلت كم حقب عمرت في حقب ... قالت أصخ ودع التفصيل والجملا
سكنت دهراً بدار كان ساكنها ... دارا وداريت أهل لأعصر الأولا

ثم تمضي المقطوعة هازلة مصورة قدم تلك الذرة العتيقة وما لاقت من صروف الزمان. وتتشابه المواقف المضحكة عند أدبائنا ونجد عند الأديب علي ابن صالح بن أبي الرجال ما يشبه ذلك الموقف الضاحك الذي وقع للأديبين العنسي والعادل، فقد حدث أن أهدى له بعض الأصدقاء كبشاً هزيلا للأضحية فقال يصف تلك الهدية السخية:

سمحت لنا يا ابن الخليفة بالذي ... طلبناه من كفيك في ساعة العسر
وعجلت بالأمر الشريف ولم ترد ... مطالاً فجاء المطل من حيث لا تدري
وجادت أياديك الكريمة بعدما ... تخيرت في مدحي لها محكم الشعر

---

(١) انظرها في أكثر السفن الأدبية في اليمن وفي (نشر العرف) ج٢

(٢) شوقي ضيف: (تاريخ الأدب العربي) ج٥

ضعيف نحيل الجسم صادت فؤاده «عيون المها بين الرصافة والجسر»
يحاكي خيال الطيف في سقم جسمه ويهتز من مر النسيم إذا يسري
طواه الطوى حتى انحنى وهو أبيض وحاكى هلال الشك في أول الشهر
ولم يبق فيه قوت يوم لنملة ولا ما يطفي الجمر إن حط في الجمر
ولا ما يجر المرء منه بظفره فقد صار منه العظم أنقى من الظفر
حكى في نحول الجسم قيس بن عامر ومن دونه قيس بن عامر في الصبر

فيا طالما أمسى وأصبح طاوياً ومنزله خاو من البول والبعر
وكيف يرجى بعركبس طعامه؟ نسيم الصبا إن مرّ في ساعة الفجر
ولما درى الجزار أني رددته وأوسعته عتباً وأوجزت في الزجر
أتاني بصوم من الضان عابد كثير قيام الليل في جانب القصر
نحيف براه الخوف حتى بدا لنا بعظم بلا جسم وجلد بلا شعر
له فضله من جسمه في إهابه ولكنه عاري المناكب والظهر

إلى آخر مقطوعة ابن أبي الرجال الطريفة، وهي تذكرنا بتلك الحادثة التي وقعت لأحد أدباء مصر في العصر الحديث وأظنه محجوب أو شفيق المصري.

وكان ابن أبي الرجال المذكور أحد من تقمص شخصية الجمادات في أدبنا العربي وحاول أن يعبر عن مشاكلها وحاجاتها أمام المتولين عليها، انظر إلى قصيدته التي يتحدث فيها على لسان المساجد وما أصابها من إهمال وتقصير فيقول مخاطباً أحد ولاة عصره على لسانها: ـ

انظر إلينا عاجلاً فصنعا ضاقت بنا دون البلاد ذرعا
إذ خصنا العامل بالإهمال واختارنا للنقص والإذلال
فالكل منا للفراش مفتقر محتسباً لما دهانا مصطبر
وليس إلا بعض أشمال قطع واحدها من السليط كالنطع
والجص لسنا نرتجيه منه كلا ولسنا سائلين عنه
ولا السراج خاطر ببالي لمسجد مفرش ببالي
وإنما المطلوب إصلاح الفنا قبل الخراب والهلاك والفنا

ولا نـريـد غـير حفظ الحـرمــه | والمنـع من دخول أهـل الـذمـه
وتجــدر الأبــواب في الخــراب | خـوفـاً من الأوسـاخ والكـلاب
وانـظر إلى المسـاجــد الصغـار | فـينـا ولا تـنــظر إلى الكـبــار
ولا نـريـد الـوقف بـالإسـراف | بـل المــراد منــه بــالكفــاف
وانـتفـعــوا بفـضـلة الأوقــاف | لـلسـادة الأبــرار والأشــراف
فــإنّها فــاضــلة ووافــيــه | يا ذا العلى وللجميـع كـافيــه
ولا تــدع أوقــافنــا للنــاظــر | يصـرفها في الفـرش في المناظـر
وداره قــد صــار بــالقضــاض | منتــظماً بــرغـم كـل قـاضي
قد قضّض الدهليز والدراجا | وكــثر الـتنـميـق والـعــلاجــا

وهكذا تمضي أرجوزة أبي الرجال في سخرية لاذعة شارحة حال المساجد فاضحة للمتولي عليها، وقد اعتنى ببيته وفـرشه بفـاخر الفـرش في حين تـرك المساجد خاوية على عروشها.

ويكثر استنطاق الحيوان والجماد في الشعر الفكاهيّ في اليمن، وقد أعاد إليها الأدباء الروح الإنسانية وأشخصوهـا بين ظهـرانيهم تحس وتشعر وتحب وتكره، كما لو كانت رفقة لهم، وهذه بغلة الأديب يحيى بن إبـراهيم جحاف المتوفى سنة ١١١٧ هـ تشكـو إلى حمار عـامل (كسمـه) سنة١١١٣هـ. الفقيه إسماعيل بن محمد بن عز الدين ما أصابها من جوع ومسغبة، وقد صدر الأديب جحاف أبيات بغلته بمقدمة إلى عامل (كسمه) قال فيها[1]:

حفظكم الله صدرت أبيات بغلتنا إلى حماركم المبارك فيه إن شاء الله (فشبع الفتى عار إذا جاع صاحبه) ومن العجائب أن الغراره المشتملة على قوت الأنام والنعام تعطلت اليوم فهذه شكوى من العقلاء وغيرهـم.

الــوالــد الشفيـق الأنـجـب | الفـاره الثريم الحمـار الأشهب
السابق الخيل الجيـاد إذا جرت | يـوماً وضم الكـل منها المـوكب
الـنــاهـق الآتي بمــا لم يــأتــه | في صيغة الصوت المرتل مطرب

(١) سفينة الأخ مشرق عبد الكريم وهي لأحد الأدباء في القرن الثاني عشر الهجري وأولاها المؤرخ زيادة في (نشر العرف)

أشكو إليك خصاصة نيرانها | بين الجوانح لم تزل تتلهب
عطفاً على ابنتك التي بعفافها | وكفى بها قد أصبحت تتحجب
عوفيت من داء العقوق فإنه | داء دواه البر فهو مجرب
وشكيتي فقد الحسيك فجد به | فضلاً ولم أك في سواه أرغب
أكل الحشيشة جائز في مذهبي | والأب أفضل ما يجود به الأب
والحب إن وافى إليّ فإنه | قوت إلى كل النفوس محبب
لي مالك متقشف متزهد | متقنع متورع مترهب
لا مطعم قد لذ لي في سوحه | طول الزمان ولا صفا لي مشرب
حال عجيب عنده لكن له | حال إذا فكرت فيه أعجب
بالله يا أبت انتزعني من يدي | رجل بروق وعوده لي خلب

أنظر إلى هذه اللطافة وقد تقمص الشاعر شخصية بغلته وجعلها تشكو جوعاً ومسغبة وأنها لا تستحق ذلك فهي عفيفة شريفة، وقد بلغ الأمر بها أن تتحجب على خلاف قاعدة البهايم، وأنها قابلة لكل ما يصلها منه من علف، فالحسيك غاية مطلبها وإذا كان هناك حشيش فلا بأس به، وأما الحب فهو أقصى المنى والمطلوب، وتصل ظرافة الأديب ذروتها حين يسخر الشاعر من نفسه ويجعلها تشكوه إلى ذلك الحمار وأنه لا مطعم لديه طول الزمان وأن عيشها معه لا تطاق، وتترجاه أن ينتزعها من بين يديه فوعوده غير صادقة. وهكذا أراد الأديب أن يخرج بهبة لبلغته من خلال تلك المقطوعة الطريفة.

ويكثر مثل هذا الشعر في الأدب اليمني فالأديب المرهبي المتوفى سنة ١١١٣ هـ يودع أحدهم كبشاً فيذبحه ظنّاً منه أنه مهدى إليه، فيكتب الأديب إلى صاحبه هذه الظريفة المضحكة وقد ضمنها بعض معلقة امرىء القيس:

لقد بان عن هذا الجدير لنا طلى | (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل)
ظللت وأصحابي عليه تلومني | (يقولون لا تهلك أسى وتجمل)
عليف إذا ما سار أرسل شربه | (وأردف أعجازاً وناء بكلكل)
سمين التراقي مفعم الشعر صدره | (أثيث كفئق النخلة المتعشكل)
أمنت عليه صاحباً ذا غلائل | (كبير أناس في بجاد مزمل)

صبيـح المحيـا ذا جمـال ولحيـة (بـأطرافهـا مثل الـدمقس المفتـل)
وأودعتـه من حسن ظني بـدينـه (وهل عند رسم دارس من معول)
فـأدرجـه مـن بيتـه في مـغـارة (حكت بطن خبت ذي قفار عقنقل)
فـأورد في أعـلى وريـديـه شفـرة (ليضـرب في أعشـار قلب مفتـل)
وظـل طهاة اللحم مـا بين منضـج (صفيف شـواء أو قـديـد معجـل)
فعـطر من أرجـاء ذمـار أريجـه (لما نسجتـه من جنـوب وشمأل)
وأصبـح منـه (المقحفي) متنشقـا (نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل)

إلى آخـر ما جاء في قصيدة المرهبي الهزلية[1].

وكما سخر الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ هـ من كبش أهدي إليه، نجده هذه المرة يسخر من جمل أهداه إليه بعضهم:

سلوا البعـير الـذي ألقى بمهجتـه في الخوف بين دجـاج البيت والبقر
ينبيكم عن قـرون قبلكم سلفـت فـعنـده جملة الأخبـار والـسـير
وعن سفينـة نـوح كم أقـام بهـا ومـا حـوتـه من الألـواح والـدسر
فنـاقـة الله أم السقب من ذكـرت في محكم الـذكر والآيـات والسـور
قـد غازلتـه بشب البان واقتـرحت عليه أحلى غصون الضال والسمـر
ونـاقـة الشـاعـر الضليـل زوجتـه وكـان إذ عقـرت للعبـد في السفـر
ففي حشـاه لذكـراها لهيب جـوى يكـاد يمري لـذي التذكـار بالشـرر
وهـام في نـاقـة أوصـافهـا ذكـرت في شعر كعب بوصف غير منحصر
(هيفـاء مقبـلة عجـزاء مـدبـرة ما عابها الناس في طـول ولا قصر)
فكم أقـام عـلى هـون يكـابـده من أجلهـا بين نـوق البدو والحضر
وكـان في الركب إذ جـاء البعير إلى خـير البـريـة يشكـو شـدة الضـرر

ثم يسرد تاريخ ذلك الجمل وقد عاصر القرون الغابرة إلى أن يقول.

وكـان مـرعـاه في مبـدا شبيبته ما شاء من أخضر السعدان والشجر

---

(١) (درر الأصداف) «خ» وانظرها في (سفينة المؤرخ زبارة) لأحد أدباء القرن الثالث عشر.

واليوم قد صار أكل القضب يعجزه إذا أتاه لضعف السن والكبر
فباشروه بأقداح العصيد ولا تؤاخذوه على ما كان في الصغر
فالبكر قد ثاب من بعد المشيب عسى أن يقنعوا منه وسط الحوش بالبعر

هذا خبر جمل إبن أبي الرجال، إنه تاريخ طويل وأخباره كثيرة يعود زمنها إلى وقت نبي الله صالح وناقته حتى ما كاد يصل إلى شاعرنا إلا وهو عظام ملفوفة لا يقوى على سير ولا حركة، بل عليهم أن يكتفوا منه بالبعر (الروث) داخل الحوش لإشعاله مع الحطب لا غير، وهذه سخرية يصل بها الشاعر إلى هدفه من تأنيب مهديه على ما أهداه.

وكما شكت بغلة جحاف حالها، نجد حصان ابن أبي الرجال أيضاً يشكو مسغبة ويبعث إلى الإمام بهذه الشكية يقول: ـ

رسالة من الحصان النجدي إلى مراكب الإمام المهدي
تضمنت بعد الثنا والحمد عتباً إذا كان العتاب يجدي
يقول بعد حمده للباري إني سمعت جنح ليل ساري
من صاهل يملي على السمار أرجوزة للحسن العفاري
على لسان طرفه النجيب يثني على زمانه الخصيب
واهاً له من صاهل أديب أتى بكل معجز غريب
يدعو إله العرش بالأسحار بأنه يمن بالإيسار
للحسن بن جابر العفاري إذ حله من ربقة الاعسار
ولم يزل نهاره في خدمته مجتهداً مشاهداً لغرته
منتصباً في الليل عند (سبلته)[1] منتشقاً ريح الصبا من فسوته

وبعد وصف حالته الحسنة مع صاحبه، يعود ذلك الحصان المسكين وينقض ذلك كله ويبين حقيقة صاحبه : ـ

وأعقب الشكر الكثير والثنا مخرباً بكفه لما بنى
مصرحاً بين الأنام معلنا بأنه لم يلق طرفاً حسنا
وأنه ما رام وصل صاحب إلا ولاقاه بجسم شاحب

ويشتكي جور الزمان والجفا والبرد والجوع جميعاً والحفا
وروحه من ضعف على شفا ما إن لها غير الحسيك من شفا
لأنها لم تحظ بالبليلي ولا خليط القضب والقصيل
مذ لازم الحيزوم والجميلي وذاك أمر ليس بالجميل
وكم له من والد ومن ولد مربوطة جائعة بلا عدد
ما إن لها من طارف ولا تلد إلا التسلي بالمحال والعدد
وكم له من صاهل يشكو الضنى والجوع في هذا الزمان والعنا
وظهره من ضعفه قد انحنى وكاد أن يلقى الهلاك والفنا
تحسبه عند المسير حربا إذا تبدّى كالعجوز الحدبا
لا يستطيع في البلاد ضربا إلا إذا ما أوسعوه ضربا
ولا له من دهره معين فما هناه مشرب معين
ولا درى النجح متى يكون وقد دهاه داؤه الدفين
ورب يوم مات جوعاً وانعطف وأظهر الموت سريعاً والتلف
حتى إذا جاء الغلام بالعلف أبدى الصهيل والحبور والصلف
وجلده لم يبق فيه شعرة يعثر في الميدان ألف عثرة
وظهره ملاصق للسره لأنه لم يبق فيه بعرة(١)

تلك حالة ذلك الحصان المسكين وسائر خيول عصره التي تشكو من الجوع والفاقة فلا تجد من ينقذها من ذلك.

على أن للحيوان حديثاً في أدب المقامات وقد كتب فيه عدة مقامات هزلية منها تلك التي كتبها الأديب قاسم بن يحيى الأمير المتوفى سنة ١١٩٤ بعنوان (المقامات الندية والتحفة المستطرفة الخاصة بالشكية عن اللسان العجمية) ومقامة فكاهية أخرى للأديب يحيى بن إبراهيم جحاف المتوفى سنة ١١١٧ هـ جعلها على لسان بقرة يقول فيها:

(حدثت بقرة السيد إسماعيل بن محمد بن زين العابدين، وكانت من

(١) ذيله. (٢) ديوان ابن أبي الرجال مخطوط.

االمتوكلات على رب العالمين جوّابة طوافة كثيرة التنقل من حافة إلى حافة قالت: خرجت في بعض الأيام من السافل لالتقاط فضلات المآكل والتعرض لما يسره الله من (الغساول) فما زلت أطلب المعيشة وأتنقل من ريشة إلى ريشة حتى ساءت فيَّ المقالة وعرفت البقرة الجلالة وما في ذلك من باس فالناس تأكل من الناس.

فقصدت بقرة السيد محمد بن علي بن إبراهيم معتقدة أنها مثل بقرة والده التي النص على مكارمها جلي، فإنها كانت مشهورة بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وكان علفها وماؤها لجميع البقر نهبا، فلما رأتني مقبلة قالت أنت الهنفلة التي لم تزالي تتنقلي من مزبلة ولا تسلمي الأذية ولا تسكني في سافل حويه ولا تأخذ أهلك عليك غيرة ولا حمية ثم إنها رفعت ذنبها وأسبلت عينها وأساءت أدبها.. فلما أعرضت عني وانقبضت مني وكادت تنطحني، غاب حسي ولمت في قصدها نفسي وغشيني من العرق، ما خفت منه على نفسي الغرق، ولا شك أن (من شره وقع فيما يكره)... وفي خلال ذلك وأنا في ليل من الندم أسود حالك ألقت إلى (بصيرة)، كتبها الكاتب وهو على بصيرة، وهو ثور السيد يحيى بن إبراهيم بن عبدالله شريف، والمذكور ظريف لطيف خفيف كثير الدعابة قليل الخطأ كثير الإصابة وعلى هذا الرق المنشور والسجل المسطور.

على ذمة ثور السيد إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى وأحسن به من ثور جمع بين رياستي الدنيا والدين، ولا حاجة إلى نعته ولا يخفى على أحد فضله فإليه يرجع الأمر كله فقلت لها قولك الحق، وكلامك هذا كله صدق.

وهذا الملك القهري، وقد قرَّت به عيني وانشرح به صدري، وكان عندي للبقرة المرحومة من الملح والهشيمة قدر ثلاثمائة قنيمة، ومن التخ والعصارة والدقعة والحمارة قدر مائتين غرارة، وأما العلاني والقصب والعصير فكان عندي شيء كثير، وهذه الأشياء مالها قيمة، وأنت إذا نصبت رشيدة حكيمة مع أني قد سلمت ذلك إلى أختك فلانة عملاً بقوله ﴿إِنّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمانَاتِ﴾ إلى آخر هذه المقامة الطريفة(١).

(١) انظرها في (نسمة السحر) «خ».

وقد أبانت على طرافتها تحسس الأدباء في ذلك الوقت لمشاعر الحيوان وهمومه، فالبحث عن اللقمة هو أهم ما يشغل كل موجود في هذا الوجود، وإن الإنسان والحيوان يشتركان في هذه الناحية، فكان لا بد من التعبير بهذا الأدب الساخر.

وقد رأينا في القطع الشعرية السابقة ما يشبه مقامة جحاف هذه، فهنا البحث عن الزاد بشتى الطرق من استعطاف وضراعة فبقرة السيد إسماعيل تبحث عمّا يسد خللها عند شتى البقر من جيرانها، لعلها تظفر بشيء عندهم، وكذلك حصان ابن أبي الرجال يكتب الشعر الجزل للنظر في حالته.

وكل هذا الأدب نجد السخرية فيه قد بلغت ذروتها، وقد خرجوا عن ربقة التقليد والتكلف في البحث عن النكتة، فكان لهم في هذا صبغتهم الخاصة.

وفي هذا الأدب تطالعنا نماذج أدبية كثيرة يطول بنا المجال لو أردنا استقصاءها، ولا شك أنهم تأثروا بمن سبقهم من أدباء العربية، إذ كان الحيوان أثيراً عندهم محبباً في تشخيص نصوصهم الأدبية، ولعل أبرز ما عرف بهذا الفن منهم من أدباء مصر والشام الأديب ركن الدين محمد بن محمد الوهراني المتوفى سنة (٥٧٥)، وقد كتب رسالة على لسان بغلة، تذكرنا بتلك القطعة الشعرية التي كتبها الأديب يحيى بن إبراهيم جحاف يقول في أولها:

«المملوكة ريحانة بغلة الوهراني، تقبل الأرض بين يدي المولى نجاه الله من حر السعير، وعظم بذكره قوافل العير، واستجاب فيه صالح دعاء الجم الغفير، من الخيل والبغال والحمير».

فهذا نموذج مما كان يكتبه الأدباء في تلك الأصقاع من مفاكهات حيوانية، على أن أشهر ما عرف في الأدب العربي هو الرثاء وقد اقتصر فيه غالباً على رثاء الإنسان.

فمال به بعض اللطفاء إلى رثاء الحيوان إمعاناً في السخرية، وخلطوا فيه بين الجد والفكاهة.

وأشهر قصيدة قيلت في رثاء الحيوان في الأدب العربي هي قصيدة ابن العلاف المتوفى سنة ٣١٨ هـ في رثاء (هرّ) يقول فيها:

يا هر فارقتنا ولم تعد   وكنت عندي بمنزلة الولد
فكيف تنفك عن هواك وقد   كنت لنا عدة من العدد
تطرد عنا الأذى وتحرسنا   بالغيب من حية ومن جرد

إلى آخرها وهي قصيدة شهيرة أوردها (ياقوت)، (وابن خلكان)، (والدميري) وغيرهم، ويقال إنه لم يكن يقصد رثاء (الهر) لذاته وإنما كنى به عن إبن المعتز حين قتله المقتدر، وإذا صح هذا القول فإن رثاء الحيوان يجسد عندهم قضايا إنسانية دقيقة لم تكن على ظاهرها من رثاء الحيوان نفسه.

وكان ابن عنين أحد من رثى الحيوان فقال في رثاء حمار له:

ليل بأول يوم الحشر متصل   ومقلة أبداً إنسانها خضل
ثوى المصك الذي قد كنت آمله   عوناً وخيب فيه ذلك الأمل
مكمل الخلق رحب الصدر منفتح الـ   ـجبين لا ضامر طاو ولا سفل
يطوي على ظمأ خمساً أضالعه   في بيضة الصيف والرمضاء تشتعل
يرجع النهق مقروناً ويطربني   لحناً كما يطرب المزموم والرمل
لو كان يفدى بمال ما ضننت به   ولم تصن دونه خيل ولا خول
لكنها خطة لا بد يبلغها   هذا الورى كل مخلوق له أجلُ

وتناقل الأدباء في اليمن هذه النصوص وغيرها فكان تأثرهم بها واضحاً، وولعوا برثاء الحيوان وكتبوا فيه العديد من المقاطع الساخرة حتى شكا من كثرتها محمد بن إسماعيل الأمير في مقطوعة شعرية أوردناها فيما سبق.

ولعل أول من فتح هذا الباب في الأدب اليمني خلال هذه المرحلة هو الأديب صلاح بن عبد الخالق الجحافي المتوفى سنة ١٠٥٤.

فقد ذكر له المؤرخ يحيى بن الحسين قصيدة في رثاء (ديك)، وله هذه القصيدة الهزلية ناقماً فيها على (هر) كان قد أكل حماما له قال فيها:

يا هر في غير حفظ الواحد الأحد   أحتثت سيرك عن داري وعن بلدي
وقد نزلت فأحسنا جوارك لم   نبخل عليك بما تحويه ذات يد
رجوت أنك تكفيني أذية ما   في البيت من جرذ عاد ومن خلد
فلم ترعها بشيء بل عمدت إلى   حمامة ضعفت في البطش والجلد
ضعيفة لم تكن تدري بفتكك يا   أعق ما خلق الرحمن من ولد
أبديت رعشة منهوك فحين دنت   فعلت ما يفعل الضرغام ذو اللبد
أما نظرت إلى أطواقها ولها   تلون الدر فوق الجيد ذي الجيد

إلى أن يقول فيها:

فخلّنا غير مأسوف عليك ولا   برحت ما عشت في همٍّ وفي نكد
فما أقول لنفسي فيك مبتئساً   إحدى يدي أصابتني ولم تزد

إلى آخرها ، وهي طويلة يقول فيها المؤرخ يحيى بن الحسين وهي في حقيقتها مسروقة من قصيدة ابن العلاف المذكورة مع تحوير بسيط، وقد اشتهرت قصيدة الجحافي بين الأدباء في صنعاء، وأجاب عن (الهر) في هجومه عليه العلامة الحسن بن أحمد الجلال المتوفى سنة ١٠٨٤ يقول في أول قصيدته :ـ

سمعت عتبك والتأنيب يا سندي   فهاج لي حسرة أوهى بها جلدي
وصرت أعجب من دعواك أنك لم   تبخل عليّ بما تحويه ذات يد
إذ تلك دعوى ولا برهان يصحبها   ومثل ذلك لأهل الحق لم يعد
فما أقول كما قلتم إلى جفا   «يا هر في غير حفظ الواحد الصمد»
لكنني مظهر ما كنت أستره   كيلا لخلي كما قد كال لم أزد
خدمتكم غير وان في منافعكم   ولا لأعدائكم أبقيت من سبد

إلى آخره

وقد فتح هذا الشعر آفاقاً جديدة في شعر الحيوان عند أدباء اليمن

في هذه الفترة، وكان أشهر من برز فيه شعراء الأدب العامي.

وهم جماعة كان على رأسهم الأديب علي بن حسن الخفنجي، وكانوا يتسنحون الفرص الطريفة ويقولون فيها قصائد يتناقلها الناس وتصبح حديث المجالس، فقد حدث أن ماتت (هرة) صغيرة لعبدالله بن أحمد بن إسحاق أسماها «وردغان» فقال الأديب الخفنجي في هذه المناسبة:

قال الفتى الهايم من الامتحان ... إن يفقد المضني أليفه
قد صد إلفي بعد قطع الزمان ... لقيا على خبرة نظيفه
وكملت لي وحشتي «وردغان» ... الدمة البيضاء التحيفة
ماتت وقد كانت حياة المكان ... تتفقده مثل الوصيفه
فيها شجاعة كل دمه جبان ... منها وسطوتها مخيفه
تنط في الجو تخطف شيمران ... والباز تبقى له وكيفه
وان اوكست بالفار تتجنن جنان ... وتقتله قتلة عنيفه
تحد مخلب حد مثل السنان ... تترك بطون الفأر ليفه
تحرس لنا زمبيل تحطه ملان ... شركه وهي منها عفيفه

إلى آخرها وهي مشهورة ومعروفة، وقد نسبها المؤرخ زبارة في بعض المواضع من كتابه (نشر العرف) إلى الأديب عبدالله بن حسين الشامي، ولكنها وردت في ديوان الشاعر ونسبها إليه صاحب (الطرائف المختارة)، ولصديقه محمد بن هاشم الشامي في رثاء كلب له يقال له (قرقر):

أنشبت فيه أم قسطل ظفريها ... فأضحى معفراً بالرماد
وأتته حضاجر فاقلته ... وفازت منه بأطيب زاد
بعد أن كان ضيغماً لا يناوى ... وحساماً مجرداً للاعادي
كم أراع السيدان في البر و ... العقبان في الجو والملا في البلاد

إلى أن يقول فيها: -

كان للأكلب المشايخ كهفا ... وأبا للإناث والاولاد

وقد جاراه في رثائه ذاك معاصره الأديب أحمد بن يوسف الحديث فقال: ـ

قضى (قرقر) والذكر يخلفه لنا ... وما مات من أضحى له أبداً ذكر
مصاب به عز الجمالي قائلاً ... تأس فعند الله يحتسب الأجر

وكان رثاؤهم للحيوان بعضاً من مفاكهاتهم، وهو يكثر في نوادرهم ومجالسهم الأدبية، على أن للفكاهة سبل أخرى لا تقتصر على نمط واحد، فمن فكاهاتهم ما عرف في الأدب العربي بتجاهل العارف، وهو أن يذكر الشاعر بديهيات لا تحتاج إلى تعليل، فيوردها وكأنها شيء جديد ومن أمثلة هذا، قصيدة الشاعر المصري ابن سودون المتوفى سنة ٨٧٨:

عجب عجب عجب عجب ... بقر تمشي ولها ذنب
ولها في بزبزها لبن ... يبدو للناس إذا حلبوا
لا تغضب يوماً إن شتمت ... والناس إذا شتموا غضبوا
من أعجب ما في مصر ترى ... الكرم يرى فيه العنب
والنخل يرى فيه بلح ... أيضاً ويرى فيه رطب

فقال شاعرنا اليمني على هذا المنوال وهو الأديب عبدالله بن سعيد القرواني المتوفى سنة ١٢٢٣ هـ:

فوايد لم يدرها أهل الذكا ... وهي بمرآة العقول تُجتلى
فيها نكات شاردات زمها ... لومى بأن من صغا ومن وعا
إن سوى الذات من إذا مشى ... مشت به رجلاه في الأرض سوا
وظله يلحقه من خلفه ... إن قابل الشمس وأولاه القفا
وإن دجاه الليل غاب ظله ... إلا إذا البدر اعتلاه بالسما
واعلم هديت الرشد أن آدماً ... أبو البنين من مضى ومن أتى
وأن حوّا أمنا وإننا ... من نسب إلى التراب يُنتمَى
وكل حي روحه في جسمه ... والموت مفن والحياة في الفنا
وكل سبت تابع لجمعة ... وثالث الاثنين يوم الأربعا

وأول الشهر الهلال دائماً ولا يكون قمراً إذا انقضى
والليل لا يبدو علينا في الضحى ولا نرى الصبح إذا الليل سجا(١)

إلى آخر هذه البديهيات، ويقول عنها المؤرخ جحاف «إنها مما عارض بها مقصورة ابن دريد، وتغاضى بها عما يقول عمر وزيد، وسلك بها مسلك الهزل والمجون فجاء بما يزرى بابنة الزرجون» وفي الأدب الساخر بلهجة أهل تهامة ينصح الأديب أحمد بن عبدالله صايم الدهر المتوفى سنة ١٢٩٧ طالب الشعر بهذه الأبيات الضاحكة(٢):

صدر أمكلام فهب له مركن واحذر ينور عايضي ومخبن
وحوج ولوس يا ابن يحيى وامغه واجعله في صحن عظيم يثخن
وقد على صلا البلاغة ساعة من فوقها مجفا الذكاء يؤذن
واعمل بتلك من البيان مطسة واعدد من الذهن البليغ مسخن
واغرف بمغراف البلاغة إن ترد معنى لحوح الشعر منك يمكن
واحذر تستفه فإن تستفه جاء الجناس مقطعاً لا يحسن
واعدد من مرق التفكر برمة ليكن إداماً للحوح مقنن
واسكبه في صحن القوافي كلها واهفت وعاد يا صفي يدخن

فهذه أصول فن الشعر عند أديبنا .

وأما الأديب علي بن محمد ظافر، من أدباء تهامة في القرن الثالث عشر، فإنه يكتب هذه المقطوعة يتوسل فيها إلى أحد أمراء عصره، وقد خلط فيها بين الفصحى وبعض لغات أفريقيا وكان قد هاجر إليها يقول:

مولاي ما في البيت قط «مكاتياً» كلا ولا أنفينز أشري بهن سماليا
قالوا لي الأولاد قم فاشتر لنا من «انتئيذ الجيها» فقلت (كتاكيا)
قالوا بع (انفوندا) فقلت أكونا وعار عليكم أن أبيع حماريا

---

(١) درر نحور الحور العين «خ».
(٢) (نشر الثنا الحسن) «خ».

ويشرح المؤرخ الوشلي مفردات هذه المقطوعة الأعجمية فيقول (مكاتيا) معناه الطعام «انفينز» معناه الدراهم و«أنتئيذ الجيما» معناه التمر الطيب و«كتاكيا» معناه ما عندي شيء و«انفوند» معناه الحمار.

ففي هذه المقطوعة نوع جديد من الفكاهة عند أدبائنا خلط فيها بين الكلام العربي الفصيح وبين كلام الأعجام.

وهذا يكثر في شعر أهل السواحل ومن تعاطي الهجرة.

وفي الشعر الحميني تكثر النكتة الضاحكة، وتكثر المعارضات الساخرة، ومن يتأمل ديوان الخفنجي يجد الشاعر قد ركز موهبته في قلب القصائد الشهيرة الجادة إلى قصائد ساخرة ففي عراضة لقصيدة الأديب علي بن محمد العنسي الشهيرة يقول الخفنجي:

ما وقفتك بين الجراف وسعوان ولفتتك بين الغراس وزجان
إلا ولك جربه بأرض ذهبان وشر شريمك قبل كنس الأجران

إلى آخرها، وقد تأثر بأسلوبه هذا جماعة من أدباء عصره، فقال الأديب قاسم بن يحيى الأمير المتوفى سنة ١١٩٤ في عراض قصيدة ابن الوردي الشهيرة اعتزل ذكر الأغاني والغزل.

قال الأمير: ـ

اشرك الخرقا ومصفوحة جمل واترك الكيزان واشرب في مدل
فالهوى والعشق في ذا الدهر قل ذهبت أيامه والإثم حل

إلى آخرها ومعارضاتهم تلك تذكرنا بما عرف في أدب أهل مصر الساخر من معارضات فكاهية، ومنها قصيدة الأديب عامر الأنبوطي المتوفى سنة ١١٧٣ في عراض لامية الطغرائي يقول:

---

(١) المصدر السابق.

أناجر الضان ترياق من العلل وأصحن الرز فيها منتهى أملي
فيم الإقامة في الأرياف لا شبعي فيها ولا نزهتي فيها ولا جذلي

وقال في عراض قصيدة ابن الوردي السابقة :

اجتنب مطعوم عدس وبصل في عشاء فهو للعقل خبل
واحتفل بالضان إن كنت فتى زاكي العقل ودع عنك الكسل

ويكثر هذا أيضاً في الأدب الحديث، فمن معارضات حسين شفيق المصري للقصائد المشهورة قوله في معارضة قصيدة أبي العتاهية :

ألا ما لسيدتي مالها أدلا فاحمل إدلالها

قال المصري : -

أظن الولية زعلانة وما كنت أقصد إزعالها
الخ .

وللشعر الضاحك في اليمن طرق أخرى، فمن هجائهم الساخر قول الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ في وصف محاسن فاتنة :

وهو وجه كقطعة من ظلام فيه أنف كساحل المطهار
وله جلدة كوجه نعال سابري ملقى ببعض البراري
وكأن الخدود فحم أحاطت بعيون في وسطها كالجمار
وشفاه تفتر عن كل نيب مثل منقار جابر النجار
غلظ تلك الشفاه غلظ وكاء نزعوه من فوق ظهر حمار
وبنان مثل الأساود فيها كل ظفر كشفرة الجزار
فوق بطن كدوح قطران لكن دهنوه بدهن زفت وقار
ينتهي بطنها إلى فوق (. . .) مستكن من شعره بإزار
فيه قمل كسمسم سكبوه فوق شعر كفلفل العطار

إلى آخر هذه المحاسن الفائقة .

وهكـذا نجـد للشعـر الفكـاهي في اليمن طرقاً وأفـانـين كثيـرة أبـدع أصحابها، وكان لهم فيها ميادين فسيحة، ولعلنا سنعود إلى شيء من هذا في مواضع متفرقة.

شعــر القهوة والقــات

كان للخمرة في الشعر اليمني حديث طويل، وقد تغنى شعراء هذه الفترة في وصف محاسنها ومجالسها، شأنهم في ذلك شأن شعراء العربية الآخـرين، وهو موضوع سنعود إليه عند حديثنا عنه.

ولكن القهوة والقات كموضوع خاص بأهل اليمن نجد المواهب تكل فيه أو تكاد، ولا يتفنّن في الحديث عنـه سوى من واتتـه الصناعـة اللفظيـة على حقيقتها، وإلا فالشعر عنهما كثير والإنتاج أكبـر، وربما لم ينحصر عـلى الشعر وحده فدخل مجال النثر وكتب فيه عدة قطع نثـرية تعتمـد على الحـوار، لعل أشهرها مفاخرة القهوة والقات للمعلمي..

وكان من أقدم النصوص التي وصلتنا عن القات هو ذلك الشعر الـذي صاحب ظهوره في القرن العاشر، وهو للأديب عبدالله بن شرف الدين المتوفى سنة ٩٧٣ الذي يقول فيه:

أدر غصـون بـواقيت من القـات   زبــرجـديــات أوراق وريقـات

إلى آخرها، وهي في أصلها تحوير لبيعية الحلي وقد تأثر بها جماعة من الا دباء الذين ظهروا بعده وكان هذا الشعر غاية ما وصلوا إليه من مدحهم للقات.

إلا أنه غدا بعد ترسيخ تعاطيـه عادة اجتمـاعية لا جـدال فيها، وكـان الأدباء على رأس المتحمسين له، ولم يلقوا معارضة فقهية تذكر، بل ربما ظفرنا

بأشعار في مدحه لبعض الفقهاء، وهذا الفقيه محمد بن أحمد العجيلي المتوفى سنة ١٠١١، ينظم قصيدة طويلة في مدحه فيقول فيها[١]:

لا ندية الخلان صاح تجمل بوجدان قات زانها وتهلل
فيا حسنه إن رق يوماً لمحضر وصف بألطاف لها الفضل يجمل

وقال العلامة الهادي بن أحمد الجلال المتوفى سنة ١٠٧٩ وهو أحد فقهاء عصره :

تطاول القوت في دعواه إن له فيما يرى جملة فضلا عن القات
فقال بي قامت الأشباح قلت له شتان بين قوام الروح والذات[٢]

ويحدثنا المزجاجي عن العلامة محمد بن علاء الدين المزجاجي المتوفى سنة ١١٨٢ : «أنه كان صاحب طلبة يدرسهم، وكان يحضر القات للحاضرين في مجلسه فيحصل النشاط والاستفادة».

ومن ثم كان الأدباء في تحمسهم للقات تبعاً للفقهاء والصوفية في مرحلة من المراحل وكان ولوعهم به على دعوى أنه يذكي الهمة ويزيد النشاط وقد صرح بذلك الأديب إبراهيم اليافعي في شعره إلى الأديب إبراهيم الهندي «المهتدي» يقول[٣]:

ومهتد بالقريض ذا ولع يقدح من زند فكره قبسا
ما زال للقات آكلا أبداً حتى أتى نظمه له سلسا

فسلاسة الشعر عند اليافعي سببها القات، وهو مقولة تروج كثيراً بين متعاطي القات من أصحاب كل صنعة.

وقد غدا شعر القات بتميز أهل اليمن فيه ظاهرة اجتماعية خاصة بهم، ولهذا أدرجناه ضمن شعرهم الاجتماعي، وإلا فهذا النوع من الشعر يبدو لي أنه أقرب ما يكون إلى أدب الخمريات، وكان الأدباء قد ولعوا بأكل القات كما أشرنا، وأصبح ديدنهم وقال بعضهم فيه شعراً جيداً، وكان الأديب علي

(١) انظرها كاملة في (خلاصة الأثر) ج٣ ص ٣٥١.
(٢) (ترويح الأوقاف)
(٣) (نزهة رياض الإجازه) «خ».

ابن صالح بن أبي الرجال، من الأدباء المتعاطين للقات، فحفل ديوانه بالعديد من القصائد في وصفه من ذلك قوله:

أبـريق الغـويـر مـن نعـمـان ... وابـتسـام الـثغـور والـلمعـان
أم تـرى هـذه السنـاجق جـاءت ... بعـد ختم الصيـام من رمضـان
أم غصـون قـد قلت لمـا تبـدت ... صـاح هـذه قـلايـد العقيـان
لـو رأتها المجـوس في جنـح ليـل ... لا نثنـت عن عـبـادة النيـران
يـا لهـا «ربـطة» إذا مـا تبـدت ... فـهي تـزري بـخمـرة الأدنان
زال عـنيّ الضـنى وكـل سقـام ... إذ حبـاني بها بـديـع الـزمـان
كـنت لمـا أتـت حليـف سقـام ... لازم لـلفـراش وسط مكـاني
فـوجـدت الشفـاء فيهـا أتـاني ... واشتهيت اللقـاء من الإخـوان
استحـال السقـام منّي سـروراً ... وعـرفت الشفـاء من القيتان(١)

فهذا الشاعر كان حليف مرض وسقام، حتى إذا ما تبدت «ربطة» القات نجده قد استوى صحيحاً، وكأنه حل من عقال وهكذا تكون الولعة عند أصحابها الحقيقيين.

أما الأديب أحمد بن الحسين بن القاسم المتوفى في القرن ١٢ فإنه يعـزف عن الاشتراك في مجالس الناس ويتفرغ لأكل القات ويقول..

لا تـطمعـن راحـة في مجـلس ... أضحى الحديث به عن الأقوات
واصرف همومك من فؤادك كلها ... واقنـع بقوت الصـالحين القـات

وربما فضل القات بتفضيل التربة التي زرع فيها فهذا الأديب محسن بن عبد الكريم المتوفى سنة ١٢٦٦، يفضل قات حافش والعبس على غيره ويمدح القات بقوله:

سقى الحيـا حافش فـالعبسـا ... مـواطن القـات فـلا تـيبسـ
فـإن لـلقـات نـشـاطـا إذا ... فـتـرت الـكـأس إذا تحسى
إن أخـذ القـوم بخـار الكـرى ... وكـادت الأعـين أن تـنعسـا

(١) (نثر العرف) ج١ ص ١٢٢.

روعـه القـات كتـرويع ذكـر   الله إبـليس إذا وسـوسـا
لا وقت في الـدهـر كـأوقـاتـه   أروح لـلأنـفـاس أو أنـفسـا
حمـايـم الأفـراح من غـصنـه   تصـاد كي تـذهب هـذا الأسى
فـعـاطني منـه أنـابيـب مـن   زبرجد قد كسيت سندسا

فهذا القات عند شاعرنا يبعث في نفسه الإحساس بالنشاط وطرد النوم وأن أوقاته هي أرواح النفوس ومنى النفس.

ومن الشعراء من بالغ في مدحه فمدح بائعه وآكله.

وكان الأديب أحمد بن الحسين الرقيحي يشتري من أحدهم القات فقال مورياً به وبسلته..

للقـات غيـري عـينـوا   شخصـاً سلا عن مهجتـه
أخشى الحـسـام فـإنـه   أسر الـقـلوب بـسـلتـه

ويقول الأديب إبراهيم الهندي المتوفى سنة ١٠١١ في وصف مليح يأكل القات..

أشبـه ثغـره والقـات فيـه   وقـد لانت لرقتـه القلوب
لآل قـد نبتن عـلى عقيق   وبـينـهـما زمـرة تـذوب

وربما لم يكن أكثر شعـرهم في القات لـذاته، وإنما كان في استـدعائـه وحضور مجالسـه، فهذا الأديب علي بن صالـح بن أبي الرجـال المتوفى سنـة ١١٣٥، يطلب من أحد أصدقائه أن يمده بقات جيد يعرف بالبخاري فيقول مورياً.

يـا مـاجـداً لاح فـينـا   كـالبدر في الليـل سـاري
إن كنت شـهـمـاً سـريّـا   صل «مسلما» بـ «البخاري»
وإن يـكـن «عـمـريـاً»   كـفيـت عن «عـمـاري»

ويثني على أحدهم وقد أهدى إليه قاتاً فيصفه بالإحسان والكرم يقول:

ألاقـل لـلضـيـاء أبي المعـالي   كـريم الأصـل محمـود الصفـات

لـقــد واليـت إحســانــاً وبــرّاً وتـابعت الجـزيـل من الصـلات
وأحييت النفـوس على ضـمـاهـا بـــأغصـان حــوت مـاء الحيــاة
غصـون كالـزبـرجـد إن تبـدت وكـــالشهـد المصفى في اللهــات
لهــا لـــون الـــزمـــرد بـــين در على لـون العقيق من الشفــات
فــدم في نـعمــة ونـفــوذ أمــر عــلى الأعـدا في تلك الجهــات
تـنــادم فتـيــة منهـم كــرامــاً عــلى فــل وريحــان وقــات

ويصف شاعرنا ابن أبي الرجال منادميه في مجلس القات بأنهم من ذوي الأدب والفطنة، وأنه بينهم كقيصر في قصره:

فلو تــراني وحـــولي عصبـــة لهم من نشـوة القات إنشـاد وإنشـاء
يستـنزلـون نجـــوم الأفق زاهـرة فينظموهـا عقوداً كيف مـا شاءوا
من كـل ذي فـطنـة في كفـه قلم كـأنه في ريـاض الـطرس ورقـاء
كــأني قيصر في قصـــره جــذلاً يـغــار مني ســابــور وكــســراء

وأنت تجد في هذه المقطوعة ضـرورة المشاركـة في تلك المجالس بـإنشاد الشعر وروايتها وهذا يكثر في تلك المجالس وخاصة عند الأدباء.

على أن ظهور القهوة كمنافس خطير للقات في مجالس الناس ومنتجعاتهم قد شكل معركة أدبية رأيناها تظهر في نصوص الأدباء من أهل القرن الثالث عشر، ولعل خير ما يمثلها هو مقامة ترويج الأوقات في المفـاخرة بـين القهوة والقات» للأديب أحمد بن محمد المعلمي المتـوفى سنة ١٢٧٨. وكـان الأديب علي بن محمد القـاره المتوفى سنـة ١٢٥٠ قد أثـار قضية أدبيـة بين الأدبـاء في التفضيل بين القهوة والقات فقال في قصيدة طويلة يمدح فيها القهوة..

أدرهـا من الفنجـان للصب قــرقفـا فقد كسيت من خالص التبر مطرفـا
محــللة لا إثـم فــيـهــا لــشــارب يباهي بها «عصمان» في الذوق (أخرفا)
تلوح عــلى الأغصــان وهي زمــرد وتــرجـع يــاقـوتــا بهيّا لتقــطفــا
وتنشق عن دريسمي لــدى الـورى بصاف لما يعلو عـلى اللون من صفا

تشرد جيش الهم كل مشرد	وتمنح ذا الأسقام والوجع الشفا
تهذب طبع المرء فيه كثافة	وكم كدر في العيش من شربها صفا
إذا ذاقها الفظ الغليظ ترقرقت	خلائقه والفم منها تلطفا
وقد فضلت كأس الطلا بحلوها	وبالحل بعد الطهر زادت تشرفا
فما اجتمعت والهم في مهجة امرىء	ولا زال معها كلما ثبت انتفى
أقول إذا دارت على الشرب مرة	وناولني الساقي على الخمرة العفا

فأجابه الأديب يحيى بن المطهر منتصراً للقات . .

سل البان عن نعمان قد برح الخفا	عسى عطفه أم قد أصرت على الجفا
أأطمع أن أسلو بشيء يسرني	وقل لي كذا يسليك همك تكثفا
وقد قيل في بعض المراقح راحة	فقلت وحسبي أن أرى القول منصفا
عليك بذات المصطلكي عندما طفى	بأوقاتها أوقاتها بك الطفا
مجالس بنت الكرم إذ ذم نفعها	وعنها به من بعد تحريمها اكتفى
يفرق أنواع الهموم اجتماعه	ويجمعها للافتراق مؤلفا
يصوب ياقوتا به من زبرجد	أكاليل ما إن ماس إلا تعطفا

سباحلة الطاوس وشياً معسجداً على الكره هلا كان جوداً بها أفا

إلى آخر ما جاء في مدح القات، وقد ناصر الشاعر في تحمسه للقات الأديب محمد بن علي سعد الحداد الكوكباني في قصيدة قال فيها . .

لقد هزأت بالقات وهو إذا بدا	وحيا مقامي بالسلام تشرفا
غصون لا حراب الهموم تخذتها	رماحاً إذا أعملتها لن تقصفا
وأوراقه الرايات أو عذباتها	إذا خفقت هب السرور ورفرفا
إذا تاق قلب نحوه فهو قلبه	وإن فات صار اللفظ منه مصحفا

وهكذا نجد أدباء القرن الثالث عشر انقسموا بين أنفسهم إلى فريقين في مناصرة القهوة والقات .

إتجاهاتُ الشِّعـر

كان للشعر اليمني في هذه الفترة حياته وفنـه، وقد جـارى الشعراء هنـا شعراء البلاد العربية الأخرى في أغراضهم واتجاهاتهم، وكـانت لهم أنماطهم المعروفة من: مدح، ورثاء، وفخر، وغزل، ووصف، وخمريات، ومجون.

ولا إبداع في ذلك، فالشعر اليمني متأثر بأسلافه، وكان تشبعهم بدواوين العربية معروفاً ومشهوراً، وقد اتضـح لنا ذلـك في اقتباسـاتهم ومعارضـاتهم واستحضارهم لمطولات القصائد العربية.

المدح:

ففي المدح كان للشعراء هنا تلك الطريقة التقليدية المعروفة عند غيرهم، وقد نشأت طبقة كبرى من الأدباء تتعاطى الشعر لذات المدح نفسه، ومن يتأمل ديوان: الهبل، والأنسي ، والعنسي، والمرهبي، وابن أبي الرجال وغيرهم يجد الكثير من ذلك، وكأنها فئة جعلت من التكسب بالشعر سيـاستها الأولى.

وأكثر ازدهار شعر المدح كان في عصر المهدي صاحب المواهب، فقد جند لمدحه حشداً كبيراً من الشعراء، جاء على رأسهم الأديب الزنمة، الذي خصص في مدحه ديواناً كاملا، وشعراء آخرون لا مجال لذكرهم. ونادراً ما يخلو ديوان من دواوينهم من بـاب في المدح، وحتى أولئـك الشعراء الـذين لم يجعلوا من المدح وسيلة لعيشهم المادي، نجدهم قد مدحوا أقـرانهم وشيوخهم في العلم والأدب، وكانت المدائح تنبع في بعض الأحيان عن رغبة أو عن رهبة، ويرى

الأديب محسن بن عبد الكريم، أن كثرة المدح لا تأتي إلا عن طمع في جود كريم، أو تملق لشأن:

ولكن كثر المدح إما تملق ... لجود كريم أو تملق شان

وكان الأديب علي بن إبراهيم الأمير المتوفى سنة ١٢٤٤ هـ يقول عن مدائح الملوك:

مدح الملوك يكلف الأفكار ... في الأشعار صوغ الزور والبهتان

وقد تحسر الهبل، على غرار قصائد قالها في ممدوحيه حيث لم يحظ عندهم بطائل:

مات الوفاء وأبناء الوفاء به ... فالشعر من بعدهم أقوت مغانيه
فأين من يستحق المدح ،مبتذلاً ... للمال فيه فيوفينا ونوفيه
لهفي على غر أبيات مدحت بها ... من لو هجوت لأرخصت الهجا فيه

ومع ذلك إذا رجعنا إلى مدائحهم وجدناها تصفهم بأوصاف المدائح السابقة لهم، كالكرم، ومحاسن الأخلاق، والإباء، والشجاعة إلى غير ذلك ونادراً ما تخرج مدائحهم عن هذا النطاق.

ففي مدائح ابن أبي الرجال لأحد ملوك عصره يقول: ـ

خليفة خصه الباري وأيده ... بالفتح والنصر والتوفيق والظفر
واختاره واجتباه من بريته ... لما اصطفاه على علم من البشر
سر النبوة فيه غير مستتر ... عن ناظرٍ ناظرٍ في الحضر والسفر
أتت على وعد خير الرسل دعوته ... كما أتى ربه موسى على قدر
يجود بالدر من فيه لسائله ... عن العلوم وللعافين بالصرر
ويقبل العذر ممن جاء معتذراً ... مما جناه ويعفو عفو مقتدر
ورأيه نافذ كالسهم أنفذه ... من الرمية رب القوس والوتر
يلقى الأمور بصبر واسع سلمت ... أحشاؤه من قبيح الحقد والوضر
ويرقد الليل في أمن وقد كحلت ... أجفان أعدائه بالخوف والسهر
لعلمه أن رب العرش ناصره ... وأنه خير منصور ومنتصر
ويبذل المال لا تخشى خزائنه ... العظائم الجم من نقص ولا ضرر

فهذا أنموذج شائع مما يقال في مدائحهم، وكان الشاعر ابن أبي الرجال أشهر من برز في المدح التقليدي، وهو يصرح بتنقيح قصائده وتهذيبها، فنجده يقول أمام ممدوحه الإمام المهدي صاحب المواهب: ـ

وهاكها يا أمين الله غانية ... قد زانها حسن تنقيح وتهذيب

ويشيد بفتوح الدولة في مدائحه فيقول: ـ

أتت من حضرموت إليك بشرى ... على رغم المعاند والموالي
وفرت فرقة الأعداء خوفاً ... من البيض الصوارم والعوالي
ويافع مزقوا في كل نجد ... وفي تلك المفاوز والرمال

وربما صرح مدحه عن أطماع الدولة في غزو الروم وبلاد الإفرنج حسب قول الشاعر:

لا تحسبوا أن قاع البون مطلبه ... أو أنه يبتغي ذيبان والخشبا
ولا امتطى للوغى بيضاً مشطبة ... يبقى بها شاطباً في الدهر أو شظبا
وإنما الروم والإفرنج مقصده ... ولو قضى نحوها في سيره حقبا

وكان الهبل، على الرغم من شغفه بمدح الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته الأولين، نجده قد خاض في مدح ساسة عصره.. وكان أكثر مدائحه في الإمام المهدي أحمد بن الحسن، ووصفه بأوصاف الممدوحين فهو يصفه بالكرم والعلم والحلم والسماحة والشجاعة فيقول:

مهلاً فما فوق السماك لطالب ... قصدٌ، ولا فوق الثريا مقعد
أنفقت مالك في الندى مستخلفاً ... ربّاً خزائن فضله لا تنفد
تالله ما تركت لقاك معاشر ... إلا وفضلك فيهم يتردد
أو يمم الطلاب يم مكارم ... إلَّا وأنت مناهم والمقصد
علماً وحلماً باهراً وسماحة ... فليهتدوا وليقتدوا وليجتدوا
سجعوا بذكرك في البلاد وإنما ... طوقتهم بالمكرمات فغردوا
وتعلموا منك المديح فمنك ما ... تعطيهم كرماً وأنت المنشد

ما سوحك المحروس إلا جنة ... لو أن من يأتي إليه مخلد
ماذا أقول وكل قول قاصر ... والفضل أكثر فيك منه وأزيد
الدهر من خطّار رمحك خايف ... والموت من بتار سيفك يرعد

. . . . إلى آخرها. . وكان الزنمة في مدائحه واحداً ممن أطالوا وأجادوا، فجاءت كل قصيدة واسعة النفس كثيرة الإطناب، وربما جاءت بعض مدائحه لرصد كل حركات الممدوح في مناسبات مختلفة: كفتوح؛ وزواج، ووفود، إلى غير ذلك. . . وكان يحشد في كل حادثة ما يناسبها، ففي تهنئة الإمام المهدي صاحب المواهب بعيد الغدير يقول في أولها: ـ

أعد من أحاديث الغدير لنا ذكرى ... وذكِّر بها الناس فقد تنفع الذكرى
وهات عن البان الذي بان أهله ... أدر لي كئوساً قد ثملت بها سكرا

ثم يشير إلى ما جاء في يوم الغدير من أحاديث.

وفي شعره نجد رصداً دقيقاً لوقائع الدولة وأحوال الممدوح كما سنشير إلى ذلك عند حديثنا عن هذا الشاعر.

والزنمة، أحد الشعراء القلائل الذين عرفوا بغلوهم في وصف الممدوح وإضفاء هالات القداسة عليه:

سرى نحوكم ليلاً فصلَّى وسلما ... وطاف بكم سبعاً ولبَّى وأحرما
وحلق في مسعاه غير مقصر ... وكم لجمار الهم في كفه رمى

. . إلى غير ذلك ولكن هذا يقل في شعرهم، ومع ذلك فإن مدائح الشعراء تروج عند بعض الحكام في هذه الفترة ومنهم من تعاطى الشعر، وأجاب على ممدوحيه.

فكان لإقبال الملوك على مدائح الشعراء أثر في ازدهار المديح وقد حدثت نهضة كبيرة في هذا الفن ومع ذلك يقل التجديد عندهم، ونادراً ما نجد من صرح بشيء من ذلك التجديد المطلوب كما هو الحال ـ مثلاً ـ عند الأديب المحسن بن المتوكل الذي يقول إنه أنِف عن عادة الشعراء في مدائحهم بالتغني

بأطلال بان الوى والأبرق:

ولقــد أنِفت لمدح فيــك أولــه   أطلال بان باللوى الغربي وأبـرقه

وإلا فهم قد ساروا على ما سار عليه أمثالهم من التغني بالرسوم والغزل والرحلة وحديث الجمال وغيره... ولا نطيل بشيء من ذلك فالحديث مكرر ومعاد.

مدح الرسول ﷺ:

على أن هناك ظاهرة تستحق الاهتمام في شعر المديح عندهم، وهي ظاهرة مدح الرسول ﷺ، وكثرتها عند الشعراء، حتى لا يكاد يخلو شعر شاعر منهم من قصيدة قالها في مدح الرسول ﷺ.

وكان الأديب الزنمة يقول: ـ

وإن كـان لا بـد المديـح لنـاظم   فمـدح رسول الله أحسنـه صنعا
فنـوّع وجنّس في امتـداح محمـد   فـأوصافـه لم تبق جنساً ولا نـوعا

وقد اشتهرت بين أيديهم بديعية الأديب الحسين بن عبدالقادر الكوكباني المتوفى سنة ١١٥١ هـ في مدح الرسول ﷺ وقد شرحها معاصره الأديب أحمد ابن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١ في كتابه (سلافة العاصر)، وهي قصيدة مشهورة أولها:

أهدى النسيم وذيل السحب تنسحب   طيباً إلى طيبه يعزى وينتسب
فـروح الـريـح منـه روح كـل شـج   ومس كـل مشـوق عنـده الـطرب
يا ليت شعري هـل أحظى بـزورتها   ويـا تـرى هـل إلى ما رمته سبـب

.... إلى آخرها.

ومدحه في القرن الحادي عشر الأديب الكبير إبراهيم بن صالح الهندي المتوفى سنة ١١٠١ هـ بقصيدة قال فيها:

بعيشك هذا الصادح المترنم أهاجك أم برق على الخيف يبسم

وهي طويلة سار فيها على نمط قصيدة كعب بن زهير من حيث الإطالة في النسيب والغزل.

ومدحه في القرن الثاني عشر الأديب أحمد بن الحسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٤ هـ في قصيدة أوردها جامع ديوانه قال فيها:

ليهنك ما أعطيت في ليلة الإسرا لك المجد في الدنيا الأثيل وفي الأخرى
لأنت وأيم الله أكرم من دعا إلى منهج الحق القويم ومن أقرأ

ثم يعدد معجزاته ﷺ وجهاده في حرب المشركين وصبره في ذلك وفي آخرها يدرج استغاثة بالرسول ﷺ يقول فيها:

إليكِ رسول الله قد جئت لائذاً قصير الخطا مستشفعاً حاملا وزرا
جهلت أموراً طالما قادني الهوى إليها ولم أقبل ملاماً ولا زجرا
وإني سأرجوك الشفاعة في غد إذا آن من تلك الصحائف أن تقرا

وللأديب أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١ هـ عدة قصائد في مدحه ﷺ منها همزية زادت أبياتها على المائة يقول في أولها:

أجهد اليعملات طول السرا وبراها سقماً توالى البراء
وقلاها التهجير يوماً فيوماً في موامي التنوفة الدهناء

وفي أخرى عارض فيها قصيدة كعب بن زهير يقول:

روض الحمى ودمي في الخد مطلول فالقطر هام وسيف البرق مسلول
ما شاقني البرق إلا أن غدا وله في الثغر تشبيه وتمثيل

وقصائد أخرى كثيرة للأديب الحيمي أوردها في آخر كتابه سلافة العاصر.

وكان لأدباء القرن الثالث عشر شغف كبير بمدحه ﷺ وقد قيلت فيه عدة قصائد، لعل أشهرها قصيدة الأديب محسن بن عبد الكريم إسحاق المتوفى

١٢٦٦ هـ التي أولها:

حتام أضرب في مـرت من الأمل   وأرتجي قـرب من أهوى ولم أنـل

وفيها يقول :

يـا بـالغـاً في بليـغ المـدح طـاقتـه   لتبتغي كـل قـول غـير مبتـذل
ارجـع بخفى حنـين بعـد خيبتـه   وقف فلست بـوقـاف عـلى أمـل
لأنت أقصر بـاعـاً أن تمـد يـداً   إلى مـديـح حبيب الـواحـد الأزلي
وكيف بالشعر تبغي مدح من نطقت   بمـدحـه سـور التنـزل في الأزل

وهي قصيدة طويلة شـرحها الشـاعر في مؤلف مستقـل بعنوان «الهيكـل اللطيف».

ومن أدباء هذه الفترة من أوقف أغلب شعره في مدحه ﷺ، كالأديب علي ابن أحمد بن محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٢٢٠ هـ الذي كتب أغلب شعره في المدائح النبويات منها قصيدته التي أولها:

قسـماً بحسن المصطفى وصفـاتـه   إن السـلام يحب طيب صـلاتـه
يـاسـين أكـرم خلقـه وحبيبـه   وصفيّـه المخلوق من مشكـاتـه

وكان هذا الشاعر قد كتب أكثر قصائده تلك في أثناء حجه سنة ١٢٠٣ هـ وقالها أمام قبره الشريف ﷺ .

* الغزل :

للغزل في الشعر اليمني مادة كبيرة وقد زاده قيمة وروعة وجَوْدة أن أكثر القصائد الغزلية التي قيلت فيه جاءت لذات الغزل نفسه، ولم تأت كمقدمات تمهيدية يخلص منها إلى المدح والمجاملة، وقد كان لشعر أبناء المدن أثر في وجود هذا الفن وانتشاره. . . حيث كان لحياتهم المنعمة الفضل في تتبع الجمال في مواطنه الرئيسية والتغني به في شعرهم الأدبي.

وكان شعرهم في الجمال لذات الجمال نفسه. . . وهو شعر جيد يفرضه

علينا حسن سبكه وجودة أسلوبه، ولا عبرة بقول من سبقهم فيه أو أجاد قبلهم، فالقرائح في مثل هذه المواطن لا تكاد تتباين وهي لا تخرج عن أنماط معينة تحدث للمحب والعاشق، وهي إما وصف لوعة أو شكوى فراق أو تأنيب وشاة. . إلى غير ذلك وإنما يميز الشيء في هذا المجال القدرة على الإبداع وحسن الخيال.

نعم لعلك ستظفر بشيء من الجدة والابتكار حينما نسمع الأديب محسن ابن عبد الكريم المتوفى سنة ١٢٦٦ هـ يعيش على ذكرى هواه ويتلذذ بتعذيب الحب له يستثني من ذلك الفراق فيقول:

غنت على الأوراق شدوا	ورق الحمام فهجن شجوا
وفهمت ما هدرت به	في الدوح تصريحاً وفحوى
فاشرب على ذكرى الحبيب	عقار هذا الكاس صفوا
واشكر نسيم خميلة	حملت شذاه إليك عفوا
واسحب على هام المجر	ة ذيل تيهك وامش زهوى
وإذا فخرت على النجوم	به فما أبعدت دعوى
يا من تملك حسنه	قلبي العميد وكان خلوا
إني أعذب في هوا	ك فاطعم التعذيب حلوا
إلا الفراق فما أظن	عليه هذا الروح يقوى
يا راحلين ومهجتي	أبداً لكم مأوى ومثوى
قلبي على ما تعهدو	ن يود قربكم ويهوى

فهذا انموذج مما يتميز به شعر هذه الفترة في مجال الغزل وكان لهم في الغزل فنون عجيبة فهذا الأديب محسن بن عبد الكريم المتوفى سنة ١٢٦٦ هـ يقول أيضاً في قصيدة خفيفة الوزن والأسلوب:

حي الحبيب وحي داره	إن كنت مجتازاً دياره
واحفظ تحية مغرم	حلت بمبلغها إشاره
عذبت فما الماء المصفق	حاكياً فيها أماره

وذكـت فـما تـركـت لمـسـ ـلك قـيمـة إلا اشـتـهـاره
فـلعـل من سـلبـوا عميـ ـدهـم بـلا مهـل قـراره
لم يـأل جـهـداً بعـد فقـ ـد الـربـع أن يسلوا ادكـاره
حتى انتحـاه البـرق ينـ ـفض بـعـد إغـفـاء إزاره
فـشجـى الخـليّ من الهـوى وفـؤاد مـن يهـوى إطـاره
لـله لـيـلات مـضـت أدنـت بمـن أهـوى مـزاره
فـنعـمـت مـنـه بـوقـفـة في روضـة كـملت نـضـاره
ظـبـى أجـاع وشـاحـه وأهـاض من شبـع سـواره

. . . . إلى آخرها.

ويكثر في شعرهم الغزلي الرقة والعذوبة وقد قامت عليه أسماء كبيرة من شعراء هذا العصر سنعرض لها عند حديثنا عنها، ومن لطيف ما وقفت عليـه قول الشاعر محمد بن علي حفظ الله النعمي المتوفى سنة ١٠٧٩ هـ وهو يحدثنا عن زورة الحبيب المختلسة:

سمحت بوصل المستهام العاشق هيفـاء خصت بـالجمـال الفـائق
بيضـاء صـامتـة الموشـح طفلة تـزري القضيب بلين قـدٍّ بـاسق
من بعد ما شحت بطيب وصالها نحـوي ولم تسمح بطيف طارق
وافت وثوب الليل أسـود حالـك في جسم عـاشقها وزي السـارق
بـاتت ذوائبها الحسـان قـلائـدي ومـوسـدي نعم الـذراع الرامق
تشكـو الجوى وتبث سر غـرامنـا في غفلة الـرقبـا ونـوم الرامق
لله من وصل هنالك نلته في جنح ليل غيهبي غاسق
في لـيلة ظـلما كـأن نجـومهـا في لـج بحـر أوثقت بـوثـائق
من شـادن غنـج أغن مهفهف أحوى العيون بديع صنع الخالق
مـلك الـفـؤاد بـدلـه ودلالـه فجـوانحي كجنـاح طـير خـافق
تـالله لا أنـسـاه ليـلة قـال لي لا تـنس مـني محض ود صـادق
وأسـأل فؤادك عن فـؤادي إنـه ينبيـك عـما جن قلب الـوامق[1]

ويحدد الأديب محمد بن حسين المرهبي المتوفى سنة ١١٦٣ ما يباح للمحب من حبيبه فيقول:[١]

مـا للمحب من الحبيب بـزورة — في شـرع عذر غـير ضم المعطف
ولـه إذا عبث الهـوى بفـؤاده — عض الخدود وقطف ما لم يقطف
فـإذا تـفـاقـم داؤه وتـلهبـت — أحشـاؤه فله ارتشـاف المـرشف
وروى شـذوذ أن قوماً رخصـوا — للعاشق الكلف المشوق المدنف
نـزع الإزار عن الحبيب تـلذذا — فيـا هناك من السفـوح وفى وفي
ويـرده نص الـشيـوخ بـأنـه — من مفسدات هوى الغزال الأهيف

وعن ديار الحب ومنازله يقول الأديب علي بن إسماعيل بن المتوكل المتوفى سنة ١٢٣٠:

عن حلول الحمى وعن سكـانـه — وعن المستـطاب من أوطـانـه
حـدثـاني وقيتـما مـا يـلاقـي — ذو الهـوى والغرام من أشجـانـه
خبِّـراني عن صحـة وعـيـان — منـه عن روضـه وعن أفنـانـه
وعـن الحيّ مـن ديـار المصـلى — والغـزال اللعـوب من غـزلانـه
يـا لـه الله مـربـع ومقيـل — لا تسـل عن مقيـله ومكـانـه
كم تخـطت بـه منعَّمـة الخـد — بقـد كـالغصن في مَيَـلانـه[٢]

ولهم في شعر الغزل فنون عجيبة فهذا الأديب يوسف بن إبراهيم الأمير المتوفى سنة ١٢٤٤ يحدثنا عن سلوه من الحب فيقول: ـ

من لي برد الأرق — لـلطرف والتشـوق
لقلبي المُعرِض — وقع سهام الحَدَق
قد كان مأوىً للسهام (م) والـضـنى والحـرق
كان يحب الحسن طبعاً (م) لـيس بـالتـخلق
يهوى الجمال ويهيم (م) بـالـرشـا المقـرطق

(١) انظرها في خلاصة الأثر ج٤ ص ٥٨.
(٢) نيل الوطر ج٢ ص ١٢٦.

فاليوم لا يشوقه ذكرى غزال الأبـرق
ولا يميـل جـانبـا لحب خشف أفـرق

ولا يخـاف سطوة المـليـح حـالي المـلق
قد عاد لا يعبأ بالأ هيف ذي الخد النقي
لو رامه لحظ الرشا بـسهـمـه المفـوّق
تكسر السهم وعـاد السهم منـه يتقـي

.... إلى آخره.. ويكثر من مثل هذا في شعرهم الغزلي ولا شك أنهم تأثروا فيه بمن سبقهم وأبدعوا كما أبدع أولئك.

* * *

وعرف هذا العصر شيئاً من الغزل الغلمـاني، وكان مجـدد هذا الفن في الأدب اليمني خلال هذه المرحلة الأديب إبراهيم بن صالح الهندي المتوفى سنة ١١٠١ إذ كان صاحب مدرسة فيه، وقد قام أغلب شعره عليه ولعلنا سنعود إلى شيء منه عند حديثنا عن بعض أعلام هذا الشعر.

وكان كثيراً من هذا الشعر قد جاء مرادفاً لشعر الخمريات، وما يـلازم ذلك من التغزل بالساقي ووصف محاسنه كما هو الحال عند أبي نواس وغيره.

* شعر الطبيعة

وقد صاحب شعر الغزل عندهم شعرهم في الـرياض ومجـالس الشراب فجاءت أشعارهم في هذه المواضع أجناساً متقاربة متشابهة لا تكاد تفصل بعضها عن بعض... بل نجد منهم من جمـع بين هـذه الأنماط في قصيـدة واحدة، فالأديب يوسف بن الحسين صاحب (نسمة السحر) يجمع في مقطوعة واحدة بين وصف الخمر والطبيعة والغزل فيقول:

جس نبض الأوتـار في الأسحـار واجـل لي كاعباً عروس العقـار

هـاتها في الكئوس حمـراء صـرفاً   قـد كساهـا المزاج ثـوب اصفرار
قد جرى جدول الصباح إلى الأفـ   ـقِ ليسقي أقــاح تـلك الدراري
شاخ شخص الظلام حتى تبـدى   في وحي عـارضيـه شيب النهــار
مـا ترى في الشـروق جـذوة نـار   ذوّبـتهــا الـنجــوم بــالأنــوار
وسجـود الغصـون في قبلة الـرو   ض يـنبـي مـؤذن الأسـحــار
فـأقم للسـرور في مشهــد الأنـ   ـس صلاة التسبيح بــالأوتــار
فـنـديـمي بـدرٌ وإلا فـشـمس   طـلعــت في مـنــازل الأزرار
وضممنا غصن الوصال وقلب الـ   بعـد من فيح قلبه في انكـسار
في مقـام كـأنمـا النـرجس الغض م   بــه أعــين بــلا أشــفــار
ورءوس الــزهــور مهــما تبـدت   قــطعـتـهــا خــنــاجــر الأنهار

فهذا مثال واحد على الوحدة بين تلك الاتجاهات الشعرية عند أدبائنا.

وكان الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ هـ يقحم غزله بروضياته في كل ما كتبه حتى لا تكاد تخلو قصيدة من ذلك انظر إليه مثلاً في هذه يقول:

رقت لقلب الصب ذات الوشاح   وأنعمت بـالوصـل عند الصبـاح
رشيقــة كــالغصــن أعــطافهــا   تهــتز إن هــب نسيم الــريــاح
في روضــة نســرينهــا مـشــرق   يشبـه إشـراق الخـدود الصباح
والـنـرجس الغض بـه غـيــرة   تــرنــو إلـينـا بـعيـون وقــاح

. . . . . إلى آخرها.

وكان لبيئة صنعاء وضواحيها الساحرة، أثر في ازدهار شعر الطبيعة والروضيات، وقد حفت حول تلك البلدة جنائن خضراء وبساتين زاهرة، تذكرنا بتلك التي صورها الشعر في حدائق دمشق وغوطتها. . . وكانت لأدباء اليمن جولات حول صنعاء وضواحيها، وقد تفتقت قرائحهم في وصفها عن شعر جيد، أوردنا بعضه عند حديثنا عن شعر المدن.

وقد أتى شعرهم وليد تلك الحدائق الساحرة، فوصفوا فيه جمال الطبيعة ورقرقة النسيم، وإنسكاب الجداول وتمايل الأغصان، إلى غير ذلك مما يكثر ذكره في هذا الشعر.

وكان أشهر من برز فيه من الشعراء فئة أولاد الأعيان، وهم غالباً من صنعاء، حيث كانت لهم نُزَهٌ ومتع يخرجون فيها إلى الرياض لاستقبال الربيع والترحيب به... وهذا الأديب علي بن أحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٢٢٠ يشيد بجمال المدينة صنعاء فيقول:

وبـاربـع الـدنيـا وضـاه نـزهـة   في غـرب صنعـا للجنـان تمثُّـل
نسج الـربيـع لهـا مطارق سندس   مخـدومـة في مثلهـا لا يـرفـل
يختـال فيهـا كـل أغيـد نـاعـم   في حسنـه لـلعنـدليـب تـغـزل
تخشى عليه السحب من عين الغزالة مقصدي   شمس الضحى لا العيطل
فتمـد حـاشيـة السجـاف وإنمـا   ترخي الستور على الحسان وتسدل

ولهم في استقبال الربيع والترحيب به مقاطع جميلة... فهذا الأديب أحمد ابن الحسين بن حميد الدين بن المطهر المتوفى سنة ١٠٧٢ هـ يكتب في هذا الموضوع فيقول:

قدم الـربيـع وخير مقـدمٍ   والـغيـث أنجـم ثـم أثـجـم
والجـو يـنشر مـطرفـاً   لـك فاتني اللون معـلم
والـسحـب أطنب في   رياض سـاحتنـا وخيـم
والـروض نمقـه الـغـما   م بـحسن صنعتـه وتمم

ويقول يوسف بن علي بن الهادي المتوفى سنة ١١١٥ هـ:

فـلق الأمـاني قـد تـبلج   وشـذى المسرة قـد تـأرج
والـدهـر قـد وهب الحبور   وهبَّ روح رضـاه سجسج
وأتى الـربيـع يجـر فضـ   ـل مروطة. لمـاً تـبـرج

فتزخرفت لقدومه الد ... نيا فما أبهى وأبهج

وقال إسماعيل فايع:

عاد الربيع إلى أوان شبابه ... وافتر ثغر حبابه لربابه
لما حكى حقق الغمام تضاحكت ... زهرات روض القصر من إعجابه

وكما وجدناهم قد استبشروا بقدوم الربيع نجدهم أيضاً قد أبدعوا في وصف الرياض وما تحويه من زهور وأشجار وهذا الأديب حسن بن أحمد الفسيل المتوفى سنة ١١٨٥ يقول:

أنا في روض الهنا النضر ... لم أفارق نزهة النظر
خامل بين الخمائل في ... فيِّ ظل الضال والسمر
وبروق السحب قد لمعت ... والحيا يبكي بمنهمر
وكأن السحب مرضعة ... فيه طفل النبت بالمطر
وثغور الروض قد ضحكت ... عن شنيب الأجم الزهر
وغصون البان قد لبست ... حُلَلاً من ناضر الزهر
وخدود الورد قد خجلت ... من عيون النرجس النضر
وقوام الآس من هيف ... ماس في أوراقه الخضر
وسواقي النهر جارية ... صار منه الغصن في سكر
فكأن الروض غانية ... ذات أحجال من النهر
وسقيط الطّل نظّم في ... جيدها عقداً من الدرر
وإذا غنت حمائمه ... حركت عوداً بلا وتر

ويكتب الأديب زيد بن يحيى المتوفى سنة ١١٠٤ إلى أخيه يوسف بن يحيى صاحب نسمة السحر هذه القصيدة يستدعيه فيها إلى نزهة فيقول:

قم قد ألمت صبا الأبكار ... واكتسى الأفق حلة الأنوار
واجتلى جيده قلادة تبر ... من سنا الشمس بعد در الدار

دب جمـر الصباح في فحمـة الليـ ـل فطارت نـجـومـه كـالشـرار
خال شمس الضحى عروساً فأضحى ينفض الشهـب قبلهـا كـالنـثـار
وانجلى الزهر في الرياض فقلنا تقلت نحوها النجـوم السـواري
فـأجـبـني إلى ريـاض زواه قـد دعـتـنـا بـألسـن الأطـيـار
وكـفـتـنـا عـن مـزهـر ورباب بـغـنـا عـنـدليـبـهـا والهـزار
فـرشـت تحتنـا النبـات وأرخت خـيـماً فـوقنـا مـن الأشـجـار
شجـر كـالحسـان أوراقهـا اللبس(م) وفي جـيـدهـا حـلى الأزهـار
وسـل النسـيم فيهـا مـن النهـر حسـامـاً لقـطع محـل الـديـار
فـاز من بـات في الـربيـع وأضحى يـلـتـهـي بـالجـنـان والأنـوار
يعقـد الأنس فـوق بعض السواقي تحت ظـل الغصـون ذات الثّمـار
بـين ورد ونـرجس وأقـاح وشـقـيـق وسـوسـن وبهـار
يحتـوي فضـة من النـرجس الغض ويحـظى مـن ورده بـالـنـظار
إن ذوى نـرجس وورد بـكـاه لا عـلى درهـم ولا ديـنـار[1]

. . . . . إلى آخرها. قلت وأكثر شعر هـذا الأديب في وصف الربيـع .
ويكثر في شعرهم وصف الأزهار والورود، فيقول أحدهم وهو الأديب محسن ابن المتوكل إسماعيل المتوفى سنة ١١٢٤ هـ.

كـأن الـزنبق المخضـل في أفـنـانـه الخضر
أنـامـل غـادة حمـلت بهـا كـأسـاً من الخمـر
ونـرجسنـا الأنيق حكى عـشيّـة بُـلّ بـالـقـطر
صحـافـاً من لجـين وسـ ـطهـا لَمْـعٌ من الـتـبـر
وأمـا الـورد في تـشـبيـ ـهه قد حرت في أمـري
فـأكـثـر مـا أمـثّـله بخـدّ الكـاعب البكـر

ويضع الأديب محسن بن عبد الكريم المتوفى سنة ١٢٦٦ مقارنة عجيبة بين

(١) نشر العرف ج١ ص ٧٠٢ وفي نسمة «السحر» «خ».

وصف الأزهار وحالة الحبيب فيقول: ـ

افهم وقيت مدارك اللبس ... شكر الرياض بألسن خرس
هذي الأقاح قد بَسَمْن لنا ... عن ثغر الناعم اللمس
والرند أدهشه الجلال فلا ... ينفك فيها ناكس الرأس
والنرجس الزاهي له نظر ... نحو السماء بأعين نعس
والورد في نعم الإله له ... خجل فذاك بثوبه مكسي
وأصابع المنثور رافعة ... تدعو بأول آية الكرسي

* شعر الحَمام

ومما يتفرع عن شعر الغَزل الحديث عن الحمام وما تبثّه من شجون في نفس العاشق. ولها في الأدب العربي حديث طويل، حتى أفردها في عصرنا هذا الأديب يوسف بن الهادي الكوكباني، في مؤلف مستقل أسماه (طوق الصادح)[1].

وفي الأدب اليمني يكثر الحديث عنها لنفس الأسباب التي تحدَّث عنها من سبقهم، فهي دائماً مصدر بعث الحب والهموم في نفس العاشق، وقد توهموا في سجوعها التشكي من الفراق والبين، يقول الحسين بن القاسم بن محمد:

شجت مهجتي فوق الغصون البلابل ... وقد سَتَرتها في الأصيل الخمايل
وحركت الوجد الذي ظل في الحشى ... وقامت عليه بالدّموع الدلايل
وظلت من الأوراق تملي غرامها ... فما بينها يوماً وبيني تماثل
وأذكرت المضني أحبته الأولى ... حمتهم سيوف في الحمى وذوابل[2]

وفي هذا يقول علي بن صالح بن أبي الرجال:

ولقد أقول وقد تغنت بالحمى ... ورقاء ذات صبابة وولوع

(١) انظر ما كتبناه عنه في كتابنا (دراسات في التراث) اليمني ص ٨٥ ـ ٩٤.
(٢) طيب السمر «خ»

والعـود في يـدهـا يميـل وإلفهـا ... يختـال بـين خمـايـل وفـروع
والعين قد سفحت وهاج لها البكا ... تـذكـارهـا لأحـبـة وربـوع
أحمـامـة الأيـك التي قـد هيجت ... شجـو الكئيب بـأنّـة وسجـوع
مهلا فنفضك للسوالف في الفضا ... أذكى غضى الأشجان بين ضلوعي(١)

ويقول جعفر بن مظهر الجرموزي:

يا صاحبي حمامة الـوادي ... أهـاجـت لي غـرامـا
غَنّت فـغَنَّـت مـغـرمـاً ... فيهم وهى جسـماً وهـاما
قـلنـا سـلامـاً تـبـتـغـي ... فـي سجعها قالت سلاما(٢)

ويقول الزنمة:

وحمـام عـلى الغصـون تغنّي ... ذكرتني بطيب مـاضَي لقاكـا
هي تشكي على الغصون فنوناً ... من هـواها فكلنـا نتشاكى(٣)

على أن كثيراً من الأدباء رأى أن الحمام لا يعشق، ولا يمكن له أن يعرف الغرام، وقد اكتشف هذه الحقيقة أديبنا العنسي فقال مؤنباً:

يـا ربـة الصـوت المثـير شجـوني ... إيـه فذا الصـوت الـذي يصيبيني
طـوقت عنقك والبنـان خضبتهـا ... وزعمت أنـك في الجـوى تحكيني
بـالله كفي عن محالـك واقصري ... ودعي الجـوى لفؤادي المخـزون
لم تـألـفي إلـفـاً ولم تتشـوقي ... أرضـاً ولم تبكي لفقـد ظعـين(٤)؟

وكيف يصح لها البكاء وقد طوقت عنقاً وخضبت بناناً ورتـع من حولها إلفهـا. كل ما في الأمر أنها أثارت شجون صاحبنا ولوعته.

ومثل رأي العنسي قول الأديب الحسين بن عبد القادر بن الناصر المتوفى سنة ١١١٢ الذي يقول:

---

(١) ديوانه (خ).
(٢) نفحة ج٣ ص ٤٠٣.
(٣) ديوانه (خ).
(٤) ديوانه (خ).

يا قوم لـو كان للورقا شجون شـج — مـا صفقت من سـرور طلعـة الفلق
لــو أنها فقـدت إلفــاً لَمَــا خَضَبَتْ — كفّاً ولا جعلت طـوقــاً عـلى العنق
ولم تحــرك لهــا عــوداً وتنشــد من — ألحـان إسحـاق أصـواتـاً عـلى نسق
وهي التي دمعهـا مـا زال منحبســاً — والصب من صب دمع العين في غرق
وحـسـبـهــا أنها بــاتت مـعــانـقـة — غصنــاً وبت لغصني غـير معتنق[1]

ويكثر الحديث عن الحمام والحب في الأدب العربي، وقد لاحظ هذه الكثرة أديبنا أحمد بن محمد الحيمي فقال في (كتابه سلافة العاصر): «أكثر المتقـدمين والمتـأخرين من النـظم في الحمايم وخـطابها ومحـاججتها في أسبـاب النـوح، ومطارحتها على فروع الدوح، وأتوا بمعـان في ذلك تخلب لب اللبيب وتجلب السرور للأديب، وذلك كإقامتهم الدليـل على مـا يدعـونه من الهـوى المبرح واستدلالهم على سلوها وخلوها من علائق الأسف الذي لم يظهر عليها منه سوى النوح على الغصون. . . فقد تصرفوا في تلك المعاني على حسب الداعي لهم وقت النظم على حكم ما ينتحيه اقتضاء المقام، وأجروا فيه سوابق الأفكار التي لم يعلق بمن تبعهم في ميـدانها سوى الغبـار، ولم يحط اللكن عندهـا فيه بتـوالي العثار»[2].

وقليل من الأدباء من تحدث عن الحمام لذاته، لا لما يبعثه من شجن، ومن هؤلاء القلة في الأدب اليمني، علي بن صالح بن أبي الرجال، الذي يصف لنا زوج حمام فيقول:

سوالفه كزهر الـروض حسناً — وعـيـنــاه عـقـيـق إرجــوان
يغــازل إلفـه في كــل حـين — مغــازلــة الأحبـة للغــواني
وفي أدواحـه إسحـاق يشـدو — بـأصوات المثـالث والمثاني[3]

(١) نشر العرف ج١ ص ٥٦٥.
(٢) سلافة العاصر «خ».
(٣) ديوانه «خ».

* الخمريات

جاء شعر الخمر في الأدب اليمني مرادفاً لشعرهم في الغزل والطبيعة، وهو موضوع يكون ملازماً لهما في الغالب إذ لا بد أن يشير الشاعر وهو يتحدث عن الحبيب وجمال الطبيعة إلى الكأس والخمر، إذا كان هناك خمر، وغدت هذه عادة متبعة عند كثير منهم، سواء احتسوها أم لم يحتسوها، وفي الغالب أنَّ كثيراً منهم وصفوها وهم لم يعرفوها أصلاً، وإنما كانوا تبعاً لمن سبقهم من شعراء العربية.

ولعلك ستظفر بالكثير من وصف الخمر وحالة الساقي والسقاة في شعر أدباء صنعاء خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

وقد اقترن وصف الخمر عند بعضهم بالثورة على الشعر القديم، والخروج على تقاليده كما هو الحال عند الأديب أحمد بن يوسف بن الحسين المتوفى سنة ١١١٥ هـ الذي يقول:

دع عنك ذكر المعاهد الدُّرس ... ووصف ذات النطاق والجَرَس
واعكف على شرب بنت دسكرة ... تخالها في الدجى سنا قبس
تغسل قلبي من الهموم كما ... تغسل بالماء الثياب من دنس
بصاحب حلوة فكاهته ... في غمرات المجون منغمس
من كف ظبي مقرطق غنج ... مهذب الخلق لين شرس
يجله الحسن إن أشبهه ... أوابد من سواكن الكنس
حتى إذا صرعته سورتها ... وأسلمت نطقه إلى الخرس
قضى مشوق بحبه أرباً ... وكان صيداً بكف مفترس
ولست أعني بذلك فاحشة ... سوى اعتناق وضم مختلس[1]

فهذا هو الأنموذج المعتاد في خمرياتهم حيث توصف الخمرة بأنها جالية الهموم، ثم يتبعها حديث الساقي ووصفه بالحسن والجمال فيجرهم هذا إلى الغزل بالمذكر إذا كان الساقي من الولدان، ووصفه بما شاء الشاعر من مفاتن

(١) سفينة اسحاق «خ».

ومحاسن وهي عادة مسلوكة منذ زمن أبي نواس إلى ما بعده.

ولهم طرق أخرى مسلوكة في خمرياتهم وربما جعلوا من الحديث عنها مدخلاً إلى الخمر ووصفه، فهذا الشاعر أحمد بن يوسف السابق الذكر، يضيق بأهل عصره فيفر منهم إلى الخمر يقول:

لم أبـك رسـماً عفت معـالمـه ... ولم أقـل قط مـدحـة كـذبـا
ولـم أفـه بـالهجـاء في نـفـر ... قـطعـت بيني وبينهم سـببـا
لا خـيـفـة مـنهـم ولا حصَرٌ ... بـل عن هجـاهم تـرفعـاً وإبـا
فلو لهم ريـح منـطقي عصفت ... يـومـاً لـطاروا بهـا الجميـع هبا
وإنمـا صـرت نـاعـتـاً أبَـداً ... مـدامـة لـذة لمـن شـربـا
مشمـولـة في الإنـاء ساطعـة ... تخـال منهـا بكـاسهـا لهبـا
يتيمـة صـانها الـزمـان وربـا ... هـا وأضـحـى أمّـاً لهـا وأبـا
بكـر عجـوز قـد عمّـرت حقبـاً ... وقـوبلت في إكتهـالهـا بصبـا
يـلحقـهـا والـظلام مـعـتـكـر ... بـالماء حـرق فتنتج الـطربـا
سـاق غـريـر عـلى الندامى لـه ... وجـه غدا بـالجمـال منتقبـا
إن شئت أسفكتـهـا لـواحـظه ... صرفاً وإن شئت عَلَّهـا ضربـا(١)

فالشاعر هنا قد ضاق ذرعاً بأساليب أهل عصره في الإكثار من شعر المدح ووصف الرسوم والهجاء والرثاء فحاول الخروج عن قاعدتهم، ليصف الخمر ويمدحها كما مدحوا رؤساءهم، وكأن هذا عنده هو عين التجديد والابتكار.

وفي الواقع إن هذه النغمة تتردد في شعر كثير من أهل ذلك العصر، حيث يرتبط عندهم وصف الخمر بالتجديد فهذا الشاعر عبدالله بن أحمد بن إسحاق (المتوفى في القرن الثاني عشر) يقول في أول قصيدة له:

مـاذا يفيدك نـدب الأربـع الـدُّرس ... وشـرح سالف عيش بـالعذيب نسي
فشنف السمـع من ذكـرى معتقـة ... جلوتهـا كشمـوس في دجى الغلس

---

(١) المصدر السابق.

مدامة صح عندي من تقادمها إن عتقوها وما في الكون من أنس
قد مزقت جيش همي بعد أن هزمت جيش الظلام بنور لاح كالقبس
من كف غان لنا من كفه سكر وضعف ذلك من أجفانه النعس

فهنا تتشابه الصور وتتكرر المعاني. . . . ومع ذلك فإن شعرهم قد قل في الخمريات حيث نجد للبيئة الدينية المحافظة أثراً في ندرة شعر الخمر وأنت تتصفح إنتاج كبار شعراء ذلك العصر فلا تكاد تقف على شيء من ذلك.

وما نظفر به سوى بعض المقطعات القصيرة. . . تتناثر هنا وهناك في بطون الكتب، وهذا هو الأديب أحمد بن الحسين بن يحيى. . . يقول في قطعة صغيرة إنه جعل العقل مهراً لنشوة الخمر:

زوج الماء بالمدام لنشهد عقدها يا نديم كالأبكار
قد جعلنا العقول مهراً وهذا حبب الكأس فوقها كالنثار

* الرثاء

وشعر الرثاء له نصيبه الوافي في إنتاج هذه الفترة وهو وإن قل في شعر المجيدين منهم فقد كثر في شعر العلماء والفقهاء. . . وقد صدر في كثير من الأحيان عن صدق ووفاء بعيدين عن التكلف والمجاملة.

وقد رأينا من هؤلاء الشعراء من رثا زوجته وبعض أقاربه، فهذا الأديب العلامة محمد بن أحمد مشحم المتوفى سنة ١١٨١ هـ يرثي زوجته بقصيدة فريدة يقول فيها:

يا خل كيف قوامه الرطب وكيف الشنب البارد العذب
كيف المحَيَّا كيف رونقه هل ضره هل شانه الترب
كيف العيون النجل هل بقيت حسناً على ما يعهد الصب
كيف الخدود وكيف بهجتها هل هن روض من جاده السحب
كيف الثنايا في تناسقها أم كيف لؤلؤ عقدها الرَّطْب

إلى أن يقول:

يـا قبـره بـرّاً لمضجعـه وبجنبـه يـا حبـذا الجنب
وافسح له بوركت من جدث وسقـاك ذابـل عفـوه الـرب
فلقـد خبأنـا فيـك جوهـرة عـزت وإن خبـاءهـا القلب
حـوريـة في الخـد طـاب لهـا مثـوى وراق لهـا بـه شـرب
رحلت فنـار الحـزن مسعـرة لم تـطفهـا من أدمـع السحب
حتى الكرى من بعد رحلتهـا بـين الجفـون وبينـه حـرب

. . . . إلى آخرها وهو رثاء صادر عن صدق حقيقي .

وفي الغالب إن رثاء الأقارب والأهل لا يأتي إلاَّ عن إحساس صادق، إذ دوافع المجاملة والمحاباة تكاد تختفي من هذا الشعر تماماً، وقد وجدنا من الشعراء في هذا العصر من رثا ابنته الصغيرة ومن رثا ابنه ومنهم من رثا أخاه وآخر رثا صديقه إلى غير ذلك .

فقال الأديب محسن بن عبد الكريم إسحاق المتوفى سنة ١٢٦٦ في رثـاء طفلته الصغرة:

كنت أخشى عليك يا قرة العين (م) مـن الـشـمس أو مـن الأنـواء
وأخـاف الأذى من النـاس إن (م) حـانت وفـاتي وأنت في الأحيـاء
عـجبـاً لـلفـؤاد لم يـتـصـدع حـين أنَّتْ من شـدة البـرحـاء
عجبـاً لي كيف استقـر فـؤادي من سمـاع الأنـين في أحشـائي
قـطفت زهـرتي التي هي أنسي وحيـاتي في بكـرتي ومسـائي
قـطفت بالممـات ريحـانـة القلب الـتي ريحـهـا دواء لـدائـي
وإذا مـا سمعت منـطقهـا الحلو وتـبـديـل دالهـا بـالـيـاء
فـكـأني سـمـعـت نـغـمـة داو دوَدَبَّ الـرحـيق في أعـضـائي
غـير أني أبث مـا بي من الحـزن(م) عـليـهـا إلى بـديـع الـسـماء

هذا هو الرثاء الصادق، وقد صدر من فؤاد أب مكلوم، وإلاَّ فكثير من رثائهم يدخل فيه التصنع والمحاباة للأحياء. . . وفي رثاء الأديب إسماعيل بن

عبدالله الطل الصعدي المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ لابنته نجد ما يشبه لوعة ابن إسحاق:

تبكي «المقامط» والمثابت والثدي لهميلة الطل القرينة للندى
ما قارنت حملاً لحتى قارنت نعشاً وحتى أوردوها الملحدا
ما واصلت أهلاً لحتى فارقت أحبابها مثل ابن داية والحدا
ما بين يوم وصالها وفراقها إلا كما شمت الوميض المبعدا
ولكم سقيط الطل في تحصيلها عاماً فعاماً قبل أن يتولدا
كم ليلة ظلماء يطلب فجرها متوكئاً بعصائه متجردا
كم في تطلبها سعى في ليلة ليلاً بقائم رمحه متقلدا
ولكم طوى فيها البساط مغرداً ولكم لها راج البسيطة منشدا
ولكم على رمل الغوير تسابقت أخفافه طوراً وطوراً منجدا
قد كنت أرجو خيرها مستبشراً بثمارها فإذا بها ذهبت سدى
لم يجر كاس لبانها في حلقها حتى جرى في إثره كأس الردا
من بطن أم قد بدت وتغيبت بطن الثرا فما عدا مما بدا
فكأنها برق تألّق بالحما ثم انطفى فكأنه ما ابتدا[1]

وهكذا نلمس في شعر الطل وغيره ممن كتبوا المراثي بحرقة ولوعة، روح الصدق والإخلاص، فهذه الطفلة البريئة التي قضت نحبها وما كادت تخرج من بطن أمها حتى توارت في بطن الثرى وقد سعى والدها في توفير العافية لها فلم يتم له ذلك.

وكان رثاء الأطفال الصغار قد أتى مصاحباً لرثاء الأقارب على وجه العموم وعندما يرثي الشقيق شقيقه، تكون اللوعة أكبر والحزن أشد، ذلك لأنه رثاء للعشرة والصداقة الوشيجة والصلة المتينة.

وقد رثا صاحب (نسمة السحر) أخاه الأديب زيد بن يحيى المتوفى سنة ١١٠٤ فقال:

---

(١) درر حور الحور العين «خ».

راحـــوا بنعشـــك والأمـــلاك تحمله لـو كوشفـوا لـرأوا جبريـل بـالبصر
رحلت عنـــا عـلى كـــره وليس لنـــا رجـا الإياب كـما يرجى أخـو السفر
أبكيتنـا بـدمـــوع كـالعقيق جـــرت لـــولاه قلت كـــما نَـــظَّمت من درر
لهفي لأطباق لحد فوقك انـطبقت لولا الذين أخبروا من قسوة الحجر[1]

إنها صدق اللوعة وبكاء الأخوة. . . .

على أن رثاء الأصـدقاء لبعضهم البعض يـأتي من ذلك النمط الشعـري الصادق وربّ أخ لك لم تلده أمك ، وقد حفل الشعر اليمني بكثـير من هذا الرثاء. وفي رثاء الأديب محمد بن الحسين المرهبي المتوفى سنة ١١١٣ هـ لصديقه علي بن مهدي النوعه المتوفى سنة ١١٠٨ شيء مما كنا نبحث عنه ففيه بكـاء للصداقة وتعديد للفضائل:

إن حـــزني عـلى جمـــال المعـــالي لعظيــم وزان ذاك الـعـــظيـــم
بَـرٌ بي الـدهر منـه خـــير ظهـير كنت أعـددتـه شحـاك الخصـوم
عـــالم بـالبيـــان والنحـــو والصر ف وفـــن المنـــثـــور والمنـــظوم
لا تقـــل فيـــه بحـــر علم ولكن قـــل جمـال الأنـــام بحـر العلوم
ما أنا بـالصاحب الصـديق إذا لم أرثـــه بـــالـتفـخيـم والتعـــظيم
مـــا بكـائي لضيق لحـــد حـــواه فهـــو في القبـــر في أجـــل النعيم
بل لفقدي تلك السجايا ومكثي بـعـــده في مـعـــرس لـلهـمـــوم
كنت أهـــوى تـــأخيـــره فكـــأني لـعـــلي لم أرض بـــالتـقـــديم[2]

وتبقى أمامنا تلك الصيغ التقليدية للرثاء الشعري في صوره المعتادة، وقد تضافر فيها جمال الأسلوب مع إتقان الفن. . . وكان على رأس شعراء العصر الذين رثوا معاصريهم الأديب علي بن محمد العنسي المتوفى سنة ١١٣٩ هـ فقد رثا عين عصره العَلاَّمة زيد بن محمد بن الحسن المتوفى سنة ١١٢٤ فقال :

دجـا الأفق لا شمس تنير ولا بـــدر وضـــاق فـلا بـــر رحيب ولا بحـــر

(١) نسمة السحر «خ».
(٢) نشر العرف ج٢ ص ٣٢٢.

ومـا حجب الليـل النهـار فينجلي ... وينجاب عن وجه الضحى للدجى ستر
ولكنـه غـاب «الضيـا» عن مكـانـه ... وقد طويت شمس الضحى ودنا الحشر(١)

ومن أساليبهم في شعرهم الـرثائي تكـذيب خبر الـوفاة لأول وهلة، ثم تصديقه كما هي عادة «المتنبي» يقول المرهبي:

نعـوه فماج النـاس إمـا مصـدق ... لمـا زعم النـاعي وإمـا مكـذب
وكنت أرى أن المكـذب محسـن ... لتسكـين قلبي والمصـدق مـذنب
فلما استبـان الأمـر أيقنت أنـني ... غلبت على الكنز الذي كنت أطلب(٢)

ثم تصويرهم لانسكـاب الدمـع وحلول الحزن... يقـول إسماعيـل ابن محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١١٦٤:

مصـاب بـه غـرب المـدامـع محلول ... وبيت الهنا في القلب بالحـزن محلول
وخـطب لـديـه الصبـر عَـزَّ وإنما ... على عصمة التقـوى رجوع وتعـويل

وها هم الناس وقد أصابهم الهلع لهول الخطب بوفاة تلميذ المتوفى:

وزاد التهاب الخطب في الناس شدة ... بتلميـذه إذ كـان في الأمـر تعجيـل
تـلاه فمـاج الخلق من فـزع بـه ... وأفجع حتى ضاق بـالأسد الغيـل(٣)

وربما كان المصاب برزء الخطب قد تعدى بلـد المتوفى إلى سائر الأقطار... إذا كان صاحب علم وذكر جميل... يقول العنسي:

لئن صـدمت صنعـا عليـه مصيبـة ... تضعضع منها السور وانصدع القصر
فيـا طـالمـا طـالت بعليـاه وارتقت ... مـلاًّ لنسر الشهب من دونـه وكـر
ومـا بـالهـا لا تلبس الفخـر معلما ... ومن أجله في كـل قـطر لهـا ذكـر
أمـا شق أحشـاء العـراقـين علمـه ... وشَنَّف سمع الروم ما حفظت مصر
وأملا خراسـان «المجاز»(٤) مـطارحاً ... عـلى مـا وراء النهـر فـارتقص النهـر

(١) ديوانه «خ».
(٢) نشر العرف ج٢ ص ٥٩.
(٣) نشر العرف ج ١ص ٨٤.
(٤) المجاز كتاب من تأليف المرثي وهو العلامة زيد بن محمد السابق ذكره.

وفي هذا المعنى يقول المرهبي في رثاء شيخه عبد العزيز المفتي:

ومـا رزىء القـطر اليمـاني وحـده ولكن رزىء شام وشـرق ومغـرب

وفي حديثهم عن المصاب يأتي الحديث عن فضائل المتوفى ومناقبه. يقول إسماعيل ابن محمد بن إسحاق في مرثاته السابقة:

ومن كـان للعلياء والمجد آيـة لها بلسان الفضـل درس وترتيـل
ومن هـو في صدر المجـالس زينة فـما يرتجى إذ شـأنها منه تعـطيل

ويشيد العنسي بعلم صاحبه في النحو والبلاغة فيقول:

أرى النحـو يـا طـلاّبـه عَزَّ نيله فمـطلبه والله بعـد الضيـا وعـر
أينقـاد مضـروبـاً إليكم مثـالـه ألاَ بعد زيد لا يلين لكم عمـرو

ويجرهم الحديث عن الموت والوفاة إلى فلسفة الاستسلام لأمر الموت فيقول إسماعيل بن محمد السابق الذكر:

فصبـراً وإن جل المصـاب فللفنا خلقنـا ومـا في سنـة الله تحـويـل

بل يدعو العنسي إلى عدم جدوى الحياة بعد موت فقيده وأن موت الناس يكون بموت صاحبه بل يستغرب شروق الشمس وطلوع القمر:

أمن بعد زيد يـطلع الشرق شمسـه وتشـرق أقمـار ويسـري بهـا سفـر
عجبت لإسـرافيـل مـاذا يصـده عن الصور قدمات الورى وانقضى الأمر

وتلك أمثلة يسيرة من طرقهم في الرثاء ولو أردنا زيادة في الاستقصاء لأتى البحث موسعاً.

* الوصف

يعتبر الوصف مادة لكثير من الإنتاج الشعري على مختلف موضوعاته.. ولكننا سنطلق الوصف هنا على ما كان وصفاً للأشياء وهو يكثر في مقطعاتهم القصيرة... وقد يختلط عندهم أحياناً بالتشبيه، فهذا الأديب أحمد بن الحسين ابن يحيى يصف المنثور فيقول:

منثورنا الأصفر حفَّت به حاشية من أحمر في نسق
كأنه ثوب أصيل وقد طرزه الغرب بلون الشفق

ويكثر في شعرهم وصف الورد والأزهار، خاصة في أشعارهم الروضية والربيعية، من ذلك قول الأديب الحسين بن عبد القادر المتوفى سنة ١١١٢ وفي تشبيه الورد:

أقول مذ شَبّه الورد الأنام وما وفت تشابيههم في ذاك بالأرب
كأن حمرته من حول صفرته نار يخلص فيها معدن الذهب

ويقول الأديب أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١ :

حمرة الورد فوقها صفرة منه حكتها في الانتقاع الرحيق
كالجراح الطري ذر عليه من قشور الرمان شيء سحيق

وأكثروا أيضاً من وصف القهوة وتشبيهها، وذلك بعد أن كثر استعمالها في مجالسهم، يقول الأديب المهدي بن يحيى المسوري الثلائي (من شعراء طيب السمر):

هات لي قهوة من القشر فاقت قهوة من كروم روضك تعصر
وأدرها كما تدور مدام ثغرها بالحباب كالدر يفتر
عن سواد في أبيض العين تجلى فوق مزج من الغضارة أخضر

وشبهوها وفوقها المصطكى وقد طفا حولها، فقال الأديب محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١١٦٧ :

كأنما الفنجان فيه المصطكي قد ذاب ثم سال فوق القهوة
بحر من العقيق مدت فوقه شباك تبر لاصطياد النشوة

وقال عبدالله بن إسحاق:

كأس الفناجين إذا اترَعت بقهوتنا وجلت مشربا
فصوص عقيق ترى المصطكي عليها حبوباً من الكهربا

وقال عبد الرحمن بن علي إسحاق المتوفى سنة ١١٨٧ :

دع الراح في الكاسات وادع بقهوة سلاسل تبر فوق خد مورد

ويصف الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ (فيلاً) وصل هدية إلى المهدي صاحب المواهب فيقول:

ويهنك الفيل الذي بعثت به شوس الملوك إلى المقام الأعظم
فيل يفل شبا العدو بهامه كالصخرة الصما بطود أسخم
فيمد خرطوماً إلى ما شاءه كالأفعوان بباب غار مظلم
يسطو به كالسيف عند قتاله فيقد قد الفارس المستلئم
ويمده كالبوق في حال الندى أو زند جاويش يسير بمعظم
آذانه الأتراس إلاَّ أنه علق الغبار بها بيوم أقتم
وعيونه صغر وليس يضرها صغر ولا كحلت كطرز أحوم
ويكاد ينطق غير أن لسانه قد قيل مقلوباً فلم يتكلم
وقوائم مثل الدعائم أثبتت في كل خف كالرحاء ومنسم
قد جللت بغليظ جلد أسود شعراته من فوقه كالأسهم
سبحان من أنشاه خلقاً هائلا ضخماً وذلّله لنفع الآدمي(١)

ففي هذه الأبيات تصوير كامل لملامح الفيل لم يغادر فيها الشاعر شيئاً إلاَّ وصوره بأسلوب وجيز محكم، ولكن أكثر شعرهم كان قد جاء في وصف الخيول، وقد ولعوا بمحاسنها والتغزل بجمالها. . وكانت اليمن في ذلك الوقت تحتوي على نخبة كبيرة من الخيول العربية الأصيلة. . وعندما شغف الإمام المهدي (صاحب المواهب) باقتناء مجموعة كبيرة منها، حَرَّض الشعراء على وصفها فكتبوا في ذلك العديد من القصائد الطويلة، وكان أشهر من برّز في ذلك شاعره الأديب أحمد بن أحمد الأنسي المعروف بالزنمة. . وقد احتوى ديوانه الكبير بجانب قصائده العديدة في وصف الخيل على أرجوزة كبيرة في المفاخرة بين ألوان الخيل أولها:

---

(١) ديوانه «خ».

تفاخرت صواهل الجياد في حضرة المولى الإمام الهادي

وفي قصيدة أخرى يقول في مدح الخيل:

مطهمة تجري بمضمار سبقها إلى مرتقاها في أعز مكان
فمالك يا مشغول عنها بغيرها تبدلت من عزٍّ بذل هوان
فكم بين من يرقى جواداً مطهما وبين فتى يأتي بشر أتان[1]

وكان الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ هـ واحداً ممن ولع بوصف الخيول ومدحها إرضاء لممدوحه المهدي صاحب المواهب يقول في بعضها:

إن الخيول الضمّر العوادي قد أقبلت في حلبة الطراد
عظيمة الأكفال والهوادي عمت جميع الحزن والوهاد
من كل بادي الفهدتين أشهب يلوح بين النقع مثل الكوكب

* * *

اكرم به من سابح مقرب يختال بين الضمر الجياد
تغار منه الشهب في السماء إذا غدا يوماً على الأعداء
يشق جيب النقع في البيداء كشق سيف البرق للغوادي
وأشقر قد حاز في الألوان لون العقيق الأحمر اليماني
تَخَاله إن جال في الميدان شرارة ترمى بها الأعادي
بغرة قد زانها التحجيل كأنها في وجهه قنديل
ما إن لها في حسها مثيل منيرة كالكوكب الوقاد

. . . . وله من قصيدة أخرى جعلها على أسلوب طرديات أبي نو س وغيره يقول:

وكل طرف سابق سعيد حافره أقسى من الحديد

---

(١) ديوانه «خ».

يطوي الفلا للمطلب السعيد طي الرياح الهوج للصعيد
بسرعة كالبرق حين يسري
كالأدهم (النور) سعيد الطلعه مطهم من سبج كالقلعه
قد لبس الليل البهيم خلعه وزاد فوق الصافنات رفعه
بغرة مثل هلال الشهر
لقد حكى بلونه سود الحدق فكل من سماه (نورا) قد صدق
أعيذه بالمرسلات والفلق من كل شر طارق إذا طَرق
وبالضحى أعيذه والعصر
وبالجواد الأشقر الكبير طرفاً غدا للخيل كالأمير
ثمرته تأتيك بالسرور وفعله يشفي لظى الصدور
إذا انبرى بين الظبا والسمر
وإن بدا في لونه الأنيق يختال مثل شارب الرحيق
أنساك لون الورد والشقيق وحمرة الياقوت والعقيق
بغرة تزري بنور البدر
بالأجرد العوام باليدين تحجيله باد لكل عين
فوق الثلاث مطلق اليمين بغرة بيضاء كاللُّجين
وجسمه في لونه كالتبر
إذا بدا يختال في الميدان أو في مجال الحرب والطعان
رأيت طوداً شامخ الأقران يغنيك عن رضوى وعن نهلان
ورأسه بين النجوم الزهر(١)

إلى آخر ما جاء في قصيدة ابن أبي الرجال التي تصف خيولاً معروفة في زمن الشاعر بجمالها وأصالتها.

ولابن أبي الرجال شعر كثير في وصف الخيل لعلنا سنعود إليه في ترجمتنا له... ويصف الأديب محمد بن زيد بن المتوكل إسماعيل المتوفى بعد سنة

(١) ديوان ابن أبي الرجال «خ».

١١٥٨ هـ حصانه «السعدان» بتلك الصور المعتادة في وصف الخيل، فهو يسابق الطير في سرعته، وتراه كالماء وهو منحدر إلى غير ذلك يقول:

إذا رأيت محياه وغرته ... وقت الصباح فما يرمى بمنتحس
يسابق الطير إلا أنه جبل ... ويجهد الريح إذ يمشي على نفس
عنانه بعنان الجو متصل ... فطبعه سلس في صورة الشرس
وجيده الأتلع السامي به جيد ... يغنيه عن حلي أقراط وعن جرس
تراه كالماء يجري وهو منحدر ... والنار كامنة فيه لمقتبس
كأن أذنيه أقلام محبرة ... أطرافهن سواد خط كاللّعس(١)

وقد بلغ الشغف بأدباء اليمن وغيرهم، في حب الخيل ومدحها، أن يشركوها في رسائلهم الإخوانية، ويطلقوا عليها الأسماء المحببة عندهم.

ومن الأدباء في ذلك الوقت من مال بشعره إلى وصف الأشياء المستغربة. ولما ظهر البندق في اليمن كان طرفة العصر.. فوصفه الأديب يحيى بن إبراهيم جحاف الحبوري المتوفى سنة ١١٧ هـ فقال:

له مشاف يحاكي سن غانية ... كأنه درة من أحسن الدرر
على فم تنفث النار التي كمنت ... في الجوف منه كمون النار في الحجر
ترى الدخان الذي يلقيه من فمه ... محلقاً راقياً في أعين الزمر
كالطوق دار على الوجه الوسيم وقد ... يريك ما دار حول الشمس والقمر
وبرمه تحفظ الجار القديم فكم ... من مقلة فوقها لم تخش من ضرر
ترى المقص عليها ساجداً أبداً ... لكنه من أمور المشركين بري
والسلس من حولها ما زال منتظماً ... كأنه القطر منهل من المطر
وقد حوى كل سلس إبرة سبكت ... من فضة فَغدت من أحسن الإبر
يدنيه من صدره الرامي ويلصقه ... بخدّه غير مستخف من البشر

ذلك وصف البندق في أول ظهوره ببلاد اليمن....

(١) نشر العرف ج٢ ص ٦٥٥.

وكثير من الشعراء من استعاد أسلوب البحتري وأضرابه من شعراء العصر العباسي في وصف الأشياء فوصفوا الأدوات المنزلية والحيوانات والحمامات وغيرها، مما يكثر وصفه في الشعر العربي فينظر هناك في تراجمهم وأشعارهم.

* البديع

كان البديع في اليمن بدعة الأدباء خلال القرن الحادي عشر وما بعده وغدا ولوعهم به ظاهرة تستلفت النظر، إذ لم يعرف عنهم هذا الاهتمام قبل هذه الفترة بذلك الشكل الكبير.

ومنذ ظهور كتاب (ريحانة الألِبَّا) للخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ في مصر والأدباء في اليمن يعجبون به ويتأثرون بأسلوبه وطريقة تأليفه... وعباراته المسجعة... وكان أول من تأثر به وبشر بطريقته الأديب أحمد بن الحسن بن حميد الدين المتوفى سنة ١٠٧٢ هـ في كتابه «ترويح المشوق وتلويح البروق» ثم جاء من تلاه من الأدباء.

وقد بَصَّرهم كتاب الخفاجي بأساليب المدرسة البديعية ومصادرها.. وأعلامها في مصر والشام حتى جاء الأديب أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١هـ، فكان صفدي اليمن بحق وحقيق فقد أعجب هذا الأديب بكتب الصفدي البديعية وقلده حتى في موضوعاتها فكتب على غرار كتبه في شروح القصائد الشهيرة وفي بعض البحوث البديعية المعروفة.

وتأثر على وجه الخصوص في مجاميعه الأدبية بطريقة الخفاجي في الريحانة ومن حذا حذوهم منذ الثعالبي في (اليتيمة) حتى المحبي في (نفحة الريحانة)، وكانت هذه الكتب بدعة القرن الحادي عشر وفي اليمن تلقاها الأدباء كفن جديد مستحدث.

حتى شكا من تفشي المدرسة البديعية وإغراقها في أسلوبها التصنيعي الأديب إبراهيم بن أحمد الحوثي المتوفى سنة ١٢٢١ هـ في كتابه (نفحات العنبر)... فقد لاحظ أنها لم تقتصر على فنها وهو الجانب الأدبي، وإنما تعدته إلى كتب

التاريخ على كثرة ما أُلِّف فيه، وقد أشرنا إلى نصه فيما سبق.

ويمكن أن نعتبر أغلب ما كتب أو نظم في الأدب اليمني قد أتى متأثراً من قريب أو من بعيد بالأسلوب البديعي ، ونادراً ما نجد أديباً واحداً لم يخض في غمار هذا الجانب.

وكان على رأس هذا الفن تلك البديعيات التي كتبت في مدح الرسول ﷺ وهي مجموعة كبيرة، لعل أول من كتب فيها في عصرنا هذا العلامة الحسن ابن أحمد الجلال المتوفى سنة ١٠٨٤ هـ في بديعته المسماة «بالسحر الحلال» أولها :

ماذا على الركب مما ذاع للآسي   بعد الطبيب الذي في طيبة الآسي

واشتهرت في هذا العصر بديعية الأديب الحسين بن عبدالقادر الكوكباني المتوفى سنة ١١١٢ هـ وقد شرحها الحيمي في مؤلف كبير بعنوان (سلافة العاصر في شرح بديعية الحسين بن عبد القادر).

وبديعية الأديب علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ هـ وهي في مدح المهدي صاحب المواهب وأولها :

حدائق حسن قد تبسم نَوْرها   وساعات وصل قد تبلج نورها

وبديعية مغمورة للأديب علي بن أحمد المعروف بالشتارة في مدح عامل ذمار سنة ١١٩٠ وأولها:

سقى منازل طيب العيش منسجم   من الملث ومن دمع العيون دم

وهذه البديعيات وغيرها قد حوت شتى أجناس البديع ودلت على مجاراة أهل اليمن لأدباء هذا الفن، وكان ممن سلك هذا النمط من النظم صفي الدين الحلي في بديعيته المشهورة التي أولها:

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم   واقرأ السلام على عرب بذي سلم

وقد حذا حذوها في اليمن خلال القرن الثامن الأديب وجيه الدين العلوي، ثم ابن المقري المتوفى سنة ٨٣٧ هـ وغيرهما.

أما في عصرنا هذا فقد نشط هذا الفن من الشعر وقد أتى أكثر بديعهم في المقطعات القصيرة والمعبرة بل وورد أيضاً في شعر كبار الأدباء أمثال الهبل والأنسي والزنمة وغيرهم .

وكان إعجابهم في هذا المجال أشد ما يكون بشعراء العصر المملوكي في مصر والشام وقد دل إنتاجهم في هذا المجال على أنهم قرأوا لجل أعلام هذا الفن في تلك البلدان ومن أشهرهم ابن نباته المتأخر، والصفدي، وابن الساعاتي، وابن منير، والقيسراني وغيرهم .

وكان أكثر تأثرهم من كل هؤلاء، بابن نباته المصري، وقد صرح بالثناء عليه كبيرهم في البديع الأديب الحيمي فقال في كتابه «سلافة العاصر» :(اعلم أن الشيخ جمال الدين، هو عندي إمام الأدب الذي ظلت خلفه البلغاء، وسلمت بالعجز عن بلوغ مرتبته الفصحاء، فإنك إذا تأملت نظمه وجدته مشحوناً باللطائف الأدبية والنكت البديعية، وأما التورية التي هي أصعب المسالك وأرفع رتبه وأجل فنونه، فإنه ابن بجدتها وفارس حلبتها، وعلى الجملة فما الأدب إلّا لفظ هو معناه ومشرب منه عرف عذبه وأهناه، وإن البلاغة والأدب ختمت بمحمد فإنه الحجة البالغة في البلاغة» .

وقد أعجب (بابن نباتة) أيضاً من شعراء العصر الأديب يوسف بن علي الهادي الكوكباني حتى أنه جمع من شعر (ابن نباته)ما فات جامع ديوانه، وألف على منوال كتابه (سجع المطوق) كتاب (الطوق الصادح) حتى قال عنه صديقه الحيمي السابق إنه كان يغير على أكثر معاني شعر (ابن نباتة)ويضمنها شعره حتى قال أحد معاصريه بعد أن رأى كتابه المشار إليه أنه عزم أن يؤلف كتاباً يسميه (كسر الروق في سرقات الطوق)[1] ، وكل هذا دل على أثر (ابن نباته) عندهم .

وكان إنتاج شعراء اليمن في هذا المجال مجاراة، لأولئك الأدباء، وقد ساعد على ذلك ليس الاطلاع وحده وإنما البيئة المحيطة بهم في مصر والحجاز والشام ومن يتأمل (سلافة العصر) لابن معصوم، (ونفحةالريحانة) للمحبي وغيرهما يجد

(١) الحيمي : سلافة العاصر «خ».

أن المجتمع الأدبي في البلاد العربية قاطبة قد أغرق بهذا الشعر البديع.

وكأمثله يسيرة على ما جاء في إنتاج أهل اليمن في هذا الشعر نقف على بعض من مقطعاتهم الشعرية في أغراض هذا الفن.

ففي التشبيه يقول الحسين بن عبدالقادر بن الناصر المتوفى سنة ١١١٢ هـ مشبّهاً الورد الأحمر.

أقول مذ شبه الورد الأنام وما   وفت تشابيههم في ذاك بالأرب
كأن حمرته من حول صفرته   نار تخلص فيها معدن الذهب

وقول الأديب أحمد بن محمد الحيمي في نفس المعنى:

حمرة الورد فوقها صفرة منه   حكتها في الانتقاع الرحيق
كالجراح الطري ذر عليه   من قشور الرمان شيء سحيق

وقول أحمد بن الحسين بن يحيى في المعنى السابق:

انظر إلى الورد وقد   أبدى لنا منه العجب
كاسات مرجان بها   لطيف زهر من ذهب

وفي الجناس وهو أحد أقسام البديع، وقد أفرده الصلاح الصفدي بمؤلف مستقل يقول الأديب الهبل:

لي مقلة قريحة لبعدكم   فيها لسحب أدمعي تراكم
ردوا عليها نومها تفضلا   لعلها في النوم أن (تراكم)

ويقول أحمد بن الحسن حميد الدين.

يا من أطار فؤادي   بسجعه والفواصل
إن كان ما قلت حقّاً   من حب وصلي «فواصل»

. . . . وفي الجناس المركب يقول الأديب المذكور:

قل لمن قد تناهى   في نأيه وصدوده

ما جل ناري إلاَّ من جلنار خدوده

وفي الاقتباس يقول أحمد بن الحسين الرقيحي:

صلوا عصبة من أهل الغرام «قليلا من الليل ما يهجعون»
إلام تمرون مستكبرين بليل به «سامراً تهجرون»

ويقول علي بن صالح بن أبي الرجال:

قالت لها جاراتها وقد خلون بالحما
هل نال منك بعضهم في وصله محرما
فأقسمت وابتسمت عن شنب يشفي الضما
بأنه ما هم بي مذ هام بي وإنما
«أنا الذي راودته عن نفسه فاستعصما»

وفي التورية وهو نوع كبير من هذا الفن أفرده الصفدي أيضاً بكتاب خاص يقول الرقيحي موريًا باسم حسن:

حَبَّذا في سفح صنعا شادن قد علا قدراً به قطر اليمن
يسلب الألباب طرّاً لحظة كلما أبدى محيَّاه الحسن

ويقول الهبل:

يا ساكني السفح منذ رحلتم دمع من بعدكم غزير
أسرتموني فأطلقوني ها أنا في حبكم «أسير»

... وإلى غير ذلك من المقطعات في فن البديع ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتابي (طيب السمر، ونسمة السحر) ففيهما الكثير منه.

* (الألغاز)

ومما يدخل في هذا المجال توسعهم في نظم الألغاز وهو فن عَدَّة صاحب خزانة الأدب[1] من الفنون البديعية، وكانت الألغاز الشعرية فاكهة المجالس

بين الأدباء . . . ففي مجلس أدبي ضم الأديبين الرقيحي ، وأحمد بن محمد الضبوي لَغَّز الأخير في اسم برط يقول : [(١)]

ما اسم لطود شامخ	في أرضنا أرض اليمن
وهو اسم لهو إن قلبت	حروفه يا ذا الفطن
طرفاه طير وهو إن	قلبوه للعلماء فَن
ويكون إن حرَّفته	وقلبته ثمر حسن

فيجيبه الرقيحي في الحال بقوله :

يا ذا الفخار والوقا	ر والصديق المؤتمن
وافيت بالمعنى الذي	على على قلب المحن
في برط وطرب	ورطب غالي الثمن
والبط والطب فهـ	ـذا جامع لكل فن [(٢)]

وللأديب الهبل لغز يقال إنه ظل أربعين سنة بدون حل :

يا أديباً لا يداني شأوه	والمعالي من دنا ومن شحط
قل لنا ما اسم ترى جملته	ضده في الوصف إن حرف سقط
حسن العقبى وإن قوبل في	أول الأمر بكره وسخط
وهو في العد ثلاثي وما	في الذي أوردته قط غلط
وإذا الثلثان منه أسقطا	صار ما أبقي معتل الوسط
وله التصحيح حقّاً لازم	وترى أوسطه ما صح قط [(١)]

. . . . . . واشتهر في ذلك الوقت لغز الأديب إسحاق بن يوسف سنة ١١٣٤ وقد حير في حله جماعة الأدباء ، فوصلته حلول كثيرة حوله لم يسلِّم لهم بها وأوله :

---

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٩٣ .

(٢) ديوان الرقيحي «خ» .

هــديـة وافت إلى صنعــا اليمن تخص أربــاب العلوم والـفــطن
وتـصــطفي مـن بيـنهم فــلانــا لا زال في عــلا العـلا إنســانــا

وشارك في حله الأديب محمد بن هاشم الشامي، وعبد الرب بن حسين ابن عبد القادر، والفقيه الجهمي وغيرهم وما زال شغلاً للأدباء حتى في القرن الرابع عشر، وقد وقفت على كتاب مستقل في حلول هذا اللغز أغلبها لأدباء متأخرين[٢].

(١) ديوان الهبل «خ».
(٢) أنظر حوله كتاب نشر العرف ج١ ص ٣٣٦.

الشُعَراء

أصبح الشعر لغة العصر في هذه الفترة، وقد شاع بين أغلب فئات العلماء، ومن حمل القلم وخط بيده، بل لم يعد حكراً على المثقفين وحدهم، فقاله عامة الناس من العوام البسطاء، وكتبوا فيه شعراً بسيطا يعبر عن الأحاسيس الإنسانية الخالصة وهو ما عرف بالشعر الحميني. حتى النساء نجد لهن مشاركة في مضمار الشعر.

ومن حسن الحظ أن يهتم نفر من كبار الأدباء ومؤرخيهم خلال هذه الفترة بتدوين ما وقفوا عليه من شعر، فجاءت موسوعاتهم الأدبية، تهتم بالشعر وتعنى بتدوينه وقد حفظت لنا أسماء كبيرة وصغيرة من شعراء هذه المرحلة، لولاها لم نعرف شيئاً عنهم.

فكانت هذه الموسوعات خير معين للباحث في دراسة أدب هذه الفترة. وقد أغنتنا عن جهد كبير في جمع هذا الشعر من بطون السفن وحواشي المجلدات المخطوطة، ولولاها لضاع الكثير من غرر القصائد التي يفخر بها أدبنا هنا.

ففي هذا العصر كتب الأديب أحمد بن حسن بن حميد الدين بن شرف الدين المتوفى ١٠٧٢ مجموعته الشعرية لجملة من أدباء عصره خلال القرن الحادي عشر في كتابه (ترويح المشوق)، ثم تلاه الأديب يوسف الهادي الكوكباني المتوفى سنة ١١١٦ وجمع ما لأدباء عصره من شعر في الحمام في كتابه (طوق الصادح) مع استطرادات أخرى.

ثم الأديب القاسم بن الحسن الجرموزي المتوفى سنة ١١٤٦ في كتاب (صفوة العاصر في أدب المعاصر)، وهو من الكتب القيمة المفقودة، وقد اطلع

عليه المؤرخ (زبارة) ونقل منه.

ثم الأديب يوسف يحيى المتوفى سنة ١١٢١ في مجموعته الشهيرة (نسمة السحر).

وأخيراً جاء مؤرخ الأدب اليمني بحق وحقيق الأديب أحمد بن محمد الحيمي، المتوفى سنة ١١٥١ ووضع موسوعته الكبيرة (طيب السمر في أوقات السحر) في أربعة مجلدات.

ثم لحقه الأديب محسن بن الحسن أبو طالب المتوفى سنة ١١٧٠ في كتابيه (ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت في عصري من أهل الأدب)، وهو كتاب جمع فيه مشاهير عصره مع استطرادات لأدباء العربية المشاهير، وكتابه (الأسفار بما استجد لأهل عصره من الأخبار والأشعار)، ونسخته الوحيدة بمتحف بريطانيا.

وفي القرن الثالث عشر ظهرت مجامع أدبية قيمة لعل أشهرها: مجموعة الأديب إبراهيم بن عبدالله الحوثي، المتوفى سنة١٢٢٣(نفحات العنبر)، وكتاب (الحدائق المطلعة من زهور أبناء العصر شقائق) للأديب عبدالله بن عيسى الكوكباني، المتوفى سنة ١٢٢٤ وذيله (اللواحق للحدائق)لمؤلفه، ومجاميع أخرى تضمنتها كتب التراجم واستوعبناها في كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي في اليمن).

فهذه المجاميع حفظت لنا الشعر أو قل أكثره، واستطعنا أن نتبين أهم معالم الأدب في هذه الفترة مع ما صاحب هذه المجاميع من دواوين أدبية، جمعت لأصحابها أو جمعوها هم أنفسهم، فظهر منها ديوان أحمد بن سعدالدين المسوري المتوفى سنة ١٠٧٩.

ديوان الهبل المتوفى سنة ١٠٧٩.
ديوان إسماعيل بن محمد المتوفى سنة ١٠٨٠.

ديوان علي بن إسماعيل بن القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٩٦.

ديوان إبراهيم الهندي المتوفى سنة ١١٠١ .

ديوان زيد بن يحيى بن الحسـين بن القاسم المتوفى سنة ١١٠٤ .

ديوان يحيى بن موسى الحبوري المتوفى سنة ١١١٠ .

ديوان محمد بن الحسن الحمزي المتوفى سنة ١١١٢ .

ديوان الحسين بن عبدالقادر الكوكباني المتوفى سنة ١١١٢ .

ديوان محمد بن الحسين المرهبي المتوفى سنة ١١١٣ .

دواوين أحمد بن أحمد المعروف بالزنمة المتوفى سنة ١١١٥ الثلاثة .

ديوان يوسف بن علي هادي الكوكباني المتوفى سنة ١١١٦ .

ديوان إبراهيم بن زيد جحاف المتوفى سنة ١١١٦ .

ديوان يحيى بن إبراهيم بن علي جحاف المتوفى سنة ١١١٧ .

ديوان علي بن صالح بن أبي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ .

ديوان علي بن محمد العنسي المتوفى سنة ١١٣٩ .

ديوان القاسم بن الحسني الجرموزي المتوفى سنة ١١٤٦ .

ديوان إسماعيل بن صلاح الأمير المتوفى سنة ١١٤٦ .

ديوان عبدالله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ .

ديوان شعبان سليم المتوفى سنة ١١٤٩ .

ديوان أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١ .

دواوين الأديب أحمد بن عبدالله السلفي المتوفى سنة ١١٦١ الثلاثة .

ديوان أحمد بن الحسيني الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢ .

ديوان محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١١٦٧ .

ديوان إسحاق بن يوسف المتوفى سنة ١١٧٣ .

ديوان علي بن حسن الخفنجي المتوفى سنة ١١٨٠ .

ديوان محمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢ .

ديوان إسماعيل بن محمد فايع المتوفى سنة ١١٨٨ .

ديوان عبدالله بن أحمد إسحاق المتوفى سنة ١١٩١ .

ديوان أحمد بن محمد قاطن المتوفى سنة ١١٩٩ .

ديوان عبدالله بن الحسني الشامي المتوفى في القرن ١٢ .

ديوان إسماعيل بن علي الشهاري المتوفى سنة ١٢٠١ .

ديوان عبدالقادر بن أحمد الكوكباني المتوفى سنة ١٢٠٧ .

ديوان أحمد بن حسن الزهيري المتوفى سنة ١٢١٤ .

ديوان قاسم بن عبد الرب الكوكباني المتوفى سنة ١٢١٦ .

ديوان يحيى بن إبراهيم الكوكباني المتوفى سنة ١٢٢٤ .

ديوان محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ .

ديوان عبد الرحمن بن يحيى الأنسي المتوفى سنة ١٢٥٠ الحكمي والحميني.

ديوان الحسن بن عبد الرحمن الكوكباني المتوفى سنة ١٢٦٥ .

ديوان محسن بن عبد الكريم المتوفى سنة ١٢٦٦ .

ديوان يحيى بن المطهر المتوفى سنة ١٢٦٨ .

ديوان أحمد بن محمد المعلمي المتوفى سنة ١٢٧٨ .

ديوان أحمد بن حسين شرف الدين المتوفى في القرن ١٣ .

ودواوين أخرى أهملنا ذكرها هنا اختصاراً.

وكل هذه المجاميع والدواوين لم تر النور، ولم يطبع منها سوى بضعة دواوين لا تزيد على الثلاثة هي : ديوان عبد الرحمن الأنسي المتوفى سنة ١٢٥٠ الحميني، وديوان محمد بن إسماعيل الأمير، وقسم من ديوان محمد بن علي العنسي[1] «القسم الحميني» ، وقسم من ديوان الأديب أحمد بن الحسين الرقيحي (الحميني) ولا شيء غير ذلك.

الوادي

الحسين بن علي الوادي شاعر وصفه صاحب (نسمة السحر) بقوله: كان شاعراً ظريفاً، أديباً مطبوعاً، أسمر اللون فيه سكينة ووقار، وكان مع السمرة ضخماً وفيه غفلة قليلة، وكان له في علم النجوم نظر مليح، وفي علم الحرف والطب، وأجاد في الرمل وكان يتوقد ذكاءً.

ترجم له الحيمي في (طيب السمر)، ويوسف بن يحيى في (نسمة السحر)، والحموي في (فوائد الارتحال) والمحبي في كتابيه (خلاصة الأثر ونُفحة الريحانة) وانفرد الأخير بذكر وفاته فقال إنها سنة ١٠٧٦ وفي (نسمة السحر) توفي تقريبا سنة ١٠٨٠.

من شعره:

صاح قد جاوز الغرام نصابه ... فدع اللوم أو أموت صبابه
إنما يحسن الملام لصب ... بعد تجوير عاذليه انقلابه
في سقيم الجفون والخصر مملو ... ح السجايا شهم كثير الدعابه
لاح للعين وجهه في جعيد ... وبودي لو حل عنه نقابه
وأراني من النهار جبيناً ... ومن الليل طرة وذؤابه
وهبتني جفونه رقة الجسـ ... ـم ورقراق الدمعة السكابه
وسبتني قلبي المشوق وروحي ... والنهى فهي الوهابة النهابه
وتجللت بالسواد ولا يـنـ ... ـكر حالي إذا حكتها كآبه

وقوله:

رسم أراد الله سبحانه ... يفرد في العالم إنسانه
فصاغه معنى من السحر ... خليقاً وما خصص أجفانه
أفديه معسول اللمى اشنبا ... مهفهف المعطف ريانه
أبلج أقنى الأنف حلو السجا ... يا فاتر النظرة نعسانه
منعطف لولا الرقيب الذي ... أثر بالتعليم طغيانه
يا عاذل الصب على حبه ... رفقاً فقد حركت أشجانه
حاولت بالعذل سلو مغرم ... أرخصت الأهواء أثمانه
وحق من يعلم في حبه ... إيمان من يعلم إيمانه
ما عرفت نفسي له سلوة ... هيهات أن تعرف سلوانه
لو لم يكن جفني له ساهراً ... والجسم مضنى القلب ولهانه
ومقلتي تهمي على وجنتي ... بدمعة تشبه أوجانه
ولا صغى يوماً إلى حاسد ... كثر بالله بهتانه
ناديته لما مضى مغضباً ... يسحب بالتيه أردانه
يا قمراً أنزلته في الهوى ... من أسود الناضر إنسانه
ويا قضيبا فاق غصن النقى ... وعلم اللفتة غزلانه

إلخ.

حميد الدين

أحمد بن الحسن بن حميد الدين بن المطهر بن شرف الدين. ذكره الحيمي في أدباء كوكبان، وكذا ترجمه المحبي في (نفحة الريحانة) وقال عنه صاحب (نسمة السحر)إنه رحل إلى مكة لطلب العلم على فقيهها العلامة محمد بن علان المكي توفي سنة ١٠٧٢، وفي بعض المصادر وفاته سنة ١٠٨٠.

من شعره في عراض قصيدة ابن مطروح التي أولها:

بابي وبي طيف طرق   عذب اللمى والمعتنق

يقول شاعرنا:

إيـاك مـن سـود الحدق   فهي التي تشكـو القلق
لا يخـدعنـك حسنهـا   فـالأمن يتبعـه الفـرق
واحـذر مـلاطفـة الغـوا   ني بـالـتـذلـل والملق
يـا أيهـا المـولى الـذي   أنـا مـن مـواليـه أرق
يـا بـاخـلاً حتى بطيف   خيـالـه جنـح الغسق
لله وصـلـك مـا ألذ   وطعم هجـرك مـا أشق
يـا غـصـن در مـائـد   قـد ضن عنـا بـالـورق
جمـع المـلاحـة والـطرا   وة والحـلاوة في نـسـق
كـيف الخـلاص لمغـرم   لـولا المـدامـع لاحتـرق

لــولاك مــا دار الــغـيـــو ... ر ولا تـشـبـث بـالـعـلق
يــا أيهـا الـبــرق الــذي ... لخفــوقـه قلبـي خـفـق
أرفق سفـحت مـدامـع ... أخشى عــليّ من الغــرق

وله من قصيدة روضية غزلية:

لله أنـــفـــاس الـــصــبـــا ... ولطيف ما أهدته من شم
يــا طـيب ريــاهـا وإن ... أغرى الشجى بها وأغـرم
حملت كــلامــاً ســره الـ ... ـمكنـون أن الشوق يكتم
نــاديـتـهـا حـتـام أحـ ... ـتمل الهوى العذري إلى كم
فـتـعـثـرت بـذيـولهـا ... طـربـاً وقــالـت لا تـظلم

ومنها:

بـدري وجـه كمـل الـ ... ـبـاري محـاسـنـه وتمـم
ونـجـى أسـراري وإن ... أك من لـواحـظه مكلم
ذهبي خـد منـه أثـرى ... صبـه والصبـر أعـدم
ذو مقلة نجـلاء أسحـر ... مـقلة مـن فـوق مبـسـم
أنـزلـتـه في المنـحـنى ... مـن أضلعـي والله أعـلم
رسـل الخيال إليـه تسري ... خـفـيـة والـنـاس نُوَّم
أن لـيس أنسخ وده ... بالهجـر منـه فهـو محكم
فـأعجب لهـا من قصـة ... يــا أيهـا الحبـر المكـرم

إلى آخرها وشعره كثير وجيد وقد أورد منه المحبي عدة قصائد في نحو عشرين صفحة من كتابه.

إسماعيل بن محمد

إسماعيل بن محمد بن الحسن بن القاسم بن محمد، هو من أقدم من عرف بالشعر من أسرته قال عنه صاحب (نفحة الريحانة): له شعر إذا تلاه المشغوف تفقد قلبه هل طار عن جسده.

وقال عنه صاحب (نسمة السحر) (فاضل أجل همه النظم)

ومن انسجاماته اللطيفة قوله:

هل أقال الموت ذا حذره ... ساعة عند انتهاء عمره
أو تراخى عن كحيل رنا ... فاق كل الغيد في حوره
أو رثى يوماً لمرضعة ... طفلها ما دب في حجره
أو تراه هائباً ملكا ... صائلا قد عز في نفره

إلى آخره.

ومن مقطعاته قوله:

قلت لما أكثر الهجر ... حبيبي وأطالا
وتمادى في جفاه ... (حسبي الله تعالى)

وقوله:

لما دنا مني بدر الدجى ... وعوض الوصل عن الصد

عانقته ضماً وقبلته   من شغفي بالثغر والخد
ولاح عند عناقي له   ونار قلبي منه في وقد
رشح على ورد خدود حكى   لآليا تترك عن عقد
وهكذا عادة جمر الغضى   يستخرج الرشح عن الورد

ومن روضياته قوله في مفتتح غزلية:

سيدي ما ترى الغيوم   إلى الروض ساريه
غدت الأرض من   مطارفها الخضر كاسيه
برقها ضاحك وأجفا   نها الوطف باكيه
وسواقي العيون في   حلل الروض جاريه
وأزاهيرها مفتحة   فيه زاهية
والنسيم العليل يسر   ح من كل ناحيه
عيشته لا تزال وال   حمد لله راضيه

توفي سنة ١٠٨٠ بناحية العدين..

علي بن إسماعيل

علي بن إسماعيل بن القاسم بن محمد شاعر مفلق، تولى أعمالاً لوالده وبرع في نظم الشعر توفي سنة ١٠٩٦ . .

وقد وقفت له على هذه القصيدة على وزن قصيدة الحصري . .

أكـــذا المشتـــاق تـؤرقـــه   تغـــريـد الـــورق ويقلقـه
وإذا مـــا لاح عـــلى أضم   بـــرق أشـجـــاه تـــألقـــه
يخفي الأشـواق فيظهـرها   دمـــع في الخـــد يـؤرقـــه
آه يـــا برق أمـــا خـبـــر   عن أهـــل الغـور تحققـــه
فيزيل جوى لأسير هـوى   مضنى قـد طـال تشـوقـه
ريـم الهيجاء وربـربهـا   خمري الثـغـــر معـتـقـــه
ممشـــوق القـد لـــه كفـل   يتشكى العطف ومنطقه

إلى آخرها وله أخر أوردها صاحب (طيب السمر) .

زيد بن يحيى

زيد بن يحيى بن الحسين بن محمد بن القاسم بن محمد، أخو صاحب (نسمة السحر) ولد بصنعاء سنة ١٠٧٧ . . قال عنه أخوه المذكور أنه كان من أذكياء العالم مدحه الأديب الحسن بن جابر الهبل، وأثنى عليه، وقرأ في سائر علوم عصره، وكان زميل أخيه صاحب (نسمة السحر) قال: وكنت رفيقه في تعلم المثاني، ومن بحره انسحب لي نهر هذه المعاني، وكان لا ينسى شيئاً مع إتقان الحفظ ونظم الشعر وهو في العشر من السنين توفي وهو شاب لم يتزوج سنة ١١٠٤.

وقد اعتنى بشعره ونظمه أخوه المذكور فجمعه في ديوان بعنوان (طلوع الضياء) قال وشعره ربيع القلوب ونزهة الخواطر، ما لحقه فيه حبيب ولا تبلج مثله محبوب.

قلت وأكثر شعره في جانب الروضيات، فهو بحق شاعر المروج والغياض في خلال هذه الفترة.

ومن شعره في الغزل:

من قدر الليث بظبي الصريم ذلك تقدير العزيز العليم
ومن قضى رب القنا والظبا للابس العقد ولاوي «البريم»
وصير الفاتك في درعه طوع جبان في رداه الرقيم

أسير حجل قد سبا مطلقاً — حل به سجن الغرام الغريم
بات سليماً وهواي الذي — بت به في مثل ليل السليم
من لي به محتجباً قد غدا — تلقاء عيني وثوى بالصميم
بالبيض والسمر حموه وقد — كفت رناه والقوام القويم
مبسمه قد عز عن لائم — فاعجب له كيف يعز اليتيم
حكم الهوى صيرني طوعه — والحب قد يسلب لب الحكيم
شبه منه الوجه في شعره — صبحاً بهيّاً وظلاماً بهيم
فأعجب لبدر دام في تمه — وصرت كالعرجون فيه القديم
كم من رقيب وعذول لنا — فيه وواشٍ قد سعى بالنميم
لم يقدر الكل على سلوتي — ولم يبح سري لغير النسيم
يحمل تسليمي إليه فإن — رد سلاماً عاد طيب الشميم

ومن روضياته ما أوردناه له في حديثنا عن القهوة وله مقطعات كثيرة في أغراض بديعيه ذكرها أخوه وصاحب (طيب السمر) منها قوله في ما يعرف عنهم بالاقتباس:

إذا قبلتها خجلت فيسري — على وجناتها البيض احمرار
كأن بخدها مصباح نور — (يكاد يضيء لم تمسسه نار)

وقوله في هذا النوع أيضا مشيراً إلى ضعف عمله زمانه:

لقد حدثت بدار الضرب — أمور تسخط الخالق
أخف الوزن طارقها — (وما أدراك ما الطارق)

إلى غير ذلك.

العشبي

المهدي بن محمد العشبي من بني عشب، قال عنه الحيمي هو «ممن لهم في نقد الأدب الخالص نشب، كان يفد إلى كوكبان ويمدح أعيانه فتبتهج له أرجاؤه».

وقد ذكره المحبي في شعراء اليمن، وأورد له مقاطع شعرية طريفة، كقوله فيمن اسمها كوكب: ـ

بـدت كوكبٌ مثل بـدر الدجى   لصـب هـوى قلبـه واستعـاذا
فأنكر شمس الضحى في الهوى   فلما رأى كـوكبـاً قـال هــذا

وأكثر شعره في الحميني حتى قال عنه معاصره الحيمي:

(وله في نظم الموشح الحميني نهج قويم).

قلت ولعله نفس المسمى في بعض السفن الأدبية بالقشبي بالقاف، فإني وقفت له على عدة قصائد حمينية جيدة كقوله:

رحمـان يـا رحمـان أسـألـك فـك ضيقي والحـزن
واغـفـر لي الـزلات لي فيـك يـا إلهـي حسـن ظـن
واختم لنـا بـالصـالحـات واهـدنـا خـير السنـن
قـال الفتى القشبي سمعـت البـارحة قمـري رطـن
ينـغـم بـتـغـريـد المعـاني وإن ثـنى زرجـم وحـنّ
أشـجى وأشـجـاني وخـلّى داخـل أشجـاني شـجن

ذكـــر فـــؤادي عـن بـــلادي حـــيثـــما خـــلى ســـكـن
أمـــا أنـــا شـــا أســـير مـــا عـــاد لي بـــأرض الـــيمـن

إلى آخرها وهي مشهورة وفي بعض السفن تنسب لسنبل.

وأخرى يقول فيها:

أبو ناصر يقـول صادفت سمـرا		تتيـه بـين الأغصـان الـرشـايق
بحق التـين والـزيتـون واقـرا		تحـل العسر عمن كـان ضـايق

إلى آخرها.

قال المؤرخ زبارة ولعل وفاته بعد سنة ١١١٠.

كاشف

علي بن عبد الرحمن كاشف، أديب ذكره الحيمي في شعراء تعز وقال عنه (ربيُ في اليمن الأسفل، فراق طبعه، فهو ألطف من نسيم، وأطوع من نديم، وقد نظم الشعر السهل، ودأب فيه صغيراً وكهلا، وكان يستعمل في شعره لغة العامة فيلذ نظمه للأفراد، ولم يؤرخ وفاته، وهو من المعاصرين له، لكنه أورد شعراً لأحد معاصريه في تاريخ وفاته على حروف الجُمل نفهم منه أنها سنة ١١٠٧.

من شعره في الورد:

قد جاءنا الورد الطري   مكللا بالمطر
يحكي خدود أهيف   يندى برشح عطر
يا حبذا الورد جنى   من نزهة للنظر

وأغلب ما وجد له من شعر كان في تواريخ بعض الأشياء، يقول عنه الحيمي «له في نظم التواريخ طريق جادة، ومادة من الله تعالى مادة».

من ذلك قوله مؤرخاً لخان عظيم (فندق):

لقد شاد فخر الهدى   محلّا رفيع البنا
منازل للمكترين   فيها البها والسنا
فوايد فيها له   أقرت بها الأعينا

فمنها الثواب الذي يرجيه من ربنا
ومنها الكرى دائما فيقبضه ديدنا
ويغنى بها دائماً فتاريخها بالغنا

وقوله مؤرخاً أيضاً لسمسرة كبيرة عمرت في جبله:

فخر الهدى قد بنى محله للسفر فيها يحط رحله
ابدع صناعها بناها قامت على ذلك الأدله
نال بها أجرة وأجراً قد حمد العالمون فعله
فهاك تاريخها بيانا سمسرة للكرى بجبله

وقوله في تاريخ مدبغة أسست بجبلة أيضا:

بنى الحسين منزلا وشاده وفرغه
من تحته (سائلة) من فوقه بيت (الأغة)
بجبلة قد شاده تاريخه بالمدبغة

وشعر من هذا كثير.

اليافعي

إبراهيم بن أحمد اليافعي شاعر قدير قال عنه صاحب (نسمة السحر) في مذهبي أنه لا يجوز أن يقدم عليه شاعر في وقته، جزالة ورقة، ومتانة وحسن سبك، وكان له حانوت يحظى فيها العمايم والأردية، وقد عاش بصنعاء وحف به الأدباء من كل صوب حيث لا يمل جليسه حديثه، وله مع الشاعر إبراهيم الهندي نوادر ومفاكهات ذكرها من ترجم له، توفي سنة ١١١٠.

ومن غرر قصائده قصيدته التي أورد المؤرخ زبارة صدرها ومما جاء فيها:

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ... ولمعة برق بالغضى تتشعر
وذكر جبين المالكيه أن بدا ... هلال الدجى والشيء بالشيء يذكر
سقى الله أكناف الغضى سبل الحيا ... وإن كنت أسقى أدمعاً تتحدر
وعيشا نضى عنه الزمان نقابه ... وخلفه في الراس يزهو ويزهر
تغير ذاك مع من أحبه ... ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
وكان الصبا ليلاً وكنت كحالم ... فوا أسفي والشيب كالصبح يسفر
يعللني تحت الغمامة كتمه ... فعاود قلبي حسرة حين أحسر
وتنكرني ليلا وما خلت أنه ... إذا وضع العمامة ينكر
وغيداء أما جفنها فمؤنث ... كليل وأما لحظها فمذكر
يروقك جمع الكسر في لحظاتها ... على أنه للجفن جمع مكسر.

إلخ.

ومن شعره قصيدته الكافية التي عارض فيها الشريف الرضي وهي في مدح أحد رؤساء عصره:

وهذا العذيب بدا فقل بشراكا والزم إخائي لا عدمت أخاكا
واسمع حمامات الحمى إذ نحن من شجوى ونحن بدمعة نتشاكى
باتت تقول مدامعي لسجوعها لي دونك الفضل الجزيل نداكا
أمساك مثل مساي أجرى عندما لا أستطيع لبثه إمساكا
أجرى دماً لدمىً نصبن لمهجتي يوم الوداع من الرنا أشراكا
يا صاحبي قد صاح لي داعي الهوى فدع العتاب وما إليه دعاكا
ألم الفراق ألم بي وبمهجتي فعسى ترق لما أقول عساكا
بالله إن جزت العقيق وسفحه فأقم هناك به النزول هناكا
وأقل بظل الضال فيه مسلماً عنا وشرف بالتحية فاكا
هل أنت يا وادي العقيق كما مضى زاه ومن ثمر الجنان جناكا
لا زلت بالأحباب معموراً ومغـ ـموراً غنا وعداك مكر عداكا
وإلاك من نو الربيع ولبه ونعيم وسمي الحيا حياكا

ومنه قوله في ذم بخيل:

اختلف العالم في رؤية لقرصة المحروس بالسيف
فقال قوم إنه لا يرى قط ولا يسكن في جوف
وقال قوم إنها أمكنت رؤيته لكن بلا كيف

وشعر اليافعي يقول عنه الحيمي «كثير ومدحه لذوي الأمر أثير».

الزوم

الحسن بن عبدالله الزوم بالزاي المعجمة من شعراء حييش البارزين، عده الحيمي من المجيدين في صنعته، وقال هو من أهل الثروة، وممن لبس من النعمة فروة، وقال رأيت ديوان شعره بخطه وهو صاحب نظم دل على قوة عـارضة تضعف في السباق معارضة، لو مازج الصدق من المدام لاستمر خمارها ودام إلخ.

من شعره الطريف:

ثـلاث قـافـات بـلينـا بهـا ... الـقـوت والقـهـوة والـقـات
ثـلاث آفـات تـقـضـت بهـا ... لـلعمـر سـاعـات وأوقـات

ومن رباعياته قوله:

إيـاك بـأن تـقـيـم ... في الـسـوح غـريـب
والأرض وسـيـعـة ... لمـن كـان لـبـيـب
مـا تـنـفـع بـقـعـة ... مـن الأرض زهـت
لم يمـنـحـك الـزمـان ... مـنهـا بـنـصـيـب

وقوله في مروحة من المندل:

مـروحـة فـاقت عـلى غيـرهـا ... في شكلهـا والشم ذاك العجيب
مهـما طلبت الـريـح منها فـما ... يمكـنهـا تهـديـه إلا بـطـيب

إن نشـرت كـانت كبــدر السـما أو جمعت كـانت ككف الحبـيب

وقوله في بخيل:

لا تــدعـه يجـول بـالفكـر لمـا جئتــه سـائــلاً ولـو للحـقــير
بخله قــد نهاه عـن بــذل فلس كم عــلى مثله بكـا في الضمــير

ولما بعث إليه خزان بيت المال شعيراً بديلاً عما يعتاده من القمح كتب إليه يقول:

بدلت قمحي شعيراً يا ابن عثمان ولم يكن قـوتنا من قبل أو كـانـا
فـأنـــت أولى بـــه مــني ولا عجب أليس أنكم من نسل مروانا

والمعروف أن الشعير مما تعلف به الحمير ومروان الحمار من ملوك بني أمية.

ومن غزلياته قوله:

يــا حسنـه لمــا ســرى مقمــراً يجتاز جنـح الليـل كـالـطيف
أحــور قـد عــذب قلبي هـوى مــا بــين نــار الخــد والسيـف

وكان معشوقه من آل السيفي في ذلك الوقت.

الحسين بن عبدالقادر

من شعراء كوكبان الأفاضل وهو الحسين بن عبدالقادر بن الناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين، ولد سنة ١٠٦١ وتفوق في الأدب حتى أجمع من ترجم له على شاعريته ونبوغه فقال عنه الحيمي في (طيب السمر).

أقسم بالله قسم من بر، أنه لأفضل من اهتز لذكره عود منبر، حليه فما الذهب ولا المرجان.

وقال عنه صاحب (نسمة السحر) «فاضل جدد الأدب في اليمن، وقد خلقا وأبرزه من صدف الخمول لؤلؤاً منسقا».

وقال عنه إسحاق بن يوسف: «إن له في الأدب طريقة انفرد بسلوكها، وسليقة جيدة مع طلاوة انسجام إلخ».

وقال الشوكاني الشاعر المنصور المجيد المكثر المبدع في الأدب، وغيرهم ممن أثنوا عليه وقد جمع شعره في مجلد حافل، شقيقه الأديب محمد بن عبدالقادر، بعنوان القول الحسين من شعر الحسين. توفي سنة ١١١٢.

له شعر جيد أجمع من ترجمه على جودته وانسجامه، وكان كعادة شعراء عصره ولوع بالمقاطيع والتشابيه البديعية، فحفل بها ديوانه وتراجمه. من ذلك قوله في وصف صقر رمي بسهم وهو في الجو:

أرأيت صقر الجو حين هوى   من سهم من بهرت رمايته

فـكـأنـه في شـكـله طـبـر   والسهـم معـتـرضـاً هـراوتـه

وقوله في بندق زين بصدف:

يـا حسنـه من بنـدق مـا زال في   يوم الكفاح عـلى السلاح مشـرفا
جعلوا بـه صـدفـاً يشـير بـأنـه   مـا زال بالغـرض البعيد مصـدفا

وقوله في التضمين:

وغـانـيـة لهـا عنـق طـويـل   ترمي مثنى السمـوط بـه فرادى
أقـول لمن يـلاطفهـا خـداعـاً   (أرى العنقـاء تكبر أن تصـادى)

وقوله مورياً:

فـارقـت في جمـالهـا   كـل عـذول وخـليـل
لـكـنـي فـارقـتـهـم   طـرّاً عـلى وجـه جميـل

وتحدثنا كتب تراجمه أنه تعرض للسجن فقال في سجنه ذاك وهو في قصر صنعاء:

لقد قلت للزوار في السجن عندما   تباكـوا وأبـدوا لي تـوجـع راحم
ألم تعلموا أن القيود خلاخل الـر   جال وأن السجن خيس الضراغم
ولا عـار في سجن إذا هو لم يكن   عـلى سبب يخزيـك بـين العـوالم

وكان قد مكث في السجن نحو ست سنوات.

ومن غرر قصائده المطبوعة قوله:

لفؤادي في الهـوى كـد وكـدح   ولـطرفي بـالـدما سـح وسفـح
يـا أخـا التحـذيـر أغريت وكم   مغـرم أغـراه من قـد راح يلحـو
عـاذلي كن عاذري في حب من   فـرقه مـع فـرعـه صبـح وجنـح
ظـالم مـأواه في قـلبـي ومـا   لـذوي الـظلم من النيـران بـرح
قـده لا طـعـن في أوصـافـه   عجبـاً لا طعن فيـه وهـو رمـح
كـلما مـاس تـغـنى حـلـيـه   فإذا للورْق فوق الغصن صـدح

أنكـرت عينـاه قتلي وعـلى وجنتيه من دمي نضخ ونضح
بـدمي قـد شهـدت وجنتـه ولـطرفي ويحـه في تلك جـرح
ليت شعـري هـل لقلبي سلوة عنه كـلّا مـا لهـذا البـاب فتـح
لا يـطيب الـعـيش إلا لـلذي لم يكن في طرفه مـا عاش طمح
فـعـذابي أصـله مـن نـظرة رب جـد جـره لـلمـر مـزح

وهذه القصيدة جيدة جعلها على منوال حائية ابن فتح الله النحاس، وقد أعجب بقصيدة شاعرنا الأديب الشامي محمد أمين المحبي، فقال في كتابه (نفحة الريحانة) «تالله ما هذا إلا روض يستـر وجهه الطلق» إلخ. وقد أطال في ذكره ونقل عينيته التي يقول فيها:

خفف عـلى ذي لوعـة وشجـون واحفظ فؤادك من عيـون العـين
فلكم فؤاد واجب من سهمها الـ ـمسموم أو من سيفها المسنـون
واتـرك ملامـة مغرم في حب من أغنت محـاسنـه عن التحسـين
رشأ أغن غضيض طرف لم يـزل يـأتي بسحـر مـن رنـاه مبـين
ستر الضحى من شعره بدجى كما كشف الـدجى منه لصبح جبين
وتـراه منتصب القـوام ولم يـزل عن ضمـه ينهى بكسر جفـون
وإذا مشى مـر النسيم بعـطفـه فـيكـاد يـلويـه لـفـرط الـلِين

إلى آخرها.

الحمزي

محمد بن الحسين بن يحيى الحمزي، من الشعراء المجيدين قال عنه صاحب (نسمة السحر) «هو في مذهبي أشعر من ابن نباته، وإنه لا يتكلف المعاني اللطيفة، ومن غريب ما يروى عنه أنه قصد المهدي صاحب المواهب هو وأخوه لطف الله ليحظى عنده بمهنة فلقيا مشقة شديدة أدت إلى زوال عقل أخيه لطف الله ومرضه هو ثم وفاته فقال والدهما»:

ابناي قد زارا إمام الهدى   إمامنا ذا الرتب العاليه
لم يظفرا منه بما أمّلا   إلا ذهاب العقل والعافيه

توفي شاعرنا سنة ١١١٢ وترك ديوان شعر جمعه أخوه إسماعيل بن الحسين، وعاب عليه بعض الأدباء اختلاس المعاني :

ومن شعره الجيد:

خبروها أني قتيل هواها   إن تمادت في قربها أو نواها
ما عليها لو حملت نسمة الصبـ   ـح سلاماً يطيب منه شذاها
لو سرت في الصباح نحو نسيم   بسلام منها حمدت سراها
تركت در مدمع ونظامي   للثنايا وعقدها أشداها
أتسلى بدر دمعي ونظمي   كلما غاب عقدها ولماها
آخ مالي من غادة تيمتني   وقلت مهجتي بنار قلاها

تـركتهـا عــلى شفـا وشفــاهــا شفتــاهــا أو الحــديث شفـاهــا
خـل ذكر الشمـوس مهـما تبـدى حسنهــا فيم أنت من ذكــراهــا
صـانها الله كيف تقـرن بالشمس عــلى فـرط نــورهــا وحمــاهــا

إلخ . .

ومن شعره :

دنت وتثنت في غـلايلهـا الــزرقـا فشنت على عشاقها البيض والزرقا
ومـا كنت ممن يعـرف العشق إنمـا دعتني اللحاظ السود أن أعشق العشقا
عـلى أنه قـد أصبـح اللوم بـاطـلاً على حبها والسحر من طرفهـا حقا
تـوهمت أن الشمس تحكي جمـالها فـأبـدت ثنـايـاهـا وطلعتهـا فـرقـا

إلخ .

ومن حمينياته الشهيرة قصيدته الملحونة التي يقال إنه نظمها لما فارق زوجته وكان يحبها كثيراً وهي قوله :

لقلبي لم يــزل عشقــه فنــون في هـوى حــالي التثني والمجــون
مزري الغصون
قد فنى صبري وقل الاحتيال
قـد قسم قلبي بأسيـاف الجفـون وقسم لي من هـوى تلك العيون
ريب المنون
ما حباني بعد ذا إلا محال

إلى آخرها وهي شهيرة مغناة وقد ذكرها صاحب الغناء الصنعاني .

وله الحمينية الأخرى التي أولها :

أسكان الحمـى بـنـتـم وبـان الـرشـد من عقـلي
وعن شـرط الهـوى حلتم لمــه يـا جيـرة الاثــل
رعى الله يــوم مــا كنتم تجــازوني عــلى فــعــلي

إلى آخرها .

السمحي

سعيد بن صالح السمحي، شاعر نشأ بصنعاء وعرف بإعجابه بأبي تمام وتقليده له في شعره، ويقال إنه كتب كثيراً من نسخ ديوان أبي تمام، وكان له ديوان شعر ضاع ضمن ثياب له سرقت، وكان فقيهاً لغويّاً غلب عليه الشك توفي سنة ١١٢٢.

وله في الإشادة بشعره وزهده:

ولأني لأهوى صون ديباجة الحيا ... وأرغب في هجو القريض وأطمع
وألبس من درع القناعة سابغاً ... يرد سهام الضيم عني ويدفع
فلم أتحسى الشهد من كل محسن ... وحوض المنى منه لمثلي منزع
ولكنني والحمد لله لم أحب ... لمثلي رزقاً غير ما كنت أصنع
قريض كما الدر النضيد أصوغه ... وكالروض بالعذب النمير يوشع
يطاوعني هذا القريض صناعة ... وأكثر من وافى به يتصنع

وله:

لو كنت من أسر الهوى بمكاني ... لرحمت كل متيم ولهان
وعلمت أن الجور إلا ما قضت ... في العاشقين محاجر الغزلان
تفتير لحظ مثل ضرب مهند ... ومراح قدٍّ مثل طعن سنان
فاشدد يديك على فؤادك واسترح ... مما يقاسي المستهام العاني
أنحت على جسمي بلابل صورة ... تركت جسيم مفاصلي كبنان

لا تحسبن نحول جسمي خلقة قد كنت ذا روح وذا جثمانِ
إن الثلاثين التي ناهزتها قد شيبت فودي قبل أوان
أعوام سني في السبيبة والصبا وبياض ناصيتي من الشيبان
فكأنما ذهب الشباب مغاضبا إذ لم تمل بنسيمه عيدان
ما حال من عبث الفراق بقلبه ونأى به من ساحة الأوطان
لا أهل دار إقامتي أهلي ولا جيران داري رحلتي جيران

ومن شعره ما كتبه إلى شيخه العلامة الحسيني بن أحمد زبارة:

لو قضى في شبابه أوطاره لم يقلب في شيبه أطواره
وصبا مغرم ولات غرام ضيق الحلم والنهى أعذاره
وجفته بيض الغواني وأبدى كل ظبي صدوده ونفاره
وتزاورن عنه طرفاً كحيلا كان لحظه واحوراره
راعها رائع البياض وأجلى سربها عن لقائه والزياره
وقتير أضاء من عارضيه وسقاه من دمعه مدراره
وإليها كان الصباء شفيعاً ووجيهاً ببهجة وغضاره
وسفيراً إلى لقاها خفيراً حمد المغرمون منه السفاره
لا تزور العيون إلا بروض أضحك البرق والحيا أزهاره
رب دهر حمدت عهد هواها وتحسبت شهده وعقاره

الخ.

الناخوذة

أحمد بن عبدالقادر الناخوذة، شاعر أديب من أهل صنعاء، كان يـزاول الخياطة ومدح أكابر عصره، فكان قليل الحظ وكما يقال أدركته حرفة الأدب فلم يوفق منها بشيء، وهو مع ذلك ولوع بتحصيل العلوم والفوايد، راوية للشعر.

قال عنه الحيمي في (طيب السمر):

علت به رتب الأدب رجاه، وتضوعت بطيب أرجاء صنعاء أرجاه، إلا أن حظه في الحضيض، وطرف شوهاء أيامه غير غضيض، إن مدح لئيماً لم يجز، فوعده له ما تم ولا نجز... فرزقه لنزارته يخرج من سم إبرته المثقوب لأنه يحترف الخياطة إلخ.

ويقول إنه كان صديقه «وله إلى أنس الطائر إلي إلفه لا يفارق مقامي إلا قليلا..» إلخ.

ومن شعره الاجتماعي قوله وقد غلا الطعام في يوم العاشر من الحجة:

يا صاح هل تسعد الأيام صاحبه	وهل تجود ليالينا بإيناس
وهل أبيت مع الإخوان أنشدهم	شعراً وأخبرهم عن آل عباس
شربت من كاسها صرف الذهول لذا	أصبحت لا أعرف العاري من الكاسي
لا أذكر الناس في اللاوى لما رأيت	حتى يقال بأني ذلك الناسي
وقد علمت بأن القوم أجمعهم	في العشر تضرب أخماساً بأسداس

وقوله في هضم الناس حقه:

ولما رأيت الدهر هون جانبي | وكان لفرط اللؤم يلبني ملكي
وسام ذوي الهيئات خسفاً وذلة | وراح حصيف القوم مستعبراً يبكي
وعاملني عكس القضية عابساً | وضاحك من بالدف يضرب بالجنك
قنعت من الدنيا بدون كفاية | لعلمي بأن الحرص مجلبة الهلك
وجانب هذا الناس لما بلوتهم | زيوفاً إذا حققت تظهر بالسبك
فخذ جانباً عنهم إذا كنت واثقاً | برزق من المولى يقيناً بلا شك

ومن شعره الغزلي في التورية والتوجيه:

سألت مبسمة الضحاك يخبرني | أريقه العذب من مستقطر البرد
فقال برق الثنايا كيف تجهل ما | يروي وقطر الندى في فيه إن ترد
والجوهري عن النظام يرفعه | عن المبرد فاحفظ قيمة السند

وقوله:

بعتك قلبي بيع بخس على | شرط الوفا بالوصل والقرب
فسمتني هجراً وأبدلتني | بعد الرضا سخطاً بلا ذنب
فهات لي قلبي وخذ غيره | أقالك الرحمن في قلبي

يوسف بن يحيى

يوسف بن يحيى صاحب (نسمة السحر)، شاعر مفلق برع في الأدب وفنونه وكان مولده سنة ١٠٧٨، وأخذ عن جل شيوخ عصره، ترجم له جل من أرخ لأدباء اليمن خلال هذه الفترة، فذكره الحيمي في (طيب السمر)، وإبراهيم ابن زيد جحاف في (زهر الأكمام)، والحوثي في (نفحات العنبر)، والشوكاني في (البدر الطالع) وكذا زبارة وغيره.

قال عنه صاحب (نفحات العنبر): «عالم شاعر مؤرخ، حقق في علوم العربية والأصوليين والمنطق، وشارك في الطب، وتضلع من الأدب، ونثر ونظم فأجاد، وأصابته حرفة الأدب - يعني الفقر وكان له ولد يسمى إسحاق، كان شديد الحب له فلم يلبث إلا يسيراً حتى توفي الولد، فاشتدت أحزانه، وتضاعفت أشجانه، فكره المقام بصنعاء، ورحل إلى مكة فأقام بها نحو سنتين يمدح شريفها، فأفاد منه أموالاً ثم عاد إلى صنعاء وتوفي سنة ١١٢١.

من شعره:

نعم نفحة من حاجر نفحة المسك ... وواصل مكوى الحشا شادن الترك
ولاح وميض الثغر في أسود الدجى ... فشق كما ينشق جنة الحلك
على زهر شبهته سلك ثغرها ... فلولا اللمى لم تتضح شبهة الشك
مدامى حميا ريقها وتنقلي ... بتفاح خديها ومن لفظها جنكى
ربيبة ملك حكمت في لحاظها ... ولا عجب إن حكمت ربة الملك

منها . .

إذا صرحت أحجالها في حجالها   حكى قلبي الطيار في خفة الكركي
بغى جوهراً في حق ثغرك فانبرى   بخال تذل العين في ذلك السلك

إلى آخرها .

محسن بن إسماعيل

محسن بن إسماعيل بن القاسم بن محمد، ولد في سوده شظب سنة ١٠٧١، ثم انتقل إلى صنعاء في آخر عمره قال عنه صاحب (نفحات العنبر): «الشاعر المشهور أحد الأعيان، جمع بين جودة النقد وحسن النقد، وجميع شعره في غاية النفاسة والدقة، مكسي بحلل الرشاقة والسلاسة».

إلى أن يقول:

«وأقسم أنه سحر لا شعر ونفائس درر ونفحات زهر»، وقال عنه الأديب إسحاق بن يوسف صاحب (ثغر الدهر الباسم)، هو ممن انفرد بالإجادة في نظم الشعر وبلغ الغاية، وكان قليل النظم، قلت وهو ممن شجع الأدباء في عصره، وكانت تحف به من الأدباء جماعة يساجل معهم أرق الشعر وأنفسه، وقد ألف له الأديب عبدالله بن علي الوزير مقامته الطريفة (أقراط الذهب) في المفاخرة بين الروضة وبئر العزب توفي سنة ١١٢٤.

من رقيق شعره في التشوق إلى صنعاء:

تذكرت لو أن التذكر أغناني ... زماناً تقضى بين وجرة والبان
أسكان صنعا دعوة من متيم ... كليم الحشا حلف الصبابة ولهان
سقى الغيث هاتيك القصور التي غدت ... تضاحك أرجاها بحور وولدان
وعيش على متن الكميت قطعته ... بحكم الهوى ما بين حان وألحان
ألاعب أفلال المسرة تارة ... وأسحب في ظل الشبيبة أرداني

إذا أضحكتني ألسن الناي تارة / عطفت على تذكار صنعا فأبكاني
وهبني فتى في شرعة اللهو راتع / يحرك مني الكاس أعطاف نشوان
فقل لي ما لليل يبعث أشجاني / لقد طال ليل الهجر بالمدنف العاني

ومن روضياته:

ولقد ذكرتك عند روض زانه / النوار من ورد ومن نسرين
والورق في أعوادها وفنونها / تأتي لنا بطرائف وفنون
والطل رقرقه النسيم فصار فو / ق الدهر مثل اللؤلؤ المكنون
وترى الغصون على جداول مائه / تحكي لنا الأهداب حول عيون
وبها الشقائق مائساً نعمانها / لما اكتسى صبغاً من الزرجون

ومن انسجاماته البديعة:

طال في تسواف وعدك / يا حبيبي مطل عبدك
وكميت الشوق جار / حشه منصوب نهدك
وعقود الصبر مني / حشها معقود بندك
فبسلطان غرامي / فيك أوثق عقد عهدك
وأجرني من دلال / جار في عادل قدك
وأذقني حين لثمي / فاك من بارد شهدك

وله شعر آخر أورده المؤرخ زبارة فينظر هناك.

الخيواني

زيد بن علي بن قيس الخيواني، ولد سنة ١١٧٣ واتصل بأعيان عصره ومدحهم بغرر القصائد، وكان قد تولى مخزن الحبوب للمهدي (صاحب المواهب)، ثم آثر النصح والسعي في قضاء حوائج المسلمين، وكانت بينه وبين الأديب عبدالله بن علي الوزير صحبة أكيدة توفي سنة ١١٥٠، ومن شعره بعد القصيدة التي على منوال قصيدة ابن مطروح:

تعلم عليك وتستحق ... إني لهجرك لم أطق
قد رق دمعي والنظا ... م ومهجتي أفنها ترق
إن لم ترقَّ لوامق ... في بحر حبك قد غرق
فلأفعلن قضية ... وليحصلن ونتفق
لولا لواحظك التي ... تسطو على الصب القلق
ولظى بخدك أوقدت ... من قابلته فيحترق
ونبال هدب أرشقت ... لمتيم كلف أرق
ورماح قدٍّ أشرعت ... كم تستلين وتسترق
لحملت حملة بيهس ... لا بالجبان ولا الفَرِق
وأخذت قلباً من يديك ... سرقته يا مسترق
لكنني لم أستطع ... فعلاً كحالة من عشق
فارفق برق وامق ... من سكر حبك لم يفق

وانظر لخيل مدامع ... فوق المحاجر تستبق
فكأنها شهب لتر ... مي من لوجدي يسترق
يا قلب دع عنك اللوا ... حظ والقوام الممتشق

وله أيضاً:

ورب معنف مغرى ... يلوم المغرم الصب
يقول وقد رأى حالي ... وبي ما بي من الحب
قضيت من الهوى أرباً ... فقلت له نعم نحبي
وهل تسلو فقلت له ... أجل عن صحبة القلب
ألا يا عيشي الماضي ... سقتك مدامع السحب
وجادت كل غادية ... ربوع البان والشعب
ففي كل الربا أربي ... غزال للنهى يسبي
ربيب أدعج غنج ... يصول بمرهبي غضب
إذا ما ماس في حلل ... أغار موائس القضب

وله مقطعات كثيرة في معاني مختلفة، منها قوله على طريقة البديعيين في الاقتباس والتورية والاكتفاء:

حبي لياسين نبي الهدى ... وصنوه حيدرة ذي المنن
وفاطم بضعة حبر الورى ... وللحسين المجتبى والحسن
فضل من الله فحمداً له ... ذلك فضل الله يؤتيه من

وغير ذلك.

ووقفت على قصيدة حمينية له في التشوق إلى صنعاء يقول فيها:

ما غردت ورق بأعلى فنن ... وما سجع في الدوح قمري
إلا وهاجت لوعتي والشجن ... وأعلنت مكنون سري
وأظهرت من صبوتي ما كمن ... وظل دمع العين يجري
وبت منها في ربوع الشجن ... أهيم وأسأل أين بدري

بيت

يا ساجعات الورق مالك تطير   نعم ولو كنت حزينه
لو كان لي مثلك جناح لا أطير   إلى ربا صنعاء المدينة
فالقلب فيها يا حمامة أسير   ومهجتي فيها رهينه
نعم نعم ما مثل صنعاء اليمن   هيهات هيهات ما مصر كمصر

بيت

كم في رباها الفايقة من رياض   نشر عليها الغيم برده
والنهر فيها قد سقاها وفاض   والبرق فيها سل حده
وأعين النرجس فيها مراض   تنبهت من بعد رقده
ودمع تلك السحب في الروض شن   أشجاه فيها لحن قمري

الشامي

هاشم بن يحيى بن محمد الشامي، ولد سنة ١٠٨٧، وتلقى علومه بمدينة صنعاء عن جماعة من العلماء، وعرف بذكائه المفرط وتولى القضاء والخطابة، وتوفي سنة ١١٥٨، وله شعر كثير أورده صاحب (نشر العرف) وغيره من ذلك:

ليس مأمولي وصالك ... إنما أبغي خيالك
إنك البدر فمن أيـ ... ـسن لمثلي أن ينالك
ليس يسلوك فؤادي ... أنا لا أشكو مطالك
لم تشاهد مقلتي في الـ ... ـخرد البيض مثالك
يا قوام الغصن الرطب ... وهل يحكي اعتدالك
ما الذي عن صبك المشـ ... ـتاق في الحب أمالك
أنا أهواك وإن ... ملت وطولت ملالك
هاك قلب الصب ... فافعل بفؤادي ما بدالك

وله:

والحب وهو القسم البالغ ... إنك عندي القمر البازغ
وحليك المعنى البديع الذي ... أغناك عما صاغه الصائغ
وإن قلبي لك طول المدى ... لا مائل عنك ولا زائغ
لم يثنه عنك عذول ولم ... يشغله عن حبك الفارغ
لا أسمع العذل في لومة ... فإنما عيش الهوى السائغ

وله؛

لـــك أن تجــري ولي ورد قلب ... لم يــزل من هــواك في بلبــال
شكـراً لله سعى قلبي فما غيـره ... عـــن هـــواك طــول المــطال
ليس منـع المزار أعجب من بخـ ... ـلـك عني بـزورة في خـيــال
يـا رفـاقــاً عن العقيق استقلوا ... بعـد عهد من سـالفات الليـالي
يـا سقى معهـد العقيق ودهـراً ... قـد تقضى صوب الحيـا الهطال

إلخ . .

العادل

عبدالله بن صلاح العادل من أشهر شعراء القرن الثاني عشر، عاش بصنعاء وكانت له عناية تامة بعلوم الحديث، ورحل إلى مكة ثم عاد إلى صنعاء فتوفي على أثر عودته سنة ١١٦٥، وديوان شعره جمعه الفقيه الوزير أحمد بن علي النهمي.

من شعره في تفضيل بئر العزب:

روض بغرب أزال جاده كرماً ... بديمة الخصب من أجفاني السحب
روض نزلنا فأقرانا النسيم به ... روحاً لضعف قوى الأرواح يستلب
يلعب بعقل النازلين به ... ملاعب في رباها يحسن اللعب
ملاعب زارني في سوحها قمر ... في ثغره الخمر ممزوجاً به الضرب
فالكاس في كفه راع النظير لما ... في الثغر يا حب هذا الخمر والحبب
فقل لأهل ملامي في محبته ... ليذهبوا بملامي أين ما ذهبوا

وأكثر شعره في الغزل والخمريات والمدح، وربما جمع بينها في منظومة واحدة كقوله في الغزل والخمر:

خل تشبيب جفاة العرب ... بالحمى والمنحنى والكثب
وأدر ذكر لييلات مضت ... وزمان نلت فيه أربي
زمن طاوعني في فعله ... فهو يسعى لي بنجح المطلب
فلكم من ليلة قصرها ... لي بتطويل فنون الطرب

وأراني جنة الخلد بما ... شملته في مقام اللعب
وشياطين همومي رجمت ... من كئوس كنجوم الحبب
فكأني والذي همت به ... في سماء زينت بالشهب
بدرها الساقي وشمس الأفق ... في الكأس راح كمذاب الذهب
فإذا ما غربت في فمه ... لاح لي معنى به القلب سُبي
لم تساعدني معاني وصفه ... أي شيء لعروض السبب
وأنا ما بين طرف أحور ... حائر الفكر وثغر أشنب
أشقيقاً كست الخدين أم ... سقت التوريد ماء اللعب
فلكم نبهنا في روضة ... طيرها مستفتحاً للطلب
ولصحبي نشوة ما مسهم ... من خمار الخمر كف النصب

ويقول فيها في الحكمة والتأمل:

وجنتاه كسواد بين ... بين مبيضي شعاع الكوكب
كلما امتد بياض الصبح في ... أفقه أمحل سواد المغرب
وبكل ينتفي الضد فسل ... يومك الماضي عن المنقلب
عايداً ما قد مضى أم بعد ذا ... غيره آت ولم يحتسب
فلعمري ما سوى الحال لنا ... عمر فاقطع شباك التعب

رحمه الله ونفع به.

أحمد بن يوسف

أحمد بن يوسف بن الحسين بن الحسن بن القاسم بن محمد، ولد بصنعاء سنة ١١١١، وبرع في نظم الشعر، وكان في أول أمره مولعاً بالغزل والتشبيب، ثم انصرف في آخر الأمر إلى علوم الفقه والحديث، حتى غلب عليه اسمه فقبل له الحديث، له مؤلفات معروفة، وكانت وفاته سنة ١١٩١.

ومن رقيق شعره الوعظي:

يا رب إني هالك إن لم تداركني بفضلك
ما بي مخافة أن تجو ر عليّ لكن خوف عدلك

ومن غزلياته:

بيض الطلا وسود الحدق لجسمي وعيني الظنا والأرق
وأحور يرنو بنبّاله ويبسم عن لؤلؤ في نسق
يقول فؤادي إذا ما رنا رمى وتقول عيوني رمق
ويعجبني أنني لم شم سهاماً وأن دمي لم يرق
وألقى له أثراً في الحشا فأعلم أن فؤادي صدق
ويذهلني سحر ألحاظه فأحسبه باطلاً وهو حق
ولم أرض سكناه في مهجتي لأني خشيت عليه الحرق
فسبحان من صاغه فتنة وحملني منه ما لم أطق

وقوله :

ما دام قلبك منزلاً من داره والعدل منتصب عليك فداره
واصبر له إن المحبة جنة لكنها محفوفة بمكاره
من لم يكن بالصبر يبدا طائعاً في الحب عاد إليه عود الكاره
فاشدد يديك على التصبر سائلاً مولى الورى حرق العذول بناره
وأغر يرمي عن قسي حواجب ألحاظه والنبل من أشفاره
يصمي القلوب إذا دنا وإذا بدا للبر غاب البدر من إسفاره

إلى آخرها.

وقد أورد له صاحب (نفحات العنبر) وغيره كافيته الرائعة التي يقول في أولها :

خذ فؤادي فإنه بعض مالك أنا عبد وأنت أفديك مالك

وله يتغزل في سوداء :

وذات عين شكلا تحسبها غصناً غدا وهو من دم ضرج
سوداء من مهجة بها سكنت لها من المسك اللون الأرج
نضا عليها الشباب من كلف سواده والعيون والمهج
غيداء إن رقّ ناضراً دعجا في مثلها فهي كلها دعج
ما إن رأت مقلتي لؤلؤة عصماً سواها وجسمها سبج
رأى بها القلب شبهه فغدا كأنه بالشبيه ممتزج

ابن صاحب العدين

محمد بن علي بن محمد، عرف بابن صاحب، شاعر ذكره الحيمي ضمن شعراء صنعاء، وقال عنه: «اجتمعت به في صنعاء فأملاني من شعره رقائق نظمه» يقول ثم وصله خبر نعيه بعد مغادرته صنعاء فتكون وفاته في أوائل القرن الثاني عشر.

ومن شعره:

مـا تـرى يـومنـا رقيق الحـواشي	كيف أضحى الهوى به في انتعـاش
نشر الـروض نشره فـاغتـدى الهم (م)	وقـد هـبـت الـنسـيـم كـلا شى
ودمـوع الغمـام أضحكت الـزهـر	سـروراً وغـاب لاحٍ وواشي
ورداي مـن نـوره وإزاري	وبسـاطي ونـزهـتي وفـراشي
فـاغتنم من رفـه الـزمـان ومـره	يـا حليف السـدا نسـج القمـاش

الفندي

محمد بن حسن الفندي من أدباء العصر، تولى الوزارة وعُدَّ في قائمة الشعراء الكبار، قال عنه الحيمي: «ما رأيت أصح من كتبه، ولا نظرت أوضح من محررات أدبه».

أكثر ما عرف بكتابة الرسائل النثرية.

وأورد مقاطع منها قوله في الجناس التام:

وشــادن من بني الأعــراب مبتسم ... نظمت فيه من الأشعـار ألف روي
لم يــرو قلبي وقــد قبلت مبسمــه ... عشـراً ولا هو من قبلت ألف روي

وقوله فيه أيضا:

وشــادن قــلت لــه ... دعني أقبــل شـفتـك
فــقــال لي كـم مــرة ... قبلتهــا مــا شفتــك

وله غير ذلك.

عبدالله بن أحمد إسحاق

عبدالله بن أحمد إسحاق بن إبراهيم بن المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم ابن محمد، من الشعراء العلماء ولد سنة ١١٦٢، وأخذ عن العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، وقد عرف بصدق اللهجة وعدم المحاباة في الله توفي سنة ١١٩١.

وقد وقفت على قطعة من ديوان شعره، وهو شعر يغلب عليه الجانب الاجتماعي والمساجلة مع إخوانه، وقد أبان ديوانه عن شيء من شخصيته وعاداته فهو من المغرمين بالقهوة، يقول في إحدى قصائده مشيراً إلى شغف آل الكبسي بهذا الشراب النفيس:

شغلتنا عن صلاة المغرب ... قهوة تنسي ببنت العنب
جسمها ذوب عقيق زانه ... من نحور حبب كالذهب
ما على السادات من كبس إذا ... أكثروا الشرب لها من معتب
فاملأ الكاسات من دلتها ... وأدرها فهي أقصى أربي
ثم غن أيها الساقي بما ... قلت فيها من نظام مطرب
فهي والشعر مع المغنى به ... طرب في طرب في طرب

بل وبالقات نجده قد أكله وفضله على سائر الولع:

ما في المراقح مثل القات مرقحة ... يهدي إلى كل قلب منه أفراحا
هيهات هيهات ما الصهبا تقاس به ... ولو أديرت على الندمان أقداحا

ونعلم من شعره أنه أحد فرسان مفرج (سمرقند)، بل هو ثالث ثلاثة من شعراء هذا المفرج ونسمعه يكتب إلى صاحبه الأديب علي بن حسن الحوثي، بأن يجمع ما قيل في هذا المفرج من شعر في مؤلف أسموه فيما بعد (بعصارة القند مما نظم في سمرقند) يقول:

بادر بجمع عصارة القند ... من قبل تسلبها يد الفقد
فلقد حوت يا سيدي درراً ... أزرت بنسق فرائد العقد
قد ضمنت شرح الغرام وما ... يلقى من كلف أخو الوجد
راقت بدائعها لناظرها ... فكأنما هي جنة الخلد
لا عيب عند النقد فيه سوى ... لطف النسيم ونفحة الورد

ويدور أكثر شعره في معاتبة إخوانه وممازحتهم، يسمع بأحدهم وقد أصابه محبوبه بخدوش في وجهه فيكتب إليه هذه المقطوعة الساخرة:

يا ضياء الإسلام حسبك ما قد ... كان من شادن شديد التعدي
ببنان لولا اللطافة ظنت ... بجناياتها براثن أسد
ما كفاه ما في حشاك من الوجد ... عليه وطول ليل وسهد
فاخش من بعدها أراك قتيلاً ... يا ابن ودي ظلماً لمايس قد

ويشكو من أصدقائه ويعد معرفته بهم من المصائب، يقول في خطاب إلى أحدهم:

يا أيها المولى الذي ... أضحى لندمه معاتب
كم ذا العتاب إلى متى ... مر الزمان وأنـ ـاضب
فلقد ثقلت لكثر ما ... جهزت منه من الكتائب
لا كان معرفتي فقد ... أعددتها أم المصائب
فاطو المودة والعتا ... ب فلن أجيب ولن أكاذب
وأبحت عرضي ما بقيت ... فكن له ما عشت ثالب
وإذا اجتمعنا في الطريق ... فلا سلام ولا تخاطب
خذ جانباً منها ودع ... لي يا ضياء الدين جانب

ويقول في موضع آخر:

فأخوان هذا الدهر إلا أقلّهم ... ذياب ذياب فوقهن ثياب
غررت بهم دهراً وكم غر ضامئاً ... ببطن فلاة في الهجير سراب
تيقنت ألّا صاحب غير صاحب ... يلوح بليل النقع منه شهاب
حسام رقيق الشفرتين مهنّد ... على متنه منه يسيل عباب

ويكثر في شعره عتاب الأصدقاء، لكنه مع ذلك ربما سرّ بهم أحياناً، فنجده يثني عليهم بشعر يقول في بعضه:

طاب المقام بندمة ... خلقوا على وفق اقتراح
دارت على صحبي به ... كاسات أوصاف الملاح
فثملت من خمر السرو ... ر وصار همي في انتزاح
وعرفت نشر أحبتي ... في طي أفواج الرياح

ومن مذهبه في الحياة اغتنام اللذة والسعي إلى الراحة:

قم فثغر الروض ضاحك ... وأدر كاسات راحك
وقيان قد تغنّت على ... وفق اقتراحك
وامسح النوم عن الأجـ ... ـفان وانعم باصطباحك
وعلى اللذات فعكف ... في غدوك ورواحك
إنما عمرك في التحقيق ... ساعات انشراحك

ونجده يدعو إلى اللهو ونبذ الرشد:

بوصل سليمى أم بصرم سعاد ... غدا ناقماً إذ لم يفز بمراد
وهيهات أن يثني العميد عن الهوى ... ملام عذول فارغ وأعادي
أأثني عنان الوجد عن حلبة الصبا ... وما بلغت ما أبتغيه جيادي
على أنها في السر لم ترض مشرباً ... وأكبادها للشرب منه صوادي
ولا راقها المرعى الخصيب وقد غدا ... على نفسه بالبذل منه ينادي
وما صاحبي في الحب إلا فتى غدا ... يرى الرشد غيّاً والضلال رشاد

يحسن لي دين الغرام ويدعي ... مساعدة لي حرقة وسهاد
متى ترك الأطلال غير معرج ... على دارس منها كرسم مداد

إنه لا يرى إلا من يساعده على الغي والضلال، ويحسن له دين الغرام واللهو، وهذا شيء كبير من فقيه كبير عاش حياته بين المتون وتدريس الطلبة، ولكن الشعر يقتضي ذلك .

وله أسلوب آخر في الغزل والغرام يبتديه غالباً ببعث الرسول إلى حبيبه وتوصيته بما يريد قوله، وفي الغالب يكون هذا الرسول فتاة على خلاف العادة عند المحبين :

قولي لمولاك الرشا ... الفتان سلطان الملاح
أغناك صارم لحظك ... المسنون عن حمل السلاح
سود اللحاظ الفاترا ... ت أحد من بيض الصفاح
ثم اخبريه بأن قلبي (م) ... خافق مثل الجناح
وبأن طرفي لم يزل ... يرعى النجوم إلى الصباح
وبأنني سكران من ... تلك اللواحظ غير صاح
وبأن لام عذاره ... ولماه ريحاني وراح
قد لذ لي خلع العذار ... وراق في العشق افتضاح

ويكثر من حديث الطيف وزورته المختلسة :

خيال لاشتياق طار نحوي ... وكان وصوله وقت الصباح
خيال رق منه الجسم عشقاً ... فقد هجرت أعطاف الملاح
خيال راع قلبا لم ترعه ... بيوم الروع بارقة السلاح
هتكت الستر إذ وافيت صبحا ... أترمي بين صحبي بافتضاحي
فهلا زرتني والليل داج ... وقد ملأت كتائبه النواحي
فكم قد زارني فيه خيال ... على ورد وريحان وراح
فقال سراي كان إليك ليلاً ... ولكن راعني خفق الرياح
وجسمي تجرح الألحاظ فيه ... وخفق الريح أنكى في الجراح

فقلت لـه صدقت فعِمْ صبـاحا وكـل واشرب وقـرّ بالاصـطباح
ونــادمـني فــأنت أرق طـبعـاً من الصـهبـاء والمــاء الـقــراح
وطـارحني حديثـك في التصـابي ونـحْ إني شـريكــك في النـواح
ولا تكتـم من الأســرار شـيئـا فقلبي مثــل قلبـك كــالجنــاح
وروح خــاطـري بحـديث قيس قتيــل الحب لا بيض الصفـاح

وانه حوار بين الشاعر وخياله وقد أتاه في وقت متأخر من الليل حتى خشي منه الشاعر الافتضاح، فجرى بينهما هذا الحوار، وكان أديبنا ممن رثى الحبيب بشعر فيه رثاء وغزل:

يـا قلب مـالـك لا تـزال ،مـروعاً لـوفـاة بـدر في المـلاحــة مفـرد
أو مـا عــلمـت بــأنــه وافى إلى مـلك خــزائن جــوده لم تـنفـد
فلعــل من أحببتــه في نعـمــه ومـقــام أنس في الجـنــان مخـلد

وقد توسعنا في شعره لأننا وقفنا على ديوانه المخطوط.

قاسم بن عبد الرب

الأديب القاسم بن عبد الرب بن محمد بن الحسين بن عبد القادر الناصر، هو أشعر آل عبدالقادر، ولد سنة ١١٧٤ ونشأ في حجر عمه الأديب عيسى بن محمد صاحب (الحدايق المطلعة)، وقد برع في الأدب حتى قال عنه المؤرخ جحاف: (عانى صوغ الأشعار فنظم المحبر المختار) وغزا على كثير من المعاني فأخذ منها الجيد وابتز، وصار بين أهل عصره كابن المعتز، شاعراً مفلقاً تناقل شعره الأكابر، ورزق الحظ في وقته توفي سنة ١٢١٦.

وقد جمع ديوان شعره في مجموع أسماه (الزورق فيما حلا ورق).

ومن شعره في تشبيه الشمعة:

وليل كمثل الصبح أنساً قطعته ... وأضحت عيون العذل عنا بمعزل
تنوب عن الشمس المنيرة شمعة ... على رأسها ضوء الذبال المفتل
كمعصم صفر الدارعين إذ أقبلت ... وقد قبضت في كفها ريش أخيل

وقوله يصف الليل والشمعة:

وليل كأدهم لكنما ... فوارسه طارقات الأماني
اتخذت لتمزيقه شمعة ... كما اتخذ الرمح يوم الطعان
فباتت تكسر في نحره ... مراراً فلم يبق غير السنان

ومن شعره المنسجم:

غـرام لم يـدنس بـالـنـواهـي | بـقلب قـد تمـرس بـالـدواهـي
ووجـد لـو تحـمـله ثـبـير | لأضحى جسمـه كـالصب واهي
ودمـع لـو تـسـاوى والغـوادي | لمـا افـتـرقـا لفـرط الاشـتـبـاه
إذا استسقى الأنـام الغيث قـالـوا | أرعـد بـالـتـفـرق يـا إلهي
لكي نبكي عـلى الأحبـاب حتى | نعيـد نضـارة الـدنيـا كـما هي

وكعادة العلماء والفقهاء في عصره نجده يزري بالشعر ويرى أنه ليس إلا مجرد تأليف ألفاظ يستأنس بها القلب:

الشعـر أحقـر مـا نحـاه الأعلم | وأجـل مـا كسب البليـد الأكتم
ولقـد أقـول الشعـر أعلم أنـه | هـذر يـراه من يـذوق ويفـهم
يجري اليراع بغير ما يجري بـه | من اللســان ويستجـير المسـلم
ليست سـوى تـأليف ألفـاظ بهـا | يصبـو الحليم فتستجـاد فتـرقم
والقلب يـولـع بـالـرقيق لأنـه | قـد رق جـوهـره وربي يـعلم

وله من الشعر الرقيق غزليات خفيفة الوزن والمنحى كقوله في مطلع قصيدة يمدح بها أحدهم:

يـا جيـرة سكنـوا البـوادي | عـمـداً ودارهـم فـؤادي
لـو تـرحـلون إلى السـواد | لـكـنـتم نَصْبَ الـسـواد
إذ كـنـت ممـن لا يخـون | إذا فـأي عـهـد الـوداد
كـلا ولا نـاري لمـن | أهـوى كمـين في الـزنـاد
يـا صاح دع هـذا النـوى | واسـلك طـريـق الاتحـاد
فـالعمـر محسـوب عليـك | بـدون أيـام الـبـعـاد
مـالي إذا جـن الـظلام | أبـيـت مـسـلوب الـرقـاد
حـتى إذا وضـح الصبـاح | طـلبـتـكـم في كـل نـاد

إلى آخرها.

وكان أشهر ما عرف له من نظم، هو قصائده الحمينية التي أعجب بها الناس في مجتمعه وغنوها بألحان جميلة وضعوها لها منذ القرن الثالث عشر

كحمينيته التي يقول فيها:

بدا مغير البدر عند الكمال ... رابع عشرٍ شعبان ذيّه
عليه تاج المملكة والجمال ... لكن مع اللُّطف السجيه
وأخلاق مثل الروض فيها دلال ... به معرفة عنده قويه
ما كان ظني أن خلي يصال ... إلا خياله في عشيه
أهلا وسهلا ومرحب يا هلال ... بالله عليك أطلع هنيه
ضحك وقال لي اترك الاشتغال ... أما الكبر ما هو لي بنيه
ما نيتي ألا يكون الوصال ... غفلة كما النية مطيه
فقلت هذا مطلبي والسؤال ... ما في المحبة من خطيه
فقلت هذه ليلة القدر قال ... بل ليلة القدر المضية
فقلت هذا السحر لكن حلال ... والله يا عذب الثنيه
الله يحوطك بالمثاني وسال ... من عين من حب الأذيه
هاشرب من الكاس الحلال ... تبقي الحكاية مستويه

وله من أخرى:

نهب فؤادي سمهري القوام ... ساجي الرنا نوني الحواجب
وقال وصله للمعنّى حرام ... وقتله المفتون واجب
والطيف ما له فائدة في المنام ... أو هو مخاطب بالكواكب
والطرف ما يومن عليه في المنام ... ولو عليه سبعون مراقب

بيت

ليت الهوى كان خلقاً والبعاد ... ويخلق العاني مساعد
لمة على من شا احتمل للسهاد ... وابقى مدارك للفراقد
هذا الذي فوق رأسي وعاد ... يخاطب المملوك بزايد

بيت

لأن في أعيان ريب المنون ... قد جرو السيف اليماني

ومن قتل تحت سيفه يهون والقتل ما هو له بعاني
مازد دريت يا ناس ماذا يكون و
من في جبينه كالقمر في التمام قد لاح في ليل الذوائب

بيت

على خدودي دمع عيني يسيل من هجر معسول الثنيه
لي قلب فيه قد صار مضنى عليل يا ليت واحنا بالسوية
يا غارة الله قد حملت الثقيل ما زاد بقافيّ بقية
عسى يقايس حالك المستهام كم في المحبة من مصائب

بيت

كم قد قريت الفاتحة للشفا في حب من قصده تلافى
ومربي في عشقته ما كفى الله حسبي وهو كافي
ليته يعلم كيف طبع الكرام ومن رقي أعلى المراتب

إلى آخره .

الزهيري

أحمد بن الحسن بن سعيد الزهيري، ولد بثلا سنة ١١٤٠ تقريباً وكان شاعر عصره في المدح، وتولى الوعظ بجامع صنعاء ذكره صاحب (الحدائق المطلعة) بقوله: «شاعر لو رآه أبو الطيب لما تِنبا، أو المعري لما صار بشعره صبّا، إن قال غزلاً صير الوهاد غـزلاً، أو شبب أذكى في القلوب وشب أو نسب أغنى عن النشب، أو هدد وزجر روع الأسد وقد زجر أو مدح فالكرم قدح» إلخ.

وقال عنه المؤرخ زبارة اشتغل بـأهل التصـوف، وتصدر للوعظ بجـامع صنعاء وكان أبيض اللون ربعة بطيء الحركة أكثر حاله التفكر، حلو العبارة جيد الفكرة.

وأصيب في آخر عمره بمرض الفالج فأبطل حركته وتوفي سنة ١٢١٤.

وقد عرف شعره بالمدح وكان أكثر مدحه في أمراء كـوكبان، وكـانوا قـد أحسنوا إليه بالعطاء الجزيل قال يشيد بكرمهم في ذلك:

وكنت فقيـراً ثم عـدت بفضله   مضاهر ثوبي وشي خز وعسجـد

وهو يمدح فيشيد بالشجاعة والإقدام فيقول:

ومـا العـز إلا فـوق كـل مـطهم   من الجرد ما بين الخميسـين أدهم

ويتغزل فيصرح بجمال محبوباته، في غزله يقول في مستهل قصيدة جيدة:

سلاّ هل سلا قلبي العميد المتيم حبّيبـة تقـضي عـليـه وتحكـم
يمـانية مـا إن تـرى العـين مثلهـا لـهـا من فؤادي اليوم مغنى ومغنم
أدور عــلى أطــلالهــا متـغــزلا وألــوي عليهـا بــاكيـاً أتــظلم

وفي شعره يبدو أثر المتنبي عليه جليّاً، ووصفه بعضهم بأنه مقلد له.

ومن جيد شعره:

أبشروا إن هي اعرضت بـوصال يشفـى ولــو قــد آذنت بمــطال
فـالحب ما بـين الـرجـا والخـوف عند أولي الهوى من أحسن الأحوال
وإذا تعــذر وصــل من أحببتــه والصبـر لا يغنيـك عنـه بحـال
فـأمر خيـالـك في محـاسنـه فقـد يهدي إليك الفكـر بعض وصال
واطلب بمتسع المنى مـا شئت من أمـل يـطاوعـك العـزيـز الغـالي
إن المــنى هــو الخــيــال وإنمــا الــدنيـا إذا حققت هــو خيــال
ولقد حبيت من الحسان وشافعي روق الـشبــاب بمـنتـهى آمــالي
بـين الشبـاب وبـين كـل مليحـة حــب يحــير فــطنــة الـعــذال
فكـأنمـا اجتمعـا معـاً وتعـاهـدا عهــداً عـلى الإدبــار والإقبــال
واصْــلتــني وصــل مــلال وهجـرني هجـراً بغـير مـلال
حتى قنعت من الحسـاب بزورتي لــديـارهــا وخــوالي الأطــلال
ومـدامعي بين السحـاب وبينهـا خطو اصطحاب أو سباق سجال

حسن بن عبد الرحمن الكوكباني

هو من شعراء العصر الكبار ولد بكوكبان سنة ١١٧٩ وبرع في الأدب حتى فاق أهل عصره، وله ديوانان أحدهما فصيح بعنوان (عقود الجمان) من شعر الحسن بن عبد الرحمن، والثاني حميني بعنوان (الحسن المصان عن أبناء الزمان) وله مؤلفات أخرى وكان قد تبحر في العلوم وفنون الأدب توفي سنة ١٢٦٥.

من شعره الحكمي قوله:

لا تلمني إذا خلعت العذارا   وتهتكت في الحسان العذارى
لو رأيت الديار تسكنها الأقـ   ـمار مثلي لما جهلت الديارا
غرف طالما عرفت بها الولد   ان والخرّد الكعاب الصغارا
ورياض بها سكنا وكنا   نجتني من غصونها الأثمارا

إلى آخرها، وقد أوردها المؤرخ زبارة في (نيل الوطر) فتنظر هناك.

وشعره الحميني من النوع الغنائي المشطر والمبيت، وقد برز فيه وكان سبب شهرته بين أهل عصره مثل قوله:

القلب مثل النار   من يطفى لظاه يا مسلمين
في حب ريم الدار   من في عشر بعد أربع سنين
من مخجل الأقمار   والأغصان من بهجه ولين
ويفضح الأزهار   ما في الجيد من لؤلؤ ثمين

الــغــصــن مــنــه غار وتلقى زهرته ساخط حزين
والــصــدر فــيــه أثــمــار . . . .
واخجلة المغوار يشكي طيفه السار «السمين»
قــد ضــاقــت الأســوار فيك والدمالج في اليمين
والآن يــا مــن جــار حكمه فوق جور الجائرين
مــن طــرفــك الــبــتــار ورمح القد يا صافي الجبين
قــد الــفــؤاد أعــشــار تسعة لك وواحد لي بقين
وأنــا مــن الأخــيــار حكمي غير حكم العاشقين

وله من أخرى:

يا طير فوق الغصون بالله أوشى خبر
عن بابلي العيون الخشف ساجي الحور
من سحر تلك العيون قد سال قلبي قطر
الله حسيب العيون كم في الهوى مؤتسر

بيت

يا طير شاحملك بالله هذا الكتاب
بلغ كتابي فلك في فعل هذا ثواب
قل للذي قد ملك روحي يرد الجواب
مضناه حليف الشجون أضناه طول السهر

بيت

كم شايكون الجفا يا ناس جسمي نحيل
وقد جرى ما كفى من أجل هذا الكحيل
وفي شروط الوفا الروح بذله قليل
قد صار عشقي فنون فيك يا شقيق العمر

بيت

يا لائمي خلّني بالله خل الملام
أوما دريت أنني قتيل سامي القوام
دعني فما (..) قلبي شجى مستهام
في حب مزري العيون ما زاد قلبي جبر

وقصائده في هذا الجانب كثيرة ومتنوعة.

وهو ممن خلط في شعره بين الفصيح والعامي فقال في بعضه:

نظرت إلى وجه الثرى وهو واضح وقد لبست حمر الدلاص الضحاضح
ومد جناح الأرض طاوس ريشه وسالت بأعناق المطي الأباطح
ورق الهوى حتى لقد كاد تشربه ورعد السماء يمليك والقطر يكتبه

وقد صف جيش ألفيت أجناد موكبه

وأرخى السحاب الجون بردا ممسكا له القطر هدب والبروق صفائح
وفاح شذى الوادي فطاب نسيمه وأرّجت الأرجا منه الفوائح
وبه فوق جسم الأرض حلة من ذهب وسيل الجبال صاغ لازم لجين صب

وقد فاح ريح الروض بالمسك حين هب

إلى آخرها.

الزبيري

أحمد بن لطف الله الباري الزبيري، شاعر مكثر تزينت بشعره سفن الأدباء، ولد بصنعاء سنة ١٢٢٣ وأخذ عن جماعة من علماء عصره وكان أكثر شعره في علم الفقه وفروعه، وتولى القضاء بالعدين، ثم صنعاء وكوكبان، ثم جرت له محنة في آخر حياته بسقوط داره فوق أهله وولده وذهاب كتبه فانتقل إلى الروضة بعد أن خولط في عقله وتوفي رحمه الله سنة ١٢٨٦ .

من شعره طائيته الفريدة التي يقول فيها :

جزتني على فرط الصبابة بالشحط ... فيا للجزاء ماله قط من شرط
فقد طال يومي بعد زم قيادها ... وطار منامي منذ مالت إلى الشط
وحلت بقلبي مذنأت عن نواظري ... فخلت عرى صبري عدا محكم الربط
ويذكرني عهد اللقاء كل بارق ... فيزعجني شوقاً إلى ربة القرط
غزيلية كم جندلت ليث غابة ... بأسهم ألحاظ تصيب ولا تخطي
عديمة شكل أعجمت نون صدغها ... محاسنها من مسكة الخال بالنقط
تعيد ظلام الليل في رونق الضحى ... إذا كشفت مسود فينانها السبط
تريك إذا ناطقتها در منطق ... كما ينثر الدر النظيم على السمط
منعمة ريا السوالف بضة ... ممنعة من دونها الأسل الخطى

ومن شعره :

دع عنك كتمان الغرام فإنما ... كشف الصبابة والهوى أن تعلما

لـولا هـوى ذات الـوشـاح لمـا رأى   طـرفي العقيق ولا جـرى فيـه دمـا
واهــاً لكم كم عــاشق فتكت بــه   ظلماً وكم أســرت بــطرف ضيغــما
تــرمي بهم عينــاً رنــاهــا نــافــذ   بـصميـم حبــات القـلوب تحكــما
ويـريـك مـرسـل شعـرهـا وجبينهـا   وقــوامهـا من فــوق ردف قـد نمــا
غصنـاً تمـايــل فـوق غصن فـوقـه   صبــح تــلألأ تحـت لـيــل أظلما
مـا كنت أحسب قبل معـرفة الهـوى   صيـد الملـوك تصيـدها بيض الـدما

إلى آخره.

قلت وكانت له وجاهة عند أدباء عصره، فلا يكاد ينظم مقطوعة شعرية حتى يساجله جل الأدباء بصنعاء، وقد نظم بيتين قال فيهما:

تبّـاً لقـوم صــرت بـين ظهــورهم   مـلء العيـون الغلف من أوغــارهـا
فلو استـطعت هجرتهم وسكنت من   شم الجبــال بكهـفهــا أوغــارهــا

فأجابه على بيته جل أدباء كوكبان في عصره، ومنهم الإمام عباس بن عبد الـرحمن الشهازي ومحمـد بن عبدالله بن أحمـد الكوكبـاني، وعيسى بن محمد الكوكباني، وقاسم بن إسماعيل بن شمس الدين، ويحيى بن أحمد الماس، وعلي ابن محسن القارة، ومن إجابة الأخير قوله :

تعتـب الــزمن الخئــون بـفعـله   يـا نقـطة وقعت عـلى بيكـارهــا
وبي اعتبـر لا ذنب لي إلا العلا   لكنــه أضحى لمـا بي كــارهــا

وكثير ممن اجاب عليه أوردهم المؤرخ زبارة في (نيل الوطر).

فينظر هناك.

مجاميع أخرى من الشعراء

شعراء آل الحيمي:

من أعرق الأسر العلمية وأشهرها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر نبغ منها في الفترة التي ندرسها جماعة نذكر منهم:

عبد الرحمن بن محمد الحيمي من الفقهاء الشعراء، قال عنه قريبه (صاحب الطيب): (أحفظ الحفاظ وقمس الألفاظ).

وقال المحبي: (بحر زاخر لا يدرك منه آخر، شنفت به الأسماع، وهو في الأدب صاحب آيته).

وقد ترجم له الشوكاني فقال: «كان من العلماء الجامعين، أخذ عنه جماعة من العلماء، منهم الجلال، وأحمد بن سعد الدين المسوري، وأحمد بن صالح بن أبي الرجال، وغيره ولكنه ما سلم من الامتحان من أهل عصره توفي سنة ١٠٦٨.

وشعره من النمط الفقهي كقوله في حب الحديث النبوي:

أحب حديث المصطفى لي وأوده وأضبطه كتباً وأدرس كتبه
وذلك عند المصطفى لي شاهد بحبي له والمرء مع من أحبّه

وقوله في المواضع التي يحسن فيها القيام:

إذا ما شئت للآداب حفظا   فبادر بالقيام ولا توقف

لذي علم وذي حكم وتقوى   ومقدم والد ولقاء مصحف

فقد أمر النبي بمثل هذا   وبين حكمه أبداً وعرف

وله في تذكار النعم:

ألا إن نعماء الجليل جليلة   فلا يطرح تذكارها كل غافل

ثواب وتمحيص ولطف إعاضة   وتذكير نعماء وإيقاظ غافل

الحسن بن أحمد بن صلاح الحيمي

الوزير الرحالة كان من أكابر العلماء، وأفاضل الأدباء له تدبير وحنكة، رحل إلى حضرموت والحبشة في بعثة أفردها بمؤلف مستقل توفي سنة ١٠٧١ وشعره شعر علماء وفيه حسن صياغة وسهولة منه قوله:

أيا سادة بانوا فبان الكرى عنا ... وخان زمان بالفراق وما خنا
رحلتم فلا والله ما العهد عهدنا ... ولا نحن في عيش لذيذ كما كنا
وأوحشتم والدار انسة بكم ... وحلتم عن العهد الأكيد وما حلنا
علام وفيم الهجر يا أهل ودنا ... وهل صنتم ذاك الوداد كما صنا
نسيتم حقوقاً ما رعى الدهر حقها ... وأيامنا بالأمس في الروضة الغنا
ليال لاواش ينم بسرنا ... ولا أعرف الهجران منكم ولا منا
رأيت زماني كلما ظن صاحب ... بخل وفاء لم يحقق له ظنا
فصبرا على ريب الزمان فإنني ... جعلت احتمال الصبر من خلقي فنا

محمد بن حسن أحمد الحيمي

من العلماء الأدباء أطال في ترجمته ولده صاحب (طيب السمر) وكان ممن ترجمه أيضاً صاحب (نفحة الريحانة) وغيره، وقد عرف بالتبحر في العلوم وله مؤلفات ذكرناها في مصادر الفكر الاسلامي، توفي سنة ١١١٥، شعره ومكاتباته جمعها ابنه في مجلد بعنوان (رعى الأب) منه مخطوطة بمكتبة برلين.

ومن شعره ما أورده ولده في (طيب السمر) منه قوله:

مغرى بحبك اين منك ملاذه ... هيهات قد أودى به استحواذه
ما شح مذ عز التلاقي دمعة ... بل سح منه وبله ورذاذه
أشفى على مر التلاف وما شفى ... قلبا فهل من عندك استنقاذه
وهو اللديغ بأرقم أرسلته ... للفرع ما أنجاه عنه لواذه
وبفيك ترياق به ترقى وما ... سواه من لدغ الجفون عياذه
خمر بروح الراح عند مذاقها ... في السكر منبوذا لها نباذه
أيحل في شرع الهوى تعذيبه ... كلا وإن يك عندك استلذاذه

إلى آخرها وهي في (نشر العرف) ج٢ ص ٥٩٢.

وقوله في تشبيه حصن العروس «من كوكبان».

كأنما حصن العروس الذي ... قد لاح لي من بين أجناسه
كاس فتى ألقاه من كفه ... فانقلب الكاس على رأسه

يحيى بن حسن الحيمي

يصفه ابن أخيه بقوله: «عمنا ذو الوزارتين» عرف بالخطابة والقدرة على الكتابة ومن شعره قوله في عراض قصيدة صردر:

بـان الخليط فسـال مـاء شئـوني ... وازداد وجـدي في الهـوى وحنيـني
وتصعـدت زفـرات نفس لم تـزل ... مـأسـورة بـظبـا الـظبـاء العـين
تصبـو إلى ثـاني المعـاطف ثـالث ... القمـرين مستغن عن التحسـين

إلى آخرها، وانظرها في (نشر العرف) ج٢ ص ٨٣٩ مع أشعار أخرى له يقول المؤرخ زبارة ولعل وفاته كانت ١١٢٥.

علي بن يحيى بن الحسن الحيمي

من الأدباء، له ولع بجمع دواوين الشعر وكان لهجا بشعر المتنبي، ونظم إبراهيم الهندي كبابة جواده فمات وهو في مقتبل العمر، ومن شعره في شبام كوكبان.

لله سفح شبام ما ألذ به روض الزهور وقد هبت نسيم صبا
أنظر إلى النهر فيه كاللجين غدا وذا الأصيل عليه قد جرى ذهبا

وقد أطال معاصره الحيمي صاحب (طيب السمر) في ترجمته باستطرادات تتعلق بالبلاغة..

صلاح بن أحمد الحيمي

من علماء القرن الحادي عشر وقد برع في الفقه، وعرف بسداد الأحكام والخطابة من شعره:

حـدثـاني عـن لـعـلـع حـدثـاني ... وعـن المنحنى وعـن نـعـمـان
وربـا رامـه ونـجـد وحـزوى ... والمـصـلى وعن ذرى عـسفـان
واعيـدا ذكر العقيق ومـا مـر لنـا ... مـن حـديـث وادي الـبـان
وسـلا عـن ديـار ليـلى ففيـهـا ... طـاب لي بـاللقـا قـديم زمـاني
فـسقـى روضهـا ومـن حـل فيـه ... قـطرات مـن الحيـا الهـتـان

إلخ.

قلت وهو من المقلين في الشعر ولم يورد له قريبه صاحب (طيب السمر) سوى هذه المقطوعة.

الحسين بن أحمد الحيمي

كان من كبار الخطباء في عصره مع تبحر في العلم وتصدره للفتوى وصفه صاحب (طيب السمر) بأنه يتقدم الجيوش ويخطب فيها محرضاً، ومن شعره:

سلاها هل الصب المشوق سلاها وهل هو من بعد الوداد قلاها
أبى الله أن ينسى المحب دنوها وإن طال في هذا الزمان نواها
سقى دارها باري الغمام بقطره وروى قبيل الصبح منه ثراها
فتصبح روضاً بالاطايب يانعا وتحلو مذاقاً إذ يطيب جناها

إلخ.

يحيى بن الحسين بن أحمد الحيمي

ولد المذكور آنفا شاعراً أديباً وكان بكوكبان، ثم رحل بأهله إلى صنعاء وحضر عدةغزوات،وفي إحداها كبابه جواده فمات لحينه شابّاً، وله شعر قال عنه معاصره صاحب (طيب السمر) أنه جمعه بنفسه في ديوان مستقل ومن شعره قوله:

خف الإله فوجدي فيك غير خفي ... وها فؤادي منه في شفا جرف
رقمت منك على جرف مخافة أن ... ينهار حبك بي في أبحر التلف
قل لي فديتك ما في القول من عتب ... وانطق بصدق لسان غير مختلف
ماذا يكون بقلب قد وقفت به ... فلم يزل خافقاً كالقرط لم يقف

إلى آخرها:

يحيى بن الحسن بن الحسين الحيمي

أحد أقران صاحب كتاب (طيب السمر)، قال عنه كنت استنيبه في الخطابة، وكان يتولى بعض الأقطار، ونزل العدين من اليمن فبدأ به المرض هناك، ثم أدركته المنية في المواهب من أعمال ذمار وهو لا يزال في مقتبل العمر قبل أن تبيض لمته.

يقول المؤرخ زبارة لعل وفاته سنة ١١٢٠ أو قبلها، ومن شعره ما كتبه إلى الحيمي صاحب (طيب السمر):

سلام عليكم إن تناءت بنا دار ... وفي القلب إذ شط النوى بكم نار
أحبتنا لا تحسبوا أن ذكركم ... يغيب وإن طابت بشخصي أسفار
رحلنا وفي طي الجوانح جمرة ... وفي الخد غيث صادق الدمع مدرار
شهاب الهدى الله يعلم أنني ... أذوب اشتياقاً إن عراني تذكار
وكم مجلس سام أدرت لنابه ... شراب عبارات لنا منه إسكار
أفدت وما في قومنا من يفيدنا ... إذا عز للإشكال في الحال إظهار

أحمد بن محمد بن الحسن الحيمي

ينتهي نسبه إلى نشوان الحميري حسب قوله في كتابه (طيب السمر)، وهو خاتمة هذه الأسرة وأشهر أعلامها جمع مؤلفات عظيمة وكتب أشعاراً كثيرة تقع في مجلدات كبيرة، وقد ترجمنا له في مقالنا المنشور في مجلة اليمن الجديد عدد رمضان سنة ١٣٩٣ (اكتوبر ١٩٧٣)، وكذا في عدد أكتوبر سنة ١٩٧٩ من نفس المجلة، وأيضا في كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي) حتى ٣٤٥ فلا حاجة إلى الإعادة هنا، وكانت وفاته سنة ١١٥١.

وله من الشعر على مختلف أنواعه مطولات ومعارضات ومقطعات وحميني وفصيح، قال إنه جمع شعره الفصيح في ديوان بعنوان (مجمع البحور) وشعره الحميني الموشح في ديوان بعنوان (الجواهر المؤتلفة المستخرجة من البحور المختلفة)، وشعره تجده أيضاً مفرقاً في ثنايا كتبه ككتابيه (طيب السمر) (وسلافة العاصر)وغيرهما:

من شعره الكثير هذه المقطعات في التواري والجناس:

يقول في عامل (كوكبان) وقد طالبه أهلها بالكيلة المعتادة فمكث بموضع (بالمحويت) يقال له (العرقوب).

يماطل في العرقوب بالكيلة التي ... غدا الوعد فيها عندنا غير مرقوب
وجدد لي في (كوكبان) وعوده ... فقلت ألا هذا (مواعيد عرقوب)

وقوله في طبيب يقال له الرداعي يدَّعيّ مهنة الطب على غير معرفة:

دع عنك طب الرداعي ... فالموت فيه عيادة
كيف الشفا من طبيب ... فيه الردى وزيادة

وقوله في الجناس التام:

ذبت شوقاً لما نأى من بقلبي ... وفؤادي الجريح قال وحلّا
إلٓه القتل في بني الوجد من غير ... ذنوب قد جاز شرعاً وحلّا
قلد الطرف من دموعي عقوداً ... كاللآلي عند البعاد وحلّا
وسقاني مر الجفا بعد أن أعذ ... ب وردي من الوصال وحلّا
كيف لي بالسلوى من بعد صبري ... حين أوهم الأكيد منه وحلّا

وشعره كبير وجيد.

شعراء آل جحاف

هم شعراء (حبور) نبغ فيهم جمع كبير من الشعراء المجيدين منهم :

زيد بن علي إبراهيم جحاف

كان من الشعراء الوزراء، ولي بندر (المخا) حتى سنة ١٠٨١ ، وكان من العقلاء الحكماء توفي سنة ١١٠٨ ، وقد وصفه صاحب (سلافة العصر) بقوله ص٤٥٥ :

«غيث الجود، وغوث المنجود، بدر الوجود، وروضة المجود» .

ويقول عنه الحيمي وقد أدرك آخر أيامه بعد زوال جاهه :

«شاهدته بصنعاء معزولا ، ورأيت قطن سعادته مغزولا ، وقد عاد سمين عيشه مهزولا» إلى آخر سجع الحيمي . له شعر أغلبه مقطعات في مواضيع متفرقة ، منها قوله في جارية حبشية :

وجارية من الحبش اللواتي ... سلبن بحسن سالفة وعين
أتتنا في الظلام بدون شمع ... وقد غرزت عليه شمعتين
فأعجب ما أحدثكم بأني ... رأيت البدر بين الفرقدين

وشعر آخر أورده صاحب (السلافة) (ونشر العرف) وكلاهما مطبوعين فينظر هناك .

عبدالله بن حسين جحاف

عبدالله بن حسين جحاف ولد (بحبور) سنة ١٠٤٠، وأخذ عن العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال، وعن غيره، وتولى الفتوى بناحية (حجة) وغيرها، توفي سنة ١١١٢، ذكره الحيمي في شعراء آل حجاف، وقال عنه «شعره كأنه من الرياض مختلس، ونظم كأنه النجوم في الغلس».

من شعره هذه المقطوعة الغريبة:

أهلاً بهن على التنويل والنجل ... وقربتهن أيدي الخيل والإبل
القاتلات بلا رمق ولا أود ... والماطلات بلا عذر ولا عذل
كان اللقاء إساءات بذي سلم ... إلى القلوب وإحسانا إلى المقل
من كل ريم فلا الألحاظ مقلته ... كالسيف عري متناه من الخلل
خلية جيدة لا ما تقلده ... وكحلة ما بعينيه لا من الكحل

إبراهيم بن زيد بن علي جحاف

ولد سنة ١٠٧٥ وكان فاضلا عالماً له مؤلفات أدبية أوردناها في كتابنا (المصادر)، وقال عنه الحيمي في (طيب السمر) بعد أن أثنى على حسن خطه وجودة قلمه: «متطلع لنيل الفضايل، لا يألف النعم والرفاهية» إلا أنه عاد ووصفه باللحن الفاحش في شعره ونثره، ومن رقيق شعره قوله في مدح الأديب الحيمي المذكور:

زان القوام من المليحة طاسها ... ولطالما زان الغصون لباسها
جاءت لزورة عاشق في ليله ... مد الستور بأفقها أغلاسها
لما تبدرت الغواني وانبرت ... يبدو باسعاف المنى اركاسها
هل ليلة أنوارها قد أشرقت ... فكأن غرة أحمد نبراسها
صدر الأفاضل في بني الدنيا إذا ... ضم الأفاضل في الذرى أرماسها

إلى آخرها.

حسن بن محمد بن صلاح جحاف

من الأدباء الشعراء توفي سنة ١١١٦، أثنى عليه صاحب (طيب السمر) وأورد له هذا اللغز المنظوم:

يا عماد الدين يا من | صار في الناس مثالا
وحوى رأياً وعلما | واطلاعاً وكمالا
لا تجاري في فنون | صانه الله تعالى
هاك لغزاً من محب | صادق اللفظ مقالا
اقبلوا قولي فقلبي | مغرم يشكو النصالا
عند هيفاء كبدر | فاقت الحور جمالا
إن تثنت فكذا البا | نة لينا واعتدالا
طرفها الفتان أضحى | سحره سحرا حلالا
ارفقي وارثي لصب | دمعه في الخد سالا
أرشفيه في الثنايا | إن تفضلت زلالا

حسين بن محمد بن شعبان جحاف

من الأدباء عني بترجمته كتاب التراجم، منهم صاحب (النسمة) ومؤلف كتاب (طيب السمر) والحوثي، في (نفحات العنبر)، وزبارة في (نشر العرف) وغيرهم.

عاش (بريمة) وبرع في الأدب ووفاته في النصف الأول من القرن الثاني عشر تقريباً.

من رقيق شعره قوله:

أيها العاذل أكثرت العذل ... لشج للعذل أصلا ما عقل
دع فؤادي وهواه يا فتى ... يفعل الحب بقلبي ما فعل
أتراني تاركاً حبي لها ... أو أرى يا عاذلي ترك الغزل
لا وعينيها وما في فمها ... وبنهديها وذياك الكفل
لست أنساها ضحى لما بدت ... بين أتراب لها دعج المقل
رحن يمشين كغزلان الفلا ... وتعثرن بأطراف الحلل
قلت لما ملن نحوي رعيت ... من بها القلب المعنى في شغل
فتبسمن جميعاً ثنت ... تستر الوجه بكم من خجل
ساعة ثم ثنت لي خدها ... كغزال خشفها منها اختبل
فهي ترنو نحوه شوقاً له ... وتُوقي قربه خوف الأجل
ظلت أرعى الشمس حتى غربت ... ودجى ثوب الدياجي وانسدل

ورعيت الحي حتى لم أجد   غير طرف الأفق يرنو وزحل

ومن غريب مقطعاته الغزلية قوله وقد أورده الحيمي في (طيب السمر):

ولم انس إذ منت علي بزورة   أراحت فؤادي من صدود ومن بين
فعانقتها حتى وهى در عقدها   فقالت لخير ليت ذا الأمر أم حين
فقلت لها هذا نثار مع اللقا   وفي ساعة التوديع أقضيك من عيني

إسماعيل بن إبراهيم جحاف

هو من قدماء هذه الأسرة في القرن الحادي عشر، وقد ذكر له هذا المقطوع صاحبا كتابي (سلافة العصر) (وطيب السمر):

يا غائبين وفي قلبي محلهم وعاتبين لبعد العهد بالكتب
وصفي لشوقي محال أن أسطره فالشوق نار وأقلامي من القصب

وله غير ذلك أورده صاحب (طيب السمر).

ومولده سنة ١٠٢٤ ووفاته سنة ١٠٩٧، وهو أخو الشاعر الكبير يحيى ابن إبراهيم جحاف، وقد ترجم له المحبي في (خلاصة الأثر) (ونفحة الريحانة) وأورد له قصيدة تائية فتنظر هناك..

شعراء آل الجرموزي

من الشعراء المجيدين الذين أطنب في وصفهم المؤرخون من أهل اليمن وغيرهم، فذكرهم المحبي في كتابيه (خلاصة الأثر) (ونفحة الريحانة)، وكذا الحيمي في (طيب السمر). أولهم:

جعفر بن مطهر بن محمد الجرموزي

هو من شعرائهم المجيدين، قال عنه صاحب نسمة السحر:

«كان يحب التشبه بالصابي والصاحب الكافي، ويرتاح بذكرهما».

وقال عنه صاحب (نفحة الريحانة): «خمرت طينته بالأدب كل التخمير، ودعي له بالفضل في الولاية والتأمير».

وقال الحيمي في (طيب السمر): «روض زهت فنونه، وتوجت في ملابس الأوراق غصونه».

توفي بناحية العدين نحو سنة ١٠٩٦.

شعره في غاية الجودة والانسجام وأكثره مقطعات في موضوعات مختلفة، من ذلك قوله في ذم بغلة:

وقــائــل لي بـغـلة إن ســعـت   في ربــوة أزرت بــأحـنــاسهــا
وقــال مــن أوصــافــهــا أنها   واقــفــة قـلت عــلى رأســهــا

ويقول:

ومصبــر للصبـر قلت لــه وهـل   صبــر لمن عنــه الحبيب يـغيـب
والله إن الشهــد بعــد فــراقهم   ما لذَّ لي والصبــر كيف يـطيب

ومن شعره أيضاً:

بي أحمــر الـوجنــة مشـروطهــا   لــدن التثـني نــاعس المقـلتــين
لــو لم تـكن عـينــاه مـكســورة   مــا جعلوا من تحتها نقــطتــين

وقوله:

قــالت وقــد أفنت لــذيــذ تصبــري   ونفت لــذيــذ النــوم عن أجفــاني
إن رمــت مــني زورة في لــيــلة   فــاصبــر وليس لــدي صبــر ثــان

وقوله:

جــاء الــشــتــا ولــيس لي   بــرد يــقــيــني بــرده
لــولاك يــا نــار الـصــدود   بــعــثــت نـفسي عــنــده

وقــوله في طول اليوم من شهر رمضان:

اليـوم من رمضان مثـل اليـوم في   يـوم القيامـة في التطاول والعنـا
والليل ليل الـوصل منـه فقل لـه   هــلا نقلت من ها هنـا إلى هنا

وأكثـر شعره من هذا الجنس.

ووقفت له في (الريحانة) على قصائد أخرى من المطولات تنظر هناك.

الحسن بن مطهر الجرموزي

ولد (بعتمة) سنة ١٠٤٤، وبرع في علوم الفقه والمنطق والحديث واللغة وكان متولياً لبندر (المخاء).

قال عنه المحبي: «وقفت له على أشعار وقفت إليها فرأيت الحسن جميعه وقفاً عليها».

ووصفه يوسف بن يحيى في (النسمة) بالرقة والعذوبة.

وقال عنه الحيمي: «بدر زها في سماء (عتمة) فأشرق ليلها من عتمة».

توفى سنة ١١٠٠.

من طريف مقطعاته قوله في سجادة نسيها عنده أحد الفقهاء:

سجادة القاضي الذي ... ما مثلها والله أعلم
عودي إليه بسرعة ... فعليك كم صلى وسلم

قلت والأديب حسن الجرموزي، هو أول من أثار بين الأدباء الشعر في تشبيه الزنبق فقال:

انظر إلى الزنبق الأنيق وقد ... أبدع في شكله وفي نمطه
يحكي قناديل فضة غرست ... شموس تبر تضيء في وسطه

فقال الأديب حيدر آغا:

وزنبق مجلس بين الندامى كشيخ جاد لطفاً في وقار
يريك إذا تلا إنا فتحنا عمود الصبح في وسط النهار

وقال الأديب شعبان سليم:

يا حسنه من زنبق من فوق غصن أملد
كأنامل من فضة ضمت مطارف عسجد

وقال الأديب يوسف بن علي الهادي:

أنظر إلى الزنبق في أول ما يظهر في فض ختمه ترى العجب
كأنه مكاحل من البلو ر في شكل بديع لم يعب
قد ضمت مراوداً من الذهب قد جعلت حروفها من الذهب

وقال الأديب حسن الزعاري:

وزهرة من زنبق أنوارها وهّاجه
صفراء في مبيضَّة كالراح في الزجاجه

إلى غير ذلك.

ومن شعر الأديب حسن الجرموزي ما أورده له صاحب (نفحة الريحانة) منه قوله:

علام تتخذ الحلي النفيس وقد غنينا عنه بما في حسنك البهج
الجيد من فضة والخد من ذهب والثغر من لؤلؤ والصدغ من سبج

وقوله إلى شيخه محمد بن إبراهيم السحولي:

حتام تنهل المحاجر وإلام أغدو الدهر ساهر
يصدني ريم الفلا ة أما لذاك الصد آخر
لا تعجبوا من فتنتي بمَلك في الحب جائر
فالطرف منه والقوا م اللدن فتاك وساحر
أوَما ترون خدوده بدمي أقرت فهو ظاهر

وتــرون في الــشــغــر الأنــيــ ق سـمــوط درّ بل جــواهــر
يهــديــن كــالمصــبــاح امــا حــرت في ظـلـم الــديــاجــر

إلى آخرها.

الحسين بن المطهر الجرموزي

هو من شعراء (طيب السمر) قال عنه: «ترقص لنظمه القدود، وتحمر خجلاً من جنى أشعاره الخدود».

وأورد له هذه الفريدة وكذا صاحب (نسمة السحر):

صادح البلبل في الدوح هدر   فطمى الدمع بخدي وانحدر
ما أحيلى نغمة الطير على   غصن نضرٍ به يُجلى البصر
أو رياض جادها وبل الحيا   وهمى في كل حين وانهمر
تشكر الأرض لنا جود السما   لم يكن يزداد إلا من شكر
دبج الأرض بأنوار الربى   فتجلى كل دوح بالزهر

قاسم بن المطهر الجرموزي

أديب مقل قال عنه الحيمي :

«له في الأدب نهج مستوٍ ، وفي نظم الآداب عقد لؤلؤي ، من شعره هذان البيتان :

أفدي غزالا كلّه فتنة قد لذّ لي في وصفه الافتنان
فما بدا إلا رأت مقلتي بدراً على دعص على غصن بان

الهادي بن المطهر الجرموزي

من شعراء القرن الحادي عشر قال عنه الحيمي :

«من أبياته عرف الطرب ، ومن كلماته عرف الحمايم لشدو العذب» إلخ .

من شعره قوله من مجزوء الرجز:

لقد خانني الصبر ... وقد ضاق بي الأمر
فرفقاً أيها الحادي ... ومهلاً أيها السفر
قفوا عطفاً على المضني ... فقد أودى به الهجر
يراقب فيكم الأفلا ... ك لا يصحو له سكر
وإن مرت بذي سلم ... نسيم أوْهمى قطر
تنفس فيكم الصعدا ... فملء أحشائه جمر
معنى فيكم لا البان ... يصيبه ولا القصر

محمد بن المطهر الجرموزي

شاعر كبير لم أقف على ترجمته، وهو أحد أخوة المذكورين، قال عنه المحبي في (نفحة الريحانة):

«له القلم البابلي السحار، والكلم التي عطرت نسائم الأسحار».

ومن شعره هذه الروضية:

السحب أرخى أدمعـاً لا يفيق ... وألبس الأغصان ثوباً أنيق
ودبج الأرض فمن أخضر ... أو أصفر أو أحمر كالعقيق
وكلما مرت بنا نفحة ... أهدت من الأزهار مسكاً سحيق
روت حديثاً عاد دمعي له ... مسلسلاً بالود لا يستفيق
إن الربا قد كللت بالندى ... وانتظم بالمنثور بين الشقيق

ومن إخوانياته ما كتبه إلى صديقه الأديب الحسين بن علي الوادي:

قم يا رسولي نحو دار الحسين ... وقل له الوعد شبيه بدين
لا زلت تدلي لي حبال المنى ... بوقفة والأمر في ذاك هين
وأي يوم نلتقي لم تقل ... غدا نوافيكم وما ذاك مين
فأرقب الساعات حتى مضى ... ميعادكم واستخلف الحسرتين
يا ابن علي أنت أطربتني ... ولم أنل منك سوى وقفتين
لله واديك وما حازه ... من نغمات من كلا الجانبين
بلبله بلبل بالي فلم ... أزل أراعي في الدجى الخافقين

أحمد بن الحسن الجرموزي

من شعراء هذه الأسرة ولد بصنعاء سنة ١٠٧٥ وأخذ في العلم عن علمائها وألف المؤلفات الجيدة توفي سنة ١١١٥ تقريباً، وشعره جيد وصفه صاحب (النسمة) بقوله: «شعر لو سمعه لبرىء منه الصريع» وقال عنه الحيمي: «روض أدب نضير نسيمه عليل وطرف نرجسه مريض» الخ.

من شعره هذه الفريدة التي بعثها إلى صديقه يوسف بن علي الهادي وقد أوردها صاحب (النسمة) (ونفحات العنبر) (ونشر العرف) يقول فيها:

نسمات النسيم في مسراها   قد ألمت بنا طيب شذاها
وأهاجت صبابتي وولوعي   بربوع هيهات لن أنساها
فلكم في ربوعها من بدور   تخجل النيرات عند سناها
لست أنسى عند الوداع دموعا   قد اذيلت عشية في رباها

ومن مقطعاته قوله في (رداع) موريا بنهر المحجري بها:

قالت (رداع) وقد ذممنا سوحها   مهلاً لقد جئتم بشيء منكر
حسبي أني من ألم بساحتي   أسقيه مهما حل بي من محجري

وقوله في عزة النفس والتوكل على الله:

إذا كان من أرجوه عند مطامعي   كمثلي محتاج إلى خالق الخلق
فما حاجتي في قصد مثلي وكيف لا   ألوذ بمعطيه ليعطيني رزقي
وهل أنا إلا عبده وابن عبده   ويقبح مني أن أملكهم رقي

القاسم بن الحسن الجرموزي

من كبار العلماء والشعراء ولد بالمخا سنة ١٠٨٠ وأخذ بها وبصنعاء، وله مؤلفات جيدة أشهرها (كتاب صفوة العصر) في تراجم الأدباء والشعراء على منوال (يتيمة الدهر)(وريحانة الألبا) وهو كتاب قيم رجع إليه المؤرخ زبارة، ولا نعلم بوجود نسخة منه ومحاسن هذا الرجل كثيرة توفي سنة ١١٤٦ .

قال عنه صاحب (طيب السمر) : «شعره شعر نسيم السحر، لو عطف عنه الصبح لشبهته بالحمائم وقت السحر» إلخ .

وقال عنه الحوثي في (نفحات العنبر) :

«إنه ابتدأ نظم الشعر وهو في سن البلوغ، ومهر في الأدب والنظم وجاء بالسهل الممتنع» .

وشعره أشبه بشعر البهاء زهير في السهولة وحسن السبك، وجمع ما وجد من نظمه في سائر الفنون ديواناً يدخل في عشرة كراريس .

من شعره المنسجم :

قد جرى منك ما كفى ... فاترك الصد والجفا
وارحم المغرم الذي ... قد غدا فيك مدنفا
سيدي والذي برا ... ك جميلاً مهفهفا
ما رأى الطرف في الورى ... منك أبهى وألطفا

وقوله:

هو مغناطيس أنسي ... وهو بدري وهو شمسي
كل يوم لا أراه ... فهو عندي يوم نحس
لست أسلوه إلى أن ... أغتدي في قعر رمسي
سيدي يا نور عيني ... يا منى قلبي ونفسي
بالذي أولاك معنى ... سره أذهل حسي
والذي سوّاك غصناً ... بقضيب البان ينسي
جد لصب فيك أضحى ... رهن حال مستحس
هائم القلب عميد ... بعته بيعة بخس
ما يزال حلف هموم ... يغتدي فيها ويمسي

وشعره كله من هذا النمط.

عبدالله إسماعيل الجرموزي

شاعر جليل أطنب الحيمي في ترجمته :

وقال عنه : « صديقي إذا جفا الصديق ، ورفيقي إذا عز الرفيق ، بيني وبينه ود أصفى من كل صاف» من شعره :

يـا رب قد عـظم الهوى وتحكمت ... أيدى النوى والخل جار بحكمه
ولقد شكوت إلى الأنام فلم أجد ... برءاً لجسمي من ضناه وسقمـه
وضـرعت ممـا بي إليـك مـرجيـاً ... كشف الذي قد حلَّ بي من همه
فـانظر إلى حـالي وحـل بفـرجـة ... قلبي فـإني في حبـائـل ظلمـه

وقوله :

حتـام أكتم من هـواك عـظيمـه ... وإلام أصبر عنك يا ريم اللوى
وعـلام هذا الصـد منك وطـوله ... أبداً وحظي منك هجرك والنوى
يـا ظالمـاً كـابـدت فيـك عـواذلي ... وفؤادي المضنى بحبك ما ارعوى

وله شعـر آخر أغلبه في المراسلات الإخوانية .

شعر آل إسحاق

عرف شعر هذه الأسرة « بظاهرة » عجيبة قلما تتكرر في أسرة أدبية غيرها ، ألا وهي ظاهرة السجون وكثرة الحديث عنه ، وقد منيت هذه الأسرة « بشيء من السجن والمهانة » ، فما كان منهم إلا أن جاءوا لنا بأدب فريد في بابه يدخل في هذا المضمار .

وقد نبغ منهم جماعة من الأدباء لعل أشهرهم الأديب محمد بن إسحاق صاحب ديوان (حسنة الأخلاق) وغيره .

وسنتناول مشاهير شعراء هذه الأسرة .

عبدالله بن اسحاق

هو من أقدم شعراء هذه الأسرة وفاة ، قال عنه صاحب (طيب السمر) عرف بالوقار والتأمل ، وكان له خط في غاية الجودة ، ثم سجن على أثر مشاركة أخوته في ثورتهما على المنصور بن المتوكل ، يقول الحيمي في عبارته المسجعة : « ولما شارك أخويه في المجد ، شاركهما أيضاً في السجن والقيد ، وعامله الدهر بما عاملهما من المكر والكيد، فحبس في (حصن مسار) لم يمن عليه الدهر بفك إسار ، ثم بعد ذلك نقل إلى حصن (ثلا) وبقي في سجنه عشرة أعوام إلى أن توفي سنة ١١٥١ ، وكان قد أفرج عنه قبيل وفاته بأيام يسيرة »

من شعـره ما كتبه وهو في سجن صنعاء إلى العلامة بن إسماعيل الأمير :

يـا أخـلائي بـأيـام الصبـا   من لصب هـاجه نشر الصَّبـا
ولعـان شـاقـه بـرق اللوى   بمغـان بـين (حـزوى وقبـا)

إلى آخرها.

وكان كثير التشوق إلى (دن ووصاب) حيث أهله وأولاده وحتى قال عنه الحيمي «وله هيام بجهات (وصاب)، وما أخطأ في تذكره لمسارح الشبيبة بل أصاب».

ومن شعره في (وصاب) قوله :

ألا إن لي في (الدن) آهل وجيرة ... إليهم فؤادي المستهام طموح
أحن إليهم كل ما ذرَّ شارق ... وأسكب دمعي في الثرى وأنوح
وأسأل عنهم كل غادٍ ورايح ... وإن رمت كتماً فالدموع تبوح
أقول وفي الأحشا من البعد لوعة ... وفي العين من دمعي الغزير قروح

وله أيضاً من قصيدة أخرى:

ما لي إذا سجعت سواجع ... فاضت عيوني بالمدامع
شوقاً إلى ظبي الصريم ... وخشف ثم تيَّاك المرابع ؟
ظبي له ثمر الحشا ... مرعى وآماقي مكارع
لله قلبي كم يكون ... لهاجر عني ومانع
لا زال يوهمنا الوفا ... ويلوح لي منه قواطع

وله من أخرى يصف حاله مع محبوبه وهو في القيد :

فيا صاحبي لما تعتبان ... ألم تعلما حالتي في (ثلا)
فلا قصتي ما جرى مثلها ... على أحد وابحثا واسألا
غزال تناءى وقد كان بي ... حبيباً يطوف بكأس علا
من الثغر لا من دنان الخمور ... وشتان بين اللمى والطلا
ولما راني سمير السها ... أسير القيود بأقصى البلا
تجانف عني فيا وحشتي ... لفقدي، ونفرة ريم الفلا
ويا جيرة السفح (سفح النقا) ... سلوا الجفن هل بالكرى كحلا
تسظنون أني لكم تارك ... ببعدي وأن فراقي قلا
فحاشى وكلا فلم أنسكم ... وقلبي الشجي عنكم ما سلا

الحسن بن إسحاق

شاعر جليل المقدار ولد (بالغراس) من أعمال صنعاء سنة ١٠٩٠ ، وأخذ عن علماء صنعاء وذمار وتعز ، قال عنه العلامة محمد بن إسماعيل الأمير :

« كان من آيات الله في أخلاقه وسلامة صدره وكرمه وجوده ، فأعطاه الله فطنة وذكاء ، واختار له طول البقاء في السجن ، فإنه بقي مسجوناً ثماني سنين أو تزيد ، ثم أفرج عنه مدة وأعيد إلى السجن فمكث به عشرين سنة أخرى من سنة ١١٤٠ إلى سنة وفاته ١١٦٠ .

وكانت وفاته بقصر صنعاء . .

يقول من ترجم له إنه أقبل في أثناء سجنه على المطالعة والتأليف فنظم قسم العبادات من الهدي النبوي لابن القيم ، وكان في أول الأمر ممنوعاً من دخول القرطاس والدواة إليه ومن مكاتبة أحد من أصحابه وغيرهم ، وإنما كانوا يتحايلون بإدخال ما يريده من ذلك بأن يجعل في آنية الطعام من فوقه بعد أن يجعل فوقه ما يمنع وصول الدهن إليه . وربما وضع ذلك في وعاء النار ويجعل فوق صفيحة من حديد ثم توضع النار من فوقه إلى غير ذلك .

وكان شقيقه الأديب الشاعر محمد بن إسحاق يحبه كثيراً ولما توفي وهو في سجنه رثاه بالعديد من القصائد من ذلك قوله :

أخي الحسن بن إسحاق المفدى ... مقيم المجد والشرف الرفيعا

مفيد الطالبين ندى وجوداً   ولم يك لحظة لهما منيعا
قضى فمضت من الحزن المواضي   ألست ترى الدموع جرت نجيعا
مضى لسبيله من ضيق سجن   لواسع رحمة تغشى المطيعا
وخلفنا نقاسي كل هول   نشاهد في القلوب له صدوعا
إلخ . . . . .

قلت وشعره كثير لم يتصد لجمعه أحد من معاصريه ، وهو مفرق في كتب ترجماته وبعض السفن الأدبية وقد ضم (كتاب نفحات العنبر) للحوثي نخبة لا بأس بها من شعره أورد أكثرها المؤرخ زبارة في (نشر العرف) .

وسنقف هنا على ما لم ينشر من بعض شعره في الكتاب المذكور.

أتتني الرياحين مسكية   يعم شذاها جميع النواحي
فأصبحت نشوان منها فهل   بعثت الرياحين أم كاس راحي
وما هي إلا غصون أتت   بدار مكان القدود الملاحي

وله ، وقد بعث إليه أحد أهله وهو في سجنه بسواك :

عرفت قصدك يا من   أهدى إليّ سواكا
بذاك ألمحت أني   أهوى حبيباً سواكا
أسأت ظناً بعبد   أضحى أسير هواكا
لكنه سرني أن   كان السواك أراكا
به تفاءلت أني   عما قريب أراكا
فليت أنك يوماً   عطرته بشذاكا
أو كنت تكسو عراه   بحلة من لماكا
وأنت يا ثغره لو   توجته بسناكا
لتنجلي ظلمة البعد   والدجى بصباكا
لكي أحقق طرساً   عنوته بجفاكا
شحنته بعتاب   فهمت منه قلاكا
صدقت قول عذول   عن الشجي ثناكا
ما كان يفكيك سجني   والقيد ثم نواكا

حـتى أضـفـت إلـيـه تصـديق قـول عـداكـا
تـرتـكـتـني طـول لـيـلي أرعى السهـا والسمـاكـا
وأرقـب الـبـدر لمـا بـزعمـه قـد حكـاكـا
وقـلـت لـلغـيـث بـالله احبس سيـول حيـاكـا
لا تسق سفـح (المصلا) فمـدمعي قـد كفـاكـا
إذا أردت بهـذا قـل لي جعلت فـداكـا
إن رمت تعـذيب قلبي فـقـد بلغـت منـاكـا
بـرد عـليـه قـليـلاً مـن حـر نـار جفـاكـا
فـالحـر يحـمـي حمـاه وأنـت قلبـي حمـاكـا

وله وقد أهدى إليه أحدهم عطراً ولعلها زوجته :

يا مهدياً للعطر والمسك الذكي لصبه أما شـذاك فقد وصل
لـكن أيـن اللثـم والتـقـبـيـل للخد الأسيل وضم خصرك والكفل
وعناق قدك وارتشاف اللمى وجميع ذاك بغير وصلك لم ينل ؟
فمتى إلـه العـرش يجمـع بيننـا وينال منك الصب غايات الأمل
لكن ذا القـرطـاس قـد قبلتـه ألفاً فضعه على خدودك والمقل
وأردده يجعله العميـد تميـمـة فعساه يشفي بعض ما بي من علل
وامسح خدودك قبل وضعـه إنني أخشى عليه من مدامعك البلل
فلعل عندك مثل ما عندي نعم إنـي لأعلـم ذا فما قـولي لعـل

إنها قطعة أدبية مؤثرة حيث يجعل الشاعر من القرطاس بديلاً عن العناق والقبل . وكان شاعرنا قد برع أيضاً في فن الشعر الحميني وله فيه غرر سارت بها الركبان ، شأنه في ذلك شأن بقية أفراد أسرته ، حيث أجادوا في هذا المضمار من ذلك حمينيته التي يقول فيها :

يـا من بخل حتى بـرد السـلام رد السـلام في الشـرع واجب
من بلغـك في السر عنا كـلام كـلام منـه صـرت عـاصب
وكيف صغت أذنك لأهل الملام وخـفـت مـن عـين المـراقـب

أما أنا تـركي لحبك حـرام	علـيّ في كـل المـذاهـب

بيت

أنـا الـذي في فن أهـل الهـوى	قـريـت في السبـع المقـاري
وفي النـوى والقـرب حبي سـوى	والله بـذا عـالم وداري
أصبـر على فعلك صـواب أو غوى	وأقـول هـي بحـر الجـواري
أنـا الـذي دقيت بـاب الغـرام	من قبل ما أنـظر في العـواقب

بيت

قلبي الشجي لما دخـل في هـواك	يـا سيـدي مـا زاد تمـالـك
قد فارق أحشـائي وصار في حمـاك	وقـال لي مـا عـاد نـالـك
أحسن بـوصلك أحسن الله جزاك	قـد صرت نـاشب في حبالـك

بيت

أكتب إليك من فوق عشرين كتاب	قـاصـد ومـا جـاني جـوابـك
عـذبت مملوكـك بهجـرك عـذاب	بـالله خـفـف مـن عـذابـك
والله مـا فعلك بصبـك صـواب	مـا تـرحمـه واقـف ببـابـك

بيت

يقـول لـك إن شـايتم الكـلام	وإلا فـقـل لـه لا تـراقـب
وحق رأسـك يـا رشيق القـوام	مـا أترك هـواك حاضر وغـايب
صلوا عـلى المختـار خـير الأنـام	الـطهـر من صفـا المـذاهب
وآلـه سـادات كـل الأنـام	مـا لاح بـرق في سحـايـب

إسماعيل بن محمد بن إسحاق

فقيه عالم كان من أكثر المتعلقين بالعلامة محمد بن إسماعيل الأمير، وله معه مكاتبات كثيرة دارت بينهما ضم أكثرها ديوان الأمير المطبوع، وكتاب (نشر العرف) وكان قد أعتقل سنة ١١٤١ فمكث في سجنه نحواً من عشرين سنة حتى توفي المنصور الحسين سنة ١١٦١ فأطلق سراحه.

توفي سنة ١١٦٤ رحمه الله.

من شعره ما كتبه إلى شيخه الأمير المذكور وهو في السجن:

قف للنصيح لدى التناجي ... فعن المخاوف أنت ناجي
كن حلس بيتك واستعذ ... بالله من شر الصياج
وارقد إذا فتن الليا ... لي أرسلت قطع الدياجي
وأراك متن السيف بالتجـ ... ـريد حاشية السراج
واجعل سفينك للحمو ... ل فإن دهرك في ارتجاج
متلاطم الأمواج تعصف فيه ريح الانزعاج
نيرانه فتن بها الأكبا ... د تشكو من نضاج

وكان من المولعين بالقهوة وله في تشبيه المصطكى على القهوة:

لله قهوتنا الرقيقة كم حوت ... بالمصطكى معنى لديك رقيقا
حمراء كالياقوت زاد بجمرها ... غليانها حتى استحال عقيقا

ذهبت دواعي الهم من أصواتها ... فرقاً وفرق شمله تفريقا
فاستمل إذ يملي عليك رسالة ... ملأت فناجين السرور رحيقا
رقمت بأقلام الهوى حتى بذا ... للمصطكى خطاً بذاك دقيقا
خذها مناولةً ثم إن ... دارت فحسبك في الوفاق طريقا
وبدت كأطواق الحمامة فارتشف ... منها يزيدك رشفها تحقيقا
ويريك ألوان التفاريق التي ... لرفيعها الفنجان أضحى سوقا

وله في الريحان :

خذ من الريحان أغصانا ... أثمرت روحاً وسلوانا
أخذت معنى الهوى وحوت ... من رياض الحسن أقنانا
أودعتها كف غانية ... من غوالي الطيب ألوانا
وأتت تندى فلو لمست ... يابساً لاهتز ريانا
حركت عطف المسرة إذ ... وضعت في الصحن قضبانا
حل قلبي برد نفحتها ... فانثنى للوصل ظمآنا
ضاع ريَّاها وفاح ولم ... يستطع للسر كتمانا
جلبت للصب كل هوى ... ودعته حيث ما كانا
حبذا طيب الحبيب أتى ... مهدياً روحاً وريحانا
كل طيب عند نفحته ... يتوارى منه خجلانا
فسواها لا تقيم له ... جونة العطار ميزانا

ومن شعره السياسي قوله من قصيدة طويلة أوردها صاحب (نشر العرف) ج ١ ص ٤٠٠ ينكر فيها على بعض سياسات حكام عصره :

أيحسن ممن صار في طرق الهدى ... تراه لأهل الشر خير مسالم
يجيرهم بالخيل والبيض والقنا ... فعال ذوي التقوى وأهل المكارم

وإن مس بعض الناس ما مس إنـه ... سينقــذهم من كـل طــاغ وظــالم
فهل جاز تضمين الرعـايا وجعلهم ... خــراجتــه ظلماً بـغـير تحــاشـم
وأن يتــولى أمــرهــم مــتـغــلب ... شـديـد عـلى مـظلومـه غـير راحم
يقلد أحــوال الـرعــايـا عصــابـة ... يـرون اتبـاع الجـور ضـربــة لازم
يقـولـون هم أصـل الفخـار وإنهم ... يعــدون إن حققتهم في البهــايـم
تمـالوا عـلى ظلم العبـاد فقصـدهم ... وإن أغضبوا الرحمن جمـع الدراهم
فساموا الورى سوء العذاب تجاريـا ... وظلما فما يخشون لومة لائم

إلى آخرها .

القاسم بن الحسين بن إسحاق

شاعر عرف بطول النفس في التصوير حتى قال عنه صاحب (نفحات العنبر) : « إذا وصف الواقعة التي يعبر عنها غيره بكلمتين أطنب في ذكرها وصورها تصويراً بديعاً وكساها من رونق فصاحته وتنميق عبارته حلل الابداع» وكانت له عناية بالبحث والتدريس وقد جمع كتباً في علم الكلام وحشى عليها بخطه الحسن توفي بصنعاء سنة ١١٦٥ .

من شعره في التشبيه :

وقالوا ترى حب الشباب وقد بدا ‏ ‏ على وجه من تهوى فهل أنت قاطعه
فقلت وهمتم إنما ماء حسنه ‏ ‏ وقد خاضه طرفي تبدت فقاقعه

وخاض مع بقية شعراء آل إسحاق وغيرهم في تشبيه القهوة ، وقد طفا حولها المصطكى فقال :

تناولني الحسناء فنجان قهوة ‏ ‏ حكت وجنتيها عند ضم مشوق
غدا المصطكى من فوقها عند رشفها ‏ ‏ سحائب لاذ في سماء عقيق

وكنت قد وقفت له في إحدى السفن الأدبية على حمينية جميلة يقول فيها :

في ذا العذار الخضر ‏ ‏ من هام هو معذور
بذا الخد أزهر ‏ ‏ كالماس فوق بنور
خطه كتب بعنبر ‏ ‏ على صحائف النور

الخـد لـه مـصـدر وفي الـكـتـاب مـسـطور

بيت

والخـال فـوق خـده مـسـك الختـام لـلزيـن
أهـيـف عـقـود بـنـده قـد شـدهـا عـلى البـين
يـكـاد رمـح قـده يـقـطف بلمحـة الـعـين
الـقـد رمـح أسـمـر والـلحظ سـيـف مشـهـور

بيت

شـاخلع عليه عـذاري وأقـول غـير كـاتـم
يـا جـنـتي ونـاري عـذبت صـب هـائـم
بـالبعـد مـانـت داري إنـك بـذاك آثـم
دمـعي عـلـيـك صـيـر طـي الـغـرام منشـور

بيت

يـا سيـد ليت شعـري أنـال مـنـك قـبـله
ويـتـصـل بـثغـري ثغـرك لـرشـف نهله
يـطفـي لهيـب صـدري فـاحـسـن بـذاك لله
بـادر ويـوم تحشر ذنـب الملاح مـغـفـور

محمد بن إسحاق

أشهر شعراء هذه الأسرة وأكثرهم جودة وإتقاناً .

ولد الشاعر في (الغراس) سنة ١٠٩٠ وقرأ في علوم الفقه والبلاغة والكلام بصنعاء وغيرها ، وآل أمره إلى الاعتقال بعد منازعتـه للإمامين المتوكل القاسم ابن الحسين وولده المنصور الحسين بن المتوكل وجرت له خطوب معهما انتهت إلى سجنه ولم تطل مدته في السجن فأفرج عنه ، وكانت وفاته سنة ١١٦٧ بداره في (بئر العزب) .

له شعر جيد جمع في ديوانين الأول بعنوان (حسن الأخلاق) ، والثـاني بعنوان (سلوة المشتاق) .

وهو شاعر مطبوع تميز بالجزالة والفصاحـة مع التـزامه طـريقة المـدرسة العباسية في السهولة والخفة . .

من شعره السجين قوله :

سرى طيفها ليلاً إلى السجن مشفقا   وقـد كـان قـدمـاً لا يقـر بـإشفـاق
فـلما راعــه إلا القيــود الــتي رأى   عـليّ وقد قـامت لحـربي عـلى سـاق
فـقـلت لــه هــون عـليــك فــإنها   خـلاخـل مجـد لا خـلاخـل فسـاق
وقف بي قليـلاً دمت يا طيف طايفـاً   بـأحسن من فـك القيـود وإطـلاقي

وقوله في الحمامة :

وحمـامـة بـالقـرب مني نـوحهـا مثـلي ومـا أشـجـانها أشـجـاني
وكـطوقهـا قـد طـوقتني أدمعي طـوقـاً من اليـاقـوت والمـرجـان
أملت أحـاديث النسيم وما الـذي أهـديـه من سلع إلى الأغصـان
فـرقمت مـا أمليت من أوراقهـا في الخـد من دمعي بـأحمـر قـاني
بـأطيب ما يـروى عن الورقـا عن غصن الـراعن نسمـة الأوطـان

وشعره الحميني كله جيد منه قوله في الحمامة أيضاً :

يـا حمـامـة خففي سجعـك قليـل طـار نـومي من عيـوني
واسمعي شكواي قد طال الطويـل والبكـا جـرح جفـوني
قـل صبـري والهـوى حمله ثقيـل مـا لهم مـا يـرحمـوني
مـا عليهم لـو شفـوا قلبي العليـل بـالـلقـا أو بـشـروني

بيت

يـا حمـامـة ليس مثـلي في الغـرام مـن تـأخـر أو تـقـدم
من يكون مثلي فهم سجـع الحمام ثـم غـرد بـه وتـرجـم
لو خفي عني سجوعـك في الظلام مـا مزجت الـدمع بـالدم
حـين قلت ليس في الـدنيـا مثيـل لي ولا في الـسـجـن دوني

بيت

اصبـري فـالصبـر مفتـاح الفـرج إن بعـد العسر يسـرين
كم أسير مسجون من سجنه خرج بعـد ما كـان فيه بقيـدين
ورقـا من بعـد ذاك عـلى الـدرج صدق هذا القول لا مين
لو بدت لك غايـة الصبر الجميـل قلت يـا نـاس احبسـوني

علي بن أحمد بن محمد بن إسحاق

من فحول شعراء هذه الأسرة وكان متبحراً في العلوم ، وعارض الإمام المنصور علي بن العباس فسجنه في قصر صنعاء وحيداً مع ولده إسماعيل من سنة ١٢١٠ إلى سنة ١٢١٨ ، ثم أطلقه وكان كريماً مضيافاً يرحل إلى مكة وزيارة قبر الرسول ﷺ في المدينة وهو محمل بقوافل وهمية موهماً بغناه توفي سنة ١٢٢٠ .

وشعره كثير لم يجمع ، وأغلبه في التوسلات والمدائح النبوية .

فمن شعره الفصيح :

قد استطارت صدوع القلب والكبد ... من الحنين إلى فتانة الغيد
ما هبت الريح تهدي طيب نفحتها ... إلّا توقد جمر الشوق والكمد
قد كدت والله من فرط الهيام بها ... والوجد أن أخرج عن أهلي وعن بلدي
وردت بحر الهوى والحب أحسبه ... سهلاً فيا ليتني للسهل لم أرد
ما كنت أحسب أن الحب آخره ... سلب الخواطر والألباب والجلد
حتى تركت بقلب لست أملكه ... عاصٍ وقبل الهوى قد كان طوع يدي
يجري عليّ كثيراً في محبتها ... ما لم يكن قد جرى قبلي على أحد
ما أوجع البين للعشاق كم وجدت ... قلوبهم فيه والأكباد لم أجد
آه من البين آه من لواعجه ... لولاه ويلاه للتبريح لم أجد
يا غادة غير ذكراها وما نسيت ... ما دار عند سطور الدار في خلدي
واعلتي واشقائي منك في شفة ... لعسا وواحرقي والبرد في البرد

من منصفي من مهاة بضة سفكت   تيهاً ببيض سواجيها دم الأسد

ومن شعره الفصيح أيضاً هذه الحوارية التي يعرفها أهل البديع بالمراجعة :

وسألن الحسان عن ليلة القد   ر وتمييزها بإحدى الليالي
قلت ما تشتهين منها فاطر   قمن وساقطن في الخدود اللآلي
وتنهدن حسرة وتلفتـ   ـن بأجياد ثاويات الرمال
قلن ندعو الإله أن يجعلـ   ـنا مثل عزة في الجمال
قلت من عزة فقلن التي قد   وتضاحكن جملة من سؤالي
قلت ما «قد» فقلن حرف يرى   التحقيق يأتي لقيل وقال
قلت ما بعدها فقلن أذابتـ   ـك بنيران حبها والمطال
قلت من قال قلن قد مشينا   بنميم من قبل حتى نوالي
ولقد صح إذ رأيناك كالصب   كثير الوسواس والبلبال

وكان لابن إسحاق المذكور شهرة أخرى قامت في الأساس على قصائده المغناة ، وقد تناقلها المغنون في اليمن منذ القرن الثاني عشر ، ووضعوا لها ألحاناً جميلة محببة لا تزال تغنى إلى الآن، وقد أعجب بها الناس ورددوها في المدن والقرى، حتى إن الأديب علي بن حسن الخفنجي عارض بعضها بقصائد ساخرة هزلية كعادته ، مما دل على شهرتها وذيوعها . وكان أشهرها قصيدته الحمينية المشهورة التي يغنيها بعض المطربين بلحن كوكباني يصاحبه في ترديد أبياتها طائفة أخرى من المغنين وهي هذه :

سامي الجيد ساجي العين من صار يزري   بالمليحات أجمع
ألهب النار ما بين الجوانح وصدري   بالجفا ريم الأجرع
حسبه الله هاجر لي فيا ليت شعري   ما لخلي تمنع
صرت ذاهل من اجله فيه قد حار فكري   ما دريت كيف أصنع
أذكره كل مرة في صلاتي فلا أدري   (خمس)صليت أو(اربع)
يا رسولي أمانة سر إلى عند بدري   قف على الباب واقرع
إن يقل من فقل له إن به خط مغرى   من مُعنى مولع

مقصــده في جــواب الآن مختوم مقــري　　كل لـفــظه مســجـع
وإن يقول رد له خـطه فقل مـانت سخري　　وارجـم الخط وارجـع
وهـو شـايـطلبـك تـرجـع تبح لـه بسـري　　واجمع الحسن وابـدع
عـاتبـه قـل عـلامـه قـد تبـدلت بهجـري　　حسبــه الله ما أســرع
واعلمـه أن دمعي في النـوى صــار يجـري　　في الخدود أربع أربـع
وإنني من جـفــاه الآن قــد قــل صبــري　　وأن لي قــلب مولـع
فسعي الله يفـك بـالـوصـل اسـري　　أو يجـوب ويخـشـع
لا تحــاذر ولا تخــش واجــهــر بــســري　　واحذر الـغير يـسـمـع
والصـــلاة تبلغ المختـار مــا نــاح قمـري　　في غـصــونه ورجـع

وقد اشتهرت هذه الحمينية وتناقلتها أكثر سفن الأدباء منذ القرن الثاني عشر، فقلما تخلو منها سفينة أدبية.

وله في الحمينيات قصائد أخرى اتسمت برقتها ولطفهـا ، منها قصيـدته الشهيرة التي يقول فيها .

يــا معلق بحبــل الحب إن كنت تــرتــاح　　لــلغواني مــثــالي
لا تبـالِ بـروحـك في هـوى الغيـد إن راح　　أو تقــول ذاك غـالي
إن قـلب المُعـنى طـار مـن غــير أجـنــاح　　في هـوى ظبـي حـالي

« إلخ » .

إسحاق محمد بن إسحاق

شاعر من أهل القرن الثالث عشر (النصف الأول)، لم أقف على ترجمته، وقد وقفت له على حمينية يكاتب بها قريبه علي بن أحمد إسحاق السابق الذكر يقول في أولها:

أهــلا وسهـلا ســاجي المقلتـين   من شــل قلب المُعنى واختـفى
جـبين لـــه قــد أعار النيــرين   والثغــر فيــه الحــلا والشـفــا
أقسم بـطرفك وقـوس الحاجبـين   ومـا حسنـك ومـا فيـه من هفــا
مـا قيْس مثـلي ورب المشــرقـين   ولـو كذب من قـد تقدم أو قفـا
فـأنـا الــذي بت أرعى النيـرين   من طـول ليـلي وطـرفي مـا غفـا
يـا ريح قف واستمـع لي كلمتين   هـــو سر لـك مــا منــك خفى
قل للحبيب الذي من كـل شين   مـا لـه كـذا أو فؤاده مـا صفــا
هـو يسألـك بالنبي جـد الحسين   الهـــاشمي الشفيــع المصــطفى
جــدْ لـه بـــوصلك والا قبلتـين   يحـظى بهـا الـطيف ليله بـالخفى
وكن شا حالـه وبين النـاس بين   لكن أنـــا قلت من طــرف كفى
والقلب قـد صار بـين الساعتـين   مـلازم البـاب من جـور الـوفــا
مـا حد فتـح لـه ولا قـالـه ألـين   مـا تشتهي من شرط حفظ الـوفا

إلى آخرها.

إسماعيل بن علي بن أحمد بن محمد بن إسحاق

شاعر من أهل القرن الثالث عشر ، سجن مع والده السالف الذكر، وكان قد تذمر بسجنه وكتب في ذلك مقامة أدبية طريفة أوردناها في كتابنا(فن المقامة في الأدب اليمني)، وله من الشعر في التشوق إلى أهله وهو في السجن :

أأحبابنا من (سفح روضة حاتم) وإن غبتم فالود ليس يغيب
لئن أقفرت منا المنازل والربا وروّعنا بَينٌ وطال مغيب
فما شأن ساري الطيف بعد فراقكم تنأى على أن المزار قريب
فإن صده السجان أو عاقه العدا فما صد طيفاً في الزمان رقيب
وقد يشفى الوجد الخيال مع النوى وإن لم يكن لي في المنام نصيب
ترى كم علمتم أن جسمي بعدكم عراه نحول متلف وشحوب
وأن فؤادي لم يطق حمل فادح التفرق حتى ضاق وهو رحيب
وأن نديمي بعدكم لاعج الجوى وكاسي وشدوي مدمع ونحيب
أهيم بمعنى البرق حتى كأنه لدى الومض ثغر كالأقاح شنيب
وأطرب للورق الهتوف ولم أكن إلى غير سكان (العقيق) طروب
وأهفو إلى مر النسيم إذا هفا وفي القلب منه زفرة ولهيب
ولو لم يكن وجدي هو النار كامن لما هاجه بعد الفراق هبوب
واستنجد الدمع الأبي على الأسى فينجدني محمره ويصوب
فيا دار من أهوى سقاك نيابة عن الدمع فياض الرباب سكوب
ولم أثن عنك الدمع شحاً وإنما أجلك أن يسقى رباك خصيب

فـما سـاعفتني النفس يـومـاً بسلوة   وهــل نفس صب بــالسلو تــطيب
وفي قــلب غــير قــلبــي مــلالــة   إذا مــا سـلت للعــاشـقــين قلوب
فـمـن مـبـلغ عـني الأحـبــة أنـــني   عليهم وإن صنت الـذمام غضـوب
إذا كـان حفظ العهـد ذنبـاً لـديكم   فــلا غفــرت للمستـهـــام ذنـــوب
وإن كـان إصراري عـلى الحب زلـة   فعنهــا مـدى الأيــام لست أتــوب

إلى آخر هذه القصيـدة البليغة التي جعلهـا على منـوال بائيـة أبي فراس الحمداني في سجنه .

وقد أورد له المؤرخ زبارة في (نيل الوطر) غرراً من القصائد الجيدة غير ما ذكرنا، فتنظر هناك، وهو أيضاً ممن ترجم له الحوثي في (نفحات العنبر) ولم يحدد وفاته .

أحمد بن عبد الكريم بن إسحاق

هو أحد إخوة الشاعر محسن بن عبد الكريم، ترجم له زبارة في (نيل الوطر) فقال ولد سنة ١١٩٤، وطلب العلم على جلة من علماء صنعاء، وكان له ولع بعلوم الصوفية والأدب، وكان يميل إلى الضياء ويكره احتجاب الشمس، وقد أوردنا له فيما سبق محاولته مع أدباء عصره في هذا الشأن، توفي (بدن وصاب) سنة ١٢٢٣.

وشعره المعرب يميل إلى وصف الرياض والطبيعة والغزل، وهو من فحول شعراء آل إسحاق ومجيديهم، له في كل فن باع.

من شعره الفصيح:

معنبر ليل جاء وهو مقنّع ... غزال كأن الصبح فيه مودع
إلى مربعي تهديه أنجم مبسم ... بجنح وليست بالصباح تلفع
فعانقت غصناً والتثمت شقائقا ... وسقيت خمراً كاسه التبر يلمع
وصيرت في عنقي حمايل فرعه ... ومنه لآل الرشح كالطل وقع
وعانقت جيداً مثل كاس مدامة ... فواقعه الأقراط حين تطلع
وزف نهوداً قرطها إذ ضممتها ... إلى صدر صب بالنوى تتوجع
وبت بروض قد حوى الخلد رائقاً ... به بردت نفس وقلب وأضلع
ندير بكاسات العفاف حديثنا ... وعتبا بدر من دموعي تشعشع
إلى أن بدت شمس الصباح فقوضت ... خيام سرور بالوصال ترفع

فيا ليلة بالسفح أنى نعودها رضى علي إنّا بها نتصدع

وله هذه الغزلية التي جعلها على وزن قصيدة الحصري :

قد كالغصن تمايله أقراط الجيد بلابله
مهما سجعت لترنمها فخفوق القلب يماثله
وعلى ساقيه تساجل تر جيع الأقراط خلاخله
طلع للطرف به قمراً سوداء القلب منازله
ودمي المسفوك بنظرته قامت في الخد دلائله
يبخل بالوصل على كلف هو طوع الحب وحامله
جمرات الوجد شقائقه ودموع الحزن جداوله
هلا بالوصل تسامحه فيتيم الدمع وسائله
فسقى عهدا كجفون الز هر وشاهـا الطل ووابله
وبه الابريق يقهقه بالصـ ـهبا والعود يساجله
ورياض عيون وجنته وشمول القلب شمائله

وشعره كله على هذه الأوزان الخفيفة السهلة .

وله في الحمينيات اليد الطولى، وهو يكتبها على أصولها من موشح ومبيت وقصيد، كهذه التي بدأها بخطاب الحمام :

صادح البان لقلبي حدثا وشجى قلبي هديله
إذ لوى الكف على غصن الربا وتدانى من خليله
وخليلي عن عيوني حجبا ما إلى قربه وسيله
وإذا حمّلت شكواي الصبا فهي بالرد بخيله

توشيح

ليت أن الدهر أنصف بين من بالحب يشغف
بعد بين الحب ألف

بيت

ليت دهر معتب من عتبا لیس نحو الظلم میله
فحسام الصبر في الحب نبا وجوادي من يقيله

بيت

فبمادا خص سهمي بالصدود والتجافي والمشقة
بعدما كان باللقيا يجود ويعاملني برفقه
تنسج الظلما لمحبوبي برود ويطرزها ببرقه
فبدا يهتز خلي طربا وسقاني سلسبيله

توشيح

ومحا قربه ببعده ومزج باللطف عجبه وخلط بالسلم حربه

إلى آخر هذه الموشحة الفريدة.

وله هذه الحمينية:

قالوا عشقت الذي لا زال في الحب مائل وأبدي عليك الشُّغَلْ
فقلت يا ناس قد اخترت حالي الشمايل ولذّ لي ما فعل
قالوا رأيناك في حبه ولك جسم ناحل أو هو لجسمك نحل
فقلت جسمي حكاه خصره وإن كان قابل لقلب مضناه شل
قالوا ودمعك عليه أضحى في الخد سائل وليس منك يسل
فقلت دمعي جرى ما غير قاصد وسائل راجي بلوغ الأمل
قالوا وقلبك عليه خفاق والبعد حايل أو قد فعل لك حيل
فقلت قلبي مشابه قرط شمس المنازل من للمحاسن شمل

إلى آخرها:

وله أخرى يقول في أولها:

قال طال ليلي فيك يا منيتي والسهر مثل اليوم عندك
وطال هذا الهجر يا محنتي لما عرف بالوصل وعدك

داوِ بوصلك يا حبيب علتي   واطْفِ بقربك نار بعدك
فما حوت إلا هواك مهجتي   لما حويت الحسن وحدك

بيت

حبك بقلبي يا حبيب امتزج   مثل امتزاج الخمر بالما
إذا ذكر وصلك طرب وابتهج   إن أعطشه بعدك وأظما
كم في طريق التلاقي خرج   وكم مراعي لا يسما
وكم على نيل التلاقيِ عرج   يا بدر في غيمة تغمّى

محمد بن عبد الكريم إسحاق

شاعر من أهل القرن الثالث عشر وأخو السابق ذكره ، لم أقف على ترجمته ، وهو مقل ، وجدت له حمينية شهيرة تناقلتها عنه سفن الأدباء وهي :

للـه مـا يحـويـه هـذا المقـام　　تجـمعـت فيـه النفـايس
حبيب حـاز اللطف والانسجـام　　حـالي الشمـايـل ظبي آنس
وإخـوان مالـوا عن طبـاع اللئـام　　وزينـوا تـلك المجـالس
والروض ألبس من زهور الكمام　　رواسـن أغـصـانـه قـلانس

إلى آخرها وهي مذكورة في كتاب (شعر الغناء الصنعاني) وقد نسبها إلى الشاعر الأنسي والله أعلم .

وله حمينية أخرى يقول فيها :

رحلت لكن قلبي يـا كحيـل المحـاجـر　　بـعـدك كـثـير القـلق
حـرام مـا لذّ لي بعـدك حـديث المسامـر　　ولا طـفـت لي حـرق
ولا استـطاب الريـاض الزاهـرات النواظـر　　بـزهـرهـا والـورق
ولا تسليت بصـوت العـود والكـاس دائـر　　مـن كف سـاجي الحـدق

بيت

يا قرة العين يا حالي الحلا والشمايل　　لا كـان هـذا النـوى
هيهـات إن الرسـل يا فاتني والـرسـائـل　　تـطفـي لهـيـب الجـوى

وكل لـذة ســواك مـا تحتهــا قط طـائــل   مــا لي بهــذا سـوى
وكل منزل خـلا عن غـرتـك غـير زاهــر   أبــقــاك رب الـفـلق

بيت

وقرب الله لقاك بـالعـافيـه والسـلامـه   وبـالـنعـيـم المـقـيـم
نسف كـاس المحيا من يـدي ظبي رامـه   أنـعـم بهـا مـن نـديـم
هـذا مـرامي من الـدنيا فخـل الملامـه   اللـوم شـان الـلئـيـم
فـالله تعـالى عـلى جميع المسـرات قـادر   فـلا تـطيـل الحـرق

وشعر آل إسحاق كثير ومتعدد الطرق والاتجاهات، وفيها أوردناه كفاية.

شعر الفقهاء

هم جماعة كبيرة من الشعراء ونادراً ما تجد فقيهاً في اليمن لم يقل شعراً، وحتى فتاواهم الفقهيــة، أتت في أحيـان كثيرة منـظومة، كـما تبينه مخلفـاتهم العلمية، ويرى الأديب الحيمي في شعر الفقهاء، ويسميهم العلماء (عامة) «إن شعر العالم بادي التكلف، ودره غير منتظم التوافق والتألف، تراه في رداء من التعمق والتقعر قد لف».

وتلك نظرة الحيمي وغيره من الأدباء الذين ولعوا بالبديع وجناساته، أما إذا نظرنا إليه من نظرة علمية وواقعية نجد فيه الكثير من الفوائد والصور الإنسانية، بعيداً عن تكلف المتكلفين من أهل البديع ،لا كما فهمه أديبنا الحيمي.

وكان أمير الفقهاء في الشعر خلال القرن الثاني عشر وما بعده، هو العلامة محمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢، وقد حفل ديوانه الضخم بفنون من الشعر الفقهي والأدبي على مختلف أنواعه، وتلاه جماعـة من الفقهاء كـان خاتمتهم الفقيه الشاعر شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠، وقد جمع ديوانه بعد وفاته ابنه الفقيه أحمد.

ولنا فيما أوردوه من شعر ميادين فسيحة من العلم والفقه والمتعة، لم يقصروا فيه عن إخوانهم الأدباء فيما أتوا به، بل وسبقوهم في أحيان قليلة من حيث عدم الكلفة والتصنع.

ونحن هنا سنستشهد بطرف من إنتاجهم ضاربين عن التطويل، حيث يتعذر التوسع فيه فضلاً عن الإحاطة.

المسوري

أحمد بن سعد الدين المسوري، من الفقهاء الشعراء في القرن الحادي عشر وديوان شعره جمعه أحدهم بعنوان (الدر الثمين من أشعار القاضي أحمد ابن سعدالدين) وكان فقيه عصره وعليه العمدة في الفتوى والمسائل العملية، مولده (ببلاد الشرف) سنة ١٠٠٧، ووفاته سنة ١٠٧٩ ومن شعره في الحث على الصدقة:

استنزل الرزق من مولاك بالصدقه ... ولا تهب ما ترى من كثرة النفقه
فإن لله ألطافاً يتابعها ... تطفي عن القلب مهما أقبلت حرقه
فلا تكن آيساً من روح رحمته ... فكم ضعيف القوى عن رزقه رزقه
وكن به واثقاً واصدقه في أمل ... فمن يكن صادقاً في قصده صدقه

وفي الخوف من الله يقول:

وذي حزن أخفى مضيض اكتئابه ... فنمَّ عليه دمعه بانسكابه
بكت عينه لما بكت عين قلبه ... ولولا بكاء العين لم يدر ما به
أذاب بخوف الله صحة جسمه ... وأبلى بتقواه رداء شبابه
بنفسي وليّاً للإله مشمراً ... إذا رقد النوام قام ببابه
يهيم فلا يدري من الخوف والرجا ... بأي يديه أخذه لكتابه

الجلال

الحسن بن أحمد الجلال، ولد سنة ١٠١٣ (برغافة) من نواحي (صعدة) ودرس على شيوخ اليمن في صعدة وشهارة وصنعاء وتبحر في علوم الحديث والفقه وألف المؤلفات الشهيرة، وكان أحد رجال المدرسة الظاهرية في الفقه كما أسلفنا من قبل، وفاته سنة ١٠٨٤ . .

له شعر كثير لم يجمع في ديوان وقد ترجم له الحيمي ضمن أدباء صنعاء، ومن شعره في ذم الغرور ومخالطة الناس:

من غره زمن الشبيبة والصبا ... وصفاء عيش ريق وسرور
فلقد تمسك فوق موج هائل ... حمقاً بأوهى عروة لغرور
إني عرفت من الزمان وأهله ... ما زادني جلداً على المقدور
وعلمت أن ليس النجاة لغير من ... ينجو بعزلته على المحذور
ما في مخالطة الأنام لعاقل ... إلا هوان واكتئاب وزور

وله العقيدة الشهيرة في الحث على الكتاب والسنة التي يقول في أولها:

العلم علم محمد وصحابه ... يا هائماً بقياسه وكتابه
ولآله منه الخلاصة كلها ... إذ ما تنوسخ عن هدى أصلابه
عملاً بمحكم كل آي كتابهم ... فجنوا به الإيمان بالمتشابه

إلى آخرها وهي عقيدة شهيرة شرحها في مؤلف بعنوان (فيض الشعاع).

المفضل

محمد بن إبراهيم المفضل ولد (بشبام كوكبان) سنة ١٠٢٢، وبرع في علوم عدة، حتى صار مرجع الناس في التدريس والأخذ، وأخذ عنه المقبلي وغيره، قال عنه الحوثي: «كان إماماً في جميع الفنون» توفي سنة ١٠٨٥.

ومن شعره في مدح كتبه:

وجـدت في صحبة كتبي غنىً عن حـال من أن تصفه الـود خـال
صـامـتـة لـكـنـهـا دائـماً تخـبر عـن مـاضٍ وآت وحـال
وصـرت في حـضـرة أنسي بهـا أحمـد منهـا الجبـر في الاعـتـزال

ويقول في حث أحد طلبته على الدرس وطلب العلم:

إيـاك تـلهـيـك الـرئـا سـة يـا حسـين عن الـدراسـه
فـالـعـلم يحـرس والـرئـا سـة لا تـكـون بـلا حـراسـه
مـن قـاس ذاك بـتـلك أقـسـ ـم أنـه أخـطأ قـيـاسـه
وعـن الـدراسـة لـيس تمنعـك الـريـاسـة والفـراسـه
فـبـخـدمـه الـعـلم الـوضـيـع إذا تـوجـه سـاد نـاسـه
وبـجـهـله المـلك الـرفـيـ ـع الأصـل قـيـمـتـه كـنـاسـه
فـعليـك بـالـتقـوى وبـالـعلـ ـم الـشـريـف وبـالـنفـاسـه

إلخ.

المهلا

الحسن بن ناصر المهلا، تفرد بالفضل والعلم والإقبال على موجبات السعادة في آخرته وعقباه، وقد أخذ عن علماء وقته ورحل إلى (شهارة) لطلب العلم وعرف بالفطنة والذكاء منذ صغره توفي سنة ١٠٨٩.

تتبـع يـا فتى طـرق السعـاده　　فتلك إذا وصلت هي الـسيـاده
وجنب نفسك الشبهات واصبـر　　وفيمـا حـل فـالـزمهـا الـزهـاده
وحـب الله آثــره وأحـسـن　　وقم بـالـواجبـات من العبـاده
تـفكـر في خـلائـقـه وحـاذر　　تصـور ذاتـه واعـرف مـراده
وقم بحـوائـج الإخـوان فيـه　　لتحـرز فضلـه وارحم عـبـاده
ولازم ذكـره والجـأ إلـيـه　　تنـل منه مـع الحسـنى زيـاده

إلى آخرها، وأشعار أخرى ذكرها المؤرخ زبارة في (نشر العرف).

المقبلي

صالح بن مهدي المقبلي أحد زعماء النهضة العلمية في اليمن، وشعره يسمو إلى درجة راقية من شعراء الفقهاء، ولد في جهة (لاعة من كوكبان) سنة ١٠٤٠ وأخذ عن شيوخ وقته ثم رحل إلى مكة وتوفي سنة ١١٠٨.

ومن شعره ما أورده في كتابه (العلم الشامخ) قوله في ترك التمذهب:

ألم تعلما أني تركت التمذهبا ... وجانبت أن أعزى إليهم وأنسبا
فلا شافعي لا مالكي لا حنبلي ... ولا حنفي دع عنك ما كان أغربا
فكونا على علم لدى قولهم إلا ... تراه فريداً حائراً قد تذبذبا
لقد زادني ذاك اغتباطاً لأنني ... أرى رجلاً في دينه قد تصلبا
وعوفي من داء أضر بمن ترى ... دعايات أسلاف هوى وتعصبا
ومن عجب حظروا العطا وهو واسع ... لقد نفروا والله أعطى وأرغبا
هم نصروا الفتيا على بعض من مضى ... بلا ثبت غير التعصب فاعجبا

إلخ ما أورده.

السحولي

محمد بن إبراهيم السحولي، نشأ بصنعاء وأخذ عن جماعة من علماء وقته وتولى الخطابة (برداع) للمهدي توفي سنة ١١٠٩.

من شعره في الحث على طلب العلم هذه الجناسية:

كم ألاقي من فراق فرقا لو رثا لي فرقا لي فرقي
لا تقولا كيف دمعي ورقا واسألوا عن شرح حالي ورقي
أنا لا أهوى قضيباً ونقا لا ولا قانىء خد ونقي
الهوى سعد بقوم وشقا والمحبون سعيداً وشقي
رب من كان وضيعاً فرقا ولكم مد كفي عن فرق
فدع التفريط واسلك طرقا ما إليها بالرقا قط رقي
إن طرفاً في مداه سبقا لم ينازع ربه في سبق

المخلافي

أحمد بن ناصر بن محمد المخلافي، يعد من شعراء الفقهاء الشيعة، وقد جمع (ديوان الهبل)، وجرت له معه مساجلات شعرية أوردها هناك وكان قد ترجمه صاحب (طبقات الزيدية) فقال: كان جارودي المذهب ثم رجع إلى القول بالتوقف عن السب، وكان مسكنه الحيمة ثم لما ناصر أحد المتعارضين، قام المهدي صاحب (المواهب) فأخرب بيته وأنهب كتبه فسكن صنعاء.

وكانت وفاته (بصيره من عدن) مسجوناً سنة ١١١٧.

من شعره في الاقتباس:

في حب بدر منير هواه أذهل حسي
أتلفت قلبي وجداً وما أبرىء نفسي

ومن شعره في مدح الإمام علي كرّم الله وجهه:

كرّم الله وجهه عن سجود لسواه فما اعتراه أخطاء
وشرى نفسه من الله يوم الغار يفدي النبي نعم الفداء
وببدر قد أشرفت بعلاه شمس فخر لنورها لألاء
وله يوم خيبر خبر عزَّ به يوم عزت النظراء

إلى آخرها.

العفـاري

الوزير الكاتب الحسن بن جابر العفاري نشأ في (ضوران) وتولى للمتوكل على الله إسماعيل عدة ولايات، وكان شاعراً ثائراً توفي سنة ١١٢٢ .

ومن شعره قوله :

لا ييأس النصر مظلوماً وإن ضعفت قواه يوماً على الأقوى من الناس
وليرفعن ، إلى البـاري شكيتـه ولا يكن لانتصـار الله بـالناسي
وليجعلن بعـد صبر يدّرعـه لـه رجاه للنصر قـوّاماً عـلى الياس
ولا تقل قـدرتي في عودها خور وإن خصمي شديد المكر والباس
فـإن لله إنصـافـاً متى بـرزت أعـلامه لم يعـدها زوراً النـاس
فليلتزم عتبات الباب مصطرخاً لا سيما إن دجى ديجور أغلاس

وللفقيه الحسن بن جابر عدة أراجيز في علوم مختلفة، منها هذه الأرجوزة في سفـر تجار الهند في البحر، وتوقيت مواسمهم في وصولهم إلى مينا (المخاء) :

أرجـوزة مـفيـدة عـجيبـة قـد ضمنت فـوائـد غـريبـة
للحسن بن جـابـر العفـاري وفـقـه الله اللطيـف البـاري
منـظومـة في سفـر التجـاري تجـار أهـل الهنـد في البحـار
عمـدة أهل الهنـد في خروجهم إلى (المخـا) وابتـداء ركـوبهم
على حساب أحكمـوه في العدد بـأول النيـروز مـا مـر الأبـد
قـد جعلوا أولـه كـالمـركـز فـكـل من أهمـله لا يجتـز

إلا بما استدل لهم في الأحكام / من ابتداء نيروزهم بالأيام
لا يحسبون أنجماً وأشهرا / وإنما عمدتهم ما سترا
وأنه اختص به الأعاجم / فهو لهم على الحساب حاكم
ولكنه تجهله أهل اليمن / فكشفه لعلمه من الحسن
وعندهم فأول النيروز / حقيقة وليس عن تجويز
على مسير الشمس في الأفلاك / إن أخذت حما من السماك
فإن مضت فيحسبون آتية / من بعدها ستين يوماً ومية
وهم مقيمون بأرض الهند / حتى تمر كلها بالعد
وبعدها ركوبهم للخضرمي[1] / إذا مضت تمنع من المقدم
فلا تزال سفنهم في سبح / إلى نهار عاشر في النطح
فسيرهم في البحر أربعينا / حتى يوافوا بالمخا) يقينا
فذاك عند الهند مايتان / من أول النيروز في الحسبان
وعندها تكامل المراكب / إلى (المخاء) وتظهر العجائب

إلى آخرها وهي عجيبة طريفة أوردها صاحب (طيب السمر).

(١) البحر.

القحيف

إسماعيل بن أحمد القحيف، من شعراء الشيعة الكبار وهو من أهل (ذمار) وكان صاحب ثروة طائلة وتولى للمهدي صاحب (المواهب) عدة ولايات توفي سنة ١١٢١.

من شعره قصيدة في عراض قصيدة الهبل في مدح الإمام علي كرّم الله وجهه التي أولها:

حدثاني عن علي حدثاني	ودعاني من فلان وفلان

يقول فيها مفتخراً بقومه:

قسماً لو لم يكن لي مفخر	غير حبي لعلي لكفاني
كيف والمنصب من همدان في	شامخ سامي الذرا عالي المباني
ثم همدان وهمدان الألى	علموا العالم أصناف الطعان
نصروا الدين بجرد شزب	وببيض الهند والسمر اللدان

إلى آخرها..

وله ينصح أحد طلبة العلم في العلوم التي يبدأ بالأخذ فيها:

قرع المسامع نظمك المستعذب	فطفقت منه لحسنه أتعجب
وعلمت أنك سوف تبلغ رتبة	في النظم ليس وراءها متطلب
وعرفت رأيك في العلوم ودرسها	والعلم أشرف ما يعد ويكتب

فابدأ بعلم النحو فهو أساسها   وبه عرائس كل علم تخطب
هو كالصداق لها فمن يسمع به   تجلى له أو لا يرد ويحجب
وكذلك التصريف فهو شقيقه   وعليهما كل العلوم ترتب
ثم المعاني والبيان فإنه   لب اللباب ونيله مستصعب

إلى آخرها..

زبـارة

الحسين بن أحمد بن صلاح زبارة، ولد سنة ١٠٦٨، وأخذ عن أكثر علماء عصره وكان متفرغاً لطلب العلم ونشره يقول من ترجم له: «أتعب نفسه في الطلب حتى حقق أنواع العلوم» توفي سنة ١١٤١.

من شعره في علو نفسه واعتزازه بعلمه:

يقـولـون هـلّا غـدوت إلى الغنى ... ورحت إلى زيد وصرت إلى عمـرو
فـإن فـلانـاً نـال مـا نـال إذ غـدا ... وراح فـأضحى بعد ذلـك ذا وفـر
فقلت نـعم لـكن لي همـة سـمت ... ونفساً ترى قصـد الرجال من النكر
(ولست بنـظار إلى جـانب الغنى ... إذا كـانت العليا إلى جـانب الفقر)
ومـا شغفـي إلا بتـقيـيـد شـارد ... وإبـراز أسـرار تـدق عن الفكـر
وحـفظ عـلوم الآل آبـائـي الألـى ... كشهب السماء بل كالبدور التي تجري
تـراجمـة القـرآن صفـوة من أتى ... بمعجزة كالشمس قامـت إلى الحشر

الأميـــر

إسماعيل بن صلاح بن محمد الأمير، ولد (بكحلان) سنة ١٠٧٦، وانتقل إلى صنعاء سنة ١١١٠، وأخذ عن شيوخها، وكان من الزهاد النساك، برع في علم الفقه وتوفي سنة ١١٤٦، وهو والد العلامة محمد إسماعيل الأمير.

من شعره:

مـا في الهـوى لي مشـــرب ... ومـــاؤه لا أشـــرب
لـــيس الهـــوى فـــني ولا ... مـــذهـــبـــه لي مـــذهـــب
كـــلا ولا يـــشـــوقـــني ... بـــرق بـــه يـــلتـــهـــب
ولا يهـــز صـــبـــوتي ... نـــســـيـــمـــه المـــطـــيـــب
ولـــيس لي مـــع الـــظبـــا ... في الأبـــرقـــين مـــلعـــب
ولا بـــأيـــام الـــصـــبـــا ... وذكـــرهـــا أشـــبـــب
وكـــيف يـــصبـــو لـــلهـــوى ... والـــلهـــو كهل أشـــيـــب

إلى آخرها.

وشعره كثير أورده صاحب (نشر العرف) المؤرخ زبارة، وقال: له ديوان شعر جمعه حفيده عبدالله بن محمد الأمير.

زبــارة

يوسف بن الحسين بن أحمد بن صلاح زبارة، ولد بصنعاء سنة ١١١٦، وتوسع في العلوم، وكان من أساتذة العلم في مدينته توفي سنة ١١٧٩.

من شعره في طاعة الله تعالى:

تعبٌ كلهـا الحياة فـما الـراحـة ... إلا في طــاعــة الــرحمــن
راحـة للقلوب حقّاً مـع الأبـدا ... ن فـالـزم فعــالها في كــل آن
لتنـال الجنان والـروح والـريحا ... ن والخلد بــين حــور حســان
واغـنـم أجــرهــا فــلله قــوم ... ســارعـوا نحـوهـا بغــير تـوان

وله في طلب العفو والاستغفار من الذنوب:

إذا عـظمت ذنـوبـك وادلهمت ... وأدنت للوقــائــع والــوقيعــه
فقـل في جـوف ليلك يــا إلهي ... تـداركني بـرحمتــك الـوسيعــه
ولاطــفــني وأولادي وأهــلي ... بــألـطاف خفيــات ســريعــه

وله في الحث على طلب العلم وقت الصغر:

زمـن الشـبيبــة لا يقــوم بـبعض ... أضـعــاف أيــام المشـيب جميعــا
فـاطلب هُدِيْتَ العلم أيـام الصبـا ... كيـلا تكـون لـدى الأنـام وضيعـا

وله مقطعات من هذا القبيل، جمعها المؤرخ زبارة في كتابه وكلها تدل على علمه وخشوعه وزهده رحمه الله.

الأميــر

محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير ولد سنة ١٠٩٩، وهو شاعر جليل المقدار، برز في كل فنون المعرفة وأخذ عن شيوخ عصره ورحل إلى مكة عدة مرات لأداء فريضة الحج، وله مع أهل عصره خطوب تحدثت عنها كتب التاريخ، ووفاته سنة ١١٨٢.

شعره جمعه ولده العلامة عبدالله بن محمد، وجمعه آخر بعنوان (الروض النمير) وقد أفرده أحدهم بدراسة واسعة في مجلد كبير فلا حاجة إلى إعادة جهده هنا.

ومن شعره قوله في الكون والحياة وتوحيد الله جلّ وعلا:

وسعت عطاياك الخلايق كلها … فالناس فيها في يديك سواء
أوجدتهم فضلاً وجُدت عليهم … وأنلتهم ما شئت مما شاءوا
فالكل يعجز عن ثناء ناله … بل شكرهم فيه لك النعماء
يثني بجارحة وأنت وهبتها … وعبارة هي من لديك عطاء
لولاك ما نطق اللسان بلفظة … ولكان أفصحنا هم البكماء
خولتهم نعماً فمفردها كما … قد قلت يحصر دونها الاحصاء

ومن رقيق شعره:

مرحباً يا مرحباً يا مرحبا … بنسيمٍ هب من تلك الربا

أرج الأرجـا بـنشر دلـني ... أنـه مـن نشر سكـان الـقبـا
ذكّـر الصب بـأيـام الـصبـا ... فـصبـا وزاد مـنـه وصبـا
هـات هـل عنـدكم منهم خبـر ... شنف الأسـمـاع عنهم بنبـا
ليت شعـري ذكـروا عهـد فتى ... مـا يرى غـيـر هـواهم مذهبـا
كـان من قبـل الهـوى مجتهـداً ... فـارتضى في الحب تقليد الـظبـا
مـا لهـا مـرعى سـوى قلبي ولم ... تـرض إلا دمـع عيني مشـربـا

إلخ.

وقولـه:

قلب بـداء ذنـوبـه مجـروح ... يغـدو لما لا أرتضي ويـروح
أعمى بصيـرته وسـد مسامعـاً ... منـه أليس بـه النصيـح يصيـح
شيب وضعف في القوى مع غربة ... بعـدٌ أصـاب أحبتي ونـزوح
قـد ضم أحبـابي وأتـرابي ومن ... عـاشرتـه بعد المـمـات ضـريـح
كانوا هم الأعيان يشرح قـربهم ... قلبي فـلا شـرح ولا مشـروح
يا رب عجل غارة تشفي الجوى ... بجنـود عفـو للذنـوب تـريـح
هزمت جيوش السيئات فأسدها ... كـل بسيف جيـوشـه مـذبـوح

وشعره كله جيد وتغلب عليه القوة والجزالة.

العراسي

عبدالله بن محيي الدين العراسي، ولد سنة ١١٣٤ وأخذ عن علماء وقته وألّف المؤلفات الجيدة، وولّي أوقاف صنعاء فحمدت سيرته توفي سنة ١١٨٧ .

من شعره :

ورشيق قد بنى الحب له في القلب مغنى
رق منه الخصر حتى صار في القامة معنى

وله عدة قصائد في مسائل علمية منها هذه في حصر خصائص النبي ﷺ .

أولها خصائص في ذاته ... خص بها المختار في حياته
بأنه أول من قد خلقا ... من النبيين فكن مصدقا
وأنه قدم في نبوته ... وآدم مجندل في طينته
وأنه أول من قال بلى ... حين ألست قال خلاق الملا

شعراء الأعجام

بقي من أولاد الأتراك جماعة أحبوا السكنى في اليمن، وآثروها على بلدهم وكان بعضهم من ذوي الصناعات والخبرات المتنوعة، فأفادت منهم البلاد وأحبهم أهلها حتى اندمجوا في الناس وأصبحوا مواطنين صالحين لا فرق بينهم وبين غيرهم.

وقد تفتقت قرائح بعضهم عن مواهب أدبية جيدة أضافت الشيء الكثير إلى رصيد الأدب خلال هذه الفترة.

وهم كثرة سنتناول هنا المشاهير منهم.

زيني العجمي

قال عنه صاحب (طيب السمر) «عجمي الأصل عربي اللسـان»، وكان يشتغل بالنساخة وقد عرف بخطه الحسن ومن شعره:

ومليح كالغصن نصيباً فمن لي ... أن أدانيـه في تـثـنيـه ضـما
قـد سبـا من أهـل صنعـاء ومنّا ... يـا أسـاة الغـرام عُـربـاً وعجـما

وقوله ما ظاهره المدح وباطنه الهجو:

تصدر جمال الدين للمجد والعلا ... بـربع لـه فـوق البسيـطة سـادا
تـرقى إلى أعـلى المعـالي فنـالها ... وأربى عـلى كـل الأنـام فسـادا

توفي في القرن الحادي عشر وقد رثاه العلامة محمد بن إبراهيم المفضل توفي سنة ١٠٨٥.

الشيرازي

محمد بن علي بن لطف الله خواجة الشيرازي، نشأ بصنعاء وهو من أدباء القرن الحادي عشر، وكان يتعاطى النساخة، ومن شعره ما كتبه إلى صديقه أحمد بن الحسن حميد الدين المتوفى سنة ١٠٧٢ متشوقاً إلى (كوكبان):

فؤادي لـه في الـطاعنـين مسـير ... وجسم بصنعـا مـوثق وأسـير
أأحبـابنا إن فـرق الدهـر بيننـا ... وعاد صفاء العيش وهـو كديـر
وذبت اشتيـاقـاً للّقـا وصبـابـة ... وهـاج بقلبي لـوعـة وزفـير
فكم رمت أن أمضي إليكم مع الصبا ... فمنعني ذهري وتلك تسير
ألا ليت شعـري هل أبيتن ليلة ... بـواد وحـولي صـاحب وسمـير
وهل لي إلى جيران (جيرون) عودة ... ومن جـور أيـام الفـراق مجـير
لقد عيل صبري بعدهم وتكاثرت ... همـومي ولكن المحـب صبـور
سقى الله أيـاماً تقضت بقـربهم ... بهـا للتصـابي نضـرة وسـرور
وقالوا أتبكي في (أزال) من الأسى ... وعنهـا جيوش النـائبـات تسـير
عهود تقضت أم رسوم تقادمت ... وكـرت عليهـا شمـأل ودبـور
فبحث وأسراب من الطير عكف ... وعبرت والريـح السحاب تثير
فعلمت ورقاء الحمى كيف تنتحي ... وسـاريـة الأنـواء كيف تسـير
وقلت لهم أبكي شموساً سرت بها ... إلى (كـوكبـان) أنجم وبـدور
وهل نافعي أن الرياض تدبجت ... وظـل بهـا للسـاجعـات هـديـر
وألبسهـا فصـل الـربيـع بـروده ... وفـاح شـذاهـا منـدل وعبـير

وغنت على فرع الغصون حمامها		وصفق فيهـا جـدول وغـديـر

ومن مقطعاته قوله في القهوة:

إني امرؤ لي في(الرضـا) مشـرب		أقـطـع فـيـه جـل أوقـاتي
أقـنـع بـالـقـوت إذ جـاءني		وقـهـوة تـنـشط أوقـاتِ

حيدر آغا

(أنظره في قسم الشعر الحميني).

إبراهيم الهندي

أمير شعراء الأعجام في عصره، الأديب إبراهيم بن صالح الهندي، عدّ من المجيدين المبرزين، وهو حنفي المذهب، وله الشعر الجزل المطبوع، مدح به جماعة من أكابر عصره، وكان بينه وبين الأديب إبراهيم اليافعي مداعبات، ومماجنات، وقدم على صاحب (المواهب) وكان قد عزم على أن يوقع به فقال له من أمنك يا هندي وقد أهدرت دمك فقال شفيعي القرآن، وأشار إلى مصحف كان على صدره فقال شفعتك فيه، ولكن لا أراك بعد اليوم وأمره بالخروج من (المواهب) فخرج منها خائفاً يترقب، وكان أكثر مكوثه بروضة حاتم، وقد تصوف في آخر عمره وحج، ولما عاد من الحج لم يلبث أن توفي سنة ١١٠١ . وقد جمع شعره ولد أخيه ويقال إنه ترك الكثير منه، وقد أثنى عليه كل من ترجم له فقال عنه الحيمي : «أديب لا يمدح بعده أديب إذا همع ربيع أدبه قطر استحال ماؤه في صرف الأسماع در». الخ .

من شعره نونيته المشهورة يقول فيها :

بنفسي مغنى زين بابنة مالك ... وبالغانيات الهيف يستحسن المغنى
فما شرف البنيان حسن طرازها ... ولكن بسكان الحمى تشرف السكنى
نعم دون هاتيك المعاقل دمية ... عقيلة أسد بالقنا تحرس الأقنى

شعره معروف ومشهور، أورده ابن معصوم وزبارة في (نشر العرف). وله مقاطع شعرية كثيرة أغلبها في الغزل الغلماني فهو مؤسس هذا الفن كما أسلفنا .

شعبان سليم

شعبان بن سليم بن عثمان حاسكي الرومي، ولد بصنعاء سنة ١٠٦٥، ووالده من الأتراك الذين آثروا البقاء في اليمن، وقد عرف بمهنة الطب، وكان عالماً شاعراً حسن الأخلاق، وقد أصيب في آخر عمره بمرض الفالج فأقعده في بيته توفي سنة ١١٤٩.

وهو شاعر معروف برع في نظم الفصيح والحميني، وترجم له صاحب (نسمة السحر) فقال: «أحد أدباء صنعاء المجيدين فاضل لو جاراه القمر لأنصف، أو الفلك المحيط لرآه لإحاطته بالأدب أعرف» إلخ.

وقال الحيمي: «طالما نظم شعره وعرضه عليّ وجاء في القراطيس بجواهره النقية إليّ لأنظر في إعرابه وفي صلاح معانيه لأنه في المعرفة ذو قصور» إلخ.

من شعره:

قد عبثت بالصب أشجانه ... وخانه بعدك سلوانه
ولؤلؤ الدمع على خده ... قد نثرته منه أجفانه
فاض ولولا نار أشواقه ... أغرق من في الأرض طوفانه
كم كتم الحب ويا ويحه ... بكتمه والسقم عنوانه

إلخ.

ومنه:

يـا قـامـة الغصن الـرطيب	إن مـال من فـوق الكثيب
حـرمـت وصـلي عـامـداً	وجعلتـه بعض الـذنـوب
يـسلو سـواي عـن الهـوى	ويميـل ميـل المستـريـب
أمـا أنـا يـأبى قـلبْـي	أن يـكـون مـن الـقـلوب
بـيـني وبـين الحـب عـهـد	لا يـدنس بـالـعـيـوب

وله شعر حميني جيد كتلك القصيدة التي أوردها صاحب (نسمة السحر) وهي قوله:

أمـام عذري فيـك لام العـذار	يـا متلفي بـالصـد والـتيـه
لذا حـلا لي فيك خلع العذار	ونشر مـا قـد كنت أطـويـه
عـادل قـوامـك إذا تثنيت جـار	وكم حـاسـد قـد لامني فيـه
حفيت جنـة ورد خـديـك بنـار	ونـرجس الألحـاظ تحـمـيـه

بيـت

يـا من تفـرد في المـلامـة وفاق	فـليس لـه في الحـسـن ثـاني
عيـون عشاقـك لخصرك نـطاق	تهـمي تـرى لـلعـطف ثـاني
ومبسمـك قـد رق فيـه وراق	خمـر الشنيـب الأقـحـواني
ومن خـدودك نجتني الجـلنـار	لـكـن يـحـرق قـلب حـاني

بيـت

الحسن كله قـد جمع لـك جميع	وأنـا غـرامـك قـد قسم لي
فكـل كـلي لصبـابـه مـطيـع	فـيهـا قـد استحليت ذلِّي
مالي سوى حسنك إليك من شفيع	سـاعي إليـك في جمـع شملي
عسـاك تنعم لي بقـرب المـزار	فـالـغصـن قـد يخضر ذوابـه

إلى آخره.

يقول المؤرخ يوسف يحيى: «وأكثر شعره في الموشح يتغنى به لرقته ومحاسنه».
وهو كسلفه إبراهيم الهندي يكثر في مقاطيعه من الغزل الغلماني الصريح ولذا تكاد ظاهرة هذا الشعر في الأدب اليمني تنحصر في شعراء الأعجام.

سمرجي

محمد خليل سمرجي، قدم والده إلى اليمن من مكة المكرمة سنة ١١٥٠ ونشأ ولده في صنعاء، وقد عرف بالزهد والصلاح، قال عنه قاطن «ممن شملتهم بركة أهل الله، وكان حسن الخط محافظاً على أسباب الأخلاق والمروءة» توفي نحو سنة ١١٧٠.

من شعره المعرب قوله:

ما من هـواك وصبـوتي بـد	ذهب المـرا واستحكم الجـد
يـا ليت شعـري والمنى سفـر	هـل للمنى وصبـابتي حـد
قلق الفؤاد عليـك وهـو عـلى	حـال يحـاذر وقـده الـوقـد
والجسم قـد لعب السقـام بـه	وكـسـاه فـهـو لجـلده جـلد
أمـا الحشا ولـك السـلامـة من	داء الهـوى فعفى بـه الـوجـد

إلخ.

يقول صاحب (الحدائق) في وصف شعره شعر ليس لوزنه في ميزان الخليل من ثمرة.

ومن حمينياته وهي كثيرة قوله:

يا رب سالـك من أهلته للشفـاعة	أمينـك المؤتمـن
هـون علينا وفـرج همّنـا وارتيـاعـه	واطفىء لهيب الفتن

وبقيتها في شعر الغناء الصنعاني.

شعراء الحميني

صاحب الشعر الحميني (الملحون) الشعر الفصيح (المعرب) في كل أطواره، وسايره في كل فنونه وموضوعاته ونادراً ما نجد شاعراً في اليمن لم يقل الشعر الملحون كما قال الشعر الفصيح وقد حوت دواوين أكثرهم على القسمين من النظم ونجدهما عند العنسي، وجحاف، ومحسن بن عبدالكريم وغيرهم.

إلا أن هناك ظاهرة تستحق التنبيه وهي أن الشعر الحميني هنا ينقسم إلى نوعين رئيسيين:

أولهما: قسم مغَنّى وهو ذلك الشعر الغزلي الذي ساير الشعر الفصيح في فنونه وأنماطه.

ثانيهما: قسم دارج يدخل فيه النقد الاجتماعي والفكاهي والقصصي وغير ذلك، وتحت هذين القسمين يندرج أكثر أنواع الشعر الحميني.

ولسنا بصدد دراسة هذا الشعر ففيما كتب عنه الكفاية لكنّا سنقف عند شعراء من هذا الجانب لم يحظوا بالدراسة الكافية.

حيدر آغا

زعيم الشعر الحميني في هذه الفترة التي ندرسها هو الشاعر حيدر آغا وكان كسلفه محمد بن عبدالله شرف الدين في القرن العاشر، يقتفي أثر الجمال، ويتتبع مواطنه ثم يصوره في شعره.

يقول الحيمي في ترجمته: ولد بصنعاء وهو من أولاد الأروام «الأتراك» ويقول صاحب (نسمة السحر) وأصله من الأجناد الرومية الذين لم يعودوا مع من عاد، وفيه سكينة ووقار وأدب غض وظرف، وله يد طولى في الموسيقى وضرب العود ويغني بشعره الموشح».

وقال من رآه إنه: «وجده بذمار دائم السكوت محب الانفراد وكان أسمر مقبولاً لحسن أدبه وظرفه».

وبرز في الشعر الحميني «الموشح» ولذا يقول يوسف بن يحيى صاحب (نسمة السحر) (شعره العربي قليل لقلة حفظه وتدوينه)... وأكثر ما وجد له من شعر فصيح هو عبارة عن مقطّعَات قصيرة كقوله في التشوق إلى صنعاء:

قالت وقد ودعتها — أتفارق الوجه الحسن
أتفارق الوطن الذي — قد سميت (صنعاء) اليمن
ناجيتها بتوجع — والقلب مملوء شجن
طلب المعاش مفرق — بين الأحبة والوطن

وكان قد دخل (ذي مرمر) فوجد المقهوي بها يسمى الفحم والخبّاز يسمى النمر فقال:

كيف أبقى بسوحكم كيف أسلو وأستقر
ومن الفحم قهوتي وطعامي من النمر

وكان أديبنا يتعاطى القات وله وقد عدم القات:

من عدم القات كان يا تي بالسرور إليَّ بغته
قد مسني داء الجنو ن فسكنوا ما بي بكفته

وأكثر ما وجد له مقاطع قصيرة في معان مختلفة حتى قال معاصره الحيمي إنه «إذا نظم المطولات قصر وإذا نظم المقطعات زها قلمه وأزهر».

وله مقاطع تدخل ضمن ما عرف عند الأدباء بالغزل الغلماني، وهو من المبرزين في هذا الجانب شأنه شأن بقية الشعراء الأعجام الذين عرفتهم البلاد من أولاد الأتراك، بل لا نغالي إذا قلنا إنه أحد المؤسسين لهذا النوع من الشعر خلال هذه الفترة هو ومعاصره الأديب إبراهيم الهندي، فهما ممن رسّخا أصوله وأشادا بنيانه بَعْد اندراس يعود إلى القرن الثامن منذ زمن ابن فليته في زبيد.

وعلى الرغم من قلة فصيحه فإني وجدت له عدة مقطعات غلمانية فيه، كقوله فيمن اسمه نعمة الله:

ومليح بنعمة الله يدعى أهيف القد فاتك اللحظ فاتن
قال لمن عابه بنقص جمال نعمة الله لا تعاب ولكن..

وفي آخر طبال:

وشادن يكفل طبلاً له ويلوي السير على عاتقه
يشن غارات الهوى مسرعاً ويضرب الطبل على عاشقه

وأشياء من هذا القبيل يكثر فيها الفحش. قلت وكانت بينه وبين إبراهيم الهندي مساجلات شعرية منها ما كتبه الهندي إليه وقد كنّاه بابنه الأكبر:

يـا أبـا أحمـد لقـد جـرت حتى | صـار قلب الخليل منـك كليـما
قــد بـلغتـم إلى منــاي ولـكن | لم تجــوزوا مـقــام إبــراهـيــما

فكتب إليه صاحبنا وكانا يذهبان «من ضواحي صنعاء»:

أنــا في روضـة المحــاسن بـاق | في مـقــام وحـق لي أن أقيــما
يـوسفي الجمـال من نــار خـدًّ | يــه رأينـا احتــراق إبــراهيــما

وكانت وفاة حيدر آغا بضوران في زمن المتوكل على الله إسماعيل نحو سنة ١٠٨٧ ولعله مات في أوان شبابه.

* **شعره الحميني:**

أجمع كل من ترجم له على أنه شاعر الحميني أو الموشح الملحون فقال عنه الحيمي:«وله في شعر الموشح الحميني أي منهج أنضر من حدائق الربيع الأنضر والأبهج مما اشتهر وطار ونطق به عود وطار تتغنى به الغادات في القصور، وتنادي الرياض السندسية بألسنة نهورها معلنة بأنها عنه في غـاية القصور، فما مجلس اجتماع إلّا وشعره فيه يملأ الأسماع».

فهذا نص معاصر يدل على مكانة شاعرنا في فنه الذي أخذ به نفسه ويؤيده ما قاله صاحب (نسمة السحر) الذي يقول:«وحيدر ممن رزق السعادة في الموشح الرقيق الغضيض ولم يترنم الشادي بغير قوله فيه برغم معبد والغريض».

وله قصائد موشحة كثيرة لعل أشهرها تلك الموشحة الفريدة التي جعلت المؤرخ يوسف بن يحيى يوردها كاملة في كتابه (نسمة السحر) على الرغم من تحاشيه ذكر الشعر الملحون في كتابه: وهي هذه:

شـقـيـق الـبــدر بــراق الجـمــان | كحيــل المقلة الـظبي المـنــطق
خــلم يسحب ذيـول التيــه عـاني | ومــاء الحسن في خــده يــرقــرق
مهفهف ليس لــه في الحسن ثــاني | وهــو لـلنيــريـن ثــالـث محقـق
خــطابـه إن نــطق فــاق المثــاني | وأنسى بــالــذي يُــرخي ويحــزق

توشيح

سباني منه يا إخوان ورش في غنج الأعيان مع تفتير الأعيان

تقفيل

وقده في تعطافه أراني قضيب البان إلا أنه أرشق
ولولا سيف عينيه اليماني حمى قده سجع فيه المطوق

بيت

ملق حالي الدلال عذب المراشف حكى بدر السماء بهجة وطلعه
مهلا أحومه للروح خاطف وله يا ناس في التفتير صنعه
غرامه قد ترك لي دمع واكف يسيل في الخد دمعه بعد دمعه
ملك روحي فداه روحي عياني وشنف كاس حبه لي وأدهق

توشيح

ولما خاف في العشقة جناني وأيقن أنني في الحب شا أزعق
أمر خدّيه ترسل قصد عاني سلاسل من عذاره لي وأوثق

بيت

ممنع قلدوه الحسن تقليد رشيق بالملاحة قد تفرَّد
بديع الحسن في خديه توريد فما أحلى الورد في الخد المعسجد
تعال يا عاذلي بالله تعال حيد وعوذ طلعته واذكر محمد
رشا ما أهوى سواه دائم زماني ولا قلبي لغيره صار يعشق

توشيح

غرامي فيه مشروح وقلبي منه مجروح وذكره ينعش الـ وح

تقفيل

فآهي لو تساعدني الأماني ويصبح كل ما أملته حق
وألوي من على جيده يماني وأرشف من لماه صافي معتق

بيت

وأروي لـلرشـا بـاهـي المحيّـا	بـأني من غـرامـه صـرت ذاهـل
أبـات مـا لي سمـير إلّا الثـريـا	أهيم جنـح الـظلام بـين المنازل
أمـوت إن غـاب عني ثم أحيـا	إذا أبصـرتـه يميس بـين الغـلايـل
وحسنـه لـو يـعـاني مـا أعـاني	رثـاء لي من هـواه من كـان يعشق

توشيح

وأنـا مفتـون بحبـه   وكم أشتـاق لقـربـه   وشمـلي يجتمع بـه

تقفيل

وكم قـد بيننا حـاسـد وشـاني	أراد أن اجتمـاع الشمـل يفـرق
فـما صـدقـتهـم فيـمـن سبـاني	ولا هـو في الـذي يهـواه صـدق

وشعره يغلب عليه الرقة والانسجام.

ومن حمينياته الشهيرة هذه الموشحة:

بـلغ الأحبـاب عنـا يـا نسيـم	أطـيـب الأخـبـار
واشتـك حـالي إلى ظبي الصـريم	مـزري الأقـمـار
قـل أنـا مضنى وفي لـيـلي أهيم	حـايـر الأفـكـار
لم أذق النـوم في الليـل البهيم	مـن فـراق الجـار

بيت

أول العشقـة سمـر يتبـع سمـر	والهـوى أفـنـان
كـان محبـوبي يجيني في سـحـر	مثـل غصـن البـان
كم سمـح لي بـالقبـل بعـد النـظر	وردي الأوجـان
فـاللقـا والقـرب جنـات النعيم	والـفـراق الـنـار

بيت

من فـرق بيني وبينك يـا غـزال	مـن مـنـع وصـلك
لـو تـرى خـلي المـعنى في أزال	ذاب مـن أجـلك

كان تسمح أو تجد له بالوصال قبل أن يهلك
عند سلطان الهوى قلبي لزيم في يد الأقدار..
إلخ

وقوله في حمينية أخرى:

فاح نشر الصبا وأصبح على الروض عابق
والمطوق شدا من فوق غصن البواسق
والربيع قد كسا روض الحدائق شقايق
والدجا انهزم والصبح بالجيش لاحق

وفيها يذكرنا بمسكنه ذهبان فيقول:

قم بنا يا نديم إن كنت للأنس راغب
نحو ذهبان نسكر في رياضه ونطرب
لي بسفح الحما والشعب غالي محجب
كم وكم أودعه قلب بحبه علايق

قلت وله حمينيات أخرى مغناة ذكرها صاحب شعر الغناء الصنعاني وهذه هي التي أوردناها لم يذكرها المؤلف.

(الفسيل)

الحسن بن أحمد الفسيل شاعر غنائي جليل، جمع بين القسم الحكمي والملحون وله في الشعر الاجتماعي الدارج مساجلات فكاهية جرت له مع معاصره الأديب علي بن حسن الخفنجي، حواها ديوان المذكور، ومنها هذه التي أجاب بها شاعرنا على الخفنجي، وعرض فيها بأسماء الفواكه والمأكولات:

سلام أحلى من زبيب مسور ومن عنب زَجَّان
ومن مناصف في زبيد أحمر كأنه المرجان
ومن بياض شاهدت عند (شغدر) تبارك الرحمن
ومن سبايا مختلط بسكر وسمن كالعقيان

توشيح

أو كقرص معبل للحليب يشرب
كالقمر وأكمل من رآه تعجب
بين بيض مجعدل ما أطعمه ما أطيب

إلى آخرها..

وفي مساجلاته مع الخفنجي يكثر من التصاوير الضاحكة والتشبيهات الغريبة كقوله:

وافت إلينا قصيدة زائرة من الخفنجي حوت جيف الكلام

لبيــرق البــزد صــارت نــاشــرة وكــاشــرة عن ثنــايا كــالعــظام
أبيــاتهــا لِبِنْ قــد هــي دامــره من طـول مـا بَلَّهــا قـطر الغمــام
عجــوز تشـرب بــوادي قافـرة لهــا محيــا يعــير جنــح الـظلام

إلى آخرها.

ويرسم صورة أخرى ضاحكة لصديقه وقد سكن بين الجن والعفاريت وغدا وجهه مخرقاً من الجدري:

يـا من سكن في الفـج من عــطان ومن تعــوض بــالعنب جحــين
ونــادم الغـول والعَـدّار والجـان والا قــبــائــل غــير محـزمــين
وخــده المنفــوط عــشــا شقــران لحــوح ومـا اوخــرش في جمــين

إلخ..

وفي معارضاته الفكاهية نجده يدعو إلى ترك الحب والغزل فيقول:

قد صرت تايب من هوى الغـزلان لمــا رأيــتــه لــلعــزيــز يهــين
ولي زمــان من عشـقــة الأعيــان ولي من الـوجـه الـدخيـل سنــين
غـلقت بــاب الحـب والـطيقــان حتى ســلا قلبي وكــان حــزين
وابــرد من الأشــواق والأشجــان وكــان في أسر الهــوى هــين..

إلخ..

قلت هو على أسلوب الخفنجي في مدرسته الضاحكة..

وكان الفسيل أحد من نظم القصيدة المغنَّاة وكتب فيها حمينيات شهيرة منها هذه:

فــوج الصبــا هــات لي مـن أين أهــديت هـذا الشــذا العــاطــر
أو قــد لـقيـت المليـح الـزيـن الـشــادن الـشــارد الـنــافــر
غــزال صنعــاء كحيــل الـعــين وبــدرهــا الــزاهــي الــزاهــر
أو حمَّــلك وردي الخـديــن نـحــوي ســلام وهــو لي ذاكــر
فــإن لــه يــا نـسيـم شـهــرين غــائــب وفي مـهــجـتي حــاضر
فـمـا دريت مــا السبب ذا الـبــين والـصــد من ســاهـي الـنــاظــر

فـما جـرى غـير دمـع الـعـين		مـن غـير عبره في الخـدود سايـر
والهجر يـا فـاتـني يـومـين		أمـا ثـلاث يـغـلق الخـاطـر
زرني فـقـد حـان مـني الحـين		شـأمـوت عليـك وأنت لي هـاجـر
قسمت قلبـي الشـجي نـصفـين		بـقـدك الـعـادل الجـايـر
ولـلفـؤاد يـا رشـا سـهـمـين		من جفنـك الفـاتـك الـفـاتـر
شـادعي عليك وأرفـع الكفين		إلى إلّـه الـسـما الـقـادر
فـارجـع إلي إنـه ودع ذا البـين		ولـلقـاء يـا حـبـيـب بـادر
واصـدق وعـودك وخـل المـين		لـقـد أتـانـا الـربـيـع زائـر
وقـد سـمـح لي نـدي الخـدين		من زهـره الـبـاهـي الـزاهـر
هـيّـا إلى روض يـروق الـعـين		إذا ابـتـسـم مـن بـكـى المـاطـر
نشـرب شمـوس الكؤوس يـا زين		ونـسـتـمـع نـغـمـة الـطايـر
ونـجـتـمـع وحـدنـا الاثـنـين		في غـفـلة الحـاسـد الـغـايـر
فـما ألـذّ اجـتـمـاع إلـفـين		في روض نـاظـر شـذاه عـاطـر
صـلوا عـلى سـيـد الـكـونـين		نـبـيـنـا الهـاشـمـي الـطاهـر
والآل مـن لـيس فـيـهـم شـين		مـا غـرد الـطـير في الـبـاكـر

وله في حمينية أخرى يستفتحها بالدعاء إلى الله بأن يفك عـره وأن يعفو عنه ويلاطفه، ثم يتوجه بالخطاب إلى نسيم الصبا ويَسْأله عن محبوبه:

يـا إلهي بفضلك حـل بـاليسر عسـري		إن لـك فضـل أوسـع
واعـف عني ولاطـفني بـإصـلاح أمـري		بـالـشـفـيـع المشـفـع
يـا نسيم الصبا من أين لـك عرف عـطري		طـي نـشـره تـضـوع
رق مـن فـرقـتـك طـبـعـي وشـعـري		فـيـك لي سر مـودع
أو معـاك لي رسايـل حاويـة شرح صـدري		فهي والعـين تـدمـع
وسلام طاب عرفك من شـذا حبي يسري		حـمـلك ريـم الأجـرع
فـالهنـا لي إذا في خـاطـره مـر ذكـري		إن في الـذكـر مـقـنـع

إلى آخره.

الشامي

عبدالله بن حسين الشامي أديب ساخر يعتبر من مدرسة الخفنجي بمجونها ونقدها الضاحك، وقد عاصره وساجله بعدة قصائد عامية ضمّها ديوان الخفنجي وفيه يرد ذكر شاعرنا باسم عبدالله بن يحيى الشامي، فلعلّه غير صاحبنا المذكور إلّا أن زبارة يرى أنه هو المقصود في الديوان.

وعلى كل فالمذكور له قصائد على المنــوال الذي ابتكره الخفنجي. أنظر إليه يصف شعره وشاعريته بتلك الأوصاف الهازلة:

يـا أهـل الهـوى شعري من الرقة عرى إذا أراد يجري تكحول وأدرب
ديكه رجع شقـري شبيه العصفري وكان كالقمـري وصوته كـالطرب
شكله تقل مصري بكبــود عنتـري يصيح كالبقري وفي صوته شحب
وأنا أعهده عذري من الغلظة بري إذا نـظم يزري بشعبان في الأدب

ذلك شعر أديبنا كما يصفه وقد خلا من الرقة وإذا سار فيه تعثر به الخيال إلى غير ذلك من وصف..

وتبلغ به السخرية ذروتها حين يجعل من شعره حماراً قد حرن في مكانه فلا يتحرك قيد أنملة، بعد أن كان يعهده خفيف الظل والحركة يصل به (شبام) في لمح البرق ولا يحتمل ضرباً:

حمـار نظمي قـام وسَنَّب واستقام وأنا عهدة مبهام تهــامي منتخـب

يطلع بي السِّلاّم وينزل بي (شبام) ما يحتمل دِلْكام ولا يشتي لَبَبْ
ولامعة خَدَّام ولا يقبل لجام يقلق من الملطام إذا ناله حقب
واليوم رجع مِذْكام قد وشى كلام مخلب وحين مرجام وقد جريه خبب

ذلك حمار شعر أديبنا وقد هرم وشاخ فلا يتحرك بالرجم بالحجارة والتراب، ووقفت له على قصيدة اجتماعية عظيمة يصف فيها حالة الأسواق وكساد البضائع، وينقلنا إلى الدلال (السمسار) والعطار، والقَشّار (بائع القشر وهو قشر البن)، والسلاط بائع السليط (الزيت)، والسمان، وبائع الزبيب والعنب، وبائع (القلاّ) والجزار، ثم يعرج إلى سوق الحب، وسوق الحطب والخبز، والمقاهي، وسوق القات، وسوق السلب (الحبال)، ثم ينحدر إلى أصحاب الحرف، فيصف حالة (السراج)، و(السَّقّال)، والنجار و(الحداد)، والعمار والملاج، والمقصص و(المفَلّق) والسقا و(الحائك)، والخياط، و(الحجام)، والحلاق. ويصف حتى حالة قيمي «الحمامات» وصانعي الكوافي وبائعي (الكازرون) (التتن) و(الشارعة) (مزينة العرائس) وطوائف أخرى وصفتهم ملحمة الشامي العظيمة، وهي تدخل ضمن الوصف الاجتماعي الاقتصادي المتعلق بحياة الناس المعيشية.

أنظر إلى حالة العمَّار «البنا» وقد ضاق به الحال من قلة العمل:

تنظر كل عمار في شغله وقلبه حزين
جالس يروي الأخبار زاهد ما يذوق السَّمين
قوته قوت الأخيار كم حوله شقاه فارغين
متفكر ومحتار مما شاهده في السنين

والملاج تجده يخفض من أجرته فلا يجد من يطلبه فيضطر إلى رهن عدته ليسد رمقه:

والملاج مسيمج في منزل تعذَّر كراه
في الأجرة مروج كم يفرح بمن قد بداه
كم يدخل ويخرج يتملق وما أحد دعاه
قد طرفه مزجج راهن ماجه في عشاه

وحرف أخرى حوتها قصيدة الشامي ووصفها وصفاً مبدعاً فريداً، ولولا خشية الإطالـة لأوردناها بكاملها فهي غريبة في بابها.

العمــاري

علي بن صالح العماري الوزير الشاعر، ولد بصنعاء سنة ١١٤٩ ، وشارك في علوم عصره، وبرع في نظم الشعر الفصيح والعامي ، وتولى عدة مناصب حكومية ، يقول المؤرخ جحاف إنه كان «مغرم بالعماير والبيوت والتفاصيل الهندسية» وبنى للإمام دار الحجر في الوادي ، فأجاد عملها توفي سنة ١٢١٣ . وشعره الحميني خفيف الإيقاع وأغلبه في الغزل الغنائي :

يـا من أغـار الـظبـا بالجيـد والمقلة — وأخجل الغصن قامة والقنا العَسّـال
أنت الـذي حزت أنـواع الحـلا كله — فما مع الغيد جمعه من حـلاك مثقال
وفي بيـان المحـاسن حسنـك الجملة — يغني عن الوصف والتفصيل والإجمال
مـا حسن يوسف فـلا عزة ولا عبلة — في جنب حسنك سوى حبة من المكيال
إن كنت أعطيت يوسف من حلاك قفله — من أجلها في الجمال تضرب لها الأمثال
فـارفق بقلبي فهو رحمـة عنــي جبله — عليـه مسكـين تجـزع حيلة المحتـال
أو قد نسيت حين راعيتك على غفلة — في رفقـة العشق والتفتير بقبـل إقبال
فقلت لـه كش مات الصب في نقله — حتى حمل دست ما يقـدر له الجمـال
جوب عليَّ وقـال مالـك وذا الشغلة — أترك هواك للملاح تسلم من الإشغال
فقلت لا بــأس لـكن هــذه الـليلة — اسمح بوصلك على خفية من العذال
ألثم ثنـايـاك وأرشف من لمــاك نهلة — أطفي لهيبي فقال هذا الكـلام بطال
فقلت كان هات لي في الوجنتين قبلة — فقـال هيهـات والقبلة بجملة مــال
فقلت نــظرة فقـال المـطلبـة سهلة — أقنع بها قد سمحنا لك بقدر الحـال

فقلت لحظك فعل قبلاً معي فعلة حرّك فؤادي وقطّع مهجتي أوصال
فكيف يخلص فؤادي ما هي الحيلة من الهوى بعد هذا الهول والأهوال
قد بعتك الروح يا سيدي بلا مهلة ولا إقالة ولكنّه نقد في الحال
فإن عاد مرادك ترجل فوق ذا رجله فشل قلبي وروحي لك كذا والمال
هذا الكلام صدق أولا في الكلام كذبة فأنت داري بحسنك إنه قتال

وله من قصيدة أخرى يخاطب فيها البرق يقول:

يا برق ضاحك ثنايا درى المبسم أغنم صفاها أمانة ثم حاكيها
وهات صف لي حال الشادن الأحوم يا حبّذا حب هذا اللول في فيها
يا برق صف لي وما مني حديث يكتم له لموعك ترددها تثنيها
ما شأن لمعك مراراً صرت تتعلم لمع الثنايا بعيداً منك تحاكيها
ما أصدق الصبح عندي حين ما أقسم بأن وضاح نوره ما يباهيها
وأكذب العين في دعوى الهوى إن لم يسيح سيل المدامع من مآقيها
يا كامل الحسن أنت البدع والمختم في منبع الحسن قاصيها ودانيها
امرض وانحل غرامك مغرمك واسقم مرت لي الأيام لا أعرف لياليها
أسامر النجم جنح الليل إن أظلم وأرعى الكواكب من أجلك في مجاريها
لأجل عينيك يا أحوم ألف عين تكرم مسلاك قصدي ونفسي في أمانيها
إن كان قد شي جرى منّا ولا نعلم أو عندك أخبار من واشي فخلّيها
وحق رأسك وتربة سيدي الملهم ما لي سوى زورتك دايم أرجيها

وشعره كله من هذا النمط العالي، وما وجد له من شعر فصيح نجده يفوق بكثير شعره الحميني والله أعلم..

الأميـــر

علي بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الأمير من علماء اليمن الأفاضل ولد سنة ١١٧١ وكان سريع البادرة شديد الذكاء، برع في سائر فنون العلم والأدب وترك مؤلفات كثيرة أوردناها في كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي) وكان خطيباً مصقعاً، يجاهر بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم.

قال صاحب كتاب (الحدائق المطلعة من زهور أبناء العصر شقائق): «كنت أسمع بصاحب الترجمة وتبلغني مخبرات أفكاره المعلمة، فأشتاق إلى لقائه وأتطلع إلى سمائه، حتى ورد عام ١١٨٩ إلى شبام كوكبان، وهو حديث السن غلام فلما حصل التلاقي على وقف الأماني جرت بيني وبينه مكاتبة، وهي من أول شعر قلته، ثم عاد في شهر صفر سنة ١١٩٤ إلى كوكبان، وكانت تلك الأيام جنة الجنان، فاتصلنا واجتمعنا، فكنا نجني الأدب رطباً جنياً، ونكرع من معينه عذباً رويّاً، غير مقتصرين على فن من الفنون، بل الحديث ذو شجون.. فلله هي من أيام غرر، وأوقات أصايل وبكر».. الخ

ويقول جحاف كان إذا اشتد بالناس القحط، وتأخر المطر جمع الناس وأمرهم بحمل المصاحف، وخرج بهم الصحراء يستسقي. ويحض الناس على الصلاة على النبي ﷺ، حتى أثبتها سُنّة بعد كل صلاة في كل مساجد صنعاء، وتصدر للوعظ سنة ١٢٠٨، وأخباره يطول شرحها، وكانت وفاته سنة ١٢١٩.

من رقيق شعره المحكم ما قاله في التشوق إلى صنعاء ووصف مرابعها:

فؤاد لسر الحب يخفي ويكتم ودمع بمكتوم الهوى يتكلم

وصبـــر كجسمـــي أنهكتـــه زوابـــع النوى وهو من أحـوال دهري أسقم
كـــأني طـــابقت الهـــوى فتضـمنـت لـزومي فهـل عنهـا النـوى لي تلزم
ومـا أنـا بـالنـاسي معـاهـد صبـوتي بصنعـاء وخيـل اللهـو فيهـا تحمحم
وفي (الروضة) الغنا سقى الله سفحها ولا انـفكـت الأنـــواء عنهـــا تـسلم
مغـــان أقـام الأنس أعـــلامـــه بهـــا وقـــام بها للدوح ســـوق ومـــوسم
فـما شعب «بوان» وإن كـان حسنـه أنيقـــاً لـدى صنعـــاء إلاّ خـــويـــدم
كـــأن مغـاني «بـــير نصر» تكـــونت من الـــراح بـل عنهـــا الـطلا تتعلم
إذا شئت جنـــات الخلود خـــلالهـــا تـيقـنـت أن الـبعـــد عـنهـــا جهـنـم
تبلبـــل فيهـا النهــر عنـد انحـــداره فيـأتي هـزار الـروض عنها يتـــرجم
وتـرقص أغصان الـريـاض نسيمهـا فتغـــدو القمـارى فـــوقهـــا تتـــرنم
ويهبط إن مـــرَّ الحيـــا بـــربـــوعهـــا يقبّـــل مسكـــاً من ثـــراهـــا ويلثـم
يـراعي نـظير الـروض بسـام بـرقـه فتنـظر ثغـر البـــرق والـزهـــر يبسم
وقـــد فـــرشت قيعـــانها بقـــطائـف من السندس المخضل يصفو بها الهم
ورصَّعهـــا لمـــا تـنـــاثـــر زهـــرهـــا فـكـم لاح ديـنـــار هـنـــاك ودرهـم
ولا عيب فيهـــا غـــير أن نسيمهـــا عـليـــل يـــداوي من لـــه يـتـنـسـم

ثم يقابل هذا الوصف الرائع لمدينته صنعاء، بوصف الرحلة إليها على ظهر ناقته، وقد حف به الظلام والغبار من كل جانب:

ورب ليـــال قـد طـــويت بـرودهـــا أخـالج صـــدر القفـر والأفق مـظلم
كـــأني أجـــاري النجم والفلكوالمنى فـــأنـجـــد طـــوراً والأمـــاني تتـهـم
عـلى ظهر قَـوْدَا سابقت بـرق ظلهـا وأنجبهـــا للمبـتـغى الـعـــز شـــدقم
تنم بـــأســـرار الـــطريق خفــافهـــا بـــوقـع الحصى حتى كـأن ذاك أنجم
بـــدو يضـل النجم فيـــه طـــريقـــه ويـدري به الخرتيت أن ليس يعلم
يخـاف بـه البـــرق الخـطوف فينثني إذا طـــار أصـوات الـــرُّعـود تهلمم
تعفي الســـوافي رسمـه ويشيـــد بـالـ ـقتـــام جبـالاً فهي تمحـــو وتـرسم
وينسـج من فـرش الغبـار مـطارفـاً بهـــا الشمس إن مـــرت بـــه تتلثم
كأن عزيف الجن يـــرقص نـقعـهـــا وأصـــداؤه فـــيـــه لـــه تـــتـعـــلم

كأني بتلك الريح ظلت فأصبحت ... تفتش عن متن الطريق فيعدم
تروم النجا منه فتيمن تارة ... ولا تجد المنجا هناك فتسأم
أناخ به الليل الدجوجي رحله ... فيغدو الضحى والليل فيه مخيم

تلك صورة لليل والريح أبدع فيها شاعرنا. . وله في اغتنام اللذات أوان الشباب:

أغنم زمان اللقا وصفوه ... ولا تدع لعبه ولهوه
كم من مليح له لحاظ ... تفتتح القلب منك عنوه
لقاؤه إن أتاك يوماً ... أحسن من جنة بربوه
فإن دعاك الهوى فبادر ... ولا تجب للنصح دعوه
ولازم الراح فهي روح ... للروح تهدي إليك نشوه
وإن لحاك العذول يوماً ... فلا تطع خوضه ولغوه
وقل لمن ظن فيك شراً ... أو قال قد أدركتك شقوه
غرست فرع الذنوب لما ... جنيت لما جنيت عفوه

ومن شعره:

وحياة أشجاني وأشواقي ... وراس محبتي لك
لقد رشفت كؤوس ودك ... وانثنى قلبي نزيلك
يا من غدت حلل الجما ... ل عليه ألبسني جميلك
وارحم لعزك ذل ميت ... في الهوى أضحى قتيلك
طال النوى فبحق حسنك ... زر ولا تسمع عذولك
من أمس تهجر مستهاً ... ماً لا يرى أحد مثيلك
والله يا بدر السماء ... إن الجفا لا ينبغي لك

أمّا شعره الحميني فهو في الذروة من أدبه، وقد شاع بين الناس حتى قال عنه جحاف: (حفظه الصغير والكبير، والرجل والمرأة والعالم والعامي، ووضعوا له الألحان وغنوه في الطرقات والأسواق والبيوت).

وهو يدخل في ديوان ضخم ظل مفقوداً ولعله لم يجمع على الرغم من قول

صاحب الحدائق المطلعة أنه (يقع في مجلد كبير).

وفي شعره الحميني يتجلّى نفسه الاجتماعي، ويكثر نصحه وتقريعه، وقد اشتهر بين الناس تخميسه لقصيدة البهلول الوعظية الشهيرة، وتناقلتها الكتب والسفن ونادراً ما تخلو سفينة أدبية منها، وحفظها أكثر الناس وخاصة أولئك الذين ينشدون العامة في الشوارع بالطِّيران والطول يقول في أولها:

عملي كله قشواش ... لكن شا احسن ظني
وأطلب رب الأحراش ... القادر ينفعني
من هاش ببابه عاش ... يدّي رزقه مثني
عامر للطير أعشاش ... علَّمْها كيف تبني
فالزم ببابه ترتاش ... وأشرب لك منٍ دني
قد اسكرني شي لاش ... يا صاح أروِعني

قلت وهي قصيدة اجتماعية عظيمة تستحق مِنّا وقفة متأنية. ففيها يصف حالة العلماء ودعاواهم الفارغة بكثر الكلام، وتكبير العمائم، وفرض الأجرة والكيلة فيقول:

فدع عنك (يعني) وكثر الهدار ... وكبر العمامة وطول الثياب
وتعيين الأجرة وفرض السبار ... بقدر المسافة لقصد الثواب

ويقول ها أنت إذا رأيت لمع الدرهم تقوم إليه بالشوق حبواً، وإذا حان وقت الصلاة تراخيت في فراشك:

فيا لحية الشيخ وعقل الصبي ... ذنوبك قد أعمت عليك فكرتك
بتحبي لحب الدراهم حبي ... ووقت الصلاة نوم يا عيبتك
قد زاد عليك إبليس ... صحيت سَمّاج[1] واخدف[2]
ما تعرفش التلبيس ... قد لك في هذا شف
عمرك كله تهويس ... فمتى حين تتلفلف

---

(١) ثقيل.
(٢) أبله.

كم قــد لــك نــوم في الكيس ... هــا كــان هــا قــم الــتــف
عــاشــق لــدفــا وفــراش ... وتــقــم تــاكــل مــثــني

ويدعو صاحبه إلى التوجه إلى الله والتضرع إليه بالإنابة والاعتراف بالذنوب والتقصير:

لــو غــيــرك يــا حــالي ... كــان تجلس بــالــبــاب
تشـرب لــك مــاء حــالي ... من شـراب أولي الألبـاب
قــف بــالــبــاب الــعــالي ... قــل يــا رب الأربــاب
فــالي مــنــك أوفى لي ... لا تــفــضــحني بــحــســاب
غــلق بــاب الفــرتــاش ... وافــتــح بــرجــاك ظــني

ثم يذهب إلى التأمل في ملكوت الله ويقول إن القرآن ما ترك شيئاً:

البحــر مــلآن حيتــان ... تــسبــح فــيــه وتسبــح
وبــراري الأرض مــلآن ... أشجــار وهــوى مفــرح
كــم فيــهــا من حيــوان ... أصبــح بثنــاه مفــصــح
وأقــرا ســورة (سبحــان) ... وتــعــوذ واســتــفــتــح
الــقــرآن مــا خــلاّ شي ... فــتــدبــر تــســتــغــني

ومع عظمة صنع الكون وحكمة خلقه فالإنسان بدعواه العريضة لا يعرف أبسط الأشياء في تكون جسمه:

هــذا نــوره بــاهــي ... تــتــلألأ كــالــزَّهــره
وتــرى الــثــاني ســاهــي ... في أنــواره فــتــره
كــوكــب ســيــره واهــي ... والمــســرع عــن أمــره
وهــو الــعــالم مــا هــي ... في كــل قــضــيــة فــكــره
وابــن آدم مــا يــدري شي ... مــا درى مــا في أذني
كــما الآدمي يــدعي كــل شي ... وكيف يدعي شي وأصله مدر
وينسى الذي قال أمس العشي ... من المبتـدأ صح مـا لـه خبـر

ويدعو إلى اشتغال القلب بذكر الله وترك كل ما دونه:

واشغل قلبك بالله وابرد لك من غيره

ويحذر من غيبة المسلم ويقول عرض المسلم كاللحم تراه في المجزرة غنمي بقري، فإياك والاقتراب منه وإلا فحسناتك تتحول إلى من تغتابهم وتخرج من صلاتك بلا شيء:

إياك من الغيبة تأكل لحم الإخوان
هذا فوق «السيبة»[1] غنمي بقري ألوان
وتخاف لا تدري به والله في كل مكان
فثوابك ترتيبه لفلان وفلان وفلان
صليت ورحت بلاشي والذنب عليك مثنى

ويدعو إلى الخشوع في الصلاة ويقول تتجرأ على الله بأن تناديه في صلاتك وقلبك معلق بأشغالك الدنيوية:

تصلي جماعة بجسمك فقط وقلبك بيجري طلوع في النجود
أما تختشي من نزول السخط إذا أعرضت عمن بفعله يجود
يا ذا القلب الغافل أين حياك من ربك
تسجد بفؤاد سافل تتباعد من قربك
بفريضة ونوافل ما تخشى من ذنبك
لو جملت الحافل كان من دمعك شربك
ما ينفعك الخرباش لا منك ولا مني

وفي الأخير يقول لصاحبه لو تركت الخداع لاتضح لك ما أعنيه:

لو تنصح يا غشغاش لا يظهر لك رطني

ثم يتوجه بالنصيحة إلى نفسه ويتضرع إلى الله ويقول:

إليك مددنا أكف الرجا وعمن سواك غضضنا البصر

---

(١) معلق الجزار.

فـأنت الحكيم وأنت الكـريم وأنـت المقيـل لمـن قـد عـثر

ويقول في تقريع نفسه:

ثـوبـك قـد نـظفـتـه والـقـلب مـلان أوسـاخ
وشـبـابـك قـد صـرفتـه وغـدوت مـن الأشـيـاخ
والمـنـكـر عـرفـتـه بيضـة لـك فيهـا أفـراخ
والمـعـنى صـرفـتـه مـا أصغيت إليـه صمـاخ
وشـغـلت بـيـت الحـاش مـلي عـطل بـطني

لكن باب الرجا مفتوح وفضل ربك واسع:

لكن صحيح حديث الـرجا عليـه بنيت أسـاس الـطمع
بـرحمة ربي نجـا من نجـا وحـاز الأمـان بيـوم الفـزع
شـا أقـلبـهـا مجـنـانـه وأصـيـح مـع من صـاح
واعـكـف لي في الخـانـة واسـقـي كـاس الـراح
واقـطع خـيط الـغـانـه والـزم بـاب الـفـتـاح
ومـع فـيض إحـسـانـه شـا أضحـك إنْ غيري نـاح

ويقول تترك صلاة أجرها عند الله عظيم لأجل خمسة حروف ومع ذلك فأنت إذا صليت يظل قلبك معلّق بعمارة السقف والفم:

تفلّت عـلى سب خمسة حـروف جمـاعـة بسبعـة وعشـرين صـلاه
وعاد فكرتك في السقوف واللقوف فـما لـفـؤادك كـذا مـا بـلاه

وأخيراً ينتهي إلى القول بأن حب الدنيا أهلك الأبطال وجحاجحة الرجال:

حـب الـدنـيـا أهـلك كـم مـن عـاصر نـيـبـه
وانـظر مـن كـان قـبـلك مـن شـاب أو مـن شـيـبـه
لا يـلعـب بـك جـهـلك واذكـر صـاحـب (طيبـة)
خـلاهـا لـلأوبـاش فـاتـركـهـا واسـمـعـني

ثم ينهي قصيدته بالصلاة على النبي ﷺ ، وطلب العفو والمغفرة إلى غير ذلك ، وهي ملحمة فريدة في بابها، تدعو إلى الإصلاح وتهذيب النفوس والأخلاق .

وتطرق شعر الأمير الحميني جانباً آخر من الأدب، وهو الشعر الغزلي الذي اعتاده أهل هذا الجانب من الشعر، ويلتزم فيه غالباً أنماطاً متبعة في هذا الفن من الاستعانة بالله ثم الصلاة على النبي ﷺ ، ثم الدخول في موضوعه وهو الغزل ووصف الحبيب واللوعة والهجر، إلى غير ذلك. .

وكأمثلة على قصائده الغزلية الكثيرة نورد هذه الحمينية :

يـا رب جـارك من الـظلالـه	يـا رازق الخـلق يـا جليـل
صـلّ عـلى المصـطفى وآلـه	مـا غـرد الـطير في النخيـل
يـا عـالم الغيب بـالجـلالـه	نـجنـا مـن لـظى الشعـيـل
واعـذر لمن قـد رفـع سـوالـه	إليـك يـا معـطي الجـزيـل
واكتب عـلى عبدك الجمـالـه	في حب سـاجي الرنـا الكحيل
من أخجـل البـدر في كمـالـه	بمـا حـوى خـدُّه الأسـيـل
والشمس إن أبصـرت جمـالـه	عـادت وقـد طـرفهـا كليـل
تخـضـع لجيـده إلى قـالـه	والـسحـر في مـقلتـه مـقيـل
والغصن حـرر عـلى اعتـدالـه	فـجـاء وذا أمـر مسـتحـيـل
يـا غصن مثمـر ببـدر هـالـه	في لحـظه الصـارم الصـقيـل
إن سـل من مقلتـه نصـالـه	راح الخـلي والـشجـي قتـيـل
محـاسـن الغـيـد كـلهـا لـه	والله عـلى مـا أقـول وكيـل
هيهـات مـا في المـلاح مثالـه	ولـيس لي في الهـوى مـثـيـل
قـد الحسـان كلهم فـدا لـه	والله مـا أرضى سـواه بـديـل
أغـن في مـهـجـتي حـلالـه	وفي فـؤادي هـواه مـقـيـل
أبعـد من البـدر في منـالـه	من دون لقيـاه هـول مهيـل
أسـود مـا تـعـرف المقـالـه	مـا تعـرف إلا الـدمـاء تسيـل
يـا من يـاه خـلٍّ الخبـا لـه	فـدونـه الخيـل والصـهيـل
ولحظ يـامـا رمـى نـبـالـه	تخـاف من بـطشهـا بـكيـل

الجيد من يستقيم قباله ... وما يخاف سطوة الكحيل
أفديه بروحي ولو حلاله ... تعذيب قلبي بلا دليل
يفعل بمضناه ما بدا له ... فكل ما يفعله جميل
وشا أشهد الغيد كلها له ... إني لسيد الملاح سبيل
قد بعت روحي بلا إقاله ... منه ولا ما أستقيل
والآن يا فايق الغزاله ... أرفق بقلب الشجي قليل
فقد بعت في هواك حاله ... وما شفاله لقاك عليل
قد الحسود والعذول رثا له ... وأنت قاسي عليه مطيل
كم شا يكون يا حبيب مطاله ... فعلت حبل النوى طويل
خليتني في الأنام قاله ... صدقت يا سيد قال وقيل
لا تستمع من وشا فما له ... مقصد سوى يهلك العليل
والله يسهل لنا وصاله ... ويجمع الشمل بالخليل
صلوا على المصطفى وآله ... ما غرد الطير في النخيل

واشتهرت له الأوساط الفنية في ذلك الوقت حمينية مغناة لا نزال نسمعها إلى الآن وهي قوله:

يا الله يا رب لاطف عبدك الحاير ... يا من لك الحل والإبرام والقدره
يا مولج الليل في الإصباح يا قادر ... يا مالك الملك فرج كل ذي عسره
يا قابل التوب يامن للذنوب غافر ... أغفر لعبدك ذنوبا قد أثقلت ظهره
فبحر جودك على كل الملاح زاخر ... ورحمتك يرتجيها من عظم وزره
فإن فضلك عظيم ما قط له آخر ... والفضل واسع عظيم ما ينتهي حصره
في سفح صنعاء لقيت أحوم رشا ناشر ... غانى من الحور أهيف باهي الغره
طلعت محياه قالت للقمر سافر ... والشمس منها حياكم تكتسي صفره
وفي الخدود ورد يحميه نرجس الناظر ... والحسن قد اجتمع والماء والخضرة
فنزه الطرف في بستانه العاطر ... وأحذر سيوف المقل تسبيك والنظره
وإن ثنى القد غنّى فوقه الطائر ... والغصن يسجد على الماء ممتثل أمره
يميل نشوان من خمر اللمى ساكر ... وريق ثغره محقق أنه الخمرة

بـديع حسنـه لسيف المقلتين شـاهـر　　أرسـل سهامـه على قلبي عـلى فتـره
وقــد قلبي بعــادل قــده الجــايــر　　حتى حكى الجسم من في الضنا خصره
أبات أرعى الكواكب في الدجا ساهر　　وأقلب أفكـاراً حتى تـطلع الــزهـرة
سـافر فؤادي وعقـلي وهو لي هـاجـر　　والصَّب لا يحتمل صــدَّه ولا هجـره

(الآنسيان)
الأب ـ والابن

هما أشهر أعلام الشعر الحميني خلال هذه الفترة وبهما ختم هذا الفن في الغالب.

الأب: عبد الرحمن بن يحيى الآنسي ولد سنة ١١٦٨ ونشأ بصنعاء وأخذ عن علماء عصره ونظم الأشعار الفصيحة وله فيها مجموع شعري أسماه الأنموذج يقول الشوكاني «سمح الزمان باجتماعي به في صنعاء وغيرها وكثر: اتصالنا، وكتب إليّ من نظمه الفائق الكثير الطيب وقد صار ديوان شعره من مجموع كتبي» توفى سنة ١٢٥٠.

وشعره مما اشتهر بين الأوساط وتناقله الناس صغيرهم وكبيرهم، وقد ولع المغنون بتلحينه وغنائه، واشتهرت بينهم قصيدته التي جعلها مفتتح ديوانه الحميني (ترجيع الأطيار) أولها:

يا حي يا قيوم　　يا عالم بما تخفي الصدور
يا رازق المحروم　　يا من بحر جوده لا يغور
يا ناصر المظلوم　　يا ذا الانتقام ممن يجور
يا منفذ المحتوم　　في الساخط وفي الراضي الصبور

بيت

أسألك يا رحمن　　بالنور الذي لا ينطفي
سيد ولد عدنان　　حبيبك من توسل به كفي

أن تـذهـب الأحـزان والأمحـان بـالـلطف الخـفـي
وتـكـشـف المهـمـوم وتـكفـينـا مـهمـات الأمـور

بيت

قـد ضـاقـت الأحـوال وضـاع الاحتيـال والاجتهـاد
وخـابـت الآمـال إلا مـنـك يـا رب الـعـبـاد
فـخـفـف الأثـقـال وداو بـالصـلاح داء الفسـاد
وسـامـح المـأثـوم واغفـر إنـك الـرب الغفـور

بيت

مـن يـرحـم المـضـطر أمَّـن ذا يجـيـبـه إن دعـاه
ومـن لـدفـع الضر وكشف السـوء إن أعيـاه دواه
ألا لله الأقـدر عـلى مـا شـاء والمقـدر سـواه
المـوجـد المـعـدوم والمعـدم وجـوده بـالـدثـور

بيت

عـن سـاكـني صـنـعـاء حـديثك هـات وافـوج النسيم
وخـفـف المـسـعـى وقف كي يفهم القلب الكـليم
هـل عـهـدنـا يـرعى ومـا يرعى العهـود إلاَّ الكـريم
وسـرنـا مـكـتـوم لـديهم أم معـرض لـلظهـور

إلى آخرها .

وشعره كله جيد وقد التزم فيه بقواعد النظم الحميني من مبيت ومـوشح ومزدوج وأحياناً يكتبه على نمط القصيد المشطر .

وتدور مواضيعه غالباً في الجانب الغزلي إلاَّ أنه قد يتطرق أحياناً إلى جوانب من سياسة عصره وحياة مجتمعه ووصف البلدان . . .

إلى أن يقول فيها :

يـوم من المسجـد تسـير يـوم بـذكـر الله صـاح

صحية الختم المكبر		الذي فيه افتتاح
ليلة الحمام الأزهر		وصباح يوم الصباح
الذي حقر وصغر		ما مضى قبله فطاح
ونهر من راه وخبر		وشغل من جا وراح
بسماط أوسع وأكثر		جمع أنوع المباح
لف أهل البحر والبر		من سبح منهم وساح

وشعره الفصيح هو مما تفرد به، وقد لاحظت أن جامع ديوانه المطبوع فاته أشياء من قصائده وبعضها سارت بها الركبان، ولعله جمع في فترة مبكرة من حياته، تم كتب بعده أشياء لم يتأتَّ له إلحاقها.

ومن غرر قصائده التي أهملها ديوانه، حمينيته التي أولها قوله :

ما حيلتي يا ناس كيف أصنع		ماذا يبرد ما علي ويطفي
إلا وصال الخشف ريم الأجرع		حبيب قلبي في الهوى وإلفي
من فيه كل الحسن قد تجمع		حتى تقاصر في حلاه وصفي
لكن نقض عهدي وكل مطمع		وأنا بعهده معتني وموفي . . .

إلخ

وأخرى أولها :

حبيب لولاك ما راشيت ولا أرشيت		ولا وريت مليح في الناس أو بطال
ولا جاهدتهم عشقي ومديت		يميني باليمين تكذيب لمن قال
ولا ساررت من يكتم ولا أخفيت		ممن صدره إن هزوه غربال

إلخ

وثالثة أولها :

سلام يا أهيف يا مورد الخد		يا حالي الأخلاق والسجية
سلام كالعبير يفوح والند		يغشى شريف الخلقة السنية

سـلام من مضنى عميـد مكمـد هـايم بحبـك مفتتـن قـويـه
إلخ .

ورابعة :

يـا مغير القمـر إن لاح جنح الغيـاهب والـنـجـوم المـضـيـة
مـا السبب تهجـر المضنى ولـه قلب ذاهب مـا فـعـل شي خـطيـه

(إلى آخرها) ، وقد وردت في شعر الغناء الصنعاني ص ٣٣٢ منسوبة لمجهول ، وقصائد أخرى كثيرة تحفل بها سفن الأدباء ومجاميعهم وحبذا لو تصدى أحدهم لجمعها وألحقها بديوانه.

الابن ـ أحمد بن عبدالرحمن الآنسي: ولد في صنعاء وترعرع في أحضان والده، وكان يتعاطى معه الشعر ويكتب إليه غرر قصائده، وقد حوى ديوانه مجموعة منها توفي سنة ١٢٤١ قبل وفاة والده بتسع سنين.

وهو شاعر غزلي نهج على أسلوب والده ، وربما فاقه في بعض الأحيان ، وتتميز قصائده بالرقة والسهولة ، وفيها يبدع في وصف الأيام الماضية وذكريات أيام الصبا :

زمـان الصبـا يـا زمـان الصبـا عـهـودك رعـاهـا الله
وحيا الحيـا سفـح تلك الـربـا محـل الـرشـا الأبـله
مغـير الشمـوس والبـدر والـظبـا وسـيـد المـلاح جمـله
رشـا كَمْ قتـل كَمْ أسر كَمْ سبـا وهـدر عـبـاد الله

إلخ

ومن أرق قصائده الحمينية قصيدتـه التي يغنيها المطرب قاسم الأخفش بصوته الوقور المتناسق أولها:

قـال المعنّى لمـه يـا خـل روحـي فـداك شـاروح في عـشـقـتـك
والحـال أني مـولـع بـك وعـاشق جمـالـك والـروح في قـبـضـتـك
لمـه لمـه شـا تحـاربـني بهـذا مـطالـك والمحـر يـا عـيبـتـك

فـأنا أعني الله وأنـا أعنيـك من ذا فعـالـك والـظلم في دولـتـك
فكيف شا ظلم وأنصاف القمر من خصالك والـعـدل في قـامتـك
عـلى مـعنّى شـجـى مضى مـن قـبـالـك وأنـت في طـاقـتـك
مثل القمر في السماء ما حـد بكفه ينالك ولـو عـشق طـلعتـك
هيهات يا سيـد ما في الغيـد يوجـد مثالـك ولا خـلق خـلقـتـك

قلت وهو كوالده حظي بجمع ديوانه وطبعه في الأيام الأخيرة إلا أنه أتى ناقصاً كديوان والده، وقد وقفت له على ثلاث حمينيات لم أجدها في ديوانه المطبوع.

الأولى أولها :

قال المعنى هوى الغيد الملاح شغلي أهوى من البيض عذب الثغر براقه
ما قيس ليلى تحمل في الهوى مثلي ولا كثير ولا غيلان لـه طـاقـه
أنا المعنى صريع الأعين النجلا . . . أحـد من فـرط أشـواقـه
مثلي ولكن معسول اللمى أحـلى مضى عليّ بماضي سيف أحـداقه
أحكام كانت على العشاق من قبلي تمضي ولكن أنا لي نفس مشتاقة

إلخ

وأخرى، أولها :

يـا مقيـل العثـار أسألك تخفيف الأوزار أنـظر أنـظر إلـيّـا
بـالـزكي المختـار طَه وبـالآل الأخيـار وابن طـالب عـليّـا
من حمـل ذو الفقـار والأوس والخزرج أنصار وهـو فيهـم وصيّـا
فـوق نهر الـغـوار بالقرب من يمنة الدار راح روحـي عـليّـا
شـل قـلبي وسـار غاني خطر بين الأشجار حـين بـدا بـالمحيّا
شمس نصف النهـار يذر الدجى جنح الأسحار قـلدوه الـثـريا
والـعـقـود الـكـبـار ذا صف لهن فوق الأزرار بـين تـلك الحليـا

وثالثة وهي أرق قصائده الضائعة يقول فيها :

يا منزل الغيث يـا مروي العـطش يـا من عليـك ليس تخفى خـافيـه

يـا من بسترك تغـطي مـا فتش | أسألـك حسن الختام والعـافيـه
قـال المعنى لمه يـا أهـل الشـوش | تشـوشـوا من رقـيق الحـاشـيـه
من أذهلت قلبه أصوات الشـوش | قـدامكم والخـدم والحـاشيـه
أكثـرتـوا الـطيش وازداد الـدهش | وارتـاعت أهـل العقـول الزاكـية
نشـرتـوا الـطيب في كـل الـريش | عنبـراً وشاهيناً وعـطر الكـاديه
أطيـاب لـو شمهـا الميت انتعش | وعـاد لـلأرض مـرة ثـانـيـة
يـا ليت من رش بـالمـاورد رش | بـاب السبح أو طـلى بـالغـاليه
أوليت من للطرق جميعهـا فـرش | مـفـارش الـروم كمـن غـاليـه
حـيـث المـعـنّى رآكـم وارتـبش | ومـال نحـو الـطريق الخـافيه
يا من يكـثر التحـافة والـورش | رميتـوا أهـل القلوب العـذريـه
جبيتـوا الغـيـد أنـواع البقش | وسلمـوا كلهـم نصـف المـاليـه
أقـمـار مـا في محـيـاهـا نمش | في عشر وأربـع جنـاب العـافيـه
أفـدى وردهـا الـعـطري فـتش | وأعينـا ذعجـا كحيلة سـاجيـه
أغصـان تختـال في ذي الـبوش | تـذكـرك دولـة الـعـبـاسـيـه
يـا زين من بـالمـلابس قـد قلش | وبـالحـلى المخلصـة والمـطليـه
ومـن تـطرف بـكـفـه وانـتـعش | ومـن تمشـلي مشـالي حـالـيـه

إلخ

وشعر أديبنا على نمط أخاذ من السهولة والـوصف الرائع ، ولذا انتشـرت قصائده وتناقلها الناس حتى زاحمت شهرتها شعر والده على رقته وجودته .

مجانين الأدباء «الظرفاء»

نشأت في ذلك العصر طائفة ظريفة من الأدباء، اتخذت السخرية من سلوك الناس ونقدهم نهجاً اجتماعياً يسلكونه فوصفوا بالجنون، وأحياناً بالعقل المفرط، كما هو الحال عند عقلاء المجانين في الأدب العربي.

وهؤلاء حشد كبير قلما يخلو منهم عصر أو مجتمع، ولكن الجديد في عقلائنا المجانين هنا أنهم قالوا الشعر وعرفوا به بين الناس وربما جاء شعرهم منتظماً جيداً، لولا ما يعتري بعضهم من حالات الهوس والوسوسة.

وقد حدثنا صاحب (الحدائق المطلعة) عن جماعة من أولئك الظرفاء منهم : طاهر الأديب المعروف بخرصان، قال عنه هو مسلاة الأحزان، وفاكهة الأزمان، خرج من صنعاء إلى كوكبان، يعلم القرآن، وكان أحد المشايخ يحفظ القرآن غيباً حفظاً مجوداً راسخاً، وكان كثيراً ما يسهر الليل ويرقد النهار، فإذا لامه أحد يقول :

فاستقبل الليل بما تشتهي ... فإنما الليل نهار الأديب

وكانت له حوادث ونوادر مضحكات، وكان مغرماً بوضع التاريخ المعروف بحساب الجمل، لا يجاريه فيه أحد، فمن ذلك أنه كان للقاضي أحمد بن صالح بن أبي بكر (ديوان البرعي) ، وكان للسيد أحمد البصير المعروف بحمدين ناقوس أصفر، فهام به القاضي أحمد بن صالح، وجعل حصوله في

يديه من أكبر الغنايم ، ليعلقه على حماره ، فحاول من السيد البصير ابتياعه فلم يسعده إلا أن يجعل (ديوان البرعي) عوضاً عنه ، فلم يملك نفسه إلا أن سلم (ديوان البرعي) عوضاً عن الناقوس ، فكأنما تسلم منه ملك الدنيا والآخرة وقال له الله في الكتمان لا يشعر بذلك الخرصان ، فيجعل في القضية تاريخاً فبلغ ذلك خرصان ، وكان بينهما ما يجري بين المعلمين فصنع خرصان أبياتاً يصف بيع الغالي بالرخيص يقول شطر منها مؤرخاً لتلك الحادثة :

« قد شرى الناقوس بـالبرعي »

فقامت قيامة القاضي أحمد بن صالح وفزع إلى القتال والحرب فسعي بينهما بالصلح ، فما مرت أيام إلا وقد لاحت للقاضي أحمد « حقة » بردقال حسنة الشكل ، فساوم القاضي المذكور فيها فأبى إلا أن يعطيه وزنها ذهباً ، وكان هناك للقاضي أحمد نسخة من (الهمزية) لها على سائر النسخ مزية ، فقال لا أعطيك « الحقة » إلا (بالهمزية) فأعطاه على أن يكتم الأمر عن الأديب الخرصان ولكن وصل إليه على غير علم منهما فقال الأديب :

إن شيخ الكتاب أحمد أبدى (حقة) قدرها يكون وقيّة
فرآها الصفي يوماً فنادى إن هذي لها عليّ مزية
بيعها يا صفي مني بمال فأبى البيع منه ذاك بنيه
غاية البيع أرخوه أقمنا « حقة البرد ، قال بالهمزية »

فجن جنون القاضي وشهر سيف الجدال ، فطال بينهما الخصام وعظم بينهما التماسك والصفع ، وجعل القاضي يتوعده ويتهدده وخرصان يروغ منه لئلا يراه فيؤذيه حتى برد ما بينهما .

يقول المؤرخ عبدالله بن عيسى بن محمد : « وكان القاضي أحمد بن صالح والأديب الخرصان ، يعتريهما الجنون ليبس الطبيعة في بعض الأحيان فيكونان لعبة الصبيان».

وكان الخرصان المذكور يقول إنه مدح ملك الأرض السفلى بمقصورة عارض

بها مقصورة ابن دريد ، أولها :

لا هي لـــلاهي مثـــل لاهي لهـــا ... شا هي لشا هي مشتهى شاهي شهى

وهي من غرائب جنونه ، وبلغ من العمر نيف وخمسين سنة ، ثم مرض مرضاً يسيراً في شهر رمضان ومات في آخره سنة ١١٧٩ .

وكان هؤلاء المجانين فاكهة المجتمع من سائر طبقاته بمن فيهم الأدباء الذين كانوا من أقدم من مازحهم وتعاطى معهم الفكاهة ، وقد حدثونا عن الأديب القاضي محسن بن إسماعيل بن عطف الله من كوكبان المتوفى سنة ١٢١٥ . أنه حصل معه في آخر عمره ضرب من الغفلة والذهول ، فكان يكتب قصائد إلى الجن يمدحهم فيها ويستخدمهم في قتال العالم الإنساني ، فلما اطلع الأديب علي ابن محمد كوكباني على بعض قصائده كتب مجيباً على لسان ملك الجن قصيدة وكتبها بخط لا يكاد يعرف ، وأمر أن يلقيها إلى القاضي محسن على أسلوب يدل على أنها من الجن حقيقة ، فلما ألقيت سربها وأذاعها بين الناس وجزم بأنها من الجن ، وهذه القصيدة هي :

إلينـــا نـظام جـــاء يشـرق طـــرسي ... كبـدر الديـاجي في الإنارة والشمس
من الـزاكي الأعراق أصـلاً ومحتـداً ... من الفاضل العلامة الـطيب الغرس
من المحسن الأفعال والقول من غدا ... يجـــود لنصر الحق بـــالمـــال والنفس
ولكنه قد كـــان في الـــزمـن الـــذي ... بـه الأصـل مختـل من الجن والإنس
فـــلا كـائن في الكـــون ممن تـراهم ... وهم فوق وجه الأرض في باطن الرمس
كـــأنهم الكـابـــوس فعـلاً ومـا لــه ... وجـود على التحقيق يـذكر بالحـس
تـــســـاوي أمـــير مـنهـــم ومــؤمـــر ... كما يتساوى الرجس في صفة الرجس
لســـــوء فعـــال يستـذل شجاعهم ... ويــرفـــع منهـــم منخفـض الجنس
فـإنـك قـد أبلغت من هـو ســـامـع ... وتعلم ما قد جال بالبـال من حدس
ســهـــام دعـــاء عـن قسي لـــركـــع ... تصيب يقيناً حين تغدو عن «العجس»
وبالخمس بعد العشر من شهر «فارز» ... بيـان لك الأمـر المصون عن اللبس
وبـالكـاف منـه تلبـس الـلام فتيـة ... مصاليت لا ينكون في العد والنحس

إلى (آخرها) .

وكان هذا الأديب طرفة المجالس ، وقد مازحه الأديب العلامة محمد بن إسماعيل الأمير بقصيدة ، بعثها إليه بعد أن طلب منه في قصيدة القدوم إليه هو وأولاده إلى كوكبان :

بعثت بشعر أم بعقد من الدر فها أنا لا أدري وإن كنت قد أدري
وما كنت أدري أن كوكبان ما يصاغ به نظم من الكوكب الدري

إلى أن يقول فيها :

وكنا نرجي منك وصلاً معجلاً فأشعر منك الشعر بالبعد والهجر
وما كنت إلا مخبراً لي إنما تبلغ إسماعيل من فاز بالكسر
وراح سليماً ثم عاد مكسراً على جمل من فوق تبن به يسري
وقد كان شيعيّاً فعاد مسائلاً لذي الطب في صنعاء عن مذهب الجبر

(إلى آخرها) ، وفيها إشارة إلى الطبيب إسماعيل العجمي وكان صديق القاضي محسن إسماعيل بن عطف الله ، خرج معه إلى كوكبان ، فحدث أن سقط على باب مطهار في بيته فعاد إلى صنعاء متكسراً مريضاً .

(سافون)

القاضي العلامة الحسين بن علي العباسي المعروف بسافون ، كان في أول عمره قد أخذ في العلوم وتبحر في علم الفقه والمساحة وله فيه أراجيز عدة ، وقد ترجمه الحيمي في أدباء كوكبان ثم قال : (أصابه في آخر عمره خلط في عقله فبطل من علمه ما حرر ، بنقله استرق الألسن عقله الراجح واختلس ، لا لكبر جاوز حده أو لعمر طالت به المدة ، فكان في بعض أوقاته يبكي أشد البكاء ثم إنه في أسرع من لمحة أو أقرب ، يضحك في أثناء بكائه ضحكاً قد يستغرب لا لأمر يوجب الأمرين أبداً، وإنما هو لشيء يبدو له، وبقي في بيته محجوباً إلى أن أدركته الوفاة في أواخر القرن الحادي عشر.

ومن شعره المستقيم :

مـر زمـان الصبـا النـظير فهـل — يقـال للقلب بعـد ذاك سـلا
وكـيـف لي بـالـسـلو في زمـني — يوماً وخطب الشباب قـد نصلا
شمس مشيبي عـليّ قـد بـزغت — فالليل من عـارضي قد ارتحلا
ولم أزل عـاكفـاً عـلى عمـل — لا يـرتضيه الإلّـه لي عمـلا
يـا عـين هبي أراك نـائـمـة — والجفن بالغمض منك قد كحلا
لهفي لـدهر مضى وما وضعت — نفسي بـه الخير فـانقضى هملا
يـا رب فـامنن بحسن خـاتمة — ولا تخـيـب لآمـل أمـلا

(حسين موسى)

هو حسين بن علي بن موسى الخياط، كان من كبار الأدباء في عصره، عرف في صنعاء بمهنة الخياطة، وترجم له الحيمي في (طيب السمر) فقال:

« ناظم تغار منه قلائد النحور ، وشاعر عطر مجالس الأنس بنفحات أشعاره » .

وقال صاحب (نسمة السحر) « فاضل نبتت به الآداب نباتاً حسناً »

ثم حدث أن سقاه أحد الأطباء مسهلاً أخرج رطوبة الجسم ، فلبث ثلاث عشرة سنة لا يذوق النوم ، فاختل مزاجه ، وبرد شعره ، وكان يشكو من ذلك الطبيب ، وأنه صنع ذلك عمداً يريد هلاكه بمقطوع هجاه به ، ثم أفاق من ذلك العارض ، ثم عاوده ، فانقطع ثمانية أعوام، إلى أن أدركته الوفاة.

يقول الأديب الحيمي : (وهو الآن موثق في الأغلال ، ينتظر من مرضه الإبلال ، صرف الله عنه ذلك الجنون ، ومتع الأدباء برجوع تلك الفنون) توفي سنة ١١٤٠ .

وله مجموع شعر بعنوان « الروض الناظر ، ونزهة الناضر » ، وقف عليه الحيمي وطالعه :

من شعره قصيدته التي قالها في (المعصوبة) ، وهي أكلة يمنية ، ووصف

قصيدته تلك صاحب (نسمة السحر) بقوله: ما أعلم أحداً تغزل في «المعصوبة» بقصيدة غيره، وفيها من الدقة والانسجام والتشابيه الشهية للخبز، وهي على غرار قصيدة أبي نواس في الوزن والقافية التي يقول فيها:

«مرحباً بالربيع آذار وبأنوار بهجة الأشجار»

يقول:

«والمعصومة خبز يمرس بسمن».

أما قصيدة أديبنا الخياط فهي قوله:

صاحِ صاحَ الهزار في الأشجار وتجلى الصباح بالأنوارِ
فانتبه للصبوح قد رقم الطل وأمحت سطر النجوم السواري
والرحى في الصباح قد أطربتنا بسماع يغني عن الأوتار
فارتشف قهوة من البن تغني عن سلاف الرحيق في الأبكار
وإذا ما أردت وصل حبيب فانتهض مسرعاً إلى «الكسار[1]»
تنظر القرص طالعاً في يديه مستديراً كمثل شمس النهار
ببياض مرقم بسواد كبياض الخدود حول الغدار
وكعوب عليه تزهو فتغني عن كعوب الخرائد الأبكار
أنا في حبه عميد معنى قد حلا لي تهتكي واستهتاري
لا تلمني في حبه يا عذولي قد رأيت الصواب خلع العذار
ما نقى الخدود إلا نقيًّا عند أهل الحجا وأهل الوقار
رب (معصوبة) ألذ لقلبي من وصال الخرائد الأقمار
أحكموها ودققوها بفهم إذ رأوها من أعظم الأسرار
مازجوا جسمها بإكسير ملح قبل تركيب جرمها في النار
فاستحالت سبيكة من لجين وعلا فوقها كالنضار
عظموا قدرها وقوموا إليها فهي لا شك منتهى الأوطار
وهي الكيميا وما قيل فيها في كتاب «الشذور[2]» من أشعار

---

(١) اسم خباز في عصره.

(٢) اسم كتاب للجلدكي في الكيميا

فعلى مثلها ينـاح ويبكى   لا على درهـم ولا دينـار

وقد اشتهرت هذه القصيدة وتناقلتها المحافل والمجالس وأديبنا هو من القلائل الذين انفردوا بوصف المأكولات في أدبنا اليمني.

وكان قبل اختلال عقله قد وضع المقاطع الغزلية والقصائد الحمينية الشهيرة كقصيدته الحمينية المغناة التي يقول في أولها:

يا هلال الفلك	ياخشف ياساجي الأعيان	يا بديع الجمال
مهجتي منزلك	ما حلها غيرك انسان	وسواك ما حلا لي،
أنت بالله ملك	أم أنت من حور رضوان	أظهرتك الليالي
بالذي كملك	وأنشاك يا غصن من بان	ان تعطف لحالي

إلى (آخرها) :

وحمينيته التي يقول فيها :

قال المعنّى عجب يا أحباب ما سخاكم	تجرعوني كؤوس الصد والهجران
ما تعلموا أن قلبي فيه مرعاكم	ما قد سكن داخله من قبلكم إنسان
ترفقوا بي فحالي ليس يخفاكم	وواصلوني فقد ضمرني الهجران
يا غارة الله كم يبقى معناكم	في جنح ليلة سمير القطب والميزان
إن لاح بارقها يذكرني محياكم	وسال دمعي وقلبي يشتعل نيران
وإن هبت الريح أهدت عرف رياكم	وزاد وجدي إلى الغاني قضيب البان
والآن يا من حياة الروح لقياكم	كم شايكون التجني خافوا الرحمان
ما كان ظني ولا هذه سجاياكم	إيش الذي ظهر مني وما قد بان
إن كان يا أحباب بعض الناس أغراكم	فلا تصدق كلام الزور والبهتان
فما نظرتوه فإنا من رعاياكم	المال والروح نديها لكم أعيان
لكن على شرط في تقرير دعواكم	لأن ما قد جرى مني لكم عصيان
سبحان من زان بالتقتير عيناكم	وصير الخد روضة زهرها أفتان

إلى (آخرها) .

وله مقطعات حكمية متنوعة منها قوله في روضة حاتم :

لقد قال العواذل صرت صباً ... بروضة حاتم وسلبت مهجه
فقلت لهم فتنت بها لأني ... وجدت بها حدائق ذات بهجه

وقوله في ضريبة عصره :

قبح الله ضريبة رخموها ... بالقوانين في يدي إسحاق
كن فيما مضى بدوراً بدوراً ... فاستحالت أهلة في محاق

ابن أبي الرجال

أحمد بن علي بن أبي الرجال ، كان في بداية أمره من نوابغ الأذكياء ، يحفظ المباحث والأشعار غيباً ، وقد قرأ بمكة وصنعاء وكوكبان وثلا ، وبعد ذلك اختلط عقله فصار في أهل عصره نادرة ، وكانت له جنية يسميها (زامرة) .

يقول صاحب (الحدائق) : « ليس في جنونه ما يؤذي ، بل يغير مفهوم الكلام بهذيان فيتكلم بالهندية والفارسية على زعمه ، ويأتي بالشيء الواحد بمائة اسم على وزن واحد ، وكان إذا سئل عن أي شيء أجاب وخلط الخطأ بالصواب ، وغاية الأمر أنه كان من ظرفاء المجانين ، وله مضحكات تروى ، وأعاجيب تعشق وتهوى » توفي نحو سنة ١١٦٠ .

من شعره الفصيح قوله :

عن كثيب البانة الخضر ... والرشا الفتان بالحور
حدثا مضنى أسير جوى ... بهوى الأحباب من مضر
حدثا مضنى أضالعه ... قد نفتها لوعة الشرر
أيها الأحباب إنكم ... منتهى المطلوب والوطر
فيكم الفتان قامته ... هزئت بالأملد النضر
ليت شعري هل يعود لنا ... ما مضى من فاتن الخفر
وأضم القد مرتشفاً ... لرضاب الثغر والدرر
يوسفي الحسن يقصر عن ... وصفه حقاً ذوو الفكر

عيطلي الجيد ذو هيف　　وجهه يغني عن القمر

إلى (آخرها) .

ووقفت له على حمينية مبيتة في غاية الرقة والانسجام ، يقول فيها :

أفديك واريم اللوى　　عليش ذا الهجر الطويل
بسحر طرفك في الهوى　　صيرتني حاير ذليل
سلبت لبي والقوى　　وأبديت ذا الصد الطويل
أنت المداوي والدوا　　وأنا المعنى والعليل

بيت

هيهات ما عيش يطيب　　من بعد بعدك يا رشا
يا من بتطويل المغيب　　أشعلت نيران الحشا
أورثتني طول اللهيب　　يا سيد فافعل ما تشا
فأنا الذي باق على　　عهدك وودك لا أميل

بيت

يالله يا حالي الملق　　يا من بتفتير الحور
أورثتني طول القلق　　في الليل يا بدر السمر
بالله يا صافي الحدق　　أو ما تزر صبك سحر
والله ما قصدي سوى　　قبله في الخد الأسيل

بيت

وأرشف خمرة من لماك　　زلالاً يطفي حرقتي
فقد جفاني من جفاك　　نومي وفارق مقلتي
بذلت روحي في رضاك　　وأنت تبغي محنتي
شا أصبر على طول النوى　　عساك ترضى يا كحيل

اسماعيل بن حسن بن أبي الرجال(١)

ينتمي إلى أسرة آل أبي الرجال المعروفة بنوابغها وقد اشتهر منهم في القرن الثامن الهجري العلامة محمود بن سليمان أبو الرجال المتوفى سنة ٧٣٠ هـ صاحب كتاب (الروضة) في الفقه، وفي القرن الحادي عشر الهجري المؤرخ اليمني الكبير أحمد بن صالح أبو الرجال المتوفى سنة ١٠٩٢ مؤلف كتاب (مطلع البدور) في تراجم عن اليمن وغيرهما .

نشأ أديبنا بصنعاء فأخذ في علم النحو والصرف والمعاني والبيان على القاضي أحمد بن صالح أبو الرجال . ولعله درس على غيره من علماء صنعاء ، إلا أن المصادر التي بين أيدينا لا تفصح عن أكثر ما أوردناه ، وتكتفي بذكر خبر جنونه .

حياته في الجنون :

لا نعرف تحديد الفترة التي أخذت تعتريه فيها الوساوس والأوهام ، ويبدو أنها استبدت به في عهد الإمام المهدي العباس بن الحسين ١١٦١ ـ ١١٨٩هـ ، كما نفهم من نص المؤرخ لطف الله جحاف يقول :

(وقد تحكمت به الخيالات والأوهام ، وتكدرت معيشته وتغيرت حالته ، وما زال يتحدث أن الإمام المهدي العباس مضمر له في نفسه شر الأمور نقلت إليه

(١) أنظر ما كتبناه في مجلة الكلمة مايو سنة ٧٤

سراً فزادت أوهامه وكثرت في النوم أحلامه ، وتغولت له الغيلان فتحدث عنها بأمور يضحك لها كل إنسان) .

ومن ثم فإن من أسباب جنونه خوفاً شديداً أصابه من قبل الإمام المهدي ، وهذا الإمام يصفه الشوكاني بأنه قد أكثر من الجواسيس الذين ينقلون إليه كل كبيرة وصغيرة ، [1] ولا يستبعد أن يكون قد نقل إليه كلام قاله صاحبنا فيه ، فهدده بالسجن أو القتل .

وقد استبدت به الوساوس والخيالات حتى أصبحت جنوناً كاملاً ، يقول جحاف في تاريخه المخطوط :

« إنه كان يشير بيده إلى سكان الهوى ويشخص ببصره ويعيده سريعاً ويقول: كاذبين كاذبين، ثم يقول هذا غلط والصواب كاذبون أي هم كاذبون، وكان يقول إن بالهوى سكاناً لهم في السحر ملكة عظيمة بلغ من سحرهم أنهم يسرقون لسانه ويتكلمون به بكلام خبيث، فلا يشك السامع في أن المتكلم إسماعيل بن أبي الرجال قال وأكثر ما يتكلمون به في سب الإمام المهدي، فإذا بلغه أن إسماعيل شتمه وطعن فيه كان ذلك سبباً لإبانة شبر من أعلى قامته، وكان لا يتجاوز من شرقي سوق الملاحين ولا يتجاوز من غربها صومعة طلحة، ويقول إذ تجاوزت أحد المحلين رأيت الإمام المهدي قائماً على فرسه في أرباب دولته، ورأس إسماعيل مضروب بين يديه، وجثته متكومة مشدودة بالخشب.

ومن أخبار أديبنا المجنون أنه جلس لدى القاضي أحمد بن أبي الرجال وقد حضر الطعام ، فسمع عجلة بئر ، فأمسك يده عن الطعام ، فقال له القاضي أحمد: تغد، فقال: ألا تستمعون إلى هذه العجلة وما تقول وما يقول الجعير[2] الذي تحتها، قال: أترك هذه الخيالات وتغد، فقال: بل اسمعوا ما تقول فقال القاضي: ما تقول؟ فقال: تقول إسماعيل مجنون وتكرر صوتاً بعد صوت وتمد الصوت على حرفي اللين الواو والياء، والجعير تقول أربطوه اربطوه فتعجب الحاضرون من وضعه هذا الصوت بجانب تلك الحكاية المساوية.

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع ج١ ص٣١١ .

(٢) الجعير بلهجة أهل صنعاء هو وتد العجلة .

وكان أكثر مكوثه في احد منازل مسجد داود بصنعاء، فإذا حان وقت الصلاة نزل المسجد فصلى قصراً « أي نصف الصلاة المفروضة » ويقول ذهب من العقل نصف وبقي نصف صلاة ويصلي الرباعية ركعتين ، ثم يصعد إلى منزله ويسرج مصباحاً ويخرج إلى جيرانه فيقول: إشهدوا عليّ ويضع على فمه خرقة ثم يشد على شفتيه بحبل وثيق ويعود إلى منزله ولا يتنفس إلا من منخريه وكان يفعل ذلك خوفاً من أن يأخذ الجن لسانه ويتكلمون بها في سب المهدي . ومن عادته أنه إذا نام لا يطفىء السراج فإذا أصبح ووجد السراج طافياً اعتقد أن الجن اطفأته.

وفي آخر أيامه اشتد به المرض وربما أصابه تشنج وألقى بنفسه وطرحها على الأرض واضطرب من قبح ما يتصور له من خيالات ، وقد ساء ظنه بالناس فكان يقول لو رأيت مالكاً في خزانة جهنم ورأيت هؤلاء لوقعت اختياراً على حجر مالك وتركتك وقومك لحالك ـ يعني به العلامة أحمد بن محمد ابن إسحاق.

من سيرة أديبنا المجنون أنه لم يكن في كل تصرفاته سلبياً ، بل له بعض الأفعال الإصلاحية، من ذلك أنه انتقد مسلك محمد بن حسن حطبة في توسيعه لمسجد داود فقال له : « أخبرني ما حاجة الناس إلى عملك هذا ؟ وبالله عليك هل سمعت أحداً يقول لك ما وجدت أين أصلي أو أنك لا تزال تسمع أكثر الناس يقول أنا جائع سأموت من الجوع، تصدقوا عليّ، فاجعل مؤنة هذه العمارة صدقة إشباع الجياع، وإحياء الأموات الذين صاروا يموتون جوعاً في الأزقة، وأما الصلاة فيصلي المصلي حيث أدركته حتى في إصطبل. وهذا القول لا يصدر إلا عن رجل له شعور اجتماعي عظيم.

توفي رحمه الله سنة ١١٩٠ بصنعاء .

أقوال معاصريه فيه:

يقول عنه المؤرخ الأديب عبدالله بن عيسى الكوكباني:

«هو بهلول[1] الزمان وجعيفران[2] الأوان، جن من فرط ذكائه، وغلب ليل جنونه على ذكائه. وله أدب نضير وشعر كثير سالم من اللحن خالي عن التقصير، يظهر فيه كامن جنونه ويثير، وكانت هيئته هيئة العقلاء ولباسه لباس ذوي الهيئات وأما العقل فلا، إلا أنه لا يرجم بالحجارة ولا يؤذي في طريقه المارة، فليس جنانه غير بلسانه. يظهر به ما يوسوس في جنانه يشكو من الجن وغلبتهم على لبه، وتكلمهم بلسانه ما لا يقصده قلبه، وينسب من ذاتيهم له ما يضحك السامع وينام وهو ساد لفيه بخرقة كي لا يقولوا على لسانه ما ليس بواقع».

ويقول لطف الله جحاف :

« كان شاعراً فصيحاً مفوهاً مجيداً ،أدركته الوسوسة وتحكمت به الأوهام والخيالات وتكدرت معيشته وتغيرت حالته » .

أما قريبه العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال فيقول عنه :

« كل المجانين في حل من مشاق التكليف إلّا إسماعيل فإنه انتقل بجانبه إلى تكليف أشد وأشد » .

أدبه :

ترك أديبنا المجنون تراثاً أدبياً متناثراً لم يعن بجمعه أحد من معاصريه ، إما استحقاراً لهذا الأديب ، وإما عدم اكتراث بأفعاله ، هذا مع العلم أن أديبنا كان في شغل شاغل عن جمع أدبه . والذي وصلنا منه عبارة عن نتف متناثرة وردت في ترجماته في كتابي (درر نحور الحور العين) و(نشر العرف) . فمن ذلك قطعة نثرية كان قد أرسلها إلى قريبه أحمد بن صالح بن أبي الرجال بتاريخ صفر سنة ١١٨٧،بعد أن فر من صنعاء إلى بلاد خولان خوفاً من الإمام المهدي يقول :

وهذا نظام غريب الديار ... نظام تجل عن المستعار
شبيه النظام ولكنه ... حلال الكلام عن السرق عاري
أحيطوا بها نظراً إنها ... إلى الله مفتاح باب اليسار

---

(٣) (٤) شخصيتان اشتهرتا بالجنون في العصر العباسي .

عسى أن يــرى بعــدهـــا غـارة فلطف الإلّـه على الكـل ساري
أعـــوذ بـــالله السميـــع العـليم من الشيطان الرجيم الطيار السحار

الذي ما برح الهواء آناء الليل وأطراف النهار هو وجماعة له أعوان أشرار خلقوا من نار وشغلهم تمزيق عرضي وسبي وأذيتي الأذية البالغة بـالسبب الفاحش والكيد العظيم المهلك ، والسمومات المهلكة من ذلك وأكثر ما يؤذونني ويبالغون في هلاكي ، بسحرهم وغدرهم ومكرهم وزورهم وبهتانهم وسموماتهم . إذا صليت أو رتبت أو درست ، فأقول لهم إتقوا الله راقبوا الله قولوا لي من غريمي من أرسلكم ، قالوا ما نقول لك من غريمك ، إنما أمرنا واحد من الناس أن نحرق عرضك ونمزقه ، ونخزيـك بين النـاس ، ونكيدك بهـذا السحر ، ونكذب عليك بكل فاحشة ، ونسمعك ونقلقك أشد القلق ، ونتكلم على الله وعلى الملائكة وعلى جميع خلق الله ، ونقول هو أنت من أجل أنك لا تدخل صنعاء ولا ترقد من غير أمان ، وتبقى خائفاً بكل مكان ، وأنا أبرأ إلى الله عز وجل براءة الذئب من دم ابن يعقوب من جميع ما نسبوا إليّ وما طووه من أذاهم عليّ وأنا منزه عندالله وعند من يعرف مقـداري ، والله سبحانـه وتعالى عـالم وداري .

ففي هذه القطعة الأدبية يعرب الأديب عن تلك الوساوس التي أشار إليها كل من ترجمه . وهي شعوره بقوى خفيّـة تسيء إليه وتتحدث على لسانه بكلام في سب الدين والسلطان ، فيخيل للسامع أن الناطق المجنون نفسه . ومصدر هذه القوى من الجو ، وقد دار بينه وبينهم حوار ، قال لهم : «اتقوا الله راقبوا الله وقولوا من غريمي» ، فأجابوه بالنفي « ما نقول لك من غريمك إنما أمرنـا واحد من الناس أن نحرق عرضك » أما غرضهم في كل هذا هو إقلاق الأديب وإبعاده عن صنعاء .

شعره :

وقد سمح لنا كتاب ترجمته بالتعرف على شعره في تلك النماذج القليلة التي أوردوها له . وهو شعر سليم من حيث البناء وإن كان ذا موضوع واحد لا يفتأ

يردده، في نثره أو في شعره ، ذلك هو موضوع محنته وما أصابه من وساوس وخيالات .لنأخذ من ذلك منظومة طويلة أسماها « درة اليمن وتحفة الزمن » يقول فيها :

لي حسن ظن في رضا الرحمان ... الواحد المشكور بالإحسان
يا من أحاط بكل شي علمه ... يا عالماً بخفي سر فلان
يا كاشف الكرب العظيم ومستجيب ... دعا الضريع الخائف الحيران
قد ضاقت الأحوال بي ذرعاً فكن ... يا رب عونا لي على الشيطان
شيطان سحري قد تعلق بالهوى ... وأتى بألفاظ بغير معاني
سب الإلّه مع الملائكة الكرام ... مع الأنام مع إمام زماني
ورمى بسوء من أناخ مهاجراً ... أفنى الزمان بطاعة الرحمن
ولقد سمعت من الذين تأبطوا ... في الجو شراً ان هذا الزاني
شهدوا عليّ بمحض زور باطل ... والحق ما شهدا به الملكان
جاوزت اتعضل حتى أنني ... سميت بالزاني وبالديثان
يا ويلهم سحروا تقياً مؤمناً ... حسداً على تقواه والايمان
لما رأوه قد تفرد بالمفاخر ... والتقى والفضل والإحسان
وكسوه جلباب الدناسة والخساسة ... وارتضوا بالإثم والعدوان
قوم أبا ليس يطيروا في الهوى ... خلقوا شياطيناً من النيران
قد صرت من فرط الهموم مشابهاً ... طيفاً سرى أو شبه شيء فان
يا طالما أمسيت في ليل على ... جمر الهموم مفارق الأوطان
ما زلت أسمع كل حين في الهوى ... أصوات قوم السحر في آذاني
قالوا ظلمت وما ظلمت وإنما ... قول العدا ضرب من الهذيان
زعموا بأن السحر مالي خوليا ... هزؤ لقصد الحبس في غمدان
والمرء في كل الأمور بصيرة ... عن نفسه في السر والإعلان
وأنا القتيل بكل سيف مرهف ... أرمي بسوء القول كل أوان
مزجوا بدائهم الدواء وإنما ... عين الدوا ما حل بي وبراني
والمرء في الدنيا خيال زائل ... دار سلوت بها عن السلوان

فأحسن بخاتمة وكن لي حافظاً   من شر شؤم نوائب الحدثان

يعطينا الأديب في هذه الأبيات، الكثير من خفايا نفسيته ونلمس فيها من مطلعها ذلك الهلع الشديد الذي صاحب أديبنا والذي لا بد أن يكون واشٍ قد وشى به فهو قد ضاق بمخاوفه وافتتح القصيدة بأبيات يتوسل فيها ربه ويشكوه ما أصابه، فهو حيران خائف قد ضاقت به الأحوال ذرعاً، وما ذاك إلا لأذية سكان الجو له. إنهم جماعة من أصل النار دنسوا سمعته أمام الناس، وتقولوا عليه بكلام في سب الملائكة والأرواح العليا وتعدوا ذلك بالطعن في سيرته واتهامه بالزنا، حتى أصبح صاحبنا يتخيل نفسه بين لحظة وأخرى في سجن غمدان لشدة هذه الأفعال الشنعاء المدسوسة عليه.

وخذ مقطوعة أخرى تعبر عن نفس هواجسه السابقة :

هبت نسيم الصبا من نحو ذي سلم   فطار شوقي لذكر البان والعلم
وبرق نعمان في الديجور مؤتلفاً   من نار سحر فؤاد بالنبال زمي
أشكو إلى الله أحوالا يضيق لها   صدري ويزداد من وجدانها هرمي
من ساحر في الهوى والدار ما برحت   منه النكاية والإصرار في الأمم
قوم لهم صولة في الجو قد هدمت   أركان عزمي وقدماً غير منهدم
هم الشياطين من نار العضى خلقوا   لهتك عرض البرى بالزور والتهم
وسحرهم في لساني والضلوع وفي   قلبي ولبي وذاتي غير منفصم
يصوروا كل صوت من صناعتهم   ويخدعوا بلسان الزور خير سمي
إذا أقر على المسحور ساحره   كصوته حرم الإقرار سفك دمي
فليس في ذمتي مثقال خردلة   ولا مشيت بعصيان على قدمي
وليس يصرف عني كل نائبة   غير القدير ويشفيني من الألم

إنه كما عهدناه في منظومته الأولى يكرر نفس المعاني ، وكأنه لا شغل له إلا أن يعلن للناس عن مصابه في تكرار مملول .

أبو الطحاطح

هو المطهر بن حسن بن مهدي المؤيدي ، ولد (بصعدة) ١١٦٦ ، وعرف عنه نبوغ مبكر ، ونظم الشعر قبل البلوغ وهو بالكتاب بسبب اقتضى ذلك ، وهو أن معلمه كان يقدم أولاد أهل الثروة ويؤخره ، فكتب في لوحة إلى المعلم :

قدمت أولاد الغنى وتركتني فيهم أخيرا
والله لا أفلحت حين رأيتني فيهم حقيرا

فلما رآه المعلم هابه خوفاً من لسانه فقدمه عليهم ، ثم حقق في علم الفقه ، وحفظ القرآن ، وانتقل إلى جامع (صعدة) فجرى بينه وبين فقهائها اختلاف ، فرحل إلى صنعاء سنة ١١٨٩ فطاب له مسكنها ، ثم إنه مال إلى طريقة أهل التصوف من حيث الأخذ بالشدة على النفس في المأكل والسهر ، حتى فعلت به الرياضات فعلها ، وظهرت له أشياء من الخيالات والوساوس ، فكان يحدث الناس أنه المهدي المنتظر، ويكتب الرسائل بذلك ويقول :

أنا المطهر من تعلو به الهمم ومن به يعرف الإكرام والكرم
أنا سلالة يحيى بن المحسن من سارت بأخباره الأعراب والعجم
فصرت أقفو القوافي إثرهم عجلاً فيلتقي عندها الحافور والقدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنا المطهر سماني النبي أبي وفي السما سموني وتلك سمو

ثم زاد به الأمر ، فزعم أنه يأتيه جبريل وملك اسمه (روقابيل) وملائكة

آخرون ، وأنه ينشق لهم حائط منزله فيدخلون فيراهم عياناً ، وأكثر ما يأتونه وهو بين النوم واليقظة ويسمونه بالمهدي المنتظر .

ولما استقر بصنعاء لذ له بها السكون ، فنزل (بالبونية من بئر العزب) ، فنظم بها الجيد من الأشعار واشتهر بين الأدباء شهرة واسعة فطارحوه وساجلوه ، وقد كتب إلى الأديب محسن بن عبد الكريم من (قصر غمدان) :

من قصر غمدان ممن مهجته مرعاك ... من العميد المغنّى الهايم المكمد
سلام لا يسلـم الله كل من يشناك ... وذاق طعم المنايا من لنا بدّد
لا تحسب القلب وان طال النوى ينساك ... والله ما لـه سوى لقياك من مقصد
فاروع تناسى فديتك عهد من حياك ... فهو مسكين باق مثل ما تعهد
أقسم بمن ملك رقّى ومن ولاك ... كل الغواني وما والى عليك أحد

فأجابه الأديب محسن بن عبد الكريم :

يا بارق السحب في جنح الدجا مسراك ... هل في خباياك قطرة من لمى الأغيد
يروى بها ظامي الأحشا فما يخفاك ... حال الذي ذاق بعد الوصل طعم الصد
هذه أحاديث يرويها عن الضحاك ... صحيحـة النقـل مـروية على مقصد

إلى (آخرها) .

وطار صيته بين الأدباء فكان يساجلهم بسليقة مطبوعة ، وفكرة سابقة ، لا يدانيه في الارتجال أحد ، ولا يتلعثم عند الاقتراح عليه بحال ، مع أنه لا يعرف العـربية ولا اطلع عـلى شيء من علومهـا ، وربمـا وجـد لـه شيء من اللحن فلا يكترث مما لحنه ، بل يبدل شعره بأجود منه .

وكان يقول إنه لا يحسن النظم الشعري ، وإنما يأتيه ملك روحاني يقال له أبو الطحاطح وبه كان يكنى .

ومن طريف شعره المسبوك مقاطع حمينية في الغزل يقول :

يـا رشـا يـا رشيق يـا ربيب ... يـا رقيق الحـواشي ، يـا رداح
إن شمس الأصـايـل في المغيب ... تستنيبـك إلى وقت الـصبـاح

ويقول في أخرى :

يا مولع قلبك يغيب قال أظن العيون الساجية
حين لاحت من الغصن الرطيب من فواتر بواتر ماضية
شلته في هواها شل ذيب للطلا من جنيب الراعية

ومن نوادره وطرائفه ، أنه كان بخيلاً جماعاً للمال ، متبذّلاً في ملبوسه وعيشه، يأخذ من الغنم المذبوحة الرأس ويقول إنه كثير الفوائد ، ولا يقدر أحد من الجزارين أن يخون فيه ، وبه العيون والآذان والغلاصم واللسان واللهاة ، وما حول القرن وفيه الدماغ وهو ألذ ما فيه ، وبه العظام اللطيفة المطبقة على اللحم الخفيف اللطيف ، وكان لا يسلخ رأس الكبش وإنما يلقيه في النار حتى يذهب الشعر ثم يلقيه في القدر وينضجه .

وكان قليل المبالاة بأمر الناس فيقف مع الصبيان والعوام بقارعة الطريق ، ويقوم على حلق المشعبذين واللاعبين بالقرود وغيرها ، وكان إذا رأى صبية جميلة مال إليها ، وسأل عن أهلها ، ثم يعشقها ويتشبب بها . وهذا دأبه . وكان يعتم بالعمامة فتبقى الدهر الطويل على حالتها لا يقلعها حتى تتسخ وتسود وتتقطع مما يلي رأسه ، ويلبس القميص فيمر به العام متسخاً لا يحدث نفسه بغسله ، ولم يتزوج بل ظل عمره وحيداً ، وكان يجمع كتب الكيميا ويجزم بما فيها من تحويل المعادن إلى ذهب .

يقول جحاف : « وقد عدَّ في فحول الشعراء ومجيديهم ، وله ولع شديد بمن نظم ونثر، وله في فن الهوى والغرام قصص، وفي طبعه رقة ولطافة لولا ما اذكره من فرط الحدة، وهو كثير التلون في القضايا يمدح ويهجو في حالة واحدة وحين واحد، لا يرى في ذلك تناقضاً .

وأدركته حرفة الأدب ، فهو صفر اليدين ، يسعى بجده فيرجع بخفي حنين فراشه التراب ، ومنزله مرتاد الهوام والذباب ، لكنه إذا حضر المجالس كان أنسها ، وهو حافظة يكثر من إملاء محاسن الشعر فيضحك الجليس ، وله لسان حلو طلق في حفظ القصص والنوادر تجده يخرج من القضية إلى أختها إلى نقيضها

إلى ما لا نهاية، ما وقف على شيء إلا حفظه.

مدح العباس بن إبراهيم صاحب (كوكبان) فقال :

هـذا الهمـام المـاجـد العبـاس هـذا سنـام الـدين هـذا الـراس
هـذا ابن ابـراهيم أكـرم من مشى هــذا بـه أعــلى الكــرام يقــاس

فحدث أن أبطأ بجائزته له ، فقال مناقضاً لما قاله :

عبـاس عينك بـالتساهي غـامضـة وسيوف هجوي مـاضيات وامضـه
أتــظن أني عـاجــز عن هجــوكم وجيوش شعري رافعـات خافضـه
بــارود طبعـي في بنــادق حــدقتي ورصاص هجوي قـاتلات قـارضه
مـا عـرضكم إلا النشـان لـوقعهـا فـأنـا إذا وقعت أعـدت الخـافضـه
فأجـز وأنجـز واعط نفسي سؤلهـا مـا دام أسد الهجـو عنكم رابضـه
فشياه عرضك عند ذئب فصـاحتي لا يستـطيع لهـا الجميع مـداحضـه
إلّا بجـود زاخــر مــتــلالم ومكــارم في طـولهــا متعــارضــه

ومن غزله :

أسـرت فؤادي مقلة من بـرقــع ومضت وما غمضت عين تولعي
ودعته في بحر الغـرام فقال من؟ قـالـوا فتــاة من بنـات الأكــوع

وله غير ذلك مما ذكره جحاف في تاريخه ، ونقله عنه زبارة في (نيل الوطر) فينظر هناك .

النثر الأدبي

احتفل الحكام في ذلك الوقت بأمر الإنشاء فصدرت عن دواوينهم رسائل إنشائية بديعة ، وقد علل المؤرخ يحيى بن الحسين[1] اندفاع إمام اليمن في تسليم مدافع سلطان عمان إليه في القرن الحادي عشر إلى تنميق رسالة صاحب عمان في طلب مدافعه المسلوبة .

وقد مر بنا شيء من تلك الرسائل في حديثنا عن العلاقات الخارجية . . .

أمّا النثر فقد احتفل به أدباء اليمن ، وتأثروا فيه بمن تبعهم من أدباء العصر المملوكي في مصر والشام . وكان لكتاب المدرسة البديعية الشأن الكبير عليهم ، فكثر في نثرهم التواري والجناس والطباق والاكتفا إلى غير ذلك مما حفل به شعرهم أيضاً .

وفي رسائلهم الساخرة يكثر تقليدهم لطريقة ابن زيدون في رسالته الهزلية ، وأنت تلمس ذلك في استشفاع الأديب علي بن محمد العنسي المتوفى سنة ١١٣٩ هـ في رسالته التي بعثها إلى المتوكل يقول :[2]

« ليت شعري ما هو الذي أوجب له هذه العقوبة ، والجرم الذي جلب عليه هذه المصيبة ، والجناية التي قطعت عليه طريق عفوك ، والخطيئة التي

---

(١) بهجة الزمن « خ »

(٢) نشر العرف ج ٢ ص ٢٩٢ .

حالت بينه وبين رضاك وصفحك وصفوك ، فوالله ما رفع المصاحف ، كما رفع ابن العاص ، ولا قبل يد القاتل لعمار ، كما قبلها عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ولا أتبع في الغدير رأي الرازي ، ولا روى فضائل معاوية ، إلا حديث اللعن الذي هو أعظم المخازي ، ولا أنشد عند صلب زيد بن علي متبجحاً :

نصبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أرد مهدياً على الجذع يصلب

ولا تعاطى فعقر ، ولا دخل مهنئاً لابن طاهر ، بقتل يحيى بن عمر ، ولا جحد حديث المنزلة والطير ، ولا ترك الصلاة على النبي ﷺ أربعين جمعة ، كما فعل ابن الزبير» إلخ . . .

ففي هذه الرسالة وغيرها تتجلى قراءات أدباء اليمن لإنتاج من قبلهم ، بل أنهم حاكوا بعضهم محاكاة حرفية ، فهذا الأديب يوسف بن علي الهادي الكوكباني المتوفى سنة ١١١٥ ، يقرأ رسالة الخطيب الحصكفي المتوفى سنة ٥٥١ التي التزم فيها حرف السين فنجده يكتب على منوالها رسالة يقول فيها :

« سيدي باسق غرس السماحة ، وسابق فرسان السيادة والسياسة ، وسنى سماء الدراسة والرئاسة المستنيرة بسيارات سماء محاسنه شرف المجالس ، والمستعيرة سيماه المقدسة سكان المدارس ، من أن رسم القرطاس قرطس بينهم حساده أو سود سطور استنار دامس نقش سواده أو سأل لسانه الأسفار للأشعار انسل حسام ماسح ، أو استرسل في الترسل ، فحسبك بقلمسها وسملقها سابح وسائح[١] » .

إلى آخر ما جاء فيها . . .

ثم تأتي الأنماط الإنسانية المعروفة ، ونستطيع أن نقسمها إلى أنواع هي ما يلي :

---

(١) نفحة الريحانة ج٣ .

الرسائل الإخوانية :

هي من أكثر الأساليب الإنشائية شيوعاً عند أدبائنا ، حيث تتعدد فيها الأغراض وتكثر الموضوعات، وربما أفردت بفصول مستقلة في دواوين بعض الشعراء ، كما هو الحال في ديوان الهبل ، وديوان يحيى جحاف ، والمرهبي ، وغيرهم ومن يتأمل كتاب (طيب السمر) للأديب أحمد بن محمد الحيمي ، يجد الكثير الطيب من هذه الرسائل الإخوانية .

وتدخل في هذه الرسائل التعازي والتهاني والاستدعاءات ، إلى غير ذلك مما يحدث بين الإخوان، وقد تتقارب في بعض ميادينها مع اتجاهات الشعر نفسه فهنا الرثاء والمدح والتهنئة وربما أسفرت تلك الرسائل عن مجاملات مفرطة ، وتذلل مشين ، وخاصة إذا وجهت تلك الرسائل إلى حاكم أو رئيس . فتكثر فيها عبارات التفخيم والتقديس ، مثلما يحدث في الشعر . ولكن هذا يقل . .

انظر إلى رسالة الأديب يوسف بن علي الهادي الكوكباني المتوفى سنة ١١١٥ ، فتجد المزيد من المدح والخضوع :

« يقبل الأرض التي أضحت مواطن التهاني، ومواطئها صارت منازل الأماني المقرونة بالنجاح ومنازهها.

وتطولت على ذي التقصير ببرِّها المحمود في يوم العرض وصارت فضلها أبيّاً لمفارقة ذي الفضل، فلو قيل له اذهب عنا قال لن أبرح الأرض. . . ملك إذا سلت صوارمه لم يبق للعِدَى غير التسليم، أو أراد تكليم المعاندين بألسنة أسنته أذعنوا قبل التكليم، أو عقد ألويته، حل بالمخالف الوبال والتلف، أو أوجف بخيله وركابه على الأعداء قيل جرى بهلاكهم وجف أو وصف لهم عزائمه وترسلاته، ظنوا بأنهم عياله ألف صف من عزائمه وصف، وكف جود كفه أقلع السحاب عن مجاراته وكف أو ملا سمعنا أمالي لا قالي لها فهي المليحة المليحة، أو جادل طعن الخصم بعوالي أحاديثه الصحيحة، فهو رب السيف والطيلسان والقلم الذي يزداد إفصاحاً كلما قطع منع اللسان. واليد التي لا تبرح الناس إليها

فيفوزون بالخمسة الأشباح وتدعو الأنام لها بالبسط، فكم ظفروا من أناملها بأياد تجل عن الإيضاح ـ وتحتفي الثريا أن تكون لتقبيلها فَماً، وتعود أناملها الخمس بالسبع الطباق فما»[1].

إلى آخرها ففي هذه الرسالة يكثر المدح. وتظهر جليّاً ثقافة منشيها الواسعة، من خلال تواريه بمصطلحات أهل العلوم وتشبيهاته الأدبية.

وفي الواقع أن الأديب هنا في هذه الفترة يتمتع بثقافة واسعة، وكان تبحره في العلوم الدينية أكثر من غيرها ولا غرابة إذا رأينا بعضهم تولوا مناصب القضاء والحكم بين الناس، وهو أمر يحتاج إلى فقه واسع في الشريعة، وقد رأينا الأديب علي بن محمد العنسي يتولى مناصب قضائية كبيرة وكذلك غيره من أدباء عصره.

وكانت الحصافة السياسية تدعو كثيراً من الأدباء إلى التحفظ في رسائلهم الرسمية إلى الحكام وغيرهم من صغار الأمراء فيكثر فيها المدح والتزلف.

أما إذا رجعنا إلى رسائلهم الإخوانية، فسنجدها نماذج أدبية جميلة تصور مدى تطور النثر الأدبي في ذلك الوقت، وتكون الطبيعة هنا على سجيتها، فلا تكلف ولا تصنع. وإنما هذا الأدب الجميل والنثر الراقي.

ويكفي الباحث أن يتتبع إنتاج أسرة واحدة هي أسرة آل إسحاق ليخرج بإنتاج ثري رائع، فقد شحذت السجون قرائح أدباء هذه الأسرة ليخرجوا لنا أدباً قيماً، فكتبوا نماذج رائعة من النثر والشعر، انظر إلى رسالة الأديب محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١١٦٧ الإخوانية ليتضح لنا الكثير مما قلنا: ـ

« يهدي من التحيات ما زكا وطاب، ويؤدي حق التهنئة في فصول أفرغت في قالب تفصيل الخطاب، حتى نصبت خيام الأنس في ساحات السرور، ومد النعيم ظلاله في روضات الحبور، وغنت حمائم التهاني على غصون الفرح، وحركت معاطفها جواري الأنس وجرّت ذيول المرح، وأشرقت بدور الأماني في

١) المصدر السابق ٣٦٠.

منازل السرور والسعود، واستنارت لياليها من محياك بالطالع المسعود. . . هذا وإن أيام المسرات مواسم لإدْخال الأفراح على القلوب وأعياد يرتقب هلال قدومها فيسفر وجه الأماني عند استهلاله مستبشراً بنيل المطلوب، وقد عم السرور في هذه الأعْراس السعيدة، وشملت بركته وطابت نفحته للقريب والبعيد، فما من أحد إلا وهو بالسرور يهنى، وفي بُرود الفرح والنعيم يثني، سوى بعض أرحامك الذين طالت عليهم المحنة، فلم تلتذ أعينهم بسنة، ومَضَى عليهم في دار الاعتقال والتأديب اثنتا عشرة سنة، وحلمك قد شمل الأقصى والأدنى، وأسْبغ سوابغ النعم على كل من أسا وجنى، فصار في العيش المهنى، وقد رجونا أن تهب عليهم سمات العطف والعفو والرضا، وتطفي ببرودها عنهم نار الغضب الذي هو أحر من جمر الغضا، فليتفضل أمير المؤمنين بالنظر إليهم بعين الرأفة والرحمة، ويجعل ذلك من شكر ما أسداه الله عز وجل من المنة والنعمة، لا سيما قد أنحل طول حلول القيد منهم الساق، وجلب عليهم من الهموم والغموم ما لا يزيد عليه وساق[1].

إلى آخر استعطاف ابن إسحاق، وقد حررت هذه الرسالة وغيرها من إنتاج آل إسحاق السجنا الأدباء من إسار البديع في نثرهم، فجاء إنتاجهم سهلاً بعيداً عن التكلف والتصنع.

وكتب الأديب محسن بن عبد الكريم إسحاق المتوفى سنة ١٢٦٦ إلى قريب له مسجون وهو الأديب إسماعيل بن علي إسحاق، وقد بعث إليه بمقامة أدبية وهو في سجنه، فأجاب عنه يقول:

«وبعد فقد وقفنا على الروضة الأنيقة، بل الخمرة العتيقة، بل الخريدة بأن لا يقاس بها في طرق المجاز حقيقة وجدناها جنة جرى الحبر بها نهراً وحصر طرق حورها في طرافها قصراً، فظلها ممدود، وطرف حورها مقصور وأحصَرت واصف حسنها النظير الذي لا شبيه له ولا نظير، فواصفها محصور، ووصفها غير محصور، ودرر تعجز الأفكار فتقف عند حدها وتروح الأبكار، فتلمس جانب

(١) نشر العرف ٢٦ ص ٤٩٩

عقدها وقلايد لم تتحلَّ بمثله النحور، وجواهر ما فرقت بمثلها البحور، قد أعجزت بحسنها البديع، فما أحقه بالتواري واستخدمت النجوم حين رامت مشاكلتها، وما أخلق الاستخدام بالجواري فلو أرادت محاكاتها أزهار الروض النظير لراعتها وما راعتها واستعارت من لطفها نسايم الأسحار لأعارتها وما عارتها». إلخ[1].

هذا قليل من فن آل أسحاق حيث نلتقي فيه بالأدب الصافي والرؤية الجيدة لاستيعاب أصول هذا الفن.

وفي إخوانياتهم يكثر وصف الربيع والرياض، ويكون ذلك عندما يكتب أحدهم استدعاء إلى صديقه يطلب منه الحضور للتفرج على نزهة أو رحلة.

وقد كان الهبل أقدم من برع في وصف الرياض، وفي شعره ونثره الكثير من ذلك.

وفي أدباء كوكبان من أطنب في وصف الرياض، حيث كانت الطبيعة هناك تنافس بجمالها جمال صنعاء، فتفتقت قرائح الأدباء عن قطع فنية في ذلك، وهذا الأديب أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١ يكتب إلى أحد أصدقائه بشبام كوكبان، يدعوه إلى منتزه هناك:

«نحن والندما عقد بلا واسطة، وعصابة من الأقراط الذهبية بلا رابطة، وحديقة بلا نسيم متضوعة، ولا زهور ممطورة متنوعة، ولا شك أنك الواسطة والرابطة، والنسيم التي هي من جنان الفردوس هابطة والزهر المتفتح لتلك الحديقة، التي لا تبرح مدامع السحب عليها غديقة، فبالله عليك إلا ما بادرت بوصولك ومتعنا بكونك لدينا وحصولك، فأنت تتمة الأنس بحسن محاضرتك التي لم تنس، بك يُكمل السرور ويتم، وحديثنا بدأ بالتمني لحضورك وختم، فنحن في روض واسع غير ضنك، قد استغنى بما عنده من المحاسن إلا عنك، عيون أزهاره الطريق شاخصة، وقدود أغصانه لغناء الورق غير راقصة، قائمة على

(١) سفينة القاضي محمد الواسعي «خ» وهي لأحد علماء القرن الثالث عشر بزبيد

سوقها، قلقة لفرط شوقها ، فإذا وصلت هزت من المسرة ناعم أعطافها ، وأذلت حلو الثمرات لاقتطافها، وشاركنا في السرور، فقد حزنا أقصاه وعد عليل النسيم على أرائك الحدائق، فإنا قد عدناه واستدرك رمقه، فإنه في آخر جزء من الحياة وقد كاد أن يموت لذَوَبَان أنفاسه، لولا رشّنا له بالبارد من المياه، يتنفس الصعداء لبُعدك، وينازع الزفرات لِفقدك»[1].

ففي هذا النثر يكثر الكاتب من المزاوجة بين شوق الرياض للمدعو وبين وصف الرياض نفسها، وهو نموذج تميز به إنتاج الحيمي، وقد خرج عن سيطرة البديع والجناس.

وربما خرجت رسائلهم الروضية إلى شيء من وصف البلدان والتغني بجمالها، وهذا الأديب أحمد بن الحسن المجاهد المتوفى سنة ١٢٩٨، يتفنن في وصف جبلة برسالة أدبية أوردها المؤرخ زبارة يقول فيها:

هي «ذات الأوصاف السنية، والشمائل والنسيم الشرقية، والهوى البلّوري، والمنظر الحوري، والخلخال النهري، والتاج العبقري، والأوقات الزهرية، والمساند الدرية، والشرفات النورية»[2].

ثم يَتناول خصائص جبلة من سائر العلوم كالتاريخ، وعلم السنة، وعلم الاشتقاق واللغة العربية والأدب، إلى غير ذلك وفيها مباحث اجتماعية وتاريخية وهي منشورة ضمن كتاب (نيل الوطر).

ويقرب من ذلك أيضاً وصفهم لبعض الرحلات التي قاموا بها، فهذا الأديب علي بن إبراهيم الأمير المتوفى سنة ١٢١٩ هـ ، يقوم برحلة كان قد رحلها إلى بيت الفقيه، فيكتب إلى أحد أصدقائه رسالة منها:

«ما برحت أجول في المسالك، وأخترق مسامع المهالك، حتى رمتني صوالج التّنْويه إلى محروس بيت الفقيه، فهنالك ألقت النفس عصاها، ولم تبالِ أطاعها

---

(١) طيب السمر « خ » ترجمة محمد بن حسين الحمزي
(٢) نيل الوطر ج١ ص ٨٧

الهوى أم عصاها، ولم أزل أرتشف بها كؤوس السرور ممزوجة برضاب الأفراح وأجتلي وجوه الحبور باسمة عَمَّا يهزأ بالأقاح، قد تكفل لي سلاف القات بطيب الأوقات، وأغنى نشوته عما تديره السقاة، وكلما اعتقل الهم أرماحه، أعـادته أرماح القات خافضاً جناحه، ولو رقت لي شياطين الغم لانقضت عليها أنجم الفل، وطعنت أسنة الكاذي ثغرها فأذهبت البعض والكل، وفيها سمح الزمان وقد يسمع البَخِيلْ، وجاد لي الدهر وإن كان جوده ملحقاً بالمستحيل، بالاتفاق باخوان لم يقنعوا من الوفا باللفا، ولا شاب صفا ودارهم كدر الجفا، بل جبلت طبائعهم على حفظ شرائع المروة وغذتهم أم المجد لبان الفتوة»[1].

إنه هنا يصف أيامه في مدينة بيت الفقيه، ولقاءه بأهلها، وفي الرسالة طابع من روح الكاتب الخفيف السلس، فهو يصف متعته بالقات، ويتبجح على أنه هزم جيوش الهم بأعواده.

* تقريظ الكتب

وأكثر ما يشاع بين الأدباء في رسائلهم الإخوانية، هو تقريظ الكتب، وهي ظاهرة إسلامية حضارية قديمة عرفناها في نثر الأدباء منذ أقدم العصور، وكان أديبنا اليمني أحمد بن محمد الحيمي واحداً ممن احتذى طريقة الصلاح الصفدي ومدرسته في تقريظ الكتب وأشاع أسلوبه بين أقرانه. .

وعندما ظهر كتاب ريحانة الألبا للخفاجي وشاع تداوله بين الأدباء تبارى في تقريظه جماعة من أدباء اليمن، منها ما كتبه الأديب المطهر بن صلاح المتوفى في القرن الثاني عشر:

«ريحانة عَطّر الأرجاء شميمها، ورق في الأفق نسيمها، وترقرق في حيَاضها تسنيمها، أدارت على الرفاق، وتزينت طروسها بسواد كسواد الأحداق، فهي لعمري تحفة الجليس، وأنس من أوحشه فقد الأنيس، منثورها كمنثور البستان، ومنظومها كمنظوم قلايد العقيان، تتنزه فيها النواظر، وتسلو بها الخواطر عن

(١) سفينة اسحاق «خ» ودرر نحور الحور العين «خ».

الخواطر، نور روضها كالنجوم الزواهر، ونشرها بالأريج من المسك عاطر، خريدة القصر عن مطاولتها قاصرة، ويتيمة الدهر لحسن معانيها قاهرة، لا زالت تداولها أيدي الكرام، وتلقاها بالتكريم، وتختمها بختام مسك مزاجه من تنسيم».

ففي هذه القطعة يكثر الكاتب من ألفاظ الربيع المتداولة بين أدباء تلك الفترة، مع استطراد مقصود في التعريض بأسماء الكتب الأدبية التي تقتفي أسلوب الكتاب المقرظ (كخريدة القصر)، (ويتيمة الدهر)، (وقلايد العقيان).

وقد حظيت كتب الأديب أحمد بن محمد الحيمي بنصيب الأسد من تقاريظ المعاصرين له في القرن الثاني عشر، وهو يعتز بذلك ويوردها في كتبه الأدبية.

كتب إليه الأديب أحمد بن عبد الرحيم بن يحيى الكوكباني مقرظاً لكتابه (عطر نسيم الصبا):

« استنشقت (عطر نسيم الصبا)، وقطفت من أثناء خمايله زهور الربا، وطالعت فصوله، وعرفت فروعه وأصوله، فتمايل عطفي من الطرب، وقضى به لي من الزمن الأدب، وفهمت مغزاه ومقصده ودخلت أبواب جنته التي هي على الأعداء موصدة» إلخ.

وكثير من هذا النثر يجده القارىء في كتابي (طيب السمر) (ونسمة السحر).

ومن طرائف نثرهم في هذا المضمار ما نجده عند بعضهم من استعمال التعريض بأسماء الكتب في نثرهم كما هو الحال في مقطوعة الأديب المطهر بن صلاح السابقة الذكر وهذا الأديب الفقيه يحيى بن صالح السحولي المتوفى سنة ١٢٠٧ هـ يكتب رسالة إلى أحد أصدقائه فيعرض فيها بأسماء الكتب يقول: -

«مولاي قمر العلم النوار، المجتنى بفيض القدير للجنى الداني من أطايب الأثمار، ونجل السراة أهل «الهداية» للأنام إلى «موجبات المغفرة» من «فتح الغفار» «روح الروح» و«شفاء الصدور» و«العلم الشامخ» وحميد الخلال المشكور عيسى بن محمد بن الحسين حاطه الله بعونه «المحيط» و«الكفاية» وبلغه من «بلوغ

الأمل» «الغاية» ومن «المقاصد الحسنة» «النهاية»[1] إلى آخر ما جاء فيها. وهو نوع يعرف عند أهل البديع بالتوجيه.

وهذا يكثر في سائر نثرهم الأدبي، بل وشعرهم، كما مر في فصل سابق، ودل هذا وغيره على كثرة تداول الكتب العلمية بينهم بمختلف أنواعها.

*** الروضيات:**

ومن النثر في ذلك الوقت ما يدخل ضمن الروضيات ووصف الربيع، وسائر المظاهر الطبيعية، وقد أفرد بعضها بمؤلفات مستقلة، كما هو الحال في كتاب (عطر نسيم الصبا) للأديب الحيمي الذي وصف فيه النسيم والحمامة والسيل والغدير والحديقة، ووصف صنعاء، ثم أعقبها وصف أشياء تتعلق بجمال المرأة وأحاسيس العاشق إلى غير ذلك.

ففي وصف النسيم يقول: ـ

«ما زال سوق جحافل السحاب على الوهاد، يقودها بسلاسل العهاد، ويضرب عنقها ويهديها إلى أوضح طرقها، وينثر عقودها المنتظمة من لآلىء القطر على الأقطار، ويقدح بواري زنده أحشاءها، فتجود بالأمطار، والرعد يزجرها بصوته الفازع، ويحثها على المشي المسارع، يزأر عليها زئير الأسد، ويجمع منها ما شرد، وهي ترفل في حلتها الدكنا، ويمشي مشي الهوينى حتى بلغت إلى منتزهات الخصيب، وطنبت على أرجاء مقامنا الذي راق لكل أديب، وسرت مطرفها عليه، وحنت نجبها من بعد إليه، فجادت بلؤلؤ اليقق، وأخمدت برذاذها جمر كل قلب قد احترق، وتجلّلت تيجان الدوح الباسق، وطرَّزَتْ ديباج السوح الرائق، وقلدت من جوهر نداها جيدَ الأغصان، وجمعت من مائها ونارها شقائق النعمان، فسالت الأباطح، وانقطع الاتّصال بالصّمادح وأضحى الماء جارياً، واحتمل زبداً رابيا، وتحركت الأكم والجبال الشوامخ، وتزلزلت أقدام الحيطان الرواسخ، والسيل يسرع السير، حتى كاد أن يتقدم الطير، يتدرب في الأودية،

---

(١) نيل الوطر ج ٢ « النسخة المخطوطة »

ويزحزح الأندية، ويضيق منه الفضا الدهمج، وتخوض منه الرياض في اللجج، تغص بشرابه الوعور، وتكاد منه الأرض بسكّانها أن تمور، يدكُّ العامر، ويبهر الناظر، بلغ من الأشجار أعلى القمم، ومشى على بساط الروض بغير قدم، وافترس الوحوش في غابها، وبدا في يومه الذي كيوم الوغى بها، وتحلَّى بدرر زبده النظيم، وما برح في كل واد يهيم، ويسبح ويسيح، ويروح فيريح»[١].

تلك صورة كاملة لمنظر السيل وقد أنحدر من الروابي، تفنَّن الكاتب فيها ما شاء.

*** المقامات**

قرأ الأدباء في ذلك الوقت مقامات الحريري، وأعجبوا بها إلَّا أنهم لم يتأثروا بها كثيراً في مقاماتهم التي كتبوها، وقد رأيناهم قد جنحوا إلى أسلوب المتأخرين من أدباء القرن العاشر وما بعده، حيث رأينا للشهاب الخفاجي مقامات أدبية ضمنها كتابه المشهور (ريحانة الألبا)، المشهور عند أدباء اليمن في تلك الفترة.

وقد وصف الباحث السوداني يوسف نور عوض، مقامات الخفاجي بأنها «تشبه إلى حد كبير تلك المقالات المقامية التي تحمل في داخلها طابع النقد والثورة»[٢].

وهذا ما ينطبق على كثير من تلك المقامات التي حبرها أدباء اليمن، وهي إمَّا مقامات إنتقادية، يهدف منها الإصلاح الاجتماعي والسياسي، أو مقامات وصفية تصف الرياض والبساتين، وإما مقامات بلدانية تشيد بمحاسن بعض البلدان وذم بعضها، أو مقامات ساخرة يقصد منها الإضحاك والنكتة.

وبعض هذه المقامات خرج عن أسلوب الرد المباشر، ومال إلى الحوار البحت، وهو ما عرف عندهم بأدب المناظرات والمفاخرات.

وكل هذه الأنماط حواها إنتاج هذا العصر وقد جمعنا بعضها في مؤلف

---

(١) الحيمي: عطر نسيم الصبا، طبعة الدار اليمنية للنشر والتوزيع.
(٢) المقامة في الأدب العربي

مستقل ولا بأس بالإشارة إلى شيء منها هنا:

فمن المقامات الانتقادية مقامة تنحيس مسجد المذهب، وهي مقامة شهيرة وصفها الباحث المعاصر شوقي ضيف، بأنها (طريفة في فكاهتها خفيفة في ألفاظها وأسجاعها، ولها قيمتها التاريخية، لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء في عصر الكاتب، من عدم العناية بفرشها ومصابيحها وتجصيصها[1] إلى غير ذلك.

وفي هذه المقامة تتكون كل مقومات القصة التقليدية، من وجود الترابط بين الأحداث والحبكة القصيصة، حيث يعزم مسجد المذهب على التزويج من إحدى مدارس الأتراك لعله يجد من خلالها علاج ما يعانيه من فقر وإهمال، فتشترط عليه إحدى المدارس حتى يتزوجها، أشياء لا توجد عنده فيضطر إلى السرقة، وهنا تثور المساجد عليه وتحتدم المعركة بينه وبينها، فلا يخلّصه منها سوى الجامع الكبير، وفي هذه المقامة ينجح المؤلف في عرض مشاكل المساجد وما تحتاجه من إصلاح وترميم كل مسجد على لسانه.

وحوى كتاب (عطر نسيم الصبا) للحيمي شيئاً مما نعنيه بالمقامات الوصفية التي تصف الرياض والربيع والنسيم والغيم، إلى غير ذلك، وقد جعل من نفسه بطل كل تلك المقامات، وهو يصدرها بأسلوب قصصي نشعر منه أنه سيحكي لنا قصة تتعلق بشخصه هو ورفقائه كأن يقول في أول وصفه للسيل: -

«أشار إلي بعض إخواني في يوم ثمر المسرة فيه داني، والأفراح متوالية، ورتبة الانشراح متعالية، والنفوس مسرورة، ومجالس الأنس سكنها ميسورة. أن أحضر مقامه، وأقبل إكرامه، لندير حديث الأحاديث بيننا، ونجتني من غصن الاجتماع غصن المنى، نتنادم ولا نندم، ونجعل وقت اللذة هو المقدم، فشمرّت إلى جانبه ساعياً، ولبيت دعوته واعياً، وخطرفت إليه على عجل، وأتيت إلى، منزل بدره وشمسه، وانتهيت إلى معقل لذته وأنسه، فتلقاني بالقبول والإقبال، واستبشر لحضوري استبشار الروض للغيث الهطال. ثم لما استقربت جلَّى لَنا!

---

(١) شوقي ضيف.

أسْمر القهوة في بياض الفناجين، يحاكي دخانها هدب عيون العين، ثم قال هل لك أن نتنزه في روضة أريضة، نسيمها عليل وأجفان نرجسها مريضة، تجلو الصدا، وترد من الأحزان الردا» إلى آخرها.

فهو هنا قد نقلنا إلى جو قصصي بحت، حيث حدثنا عن بعض زملائه، وقد طلب منه الحضور إلى منزله فما يكاد يصل حتى يقدم إليه أقداح القهوة ثم يطلب منه الخروج إلى نزهة في إحدى الرياض.

ويتكرر هذا في كل مقامات الحيمي التي ضمنها كتابه (عطر نسيم الصبا).

وفي المقامات البلدانية ما نجد امتداداً لذلك الانقسام، الذي وقع بين أدباء القرن الثاني عشر، في الحماس لكل من الروضة وبئر العزب، وقد فتح هذا المجال الأديب عبدالله بن علي الوزير في مقامته (أقراط الذهب).

وهو نموذج فريد، تداخلت فيه كل أشكال المقامة الأدبية عند أهل اليمن من وصف للرياض، وانتقاد، ومفاخرة، وسخرية، وحبكة قصصية. وهي الأنماط المقامية المعروفة عند أهل اليمن .... وقد زاوج المؤلف بينها في أسلوب لا يكاد يحس به القارىء، فهو يفاخر بين الضاحيتين، ويصف محاسن كل منهما على لسانيهما. . انظر إليه يشيد ببئر العزب حيث يقول على لسانها:

«أما أنا فصحيحة الأديم، عليلة النسيم، مكملة الأوصاف، معمورة الوسط بالأطراف، محفوفة من الآبار بمئين، ومن الغيول بآلاف، مشمشي يذوب فيه العسل، ورضاب تيني تسيل فيه الأرواح على الأسل، ورماني ياقوت، وعنبي فاكهة وقوت».

ثم تفاخر الروضة بئر العزب، ويحتدم الجدال بينهما، وتتقدم مساجد كل ضاحية إلى صاحبتها، وتشارك في ذلك القرى المجاورة، فيناصر كل منهم ضاحيته... وهكذا تتم الحبكة القصصية، فلا يفصل بينهما سوى مدينة صنعاء الأم التي تحيلهما على الحكيم شعبان.

وقد أعجب الأدباء في ذلك الوقت بهذه المقامة، فكانت فاكهتهم في

مجالسهم، حتى أن الأديب أحمد بن محمد الحيمي، حذا حذوها وصاغ مقامة على منوالها، جعلها تكملة لما فات المؤلف من ضواح أخرى قريبة من صنعاء، فهو يقول على لسان الجراف مؤنباً صاحب (أقراط الذهب) ألست أساوي الروضة وبئر العزب، فما وجه تعطيلي على التحلية (بأقراط الذهب).. أما طابت أعنابي فكان من حقك وقد اعتنيت بغيري أن تكون أعنى بي، أما بياضي أحب من سواد المقل، والحمول تحت حمايلي هو العز، فدع قول من قال العز في النقل، حلاوة كالعسل، ولذلك بدا في شكل اليعسوب. ومن ذاقه علم أنه إلى عنب الجنة منسوب».

ويقول على لسان حدة:

«مشمشي يجنى في البكر، فتخاله من الذهب الخالص كالأكر، يلعب بها من الأغصان صوالج الزمرد الأخضر، فتخر على بساط النبات الأبهج الأنضر، أبرد عند حر الهاجرة من الثلج والطل، وألذ من رشف الرضاب بعد صد يطول ووعد يمطل».. إلخ.

ثم يمضي في وصف محاسن كل ضاحية على حدة ولا أراه إلاَّ عبر عمّا يكنه من حب وتقدير لمواطن بلده.

بل نجده قد مال بنظره إلى مناطق تبعد عن صنعاء بكثير، فهو يصف مسقط رأسه شبام فيقول:

«شبام حمير، التي ذكرها في الآفاق من المثل أسير، أفي الواجب من حقها، وأترع المنشور من رقها. وفي لي لما وفا لها من شأنه الوفا. وما ذاك إلا لأنها موطني المحبوب وإن عاملني أهلها بالجفا... أقسم لك لقد جمعت المحاسن جمعاً، وابتسم ثغرها بالزهور لما أذابت عليها مثل الغمامة دَمْعَا، فما تملك سفحها للرائب أن ضم، ولا راق عقد ظلها في أعناق غصونها إلا وهو من العقود اللؤلؤية أنظم».

ونجده أيضاً يعود إلى التغني بجمال بلده في موضع آخر غير مقامته السالفة فيقول في كتابه (سلافة العاصر):

«شبام عندي من أرحب المساكن، وأجل الأماكن، باردة النسيم، نضرة الأزهار المتفتحة من «النعيم»، مخضرة الأكناف، جامعة الأصناف باسقة الدوح، متسعة الفنا والسوح، معتدلة الهوى البارد الرطب، مستوية الأرض والمعقل الرحب».

ثم يعقب وصفه لمدينته بقوله:

«وما هذا من باب التعصب للأوطان المألوفة، التي من شأن كل كريم نصرتها على غيرها في المحاسن الموصوفة، على سائر البقاع، وإنما قلت كلمة الحق ونطقت بما يعد من أكمل الصدق».

وفي الواقع أن الأديب الحيمي كان من أكثر الأدباء ارتباطاً بتربة أرضه. أنظر إليه يصف مدينته صنعاء وصفاً تخاله يتغزل فيه:

«وهي معقل رحيب وروضة ربا في حجرها الغُصْن الرطيب، وجاست خلالها الأنهار وتفتحت في جوانبها الأزهار وانتشر لؤلؤ الطّل على ورقها الناعم وهامت على هامات أغصانها الحمايم، طارت الجنوب المعطرة من أوكار زنبقها، ومرحت البواسق من قضبها في ديباج ورقها، وعذّرت خدود وردها بالمرسين، وأضاء تحت ليل بنفسجها صبح الأقحوان المبين، وزفت عروسها متحلية من المنثور بالجواهر مشنفة بنظارها البهار الزاهر».

وهكذا نجد عادة الإشادة بالبلاد، والتغني بجمالها من التقاليد الراسخة عند الأديب اليمني وبهذا نستطيع أن نصفها بالصفة اليمنية البحتة.

وفي المقامة نجد الطابع المحلي أكثر وضوحاً من سائر الاتجاهات الأدبية الأخرى من نثر وشعر، ولعل هذا يبدو جليّاً في المناظرات والمفاخرات التي دوّنها الأديب هنا، فغالباً ما عبَّرت هذه المناظرات عن جوانب محلية خاصة بأهل اليمن وحدهم، وقد ناقشت ما يدور في مجالس الأدباء من أحاديث أدبية وشعرية.

وقد جمعت تلك المناظرات بين الطريقتين العلمية والأدبية وحاول الكاتب

أن يحشد كل ما له صلة بموضوعه على لسان أحد الشيئين المتناظرين.

ففي مناظرة (ترويح الأوقات في المفاخرة بين القهوة والقات) للأديب أحمد بن محمد المعلمـي المتوفى سنة ١٢٧١، نجده يورد على لسان القهوة كل خصائصها وما قيل فيها من شعر ونثر وتاريخ وفوائد طبية وكذا القات.

ولما كان القـات من أكثر الأشيـاء إستعمالاً عنـد الأدباء، وفـاكهتهم في مجالسهم الخاصة، نجده قد حظي بنصيب الأسد من حوارياتهم تلك فناظر بينه وبين التنباك «الدخان» الأديب عفيف بن هبة الزبيدي من أهل زبيد، وسلك فيه طريقة المعلمي في المناظرة بين القات والقهوة فهو يقول في أول مفاخرته:

«ألقي في روعى أن أنسب ألفاظاً إلى غير نوعي وتكون على لسـان حال النبات، فعند ذلك أنشأت هذه المقامة أخاطب بها أهل النفوس الأبية، وجعلتها على لسان حـال القات والتتن... ولا تخلو من أن يقف عليها محب ثقة من البلغاء الثقات المرتقين الفصاحة أعلى المقامات ينظر إليها بعين الرغبة والمتعة ويسرح نظره في رياضها الأنيقة المورقة».

ثم يشرع في المفاخرة بين القات والتنباك فيقول:

«قيل اجتمع بعض الأدباء في مكان رايق، وقـد جمعوا فيـه أنواع الـزهر والشقـايق، وأسرجـوا في مجلسهم الشموع وجمعـوا بين المشمـوم والمسموع، وأحضروا فيه الآلات المطربة، واللواحن المغرية، وحضر في ذلك المسمى القات النظر الأخضر وورق التنباك الفاقع الأصفر فتنازعت القوم الكؤوس والبواري، والقات خامل الذكر متواري. فبينما الكاسات تدور، والمندل الرطب يفـور، والأزهار باسمة الثغور. وشَادِيْهم كاد يُلِينْ الصُّخور، وشادنهم كأنما بَهرَام جور، والأطيار على منابر الأغصان تدرس الزبور، وثوب الليل عليهم منسدل ومجرور، وقد نشرت الكتب الأدبية، فجنوا من معانيها الفاكهة الحموية، وشـربوا من رقايق السلافة الروحانية المعنوية، ونثروا عقود ألفاظها الجـوهريـة، ونظمـوا شذرات حروفها العجسدية، فبينما هم في هذه الروضة الأنيقة، والمعاني اللطيفة الرشيقة، ومهجهم من صروف الدهر سالمة، وعيون النـوائب عنهم نائمـة،

عاكفين على هذا الحال عن القيل والقال، إذ أخذ القات الغضب، فقام قومة الليث وجثا على الركب وطفا ورسب وانخفض وانتصب، ورفع خطابه وأتى بالحزم في مقاله وما كذب» إلخ.

فأتى هذا النص ليؤيد ما قلناه من أن هذه المفاخرات كتبت لحاجات تتعلق بمجالس الأدباء وندواتهم.

وكثير من هذه المفاخرات ما اعتمدت على الحوار المباشر، فعدم فيها أو كاد التعبير الفني، الذي يجعل من الأسلوب الأدبي طريقه، وكل ما ظفرنا به لهم في هذا المجال قطعة صغيرة للأديب محسن بن عبد الكريم إسحاق جعلها في المفاخرة بين القرط والعقد، وهما من حلى المرأة يقول فيها على لسان القرط:

«الحمد لله الذي جعلني أشرف ما تزدان به الغيد، وأحسن ما يزداد به جمال الجيد، وحببني إلى الحسان، فأعلتني على كل حلى إجلالا، وخصتني بذلك على جهة الاستحسان اعترافاً بحبي إخلالا، فصرت بذلك أميراً محفوفاً من المحاسن بأجياد، مزفوفاً من الخدمة بأجناد، لي من أرفع الجواري ياقوتة حسينة، ودرة ثمينة، وبهما لا يقاس ومن العبيد «الجوهر» و«الماس» وليس لغيري سوى المرجان المسبوج، والزر المفلوج، وشتان بينهما لم يجيد، ولقد رقيت بلا شك إلى أعلى الغصون ورقيت عقد الأصداغ بإذن السليم المطاع، وغيري ذاق منه ريب المنون، لطالما جنيت على من رام هصر غصون القامات الملد، وجنيت من ثمار جنان خدودها ولذا سميت «جنان الخلد». . . . ولكن سحبت ذيلي على العقد تيها ووسوست في خلال ذلك تمويها. فعجباً له وقد رميت عيونه بالعمش، وخدوده بالنمش، كيف يفاخرني في هذه الفضايل، ويفاخرني في شامخ ذرى الأجياد، ويماثل لعمري أن ذلك عين التعلق بالمجال»الخ.

أعلام الشعراء

الهَبَل

تعتبر شخصية الهَبَل في الأدب اليمني من أعرق الشخصيات الأدبية وهو من أكثر الأدباء شهرة وأرسخهم مكانة.

وقد مثل في عموم شعره الاتجاه الشيعي الذي سنَّه لأدباء هذه الفترة ومن جاء بعده.

ولد الشاعر الحسن بن علي بن جابر الهبل سنة ١٠٤٨، وكان والده متوليّاً لأحكام القضاء ونشأ في حضن والده، ثم برع في علوم الأدب واتصل بالإمام المهدي أحمد بن الحسن، وعمل عنده كاتباً، وحسن حاله عنده في آخر عمره، وحظي بمكانة عالية حتى حسده عليها بعض أقرانه، فيقال إنه سَمّه، وتوفي وسنه لا يتجاوز الواحدة والثلاثين سنة، وكانت وفاته في صنعاء سنة ١٠٧٩، وقد ترجم له معاصره صاحب (نسمة السحر)، والحيمي في (طيب السمر) وغيرهما.

ونستشف من شعره الكثير من شؤون حياته الخاصة، فهو يذكر عن نفسه كثرة ديون ونفقات كثيرة لا يبرح أن يذكّر بها ممدوحيه، فهو يقول في قصيدة إلى الإمام أحمد بن الحسن:

وأشكوك ديناً أثقل الظهر حمله ... فحالي إذاً حال الطريد المشرد

ويذكر ممدوحيه بمواعيدهم له فيقول: -

وأسمع شكية ذي وداد صادق وأسير فقر ما له من فادي
عبد تخطى نحوه صرف القضاء وعدت عليه من الزمان عوادي
طال البقاء وقد وعدت ولم تزل معطي الأماني صادق الميعاد

ويحدثنا معاصره وجامع ديوانه الأديب أحمد بن ناصر المخلافي، بأنه دخل عليه وهو في بيته، فوجد آثار الإهمال قد بدت على منزله فقال شاعرنا:

أخي عذراً فديتك إن بيتي لأشبه بالقبور من البيوت
يظل الترب من فوقي، وتحتي فتحسبني دفيناً قبل موتي
فقبري ما حواه من تراب وكفني فيه نسج العنكبوت

ومع ذلك فإن صلته بممدوحيه حسنة، وقد حصل منهم على جوائز كبيرة وقد تحدث عن بعضها فقال، «لما وفدت على الحضرة الأحمدية «أحمد بن الحسن» وامتدحته بالقصيدتين اللتين أول إحداهما:

هذي العقيق بنا يا حادي فيه سلبت حشاشتي ورقادي

والأخرى:

كم ذا يذوب أسى وكم يتجلدا أين المعين له وأين المسعدا

قابلني المولى بالإنصاف، ووردت من بره أعذب مورد صاف، وأجازني بجائزة جل أن يجيزها أبناء جنسه»(١).

وكان قد حظي بمكانة عند معاصريه فقال القاضي محمد بن إبراهيم السحولي يثني على شعره:

حلّيت أزالا إذ حللت بسوحها ففي أنفها شنف وفي أذنها شذر
وصغت عقود النظم بالنثر يافعاً فعاد إلى ريعانه منهما العمر

ومع ذلك نجد الشاعر الهبل شأنه شأن شعراء العربية يشكو من الجحود

---

(١) ديوان الهبل «خ»
طبع ديوان الهبل، طبعة جديدة محققة، حققها الأستاذ أحمد بن محمد الشامي، ونشرتها الدار اليمنية للنشر والوزيع، سنة ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣ م.

وقلة الوفا وعدم تقدير أهل عصره له فيقول في إحدى قصائده معرّضاً بمداحه:

أشكو إلى الله وجداً ظلت أكتمه ... بين الورى ودموع العين تنديه
وخاطر قد تمادى في غوايته ... وزاد حتى تمادى في تماديه
وصرف دهر أصابتني نوائبه ... بكل مهم من الأحداث تبريه
هذا الزمان الذي لا كان من زمن ... ولا سقاه من الوسمي شاريه
مات الوفاء وأبناء الوفاء به ... فالدهر من بعدهم أقوت مغانيه
فأين من يستحق المدح مبتذلا ... للمال فيه فيوفينا ونوفيه
لهفي على غر أبيات مدحت بها ... من لو هجوت لأرخصت الهجا فيه
لهفي على ثوب عز نشره عطر ... ألبسته لشقاي غير أهليه
وأفق نظم تذيب الصخر رقته ... أطلعت فيه نجوماً من معانيه
حبرته في بخيل نقش درهمه ... (الله من أعين السؤال يحميه)
تكاد تسجد للدينار جبهته ... بخلاً ويعبده من دون باريه
لو جاءه المصطفى مستشفعاً بأمين ... الله في درهم ما كان يعطيه
لا المدح يغريه بالإعطا لسائله ... ولا الهجاء عن الحرمان يثنيه

وهكذا نجد الهبل تذمر من مداحه وشكا من الفقر والديون.

*** شعره**

يقول جامع ديوانه أن من أوائل شعره الذي ظهر هو ما كتبه على باب منزل أحد معاصريه معتذراً:

لم استطع نحوكم خروجا ... فكن أخا المكرمات عاذر
لأنني قد سكنت بيتاً ... دارت على بابه الدوائر

فكان في أوائل شعره شاعراً سهل الأسلوب بسيط المعاني، ثم أخذ يتطور في المواضيع ويتطرق إلى سائر المعاني الشعرية المعروفة لأبناء زمانه، كالمدح، والرثاء والهجاء، والغزل، إلى غير ذلك وقلدهم حتى في أساليبهم البديعية كما نبهنا على ذلك فيما سبق، ومع ذلك فربما يتطرق شعره إلى جوانب اجتماعية وإخوانية فهو يقول مثلاً في ذم «المع» المنتشرة في ذلك الوقت بين أهل عصره:

أهـل المـدائـع كـلكـم   عـن حـلة الإيمـان عـاري
إن المـدائـع هـذه   ستحـلكـم دار البـواري

ويكثر في شعره هجو الثقلاء وهي عادة ولع بها كثير من شعراء عصره يقول:

ومثقل يكفيك منه أنه   أضحى يخف لديه كل مثقل
تشقى برؤيته العيون كأنه   عيد أطل على فقير (معول)[1]

ويقول:

من راحمي من ثقيل بارد نظري   إليه برح لي سقماً وأمرضني
إذا بدا شخصه لي قمت أنشده   تبارك الله مجرى الروح في حصن

وهو ممن مدح البلدان وذمها وكان من أوائل من سلك هذا السبيل في الشعر اليمني خلال هذه الفترة يقول في مدح منتزه «حدة»:

يا حبذا يومي بحدة   وبرود عيشي مستجدة
والغيم قد نُشرت يدا   ه على رقيق الأفق برده
وعيون نرجسها المرا   ض تنبهت من بعد رقده
والأقحوان غصونه   نحو الحدائق مستمده
وزهوره تحكي الثغو   ر مقبلات فيه ورده
وترى البنفسج والشقيق   الغض والريحان عنده
فاغنم بها صفو المعيشة   فالنوائب مستعده
صفو المعاش كما علمت   من العواري المسترده
والعيش مقتبل الصبا   والعمر لم يبلغ أشده

ولعل هذه القصيدة قالها في أول عمره كما يوحي بذلك آخر بيت فيها:

ويدخل بلده ناعط بصحبة المهدي أحمد بن الحسن، فلا يعجبه هواؤها

---

(١) لفظة دارجة وهي بمعنى الرجل ذو الأولاد الكثيرة.

وأهلها فيقول في ذمها:

الحمـد لله نلنـا السؤل والأربـا ... وأذهب الله عنـا الهم والنصبـا
بـالعود من (نـاعط) لا كان من بلد ... نلنـا العنـاء بـه والهم والكـربـا
لا ينظر المرء منـه قصد نـاحية ... إلا رأى منـه أو من أهله عجبـا
جـزنـا بـه والشتـا ملق كـلاكله ... والبـرد من فـوقه قد شقق الحجبا
في ليلة من جمـادى ذات أنـديـة ... لا ينظر المـرء من ظلمائِها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غـير واحـدة ... حتى يلف على خيشومـه الـذنبـا
قـد نشر الجـو رايات الـريـاح بـه ... وأرسـل القرُّ فيـه عسكـراً لجبـا

.... إلى آخرها.

وقد اعتذر لناعط وأهلها العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال في شعر بعثه إلى الهبل سنأتي به في ترجمته له.

ومع ذلك فالهبل شاعر يفتخر بقومه وأهله فيقول:

يا من يسائـل عن قومي رويـدك ما ... جهلت إلا العـلى والمجد والـدينا
قومي الأولى ما انتضوا أسيافهم لوغىً ... إلَّا وعـادوا لآي النصر تـاليـنـا
قـوم إذا لبسـوا ثـوب القتـام غـدت ... أعـداؤهم عن ثياب النصر عـارينا
إن تلقهـم تلق أحبـاراً جهـابـذة ... أو طـاعنـين العـدا شـزراً وراميـنـا

* أغراض شعره

يحدد الشاعر اتجاهات الشعر وأغـراضه في رسـالة نثـرية بعثهـا إلى أحد معاصريه يقول فيها: «إن الشعر ينقسم في أصل الاختراع إلى أنواع.. غزلي يستمال به قلب المحبوب، وينال به من وصله المطلوب، وحماسة تنبي عن نجدة ورياسة، وحكمة تميل النفوس الشريفة إلى الأخذ بها والتمسك بسببها، وهجاء أعز الله تعالى مقامك يرى صاحبه أن قد أدرك به من مهجوه ثارا، وأخمد من غيظه نارا، وشفى نفسه منه انتقاماً وانتصارا، وامتداح للملوك طمعاً في أن يثيبوا،

---

(١) ديوان الهبل «خ»

ومعاهدة للإخوان رجاء أن يجيبوا، هذه أنواعه التي لا يخرج عنها وأقسامه التي لا يخلـو منها».

فالشعر عند صاحبنا، هو تلك الأغراض والاتجاهات ونحن سنجد شاعرنا على صغر سنه، قد خاض غمار أكثرها. . إلاّ أن أبرز ما جاء في ديوانه، هو شعره في التشيع وحب أهل البيت، وما جاء فيه أيضاً من مدح وغزل ورثاء. . وآخر في الإخوانيات والمساجلات.

*** تشيعه**

للتشيع في شعر الهبل مادة كبيرة، وهو مصدر به ديوانه، والسبب الأول في شهرته بين أهل عصره، وفي الواقع أن هناك فئة كبيرة من الأدباء ظهرت في ذلك الوقت، كلهـا تدّعي التشيع وحب أهل البيت، بل إن كثيراً منهم جعل من تشيعه قربة إلى الرؤساء، يتزلف إليهم سواء كان صادقاً فيما يدعيه أو مجاملا.

على أن الهبل في شعره كان صادق اللهجة قريباً فيما يدعيه، أو أنه صدق في شعره عندما وجد أذناً تصغي إليه وتستحسن ما يكتبه فيه.

وهو يحب الإمام عليّ كرم الله وجهه عن صدق ولوعة؛ وأنت تحس ذلك في كل ما كتبه في هذا الشأن، انظر إليه وهو يعدد فضائل الإمام:

لحيـدرة الفضـل دون الـورى ... عـلى أقـرب النـاس والأبعـد
فاذْنُ لمحبتـه إن مـن ... يـدن لمحبتـه يسعـد
أخـو المصطفى وخـدين العـلا ... وهـادي البريـة والمهتـدي
إذا مـا دجـت ظلم المشكـلات ... جـلىّ دجـى ليـلها الأسـود
مـهـما ينـادي لأكـرومـة ... فنـاهيـك بـالعـلم المفـرد

. . . . . . وهو يرى فضل الإمام عليّ على من عداه من الصحابة فيقول:

أليس أمـير المؤمنـين هـو الـذي ... لـه دونهم في ذلـك العقـد والحـل

ومن هنا يرى أنه غصب في حقه من الخلافة:

تمـالـوا عليـه غـاصبـين لإرثهـا ... وقـالوا معـاذ الله أن تورث الرسـل

.... وهو يؤكد على نص إمامته في كثير من شعره:

ولاّه أحمد في الغدير ولاية أضحت مطوقة بها الأعناق
حتى إذا أجرى إليها طرفه حادوه عن سنن الطريق وعاقوا
ما كان أسرع ما تناسوا عهده ظلماً وحُلّت تلكم الأطواق
شهدوا بها يوم الغدير لحيدر إذ عمّ من أنوارها الإشراق
حتى إذا قبض المذل سطاهم وعدت عليه من الثرى أطباق
نبذوا عهود الله خلف ظهورهم وبدا هنالك للنفاق نفاق

وفي كثير من شعره نجده يخطىء الصحابة فيما سلكوه حول الإمام علي:

يا جاهلاً ما أحدثوا في الدين سل يوم السَّقيفة ما الذي فيه جرى
نقضوا العهود وأخروا من قدم الهادي النبي وقدموا من أخرا
سلبوا الوصي من الإمامة ما به ردّاه خير المرسلين وأزَّرا
جعلوه رابعهم وكان مقدماً فيهم ومأموراً وكان مؤمرا

وقد جره هذا الشعر وغيره إلى التشيع المغالي حتى قال عنه الحيمي:

«جاوز في الرفض حده، وحكم سيفه في الصحابة حده، وقال بالتكفير، ونفر المتوقفين غاية التنفير»(١).

وكل هذا دل على تشيع كبير في الإمام علي كرم الله وجهه وهو لا يفتأ يفتخر بحبه له ولأهل بيته في كثير من شعره، أنظر إليه مثلاً وهو يتشوق إلى زيارة تربته في العراق:

يا تاركين بمهجتي شرراً يذوب لها الجحيم
طال المطال ولم يهب لِصدق وعدكم نسيم
مطل الخلي غريمه حاشاكم خلق ذميم
أتخاف طول المطل من أهل الغري له غريم

---

(١) طيب السمر «خ»

بأبي وبي ذاك المحل ومن بتربته مقيم
يا ليت شعري هل إلى تلك المواطن لي قدوم
ومتى أنال بهن من تعفير خدي ما أروم
ومتى أراني خادماً بإزاء تربته أقوم
حياك قبراً بالغري من الحيا هطل سجوم

وكان لهذا الشعر موقع كبير في النفوس وبسببه ارتفع صيته بين شعراء اليمن خلال تلك الفترة وشُري ديوانه بأغلى الأثمان كما يقول الحيمي:

«وهو غرة في جبهة الزمن، وفخر لا يبرح لأهل اليمن، ومن الناس من يرغب فيه، ويبالغ في اقتناء نفثات فيه... لأنه غالى وأطال الكلام في مدح الإمام علي عليه السلام».

*** مدائحه**

أسلفنا القول في الإشارة إلى شيء من مدائحه، وكان قد سلك فيها طرق من سبقه من الشعراء من حيث السير على الرسوم التي ابتدعوها، كالاستهلال بالغزل ـ مثلاً ـ ووصف الرحلة إلى ممدوحه، أو حنينه إليه، إلى غير ذلك، وكل هذه تقاليد معروفة مطروقة إلَّا أن الظاهرة العجيبة في شعر الهبل أنه لم يكثر من المدائح لأعيان عصره، حيث نجد في ديوانه أبواباً أخرى في المطارحات والغزليات والألغاز وهذا غير معهود في دواوين معاصريه، حيث نجد المدح يعم سائر ما نظموه.

ولعل صغر سن الهبل، وعدم معاصرته لكثير من الخلفاء، جعله يقل من المدائح فيهم.

وفي العودة إلى مدحه نجده مقلداً في أساليبه حيث يسبغ تلك العبارات التقليدية على ممدوحه، فهو ذو كرم وشجاعة ونبل وعلم وسماحة، إلى آخر تلك الخصال الحميدة.

يصفه بأمثال هذه الأوصاف فيقول:

فتى ساد أبناء المكارم كلهم ... وما الناس إلاَّ سيد ومسود
فتى أقعدته كاهل المجد والعلا ... جحاجح من أبناء أحمد صيد
غدًا وزمام الدهر طوع يمينه ... يصرفه أنَّى يشا ويريد
إذا ما دعا داعي المطالب ماله ... يلبيه منه طارف وتليد
فدع حاتماً إن شيم بارق نايل ... فما لأخي جود سواه وجود
وفارس عبس لو توهم بأسه ... لذاب لو ان القلب منه حديد

هذه الأوصاف لا يفتأ يكررها في أغلب مديحه.

وقد حملت قصائده في بعضها طابع العصر السياسي، فخرج عن التكرار الذي تميز به غالب مدحه، فهو يحرض ممدوحه على العثمانيين، وتخليص مكة منهم فيقول:

يا خير من ركب الجياد ومن له ... في الكون ألوية الولاية تعقد
ذللت في الأرضين كل ممنع ... فجميع أملاك الورى لك أعبد
لم يبق إلاَّ مكة فانهض لها ... فالله جل بنصره لك منجد
جرد لها أسياف عزمك إنها ... بطلوع نجمك بالسعادة ترصد
أيصدكم عنها أناس ما لهم ... قدم إلى العليا تسير ولا يد
ولأنتم دون الورى أولى بها ... فيها مقر أبيكم والمعهد
طهر من الترك الطغام بقاعها ... فلطالما عاثوا هناك وأفسدوا
عود عداة الله من اهلاكهم ... ما كاد عودهم أبوك محمد
وأدر عليهم بالصوارم والقنا ... حرباً يشيب إذا رآها الأمرد

ثم يمضي في تحريضه فلا يترك نقيصة إلا وذكرها، وكان سخطه على الأتراك نابعاً من النظرة السياسية حولهم في اليمن حيث لا يزال جلاؤهم قريب عهد.

ومع ذلك فهو يعود إلى ممدوحه وربما دفعه حبه له إلى شيء من الغلو كقوله مثلاً:

قل للمغالين في العلياء حسبكم ... فقد حمى سوحها الصمصامة الهصر

وقـد تكفـل أرزاق الـورى مـلك مسـود في يـديـه النفـع والضـرر

وعنده أن الناس جسم وممدوحه هو الروح :

والنـاس دونـك جسم لا حيـاة بـه وأنت روح العـلي والسمـع والبصر

ومـع مـدحـه المبالـغ فيه نجـده لا يكف عن مـدح قصـائـده أمـام من يمدحهم . . . فهو يصفها بصفات يعجز عنها الممدوح نفسه كقوله :

وإليكهـا ملك البـريـة مـدحـة كـادت لهـا الشمس المنيـرة تسجـد

ويقول :

إليكهـا مـدحـة تعنـو لبهجتهـا زهـر الكـواكب لا ورد ونسـرين
مـرقـومـة لم تحـك شبهـاً لـه عـدن ولا حكى نشـرهـا المسكي دارين

وربما خرج به الحديث عن قصائده إلى الحديث عن الشاعـر نفسه وبث شكواه أمام ممدوحه وهو يصرح في بعضها بفقره وديونه فيقول :

يشكـوك فقـراً قـد تحمـل قلبـه من أجله كـربـاً يقيم ويقـعـد
فقـراً أناخ عـلى العيـال بكلكـل وسـطا فقلت لسيفـه مـا يـولـد
أرسـل عليـه من نـوالـك غـارة شعـوا تفـرق جيشـه وتبـدد

وهكـذا نجد الهبـل من الشعـراء الـذين لم ينسوا نصيبهم من مـدائـح ممدوحيهم ، وإن تكررت معانيه وتشابهت صوره فهو شاعر جزل المعاني متماسك الأسلوب، وهذا الذي أكسب قصائده الشهرة والبقاء .

*** غزله**

وله غزل رقيق فرضه عليه شباب مقبل على الحياة . وقد صوّر لوعة الحب وعناءه فقال :

كـم ذا يـذوب أسىً وكم يـتـجـلد أيـن المعـين لـه وأيـن المسـعـد
أأهيـل وادي المنحنى وحيـاتكـم إني عـلى مـا تـعهـدون وأعـهـد

. . . . . . ثم يطيل في تأكيد وفائه لهم فيقول:

مـا خـان قلبي عهـدكم أبـداً ولا ... مـدت لـسلواني إلى صبـري يـد
أأخـونـكم وأود قـومـاً غـيـركـم ... أنَّي وعـهـدكـم لـدي مـؤكـد
يـا هـاجـرون وليس لي ذنب سـوى ... دمـع يـفـيض ولـوعـة تـتـجـدد

هذا هو غالب نفسه في غزله ونسيبه. . .

انظر إليه وهو يعاتب أخلاءه وأحباءه:

أأحـبـابـنـا حـتى متى وإلى مـتى ... أرى ذاكراً في العتب من ظل ينساني
ألا عـطفـة بـالـوصـل منكم لمغـرم ... أسـير جوىً ضـاوي الجوانـج حران
بمـا بيننـا من حـرمـة الـود والهـوى ... وعقـد الإخا فكّـوا أسيـركم العـاني
تخـذتـكـم دون الأنـام أحـبـة ... وعاصيت فيكم كل من ظل يلحاني
فكيف سمعتم مـا روته حـواسـدي ... وقـالـوه مـن زور عـليّ وبهـتـان

ونسمع منه هذا العتاب مخاطباً حبيبه:

يـا بـارد القلب قلبي منـك في لهب ... وراقـد الجفن قـد أسهـرت أجفـاني
ويـا حبيباً حفـظنـا عهـد صحبته ... في الحب أين مـواثـيـقي وأيمـاني
أحـين مـا غِبْتَ والأيـام مـا بـرحت ... تبـدي الكمينـين من حقـد وشنـآن
نسيت محظ ودادي فيـك واعـجبـا ... ولم تـزل قيـد فكـري كيف تنسـاني
أغـير البعـد قلبـاً منك أعـرفـه ... أم هل سمعت مقال الحاسد الشاني

وربما مال بعتابه إلى نفسه فقال مخاطباً عينه التي سببت له كل ذلك:

يـا قـاتـل الله عيني كم أظن بهـا ... وليس ترضى سوى قتـلي وإهـلاكي
يـا عين مـا كان ظني فيـك أن تُردي ... بمـهـجـتي بـين سـفـاح وسـفـاك
غـررت يا عـين قلبي بـالغـرام وَمَـا ... قـد كـان أغنـاه عن هـذا وأغنـاك
كلفتـه حمـل أعبـاء الهـوى فغـدا ... صباً ومـاكـان يـدري الحب لـولاك

ثم هذا هو الحبيب الذي تجرع بسببه الشاعر الغصص يمثله بالصور الأثيرة

عند أقرانه من تشبيهه بالغزال واعتدال الغصن وحمرة الورد إلى غير ذلك:

غـزال كـأن الله صـوَّر خـلقـه   من النيرات الزهـر في شكل إنسـان
يميس بقـد يحسـد الغصن لينـه   ويبسم عن در نـضيـد ومـرجـان
وفي خـده ورد جـنى قـطافـه   ولكن سيف اللحظ يجني على الجاني

. . . . ولكنـه ربما ثار على هذه التشبيهات التقليدية فنسمعه ينقض قوله الأول فيقول:

وبي فـاتـر الألحـاظ تـزري لحـاظـه   ومعـطفـه الميَّـاد بالبيض والسمر
إذا مـا غـزت ألحـاظـه قلب عـاشق   تعـود سـريعـاً بـالغنيمـة والنصر
يعلم علم السحـر هـاروت إن رنـا   بنـاظـره النفـاث في عقـد الصبـر
ويحكيـه قدّ الغصن عنـد اهتـزازه   إذا مـا تـثـنى في غـلايـله الخضر
وهيهـات أين الغصن منـه ومـالـه   رضـاب سـلافي ولا شـنـب دري

فهو شَبَّهه أولاً بالغصن، ثم عاد وأنكر تشبيهه ذلك. . . . ونعود إلى تلك الصور الحسية فنجده يكثر من تلك التشبيهات المعتادة.

وربما كان لجمال الترك نصيب منها وهو وإن حاربهم سياسيّاً فهو قد أعجب بجمالهم:

وأغيـد كـالغصن الـرطيب إذا مشى   من التـرك فَـتَّـاك اللواحظ فـتـان
يـرنحـه سكـر الصبـابـة والصبـا   كـما رنحت ريح الصبـا غصن البان

وهاك صورة أخرى فيها حيوية وحركة:

بـأبي مـن انثنى أو رنـا   تخجـل البيض وتعنـو الأسـل
وتـغـار الشـمس منـه إن رنـا   ويـغـور الـقـمـر المـكـتـمـل
مـقـلـتـاه سـحـرت لـبـي ولا   يـسـحـر الألـبـاب إلا المقـل

وفي أخرى يعرض جمال حبيبه في صورة استفسار:

من علم اللفظ سحر الناظر الساجي   وصـاغ تحت الطل حقـين من عـاج

ومن أقـام قضيب البـان منتصبـاً   عـلى كـثيب من الأرداف رجـراج
وأطـلع البـدر مـن لألاء غرتها   يضيء في جنح ليل الطرة الداجي

وتكثر هذه التشبيهات والأوصاف وهي سر جمال غزله المعبر. . . ومع ذلك فهو لم يترك حالة من حالات الحب والهيام إلا وطرقها. . . يذكر الأيام الخالية التي قضاها مع الحبيب، فيصفها بما في نفسه:

يـا زمـاني بـحـاجـر والمصـلَّى   وبـوادي الـنقـا سقيت زمـانـا
كم عمرنـا تلك الـرّبـا بـالأماني   إذ أخـذنـا من الليـالي أمـانـا
ونهضـنـا بـلا تـوان ومـا فـا   ز بـإدراك سؤلـه مـن تـوانى
وجـررنـا مـن الـسـرور ذيـولاً   وسـحبـنـا من الهـنـا أرادنـا
في ريـاض قد حـاكت السحب فيهـا   مـن منـاديـل زهـرهـا ألـوانـا
مـا رضينا من بعـدهن ربـوعـاً   لا ولا بـعـد أهـلهـا سـكـانـا

وللشاني والعذول حديث طويل لا يفتأ يكرره في شعره، وهو يجاهرهم بعدم الإصغاء فيقول:

أكثرت عذلـك لو وجـدت مـطيعـا   ونصحت جهدك لو وجـدت سميعا
هيَّجت في قلبي الجـريح بـلابـلاً   وأفضت من طـرفي القريح دمـوعـا
وقـرعت مني بـالمـلامـة مسمعـاً   لا يسمـع التـأنيب والتـقـريعـا
قـل للذي هجـر المنـازل والـربـا   واخـتـط افئـدة لـنـا وضلوعـا
أدَرى العواذل أنـني بمـلامـهـم   أزداد فـيـك صـبـابـة وولـوعـا
دعـهـم فـلو نـظروك أول مـرة   كنـا اشتـركنـا في هـواك جميعـا

ويقول:

ومـعـنـف أدى نـصـيـحـتـه   لـو لم يكن في مسمعي وقـر

ويشكو الجفا والهجر حتى إذا لم تطعه قواه، فشى حبه وأعلنه:

كـم ذا الجـفـا وإلى مـتى الهـجـر   شـب الهـوى وتـعـذر الـصـبـر
ذهبت قـوى قـد كنت أعـرفـهـا   وتجـلـد أودى بـه الهـجـر

حتـام أكـتـم فيـك مـن كـلفـي ‏ مـا لا يـطيـق لحـملـه الـصـخـر

وربما زاد عليه الوجد فيتمنى الموت ويدعو بالخير لمن دله عليه:

وقى الله من دل الحمـام عـلى فتى ‏ لـه مـقلة لا تـستـفيـق من الـصب
ومـا بي بـغض لـلحـيـاة وإنمـا ‏ رأيت لقـاء الموت أروح للكـرب
وحسبي ضنى في الحب أني لم أجـد ‏ سوى الموت للداء المخامر من طب

وصور أخرى من الحب والغزل، سهل عليه فيها نظم الشعر حتى أصبح أطوع له من كلامه كما يقول، وفي كثير منها كان يستعمل الأبحر الخفيفة ذات الجرس الموسيقي المعين المناسب للمقام كقوله:

بـرح الـشـوق فـواصـل ‏ أنـت عـما بي غـافـل
زر فـأيـام المـحـبـيـ ‏ ـن كـما قـيـل قـلائـل
قـد تـركـت الـقـلب مـني ‏ ذاهـبـاً والـعـقـل ذاهـل
بـأبي بـدراً بدا لي ‏ في سـماء الحسن كـامـل
كـلما فـوَّق سـهـماً ‏ لم يـصـب إلا المـقـاتـل
ردفـه لـلخصر مـنـه ‏ ظـالم والـقـد عـادل
أقـوام ذاك أم غـصـن ‏ نـقـا في الـدوح مـائـل
وعـيـون فـاتـرات ‏ تـلك أم أسـحـار بـابـل
وخـدود قـانـيـات ‏ أم ورود في غـلايـل
قـيـدتـني عـارضـاه ‏ لهـواه بـسـلاسـل
قـال لمـا أن رآني ‏ مـن هـواه في حـبـايـل
حـاجـبي المـقـرون (نـون) ‏ وعـذاري (سـال سـائـل)
قـد مضى الـعـمـر وولى ‏ لم أفـز مـنـه بـطايـل
لـسـت أصـغـي في هـواه ‏ لـوشـاة وعـواذل
إن ديـن الحـب حـق ‏ وسـلوي عـنـه بـاطـل
فـدع الـعـاذل فـيـه ‏ فـليـقـل مـا هـو قـائـل
هـو لا شـك لمـا بي ‏ من جـوىً في القلب جـاهـل

وفي أخرى. . . :

يا من أطال التجني ... منك الصدود ومني
مولاي إن طال هذا ... عليّ فاعلم بأني
أفديك، قل ما ذا الذ ... ي بد لك مني
تركتني مستهاماً ... حيران أقرع سني
أشكو إليك غرامي ... وأنت تعرض عني
ولم ترِقّ لحالي ... ولا رثيت لحزني

وهكذا تفنن الهبل في الغزل وبرع فيه، حتى كاد أن يوسم به، لولا أنه استدرك ذلك ونفى أن يكون عاشقاً:

تغزلت حتى قيل إني عاشق ... وشبَّبت حتى قيل فاقد أوطان
وما بي من عشق وفقد وإنما ... أتيت من الشعر البديع بأفنان

*** إخوانياته**

خاتمة المطاف في شعر أديبنا نقفها عند إخوانياته ومساجلاته . . . وكان الهبل قد خظي بشهرة مبكرة فخطب ودّه سائر من عرفه من أهل عصره، من أدباء وأعيان وكتاب، وهو مع ذلك ربما ضاق بهم، وانفرد في خلوة صغيرة مع صديقه محمد بن صالح بن أبي الرجال وقد استدعاه في يوم من الأيام إلى خلوته بهذه المقطوعة:

أنا وحدي في المكان ... لم يكن لي فيه ثاني
لا كحيل الطرف يسبيك ... بقد خيزراني
وبطرف بابلي ... مثل ما سل اليماني
حاذق بالسقي للشرب ... بصير بالأغاني
لا ولا ذات دلال ... بنت ست وثمان
تتبدى بدر تم ... وتثنى غصن بان
لا ولا خمراً تنقي ... الهم من كل جنان

بنت كرم طال ما قد　　عتقت وسط الدنان
خل من هذا وهذا　　للأعادي والشوان
ليس من شأنك يا مو　　لاي حاشاك وشاني
إنما عندي ما شئت　　من الكتب الحسان
وجليس حسن العشرة　　يزري بابن هاني
فأتنا فرداً ودعنا　　من فلان وفلان
واغتنم يومك فالدهر　　كثير الدَّوران

وربما شكا من معاصريه سرقة معاني شعره وهو يدعو عليهم بصدق وحرقة :

وسارق لمعاني الشعر من لي لو　　رأيت أشلاه في أظفار ذي لبد
لو أن من نظم المعنى تصوره　　شبلاً لأخرجه من غابة الأسد
أيهين أن معنى بتّ أنظمه　　ما دار قبلي في فكر ولا خلد
أحدو إليه القوافي العون وهي إذا　　ما بين مقترب مني ومبتعد
وبعت من أجله نومي ويأخذه　　من نام عن تعبي فيه وعن سهدي

ويسمع جامع ديوانه الأديب أحمد بن ناصر المخلافي المتوفى ١١١٦ هـ قد نظم قصيدة جاء فيها مدح أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه يقول في أولها :

هات بالله هل أتى في سواه　　هل أتى من لدى العزيز العلي

فيتوهم شاعرنا أنه سرق معناه من شعر له فيكتب إليه هذه الأبيات مداعباً :

أتسرقني وأنت أجل خل　　يعز عليّ من حي وميت
أظن القطع هان عليك حتى　　سرقت لطيفتي من حرز بيتي

وكان يكتب إلى معاصريه رسائل وقصائد يشرح حاله معهم ، من ذلك ما كتبه إلى معاصره الأديب زيد بن صالح بن أبي الرجال مواسياً له :

مولاي صبراً للقضا　　والصبر محمود العواقب

إن الــزمــان وأنــت أدْ رَى بالزمـان (أبو العجـائب)
يضـع العـزيـز ويـرفـع النـذ ل الخسيس عـلى الكـواكب

وحدث أن اجتمع بالأديب جعفر بن المطهر الجرموزي فجرت بينهما هذه المساجلة الشعرية :

الهبل : أثـغـرك أم بـرد جـامـد أم الـدر نضـده النـاضـد
الجرموزي : ووجهـك أم قمـر طـالـع وقـدك أم غـصـن مـائـد
الهبل : أيـا منكـراً فـرط حبي لـه ومـا أنـا في حبـه واجـد
أمـا لي مـن أدمـع حـجـة عليـك ومن سقمي شـاهـد
الجرموزي : لي الله صبـري غـدا نـاقصـاً فشـوقي طـول المدى زايـد
فـديتـك عـدني فقـد شفني الـسقـام ومـلّني الـعـائـد
الهبل : أطلت سهـادي فـحتى متى تـطـيـل سهـادي يـا راقـد
سمعت الوشاة ومـا زخرفـوا وصـدقت ما قـالـه الحـاسـد
الجرموزي : لقـد حـل مـا حـل بي منـك من غـرام أقـر لـه الجـاحـد
خلقت لكــل الـورى فتنـة فـظل بك النـاسـك العـابـد

. . . إلى آخر هذه المناظرة ، وقد أبانت عن بعض ما يدور في مجلس الهبل من حوار شعري مع أقرانه . . . ولعل أرق إخوانياته هي تلك المقاطيع التي كتبها في وصف بعض النزه مداعباً لأصدقائه :

أرى الروضة الغنـاء لولا «شعـوبها» حوت من معاني الحسن كـل غريب
يهـون لعمـري تـرك صنعـا لأجلهـا وصبـر الفتى لـولا لقــاء « شعـوب»

. . وهذا يدخل في الإخوانيات لأنه وجَّهه إلى أشخاص من زملائه . . .

المرهبي

سنقف قليلاً عند المرهبي وهو شاعر كبير من فحول الشعراء في عصره عرف بالمدح والهجاء والغزل والوصف .

ولد الأديب محمد بن الحسين بن سليمان المرهبي بناحية ريمه سنة ١٠٥٤ وكان يفضل التسمية بكنيته أبي فاضل .

وكان أكثر تلقيه العلم على شيوخ جبلة من آل الحبيشي، وله عدة شيوخ في الفقه والحديث والنحو وغيره وهو يفتخر بهم ويذكرهم في شعره فيقول :

قرأ النحو قبل الفقه غير مقصر ... عن الهضب من علم البيان المشيَّد
وعاد على الأصلين يبحث فيهما ... شيوخهما لا مثل بحث المقلد
وقد نقل (التيسير) عن شيخ وقته ... وعالمه المفتي سليل محمد
وأعني به عبد العزيز الذي غدت ... فضائله تهدى إلى كل مشهد
وقرر شرح الأربعين قراءة ... على ابن الحبيشي الإمام الممجد
وطالع في صنعاء (موطأ) مالك ... وراجع في ضوران (مسند) أحمد
وحل من الكشاف جزءاً مراجعاً ... عليه حواشي السعد عند المعقد
على العلفي علامة العصر والذي ... غدا علماً تحت اللواء المحمدي
وبالمغربي القاضي الحسين وصنوه ... تخرج فانظر من به هو يقتدي
وبابن العبالي عز صنعاء وفخرها ... غدا جامعاً شمل الفخار المبدد
وبالرَّازحي أعْني صلاح بن أحمد ... توقل هضب الكافل المتوصد

وشيوخ آخرون شملهم نظم المرهبي .

وقد أعطته الدراسة المتواصلة ملكة كبيرة في نظم العلوم ومعرفة أصولها : وبقي أثرها في شعره ، اسمعه ينظم أسماء القراء السبعة :

لم تعم حجة التواتر إلّا — في قراءات السَّبْعة القراء
نافع عاصم ابن كثير — حمزة وابن عامر والكسائي

ويحصر اللغات العربية التي نزل بها القرآن :

لقد أنزل القرآن سبعة أحرف — وتلك لغات في مقال ذوي الفطن
قريش هذيل مع ثقيف كنانة — تميم ولا تغفل هوازن واليمن

وغير ذلك من النظم التعليمي .

بل نجده يقوم بنظم أرجوزة كبيرة في سيرة المهدي صاحب (المواهب) يؤرخ فيها لحوادث أيامه وأخباره ، وقد شرحها معاصره الأديب زيد بن صالح ابن أبي الرجال.

شكوى الزمان

ميزة شعر المرهبي أنه من النوع الخاص الذي يجعل من الحاجة والوصول إليها ذروة إبداعه وفنه ، وهذا يكثر عند كثير من أدباء عصره ممن مستهم الفاقة وشكوا من الفقر فهم معذورون إن تكسبوا بأدبهم .

فشعر المرهبي أغلبه شكوى من الحكام ، وتبرم من الزمان ونعي حظه العاثر :

وما لي لا أشكو الزمان وقد هوت — بأهل النهى أحقاده والسخائم
يحار إذا ما سيل لم أخصب الفتى — جهولاً ولم أكدى بها وهو عالم
وما هي إلا حكمة دون فهمها — فلاة مطي العقل فيها روازم
تقامرت الأوهام عنها كأنها — عليها لتضليل العقول طلاسم
وأسلم شيء أن يقال بأنها — حظوظ قضى الباري بها ومقاسم

ألم ترني أستنهض الجد عاثراً   وأستنطق الأقدار وهي أعاجم

ويكثر من حديث بؤسه وفقره في تلك القصيدة وغيرها وهو يرجع سر بؤسه وشقائه إلى إجادته فن القول دون الفعل ، وتلك مقولة قديمة شاعت بين الأدباء :

وذنبي أني في البلاغة صادح   وغيري في عش البلاغة باغم
وفي الناس من يستقصر الشعر رتبة   وما الناس لولا الشعر إلا بهائم

صلته بالحكام

شكا المرهبي عصره ، وشكا معه حكامه فأتى بشيء من النقد السياسي الذي يكثر عند معاصريه وهو نقد ينصب في غالبه على رأس الحاكم المتسلط .

وقد بلغت الجرأة ببعضهم إلى أن يهجو الملوك ، ويطعن في سيرة الوزراء ، ويسخر من العمال فيروج هذا بين الناس ، ويكون كالمتنفس لهم عما في صدورهم .

وكان المرهبي واحداً من أولئك ، وقد صادف وجوده حاكماً متقلب الأطوار . يقول عنه شاعرنا :

ثبت العزيمة في العقوق ووده   متنقل كتنقل الأفياء
وخلاصة الأخبار عنه أنه   متلون كتلون الحرباء

ذلك هو الإمام المهدي صاحب (المواهب) الذي يغدو بين إحسان للأدباء والعلماء ويمسي بين تنكيل بهم وتشريد .

وبقدر ما أثاب الأدباء وأحسن إليهم ، حتى كثر الشعراء في عصره كثرة لا تتفق في عصر حاكم غيره ، خلال ذلك الوقت . . . نجده أيضاً قد نكل بالعديد منهم ، وزج بهم في غيابات السجون أو شردهم . وكان أديبنا المرهبي واحداً ممن حظوا بسجن المهدي .

وفي سجن المهدي يكتب شاعرنا مستعطفاً فيقول :

أعيـذك (للهفـان) أمنـع معقـل ... وللنـاهل العـطشان أعـذب مـورد
فقـابلتني بـالنكـر والعـرف شيمـة ... لـديـك فلم أعـددت ما لم تعـود
وأنـزلتني عن ظهـر أجـرد أشهب ... إلى بطن سجن أسفع اللون أسـود

وينجح شعره في إطلاقه ، ولكن لا يسلم منه الوزراء والعمال ، فشعر صاحبنا لهم بالمرصاد ، يصفهم بالمطل والرشا :

ويلحقنـا من العمـال مـطل ... يكـاد لذاك صحن القلب ينشق

ويقول :

وتـلاعبت بهم الـرشـا حتى رمت ... بكبارهم في السجن منتوف الـذقن
والـغش في الـوزراء داء مفسـد ... للملك مثل السل يحدث في البدن

ويعرض على أحدهم تاريخ الوزراء وما انقلبوا إليه من سوء حال حتى لا يأخذه الغرور :

ونـاه لـلوزراء عـن قـريـب ... صـدود عنك يـا لـك من صـدود
سينـدم حتى يهبط من سمـاهـا ... ويبـدل بـالصعيـد عن الصعـود
ويهـوى أنـه أبـقـى ثـنـاء ... مشيـداً جنب ذي القصر المشيـد
وخـلفـه في قـلوب الـنـاس ودًّا ... عـتيـداً في إزا المـال الـعـتيـد
فـلو دامت لـذي أدب وعـقـل ... لـدامت للرئيس ابن العميـد
فـألقت عنـد صـاحبهـا رداهـا ... ومـا شـردت عـلى عبـد الحميـد
ولكن طـال مـا ذعـرت وخـانت ... وعـاثت بـالـذكي وبـالبليـد

إلى (آخرها) .

وحاله مع أولئك الوزراء في تقلب مستمر وهـو بين تقـدير ومهـانة وبـر وعقوق :

أشكـو فـأطنب أم أدعـو فـأختصر ... قـل لي بـأيهـا تـرضى فـأقتصر
أرى مقـامـك جنبـاً للعـلى حـرمـا ... وتـارة وهـو لـلأعـراض محتـزر
طـوراً تـبـر وأطواراً تـعـق وفي ... ضمن الـرغائب من أفعـالـك الغير

إذا رفعت امرءاً فوق السماك ضُحى	جاء العشا وهو فوق الترب يبتدر
كذاك كل سرور منك يعقبه	حزن ونفعك مقرون به الضرر

وكل ذلك جعله ينفر عنهم ، ويحذر من الاقتراب منهم :

أفادني الدهر بالأيام تجربة	حتى تبدلت معلوماً بمظنون
وقد تصفحت أحوال الرجال فما	وجدت أخطر من قرب السلاطين
لا يعجبنك لين العيش عندهم	وإن الخشونة أتت من ذلك اللين
صحيح أتباعهم فيما يزاوله	هو العليل عليل الفكر والدين
وإن رأيت غنيّاً في جوارهم	فعن قريب تراه في المساكين

ويخلص من تجربته معهم إلى عدم الحاجة إليهم ، وأن الأرزاق غير منحصرة في أصحاب الدواوين :

ضرورة المرء في دنياه زائلة	ببلغه دون أرزاق الدواوين

توفى شاعرنا سنة ١١١٤ .

شعره

له شعر وصف بالجزالة وأنه على خلاف زميله الأديب يحيى بن إبراهيم جحاف الذي يميل إلى الرقة والسهولة .

ويروي شاعرنا عن نفسه أنه مجدد، وأنه صاحب طريقة بلاغية لا يقلد فيها أحداً :

هذي الطريقة في البلاغة لم تكن	مسلوكة، فيقال إني مقتفي
فليعلم البلغاء قوة ساعدي	وتمكني فيها وحسن تصرفي

ولكن هذه دعوى لا بينة عليها ، فهو مقلد مقتفٍ آثار المدرسة الإسلامية في عصرها الذهبي ، وكان تأثره بالمتنبي واضحاً :

تسمع من شعره الجزل قوله في مدح الوزير عبدالله المحرابي :

حللت بذروة المجد المنطق	فأنت بإمرة الشرفين أخلق
يحوطك حارس الغفلات مما	نخاف عليك من حساد ذا الخلق

فـإن عقـارب السفهاء تـسعـى   وإن سـهـام أهـل الشر تـرشـق
وذا زمـن يحـار الـعـقـل فـيـه   تـرى سلع السعـايـة فيـه تنفق

إنه شعر يجمع بين أسلوب المدح وبين الـوصف الاجتماعي الـذي يبين مكائد السياسة ونفاق (سلع السعاية) ويعني به التجسس في مفهوم عصرنا .

وقد يخلط في مدحه لبعض رؤساء عصره بين جانبي المدح والسياسة فيأتي شعره نموذجاً فريداً من الشعر السياسي التقريري مع وصفه لحال الممدوح كقوله في قصيدته السابقة يبين محاسن الممدوح الخلقية وحسن تصرفه في سياسته الوزارية :

وأخـرجت الشـريف بـلا قتـال   وقـد أعيى سـواك وقـد تحـذلق
وصـنت بـحسـن رأيـك والتـأني   تهـامـة أن تقيـم بهـا فتـحـرق
وتقـطع كـورة (الشـرفـين) طـرّا   ومـا حـاذى السهـول إلى المعنق
زعيم المجـد كيف سـرقت قلبي   عـليّ ومـا ظننت القـلب يسـرق

إنه جودة السبك والصياغة .

ولا تزال قضية البلد وأحداث الأمور نصب عينيه حتى انه يتهم الـزمان بالخرف ويألو على نفسه بهجرانه :

خـرف الـزمـان وغـالـه   هـرم الحمام وشـاب فـوده
وجـرت عـلى غـير الصـوا   ب رسـومـه وكـذا حـدوده
شبعت ثعـالبـه من الـدنيـا   وقـد جـاعـت أسـوده
وغـدت أرانـبـه تصول   وطـال مـا صالت فـهـوده
آلـيـت لا واصـلتـه   وإذا اشـتـكى أن لا أعـوده

وكأني بالمرهبي ، وقد عاش حياته متبرماً يعثر به حظه فيزيده تبرماً وسوءاً فيصور ذلك في شعره ويصوغه ببلاغة وصنعة أدبية وقد يتغزل ، ولكنه غزل محروم يائس ليس له من الأمر شي :

نـظري إلى نحـو الحمى وتلهفي   أنـآ العذول بموضع السر الخفي

وتلفتي نحـو الحيـا بخصـوصـه فهو العمـوم عـلى الحيـا المتعـرف
وتنفس الصعـداء إذ ذكـر اسم من أهـوى الدليـل عـلى تعنٍّ مـدنفي

إنها صورة العاشق الطريد الذي لا يصل إلى ما طمحت إليه نفسه.

ويقول في موضوع آخر مصوراً ما أسلفناه :

عـوفيت من كلفي وفـرط عنـائي يـا شبه خـوط البـانـة الغنـاء
أمـا أنا فشحـوب جسمي شـاهـد لي بـالـذي أخفى من البـرحـاء
فمـدا معي تنبيك عن فرط الأسى من شب نـار هـواك في أحشـائي
أعقبلـه الحـي الغيـور همـامـه مـا بـال قـومـك آذنـوا بتنائـي
نـزلـوا عـلى نشر العقيق وإنمـا كـرهـوا لأجـلي سرحـة الـروحـاء
بخلوا بـوجـهـك أن أراه يقـظة فليمنعـوني الـطيف في الإغفـاء

نعم قد يزوره حبيبه ، لكنه هو نفسه لا يستطيع الوصول إليه :

مـا أنسى لـيـلة زارني متـلفـعـاً في شعـره حـذر الـوشـاة ليختفي
فـجلوتـه عـن شعـره فـكـأنـه صبـح تخلص عن ظـلام مغـدف
فـظللت ألثمـه لكيـما ينـطفي مـا بي ولا والله لـيس بمنـطفـي

وله في زياراته المختلسة تلك ذكريات :

رب لـيـل قـد قـضـيـت بـه لم أعـب فـيـه سـوى قـصـره
مـع مـليـح كـلـه مـلـح لا تـسـلني الـيـوم عـن خـبـره

وتنتهي تلك الزيارة على أثر شقشقة الطيور معلنة قدوم الصباح فيتفرقا خوفاً من ظهور (الشرر من غدره) :

بـت في لهـو أسـربـه أمتـطي مـا شئت من سـرره
لم تـرعـني غيـر هـاتفـة من حمـام الـدوح في سحـره
هتفت بـالـورق تـزعجهـا من أعـالي القضب من شجـره
حـذرت بـالصبـح صـادحـة مهجـة المذعور من حـذره
فـتـفـرقـنـا عـلى فـرق نـتـوقـى الشر مـن غـدره

الزنمة

من الشعراء الذين عرفهم عصرنا هذا وكان لهم فيه صيت كبير، الأديب الشاعر أحمد بن أحمد بن محمد الأنسي والمعروف (بالزنمة) وهو من بيت عرف بالشعر ، فوالده وأخوه كانا شاعرين . . . ولم يصلنا عن نشأته الأولى شيء سوى ما يتعلق بحياته مع الحكام بعد نضوجه وشهرته الأدبية .

وكان له مع أهل عصره خطوب كبيرة تحدث عنها كل من أرخ له وأغلب الظن أن ما أصابه يعود في الأساس إلى طبيعة في الشاعر نفسه ، فهو أحد الشخصيات الغريبة الأطوار في أدبنا اليمني .

وإذا كان الأديب يحيى جحاف لا يكاد يستقر في موضع واحد ، والأديب علي بن محمد العنسي يفر إلى الجبال الشاهقة ليفرغ لكتابة شعره ، نجد شاعرنا قد عرف بحدة المزاج ، ووصف بالبخل والشح حتى قال عنه زميله الأديب أحمد ابن محمد الحيمي :

« كان ذا جرأة وصلف ، وقد لازماه كما لازم البدر الكلف ، وخلاعة جاوزت الحد ، وبذاءة لسان ما لسهمها من رد ، طالما مدح فغالى ؛ وربما ذم فما ترك لذام مقالا ، حتى ذم نفسه في شعره وقال : إنما بدأت بعرضي لأرضي الماقين من أرضي ، حتى لا يبقى لهم متسع ولا مجال . . . وكان ذا بخل وإمساك »[1]

(١) الحيمي : طيب السمر « خ » .

. . . إلخ عبارات الحيمي المسجعة ويقول الشوكاني :

« كان حاد الطبع سريع الانحراف »[1]

فجَرَّت هذه الطبيعة على صاحبنا أشياء كبيرة من الأذى والمشقة ، على أنه كان قوي الشخصية شديد البأس لا يهاب أميراً ولا مأموراً . وكان في أول أمره يتصل بالمؤيد بالله محمد بن المتوكل ، ويمدحه بقصائد بغية عطائه وربما شكا من حجابه فقال :

مــولاي طـال الانتـظار فهـل إلى　　تقبيـل كفـك في قبـول شـافـع
كيف السبيـل ودون بـابـك قسـوة　　قـاسي الحجاب ودون ذلـك مانـع
هـذي الثـلاثـة من مـوانـع بيننـا　　وكـما علمت لهـن مـطلك رابـع

فكان المؤيد يحلم عنه كثيراً . . .

ثم يتوفى المؤيد ، ويصطدم مع المهدي (صاحب المواهب) ، ويفر منه إلى القاسم بن المؤيد في السودة، ومعه صديقه الأديب إبراهيم اليافعي ، فيكرم وفادته ويمدحه بغرر القصائد ، حتى يتم للمهدي (صاحب المواهب) أسر ممدوحه سنة ١١٠٣ ، فيلتجىء إلى حرم الله بمكة ويتصل بملكها الشريف أحمد بن غالب، بعد أن قدم إليه بقصيدة ثائرة يحرضه فيها على ملوك اليمن يقول فيها :

مـولاي إن رموز الجفـر قد نـطقت　　بحسبة لك في الأرضـين فاحتسب
فـانهض إلى اليمن الميمـون قـد عبثت بهـا الأرذال أهـل البغي والعـطب
ومنهم مـن دعـا للحـق مجتهـداً　　بـزعمـه وهـو أطغى من أبي لهب
تبت يـداه وأيـدٍ بـايعتـه عـلى　　مـا يـدعي إنها حمـالـة الحـطب

فتقيم هذه القصيدة صاحب اليمن وتقعده . .

في مكة

وفي مكة يلتقي بنخبة من أدباء العالم الإسلامي القادمين إليها من كل

(١) البدر الطالع ج١ ص ٣٦

صوب ، وتجري له هناك مناظرات ومشاعرات مع أدبائها .

وقد ذكروا أنه اجتمع بلفيف من الأدباء في منزل أمير مكة ، وكان من بينهم الخفاجي حفيد صاحب (الريحانة)، وابن معصوم، والحسين بن عبدالقادر، فقال الخفاجي ها نحن اجتمعنا هذا الاجتماع وهؤلاء أدباء اليمن وأدباء الشام والهند ومصر ، فهلموا لينظم كل واحد منا قصيدة نبوية هذه الليلة ومن أحرز قصب السبق حكمت بانحياز الأدب إلى قطره ، فنظم كل واحد منهم قصيدة ، ونظم صاحبنا قصيدته المشهورة:

ألا حي ذاك الحي من ساكني صنعا فكم أحسنوا بالنازلين بهم صنعا

فحكم الخفاجي له بالسبق.

وفي مكة تعرف بالأديب المؤرخ محمد أمين المحبي المتوفى سنة ١١١١ وجرت بينهما مساجلات ومناظرات شعرية وقد كتب المحبي إلى شاعرنا يقول :(١)

أأحمد يا من صح عندي وده وودي لديه صح عندي ببرهان
كلانا على أني الغريب وأنك الـ ـغريب ولا دعوى هناك برجحان
وإني وإياك الحياة وجسمها كلانا على الإخلاص متفقان
عجبت لودٍّ بيننا مع تباين فإني قيسيّ وأنت يماني
رفيقان شتى ألّف الدهر بيننا وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

وكتب إليه أيضاً يمدحه :

فرد الزمان فإن نظرت تجد كل الفضائل منه في فرد
إن عد فخراً كان أول من عقدت عليه العشر في العد
عذب الفكاهة في بداهته كلم غدت قطعاً من القند

ولما اطلع شاعرنا على كتاب المحبي (نفحة الريحانة) أعجب به وكتب تقريظه في قصيدة طويلة ، إلا أن حدة شاعرنا لم تترك له صديقاً فاختلف مع أدباء

(١) نفحة « الريحانة » ج٣ ص ٥٩٦

مكة ، وتعاطى معهم الأهاجي حتى يقال إنه هجا الأديب مصطفى بن فتح الحموي .

أفتح الدين إنك أم عمرو وعندك مصطفى الشامي حمار
(إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار)

فتحامل عليه الأدباء هناك واتهموه بالزندقة والمروق ، بل سعوا في قتله عند أمير مكة حتى اضطر إلى الفرار ليعود إلى اليمن .

في اليمن مرة أخرى

وفي اليمن يعود إلى خصمه الأول الإمام المهدي صاحب (المواهب) ويتوسل إليه بشعره فيقول في بعضه :

إمام الهدي يا ناصر الدين والذي نراه الرضا في أهل ذا البيت والمرضي
فقد جزت أقطار البسيطة قابضاً عليها ونلت القصد في البسط والقبض
إليك مطايا الشوق مني وإنها تجس الحشا جس الأطباء للنبض
ولم يك لي ذنب كغيري وإنما جميع الملا قد ألبوه إلى عرضي
وأبعدني عنك المهابة والحيا وشردني عدم الرضا منك عن أرضي
وأستغفر الرحمن في كلما جرى بحقك كي ترضى وما لي أن أرضي
ولي فيك ود سابق ومدائح برفع مقامي في مقامك لي يقضي

وكان صاحب المواهب يحب الشعر ويتذوقه ، فأكرمه لذلك وعفا عنه حتى يقال إنه : «لم ينل أحد من الشعراء ما ناله منه بشعره وأعطاه أنعاماً كثيرة ونقله في الأعمال» .

ولكن المزاج الحاد يعود لشاعرنا وينسى ما قاساه من آلام الغربة والمهانة ليختلف مع الوزير صالح الحريبي ، ثم يبعثه المهدي إلى اللحيّة سنة ١١١٣ ، للبحث مع عاملين فيها فيذهب إليهما ويفرط في عقوبتهما والتنكيل بهما ، حتى أنه قام بمصادرتهما، فذهب هذان الخصمان إلى المهدي ليشكواه عنده، وهنا تثور ثائرة المهدي وتظهر عداوته السابقة له مع عداوة وزيره الحريبي فينفيه إلى جزيرة

زيلع ليلقى نهايته هناك وما بقي من عمره سوى سنتين فيتوفى سنة ١١١٥ .

وكانت جزيرة زيلع منفى اليمن في ذلك الوقت ، وقد ضمت مجموعة كبيرة من السجناء السياسيين .

حتى بلغ من كثرتهم أن فكَّر المهدي في إرسالهم إلى الصومال لغزوها، فقد ذكر المؤرخ أبو طالب في (طيب أهل الكسا) في حوادث سنة ١١٢٣ :«أنه أطمع الإمام في تملك أدمة من بلاد الحبشة وأهلها يقال لهم الصومل ، فندب من توابع المخاء وزيلع وأمر المحابيس بزيلع بالتجهز لأخذها» .

على أن شاعرنا كان قد قضى أياماً جميلة ببندر المخاء، قبل بعثه إلى زيلع وانقطاع خبره، وصادف فيها الأديب أحمد بن محمد الحيمي الذي يحدثنا عن جلساته معه على شاطىء البحر وقد حف بهما الأصيل فيقول :

« وكنت أنا وإياه ببندر المخا ، وقد عاملنا الدهر على بخله بالجود والسَّخا ، نجتمع اجتماع الفرقدين ، ونَرَى الاجتماع كأنه لازم دين ، ونقف في وقت الأصيل على شاطىء البحر ، وقد بدت صفرته على بياض الماء كما بـدا عقد الذهب على لجين البـحـــر»[1] .

وقد حدث أن تخلف شـاعرنـا الزنمـة عن الاجتماع فكتب إليـه الحيمي يقول :

«يا بحر الأدب العذب، ومن فاخر هذا البحر بدُرّ كلماته الرطب، ما بالك اليوم عن الاجتماع تخلّفت وقد كنت بدراً في سماء الأنس ، وحاشاك من أفول تكلفت فبادر لزيارة البحر ، فقد اضطرب من الشوق ورمى إلى الساحل لآليه فرايدا . . . فأسرع فمثلك من أسرع واجتـنى، فَهَا أنا لَبِاب أدبك أقرع، وبادر لنقف على الشاطىء ونتعاطى من المدامة كؤوســاً تلذ للمتعاطي» .

وقد وجد أديبنا في صحبة الحيمي ببندر المخاء سلوة كبرى حتى ذكر عنه صديقه هذا أنه عهد إليه بديوانه لإصلاحه والنظر فيه .

---

(١) طيب السمر « خ »

ولما كان شاعرنا من أهل الجبال ، لم يعجبه أشياء كثيرة في السواحل ، فهو قد ضاق ذرعاً بأكل السمك وأحب الأرز لخفته على المعدة :

هــذه الـلحيــة إن نــزلـت بهــا   خـففـت في المـلبــوس والـقــوت
والــرز أغــذى مــا أكــلت بهــا   فـاحـذر تكـون كصـاحب الحـوت

وساءه في اللحية بعوض يقال له الشذا

مـا في اللحيّـة لــلأنفـاس من نفس   والمـاء في العيش من كـد ومن كـدر
وليس فيهــا لخفّــاق النسيم شـــذا   إلا الشـــذا الــذي إن حط لم يــطر

وكان هذا النظم من آخر ما كتبه قبل منفاه .

شعره ومذهبه الفني

ترك أديبنا الزنمة ديواناً ضخماً اعتنى بجمعه هو نفسه وكأنه قد أحس من أهل عصره الجحود والنكران وعدم اكتراثهم بشعره فقام هو بجمعه وتبويبه وهو لم يكن عالماً ولم يكن له اهتمام آخر بغير الشعر ، وقد ذكر عنه معاصره الحيمي أنه (عار عن المعارف) فالشعر هو بضاعته وثقافته .

وقد أخذ عليه نقاده التساهل في قواعد العربية ، فقال عبدالله بن علي الوزير في (طبق الحلوى) : «شعره جيد وما يعاب به غير شيء من اللحن وركة المعنى[1] » ويقول الشوكاني : « وشعره تارة يكون في أعلى طبقة وتارة يكون سافلاً وربما وجد فيه لحن» .

ولكن هذا يقل في شعره وقد أثنى عليه كل من ترجم له ، فقال صاحب (نسمة السحر) : « فاضل سبق فرسان القريض . وحلى جيد الزمان بقلائده بما حلى من بنات فكرته وفرائده»[2] .

ووصفه معاصره الحيمي بالجودة وحسن السبك وهو ممن تكسب بشعره

(١) الوزير : طبق الحلوى (خ)
(٢) نسمة السحر (خ)

ومدح الملوك والأعيان حتى قال عنه ابن الوزير : (لم يكن في اليمن من استجلب سنى العوارف بشعره مثله فأثرى به كثيراً)․وفي مدحه تندرج كل اتجاهاته الشعرية التي عرف بها :

وربما صرح بالثنا على شعره والإعجاب به أمام ممدوحيه فقال :

خذها كأنفاس النسيم لطافة   والروض عرفاً والسحاب تحدرا
جمعت مع الغزل الحماسة في الثنا   فنظامها متبدّياً متحضّرا
نظم يذوب الصخر عند سماعه   ويكاد سحر بيانه أن يقطرا
وكأنما الكندي عني قائل   شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وكأنني كنت المراد بقوله   في ابن العميد مكنّياً ومعبرا

ويفاخر دائماً بينه وبين المتنبي فيقول:

إليكها يا ابن الكرام كريمة   لم يثنها إلّا إليك ثناء
عربية الألفاظ من أحكامها   أخذت معاني الحكمة الحكماء
يتستر الكندي تحت لوائها   وهو الذي لبني القريض لواء

وكان في شعره قد استعمل شيئاً من البديع كما هي عادة عصره حتى قال معاصره ابن الوزير وهو يتحدث عن شعره: (غلب عليه مراعاة التجنيس)، وفيه تكثر الإشارة إلى أسماء الكتب ومصطلحات العلوم. . . . كقوله مشيراً إلى بعض اصطلاحات الفقهاء:

وقوم لديهم في (الخلاف) مذاهب   تخالف في باب الهوى و(مذاهب)

والنحاة:

هلموا إلى فرض الجهاد بنو الهدى ليـ   (رفع) ما(جر) النواصب بالـ(خفض)
لأن من (جزم)الأمر الفعول معارضاً   ليمكر أهل (الجر) و(النصب)والبغض
ومن ميز الحال اعتماداً على الحجا   يعان ويقضي في الأمور بما يقضي

ويقول:

وكم «رفع» العليا بسمر «عوامل»   فكم «جزمت» رأساً وكم «فتحت» ثغر

وأهل البديع :

بـبـديـعـة في حـسـنهـا كـأنمـا عنهـا «البـديـع» جـاء لـلإرشـاد
وفيـه معـنى «الانسـجـام قـد أتى بـالافـتـتـان جـامـع الأضـداد
لكن «مـراعـاة الـنـظير» عنـدهـا من شـرطهـا «الإيهام» للتضـاد
فـمنهـا «تخـلصي» مـن حـبـهـا «حـسـن خـتـام» غـايـة المـراد

وقد مر بنا في فصل سابق، استعراضه لأسماء بعض الكتب في منظومة له، ولكنه يقف عند الإشارة إلى أسماء الكتب والمصطلحات الأدبية، ولا يتوغل إلى ما هو أبعد في علم البديع عندهم.

ولعله ينفرد بهذه الناحية من دون أدباء عصره الذين أكثروا من استعمال الجناس والتواري والاقتباس وغيره.. وهذا يعود أساساً إلى ثقافة الشاعر البسيطة وعدم تبحره في علوم البلاغة والإعراب.

*** مدائحه**

عرف الزنمة بالمدح وهو شاعر متكسب به يقصد الملوك، ويثري منه وقد كانت له مكانة عند مداحه، فهم يثيبونه ويقترحون عليه القصائد، وقد ذكر الشاعر عن نفسه في بعضها أن المهدي اقترح عليه رويّاً خاصّاً في قصيدة يمدحه فيها فقال:

خـذهـا أمـير المـؤمـنـين غـادة من نـظمهـا قـد صـار قس بـاقـلا
وافت عـلى حسب اقتراحـك الـذي يعجـز غيـري أن يكـون قـائـلا

. . . وكان قد أفرد ممدوحه المهدي بديوان مستقل ومن قبله مدح جماعة من الأمراء.. ويكثر مدح ممدوحيه من الرؤساء والأعيان.

وقد تمرس بمهنة المدح حتى غلب على شعره، فلا يعرف له غير هذا، وهو يصف الممدوح بما شاء من أوصاف التعظيم والإكبار.

فلو أنها قيست أياديه بـالـنـدا بسيحـون لاستحيـا وقـال تهكـما
وشتـان مـا بـين الخصـم وبينـه وكم بـين من معط نـظارا وبـين ما

وبالعلم والحلم:

فما العلم إلا ما رواه لسانه ... وما سمعته إذ يقول السامع.
وما الحلم إلا ما حوى منه صدره ... ولله أسرار به وودائع

وأوصاف أخرى يعتادها أهل المديح . . . .

وهو يقع أحياناً في الغلو فيمن يمدحهم . . . حتى اتّهم بالمروق والزندقة عند بعضهم، ويقال إن سبب إنكار علماء مكة عليه لقوله وهو يتشوق إلى منازل أحبته.

بعيشك أن شارفت حي أحبتي ... فطف حوله يا عمرو عن عمرتي سبعا
ورد زمزم الورد النمير حياضه ... وحلق إذا قصرت في ذلك المسعى

وفي اليمن وصف ممدوحيه بما لا يوصف به البشر:

ولقد أنخنا في حماك عسى لنا ... ولها يطيب ورودنا والمرتع
من بعد ما طفنا طواف قدومنا ... وبمعمر من حجنا نتمتع

وتتكرر هذه النغمة في قوله:

وفي العرش[1] و«الخضرا» دار خلافة ... أناف على الخضرا والعرش مرقاها
يطوف بها القصاد حجاً وعمرة ... فيحمد عقباها بتحليق مسعاها

وفي قوله:

أبالوحي أم بالطور نوديت من سينا ... تلقبت بالمهدي وقد كنت هادينا
فبات له التأثير في كل كائن ... فما هذه إلا النبوة تنبينا

وأشياء من هذا القول الذي ينكر على شاعرنا وقد عد من سيئاته، لكن مدحه حفظ أشياء من حياة الدولة وأمور السياسة وهو من النوع الذي يترصد الحوادث ليقول فيها شعراً، فهو يصف ويمدح ويقرن بينهما حتى لا تكاد تفرق بين

(١) يعني بها رداع.

الأمرين. وصف أبهة الدولة فقال:

وبك الخلافة قد تثنى عطفها   تيهاً وأنت سوارها والسور

ووصف هدايا الوفود وأخبارها:

هدية الشام وافت والعراق معاً   ورسلها كان في وقت وصولهم
فذا جياد جياد صار باعثها   معد وفي ضمنها ما ليس ينكتم
وكان من مكة إحرامها وإلى   سوحى الإمام غدت تسعى وتستلم
كذا العراقان قد أهدت نفايسها   وخير أملاكها في بابه خدم

. . . . ويصف مآثر الدولة من قصور وآبار ومساجد وحمامات فيقول:

فقد شاد مهدي الزمان قصورها   فقصر عنها طول قصر الخورنق
وفَتَّح آباراً وأنشا مساجداً   ولم يتفق هذا لغير موفق
وطاب بها للطب (حمام) حكمة   فما طب أفلاطون منه بأحذق

ويتوسع في أخبار الدولة فيذكر الصلح مع الرصاص وسلاطين الجنوب فيقول:

لقد ظفرت منك السلاطين بالرضا   وبالأمن إذ كف الوغى عنهم كَفَّا
ولا سيما الرصاص أحمد إنه   سعى لحميد السعي إذ عقد الحلفا

وبلغ به الأمر أن يحرض ممدوحه على الترك وهم في مكة:

لا تترك الأتراك تعبث بالملا   وتحل في الحرم الحرام المنكرا

ويكثر هذا في شعره حتى لا تكاد تفرق بينه وبين التقارير السياسية كما يقال. . . .

* غزله

الغزل عنده طريق مسلوكة عند غيره من الشعراء، ولا نجد فيها أتى به شيئاً جديداً، وقد قال عنه ابن الوزير في طبق الحلوى: (إن شعره يغلب عليه ركة

المعنى مع ديباجة لا يظهر معها ركة المعاني إلا لمن تصفح شعره) . . وهذه الديباجة التي يعنيها ابن الوزير هي مقدمته الغزلية التي يصدر بها قصائد المدح ففيها يبدع الشاعر بما اعتاد غيره أن يبدع .

إنه يصف الجمال كما وصفوه ، ويشبّب بالذوائب السود واللحاظ القاتلة ، والخصر النحيل ، والقوام الرديني إلى غير ذلك إلاَّ أنه في هذا المجال يكثر من المقارنة والمطابقة بين المتضادات .

انظر إليه يقارن بين حاله وجسم الحبيب :

لقد حكت وجدي بردف مردف   والخصر أضحى مثل جسمي ناحلا
وفي لماها خمرة ما ذقتها   لكنني أصبحت منها ثاملا
يقلقني وشاحها لأنه   بصوته قد هيج العواذلا
قد أصبحت سلوس أقراط لها   لكل صب في الهوى سلاسلا

ويقارن بينها وبين جمال الحيوان والجماد فيستبعد التشابه بينهما :

هي البدر لكن ليس للبدر مبسم   هي الظبي لكن ما رأينا له عطفا

ويجمع بين الأشياء المتباينة :

الساق منها عبلة   واللحظ منها عنتر
وردفها مرتدف   وخصرها مختصر
قوامها منتصب   وجفنها منكسر

وهو في غزله يخلط بين جمال الحلى ومحاسن الحبيب ، وتلك عادة ولع بها شعراء عصره :

تغنى عليها الحلى والصادح الذي   على خصرها قد دار والباغم القلب
وتسمع للأحجال جرس كأنما   على ساقها قامت على ساقها الحرب

وأكثر من الحديث عن الزيارة المختلسة وكانت هذه الزيارة مطلعاً لكثير من قصائده الجيدة :

ألمت تهادى والمعنف قد أغفى | على حذر والليل قد أسبل السجفا
بليل تخال الزهر فيه أزاهراً | وقد أينعت في روضها ودنت قطفا
كأن الثريا أكؤس الراح بيننا | وقد بات بدر التم يدهقها صرفا

هذه الزيارة على كتمانها وسريتها يكون فيها غناء وطرب:

وغنت فما أدري أمن حسن صوتها | أم العود أم من جرسها أخذ الصرفا
وقد أدركت علم الخليل ومعبد | بأحكام حسن لم تجد عنده زحفا

وهو في الحب ضعيف لا يكاد يحس بفتور الجفن، وخفقان القرط والخلخال، حتى ينهار وتخور قواه:

لي الله من قلب أصول لدى الوغى | به وعليه فاتر الجفن صَوَّال
وأعجب من ذا في الخطوب ثباته | ويقلقه إن لاح قرط وخلخال

وتمضي قصائده في الغزل هكذا تشرح المعاني السابقة لشعراء سبقوه وتتفنن في العرض والصياغة.

ومع ذلك فإن لشعر الغزل عند شاعرنا حسنة كبرى، قد لا نجدها عند غيره وهي عفته وسلوكه الخلقي المستقيم، فهو لم يتورط في الغزل بالمذكر، كما هي عادة شعراء عصره ولم يدخل في وصف الخمر وكل ما هو محرم في الشرع أصلا. ولعل ذلك يعود إلى محافظة واستقامة في نفس شاعرنا تجاهلها كل من أرخ له.

* الروضيات

وشيء آخر يقرب من جانب الغزل عنده هو إكثاره من وصف الرياض والمنتزهات حيث نجد فيه طابع الرقة والسلاسة التي صاحبته في شعره الغزلي فهو يصف الرياض ويذكر ما فيها من ورود وأزهار، فلا تخاله إلَّا يتغزل في حبيب.

ها هو يصف نزهة فإذا به يجمع بين الجمال وجمال الطبيعة:

هــذي الخيــام تــزهــر		في روضــة والــزهــر
أغــصــانها وغــيــدهــا		أعــطافــهــا تهـتـصر
فــيـهــا أقــاح بــاســم		ونــرجس وعــبـهــر
وعــن خــدود غــيــدهــا		ورد الــربــا يــنــتشر
فــيــا لهــا مــن جــنّــة		بهــا الجــوى والحــور
وقــاصــرات الــطرف في		حــســامهــا يــقــتصر
يــفــوح من أرجــائــهــا		عــبيــرهــا والــعــنــبــر
الــغــيــم بــاكٍ فــوقــهــا		يهــمــي بهــا ويهــمــر
والــزهر أضحى ضــاحكاً		يــزهــو بهــا ويــزهــر
والــطير في غــصــونها		يشكــو الهــوى ويشكــر

فهنا الغيم والورود والخدود وقد جمع بينها الشاعر في تـآلف منمق، وهو يكون صورة مفصلة حين يتناول فيها كل جانب على حدة، فهو يبتدي بذكر النسيم، ثم يثني بجمال الرياض، ويثلث بعبير الأزهار، ويعرج إلى الـورق والغصون والسحب إلى غير ذلك:

أعلمت مـا قال النسيم وقـد سـرى		وبمــا أشـار البـرق لَمَّــا أن شــرى
أوما رأيت الروض أصبح ضاحكـا		جــذلا لمـا جــاء البشــير مبشــرا
شــاع ريح الأرجا يعبق عــرفــه		مسكــاً وقــد عبــر النسيم معنبــرا
والــورق في الأوراق تسجـع بالهنـا		لمــا رقـت فــرع الأراكــة منـبــرا
والـغـصـن يثـني قــده فكــأنــه		خــود على العشــاق يمشي البخترا

ويعود إلى المشابهة بين جمال المرأة والورد فيجعل ذلك مفتتحاً لمدائحه:

وروضـة حسن كـالبـديـع تنـوعت		زهــور فنــون في فنــاهــا وأفنــان
تخــال بهــا أن الأقــاح مــبــاسـم		وأن الخــدود الـورد والهيف رمــان
تغنى قـمــاريهــا لأقمــارهــا فكم		يميــل بهــا رَيَّــا المعــاطف ريــان

* الوصف

وفي الواقع أن الزنمة وَصَّاف ماهر، يجعل من التصوير مدخلاً لإبداعه الأدبي على قلة صوره وابتكاراته .... إلا أن الظاهرة العامة التي طغت على شعره هي أنه شعر سياسي يخدم الممدوح وسياسته.. فهو يكثر من تحريض القبائل، وتقريع الخصوم، والتهاني بالفتوح وغيره... لذا نجده يجعل من الوصف خدمة لغرضه السياسي، وقد وصف الحرب وآلة الحرب من رايات وبنادق وفوارس وخيول إلى غير ذلك فيقول:

يمشي بها رايات نصر للعدا تهفو ذوائبها بريح صرصر
ببنادق ترمي العدا بصواعق مثل البوارق في السحاب الممطر
وفوارس تحكي العوادي تحتها من كل عاد عابس متنمر
يمشين في زي الفوارس فوقها ويطأن في خد العزيز الأصغر

إلى آخرها....

وقد مرَّ بنا شيء من وصفه للخيل.

الكوكباني

يوسف بن علي الهادي الكوكباني، أحد أعيان أدباء عصره، وأشهر من نظم الشعر وأتقنه، ولد (بشبام كوكبان) ونشأ فيها حتى ذاع صيته، فرحل إلى صنعاء وعمل في بادىء أمره نساخاً حيث عرف بجودة الخط، وكان قبل مغادرته (كوكبان) قد تولى الوزارة للحسين بن عبد القادر في أثناء إمارته.

وقد أجمع كل من ترجم له وعاصره على تمكنه من صنعة الأدب، فقال في حقه معاصره الأديب إبراهيم بن زيد جحاف:

بهجة الزمن، وزينة اليمن، خدن المعالي، والذي افتخرت بوجوده الأيام والليالي، لم تر عيني في أبناء الزمان له مثال، وتفرد بالمجد والشرف والكمال.

وقال عنه الجرموزي صاحب (صفوة العاصر):

«هو بحر ليس له لجة، وبدر من أين للبدر تبلجه، ينفث باللؤلؤ والمرجان، ويزخر ببدائع من الفضل وأفنان» إلخ.

ولما دخل اليمن الأديب عبد الرحمن الذهبي، كان صاحبنا من ضمن الأدباء الذين زاروه فوصفه بقوله:

«أحد قضاة الإسلام بصنعاء اليمن فاضل بكسبه لا بنسبه وقد زارني ليلة وصولي صنعاء وقد رأيته حسن الصحبة سلوكاً وصنعاً».

إلا أنه عاد ووصمه بالدعوى وكثرة الاعتراض.

وقد كان أديبنا رحمه الله من المبتلين بجفوة الناس وأوذي في حياته وشرد حتى كاد الأمر أن يفضي به إلى القتل لولا أن تداركه الله بالموت.

ولا نعرف ما سبب الخصومة التي رماه بها أهل عصره، إلا أن المؤرخ الحوثي يقول إنه لما نظم شاعرنا بيتيه اللذين يقول فيهما:

إن كنت يا نعلي ترى صفع من يرى سبابا لأصحاب الرسول أو الولي
ففي أضلع منهم وفي حر أوجه «تنقل فلذات الهوى في التنقل»

قال: (هجاه كل شاعر ورد عليه جماعة مثل العلامة صلاح بن الحسين الأخفش، وهاشم بن محمد الشامي، وعلي بن محمد العنسي).

ومع ذلك فإن العنسي كان من الأدباء الذين طارحوه الشعر قبل الجفوة وقد بعث إليه برسالة وقصيدة يقول فيها:

«رب البدايع التي يعقد لها لسان المعارض سحرها، ويطوي خبر الطائيين نشزها والبليغ الذي إذا نظم أتى من نظامه بالسحر المبين، وقالت بنو الآداب له وللخنساء وقد دامت مطاولته يوسف، أعرض عن هذا واستغفر لذنبك» إلخ.

وقال في شعره إليه: -

فريد المعاني صاحب الفقر التي إلى مثلها الصابي يرى من ذوي الفقر
معيد زمان ابن العميد بفضله ومبدي نقص الفاضل الساير الذكر
أديب إذا ما هز يوماً يراعه تمنى الرديني إنه القلم المبري
أما والضحى من مجده الشامخ الذرا ليوسف كهف الجود نادرة العصر
له غزل حلو ومر حماسة أرق من الشكوى وأقسى من الهجر.
(إلخ)

وترجم له صديقه أحمد بن محمد الحيمي في كتابه (طيب السمر) ترجمة مظلمة وصفه فيها بالغرور واختلاس أفكار الغير يقول:

«كان كثير الإغارة على المعاني، فأبياته من بنات أفكار الغير وما هو له

المعاني سيما شعر الجمال إبن نباته. . وكنت أراه يتهالك على ما يسمعه ويود أن يأتي على آخر ما يجمعه فلا يفوته معنى إلا طرقه ولا كنز أدب إلا سرقه».

ويعلل الشوكاني، سر خصومة أهل عصره له إلى نباهته وتفوقه في الأدب:

«جرت له مع أهل عصره محن لأنه برع في الأدب، وفاق الأقران وهذا شأن من نبل من نوع الانسان» الخ.

ومحن أيضاً أديبنا بالمهدي (صاحب المواهب) شأنه شأن غيره من أدباء عصره فقد ذكر الحوثي صاحب (نفحات العنبر) أنه «وشى به واش عند المهدي، وأنه صدر منه كلام في جانبه موجب لقتله، فسجنه بقصر صنعاء ثم أنفذه إلى عامله عليها يأمره بقتله في يوم معين بمرأى من الناس، فدخلت بعض جواري (صاحب المواهب) عليه تستشفع في صاحبنا، وقالت إنه يتحدث الناس عنكم أنكم تقتلون العلماء، فأنفذ بريداً في الحال إلى عامله بصنعاء يأمره بإطلاقه فوصل البريد بالكف عنه وفرج الله عنه».

وفي رواية الحيمي معاصره أنه:

«حبس مراراً، ثم لما حبس في (زبيد) ووكل به ذو فظاظة من العبيد أصابه غم فتألم، وأطلق من السجن وأركب على بعض الجمال واحتمل مشقة السفر أشد الاحتمال، فسقط من فوقه وانكسرت إحدى يديه ولما استقر في بيته مات وهو في سن الشباب».

وتلك نهاية أديبنا المؤلمة، وكانت وفاته سنة ١١١٦ رحمه الله.

* شعره

أديبنا أحد عمالقة الأدب والشعر في عصره، ولا عبرة بقول منتقده، وقد اعترف له بهذه المواهب محبه وحاسده، وقال عنه الحيمي: «إمام أدب بلا لبس، وذو جواد مطلق بلا حبس، ومن أنكر فضله فقد أنكر الشمس، كم أبرز من غادة رود، وافتض من بكر خرود، وأدرك فضيلتي المنظوم والمنثور».

وقال بعد أن وصمه بسرقة المعاني:

«على أنه عندي للاستراق غير محتاج، فإنه أهل لأن تفتح فكرته ببديع الإنتاج» وقال عنه الشوكاني: «ووصفه بسرقة الأشعار هو أجل قدراً من ذلك، فإنه مقتدر على أن يأتي بما يريد».

قلت وما نسب إليه من سرقة للمعاني والأفكار الشعرية، هو سبيل مسلوك عند كثير من أتباع المدرسة البديعية، وخاصة أتباع المدرسة المتأخرة وقد تقفلت أو كادت في وجوههم ميادين المعاني والابتكار، على أن شهادة الحيمي في معاصره الكوكباني شهادة لا تقبل، فهو أحد منافسيه في جانب من جوانب المدرسة البديعية التي أخذ بها.

نعم قد يتهمه الحيمي باللحن في مواضع من كتابه (طوق الصادح) ويقول: «أصلحت في كتابه «الطوق الصادح» لحناً واضحاً لا يعزب على المبتدىء في النحو بقراءة «الملحة وغيرها».

قلنا هذا أيضاً شيء يسير، قد يقع فيه الإنسان سهواً وغفلة.

على أن شعره الذي توفر على جمعه في ديوان أسماه (محاسن يوسف)، هو من الشعر الذي لا يرقى إليه سوى النخبة الجيدة من أدباء العصر، هو يتميز بجودة السبك، وحتى قال عنه الأديب الشامي محمد أمين المجي المتوفى سنة ١١١١: «شعره مثل طبعه مصقول».

وقد أوردنا فيما سبق شيئاً من روضياته، فهو من المكثرين فيها.

والآن نذكر ما عن لنا من شعره وهو متفرق في بطون الكتب والسفن الأدبية، وديوانه المذكور سابقاً ليس بأيدينا الآن لننقل منه ما شئنا، فقد أورد له صاحب (نشر العرف) نخبة من شعره لا بأس بها.

وهو في شعره الربيعي يتفنن في وصف الأشياء الطبيعية من زهور وورود ونارنج وأقحوان إلى غير ذلك ويحشدها في شعره لتجسد شيئاً من شعره الروضي الذي أراده.

أنظر إليه في حمينيته الشهيرة وهو يأتي بأشياء مما قلناه : ـ

والـروض زاه زاهـر — خضر مـلابسـه مـزبـرج
حسن النـظارة قـد كسى — حللاً من الأزهـار تنسج
والقضب غنـاهـا الحـما — م فهـزهـا طـربـاً وأزعـج
وكـأنمـا الـنـارنـج في — أغصـانـه جمـر تـأجـج
أو لا فـكـالأكـر الـتي — من عسجد والريح فيها صولج .
ومجـامـر الأتـرج قـد — فـاحت بعرف قـد توهـج
والأقـحـوان كـأنـه — حبب السلافة حـين تمزج
أو شـبـه دينار غـدا — ملقى عـلى ثـغـر مفلج
والـطير أنـشـد فـأمـن — الأوراق مـا أنشا وانسـج
واحمـر خـد الـورد من — خجـل وعـذر بـالبنفسـج
وكـأن زنـبـقـنـا كـؤو — س من لجـين لم يبهـرج

وفي شعره يبدو واضحاً أثر الربيع بزهوره وورده حتى على غزله، ومن يتغزل فيه كقوله في هذه الجناسية :

أنـا مـغـرىً بـحـبـهـا — وهي مـا عشت نـزهتي
إن أشـا النـرجس النـدى — تـقـل هـاك مـقـلتي
أو شـقـيقـاً بـه البـهـا — ر تـقـل ذاك وجـنـتي
أو أقـاحـاً تـقـل كفى — مـبسـمي ذا الـتعـنـت
أو قـضـيـبـاً تـقـل — بـقـدي إذ رأى غـنـيـتي
هـجـت لي بـلابـلاً — إذ غـدت وهـي روضتي
قـدهـا تحت تـاجهـا — ألـف تحـت همـزة
مقتلي مـقـلتي الـتي — لحـظهـا داء مـهـجـتي
نـظرتهـا لمـحـنـتي — في الهـوى وهـي محنتي
أنـا في حسنهـا الـذي — وهـي في فـتـنـتي الـتي

(الخ) . . .

ولما كان أديبنا أحد شعراء المدرسة البديعية في عصره، كان لا بد أن يكثر من أساليب تلك المدرسة كقوله: ـ

كم قد روى للورى أني قتلت به ... وفي رواية (مكحول) إبانات
للورد منه (استعارات) مرشحة ... بالقطر أيضاً ولي منه «استعارات»
من حوله (عارض) بالدمع ممطرنا ... من أعين للهوى فيه أمارات

وفي التضمين: ـ

دنت سحراً بالجزع من مغرم له ... «عفاف وإقدام وحزم ونائل»
فغارت نجوم الأفق من شمس وجهها ... «وقال الدجا للصبح لونك حائل»
وقد أرسلت ستر الخفاء ومن لها ... «بإخفاء شمس ضوؤها متكامل»

وكان الكوكباني، من الأدباء الذين أعجبوا بشعر أنفسهم، وهو لا يفتأ ينظم العديد من القصائد حول فنه ويقول في بعضها: ـ

ما مثل نظمي يستجاد فإن ... ينشد فالشهب إصغاء وإنصات
قد أودع ألفاظه فله ... أن يمل في عقد الألباب نفثات
تظمى الرواة إلى إنشاده فلها ... إلى تحفظ ما ملته رعشات
قضى بسبقي إذ أمشي على نجب ... لهم ورائي إلى الغايات وثبات
أفاضل قصروا عني وقد صرت ... عن وجد تحليقهم في الفضل غايات

(الخ)..

ولم يبق أمامنا من شعره سوى تلك المقاطع البديعية والجناسية التي يحلو لصديقه الحيمي مناقشته حولها في كتبه، منها قوله فيما يعرف عندهم (بإيهام التأكيد):

يا من اطلعت حبهم مخالفا معنفي
الله في محافظ على الولا وفي وفى

ويقول:

وبديع الصوت له صدح ... في الدوح يثير به الحرقا

أبــدى منا فــرقاً فــرقــا غصناً لـدْنــاً ورقـاً ورقَــا

وقوله :

لله غــزال واصــلني سحــراً فملت بــه جــذلا
وأبــان عــواذلــه فــجــلا كــربــاً مني وجــلا وجــلا

وقوله :

مــا بــال حبــك تعجمــه إن بــث هــواك وتهــمــلــه
فــارحمــه وصله فــإن لــه بــك فرط وجوى ولـه ولـه

وقوله :

إذا لم يكن يــا غصن وصل فــإنني سـأقنع بــالأوراق منـك عـلى كمـد
فقـد فقـد الـطرف القـريـح منـامـه وقـد وهن القلب الجريـح وقد وقـد

وقوله في «القول بالموجب» :

لمــا رأوا مــا مــسـني لـلوجــد من داء الجـنــون
قــالــوا لقــد عبثت بــك السوداء قلت من العـيــون

وقوله :

قـالوا استعـرت عـلى فـراق معـذبي صبــراً ولي نفس إلـيــه ظــامـيــة
فــأتى إليّ وقــال لي مـتـعـنـتـاً قــالـوا استعـرت فقلت نـار حـامية

وقوله :

قـالـوا وقــد رمت التجلد عندمــا حجبــوه مـن عيـني وعــز وصــول
أتــذوب عشقــاً إن بــدا خدٌّ لــه تــرف فـقلت لهـم نـعـم وأسـيــل

إلى غير ذلك .

جحاف

من أساطين الشعر في هذا العصر، الأديب الكبير يحيى بن إبراهيم بن علي ابن إبراهيم جحاف الحبوري.

وقد تميز بالسهولة والرقَّة في شعره، ولما دخل الأديب الدمشقي عبد الرحمن الذهبي إلى صنعاء سنة ١١٠٧ وصفه بقوله:

«أبلغ من رأيت بقطر اليمن، وأفصح من تزيَّن بأشعاره حلة الزمن، كأنما أوقف الله البلاغة على نظامه، وفصّل الفصاحة ثوباً ألبسه محاسن كلامه؛ تكاد تقطر الرقة من خلال أبياته، كأنها إذا قرئت متلوة ما بين لهواته، شعر حسن بلا تكلف، وسرعة في النظم ليس لها توقف، تسري معانيه في النفوس، ويظهر لوقتها فيها ظهور الراح والكئوس، مع ابتكار معاني جديدة، وإدراك مرام بعيدة، إلى ما حوى من سعة إطلاع على شعر كثير من الناس، حتى كاد أن يفوق بمعرفة ذلك أبا نواس، رتبة ليست لغيره من شعراء الزمان، وسليقة يكاد ألاّ تدخل تحت دائرة الإمكان أخذ في كل فن من فنون النظم الغاية، وبلغ بحسن تنميقه نهاية النهاية، إن جال في المديح، لم يدع معنىً من معاني التمليح و التلميح وإن جال في الغزل، اقتعد غيره واعتزل، وإن شبب بالمعاني، هامت عند سماعه الغواني بالمغاني»[1] إلخ.

---

(١) الذهبي نفحات الأسرار (خ) عن نشر العرف ج٢ ص ٨٠٢

وقد توزعت حياة الشاعر بين حبور وصنعاء وريمة . . وربما اعتراه شيء من الذهول وذلك (لفرط رقة تمكنت من قلبه)[1] فيهيم من التفكير في الجبال والسهول، فتارة في مدينة (حبور) وحيناً بصنعاء، وأخرى بضوران أو كسمة أو ريمة، ومرة بجبلة وغيرها.

وقد شاهد مجلسه بصنعاء، وحوله الأدباء من كل جانب الرحالة الذهبي فقال: «رأيته بصنعاء والفضل في إهابه، تحفّه دارة أحبابه، وأصحابه، تتزين به المجالس، ويتحف باللطائف المصاحب والمؤانس، يذاكر في الأشعار، بما يجاوز حد الإكثار، ويروي من غرائب الأخبار، ما لم تجده في كثير من الأسفار، كثير الاستحضار، لإيرادات المناسبات بديع الاختراع لطرائف النكت والمداعبات».

ومع ذلك فلم تكن حياته كلها مذاكرات وأدب وإنما اعتراها ما شاب صفوها وبهجتها، فقد حدثنا كتاب ترجمته، أنه لما تم الأمر للمهدي صاحب (المواهب) حبسه في القاهرة من تعز ثم أفرج عنه. وله في سجنه هذا مقاطع أدبية جيِّدة منها هذه الحمينية وقد دخل عليه العيد وهو في السجن[2]:

ما رأيت في الوفا يا عيد الإفطار مثلك
لا وله أحد في حسن الأخلاق فعلك
فلهذا اشتهر في الشرق والغرب فضلك
أضحت الراية البيضاء في الخافقين لك

جئت إلى (القاهرة) يا سيد الأعياد زائر
وهو موضع دارت عليه الدوائر
ليس يمضي عليه من شدة الخوف طائر
النسيم العليل إن هب فيه كاد يهلك

بيت

---

(١) نفحات العنبر «خ».
(٢) ديوانه «خ»

كـيـف بـالله عـلـيـك زرتـني كـيـف
فـإني بمـكـان لا يبلغه سـاري الـطيف
كم وكم فيـه من بنـدق وكـم فيـه من سيـف
شـنـيـتـان مـا تجـد ريح الصبا فيـه مسلك

بيت

غـير أني أقـول يـا عـيـد أهـلاً وسـهـلا
لـيـت شعـري وليت ما تنفع الصَّب أصلا
هـل دريـت أني نـاء عـن الأهـل أم لا؟
شـمـلهـم أشـتـهـي جمـعـه وشـمـلي وشـمـلك

وفي آخر حياته تعرض للحاجة والمسغبة وقد ذكر عنه صاحب (نفحات العنبر) أنه «جهل قدره في أمره فكان ضيق العيش».

وبلغت به الحاجة إلى أن يستعين بشعره لقضائها ونسمعه يبعث إلى أحدهم يستحثه في إرسال (قدح) من الطعام يقول:

فمتى يأتي الرسول حامل فـوق ظـهـره قـدح
والعرق فوق جبهته سائل و«الـكـور» قـد نفـخ
غـير أني لِـذَا وَذَا قابـل فـهـو رايـة فـرح
حبـذا شم إبـطه المنتـن والـعـرق في الجـبـين

وفي مثل هذه الحاجة يقول لأحدهم

يـا عـمـاد الـسـخـا أنـت فقيه عـالم عـامـل فـدونـك فـتـيـا
وهـي أني فـارقـت أهـلي فـعـيـني لا تـذوق الكـرى فتحظى بـرؤيـا
قـد جـفـاني المـنـام فـلـم يسر إلـيـه لـيـلاً مـع الـنـدم يـعـيـا
رش جـنـاحي حـتى أطـير إليـهـم وتـدارك أشـجـار أمـري سقـيـا

وفي شعره يكثر التصريح بمطالبه مما دَلَّ على تلك الحاجة التي كانت تلاحقه

كل حين وآن. بل يبدو لي أنه لقي عَنتاً من أهله، وأنه كانت له خالة تفضل غيره عليه، وأن أحد إخوته هضمه في ميراث أبيه:

يا خالتي (دره) عليك السلام ورحمة الله ما بقينا
قابلتي «العِزِّي» بغير احتشام واحنا كذلك قابلينا
هذا حلال عندك وهذا حرام ماذا رأيتِ في أخينا
برأس سيدك زيد خير الأنام استعملي الإنصاف فينا

بيت

يا دولتاه يابا شتاه من أخي سليل إبراهيم محمد
أحاط بميراثي الذي من أبي واستحصله والعين تشهد
وصرت مما خلَّفه أجنبي مدامعي تجري على الخد
يا خالتي (دره) نريد القِسَام لما ورثنا من أبينا

وكانت وفاته سنة ١١١٧.

* شعره

وصف بالسهولة والرقة فهو له «في الأدب طريقة لم تسلك في سهولة الألفاظ وصحة المعاني»(١).

ويقول عنه الحيمي: «أقسم بالله أن كل طائف من الأدباء حول بيته لطائف»(٢) وقد بهر معاصريه بذلك الإنسجام واللطافة في معانيه، وقد برز في شتى فنون الأدب المعروفة في زمنه، من نثر وشعر وحميني وفصيح.... ففي الحميني، جمع له أحد معاصريه ديواناً ضم نخبة من الشعر الغزلي الرقيق، وهو صاحب الحمينية الشهيرة التي يقول فيها: ـ

الشوق أعياني يا قرة الأعيان
والبين أوطاني مواطىء الأشجان

(١) نفحات العنبر «خ».
(٢) طيب السمر «خ».

فـدمـع أجـفـاني من فـرقتـك ألـوان
أحـنى بـاوجـاني كـالـدر والمـرجـان

وفي شعره الحميني تبرز خواطره المحلية وحاجاته الذاتية، وقد عرفنا منه أنه مولع بأكل القات، وله فيه مقاطع جميلة حاول فيه نقل أسلوب شعراء الخمريات في وصف الخمر إلى القات، ولعله صاحب أول محاولة لأديب يمني في هذا المجال، انظر إليه وقد سلك طريقة من سبقه من شعراء الخمر في وصف الكأس والساقي لينقل ذلك إلى غصون القات:

الـقـات فيـه لـذات يـا صـاحـبي شـهـيـه
فـهـات لي هـات أغصـان زبـرجـديـه
أوراقـهـن رايـات لـلأنس سـنـدسـيـه
بهـا مـن المـسـرات جـيـوش مـعـنـويـه

بيت

لا شيء كمثل أغـصـان من كف ظبـى أهيـف
يحـمي زهـور الأوجـان مـن نـاظـره بمـرهـف
بـاهي الصفات والـذات والـطلعـة الـبـهـيـه

بيت

أهيف يـكـاد يـعـقـد خـصـره من الـلطافـه
إذا مشي تـأود كـشـارب الـسـلافـه
مـتى انـثـنى تـفـرد بـالحسن والـتحـافـه
فمـه يفـوق كـاسـات مـن خمـر بـابـليـه

بيت

مـالي وشـرب القهـوة[1] مـن المـدام يـا صـاح
الـقـات فـيـه نـشـوه ليست تكـون في الـراح

(١) الخمر.

تعـطي النفـوس سلوه لا تـنـتـهـي وأفـراح
كـم قـد أتت بـآيـات غـصـونـه الـنـديـه

بيت

قـد صـار لـلمـسـره كـالسلك لـلجـواهـر
حـيـاة كـل حـضـره وروح كـل خـاطـر
خصـره حـوى ونـظره تسر كـل نـاظـر
لـيهـن كـل من بـات عـنـده مـن الـبـريـه

ففي هذه المقاطع يشيد بأمر القات، ويجعله وسيلة للأنس والمسرة، كما هو الحال في الخمر، وقد صاحبه ظبي باهي الطلعة يعاطيه أوراق القات.

* شعره الإجتماعي

ويجرنا حديثه عن القات إلى الأنماط الإجتماعية التي عالجها شعره، وهي كثيرة ومتنوعة، حفل بها ديوانه، وخالف فيها تقاليد من سبقه من الشعراء الذين اعتادوا الحديث عن أنماط معينة من الحياة والناس.... ولهذا وصف فنَّه الأديب الدمشقي الذهبي القادم إلى اليمن بقوله: (بديع الاختراع لطرائف النكت والمداعبات).

فهو في اختراعاته مجدد ومؤرخ للحياة الاجتماعية التي عاشها في مواطنه المتعددة، كصنعاء، وحبور، وريمة... ولعله سلك في شعره الاجتماعي نمطاً متداخلاً من الذكريات والحنين إلى الوطن... فجاء ما يشبه الشعر الاجتماعي الذي نجد فيه من الحصيلة الاجتماعية الشيء الكثير.

انظر إليه يتذكر أيامه الماضية التي قضاها في صنعاء وتشوقه إليها، فإذا به يؤرخ لحياته العادية في تلك البلاد.... يقول في حمينية:

لـيت مـن عـاد طعـم ذا الـوقت لحـمـة سـمـيـنـه
وطـعـم مـن طـعـام مـثـل اللآلي الـثـمـيـنـة
وارتـشـف بـالـشـفـاه قـهـوة مـليـحـة رزيـنـة

وسكن وهو خالي البال بتلك المدينة

بيت

ليت من قام من نومه توضَّأ وصلَّى
ثم جاءت إليه في الحال بيضاً وكحلا
حاملة لحم في مقلا محوَّج مدلاَّ
من عمل جارية خضرا قوية أمينة

بيت

واكتحل من كحل قد دقَّته دق ناعم
ولوى في أعالي الرأس شب العمايم
لي محكم يسر الناظرين وهو قايم
والتحف بالوقار في مشيته والسكينة

بيت

ليت من عاد قدر يجلس قليل عند خيَّاط
بعد أن طاف بالأسواق جميع سبعة أشواط
ومضى من زقاق (الغول) في دور الأوساط
وتأمل الدور فيها منيعة حصينة

ثم تمضي أمنياته في تحسر متواصل على أيامه الماضية التي مرت عليه في صنعاء، فهو يتمنى مأكولاته المفضلة التي أكلها بتلك المدينة من لحم وقهوة ولحوح، إلى غير ذلك، ثم يعرج على حياته العادية هناك من القيام مبكراً لصلاة الصبح، والتجول في الأسواق والتنزه بها إلى أن يدركه التعب فيستريح برهة عند خياط صديق له، يذاكره بمسائل الأدب والعلم، ففي هذه الأبيات على بساطتها نجده قد أبان عن الحياة العادية التي يعيشها رجل المدينة في القرن الحادي عشر.

وفي شعره الاجتماعي تتلاحق اللهفة على مأكولات صنعاء الشهية، وهو يتذوقها ويميزها بحذق مختبر بها، اسمعه يداعب أحدهم بقوله:

أصبح القلب يا حسن مشغوف باللحوح والنشوق
وكبيْبات من طلى معلوف بثلاثة حروف

ويرحل إلى بلد آخر فيكتب إلى ولده يقول:

إن حصّل «ذمول» فمرحباً والقليل مقبول
صحبة الرسول كان الدعا مني ومنه مبذول
ساعة القبول للكل ذا الأمر غاية السول

بيت

نشتهي قليل من «المقصقص» فارسلوا بزنبيل
عرَّف الكحيل في كل مقلة ساجمة بلا ميل
يزرع الجميل لا زال في ليل الهموم قنديل
من عمل حلب منقوش باللازورد والذهب مكوكب

وهذه (زبيد) المدينة الشهيرة، قد ساءت عنده لفقد السمن بها:

ما لزبيد أضحت نفسها عن نفسها بعد الرضا ساخطه
فبعضها يلعن بعضاً كما روى لسان الحال في «مالطه»
والسمن قد صار على خيرها سمناً ولكن نونه ساقطة
وما أراها يا أمير العلا مخطئة كلا ولا غالطه

فسعادته هنا بوجود الأكل ووفرته، ولكن هذا في شعره فقط، وإلاّ فإن شاعرنا ضعيف الشهية لا يكاد يأتي على شيء من المأكول، وقد ولع بالقات فزاده سقماً على سقم، وهو يلح على أصدقائه لمواصلته بتلك الأوراق السحرية:

عندي غصن ناعم يشا أغصان ناعمة يا حسن
لا تعجب فإنه نشا في نعمة بأرض اليمن

بيت

فالقات عندهم لم يزل طور الدهر قوت النفوس
إنه للمدامة بَدَل واستخبر جميع الرؤوس

بيت

أرســل منــه ربــطة تـعيــد لـلأشيب منه زمــان الشبـاب
يكفيـك أن صـار في البـديـد في وجـه إلـيـك الخـطاب

فهو كثير الشغف بالقات وربما فضله على أكله المعتاد.

وفي شعر جحاف تتجلى قضايا اجتماعية كثيرة من ذلك موضوع المرأة وهو جانب تطرقه الشاعر من زاويته الاجتماعية والأدبية.

وقد فرح مع المرأة بحليها وزينتها، وتغزل بها في كثير من شعره. اسمعه يورد طائفة منها على لسان إمرأة من صنعـاء:

أين لآلي كزهر الروض بالرأس محيطة فوق طرة شعر كالسين فوق «القشيطة»
أين قفاطين من أطلس مشجر مزهر فوق أحقاق من الكافور تختم بعنبـر
أين «صونة» شاش أحمر حلا عليها طلاوه ولها وقت ما تبعـد من الجيد حـلاوه
أين أيدي بها أفراد من النقش وأزواج نقش مجموع من الأطياب والعفص والزاج
أين قمصـان من كتان مصبـغ بفـوه نـاعمة تجـذب الأشواق إليهـا بقـوة
أين أين أرجل عليها «أحجال» مثل الأهلة كنونان ذهب قد ذاب بخط ابن مقلة
أين «بشـامق» لـون المشـوق المتيَّم أو كلون الشفق يرويه بالإسناد عن دم

ويحشر هذه الحلى في غزله فيقول:

سـبـت مـهـجـتي صبيـة كـحيـلة محجَّبـة
بعصبـة عـلى الجبـهـة مـليـحـة مـكـوكبـة
لـوت (مـقـرمـه) مـرشـوش حمـراء مقصبـة

بيت

ومـا أحـسـن الـعـيـون إذا مـا رَخَـت قـليـل
إلى أن يـبـان الـدر في جـيـدهـا الـطويـل
وتـظهـر (مـشـاقـر) قَـبَّـلت خَـدَّهـا الأسـيـل
فـيـا طـول شـوقـي مـن مـشـاقـر مـطيـبـة

... إلى آخرها

وربما أعجب بنقش مزينة (شارعة) على يد مليحة فقال معبِّراً عن ذلك :

للنقش في الأيدي على أيادي   بيض حكت في الحسن وجه سعاد
أترى الملاح الغانيات مزجنة   بسواد عيني أو سواد فؤادي
مدت سعاد إليّ يوم وداعها   كفاً تريد بمده إسعادي
مدَّت يداً مسبوكة من فضة   بيضا ملكها الغرام قيادي
شبهتها بعمود نور ساطع   أو مثل « » أهلة الأعياد

إلى أن يقول :

لله شارعة أتت بشريعة   خفيت على الأرواح والأجساد
قدحررت باللازوردعجائباً   وغرائباً جلت عن التعداد

ويعود لشأن المرأة في موضوع آخر ونسمعه ينعي على شباب عصره الانصراف عنها وترك الزواج ، فيقول في هذه الحمينية الساخرة مشيراً إلى كثرتهن ورخص مهورهن :

الكورجة منهن تسوى ثلاث   أربع بقش في كل بندر
سعر الملاح منهن سعر الكراث   وإن رأته العين أخضر

بيت

تسوى المرة يا صاح في ذا   الزمان خمسة دوارس لا زياده
فخذ بذلك سبعاً والاثمان   نسا على حسب الإرادة

بيت

حبايل الشيطان في كل بيت   ما للرجال فيهنّ حاجه
بالله قل لي هل سمعت أو رأيت   إنساناً مشغولاً بالزّواجه

بيت

فهات لي واحداً من الناس   يقول إنه يريد زوجة مليحه
فعاد معاهم يا ابن ودي عقول   من ذاك يرغب في رديحة

بيت

ثم يتحسر على أيامه التي قضاها في غزله بهن :

يا ضَيْعة الدهر الذي مر لي   وأنا ببحر الحب أسبح
مر الزمان وأنا شجي في خلي   أخسر معه والشوق ما اربح

بيت

ما ذلك المعنى الذي كان يلوح   لي في وجوه البيض والسود
فمن تزوج بالنشوف واللحوح   فما عليه في ذاك منقود

بيت

سماع سماع يا ناس إن النساء   ما للرجال فيهن رغبه
قد كان قلبي في الصباح والمساء   يخوض في بحر المحبه

وللمرأة في شعره حديث طويل سنعود اليه عند حديثنا عن غزله :

حنينه إلى الوطن

والظاهرة الخاصة التي تميز بها شاعرنا هو كثرة شغفه بالوطن ، والتغني به في شعره ونثره ، وهو يحن إليه وهو فيه لم يغادره وإنما يرحل من مدينة إلى أخرى ، فيتشوق إلى هذي ويحن إلى تلك : . . . فعندما يكون في صنعاء يحن إلى (حبور) أو العكس وهو الذي يقول في رسالة نثرية :

إنما المقصد الحسن   أبداً رؤية الوطن
واجتماعي بمن به   وبقلبي الشجى سكن
وطني حيث لم يكن   لي في غيره شجن
إنه برء ساعة   من أذى البث والحزن
وهو قوت القلوب إن   عافت الزبد واللبن
كلما عن ذكره   حن قلبي هوىً وأن

وهو يحن إلى وطنه ويجعل سبب فراقه له صروف الدهر :

فيـا وطني إن فـاتني بـك سـابق ... من الـدهر فلينعم بسـاكنك البـال
وإن استطـع في الحشر آتيـك زائراً ... وهيهـات لي يـوم القيـامـة أشغـال
(فيـا دارهـا بـالخيـف إن مـزارهـا قـريب ولكن دون ذلك أهـوال
ولا منعتني عن بـلادي سـلاسـل ... ولا ثبَّطتني عن مـرادي أغـلال
ولكن هـذا الدهـر جارت صـروفه ... وصـارت له من دون ذلـك أعمال
فهـذا المعـري الـذي مـا تـطفلت ... عـلى ثمـرات الـود منه أطفـال
شكـا وبكى مثلي وقـال مقالـة ... بهـا حِكَمٌ مثـل النجـوم وأمثـال
(متى سـألت بغـداد عني وأهلهـا ... فـإني عن أهـل العـواصم سـال)
(ومـاء بلادي كـان أنجع مشـرباً ... ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال)

إنها غاية اللوعة والحنين إلى الوطن وهو لم يشغل عنه حتى وهـو في هول المحشر وضجيج الناس إلى ملاقاة أعمالهم.

ونسمعه حتى في شعره الحميني يلهج بحب الأوطان ويتشوق إلى مدارجه الأولى في (حبور) فيقول :

(حبور) قد طـال البعاد (يـا حبور) ... مـاذا الـذي بـينـك وبـيـني
تـعـرضت بـيني وبـيـنـك أمـور ... مـن الـزمـان أسـهـرت عـيـني
فـيـا حبـور الله يـتـم الـسـرور ... لمـن قـرا شـعـري الحـمـيـني

ويحث أهله وأصحابه على تهيئة مكانه بها فيقول في أخرى :

«قصصوا» لي المكان يا أهل البيت ... هـا أنـا قـد نـويـت
ليتني مـا رحلت عـنكـم ليـت ... لـو يـفـيـد قـول لـيـت
كـلما غنـت الحـمـام غـنـيـت ... أو تـبـاكـت تـبـاكـيـت
بيّضي يـا فـلانـة (الـديـوان) ... لـلـمـعَـنَّى فـلان

نعم ربما حن إلى بعض البلاد لأسباب اقتضاها مدحه ، فهو عندما يمدح أحدهم وهو (بضوران) يتطرق إلى ذكر هذه البلدة فيقول :

جنيت أزاهير الرياض جميعها كأنك في جمع الشقائق نعمان
وكل مكان لم يكن فيه محسن مسيء ولو ان الحصى فيه عقيان
إذا شمخت صنعا على كل موضع فما كل مرعى يا أخا الشوق سعدان
أتذكر أيّاماً لنا ولياليا (بضوران) حيث الوقت روح وريحان
فكم ليلة قد أزلفت لنزيلها ومالكها عند التأمل رضوان
أحن إلى (ضوران) في كل ليلة ويوم ولكن أين مني (ضوران)
وكيف يراه ذو الهوى وبينه دليل إلى تلك المعاهد (جهران)
ووالله ما (ضوران) إلا كمقلة وأنت لها يا ذا المكارم إنسان

فقد جعل الحديث عن (ضوران) وشوقه إليها مدخلاً إلى شوقه إلى ممدوحه . . وربما لم يكن للبلدان من شعره نصيب سوى ذكر أسمائها فقط وكل شوقه وحنينه إلى من يسكن بها :

حذار من سفح (جبله) فالحب فيها جبله
كم فتنة في رباها للغانيات مضلّه
وكم بها عقل خل زاك أصابته عقله
لا يعرف الشوق فيها لمهجة قط مهلة
يأتي الفؤاد التصابي فيها على حين غفلة

فجبلة ليس لها من كل ذلك الوصف شيء، سوى أن بها غانيات يسلبن ذا العقل لبه ، ومع ذلك فإن للشاعر لوعة صادقة لوطنه وهو لا يفتأ يكررها في شعره ونثره ، ونجده يكتب رسالة طويلة في هذا الموضوع أوردها صاحب (نشر العرف) .

مذهبه الفني

لجحاف أدب فني رفيع أعجب أهل عصره ، ووصفوه بالرقة والسهولة وقد حمل أدبه شيئاً من طبيعته وعفويته التي عرف بها وأثرت في نفسيته ، حتى وصف بما يشبه الجنون ، فهو كثير القلق كثير الحركة لا يكاد يستقر على شيء نفور

أحياناً ، ألوف أحياناً كثيرة . . وقد ترك كل هذا طوابعه في إنتاجه الأدبي . . وصبغ به ، حتى وصفه بعضهم بالتجديد[1] لمخالفته عادات من سبقه .

ومع ذلك فهو يتغزل ويمدح ويصف كما هي العادة عند غيره إلاّ أنه يأتي في بعضها بأشياء من طبيعته . . . نستطيع أن نقول عنها إنها من عند نفسه وهي التجديد بعينه كما سيأتي فيما بعد ، وهو نفسه معجب بأدبه كما أعجب به معاصروه ، ويطلق على نفسه (العماد الكاتب) ، وشتان بينه وبين هذا ، فالعماد معروف بالتكلف والتصنع وبخلافه صاحبنا، ومع ذلك أراد أن يطلق على نفسه هذا الاسم، ونجده يقول في رسالة مخاطباً بها أحدهم ومعجباً بنفسه وأدبه :

(فليطالع ما للعماد الكاتب من التشبيب ، وليبحث عن الدواوين بما له من الغزل والنسيب، فكم خاطب الأقمار والشموس، وأدار عليها كؤوساً تميل عليها الرؤوس وتطمئن معها القلوب والنفوس) .

ويصرح بمثل هذا الإعجاب في شعره فيقول :

ليس تدري رواة نظمي أسحراً قلته في الملاح أم قلت شعرا

وتلك عادة قديمة جرى عليها الشعراء منذ امرىء القيس وما بعده . . . ولكن شاعرنا يريد أن يبهر معاصريه بأساليب الشعراء في وقته ، فنجده يسلك طرقهم في التواري والجناس وسائر أنواع البديع . . يقول فيما عرف عندهم بالاستخدام :

وقبلة من ذهب رصعت بجوهر تحكى نجوم السما
بين يدي نجواي قدمتها فنلتها من خد عذب اللمى
بها توصلت إليها وقد أوردتها في النظم (مستخدما)

وفي التورية مع بالاستخدام :

أما ترى البارق من كاظمة شوق نفس للهوى كاظمة
يبدي انسجام الدمع من مقلتي عيناً لمن في سفحها ساجمة

إن التي قد أرضعت مهجتي   دار التصابي أصبحت (فاطمة)

وله في (التورية)

وهيفاء سامتني بهجرانها وقد   تثنت من (السوسي) في غير ملبوسي
وقالت مرادي أن أسوسك حين لم   تصرح بملبوسي فقلت لها (سوسي)

وكثيراً ما ضمن أبيات الشعراء واقتبس من آيات القرآن وكان هذا غالباً عليه :

لمهجتي من ثمار اللهو (ما كسبت)   من حاجر وعليها مثلما (اكتسبت)

وهو ربما ضمن معاني من قبله من الشعراء كما مَرَّ بنا في تضمينه لمعاني المعري في إحدى قصائده ولاطلاعه الواسع نجده يستشهد بمصطلحات العلوم في الفقه والحديث والنحو أنظر إليه في ذلك قوله :

حديثاً حوى (سنداً عاليا)   سواي له قط لا يفهم

ودل اطلاعه أيضاً على تذوق لقصائد الشعر العربي ومعارضة أمهات القصايد فيه كقوله في معارضة قصيدة أبي نواس :

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره
سحر الألباب في سحره   طائر غنى على شجره
ما درى ما دار في خلدي   من حديث الشوق في فكره
لم يشقه شادن عتب   طيبات البان من حوره
كيف أبكي وهو مبتسم   كابتسام الروض من مطره
قمر في التم ليس له   أبداً ليل سوى شعره

ويعجب كثيراً بالأوزان الخفيفة ذات الجرس الموسيقي المميز كقوله من مجزوء الرجز :

لمهجتي ما كسبت   من الهوى واكتسبت
كم أهلت وسهلت   بشوقها ورحبت

فــلا يــلمسهــا لايــم ... بـحـاجــر إن شـبـبـت
أو رعـيـت في ســنــدس ... لــروضــة ورغــبــت

وقوله من مجزوء الكامل :

قــمــريــة لمــا اطــمــأنــت ... في فــرعـهــا العــالي تـغـنـت
مـن لحن مـعبـد والـغــريض ... بـصـوتهــا الملـحــون أغنـت
أبـدت جــوى وأسى ولم ... أر عـينهـا بـالـدمـع شـنت
عــجـبــاً لهــا أنَّـتْ وقـد ... خـضبـت يـداً منهـا وحَنَّـت
حــقــاً أقــول لــو انها ... مـنيـت بفـقـد الألـف جـنـت

وله في ثالثة من السريع :

أحـبـتي بــالـسـفـح مــن رامـه ... مــا لي أرى سهــل اللقــا ممتنــع
يــا جـيــرة إن رمــت سـلوانهم ... يــومــاً مــن الأيــام لم أسـتـطع
أمــا ســمــعــتــم أنــه لم يــزل ... يــطن حــبــي لــكــم إن قــرع
تــذكــروا عــبـداً اذا غــردت ... حمـامــة بــات لهــا مـسـتـمـع
لم يستمـع وصفـاً ســوى وصفكم ... فهــل أتــاكم أنــه (قــد سمـع)
(فـكــاتـبــوه) إن عـلمـتــم بــه ... خيــراً عـلى مــال لكم قـد دفـع
وهــو ألــوف الــعــهــد والمــيــثــاق والمــمــلوك هــذا ورع
تــداركــوه واعــلمــوا أنــه ... بـغـيــركـم في دهــره قــد ولــع
عــبــداً إذا قــالــت لــه مـرة ... ريــح الـصبــا اتـبـعــني تـبـع
فــآنــســوه فـهــو مــســتـوحش ... لكــونــه بــالبعــد منكم فـجـع

إلى أن يقول فيها:

أشــكــو إلى الله زمــانــاً إذا ... ســألــتــه قــربــكــم لم يــطع
ويحـك يــا دهــر أمــا تـنـتـهـي ... من قــطع أسبـابي أمــا تــرتـدع
يــا دهــر رفـقـاً بشـيـخ مغـرم ... لم يــك في صـبـوتـه مـبـتـدع
مـطلبــه سـهــل فــماذا الــذي ... فـيــه من أحـبــابـه قــد طمـع
يــقــنــع بــالــوهــم فـلو زاره ... مـقنَّـعــاً في الـنــوم ليــلاً قـنـع

وفيها :

إني أرى الكون على طوله وعرضه للوصل لم يتسع
لا دمعتي ترقا ولا زفرتي تخبو ولا حبل النوى ينقطع

وله من هذه الأوزان الخفيفة الشيء الكثير وربما برع فيها أكثر في شعره الحميني الذي تناقله الملحنون والمغنون .

*** غزله**

وفي الغزل كان صاحب مدرسة رائدة دعت إلى التجديد في هذا الفن ، وترك الأنماط المكررة عند الشعراء وذلك من خلال معالجاته الطريفة العجيبة في هذا الجانب :

فهو يعجب بجمال المرأة الطبيعي بعيداً عن الحلى والقلائد :

لقد كفاه مبسمه من عقد لؤلؤ نظيم
سبحان من سلَّمه من مثل لبس الحريم
لبس الحرير يؤلمه كيف الوشاح و(البريم)
لم يلبس المرتعش ولا سموط اللآلي

بيت

ولا قلادة ولا لبَّه ولا طوق ذهب
وليس يحتاج إلى أوصال ملاح العذب
فله ذوائب على الخدين يصلن الركب
الواحدة كالحنش على اليمين والشمال

بيت

بالحلى لا تشغليه يا (شارعة) والحلل
خليه وما يشتهيه ما شاء يفعل فعل
والنقش لا تنقشيه فهو سريع الملل

مـن ذاك قـبـلك نـقش بـلازورد الهـلال

وفي حمينيته هذه نجده يتغزل بالحبشيات مخالفاً من سبقه :

كـأن ظـبـي الحـبش في وجـنـة الحـسـن خـال
لبس ثياب، « الـبـشش » مـطرزة بـالجـمـال

بيت

سـلمـه الله بـالـورش دالات دل جـنـب دال
مـنـمـنـمـة بـالـلقش مـكـوكـبـة بـالـدلال

وبقدر ما ولع الشعراء بالمرأة المنعّمة حليفة الحرير والديباج نجده قد تغزل بالمرأة الطاهية وقد انخرطت في عمل بيتها من عجن وخبز:

أصبحت في الآصـال والأسحـار مغـري الفؤاد بصنعـة الأسحـار
وصنعتُ (طلسـماً) و(وفقـا) إن أرد بهـما الـطيـور أتت من الأوكـار
وسحـرت كـل مليحـة محمـودة إلا يـراد في « الـتـنـور» والأصـدار
بيضـا في الـزرقـاء تكتم نفسهـا خـوف الدخـان ولات حين حـذار
فكأنها قمـر الـدجنـة حـال عن إدراكـه غـيـم رقـيـق طـاري
تخـفى وتـظهـر فـهي في أفنـانـه تهـوى مـع الإخفـاء والإظهـار
مـثـل الغـزالـة مـقلة لـكـن إذا حمي الـوطيس فكالهزبر الضـاري
مـدت أصـابـع كـاليـراع لـطافـة ورشـاقـة لهجت بشكـر البـاري
ألقت إلى حمراء ساطعة بها أبداً يداً بيضاء ذات سوار
ثم أرسلت تلك اليـديـن وأردفت فـيـه يمـيـنـاً غـضـة بـيـسـار
خضبت أنـاملهـا وأبـدت سـاعـداً فـظفـرت بـالعنَّـاب والجمّـار
في جنـة الفردوس قـد نشأت بـلا شـك ولا تخشى ورود الـنـار
فـكـأنها والـنـار محـدقـة بهـا تخـتـال في الجـنَّـات والأنهار
لـبـسـت قـمـيـصـاً سـاريـاً فـوقفت أعجب من جمـال السـار
إنّي بـعـين بصيـرتي أبصـرتهـا فمقـامهـا يخفى عـلى الأبصـار

إنه جمع فنّي جميل بين رقة المرأة ومشقة العمل، وقد مدَّت يديها الناعمتين مقتحمة النار لتخرج من بينها خبزاً نضيجاً.

وكان للشاعر طريقته الخاصة في الأشياء وربما سلك أسلوباً جديداً سنّه لنفسه في التعبير عمّا يحسه من جمال في الحياة والناس، اسمعه وهو يتغزّل في راقصة مغنّية:

افعلي العود يا فلانة — في يمينك وفي شمالك
واتركي هذه البنانه — واطلعي الثانية كذلك
وتغني بدان دانه — وافعلي ما خطر ببالك
وأمانة عليك أمانة — زيّني بالجمال جمالك

بيت

قد رأيناك حين قمت — ترقصي خيرة نساء الكل
تتركي كلما رقصت — كُمْ يطلع وكُمْ ينزل
أنت شادن كحيل وأنت — غصن بانة وأنت بلبل
ناح من فوق غصن بانة — وفعل بالقلوب فعالك

بيت

قلت وقد سكنت — في الفؤاد المشوق جَنَّه
كل ساعة وحين أنت — آمنةً فيه مطمئنه
وافعلي فيه ما أردتِ — أنت نعمة وأنت منه
قد ملكتيه يا فلانة — فاصنعي ما يليق بحالك

بيت

واعلمي أن فيه غرفة — رائقة اسمها السويدا
وهي تحفة وأي تحفه — ليس تصلح لكل غيدا
فادخليها بغير كلفه — وافتحي بابها رويدا
إن في مهجتي خزانه — مثلها ما خطر ببالك

وهكذا يكون أسلوبه في الغزل ليخرج به عن غيره من شعراء التقليد والتكلف . . نعم قد يكون في شعره الفصيح أكثر التزاماً بقواعدهم لكن نَفَسَه الخاص يظل مسيطراً عليه . فهو يتغزل ويصف المرأة بما اعتادوا أن يصفوها به من جمال وفتنة :

فيا بروحي هَيْفاء القوام لها ... وجه بديع الشمس إشراقا
يا برق أوسعتني من أفق كاظمة ... حيث الأحبة إرعاداً وإبراقا
علا زفيري وفاضت أدمعي كمداً ... ولست أرهب إحراقاً وإغراقا
لما تبرج من أهوى بزينته ... لاقى الفؤاد المعنَّي ما لاقى
وكلما خفق القرط المليح على ... تلك السوالف أمسى القلب خفاقا
لله حجل على الساقين منك غدا ... لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقا
خصر الحبيب عليل حين عانقني ... كأنه رق لي فاعتل إشفاقا
يا باكياً عهد مضناه وموثقه ... هَلَّا رعيت له عهداً وميثاقا
جوارحي كلها من بعد بعدكم ... قد استحالت تباريحاً وأشواقاً

بل ربما جعل مثل هذا الغزل مدخلاً إلى من يمدحهم كما فعل الأقدمون ولكنه يأتي من بعض غزلياته بتشابيه ومقايسات عجيبة :

للعين ذوق مثل ذوق اللسان ... تدرك ما تدركه بالعيان
يجلو لها الإحسان والحسن من ... سلمى وسعدى وجمع الحسان
كم ذاقت العناب غضاً على ... شرط التصابي من خضيب البنان
وكم وكم قد لثمت وجنة ... حمراء فيها وردة كالدهان
وطال ما قد رشفت ريقه ... من مبسم عذب نظيم الجمان
والأذن مثل العين تهوى كما ... رواه (بشار) بديع الزمان
تفهم ألحان القماري على ... أغصانها الخضر بلا ترجمان
تلهج بالحسن ولو أنه ... في السند أو في الهند أو في عمان

ويكثر من غزله بالحلي كالأقراط وغيرها فيقول في عراض قصيدة أبي العلاء المعري :

أشـاقتك أقـراط لـطاف وأفـلال ... تراقصن من حول الجبـين وتختال
وهاجك من سعدى سوار ودملج ... وحجل حكى شكل الهلال وخلخال
فـما لـك والحـلي المليـح مكــانـة ... فأهل الهوى عن عرضك اليوم قد نالوا
فقد كدّر المعنى الذي كان لائحاً ... لهم في فنون الحلية القيـل والقال
من الحـلي نمـام ومنــه كـما روى ... أُهيل الهوى العذري وشاة وعذال
فلا تذكر القرط الذي كان خافقاً ... عـلى وجنة حمراء قد زانها خـال

وظاهرة الغزل بالحلي في شعر شاعرنا بارزة المعالم ، فهو لا يفتأ يكررها في أكثر شعره ومع ذلك ربما خالف عادته تلك ودعا إلى الجمال الطبيعي المجرد عن الملابس والحلي ، كما مَرّ بنا في قطعته الحمينية السابقة .

ومن الغزل عنده ما صدر عن حب حقيقي تعرض له فقد حدثونا عنه أنه لما طلق زوجته ميمونة بنت زيد ، ندم عليها ندماً عظيماً فقال مصوراً فراقه لها :

دعيني أقـاسي حسـرتي وتنــدمي ... وأنت اسلمي يا قرة العين وانعمي
خـذي في أفانـين التنعم واتركي ... محباً رضى بـالبؤس بعــد التنعم
سـألتك بـالعهد القـديم توجعي ... لمـا بي من ظلم النـوى وتـظلمي
ولا تســأليني عن هـواي فــإنني ... إذا شئت شكوى حالتي خانني فمي
إذا طلعت شمس النهــار فـإنها ... أمــارة تسليمي عليـك فسلمي
لقد صرت من هذا التفرق منشداً ... لنــظم بــديــع محكم متـقــدم
(ومـا كنت في تركيـك إلا كتارك ... يقينـاً وراض بعـدهـا بـالتـوهم)
وإلا كمن يحـوي مفـاتيـح جنـة ... ويقـرع بـالتـطفيـل بـاب جهنم
وقــدّ بعـد الخلد في الأرض آدم ... فمن شـاء فليعـذر فـإني ابن آدم
معاهد أنسي في «حبور» تشخصي ... لعيني على شرط الهـوى وتجسمي
فكم من حديث لي هنالك مسند ... صحيح على شرط (البخاري) ومسلم
أأسلو هوى ميمونة الوجه بعد أن ... ثوى حبها في اللحم والعظم والدم
ســلام عليهـا كـل يــوم وليلة ... ســلام مشــوق مستهــام متيـم
ألا بـأبي من بت أنشـد بعــدهـا ... فـراق ومن فـارقت غــير مـذمم

ولما غدت عطراً لمن شم أصبحت   يـد البين تلقي بيننـا عـطر منشم
فيا مقلتي لا تتركي الدمع سـاعة   وإياك في جنح الدجى أن تهومي

فمثل هذا الغزل نلمس فيه صدق الأحاسيس من لـوعة وحنـين ، وقد انعكس على نفسية الشاعر فهو يناشد حبيبته أن تتذكره عنـد طلوع الشمس ويتذكر أيامه في (حبور) ويتمنى أن تعود لعينيه مرة أخرى .

وكان للغزل مكانة كبيرة عند شاعرنا وقد ضمنه أغلب قصائده إن لم يكن كلها .

*** إخوانياته**

شـاعرنـا من النوع الاجتمـاعي الذي يتـأثر كثيـراً بمجـالسـة الإخـوان ومنـادمتهم ، وقد حفت بـه هالـة من أدباء صنعـاء وغيرهـا ، يأخـذون منه ويساجلهم الأشعار. وقد حمل شعره الكثير من آثار تلك المجالس ، وهو شاعر يجعل من التقرب إلى الإخوان بالشعر والمساجلة به معهم أقدم من التقرب إليهم بالمدح والتزلف . . كما هي العادة عند كثير من الشعراء، ولهذا نجده قد قلل مـن المدح . وعوضه عنه بتلك الإخوانيات الإجتماعية الطريفة .

ففي إخوانية هزلية نجده يهجو جماعة من أصدقائه وقد تأخر عنهم فوجدهم قد التهموا العشاء ولم يتركوا له شيئاً :

لم يـبق خـبــز ولا لحـم ولا مــرق   ألـوت بـه فتيـة في مهجتي مـرقـوا
لا سيـما فتيـة قــد كنت أنشـدهم   ثـلاثة مـارقي النيـران حيث رقـوا
فــإنهم أكلوا لحم الـدجـاج بــلا   مضغ على الـرغـم مني وما اختنقـوا
والــرز أكـلـهـم لـلرز لـيـتـهــم   غصـوا بـه أبـداً أو ليتهم شـرقــوا
كم قــد تمثلت والأجفان بــاكيــة   (ليت الأحبـة لا كانـو ولا خلقوا)
ولست أنسى ابن عمي حين مَدّ يداً   مفتـولـة وهـو في الأخـرى ،المنطلق
و«العيزري» فقيه . الـدهـر واحـده   من استنـارت به في السنـة الـطرق
اذا رأى لحــم طـير أو تخـيّـلـه   تحمــر منـه إذا خــاطبتـه الحــدق

و«الـديلمي» وما أدراك يـا ابن أبي ... مـا الـديلمي فسـائـل من بـه تثق

إلى أن يقول :

نعم نعم «والحصارى» لست أخرجه ... من بينهم فهـو ذئب مغضب حنـق
فـما لـه لا جـزى خير الجـزاء أتى ... بعصبة ليس يلوى نحـوهـا العنـق
وكـان لـو تـرك الأبـواب مغلقـة ... فيهم ومن حـولها الأقفـال والغلق
حقاً لقـد ركبـوا من ظلمهم طبقاً ... من فـوقـه طبق من تحتـه طبـق
أين (الفتوت) الذي قد فتنوا كبدي ... لمـا استبـدوا بـه ظلماً وما رفقـوا
إذا تـذكرت مبيض «الشفـوت» غدا ... مجـرى دمـي عـلى الخـدين يستبق
كم (قهـوة) قـد عـدمنـاهـا معتقـة ... لله مـصـطـبـح مـنـا ومـغتـبـق
كـأننـا في صـلاة الخـوف ليس لنـا ... رداً وأعـداؤنا في الفتـك قد قصـدوا

إلى آخر هذه الإخوانية الساخرة ، وهو يصور إخوانه وقد انهمكوا في الأكل وتركوه طاوي الحشا ؛ وكثيراً من هذه الإخوانيات قد حملت طابع المدح الذي تميز بها شاعرنا وهي تلك التي تبعد عن التكلف والتصنع . . . ففي بعضها نجده يرثي هرّاً مات عند أحدهم .

وفي أخرى يطلب (مقلا) وهو إناء يصنع غالباً من الحجر يحمى ويقلى عليه الخبز بعد أن يفت فيه . . . وقد حوى على ما حوى من لذائذ الأطعمة :

يقول فيها . وكنا قد أتينا على أولها في وصف المرأة الطاهية :

يـا سيـد الســادات غـير مـدافـع ... قـد صـار في ســاحـات دارك دار
حق الجـــوار عليــك حـق واجب ... فــالله قــد أوصى بــحــق الجـــار
لي مـطلب سهل عليـك فـلا تكن ... تبني الـــرجـاء عـــلى شفــير هــار
لاطف وباسط من عملت وأرش من ... وجبت صيـــانتــه عـليــك وداري
وتـذكـر إن حـل الغـريب فجفنـه ... قـد لازم الـدمــع الغزير الجاري
شـوقاً إلى المقـلا الـذي حـركـاتـه ... خفيت عـــلى الأسماع والأبصـــار
فـــذرعتـــه بـــالشبـر أربعـــة فكم ... عـــرفت مساحـــة ذاتـه أفكـــاري
العـرض مثـل الـطول إن قـايسته ... يـــومـــاً بـــشـــبـــر وافيَ المـــقـــدار

وأعيـذ مجـدك أن تـردد معلنـاً بينا سرى مسرى النسيم الساري
والشـرق مثل الغـرب أقرب خـطة من دون تلك الخمسـة الأشبـار
لـو يعرض المقـلا «الفتـوت» بملئـه ذهـبـاً رأيت سـمـاحتي بـنـظار
في مثله أهـب الألـوف مصعـراً خـدي عـلى الآحـاد والأعشـار
آه عـلى تـلك الـكعـوب فـإنها من غـير جـرم حـرّقت بـالنـار
بـأبي وبي مـا اشتهيـه فـإنـه مـثـل الـنهـود وراء كـل زرار
من لم يكـن يـدرى بـأشبـاه لهـا فليلمـنن كـواعـب الأبـكـار
فمتى خضيب الكف يخضب(حلبة) بـالخـل قبـل تـبلج الأسـحـار
وعليـه سمن يشبـه العـطر الـذي اشتملت عليـه جـونـة العـطار
هـذا الـذي أهـواه لا سلمى ولا سعـدى فليس اللَّهو مـن أوطـار
مـالي وحب الغـانيـات فكم وكم ضيّعت في أوصـافهن أشعـاري
أفنيت عمـري في محـادثـة الـدمى وشـغـلت لـيـلي بالهوى ونهاري
أفٍّ لأيـام مـضـت في حـاجـر حيث الهـوى واللهـو من أنصـاري

إنه في هذه الإخوانية يتوسل إلى أحد أصدقائه أن يهب له مقلا ،ونجده يصف شكله وذرعه وأنه أغلى عنده من ملئـه ذهباً ، ثم يتخيله وقـد تكدس بأصناف الأطعمة المخصصة لمثل هذا النوع من الآنية وهو(الفتوت) الذي هو خبز ممزوج بسمن ، ثم يتحسر على تحريق هذا الطلب العزيز بالنار ويتساءل متى خضيب الكف يقوم بخضب الحلبة ليأكل عليها وجبته المفضلة تلك .

وأخيراً يصرح لصاحبه أن هذا الذي يهواه حقيقة لا سعاد ولا سلمى وأن ملء المعدة أهم عنده من الهوى وأوهامه .

وقد أعجبت هذه الطريقة كثيراً من شعراء ذلك الوقت ، فأجاب شاعرنا على هذه المقطوعة الأديب محسن بن المتوكل إسماعيل المتوفى سنة ١١٢٤ ، وكان صاحب الطلب المعنى :

شـرفـتـني بمـوايـد الأشـعـار ولـطـائـف الخـبـاز والجـزار
وطبخت لي في قدر طرسك قطعـة غـليت عـلى نـار مـن الأفـكـار

وصفت لنا المقلا الفتوت وأدرجت   وصف المليحة والقميص الساري

. . . إلى آخر ما جاء فيها . . .

علي بن صالح بن أبي الرجال
شاعر البؤس

نحن الآن أمام نوع فريد من الشعراء الذين عرفهم هذا العصر، وقد تميز بأسلوب خاص في شعره وموضوعاته.

ذلك هو الأديب علي بن صالح بن محمد بن علي بن أبي الرجال الأديب الناثر، والشاعر الساخر، وقد عاش في بيئة علمية، وله أخوة كلهم علماء وشعراء.

وكانت نشأته في صنعاء وتردد إلى (ضوران) مرات كثيرة واتصل بجماعة من أئمة عصره فحظي عندهم بمكانة، وربما ساءه الحظ فانعكس ذلك في شعره، ووقع بينه وبين الإمام المهدي صاحب (المواهب) نزاع فتسلط عليه وخرّب داره، وكذلك الوزير محسن الحبيشي.

ويبدو أنه سجن، وقد جاء في ديوانه أنه بعث وهو في السجن إلى أحد أمراء عصره[1]:

قل للعماد ومن صبا ... شوقاً إلى ظلمي وهش
والله ما لي حيلة ... في ابن أخي لما طرش
ولو علمت أنه ... يوجد في أرض الحبش
حاولت في خروجه ... لو كان في جحر الحنش

---

(١) ديوانه «خ».

وكان سجنه بسبب ابن أخيه حسن بن محمد بن صالح بن أبي الرجال، لأمر لا ندري ما هو. ويحدثنا في شعره أنه تعرض للمصادرة والحبس فيقول في خطابه إلى أحدهم:

ويشكـو إلى علياك من فعـل أحمق ... أغـم القفـا والـوجـه ليس بـأنـزعـا
تعمـد هتكـي دون غـيري لأجلكـم ... وأدهق لي كـاس الهـوان وأجـرعـا
وأخـلصني مـالاً عـددت مئينـه ... ثـلاثـاً وعشـرين واثنتـين وأربعـا
وها أنا قـد أصبحت كالـظبي مفرداً ... وربعي من الخيـرات والمال بلقعـا
كـأني لم أخـرج من الحبس فـالتفت ... إلي بجهـد الجـود والبـر مسـرعـا
وعجل بإطلاقي من الحبس بالنـدى ... وكن خير مَلْكٍ جاد بـل ساد أو رعـا

وقد عمر طـويلاً وأدركه الحيمي وهو لا يزال يعيش فقال في ترجمته:

«وهو الآن موجود لكنه مع كبره في العدم معدود يمشي على ثلاث بعد أن مرت عليه الشبيبة كأضغاث، أكل عليـه الدهـر وشرب، وبعـد أجله فليس بمقترب. فهو بادي اللواطف، محني القامة شاحب المعاطف»(١).

وكانت وفاته سنة ١١٣٥.

وهو ممن أعجب بصنعاء ورباها فهو يقول عنها:

في آزال بـلغـت كـل الأمـاني ... في أمـان من حـادثـات الـزمـان
وجـرى طـرف منـطقي بمعـان ... في مـغـان تميس فيـه الغـواني
كـل معنى أرق من ريـح نجـد ... إن تمـشـت بـليـله الأردان
وبـروحي أفـدي بـدورا بـدور ... سـافـرات في القصر والبستـان
ولهـاً دَلّني عـلى حتف روحي ... وهـواهـا قـد صح منـه هـواني
تسلب اللبَّ إن أشـارت إلينـا ... ببيـانٍ عـذب وحمـر بـنـان
صـاح دعني من الغـرام فـإني ... لست ثـان إلى المـلاح عـنـاني
وأدر لي ذكـر (الجراف) و(صنعا ... ء) وربـا (حـدة) وتلك المبـاني

---

(١) طيب السمر «خ»

ويقول مشيراً إلى بعض حاراتها:

سقى (الفليحي) مع (البستان) في (العلمي) وجادها وابل من عارم عمم
وقابلتها نجوم السعد مشرقة من المنازل بالخيرات والنعم
وباكرتها نسيم الريح مهدية لبهجة عرفها يشفي من الألم

فدل هذا على حبه لمدينته صنعاء.

* شاعر البؤس

الظاهرة العامة التي تميز بها شعره هو أنه شاعر البؤس والحرمان. الذي لا يفتأ يردده في كل شعره، وقد حوى ديوانه الذي يزيد على ستمائة صفحة أنماطاً متنوعة من ذلك البؤس وقد صوره المؤلف بشتى الصور، حتى حق له أن يطلق عليه شاعر البؤس، فهو حامل للوائه في أدبنا اليمني.

وقد أشار إلى بؤسه وحاله مع أمراء عصره معاصره الأديب الحيمي فقال:

«هو ممن خانه الزمن... فرأيته لما سلك به الزمان أقبح سلوك، يلتزم أبواب لصوص يزعمون أنهم جوادهم مكدود، وظلهم قالص غير ممدود، لا يحسنون إلاَّ في طريق الجور سلوكاً، قطاع طريق صَاروا في ظنهم ملوكاً، ففي هذا الزمن قد فات وجود رئيس يخلص من الآفات ويرشد للسداد.... شاهدته وهو لديهم مجهول القدر، قد عاملوه معاملة الكلف للبدر، فكم غص منهم بالريق، ورجع عنهم أيْأس من غريق»[1].

تلك حالة أديبنا مع مرءوسيه بؤس وفاقة وحرمان، فصور كل ذلك في شعره ليخرج لنا صوراً إنسانية مؤثرة.

ولعل سر ولوع شاعرنا بتصوير حاله، هو أنه لم ينظر إلى الشعر لذاته وإنما جعله وسيلة للحصول على أغراضه وحاجاته، وهذا هو الفرق بينه وبين غيره، من شعراء العصر فهو يكثر من مدحه للأئمة، كلما عنت له حاجة، أو بدا له

---

(١) الحيمي: طيب السمر «خ»

مطلب، ولهذا السبب كثر شعره في المديح، حتى أناف على شعر أكثر مشاهير العصر من الذين ولعوا بالمديح، وحتى قال عنه الحيمي:

«أدبه لدى ممدوحيه رخيص السعر مع تكثيره لمدح من يستحق الذم، وما أحسن الشعر إذا لم يبتذل، وما أعز صاحبه إذا لم يكن بالأطماع قد ذل».

ومن هذا المنطلق كثر سخطه وشكوى حاله على من لم يقدر ذلك فهو لا يفتأ يردد على مسامع ممدوحيه فقره وبؤسه، فيقول مذكراً ممدوحه بالفقر، وإقبال العيد، وكثرة الديون، إلى غير ذلك:

أشكو إليك احتياجاً لست أحصره ... ولا يعبر عنه عندكم قلمي
والعيد أقبل والأحوال قاصرة ... ولست أملك غير الدر من كلمي
والدين قد زاد في همي وفي سهري ... وطار نومي من الإقلال والعدم

ويقول:

أيا إنسان عين المجد حقا ... ويا عين الوجود من الأنام
أتيت إليك أشكو جور همٍّ ... نفى عن مقلتي طيب المنام
لأني إن رأيت الشمس غابت ... عِشاءً أو توارت في ركام
أقصقص عضل أنيابي لبرد ... حكى وقع المبارد في عظامي
وأصبح مثل واو العطف فوقي ... من الأسمال شيء كالجهام
فأدرك من شكا هَمّاً وبرداً ... وجور مشقة بعد الجمام
وأنقذه فكم أنقذت روحاً ... بجود يديك من أيدي الحمام

ويغيب ممدوحه عن مدينته فيبعث إليه رسالة يذكره بحاله:

أنت كالشمس للبرية تضحى ... نورها ساطع بكل مكان
غير أنّا لّما ارتحلت غدونا ... بين تلك الربوع كالعميان
وعلي بن صالح لو تراه ... يوم جد الرحيل كالحيران
وهو شيخ كما عرفت كبير ... ما له عن هواك في الناس ثاني
رجب إذ أتاه شعبان يسعى ... جاء يشكو عليك من رمضان

فأغثه يا ذا الندى وأعنه   بقضا الخطوط والحمران

ويقول:

يا صفوة الله أدركْ شاكياً عبثت   أيدي الزمان بما يحوي من المال
وقد غدا ولنا من راحتيك غذا   مكالف وبنيَّات وأطفال
وليس يطلب من شخص سواك إذا   جار الزمان وشح الناس بالمال

ويتفنن الشاعر في تصوير بؤسه، ويذكِّر ممدوحيه بكثرة أولاده وقد تحلقوا حوله يطلبون ما يسد رمقهم:

إذا غضب الإله على فقيه   بلاه بالبنين وبالبنات

وعندما طلبت الدولة معونة من الناس في الجهاد بعث شاعرنا إلى الإمام ليعفيه من هذا الطلب مذكِّرا له بحاله البائس النكد ومن يعوله:

فلا تطلبونا في الجهاد دراهما   ونحن عن المال الجزيل بمعزل
ولم يلق منكم خدمة مثل غيرنا   فندفع جور الكاذب المتقوِّل
ولم يبق منا غير طفل ومكلف   وشيخ ضعيف كالأسير المكبل
وبعض رسوم من بيوت دوارس   وهل عند رسم دارس من معوَّل

ويذكرهم بشيخوخته وكبر سنه فيقول:

وانظر إليّ بعينين لو نظرتهما   إلى الجهام همى في الحال بالمطر
وقد كفاني شفيعاً شيب ناصيتي   وما ألاقيه من ضعف ومن كبر
ستّ وسبعون لو مرت على حجر   لبان تأثيرها في صفحة الحجر

وربما جمع بين الحديث عن شيخوخته وبيته المتهدم فقال:

وعطفاً يا أمين الله عطفاً   على شيخ بمهجته التهاب
أضرّ بحاله عجز وشيب   وإقتار وفارقه الشباب
له دار كبير في آزال   قديم العهد أخربه السَّحاب

وهذا البيت الذي لا يفتأ يردده في شعره تخيفه السيول وتؤذن بزواله:

بسعدك قد همت من فوق صنعا ... دموع المعصرات بغير شك
وقد ضحكت ثغور الروض فيها ... وبيتي عند ذلك صار يبكي
فسكنّ روعتي ودموع بيتي ... بجود لم يكن فيه تلكّي
ولا تعتب على المملوك فيما ... جناه من التوجع والتشكي

ويقول:

لقد عم صنعا عارض متهلل ... من السحب هَطّال الدموع سكوب
وأصبح داري خائفاً متخشعاً ... له هزة في سطحه ووجيب
وشاهدته من رحمة الله جاثماً ... على الأرض خوفاً والخطوب تنوب
فما قال شخص عند عثرته لعا ... ولا زاره بعد السجود حبيب
فأنت الذي يرجى لتشييد ركنه ... وحاشاك أن الظن فيك يخيب

هذا بيته وحاله مع الأمطار.

ثم نجده يعود إلى بيته في أبيات كثيرة يصور في بعضها قدمه واندثاره:

مولاي لي بيت قديم البنا ... بناه سام قبل كل القصور
يعرف ذي القرنين من حمير ... ويعرف النمرود رب النسور
عاصره غمدان في عصره ... وعرش بلقيس بتلك الدهور
خمسة آلاف له قد مضت ... إن عدت الأعوام غير الكسور
وإن لي سبعين عاماً به ... ثاوٍ على التحقيق غير الشهور
والدهر يبلي كل ذي جدة ... من غير شك والليالي تدور
وقد تداعت بعض حيطانه ... وأعلنت سكانه بالثبور

ومع فقره وبؤسه تكثر حاجته ومطالبه فيدبج في أشياء حقيرة الجيد من شعره..

انظر إليه يطلب خيلا:

مولاي خيلك عمت كل طائفة ... نجيبة لم يكن فيها الهراويل
وفاز بالخيل قوم لم تطيق على ... نطق الكلام تشكت منهم الخيل

والعبد يعتادها غَرًّا محجَّلة   في عز آبائك الغر البهاليل
فامنن به من جياد الخيل منتخباً   ولا يكن أملي ظن وتخييل
تسابق الريح في البيدا فيسبقها   وتشتكي إن سعى منه الهراكيل

ويطلب شالا موعوداً به فيقول:

يا عين أهل الجود في عصرنا   لا زلت للأعيان يَعْسوبا
وعدتني وعداً بشال فلا   أكون في وعدك مكذوبا
فامنن بشال سوف تكسى به   ثوباً من السندس في طوبى

ويقول في نفس الطلب

مولاي إن ألحفت في «لحفة»   وخضت في الشعر إليها البحور
فلا تلمني واغتفر زَلَّتي   لا زلت ملكاً للخطايا غفور
فلحفتي شال ولكنه   كان لنوح في قديم العصور
ينبيك عن كسرى وأشياعه   وعن مليك الفرس بهرام جور
يكاد للضعف وطل البقا   تحرقه الأنظار عند النشور

ويعود إلى طلبه فيقول:

مولاي إن الدهر قد ضرني   وبعت ما أملكه من قماش
بيع بلاش ثم وافيتكم   عساك تحبوني بمقلوب لاش

وتأتي العيد فيحتاج إلى ملبوس جديد فيبعث إلى ممدوحه يقول:

وعيد في ذرى علياك عيد   وعيد سواك طالعه وعيد
وقد لبس الجديد به رجال   أعانتهم على الدنيا جدود
وفوقي فيه اسمال رقاق   يرق لمهجتي فيها الجليد
تزيد المرء ذا الضعة اتِّضاعاً   وتأنف من رثاثتها اليهود
ولكني سألقاه بصبر   وأظهر أنه عيد حميد
وألبس صبح يوم العيد بيتي   وأغلقه إذا اجتمع الوفود
فجد لي بالذي أحتاج فيه   فودّي فيكم ودٌّ أكيد

وفي العيد تدركه الحاجة إلى الأضحية فيكتب إلى ممدوحه:

أمـا والمشربـات من الضحـايـا تحث السـير في (قـاع الحبـاب)
تخـوض البـر قـاصـدة لصنعـا كخوض الحوت أمـواج الحباب
وتحكي الحـوت في شحم ولحم وتشبـه فـعـله في الاضـطراب
تخـال شحـومهـا لمّـا تهـادت تكـاد تـزل من تحت الإهـاب
نـعـد لهـا قـدوراً راسـيـات وتـلقى في جـفـان كـالجـوابي
تسـد الأفق إن طلعت صبـاحـاً ومـرت في الفضا مـر السحاب
لقـد أصبحت أنـظرهـا بعـين تشاهـد شحمها خلف الحجاب
ولي قلب لفـرط الشـوق أضحى لـلقيـاهـا شـديـد الالـتهـاب
ولـكـني حـليف الـعسر صلت كـمـثـل المـشـرفي بـلا قـراب

فيوعده ممدوحه بطلبه، ولكنه يتأخر في الوفاء فيكتب إليه شاعرنا:

يـا فـخـر ديـن الله في عـصـرنـا والـعـين في أعيـان بـاب الإمـام
قـد انـقضى الـوعـد كـما قـلتم وليس بعـد الـوعـد إلا الـتمـام
فـامنن بمـا يطفـي لـظا مهـجتي من جـودك الجم وفـضـل الإمـام
فـهـذه الأطـلا قـد أصبـحـت للعيـد في صنعـاء مثـل الغـمـام
وإن خـير الـبـر تـعـجـيـله في سـاعـة العسرة يـا ابن الكـرام

ويدخل سوق صنعاء فيرى الناس مزدحمين حول الكباش «الأطلا» وليس بيده ما يشتري به فيكتب إلى صاحبه يقول:

يا نجل من وجبت في الناس طاعته ومن بـه رسـل الـرحمن قـد ختمـوا
إن المشقـة لا يسـتـطيـع يحملهـا إلا امـرؤ زانـه الإحسـان والكـرم
وأنت أفضـل قـرم قـد تحـملهـا (لـولا المشقـة سـاد النـاس كلهم)
واليـوم هـذا رأيت النـاس قـاطبـة في سوق صنعاء على «الأطلا» تزدحم
والكف صفـر ونـار الهم قـد طفقت يـا ابن الأئمة في الأحشـاء تضـطرم
وليس يـطفي لظاهـا يا ابن فـاطمـة إلاَّ نـوالـك والأخـلاق والـشيم

وتكثر طلباته وحاجاته، وهي كثيرة ومتنوعة حفل بها ديوانه الضخم، لعل

من أعجبها هذا الطلب وشروطه الغريبة فيه:

لـذي القـرنـين وجـدٌ أي وجـد ... إلى الـظلمـات إن جـن الـظلام
فكم من ليلة قـد بـات فيهـا ... فـريـداً قـد أضَـرَّ بـه الـقيـام
وفي عـين الحيـاة شفـاه لـكن ... جـعلت فـداك قـد عـز المـرام
فهـل من عـودة لـلدهـر تشفي ... كئـيـبـاً لا يـنـيـم ولا يـنـام
ويحـظى من بني (سـام) بحسنـا ... لهـا في جفن نـاظـرهـا حـسـام
وإلا طـفـلة مـن آل حـام ... يغـار لقـدهـا الـغصن البشـام
لهـا ردف يمـوج إذا تـثـنـت ... ثـقـيـل لـيس يـعـدلـه شـمـام
ويكشف ثـوبها عن صحن (كس) ... صقيـل كـالـطحـال لـه سنـام
تخـال بـجـوفـه كـانـون نـار ... شـديـد الإلـتـهـاب لـه ضـرام
أزيـد صبـابـة وتـزيـد ضيقـاً ... مـسـالكـه إذا اشـتـد الـزحـام
ويفـرغ فيـه ذو القـرنـين قـطرا ... عـلى الـصـدفـين حتى لا تـرام
فـهـذا مـنـيـتي وشـفـاء نـفسي ... وطـيـب الـعيش فيـه والـسـلام

إن الحاجة تلاحقه وتدفعه إلى التشكي وندب حاله. وقد شكا نقص معاشه فقال:

قـل للحسـام رمى الإلـه عـدوه ... بـإضـافـة الـرئبـال أو وقب الحنش
قـد حم شيخ الشعـر من نقصـانـه ... في دفـتر (المصروف) منكم وارتعش
حـاشـاكم يـا سـادتي أن تنـظروا ... يـومـاً إلى عَـدّ الحروف ولا «البقش»

ويذكر ممدوحه في هذه المقطوعة بضآلة العملة وعدم جدواها فيقول:

بـل انـظروا في ضـربـة كـادت بـأن ... تجـري النسيم بهـا إلى أرض الحبش
وكـأنما العشـرون منهـا قـرشـة ... من جلد مجـدور تقلّص فـاقـتـرش
فعـلام نقص مهـذب مـا جَـدَّ في ... طلب الحـطام مع اللئـام ولا بـطش

وهو كلما بدأت له حاجة ضاق بها وهرع إلى الله يسأله الموت والفناء:

أيـا عـالمـاً بـالسر والجـهـر إنني ... أطلت الـدعا والـدهر بـالناس قلّب

وحبك في قلبي مدى الدهر ثابت   وعلمك أدنى من وتيني وأقرب
وجودك عند الظن من كل مؤمن   وحاشاك إن الظن فيك يخيِّب
ولكن أرى باب الإجابة مرتجى   فأين من المشتاق عنقاء مغرب
فإن لم تجد لي بالأماني ولم تجب   دعائي فجد بالموت فالموت أطيب
ولا تجعل التكفير للذنب فاقة   وهوناً به نفس العزيز تعذب

وتمنى عدم وجوده بأسلوب آخر فقال:

ألا ليت جدي عند مولد والدي   خصاه فجب الخصيتين مع الذكر
فلم أك موجوداً ولا كنت مذنباً   ولا كان لي فوق البسيطة من أثر

وفي صنعاء يظل بائساً معدماً:

وسرت إلى أزال وليس عندي   سوى رزق أدق من الخلال

فيرحل من هنا إلى هناك لعله يظفر ببغيته، فتارة في (ضوران)، وأخرى في (جهران)، وثالثة في (بعدان)، كل ذلك وهو في ملاحقة مع الممدوحين ينتزع منهم الحسنة قسراً.... أنظر إليه في هذا الحوار مع زوجته وقد تأهب للرحلة عن صنعاء:

وقائلة أتتركنا بصنعاء   وتعزم عند منبلج الصباح
ونحن كما ترى في شر حال   فجد لي بالطلاق وبالسراح
فقلت لها وفي الأحشاء نار   وقد طال التنازع والتلاحي
ثقي بالله ليس له شريك   ومن عند الخليفة بالنجاح

وهذه الرحلة تدفعه إليها أسباب كثيرة يجمعها شاعرنا في هذه المقطوعة:

وإليك أشكو فعل دهر جائر   أجنى على جدثي وحط الكلكلا
وعظيم دين للرجال حملته   قد أنقض الظهر الضعيف وأثقلا
وتناهت الأسعار حتى أوجبت   شرعاً على المملوك أن يترجلا
فرحلت رحلة حائر متوكل   قد جد في طلب المعاش وأجملا

فلا يكاد يصل إلى ممدوحه حتى يلقي عليه هذا المدح الذي هو أشبه بالترجي:

يا محسناً ملكه جوده ومجده العالي رقاب الرجال
صن ماء وجهي يا رضيع الندى من وصمة العار وذل السؤال
بنفحة تدفع عن خاطري خواطر الهم وجور الليال

ولكنه يصدم بَبَخيل شحيح لا يكاد يجيبه على سؤاله وترجيه حتى يبلغ اليَأس في نفس شاعرنا مبلغه..... ولهذا كثر في شعره وصف ممدوحيه بالبخل والشح المفرط ونجده يبعث إلى أخيه العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال مؤلف مطلع البدور بقصيدة يشرح فيها رأيه في ملوك عصره وأمرائه فيقول:

ودهر ملَّك الجهال ملكاً عظيماً بالرمال وبالجبال
وهم والله أقوى الناس بخلا وأردى من أحال على المحال
تساوى الدر والحصبا لديهم لجهل لا لزهد في اللآلي
أباد الله دولتهم وأضحت أيادي القوم ترمي بالخبال
ومزق ملكهم في كل أرض بأنواع النكاية والنكال
وأبدلهم بمخمصة وفقر على مر الشهور مع الليالي

وبلغ به الأمر أن يدعو عليهم بالويل والثبور ويقول مخاطبا أحدهم وقد احتجب عنه:

تـه واحتجب عنا فلا عجب وكف كفك عن قبض التعاريف
فإنه كف لؤم لم تمد به يوم القتال إلى رمح ولا سيف
ولا تناولت في الماضي بها قلماً للنهي عن منكرٍ أو فعل معروف
فالله يقطعه من تحت معصمه ليأمن الناس من جور وتخويف

وكان أكبر ما ساءه في ملوك عصره هو مطلهم وتسويفهم، فهم يوعدون بالجائزة ولا يكادون ينفذونها.. وقد دبَّج شاعرنا المقاطع الكثيرة في استنجاز

ما وعدوا به. . انظر إلى قوله لأحدهم وقد وعده بجائزة بعد الفراغ من الصلاة فيمضي عليها شهر ولم يف بها.

صلتي إلى بعـد الصـلاة وعـدتني قـد رحت أرقبهـا إلى وقت الـدجى
فتأخـرت شهـراً ووعـدك صـادق مثـل الصبـاح إذا بـدا وتبلجـا
والآن قـد أدلجـت في طـلبي لهـا ولـطال مـا نـال المنى من أدلجـا

ويطلب من أحدهم قشراً (قشر البن) وطعاماً فيضع علامة على الطعام ويمحي القشر فيقول شاعرنا:

ضيـاء الهـدى دمت في نعمـة تـشيـد المعـالي وتـولي النعم
أرى قلـم الجـود لمـا جـرى فـطبق كـل النـواحي وعـم
ولـكنـه سـوء حـظي وقـد رضيـت مـن الله فيـما قـسم
ففي محـو قشـري جـرى حبـره وعنـد العـلامـة جَفَّ القـلم

. . . وهكذا يكثر شعره في هذا القبيل. . حتى نجد فيه ما يشبه المعاتبة لمن مدحهم في عدم النظر إليه وندب حظه معهم ونسمعه يقول:

كم نـال غيري بنـظم الشعـر من منن ومن نضـار ومن خيـل ومـن نعـم
وكم نـظمت قـريضـاً لـو يمـر عـلى اسد الشرى أطرب الآساد في الأجم
يستنـزل العصم طوعـاً من معاقلهـا ويبـرىء الحية الصـما من الصمم
فـما حصلت عـلى شيء سـوى ورق في وجههـا طابـع كالبـدر في الـظلم
فـما أتـت عـامـلاً إلاّ وأهمـلهـا وعـد تسـويـدهـا ضـربـاً من اللمم
فـانـظر إليّ بعـين جـودهـا وَرِقٌ ومـزق الـوَرَقَ المعـدود في الأدم

ويذهب إلى ممدوحه فيجد الأبواب قد غلقت من دونه فيقول:

أقـول ودمع العين في الخدّ سـايـل ولـلغيظ مـن بـين الضـلوع سعـير
وقـد غَيَّبَ المولى الخليفـة شخصـه فـراراً من المـطلوب وهـو يسـير
وغلقت الأبـواب من بعـد فتحهـا وحُـكِّـم بَـوَّاب وذل أمـير
وقـد جار دهـر واستمرت خصـاصة وكـادت (أزال) بـالأنـام تمـور

متى ومتى يثني الزمان عنانه إليّ بخير والزمان غيور

ويكثر من بكائه ونوحه وهو دائماً يتحسر على الجائزة ويحث المسؤولين على إجازته بجميع ما أوتي من مقدرة شعرية. وهم إن وعدوا بالجائزة لم يسرعوا في الإنجاز، ويا ليتهم اكتفوا بذلك، بل نجدهم قد أحالوه على مباشر لا يهمه من الأمر سوى التفنن في تجريع صاحبنا الغصص حتى لا يتم له تنفيذ ما رامه... ولهذا كثر في شعر أديبنا التشكي من هؤلاء العُمَّال ووصفهم بالقسوة والظلم، بل نجده يتهمهم بالسرقة والتلاعب بأموال الدولة وبالرشوة... انظر إليه يخاطب ممدوحه في شأن عامل يسمى (ابن صلاح) كان يتولى بندر (المخا):

أرى ابن صلاح ليس يسمح بالذي حواه من الأموال في بندر (المخا)
وصار إذا وافاه أمرك رده وأظْهَرَ تَيْهاً زايداً وتشمخَّا
فقد لعبت أمواله في خواصكم فعادوا إلى شرط المودة والإخا
وغرد طير المال في مهجاتهم وعشعش في روض القلوب وأفرخا
فإن لم تعامله على سوء فعله تدنَّس سربال العلا وتوسَّخا

وطالما أرجع هؤلاء المتولون أوراق الأوامر الصريحة بصرف ما له من معونة، فلا يجد شاعرنا حرجاً من الرجوع إلى ممدوحه يخبره بواقع الأمر، انظر إليه محرضاً ومهدداً يقول:

أترضى والوفا والصدق طبع جبلت عليه في سر وجهر
بأن يضحى نداك الجم عندي وقد سودته لي منذ شهر
كلام ثم مطل ثم وعد (حديث خرافة يا أم عمرو)
وأُقسم «بالحيام» وما حوته بنو السياغ من (بن) و(بر)
بأنك لا تريد المطل لكن (فقيه) القوم لم يحظ بأجر
ولولا قدرك السامي محلا وكونك مالكي وولي أمري
لمزقت (الفقيه) بسيف هجوي ودست أديمه بنعال شعري

ويقول في نفس القضية وقد وصف ذلك المتولي بالطيش وخفة العقل:

ما كنت أحسب والليالي قُلَّبُ أن الخليفة في عطاه يكذَّب

أو أن (جَسَّاراً) على كل الورى   عند الأوامر والعطا يتلعب
حتى أتيت إلى حماه برقعة   فيها اليسير وقد حَدَاني أشعب
فأردها المعتوه غير معرج   وأراه بعد التيه هذا ينكب
لو أن خفة عقله في رجله   صاد الغزال ولم يفته الأرنب

وبقدر ما ساءه المتولون ساءه الحجاب، هؤلاء الزبانية الذين يحولون بينه وبين رغبته في لقاء من يريد وبثِّ شكواه عنده، وقد توجع منهم ووصفهم في العديد من مقطعاته بالغلظة والقسوة. منها قوله مخاطباً ممدوحه في عدم وصوله إليه:

ولا تعتب عليَّ بترك شعري   وبعد من مقامك واجتناب
فبابك قد تملكه (نقيب)   من السُّودان أشأم من غراب

... ولا تكاد مشاجرته تكف مع الحجاب والحاجة تلح والعيد قد أقبل:

ضياء الملك والإسلام عطفاً   على ذي فاقة صفر اليدين
أتاه العيد وهو حليف فقر   يقاسي عسرة وعظيم دين
وقد شغل الإمام عن البرايا   بتزليج لأهل القبلتين
وإن رمنا لقاه فقد وقعنا   من الحجاب في «يوم حنين»

وهذا الحاجب شخص يغلب عليه الرياء والنفاق، فهو لا يعامل الناس بمقياس واحد، وإنما ينظر إليهم حسب أقدارهم وهيئاتهم فإذا وصل إليه شخص بادي القوة أو ذو ثراء أدخله بسرعة:

ويدخله البواب من غير غلظة   وينفخ في أوجاهنا متهكما
وكم من فتى عند الزحام رأيته   على الباب مكشوف العمامة محرما
يقربه البواب إن كان مثرياً   ويقصى عن الأبواب إن كان معدما

ويقول:

لو كنت أسود مثل الفيل هامته   عبل الذراعين في غرموله كبر
كانت حوائج مثلي عندكم قضيت   لكنني أبيض في أيره قصر

وبعد فهذه جولة سريعة مع بؤس ابن أبي الرجال وفاقته. وهو يعترف ببؤسه وتسوله واضطراره إليه فيقول:

ولو لي بنيات صغار وصبية … كزغب القطا الكدري يدرجن في وكري
وجور زمان قبح الله صرفه … سريعاً ولا حياه ذو العرض من دهر
لما قمت أبغي الفضل من كف (جابر) … ولا رحت (أستجدي) بنظم ولا نثر

إنها الحاجة دفعته إلى ذلك ولهذا نجد في شعره ما يشبه فلسفة المكدِّين وأهل الخصاصة، كقوله مشيراً إلى فضل الصدقة وما لها من كبير قدر عند الله:

أيا من خاض بحر العلم طفلا … وذلت من مسايله الصعابا
أرى الصدقات في عسر ويسر … ترد من البلا سبعين بابا
وفي الصدقات للمرضى دواء … عظيم لا أرى فيه ارتيابا
ودعوة من له سبعون عاماً … بجنح الليل تخترق الحجابا
فقل لإمامنا رب المعالي … وخير خليفة عرف الصوابا
ومن أكثرت في شعري شكاء … إليه فما أثاب ولا أجابا
عليه بما ذكرنا من دواء … يرى من نفعه شيئاً عجابا

.... (يعني به الصدقة).

ويقول:

قل للخليفة خير من جمع العلا … بفضائل قد حازها ومكارم
أشكو إليه فِعَال دهر جائر … لاقيت منه الجور دون العالم
وخصاصة أضحى لها وأروح بين الناس مثل الهايم
لا منصف أشكو إليه ولم أجد … لي عندها يا مالكي من راحم
فانظر إليّ بعين برِّك واغتنم … حسن الثواب مع الثناء الدائم

..... إلى غير ذلك....

* مذهبه الفني

لابن أبي الرجال موهبة فنية كبيرة في الشعر، صقلتها الدربة والمران المتواصل وقد شاب على نظم الشعر والتقرب به عند الرؤساء، لذلك لا نستغرب إذا وجدناه شاعراً قد تمرس بأصول المهنة يبدع في شعره حسب ما شاء، ويزاحم به كبار الشعراء في أساليبهم الفنية المتعددة فلا ينقصه شيء مما تميزوا به... ولما رأى العصر غارقاً في تكلف الصناعة اللفظية من الزخارف والمحسِّنات، وجدناه يدلي بدلوه في هذا المجال وقد كتب بديعية يمدح بها أحد أعيان عصره جاء فيها قوله في ما يعرف عند البديعيين ببراعة الاستهلال مع التصريع والمقابلة:

حدائق حسن قد تبسم نَوْرُهَا ... وساعات وصل قد تبلج نورها

وقوله في التوجيه ومراعاة النظير:

وأيام نصر جاء بالفتح سعدها ... فوافى مع التوفيق يسعى بشيرها
وطالع إقبال ويسر مبارك ... وروح وريحان تعالى سرورها

وقوله في الاشتقاق والاستعارة والمقابلة:

وغزلان أنس آنست بَعْد بُعْدِها ... بوصل محا ما قد جناه نفورها
نواعم إن أنعمن بالوصل مرة ... تمنَّعن أخرى واستمر مرورها

وفي إرسال المثل:

وبعد الغواني مؤذن بوصالها ... سريعاً وإن عز المعنّى غرورها

وفي المبالغة:

أوانس ترمي عن جفون فواتر ... يجدِّل آساد العرين فتورها

وفي التوشيح:

ولم أنس إلمامي بكثبان حاجر ... وقد راح إذ لاحت لعيني قصورها

ثم تمضي القصيدة لتأتي بشتى أنواع البديع المعروفة عندهم. . . . وربما خاض في شعر الجناس والتواري إلا أنه شيء قليل كقوله في الجناس اللفظي:

وخَرَّج عن «ظليمة» كل ظلم ودار على «المداير» والمدان

وقوله في التورية بالقات واللحوح وهما أكلتان شعبيتان وهما أيضاً في اللغة بمعنى الملح «ملح الطعام» والإلحاح في السؤال:

يا خير من فرق جيش العدا بصارم عضب وطرف سبوح
لقد روى المختار خير السورى حديث صدق مثبتاً في الشروح
عن خالق الإنسان سبحانه كراهة (القات) وحب (اللحوح)

أي الملح في الدعاء.

ويكثر من استعمال التضامين الشعرية.. وربما أسعفته في كثير من شعره فجاءت خفيفة الوقع سهلة الأسلوب وهو يأتي بها أبياتاً كاملة كقوله مضمناً بيت الشاعر المتنبي:

فانهض لأخذ الثأر منه ولا تضع بيتاً بناه على القواعد محكم
(لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم)

وقوله مضمناً بيت بردة البوصيري

ولا يقول لأهل البغي إن جمحت منها الغواة ولم يحتج إلى السلم
(من لي برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم)

وربما ضمن البيتين في مقطع واحد كقوله:

لم يزل إن لاح برق منشداً وهو يشكو من حرارات الكبد
(ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد)
(واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد)

. . . . وكثير من هذه التضامين حفل بها شعره

وقد دَلّ هذا على اطِّلاع كبير في الشعر العربي، وهو واحد من الذين ولعوا

بعرَاض القصائد الشهيرة، وقد عارض قصيدة الحصري المعروفة بعد أن حول مضمونها من الغزل إلى المدح فقال:

نـدعـو إلى الـرحمن ونعبـده   تحـت الـظلماء ونـوحّـده
ونمـدُّ الـكـف إلـيـه بـأن   يحمـي المـهـدي ويـؤيـده
ونـجـوم السعـد تقـارنـه   في بـرج الملك وتسـعـده

. . . . إلى آخرها.

وعارض قصيدة الشريف الرضي بقوله:

حَبَـاك رب السماء حسنـاً وحياك   بنـور خدّ أنـارت منـه حيّـاكـا
وحاك طرفك وشي السحر من وطف   في الجفن يحكيه عن هاروت إن حاكا
وحـارت الحور من غنـج ومن حـور   حـوتـه دون الملاح العـين عينـاكـا
والغصن قـد كاد أن يحكيـك في مَيَدٍ   والـدّر قـد كـاد أن يحكي ثنـايـاك
كم حـاول البرق أن يحكيـك مبتسماً   ففـاتـه في هـواه حسن معنـاكـا
واحمـر للغيظ خـد الـورد حتى غـداً   للنـرجس الغض إلمام بـريَّـاكـا
يـا شـادنـاً شـاد في قلبي منـازلـه   لا زال قلبي مـدى الأيَّام مـأواكـا

. . . . إلى آخرها وهي طويلة أنافت أبياتها على الخمسين بيتاً. . .

ويحدثنا شعره أنه صاحب طريقة فنِّية في النظم وقد انفرد في كثير من قصائده عن شعراء عصره بجمعه بين وصف الرياض ووصف الخيل والغزل والمدح في قصيدة واحدة.

انظر إليه وقد جمع هذا كله في قصيدته التي أولها:

أهدى النسيم الصبا في ساعة السحر   أريـج مسك الـظبـا والعنبـر العـطر

وبدأها بوصف الرياض:

والأرض قد راضها الوسمي وابتهجت   وتـاهـت الـزهـر والأفـلاك بـالـزهـر
وبات يضحك ثغر الأرض حين بكى   جفن السحـاب وعم الأرض بالمـطر

ولاح ومض الثنايا البيض مبتسماً ... فوق العذيب كلمع الصارم الذكر

ثم يعرج إلى الغزل :

في روضة قلت للآرام إذ سنحت ... تختال من مرحٍ في مرجها الخضر
بالله يا ظبيات البان قلن لنا ... ليلاي منكن أم ليلى من البشر
تجاهلاً كان مني بعد معرفة ... والفرق كالشمس لا يخفى عن النظر
من أين للظبي في وردي وجنته ... مسكي خال يُرَى في وردة الخفر
ولا نهود ترى في الصدر ناهدة ... صغيرة الحجم كالتفاح في الصغر
من أين للريم ،في دُرِّيّ، ملمسه ... ومبسم عطر يفتر عن درر

. . . ويطيل في الغزل حتى يصل إلى وصف الخيل فيقول :

لولا الهوى ما قطعت البيد معتقلاً ... لأسمر طالباً للهو والسَّمَرِ
على كميت عريض الصدر غرّته ... في ظلمة الليل تهدي الشعر في السفر
قد مدَّ نحو السما جيداً وسالفة ... يريد يرعى النجوم الزهر كالزهر
ومد أذنيه نحو الطرف من ظمأ ... يبغي المجرة في الظلماء كالنهر

وبعدها يعرج إلى المدح ووصف ممدوحه . . . وتلك طريقة عجيبة كاد أن يتميز بها شاعرنا وحده .

* الألغاز

كان الشاعر قد أكثر من الألغاز في شعره ، شأنه في ذلك شأن أدباء عصره ، إلا أنه هنا لم يعرضها بصورة استفسار علمي بحت كما هو الحال عند غيره من الأدباء وإنما تطرق فيها إلى صور فنية بديعة يكاد ينفرد بها وحده أيضاً انظر إليه في لغزه عن الحَمَّام لتجده قد عرضه في صورة جمعت بين الوصف والغزل :

ولنا هُنالك صاحبٌ ... في لُحسن رونقِهِ ظهر
إن رمت تعرفه فَخُذْ ... فيه الكنايات الغرر
تملي عليك صفاته ... في كل معنى مبتكر
مَلَكٌ تربع للورى ... حارت لرؤيته الفكر

حـاز النضـارة في الـصبـا ... وازداد حـسنـاً في الـكـبـر
هـذي قبـابـاً في الحـمـى ... وبـلعـلـع يـبـدي أخـر
إذا نـزلـت بـبـابـه ... تـلقـى الـوفـود بـه زمـر
مـتـواضـع لـكـنـه ... سـام عـلى كـل الـبشر
إذا دعـوت بـه يجـيـب ... ولـيس يـدري مـا الخبـر
ويحـن مـن قـلق الهـوى ... ولـه دمـوع كـالمـطر
كـالليث يـومـاً في سـطاه ... وكـالـبـعـير إذا هـدر
ويهـيـج مـن نـار الهـوى ... فـيكـاد يـرمـي بـالشـرر
فـإذا تجـنـبـه الـورى ... سـكنـت شقـاشـقـه وقـر
ولـكـم ضـعيف قد أقـام ... وذي قـوى فـيـه عـثر
وإذا نـزلـت بـسـوحـه ... جـلاًّ همـومـك والـكـدر
ويـلين مـع يـبس بـه ... وبـرودة فـيـه وحـر
يـبـدو بـجـسـم أبـيض ... وبـه يـرى لـون الخـفـر
وبـنـاظـر قـد زانـه ... منـه الفـتـور مـع الحـور

إلى أن يقول فيه :

فـاعجب لَمِلْكٍ قـد حـوى ... هـذي الكـنـايـات الغـرر
وهـو الحـكـيم الأعـجمـي ... وصيقـل لـصـدى الصـور
بـقـواعـد مـا قـد أقـام ... المقـعـدين ومـا افـتـخـر
ولـرب هـيـفـا أخـجـلت ... شمس الـظهـيـرة والـقمـر
ولهـا قـوام كـالـقـضـيب ... إذا تـثـنـى أو خـطـر
قـد فـاح مـن أردانها ... مـسـك ذكـيٌّ وانـتشر
هـزت إلـيـه منـاكـبـاً ... مـن غـير خـوف أو حـذر
وتجـردت مـن حـليـهـا ... ومـن الـغـلايـل والحِـبَـر
قـد ضـمـهـا في صـدره ... وخـلا بهـا دون الـبشر
حـتى إذا هـي قـد قـضـت ... مـن حـسـن لـذتـه وطـر
ألـقـى طـهـور الماء عـلى ... أعـضـاء جـسـم قـد فـتر

وغـــدت تمـيس وقــد جــلا   منهـــا بـخـــلوتــه الـكـــدر

إلى آخرها . .

ففي هذا اللغز وصف الحمّام وضخامته مع حرارة مائه ثم عرّج إلى وصف تلك الحسناء،وقد أرادت أن تستحم ووصفها بما شاء من محاسن . . ونجد لشاعرنا ألغازاً كثيرة تفرقت في ديوانه الكبير من أعجبها هذا اللغز في « ناظور » :

مـــا اسـم لشيء وإن تبـدى لـنـــا   في جسـد صـاف وطـرف حـديـد
حـسـبـتـــه في الـفـعـــل قَــوَّادة   تُعــظم الشخص وتُـدنِي البعيـد
لــكـنــه يـظهــر في قــلبــه   تحـقــير دان مــن دنى وسـيــد

وربما اتجه في ألغازه إلى وصف بعض المظاهر الشعبية التي يكثر وجودها في مدينته صنعاء وغيرها فهو هنا يلغز في (معصرة) وقد وصفها على القاعدة التي يصنعها أهل اليمن في مثل هذه الأشياء:

رأيـت يــا سيـدي بـعـيـني   عجيبــة تعجب الخـــواطـــر
بصيــرة تهتـدي بــأعمى[1]   لـكــن أعـيــانــه نــواظــر
قـــاعـــدة مـــا تسـير سيــراً   قــائـدهـــا لا يـزال ســـائـر
حـــاملة[2]لا تـــزال تسـعى   وحمـلهـــا لا يــزال حـــايــر
ومـسـلـم كـــافـــر مـقـيـم   بـــادٍ لـدى سيـرهـا وحـــاضر
تحن من وجـدهـــا حـنينـــاً   وتسكب الـدمع في المحـاجر
وتشـــرب المـــاء وهي تبكـي   ودمعهـا في الغـروب ظـاهـر
واكـــلهـــا ظـــاهـــر كـثـير   وزبـلهـــا لا يـــزال طـــاهـــر
مـيــزانها في ســمـــاه بـــاد   والقوس[3]في المشتري[4]لناظر

(١) الجمل تعصب عينيه وهو يدور حول المعصرة
(٢) أي أنها تحمل أحجاراً كبيرة ليحفظ توازنها
(٣) إسم رجل في عصره كان يشتغل بالعصارة
(٤) اسماء نجوم زراعية عند أهل اليمن

وقـلبهـا واجـب قـراه والطرف يرعى الذراع سامر
وعـصـرهـا طيـب إذا مـا دارت عـلى قـطبهـا الـدوائـر

ذلك هو نوع الألغاز والأحاجي عند شاعرنا فلا نطيل بذكرها هنا .

*** الوصف**

الشاعر أبو الرجال وصاف ماهر يبدع في تصوير الأشياء بطريقته الخاصة التي تميل إلى المرح وربما خرج عن قاعدة الشعراء التقليديين من التكلف في وصف الأشياء ، والتقعُّر في المعاني ، بل لا يجد حرجاً إذا أدَّى وصفه الماجن الهازل إلى ما يشبه الذم والتنقيص ، اسمعه يصف طبيعة تأثره وقد جعلها وسيلة إلى عدم وصوله عند ممدوحه :

وما كـان هـذا البعـد مني مـلالـة فـذلـك أمـر لا يسـوِّغـه شـرعي
ولكن لـريـح هب تحسب صـوتـه مـزامـير ركبـان بمنعـرج الجـرع
تكـاد تقـد الغصن عنـد هبوبهـا ويـوذن صم الصخر إذاك بـالصـدع
وغيم عـلى الأوطـان أضحى مخيـماً كـأن له يـا صـاح دين عـلى الـربـع
يخـاف من الأطـلال مـطلاً بـدينـه فجـاد لما يخشى بمنهمـر الـدمـع
وصـار خفيف الغيم فـوق غصـونها كمثل دخان الندى غطَّى على الشمع
إذا ما بدا من فـوق «حب[1]»تخالـه قلنسـوة بيضـاء غـطت عـلى فـرع
وحينـاً تخـال الحصن والغيم فـوقـه شجاع جثا في الحرب من شدة النقع
ومثل عجوز السوء لاحت وشعرهـا يلوح كنسـج العنكبوت عـلى جـذع
تـراني إذا هـبـت ريـاح بمـنـزلي أصـير كواو العـطف من شدة اللذع

إنه وصف خاص بشاعرنا جعل الغمام تجود بالدموع خوفاً من عدم وفاء الأطلال بدينها ، ثم يشبّه صغار السحب بدخان الند علق بشمع أبيض إلى غير ذلك من تشبيهات تفنن الشاعر في وصفها ، وهو لا ينسى نفسه في معمعة الرياح وزمجرة السحب وقد جعل يتلوى من شدة الرياح أو البرد ـ وتتكرر هذه الصورة

(١) حب حصن باليمن معروف

في مقطوعة أخرى يقول فيها :

وهـذا الفصـل هبت فيـه ريـح تثـيرلنـاالثـرى بـالاضـطراب
ووافى بعـدهـا حـر شـديـد كـما تـريـا كثـير الإلتهـاب
أكـاد لـدى الـظهيـرة من لـظاه لحـر الجـوِّ أخـرج مـن إهـابي

لكنه جعل ذلك مدخـلاً للحديث عن مـطالبه الكثيـرة ، وحالـة السّعر المرتفعة ، فهو لم يحظ بمركوب يفر به من شدة الحرّ إلى أعالي الجبال :

ولم أحظ بمـركـوب فـأسـمـو إلى قـنن الـشـوامـخ والهضـاب
وزاد السعـر في صنعـا ارتفـاعـاً وسـح السجف بالنـطف العـذاب

ومع ذلك فالطبيعة عنده ليست ثائرة في جميع الحالات وهو يصف المروج والرياض والأزهار بما هو معروف عند الشعراء وقد مَرَّ بنا شيء من ذلك في الفصول السابقة .

* شعره الاجتماعي

الظاهرة الرئيسية التي تميز بها شعره هو أنه ذو نزعة اجتماعية ونجده حتى في التعبير عن مطالبه الشخصية قد عَبّر عن ظواهر اجتمـاعية وإنسـانية تَعْـرَض للأفراد من الناس في كل عصر ومكان .

وما مقامته الشهيرة عن مسـاجد صنعـاء إلاّ دليلاً عـلى اهتمامـه ببعض القضايا الاجتماعية. وقد أوقف نفسه في الدفاع عن مساجد في صنعاء وغيرها اسمعه يذم أميراً من الأحباش ، وقد حاول أن يستولي على أكـرية حَـوانيت موقوفة على مساجد (صعدة) لوقود المصابيح بها فقال مخاطباً ممدوحه :

نقيبـك عبـدالله قـد صـار طـالبـاً لثـأر قـديم للحبـوش بـلا لبس
وذلـك إذ أضحت كنيسـة جـده قليسـاً بصنعـا للرمـاد ولـلكنس
فـأدركـه غيظ عـلى كـل مسجـد يـسـرج ليـلاً لـلصـلاة وللدرس
وقد سلط (الشمس) لأخذ سليـطها بصـاهله والرمـح والسيف والتـرس
فـأدرك بيـوتـاً لـلإلـه سعيـدهـا بسعدك محروس عن الهون والنحس

وفي كثير من قصائده نجده قد سلك نوعاً من التحليل الاجتماعي الذي يبين أدواء المجتمع، وربما عرض ذلك في صورة هزلية ضاحكة كما هو الحال في قصيدته المعروفة بأدب الوافد وهي قصيدة شهيرة أعجب بها الأديب علي بن عباس الموسوي المكي المتوفى سنة ١١٤٨ هـ وأوردها في كتابه (نزهة الجليس[١]) وفيها يحلّل ابن أبي الرجال مجتمعه وقد طغت عليه المظاهر، فلا يكاد يظفر أحد بحاجته إلا إذا سلك نوعاً من التغرير وإظهار المسكنة والخضوع :

لبس العباة البيضا	يعد عندي تقصير
فاحذر بأنك ترضى	تفعل لنفسك تعزير
واترك وحاذر أيضاً	نشر العذب والتكمير
إذا مرادك يقضي	دينك فهذا التدبير

بيت

اسلك طريق الذلة	وخل هذا التهميز
واجعل عباتك شملة	ولا تحب التركيز
واعرف بطبع الدولة	إذا دخلت الدهليز
إذا مرادك يقضي	دينك فهذا التدبير

بيت

إذا دخلت الديوان	لبست باقي خيمه
واترك خيام السلطان	خذ من خيام الخيمه
واعمل بحسب الإمكان	والبس قميص الديمه
إذا مرادك يقضي	دينك فهذا التدبير

بيت

إن سرت فاخلع خفك	والبس حذا أهل الشام
ولا تحنِّ كفك	إذا دخلت الحَمَّام

(١) نزهة الجليس ج ٢ ص ٢٨٥

أتـــرك حصــــانـــك خلفـــك واركـــب حمـــار الـــقـــشـــام
إذا مـــرادك يـــقـــضـــي ديـــنـــك فـــهـــذا الـتـــدبـــير

بيت

اتـــرك عـــبـــاة المـــشـــلح ويـــاقـــتـــك والـــشـــبـــراز
واحـــذر بـــأنـــك تـــســـمـــح شـــاربـــك لـــلـجـــزاز
ولا تـــكـــن شي تـــفـــرح بـــالـــطـــبـــطـــبـــة والـــركـــاز
إذا مـــرادك يـــقـــضـــي ديـــنـــك فـــهـــذا الـتـــدبـــير

بيت

واخـــضـــع لأمـــر الـبـــواب إذا دخـــلـــت الـــديـــوان
ولا تخـــاصـــم في الـــبـــاب تـفـتـــح بـــصـــدرك دكـــان
والـــدقـــدقـــة والـقـبـقـــاب تضرٌّ بـــك يـــا إنـــســـان
إذا مـــرادك يـــقـــضـــي ديـــنـــك فـــهـــذا الـتـــدبـــير

بيت

عـــمـــامـــتـــك لا تـــلـقـط وخـــلـهـــا كـــالخـــبـــشـــة
واحـــذر بـــأنـــك تمـــشـط ذقـــنـــك وخـــلـه عـــشـــه
ولا تـــكـــن شي تـــبـــســـط بـــســـطح بـيـــتـــك كـــشـــه
إذا مـــرادك يـــقـــضـــي ديـــنـــك فـــهـــذا الـتـــدبـــير

بيت

ولا تـــقـــل بـــالـــصـــابـــون وكـــن كـــأنـــك ســـلاط
واجـعـــل قميصـــك جـرعـــون ونـــصـــف كـــمـــك مخـــاط
قـــد الـــوســـخ بـــه معجـــون هـــذا نـصـيـحـــة «بقـــراط»
إذا مـــرادك يـــقـــضـــي ديـــنـــك فـــهـــذا الـتـــدبـــير

بيت

واصنع ودقق حيلة تخلصك من (ضوران)
ولا تقف به ليلة فقد تقضىً شعبان
وخلِّ ذي التكحيلة ودهن هذي الأوجان
إذا مرادك يقضي دينك فهذا التدبير

بيت

قهوتك بالدلة تجلب عليك الوسواس
فخذ عوضها قلة ولا تبالغ في الكاس
واجعل مكانه بالله فنجان مكسور الراس
إذا مرادك يقضي دينك فهذا التدبير

بيت

إذا سمعت المرفع ضَرَبْ وقالوا ركبه
فاحذر بأنك تطلع بالسيف أو بالحربه
اترك ثمانك واصْنع لباس فوق الركبة
إذا مرادك يقضي دينك فهذا التدبير

بيت

فكم مهذب ظهره قد بات مثلك مكروب
وكم منتف عذره قد نال كل المطلوب
سلم لهذي القدره واخضع لهذا المكتوب
إذا مرادك يقضي دينك فهذا التدبير

بيت

وإن مرادك تسلى سليت نفسك بالقات
ولا تسب المولى ولو يفوتك ما فات
فكم بفضله جلاّ عَنّا جميع الآفات
إذا مرادك يقضي دينك فهذا التدبير

تلك حالة المجتمع عند ابن أبي الرجال حيث لا يسلك فيه إلا من اتبع طرقاً في المداهنة وادعى الفقر لعله يظفر بحاجته.

ولكن نقده الاجتماعي ربما تعرّض إلى قضايا سياسية دعا فيها إلى وجهة إصلاحية تهدف إلى النظر في أحوال الرؤساء، والوزراء. ففي قصيدة بعثها إلى الإمام يدعوه فيها إلى تفقد شؤون الوزراء والعمل يقول:

واعمل على الفور في عمالكم نظرا	يجبي لك المال من عمالك النظر
لا سيما كل من طالت ولايته	دهراً وما ناله من نحوكم ضرر
فهذه ساعة ليست تصوغ لهم	منها الخزائن والأموال والذُّخر
ولا تصادر سوى من كان مشتغلاً	بنفسه ولديك الخبر والخبر
وكل من خاض في البحر الأجاج له	صوافيا لا يداني صفوها الكدر
جماعة همهم إصلاح حالهم	وكلهم باكتساب المال مشتهر
لا يرفعون إلى دين رءوسهم	ولا لهم غير جمع المال مفتخر
إن لم تقابل بحدِّ السيف أعظمهم	مالاً فليس لأمر رمته أثر
فعندهم من بيوت المال ويحهم	خزائن وكنوز ليس تنحصر
قد أحرزوها قناطيراً مقنطرة	فما اللكوك وما الآلاف والبدر
هم وازروك وخانوا في أمانتهم	فليس في نهبهم ظلم ولا وزر

ويمضي في التحريض على أولئك الوزراء وقد وصمهم بجمع المال والخيانة ونهب أموال الناس.

* اتجاهات الشعر عنده

مرّ بنا فيما سلف أن ابن أبي الرجال صاحب صنعة شعرية كاملة وهو يمضي في نظمه على طريقة من سبقه لا يخرج عنها قيد أنملة.

ففي الغزل لا يخرج عن نمطهم، ويمكن أن تلاحظ على شعره في هذا الجانب تكراره لمعانيه في أغلب قصائده، وربما استحسن أوصافاً معينة فأخذ يرددها في شعره. وقد عني عناية خاصة بوصف المحاسن الحسيّة فهو كثيراً ما

يعرضها في مطلع مدائحه :

يا صاح قف لي وقفة فعسى أرى ... شمساً على تلك المنازل تطلع
معسولة الشفتين تحمى في الحمى ... بعواسل ترد الكماة وتمنع
بيضاء كالسمراء إلا أنها ... خلف الحجاب وفي الحشاشة ترتع
رقّت معانيها ورقّ أديمها ... فَغَدَت تؤثر في صفاها الإصبع

ويستوقفه في جمال المرأة أشياء كثيرة لا يفتأ يكررها في شعره من ذلك إغراقه في وصف الخال وسحر العيون وضخامة الأرداف إلى غير ذلك . وربما جَرّه الإمعان في وصف تلك المحاسن إلى التصريح بما هو مستور فهو لا يجد غضاضة في أن يقول ـ بعد الوقوف عند الحلى والأقراط ـ :

منعمة في خدها الورد ناعمٌ ... وفي شعرها خمر وفي جفنها سحر
وكم طعنت بالنهد صدر ضجيعها ... ولكن ذاك الطعن يشفى به الصدر
تقود قلوب العاشقين بقايد[1] ... من الدر يحكي ثغرها حين يفتر
وللقرط إلمام بناعم خدها ... حكته الثريا حين قارنها البدر
وخلخالها والقلب[1] والخصب دائماً ... وحيث مجال الكشح من خصبه قفر
تصيح نواقيس «البريم[1]» إذا انثنت ... مخافة أن ينقدّ من حملها الخصر
وقد ضمت الجاذان شيئاً منعما ... صقيلاً شديد الحر مسلكه وعر

وقد بلغت الجرأة بشاعرنا في الوصف الحسي إلى ما يشبه المجون عند شعراء العصر العباسي وغيره . وقد ضَمَّ ديوانه مزدوجة طويلة جعلها في وصف أوضاع الجماع وطرقه ولم يتحَرَّج فيها عن شي مما يحدث بين الرجل والمرأة ولولا خشية الاستنكار لما فيها من فحش لأوردناها هنا . يقول في أولها :

دع عنك تذكار العلوم والأدب ... وكل مال تقتنيه أو نشب
وهات لي قارحة « . . . » ... سليطة عند النكاح فاتكه
« الخ »

(١) زينة من حلى المرأة في ذلك الوقت

ذلك هو الغزل وما يتعلق به عنده.

أما المدح فهو غرة الشعر عنده وموضوعه الأساسي وقد جعل أكثره في مدح الإمام المهدي صاحب المواهب وبعض وزرائه. وهو يفتخر بمدح ممدوحه فيقول:

فإنني أنا حَسّان الزمان إذا ... نظمت مدحك أو جاوبت أعداكا

ومع ذلك فربما تحسر على مدحه وبكى غرر قصائده في من مدحهم بعد أن وجد منهم الجحود والنكران، لذا نجده يدعو الشعراء إلى استبدال مدحهم بالهجاء:

يا قالة الشعر صونوا الشعر ويحكم ... من مدحكم للذي لا يعرف الشِّعْرا
وعوضوا المدح هجواً وادفنوه كما ... يستحسن الهر دفن الخر إذ يخرى
ولا تهينوا نظاماً قد سما وعلا ... فوق السماك وفوق الطرف والشعرى

وهو كلما أحس بالحاجة نظم الشعر وقال المدح، ولهذا لا يترك مناسبة كبيرة أو صغيرة تتعلق بالدولة إلا وله فيها شعر حتى غدا ديوانه سجلاً حافلاً لأحداث الدولة. جليلها وحقيرها.

لكنه ربما يخلو إلى نفسه ويقول الشعر في ساعة سروره ومرحه فيأتي سهلاً خفيفاً:

وقد كتب إلى أحد إخوانه يدعوه لتناول وجبة غداء من (الزلابيا) يقول:

يا مالكاً قد صرت لا أرتضي ... لي صاحباً في الناس إلا هواه
إن «المزلبي» قد غدا قائلاً ... وكفه ينشر ما قد طواه
الجوع داء للبرايا وقد ... أرصدت ما أحكمته من دواه
فمن طواه الجوع يوماً أتى ... لكي أداوي جوعه من (طواه)
وانهض إلى القطعي من ظنه ... ولا تظن النفع شيئاً سواه
ففل جيش الجوع في جيشه ... وهل لواهي العزم إلا لواه

العنسي

شاعرنا هذا أحد أساطين الأدب في عصره . عرف بإجادته في ميادين الأدب الثلاثة ، النثر والشعر والحميني وهو فارس في ميدان القضاء والحكم وصاحب أثر كبير في عصره .

ولد الشاعر علي بن محمد بن أحمد العنسي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ولا نعرف بالضبط سنة ميلاده ولا البلد التي ولد فيها ، وأغلب الظن أنه ولد بالعدين ، ثم انتقل إلى صنعاء صغيرا ، ودرس على أكابر شيوخها ، منهم اللغوي الكبير ، زيد بن محمد والقاضي علي بن يحيى البرطي ، والعلامة صلاح بن الحسين الأخفش وغيرهم .

وكان والده من أعيان عصره وله مشاركة في الإصلاح بين الدول . . . وكان الشاعر وفياً لشيوخه وقد رثاهم بعد وفاتهم بغرر القصائد . . . ومدحهم أيضاً بشعر جيد . . قال في مدح شيخه صلاح بن حسين الأخفش :

يا ابن الحسين أرى صفاتك أعجزت　　وتباعدت نيلا عن الإمكان
فسهولة شعرية وصلابة　　دينية كالسيل من ثهلان

. . . إلى آخرها .

ومما يذكر عن حياته في أثناء الطلب أنه تخلّف ذات يوم عن درس شيخه ، زيد بن محمد ، بسبب المطر فكتب إليه معتذراً « وفيه تضمين بيت المتنبي » :

منع الحضور ولثم كفك سيدي هذا الحيا والديمة الوطفاء
كم رمت ألَّا يلتقيني يومنا إلا بوجه ليس فيه حياء

وكان قد قضى أحسن أيامه في صنعاء ولا يزال يذكرها في العديد من شعره كما سيأتي، ثم انتقل إلى العدين وتولى القضاء فيه مدة عهد المتوكل القاسم بن الحسين سنة ١١٢٨، وكان قد تعرض للأذية وسجن سنة ١١٣٦، بسبب اتهامه بنظم قصيدة سماها «عباد الله» التي هي من نظم تلميذه محمد بن اسماعيل الأمير وهي مشهورة ومعروفة.

وفي السجن كتب يستعطف الإمام ويقول :(١)

إمام الورى عطفاً على خايف بحق الذي أبقاك في خلقه كهفا
فوالله ما لي قط ذنباً عرفته وهذا الذي أبدى ولله ما يخفا
ورفقاً بأطفال صغار وصبية يكاد الأسى بعدي يذيقهم الحتفا
يطوفون حولي يوم سيري مودَّعاً وقد شخصوا طرفاً وقد رفعوا كفا

وقد ذكر صاحب (نفحات العنبر) أن الذي أغرى به عند الإمام هو عامل وصاب الفقيه شرف الدين بن صلاح بن القاسم، وكان ممن ناصب العدا الشاعرنا وعرف بسوء التصرف وقد اتهمه أديبنا بالظلم وشكاه في أكثر من قصيدة يقول في بعضها :

ومن المصائب والمصائب لم تزل تختار أحرار الرجال فتكلم
إني بليت من الورى بمنجم فقعدت عن حكمي وقام منجم

ولم يدم سجن صاحبنا طويلاً، فقد عرف قائل القصيدة الحقيقي وأفرج عنه . . وكان قد تولى القضاء عن كراهة له فهو يتمنى على ممدوحه أن يعفيه عن هذا المنصب الذي لا يتفق مع ميوله الأدبية يقول :

إمام الهدى عذراً إذا ما تقاصرت خطا كلمي فالقلب بالهمِّ ملآن
تعاظم تكليفي فأثقل كاهلي وإني مما قد ذكرت لخجلان

---

(١) ديوان العنسي «مخطوط»

فلولا حـظتني منـك عـين عنـايــة ... تأخر عن ظلمي من الدهر اخـوان
أرحني من أمـــر القضـــا إن أمـــره ... عـظيم ولي عنـه قصـــور ونقصـان
وقل لي كن في روض علياي بلبـلاً ... إذا ما شدا مالت من الروض أغصان

ولكن أمنيته لم تحقق ، فقد قضى أكثر عمره متنقلاً في هذا المنصب بـين العدين وصاب والحيمة . وربما جعل من منصبه موضعاً لنوادره ومفاكهته مع إخوانه . . فهو يكتب إلى أحدهم فيقول :

كثـــرت تعـــاريفي إليـــك ولم أزل ... بـك سيـدي في مـطلبي متـوسـلا
وإذا ثقلت عـليــك فــاعلم أنـني ... قــاض وقـاض عنــدهم مستثقـلا

ومع ولوعه بالأدب وانهماكه فيه ، نجده لم يوفق في منصبه الذي شغله ولم يتعاطف معه ، فهو يعترف بقصوره فيه . وتلاحقه الحاجة بعد أن تدركه حرفة الأدب كما يقولون ويصاب بالعوز والحرمان على الرغم من توسع والده وبعض إخوته ، وهو يبعث لوالده يشكره على طعام بعثه إليه فيقول في رسالة نثرية :

« صدرت مقبِّلة للأكف والأقدام بعد وصول كتاب مولاي مصحوباً بما أفضل به من الطعام الواسع والنوال اليانع . . . ووالله لقد وصلت ونحن ذلك اليوم في حيص بيص من عدم القوت» .

وربما ذكر ممدوحه بشيءمن ذلك فهو يمدح ممدوحه بغرر القصائد فلا تكاد تلقى قبولاً عنده وبالكاد يكافئه عليها حتى يضطر شاعرنا إلى تذكيره بذلك ، ففي رسالة بعثها إلى أحد مداحه يقول :

« كان المملوك بعث إلى الحضرة الحسامية بقصيدة بائيـة واستشرفنـا منها لوائح الإقبال وحصول قصارى الآمال ، وتعقبتها فترة هي بـالنظر إلى ضيق خناقنا وانقطاع المواد وشدة احتياجنا كفترة ما بين عيسى ونبينا صلى الله عليهما فبعث المملوك بهذه القاصرة (الرسالة) تذكيراً للخاطر الشريف » .

وفي شعره صرح بالفقر والحاجة فهو يعتذر عن الخـروج في موكب عـيد الغدير لعدم وجود ما يركب عليه يقول :

ما تأخرت فيه إلاّ لعذر وبودي لو سرت بالعينين
ليس لي بغلة فأعلو عليها إنما مشيتي على البغلتين

ويضطر إلى بيع سيفه بعد أن أعوزته الحاجة إلى ذلك يقول لأحدهم محرضاً له على شرائه :

يا غرة الآل الكرام ومن غدت تهمي أنامله بخمسة أبحر
لم يبق عندي ما يباع بدرهم وكفاك شاهد منظري عن مخبري
وإلا صقيلاً طالما قد صنته عن أن يباع وأنت نعم المشتري

ويطلب منه أحدهم وهو الأديب أحمد بن علي مشرح أجرة خياطة شاس له فيقول :

قل لأخي يحيى[1] على الذي جاري إلى التدريس والدرس
قد ازدهى الشاس على رأسه فهل تفيض الخمس بالخمس

فكتب إليه صاحبنا معتذراً عن فقره ويقول :

وحق من ألهمنا ذكره وذكر من نَبّاه في الخمس
إني من الإملاق في حيرة أمسي في بَرْد من الفلس

ومع ذلك فإن أديبنا قد حظي برفد من إخوته وكانو على قدر لا بأس به من رخاء المعيشة وهو متين الصلة بهم لا يفتأ يردد ذكرهم في شعره . . . ويبعث إلى والده وأخيه يقول :

شقيقي أنا والمجد لا بل وسيدي أنا والمعالي دام فينا لنا ركنا
فتى شب في حجر العلا فنشا به فريداً ولكن كم لمكرمة ثنى

. . . إلى آخرها .

ويتوسط لأحد إخوته عند بعض الوزراء فيقول :

(١) يعني به أخوه يحيى بن محمد العنسي

حسام الهدى أفديك ما لشقيقنا مضى عامه عن أهله متغربا
ولم يستفد إلا نوىً وقطيعة وقلباً على جمر الهموم مقلبا
يؤمل أن تندى عليه سحابة فلم يرَ إلا بارقاً منه خلّبا

.. إلى آخرها .

وفي شعره الحميني نجد الكثير من تشوقه إلى إخوته لعل أشهرها قصيدته التي يقول فيها :

يا أحبة ربا صنعا رعى الله صنعا كيف ذاك الربا لا زال للغيد مرعى

فقد كتبها إلى أخيه الحسين وهو في صنعاء .

وقد عاش العنسي مرهف الحس يميل إلى تتبع الطبيعة والبعد عن الناس والخلود إلى نفسه حتى ذكر عنه مزاج غريب ، وهو أنه يفر من الناس إلى الجبال الشاهقة التي لا يكاد يصل إليها مهرة المتسلقين وينفرد فيها مع دواته وقرطاسه يكتب إلهامه وشعره : ولعل طبيعته المرهفة تلك أكسبته أمراضاً متواصلة فهو يشكو منها كثيراً ويقول :

ولم أنفك من مرض وسقم أقاسي منهما ليلاً طويلا
وها أنا قد شككت فلست أدري أسموني علياً أم عليلا

ويبعث إلى أحدهم معتذراً عن الحضور إليه بسبب آلام في جسمه فيقول :

سيدي أخر كتبي عارض ممطر دمعي فكم لي منه نزح
وجراحات بجسمي ظهرت وحديث البرء فيها لا يصح
شهدت لي بالضنّا فاعجب لها من شهود لهم التعديل جرح
ولكم قاسيت منها ألماً والدجى إن بأت جنح بات جنح

وكان قد ولع بأكل القات شأنه في ذلك شأن أدباء عصره . يقول لأحدهم وقد بعث إليه قاتاً مع شخص يسمى ياقوتاً :

بالقات والله يا أندى الكرام يداً جمعت لي شمل أنسي وهو مشتوت

قات هو القوت والياقوت منظره   لذاك أدعوه في الحالين ياقوت

فأورثه كل هذا أسقاماً متواصلة .

وكانت وفاته رحمه الله سنة ١١٣٩ ، وقيل إنه مات مسموماً والله أعلم .

شعره

ديوان شعره جمع بعد وفاته، وقد جمعه الأديب عبدالقادر بن أحمد الكوكباني واعتنى فيه بترتيب أبوابه حسب المضامين فهو:

يبتدىء بباب المناجاة والتوسلات الإلهية ومدح الرسول ﷺ ، ثم الباب الثاني (فيما دار بينه وبين معاصريه من لطائف المكاتبات، ومحاسن المبادي والجوابات)، وهو باب واسع جمع فيه جامعة ما دار بين الشاعر ومعاصريه من قصائد شعره ومن مدحهم من علماء ورؤساء.

وهؤلاء الذين مدحهم وساجلهم . . هم :

شيخه صلاح بن حسين الأخفش، والأديب عبدالله بن علي الوزير، وشيخه زيد بن محمد بن الحسن بن القاسم، الإمام المتوكل القاسم بن الحسين، محمد بن عبدالله بن الحسين، محمد بن إسحاق، عبد الرحمن بن علي الوزير نزيل مكة، محمد بن عز الدين لقمان يوسف بن علي الهادي الكوكباني، وغيرهم كثير.

والباب الثالث في «الغزل»، والباب الرابع في «المراثي»، والخامس في الحمينيات، وهو القسم المنشور من ديوانه .

وفي شعره تتجلى موهبته الأدبية الأصيلة، وتبرز أكثر في حمينياته الغزلية الرقيقة. . وهو شاعر واسع الثقافة والاطلاع يرغب في قراءة دواوين الشعر واستعارتها، وقد حدثنا جامع ديوانه أنه علم بنسخة من ديوان أبي تمام عند أحدهم. . فكتب إلى مالكها يطلب استعارتها يقول:

ضياء الهدى يا من لأحشا عداته   وعين الصواب المحض خير مصيب

بنظم أبي تمام رقك مولع ... ولا غرو أن يهوى مقال حبيب

فكان تأثره بأبي تمام وأكابر الشعراء عنوان شعره، وقد اكتشف هذه الظاهرة فيه وفي غيره من شعراء اليمن الناقد المعروف (شوقي ضيف) فقال في كتابه (تاريخ الأدب العربي ج ٥ ص ١٦٩): «يلاحظ في شعراء اليمن المتأخرين أنهم يكثرون من معارضة الشعراء النابهين، لا في المديح فحسب، بل وفي كل الأغراض الشعرية».

لكن تقليدهم كان للأصيل من الشعر العربي.

يعارض قصيدة السري الرفاء ـ وكان شاعرنا من المعجبين به ـ في قصيدته التي مطلعها:

بلاني الحب منك بما بلاني:

فيقول:

رضاك إذا اقترحت على زماني ... وقربك إن طلبت من الأماني
أجلك أن أطيل عليك شكوى ... جواي وما لقيت وما أعاني
سقامي والنحول كتاب وجدي ... وعنوان الكتاب دموع شاني
أحاول أن ترق عليّ قلباً ... فيأبى بي الهوى إلا هواني

إلى آخرها.

وقصيدة البهاء زهير التي أولها «ملك الغرام عنانيه» يقول:

ما للمحب وما لِيَه ... أجرى دموعي القانيه
يا نظرة جلبت عليّ ... هوى أطال هوانيه
ما كنت لولا حبه ... أدري الصبابة ماهيه

إلى آخرها:

وعارضهم حتى في قصائدهم الساخرة، فهو يعارض ابن منير في قصيدته الهزلية التي يقول في أولها:

(عذبت قلبي يا تتر)

فيقول صاحبنا وقد جعلها شكاية في أحدهم وقد استأجر منه بيتاً وأبى الخروج منه:

بالبيت أقسم بل بأهل ... البيت سادات البشر
وبصولة المولى الذي ... تاهت به عليا مضر
إن دام غصب مطهر ... عمداً لداري واستمر
لأقلدن أبي حنيفة ... صاحب الرأي الأغر
ولأسمعن له وإن ... حل النبيذ المعتصر
حباً لقوم أنزلوا ... بمطهر[1] أقوى ضرر
أعني بهم أبناء خاقا[2] ... ن الميامين الغرر
ولأتركن الترك ترفل ... من مديحي في حبر
ولأنظمن شوارداً ... فيهم تحار لها الفكر
ولأبكين على الوزير ... بكل معنى مبتكر
أعني به «حسناً»[3] وإن ... فعل القبيح فمغتفر
وأقول إن سنانهم ... سيف نضته يد القدر
ما جار قط ولا أرا ... ق دماً وبالتقوى أمر

إلى آخرها.

وهي قصيدة هزلية بنى على منوالها بعد ذلك رسالة نثرية أوردها صاحب (نشر العرف) ج٢ ص٢٩١.

ويظهر أيضاً أثر ثقافته ومطالعته جليّاً في العديد من قصائده فهو يكثر من تضمين شعر الغير كقوله:

ولي غريم يسمى «الشوق» نغص من ... عيشي فشوقي لا أشاهده
يا صاحبي لا تلمني حين اقبحه ... لا يعرف الشوق إلا من يكابده

---

(١) يعني به المطهر بن شرف الدين
(٢) الأتراك
(٣) هو الوزير حسن

وضمن حتى شعرهم الحميني:

ما الدمع دمعك دع فضولك في الهوى (فالدمع دمعي والعيون عيوني)

ويأخذ من معاني بعض الشعراء فيقول آخذاً من أبي نواس:

ونحلت حتى قال لي صحبي وقد داروا على شخصي فما وجدوني

ويكثر من الاقتباس من القرآن الكريم:

يا غائباً قد سال دمعي طالباً لقياه وهو (السايل المحروم)

وقوله:

تأمل لشامات ثلاث بخدّه مع ألف من عارض (سال سائله)

ومن مصطلحات أهل العلوم:

لي في التصابي (مذهب) وليس لي عن ولفي مذهب
في غادة في لحظها نرجس يحرسه من صدغيها عقرب
إياك من (سالب) ألحاظها يا قلب فهو (السالب الموجب)
واستمل ناموس حلاها تجد سلو من فارقها (المغرب)
آه على (نوبة) أفلاكها لو أنها في كبدي تضرب

ولما كان فقيهاً في الحقيقة، فهو يكثر من مصطلحات أهل الفقه كقوله:

صار بالشراء قلبي والجسم بالشفعة

ويقول:

راح من بعدهم قتيلاً لكن جوزوا بالدموع منه «اغتساله»[1]

ويقول:

ميت حب غسله الدمع فهل قبلة قد يتخذها «كفنه»

وأشياء من هذا... حتى أنه يستكثر من عباراتهم وأساليبهم فهو كثيراً ما يردد في شعره قوله «أستغفر الله»:

وبالمنحنى (أستغفر الله) إنما أردت ضلوعي إنهن منازله

---

(١) يشير الى قاعدة فقهية وهي أن الشهيد لا يغسل ولا يكفن

وقوله:

يا بن ودي (أستغفر الله) من قولي ... ابن ودي والله حمقاً وجهلا

وقوله:

قالوا فصف خدَّها القاني فقلت لهم ... ورد نظير لذيذ الانتشاق ندي
(أستغفر الله) لا بل جمرة لفحت ... نيرانها مهجة تطوى على كمد

وقد استقصيت هذه القولة في أكثر من عشرين قصيدة.. ولعل هذا أثر لما كان يردد في مجالس الشريعة والقضاء.

وشاعرنا لا يكلف نفسه في تنقيح قصائده ومراجعتها وهو يصرح في واحدة منها أنه كتبها في ليلة واحدة:

مولاي دونك (بنت ليلتها) ... وافتك تسحب ذيل مختال

وهو على خلاف عادة شعراء عصره من الذين مدحوا شعرهم أمام ممدوحيهم.. نجده يصرح بذم قصائده تواضعاً وإجلالاً لمن يمدحهم يقول:

صفحاً وعذراً إن تعثر خاطري ... عن أن يجيب بمنطق موزون
فلقد نبا خجلاً وأفحم دهشة ... وعصى علي وكان لا يعصيني

ويقول:

خطب الفضل والمعاني البديعة ... كلماتي وهي القباح الوضيعة
ليت شعري ما يعجب الفضل منها ... وهي وحشية المباني شنيعة

وهو بعض من تواضعه لا يفتأ يردده من حين لآخر.

وكان قدساير عادات شعراء في عصره في ولوعهم بالبديع وجاراهم فيما أخذوا به وهو يسلك كل أنواع البديع، وقد عقد له جامع ديوانه فصلاً فيه من ذلك قوله في (الإكتفى):

أهل الهوى من منصفي فلقد ثوى ... بقلبي هوى أفنى اصطباري وسلوتي
سألت الرشا رشف التي فيه كاسها ... فردوا لمن يدفع معنّاه (بالتي)

وقوله في التورية:

كيف تجفوني وفي جيدك من   در دمع يا رشا عقد منضد
وعلى الحالين يا حلو اللمى   أنت من دمع وفي ظلمي (مقلد)

وشعره كثير في هذا الجانب.

وفي شعره الحميني تتجلى طبيعته الأدبية على حقيقتها حيث يكتب فيه نظماً بعيداً عن الكلفة والتصنع. إنه يحن إلى أهله ويخاطب حبيبه ويتشوق إلى وطنه، ويمزح ويعاتب كل ذلك بصدق وإخلاص، اسمعه يدون لهجات أهل اليمن فيقول عن لهجة أهل تهامة:

شابوك أنا وامر فاق بكرة   أرض امجبل مانبا امساحل

ويقول عن لهجة أهل المدن:

واذا الصُّبى مالك هجرت صبَّك   روحي من المهجة فداك
غريب أنا بارضك أود قربك   يحل تبدي لي جفاك
زعم تريد قتلي لكثر عجبك   أنته بحل أفعل مناك

ويقول:

لك لغو جبله ولكن فيك شبه رداع   وحسن صنعاء الذي قد شاع
دعوتك اليوم تقيّل عندي بلغو اليمن   فقلت ما اسكى زعم ما أحسن

وفي غزله الحميني تتوحد موضوعاته وتتشابه.. فهنا الحنين والهجر والوصف ولعله أول من سلك جانب الشعر الفصيح في حمينياته، فله في ذلك قصيدته الشهيرة التي عارضها محسن بن عبدالكريم إسحاق وغيره، وهي التي يقول في أولها:

خطب البلبل من فوق الشجر   باللسان العربي
يا بني اللذات ذا الصبح نشر   علماً من ذهب

توشيح

فـاشـربـوا ذوب نضـار في القــدح   واشـتــروا بــالهـم أنــســاً وفــرح
واتركوا من لام فيها وألح

وقد أعجب أهل اليمن بحمينياته وتناقلوا أكثرها في أغانيهم وأفـراحهم ولعل أشهر ما غني له هو حمينيته التي أولها:

حـبيـب شــا خــالف الـعــذال   من ذا يــطيـع فيـك عــذالــه

وحمينية:

ممـشــوق الـقــوام   أفــدي بــروحي قــوامــه

وحمينية:

لا وأخــذ الله أجــفــانــك   وإن تــعــدت عــلى قــتــلي

وغيرها مما حواه كتاب شعر الغناء الصنعاني.

* شعره في الحَمَام

وكان العنسي أشهر من غنى للحمَام في الأدب اليمني وساجلهـا أحزانـه وولوعه فهو يبكي مع الحمامة فيقول:

صــادح يبعث الجـوى نغمــاتـه   طـارحتني شجـا البكـا أصـواتـه
غير أني بكيت شجوي ففـاضت   عبــراتي ولم تـفض عــبــراتــه
لست أدري والله هـل نفـد الـد   مـع عليــه أم هــذه عــاداتــه

إنه يكثر من هذا التساؤل عن بكاء الحمائم وهل هي تبكي حقيقة أم عادة جرت عليها في هذا النوح لا لحزن حقيقي إلى غير ذلك.

وقد جعل من الحملمة سميرة في حزنـه وشجنه ينـاجيها لـوعته وبكـاه، ويطارحها أنّاته وهمومه . نعم هو يبكي مثلها، ولكن صاحبنا يتميز عنها بدمعه المسكوب:

اسمعه يخاطب محبوبه ويحدثنا عن حمامته:

سميري فيك يـا قمري سهـادي   ويشهــد لي بــذاك الفــرقــدان

ومـنـتـحـب يـنــاجـيــه المـعـنى　　إذا غــنّى عــلى أغـصــان بــانِ
أغــرِّيـد الأراكــة ليت شعـري　　عَنـاك من الصبـابــة مـا عنــاني
أمـا ورخيم صوتـك وهو صوت　　تمـنـتــه المــثـالـث والمــثــاني
لقــد طـربت لنغمتــك الحميّــا　　فكــادت أن تـطير من الــدنـان
أراد الـشجــو يجعـله نـحيـبــاً　　فقـال الروض مـا لـك والأغـاني
عـلى أني بـوجـدك عنـد وجـدي　　وأشـجــاني لمــرتــاب الجـنــان
بـكــاؤك لا يـشـيـعــه دمــوع　　ودمعي سـائـل في الخـد قـاني

ويكثر شعره في الحمام ويسائله عن صوته وحزنه وتخضيب بنانه وتطويق عنقه.

وقد دفعته كل تلك المتناقضات إلى تكذيب دعواها في الحزن وبكاءالحبيب، بل وهجاها وذمها:

سمعت غنا شوهـا تدعى حمـامة　　عليهـا لحاهـا الله للقبح سـروال
فقـلت تغنيِّ كيف شئت فـإنمـا　　غنـاؤك عندي يـا حمـامـة إعـوال

ومع ذلك فقد غنَّى الناس معه أغنيته الشهيرة التي يسائـل فيها الحمـامة (حمامة وادي الدور):

وامغرد بوادي الدور من فوق الأغصان　　وامنجش صبـاباتي بتـرجيـع الألحان
ما بدا لك تحرك شجو قلبي والأشجان　　لا أنت عاشق ولا مثلي مفارق للأوطان

وهي أشهر ما قيل في الموضوع وقد غنتها معه بلدان الجزيرة العربية قاطبة.

صنعاء في شعره:

وكما أكثر من شعر الحمام نجده قد ولع بالحنين إلى صنعاء وساجلها شوقه وحنينه، وهو يحبها بقدر حبّه للحبيب أو أكثر، بل ربما جعل حبه لها على حساب حبه لمواطنه الأولى في (العدين، وذمار)... وهو بقدر ما أحب صنعاء نجده قد تذمر مما عداها يذم (العدين) فيقول:

يــا قبحهـا من بلدة لــو أنشبت　　أمــراضـهــا لم تــرج ثم الآسي

أرسى براسي إذ حللت بسوحها ألم فكل شكيتي من راسي

ويقول لولا أن والده بها لأوسع فيها الهجاء:

هل في العدين أقبح الآفات وأكأب الدنيا على الإطلاق
غير هوى كالجمر في الإحراق كأنه جوانح العشاق
لولا أبي روحي فداء لأبي أقام فيها حافظاً شرع النبي
أوردت من مقالي المستعذب في ذمه كل مقال معجب

ويلحقها بذم (ذمار، وشرعب) فيقول في حمينياته:

فيا شجوني وأشواقي لتلك الديار ويا عنائي وتعذيبي لسكنى ذمار

وفي شرعب:

فحين نزلنا بلاد شرعب غليظة الطبع يا لطيف ترعب

أنه كلما حل في تلك البلدان تحسر على سكنى صنعاء وأيامه الجميلة بها..

وكانت صنعاء هي الأثيرة عنده من دون سائر البلاد.. وهو يفضلها ويفضل أهلها فيقول:

أزال لا زال الغمام المرجحن يلثم مسك تربها الغالي الثمن
فهي التي في وصفها أتى الخبر عن النبي المصطفى خير البشر
فاترك حديث غيرها يا ذا الخطر إما لا هوان وإما لصغر
ولا تقس بربعها الميمون ربعاً ولو كان حمى جيرون

ويتشوق لسكانها فيقول في حمينية شهيرة:

يا حلولاً ربا صنعاء اليمن أي حين يجمع الله شملنا
لا عجى من بعدكم ما زاد سكن ليتكم تنظروني كيف أنا
كم أقاسي عليكم من محن كم أعاني عليكم من عنا
سادتي إن يدوم هذا الحزن شا يبدل بقائي بالفنا

وكثير من هذا الشعر حفل به ديوانه الحميني والفصيح.

* **اتجاهات شعره**

له شعر سلك فيه كل اتجاهات الشعر في عصره من غـزل ومدح ورثـاء وغيره. . وكان أبرز ما تميّز به هو الغزل: أنظر إليه يجمع أساليبهم في الغزل في هذه المقطوعة:

نـم هنيئـاً لا عــرفـت الأرقـا ... ودع الـسـهـد لجفـن مـارقـا
يـا ضعيـف الجفـن لا من علة ... بـل وهـا جفنـك مما رشقـا
آه مــن لـيــل أعــاني طــولـه ... فيـك حَرَّان الحشـا محتـرقـا
ليت شعـري أنا وحـدي أشتكي ... طــول ليلي أم كــذا من عشقـا
مـا أرى حبـك إلاّ مــذهـبـاً ... بالبكـا والسهـد مني الحـدقـا
مــدمــع دام وســهــد دايــم ... أَلِـطَرْفٍ بـينَ هـذيـن بـقـا
سـل نجوم الليـل عني هل رأت ... جفن عيني سـاعـة منـطبقـا
واعتــذر بـالله من طيفـك لي ... فـلقـد زار وَوَلّى حـنـقـا
زارني ظـنـاً بـأني راقـد ... فـرأى بـالفتـح جفني مغلقـا
آه مـن هـجـرك أوهـى جـلدي ... ومـلا قـلبـي المـعـني حـرقـا
أنت لا تقـوى عـلى حمـل دمي ... فـتـدارك بـالـلقـا لي رمـقـا
فبـدمعي وبـظلمي في الهـوى ... أنـا قـد قلدت فيـك العنقـا

إلى آخرها.

فهو في هذه المقطوعة قد جمع طرقهم من نسيب وسهر وبكاء، وطيف زائر إلى غير ذلك. وهو هذا التقليد المتبع عند شعراء المدرسة الإسلامية.

قد يبدع في وصف أشياء من حالات الحب فيتميز عنهم بعض الشيء، فهو يستعذب التعذيب في هواه:

إني لأستعذب التعذيب فيـه وإن ... قضيت نحبـاً ولما يقض لي وطـر

وهو على خلاف المحبين لا نجد عليه أثر النحول والسقام:

ولـطالما قـد قـال مـا لي لا أرى ... بــالله منـك الجسم وهــو سقيم

فـأجبتـه لم يـطلع جسمي عـلى حبي ويعجبني الهـوى المكتـوم

إنه تعليل بعيد . . . ويجوز الظلم في الحب :

أجاب الهوى من أحمر الدمع سائله فيـا عـاذلي بـالله دع مـا تحـاوله
هو النصح لكن ليس من شرعة الهوى فمن شـرعـه أن يغلب الحق بـاطله

وربما جعل من عملة الدولة وسيلة لغزله :

لم أنسـه وفمي يـوشـوش خـده لـثـماً لـه أثـر بـه مـرسـوم
فكـأنـه دينـار تبـر مخلص[1] وعليـه رسم خليفـة مـرقـوم

وقد يدعو على نفسه لأنها أصل بلائه بالهوى :

يـا مـقـلتي ذوقـي الـعـنـا فـلأنـت أصـل بـلائـيـه
يـا مـهـجـتي ذوقـي أسى واصـليْ بـنـار حـامـيـه

لكنه في آخر الأمر يسلو الحب ويقول في حمينية :

يا عيني نـومـي ويـا طـرفي ارقـد
يا جفني إن جـاء خـيـالـه فـاطـرد
خلوني أصـوم لـله وأسـجـد
حين أدنى قـلبـي وقـد كـان نـافـر

ذلك هو غزله وسلوه . . أما المدح فهو فن آخر من شعره ، وقد مدح العلماء كما مدح الساسة ووصفهم بما يوصف به العالم من تقدير واحترام . ها هو يصف علم شيخه العلامة زيد بن محمد يقول :

ألم تكن البحـر الـذي يهب الغنى ويمنـح علماً أعلم النـاس جـاهله
أبـنت لـنـا علم الـبـيـان بمنهـج بـه عـرفت للسـالكـين مجـاهله
فـإن كـان يـدعي بـالمجـاز فـإننـا وردنـا بـه الصفـو العـذاب منـاهله

والمجاز كتاب في البلاغة من تأليف الممدوح . . . وفي مدحه لساسة عصره

---

(١) فضة

نجده يكثر من تصوير قوّاد المعارك والجيوش والخيول:

وما زلت جراراً لكل كتيبة ... لها منك قلب لا يضيق ولا صدر
قليل على طيب المقام التفاتها ... كثير على أبطالها النظر الشزر
يدبرها عبل الذراعين ضيغم ... يفل الأعادي حوله وهم كثر

وقد يدرج في مدحه بعض النصائح السياسية يقول لممدوحه:

واستعمل الحلم في أبناء عمك لا ... تظهر سوى البشر للجاني وإن ظلما
وأظهر لهم غير ما تضمره تحظ بما ... تهوى وتستعبد الأيام والأمما
وفض على جندك المنصور غيث ندا ... تهمي فيغرق في فياضه الديما
فرتبة أنت فيها خيمة وهم ... أطنابها هل سواها يرفع الخيما

فهو في هذه الأبيات يدعو ممدوحه إلى استعمال الحلم في أقاربه، والتوسيع على جنده في معاشاتهم فهم عماد المملكة حسب قوله.

ثم نخلص إلى الرثاء عند شاعرنا وهو موضوع وجداني له مذاقه الخاص عند أديبنا، وهو يرثي من كان لموته وقع نفسي عنده لا تزلفاً ولا محاباة للرؤساء.

رثا شيوخه في العلم وتمنى الموت بعدهم.. يقول في رثاء شيخه زيد بن محمد:

ضياء الهدى ما بعد فقدك راحة ... فلن نتمنى أن يمد لنا العمر

وها هي العلوم تبكي صاحبها:

لئن ندبتك الكتب حزناً لقد بكى ... لها اللوح حتى خالط القلم الذعر
بكتك فلمّا ثَلَّ بعدك عرشها ... بكت نفسها قد يجمع الحزن والعـ ـر
أرى النحو يا طلابه عَزَّ نيله ... فمطلبه والله بعد الضيا وعـ ـر
أينقاد مضروباً إليكم مثاله ... ألا بعد (زيد) لا يلين لكم عمرو
ويا طالب التحقيق في الصرف لم يكن لدينا سوى (الصرف) الذي أحدث الدهر

إلى آخرها.

وهو واحد من الأدباء الذين رثوا زوجاتهم وقد حفل ديوانه بقطعة شعرية في ذلك يقول فيها:

شكيـة مغلوب من الـدهــر مغبـون ... ونفثـة مصـدور من الـوجـد محزون
وصدمة خطب كنت حاولت كتمهـا ... عليـك إلى حـين ولــو جلبت حيني
مخـافــة أن تـعنى بهــا وصيــانــة ... لقلبــك من هم وإن كــاد يــفنيني
ولكن لك الصدر الرحيب الذي ربا ... عـلى حمل أبكـار الشـدائـد والعـون
يخـاطبهـا العـاني وقـد شعــر الأسى ... لــه لاعجـاً يجني الــظلام ويـرديني
عـقيــلة داري والـتي بمـصــابهــا ... جرت أدمعي في الخد سمطين سمطين
هبيني أطقت الصبــر عنــك تجـلداً ... فكيف يطيق الصبر عنك ابن عامين

نعم إنها زوجته وقد قاسمته الشدائد تودعه وتترك طفلها وهو ابن سنتين يقول: هبيني استطعت أن أصبر عنك كيف لابن عامين الصبر على ذلك.

وكان أديبنا رحمه الله وفياً لمن أدركه وعاش معه، وها هو خادمه وقد لازمه أكثر عمره يموت فيخلد موته بهذه المرثاة يقول:

يا موت كيف سلكت نحو (عنان) ... وجــذبت مهجتـه بغــير عنــان
ولقــد تحـرز عنــك بـين أزقــة ... معــوَجَّـة تخفى عــلى الشيـطان
وغــدا يؤلف كــل كلب شــارد ... في بـابـه خـوفـاً من ؛ الحــدثـانِ
فــأتيت تمشي نحـوه في ســرعـة ... لتحـول بـين الــروح والجثمـان
قسـماً لقـد أعــدمتنـا منــه الفتى ... النفــاع لا المتكـاســل المتــواني
قد كان إن يمضي (بني مطر) أتى ... بمضــاعفـات الخــير والإحسـان
يـأتيـك بـالتبن الـزحيق ويـأتي (م) ... بـالحطب الكثـير بأقـرب الأزمان
أمسى الحمــار مـردداً أصــواتـه ... من بعــده يــرنــو إلى المتبــان
يا يومه أرخصت تبر الـدمع بـل ... أغليت تبن النــاهق الضبيــاني
ويقـول من يَنظره يجمــع دائـماً ... حــطب القفـار قصيِّــه والـداني
لا تحسبــوه آدميــاً فـهــو مـن ... أعـوان مــالــك خـازن النيـران
قــد ألصقـوه بقبــر زوجتـه التي ... سبقت فتــابعهــا بـغــير تــواني

فاقرأ السلام إذا مررت عليهما (هو أول وهي المحل الثاني)
سحقاً ليومك يا عنان فإنه يوم أدال مدامع الأجفان

إنه رثاء الخدمة والمنفعة وقد صوره فقيراً بائساً يعيش في شوارع مظلمة لا تصل إليها الجن وقد عشعشت حول بابه الكلاب الضالة، لكنه كثير المنفعة لا يكاد يستقر جيئة وذهاباً، تراه يرحل مع حماره إلى (بني مطر) ليأتي بالتبن، وأخرى يجوب القفار بحثاً عن الحطب، حتى حسبه من رآه أنه مالك خازن النار يجمع لها الحطب، ثم ها هو يموت وقد سبقته زوجته.

ولعل أديبنا من القلائل الذين تفردوا برثاء خدامهم.

* نغمة اجتماعية

لم يكثر أديبنا من الشعر الاجتماعي، لأنه لم يقل الشعر الفكاهي إلّا نادراً، وكأن الفكاهة ارتبطت عندهم بما هو اجتماعي أو خاص بالمجتمع، كما هو الحال عند شعراء الفكاهة أمثال ابن أبي الرجال، والخفنجي والشامي وغيرهم..

ولكن أديبنا يحس بما يدور في مجتمعه ولا بد أن يقول شيئاً مما يسمعه ويدور حوله، وها هي أيام العيد قد أقبلت ويحصل إقبال على النعال حتى تعدم فيقول أديبنا في «التورية»:

عدمت بذا العيد النعال فللورى حال من التنكيد ليس بصافي
لم تلق إلا سخط حافيهم فما يلقاك منهم قط (بشر حافي)

ويسمع أن عامل صنعاء سَنَّ لأسواقها قانوناً خاصاً فيقول (مضمناً):

قل لصفي الدين ركن العلا يا جوهر المجد الثمين النفيس
صفا بقانونك عيش الورى يا صاحب (القانون) أنت (الرئيس)

ويصادف في سنة من السنوات برداً شديداً جعل العاشق يعاف برد اللمى.. حسب قول الشاعر:

ألم تر البرد الذي لم يكد يدفعه عنا غليظ البرود

عــاف بــه العــاشق بـرد اللمى   وود لــو يصـلى بنــار الصــدود

وهذا الشعر وإن كان القصد منه النكتة الأدبية، فإنه لا يخلو من مسحة اجتماعية تعبر عن طبيعة العصر. . . ولعله في شعره الحميني كان أكثر موضوعية وتصويراً. . أنظر إليه يذكر قضية موت عجوز فقيرة ماتت فلم يجدوا عندها ما يكفنوها به فواروها بأشجار الحشيش الأخضر. . كما حدث في أيام الصحابة رضوان الله عليهم: يقول شاعرنا:

يــا خــبــير مــاذا الــشــدة   جـت عــلى الـبشر
ذا زمــان كــلـه كــلــده   يــنــدل الحــجــر
كـفـنــوا عـجوزاً في (جــده)   في قــلـيــل خشر
ثــم ربــطوا بــالــقــدة   لا تــروح خشر

بيت

حـال ذي العجـوز حـال أغبـر   يــورث الأســف
شــا تــقــوم يــوم في المحشر   مــوقــرة عــلف
شــا يقــول نكــير يــا منكــر   انــظر الــتحــف
أنــظر الــعــجــوز ممــتــدة   غــمــرهــا خشر

ثم يجعل الشاعر من هذه الحـادثة الاجتمـاعية البسيـطة وسيلة إلى نقده السياسي ونظرته إلى حالة الدولة وغشها العملة وبؤس الناس يقول:

يـا عجوز أسـألك بـالله الذي رزق   أحمـلي بالأكفـان حمله نحـو من خلق
واشتكي عليـه بالـدولة واربقي ربق   وأشهدي قبائل حدة كش والصور

بيت

قـوي الـذي كلفنـا في الحشر نمـوت   يــا إلهنــا دولتنــا تفـرّق البيــوت
دار ضـربهم أعمتنا كلهــا دسـوت   خلت الضعيف بـالمدة يشـظف المدر

الوزير

الأديب عبدالله بن علي بن محمد بن عبد الإلّه الوزير .

شاعر البديع والجناس ، ومجدد المدرسة البديعية في اليمن ، هـو وزميله الأديب أحمد بن محمد الحميني المتوفى سنة ١١٥٢ .

ولد سنة ١٠٧٤ ونشأ في كفالة أخيه السيد عثمان بن علي الوزير ، فحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ومختصرات في علم الكلام والعربية والفقه .

وفي صنعاء أخذ عن شيوخ عدة أو برع في العلوم حتى أصبح مقصد الطلبة من كل فوج .

ويصفه تلميذه محمد إسماعيل الأمير بقوله :

« شيخنا بحر العلوم ، وإمام المنثور والمنظوم » .

وشهد له شيخه العلامة الحسين بن ناصر المهلا بقوله :

« أحرز العلوم في سن الحداثة والصغر فبلغ غايتها »

ويصفه معاصره الأديب يوسف بن يحيى بن الحسين بقوله :

« لم أر مثله في ضبط الألفاظ ، ومعرفة اللغة ، واستحضار كل مسألة في أي فن من الفنون يلفظها من حفظه » .

وفي كلام زميله الأديب أحمد بن محمد الحيمي المسجوع ، يصف صاحبنا

بقوله :

« وهو في الأدب الآن عين مبصرة، وواحد البلغاء في سفح صنعاء إذا مد في بحره من قصره ».

وقال عنه العلامة إبراهيم بن القاسم : « شيخ أكثر علماء صنعاء وغيرهم».

وتلك شهادات علماء عصره تبين مكانته العلمية والأدبية في وقته، وقد رأيت أن أكثر إنتاجه الأدبي أتى عن مساجلات إخوانية جرت له مع أمراء آل القاسم وغيرهم من الأدباء والعلماء ، فألف باستشارة بعضهم كتباً ومقامات وقصائد .

وقد ألف في التاريخ والفقه مؤلفات اختصرها من كتب سابقة له ، وكان أكثر تبريزه في النثر الأدبي الممزوج بالسجع والجناس ، وكذا في الشعر فله اليد الطولى ، ولم تكن مصنفاته بقدر أدبه وشعره ، ولذا قال معاصره الحيمي : « هو إمام نظم ونثر لطيف ، وإن قصر باعه في التأليف والتصنيف ».

وكان من المغرمين بسكنى صنعاء ، وله فيها وفي ضواحيها العديد من القصائد التي أوردنا بعضها فيما سبق .

ومما كتبه إلى أخيه عثمان وهو في السر يحثه على السكون بصنعاء:

تحول عن السر وأقصد ربى ... (أزال) ، إذا كنت حبراً نبيها
إذا فزت فيها بلطف الجليس ... وطيب المجالس فالسر فيها

توفي رحمه الله سنة ١١٤٧ .

شعره

شاعرنا هو من شعراء المدرسة البديعية الذين أفرطوا في استخدام مستحدثات هذه المدرسة، وقد كتب قصيدة طويلة أسماها (أهرامات مصر)، التزم في كل بيت تورية، وقد اشتهرت هذه القصيدة وتناقلتها سفن الأدباء، فلا تكاد تقف على سفينة إلا ووجدتها مصدرة بأبياتها، وقد أوردها كل من ترجم له، وذكرها المؤرخ زبارة في (نشر العرف)، وشوقي ضيف في (تاريخ الأدب العربي).

قال في أولها:

أنـادم من دمع العـين جـواريـا فلا غرو إن نادمت منها سـواقيا
وأشرب في تلك الربوع مدامعي وأطرب إن شاهدت تلك المغانيا
فلو سـاجلت بحرا رويـا بمقلتي سحائب مزن لم يصـرن قوافيـا

ويكثر في شعره البديعي التوجيه بالمتون الدراسية كقوله:

إن يـكـن طـرزني أمـداحـه فهو من ذاك الـطراز (المذهب)

ومصطلحات النحاة والفقهاء ومتون الدراسة إلى غير ذلك.

وربما تأثر بمحفوظه من القرآن الكريم فاقتبس منه في شعره، كقوله:

قـالـت الأعـراب آمـنـا بـه صـدقـوا بعـد صليـل المنصـل

وقوله:

مـطلب هشت عصا مـوسى لـه خـدمـة وهـو كـريم يخـدم
حـين جـاءتـه استحيـا بهـا طـفلة في مـقـلتـيـهـا حـوم

ويضمن أمثال الناس كقوله:

إن قلت لا راحـة لي في الهـوى فصـاحـب العشقة لا يستـريـح

وهو قبل أن يكون شاعراً مبدعاً في فنه، هو أيضاً شاعر الدولة الرسمي يرصد تحركات ساساتها، ويتتبع خطواتهم بشعره في مدح تقليدي معروف، وقد مكنه مدحه هذا من الخوض في مجريات السياسة وأحداثها.

اسمعه يؤنب أحدهم فيقول:

هـذه أصنـامكم قـد جندلت وتـوارت فهي رهـن الجنـدل
نهب هـاتيك الـرعايـا هـل بـه ثـم فخـر يـا رعـاة الهـمـل
طـالمـا سـرتم إليـهم رسـلاً هـاتـكـي أرمـلة أو أرمـل
وسلوا أسـلافكم هل أشـرعـوا في صفـوف البغي سمر الأسـل

حين كانوا نصرة الحق على		كل باغ وأمان السبل

ووصف الحرب وعدتها كعادة شعراء عصره:

كأن صنعا سماء ما لها فلك		إلا الكماة على أرماحها الشهب
والخيل في موطن الحرب الزبون غدت		تمشي الهويني فلا دفع ولا خبب
بالدارعين لها مشي به ثقل		كأنهم خندريس فوقه حبب
كأن كل جواد راهب وعلى		متنيه من سور الإنجيل مكتتب
وللبنادق أصوات الرعود فمن		أجوافها الحتف مثل الغيث ينسكب
من كل مصبوبة وسط البواتق قد		تحدرست من سماء ما لها صبب
لا بل صواعق تجتذ العلائق من		حشو البنادق يبدو قلبها لهب

إنه تصوير المعركة وقد احتدم أوارها، وماجت الخيول بفرسانها وتغشى القوم صريخ البنادق ولهيبها كما يصفه شاعرنا، وتلك لوحة متكاملة للحرب أبدع فيها الشاعر.

على أن حديث الفروسية والفرسان، هو بيت القصيد عند شعراء هذا العصر، وهم يشعرون للحرب والمحاربين، كما يشعرون للغزل والحب.

وله في الغزل بدائع فريدة تتميز بحسن الانسجام:

في لثم هاتيك الثنايا العذاب		تستعذب العشقة وهي العذاب
قلبي ضام نحو معسولها		وليس يرويه ورود العباب
حديثه في العشق حق وإن		كان لديه قلق واضطراب
ما ضرّه التوجيه من قولكم		أخطا في عشقته لا أصاب

وفي غزله يكثر من التشبيب بالحلى والأقراط:

واستمع حلية في قده		إن تهادى نغمات الطرب
إن يكن بين ضلوعي ساكناً		لا عجيب كلما عز خببي

ويقول:

يا عاذلاً شنف أسماع من		أهواه ما أحسن هذا القبيح

أذكـرتني شنف حبيبي الـذي ... إن قرع الخدين أضحى يصيح

وفي أحيان قليلة يجمع بين الغزل والشراب فيقول:

ملأ الكاسات صرفاً واحتسى ... واثنى نحوي يحث الأكؤسا
فتعاطينا كؤوساً أفصحت ... إنها قد غادرتني أخرسا
عجباً ظل بها عقلي وقد ... شعشعت لي من سناها قبسا
بِعْت خلي مهجتي نقداً إذا ... ذكر المشتاق يوماً أو نسي
رشأ يسرقني روحي إذا ... ما تبدى في القبا مختلسا
وجهه كنز جمال فلذا ... بعضه بالبعض عنا حرسا
فسيوف اللحظ تحمي سوسناً ... ونبال الهدب تحمي نرجسا
لو تراني وعنان الراح قد ... راض من أخلاقه ما شمسا
قلت في ميدان سكري بعدما ... صرت فيه للطلا مفترسا

الخ . . .

وكان لابن الوزير رحمه الله أشياء من هذاالقبيل حتى يدركه المشيب، وقد تعمر وأناف على السبعين، فنجده يتحسر على أيام شبيبته، ويبكيها بلوعة إلا أنه يعود إلى مواصلة الدرس ونشر العلم:

لهفي على أيام وصل مضت ... تعدادها ما كان لي في حساب
أيام تجلّى من كؤوس الطلا ... لنا عروس خضبتها الكعاب
يا حبذا لأكؤس من فضة ... تطفح ملأى بالنضار المذاب
تلحظها منا عيون الرضا ... لا سيما إن مزجت بالرضاب
والروض ملك كسروي غدا ... يترجم البلبل عنه الخطاب
والروض قد أعجب تيهاً فلا ... يضحك إلا من بكاء السحاب
ذاك شباب لزمان مضى ... عليه أنفقت زمان الشباب
أيام فودي بلون الصبا ... كأنما اقتص جناحي غراب
واليوم كاس العلم أجلو به ... صدى فؤادي ونديمي الكتاب

الحسين بن علي بن المتوكل

شاعرنا الذي ندرسه هنا، هو أحد الشعراء الكبار الذين عرفهم عصرنا هذا، وكان ممن ساير أدباء زمانه في أنماطهم ومبتكراتهم،وفاق عليهم في أحيان كثيرة.

ذلك هو الشاعر الحسين بن علي بن المتوكل إسماعيل، أشعر أهل زمانه.

ولد سنة ١٠٧٢ (بضوران)، وقد تولى بعض الرئاسات في عصره، وعرف بالكرم، حتى قال من ترجمه إنه: (كان ينفق كل ما وجد من فراش الدار وآلاتها حتى أن والده كان يجدد فراش داره في الأسبوع والشهر).

واكتوى بسياسة عصره، فسجن في سجن المهدي صاحب (المواهب) نحو سنتين. وكان في شبيبته شديد الرفاهية محبّاً لمجالس الأنس مع عفة وشهامة نفس، كثير النفقات، ربما بلغت على مجلس واحد مائة من القروش، ثم ترك ذلك وتزهد وانقطع عن الدنيا، ورغب عن الرياسات، ولبس الخشن، وجالس الفقراء. توفي سنة ١١٤٩ هـ.

شعره

ساير شعره أطوار حياته من إقبال على الحياة والمتع إلى زهد وخشوع وتصوف، وقد عرف في أول عمره بشعر كله رقة وغزل وانسجام، وخاض موضوعات الأدب في عصره.

قال على طريقة البلاغيين من أهل البديع في التوجيه بالكتب:

مـا عـلى البـرق من وراء الثنيـة ... لـو أتى مـن أحبـتي بتـحيـه
وقـرا لـلمشـوق «تـلخيص» سر ... أعلنتـه «الحـواشي الشـلبيـه»

ويقول فيمن اسمها سلامة «تورية»:

يـا بروحي غيـدا تدعى (سـلامة) ... ذات حسـن وبهـجـة ووسـامـه
واصـلتـني في غـفـلة ثـم قـالـت ... هـات قـل لي فـما عليك مـلامـه
قـد جمعت الجمـال في أي جمـع ... هـو قـل لي فقلت (جمع سـلامـه)

وله فيمن تدعى «غالية»:

بـأبي وبي فـتـانـه ... فـوق الـغـواني غـالـيـه
قـالـت مخـاطـبـة وقـد ... بـدأت تـرد سـلامـيـه
إن شئـت تعـرف قـيمـتي ... واسـمـى فـإني (غـالـيـه)

بل وتأثر بطرق أهل البديع حتى في مدائحه، فنجده يوري بمصطلحات أهل الفقه، ويتناول الحاج في حجه فيقول:

فلكم فيـك قـد «وقفت» اشتيـاقـاً ... «مهـديـاً» مهجتي إلى «عـرفـاتـك»
وسـرى البرق ضـاحكاً فـوق أرجا ... ئـك يحكي الثغـور من عـاداتـك
لم أزل في «مـنى» مـنـائي مـقـيـماً ... «راميـاً» بـالـرجـا إلى «جمـراتـك»

ولما كان شاعرنا ممن خاض غمار السياسة، وعرف دهاليزها، نجده يدلي بالنصيحة لبعض رجال السياسة من أهل عصره ويقول:

بني عمنـا صيـرتم الـظلم عـادة ... عـلى غـير تـدبـير عـدمنـاكم معـا
أسـود عـلى نهب المسـاكـين جـرأة ... ثعـالـب إن لاقيتم السمر شـرّعـا
جبلتم عـلى نهب الـرعـايـا تجـاريـاً ... عـلى الله مـع تيـه لـديكم وادِّعـا
فمن أجـل هـذا فـرق الله شملكم ... وبـدد منـكـم كـلما قـد تجـمـعـا

.. (الخ)

وفي غزله يعجب بالأوزان الخفيفة السريعة كأحد رجال المدرسة الغنائية في اليمن ونجده يكتب مثل هذا الشعر:

عبارتي عن صبابتي العبرة ... مالي على النطق بالهوى قدره
فتور جفن الحبيب رنا ... أورث جسمي جميعه الفتره
أسهر عيني بهجره قمر ... كان لها لا عدمته قره
صبراً جميلا على مهفهفة ... قد وضعت في جبينها صبره
زهراً قد قرطت سوالفها ... وطوقت بالهلال والزهره
الخمر والبدر والصبا ... ح والشمس لجينها ضره
مرفوعة الحسن في ذوائبها ... «جر» ولكن بعينيها «كسرة»
ممزوجة اللون لا بياض بها ... ناق ولا حمرة ولا صفره
في وجهها مسك يذوب على ... ياقوت خد كأنه جمره
ومرسل الثغر تبارك من ... أرسله والعيون في فتره
يا ليتني في الحياة أنظرها ... بكره عذالها ولو مره

ويجمع في غزلياته كما هي عادة عصره بين الحب والشراب والرياض فيقول:

اسقني عسجد المدام ... وقد زين بالحبب
فلقد غنت الحمام ... غناءً هو الطرب
فتثنت له الغصون ... وهز له العذب
في رياض تضاحك ... الزهر فيها بلا عجب
نثر الغيم فوقها ... ذوب در ومخشلب
في أصيل كسا الهوى ... والربا حلتى ذهب
فاغنم اللهو واقض في ... عنفوان الصبا أرب
فالتصابي مع المشيب ... خروج عن الأدب
وسل الله أن يقلك ... فالعفو مقترب
والثم الوجنة التي ... ماؤها حُفّ باللهب
وجنة تسلب العقول ... لديها وتنتهب
وعلى الغور بارق ... فوق أرجائه اضطرب

أشعل الريح تارة في أعالي الهوا وشب

ولعلنا سنعود إلى شيء من خمره وغزله في الحديث عن حمينياته :

تصوفه

أعتزل في آخر عمره المجتمع ، وانخرط في تصوف وزهد قاس . حتى قال عنه من رآه إنه يدخل المحافل الكبرى متأبطاً نعليه ، احتقاراً لنفسه ، وهضماً لها .

واجتمع به الأديب يوسف بن يحيى في بداية زهده فقال له : «إنه طلق البطالة ونقض غزل غزلها بعد إبرامه أنكاثا» ثم مال إلى نظم القصايد الإِلَهية والوعظيات فبرز كعادته . من ذلك قوله :

توحشت عن كل الورى إذ أنست بك ... وأفنيت عمري كله في تطلبك
وما زلت للسر المصون محافظاً ... وذا انصب خوفاً وصوناً لمنصبك
وقد ذقت أنواع المشارب كلها ... فما لذلي من مشرب غير مشربك
تفردت بالإحسان والحسن فاغتدى ... بك الكون في أسر المحبة مشتبك
تظل الدراري نحو وجهك سُجّدا ... ضروب على أنواعها حول مضربك
ويا طالما أهدى النسيم نوافحاً ... إلينا من المسك الذكي حين مرّ بك
وكن كيفما تختار في الحب والنوى ... فمأرب نفسي واقف عند مأربك
ويا برق قل لي لم تلهبت في الدجى ... عشيّاً وألهبت الحشا من تلهبك
ركبت على ظهر الغمام مجارياً ... لهوج الرياح العاصفات بمركبك

وهو شعر يخلط فيه بين أسلوب الغزل والتضرع إلى الله عز وجل .

وربما مال بشعره الصوفي إلى ناحية الوعظ والإرشاد ونسمعه يعارض لامية ابن الوردي فيقول :

اترك الدنيا ودع عنك الأمل ... طالما عن نيله حال الأجل
صاح طلقها طلاقاً بايناً ... غير رجعي وعنها لا تسل
كيف يهواها فتى يرويه من ... مائها المالح ما يروي الوشل
فاعتزل عن زخرف الدنيا التي ... لم ترق إلا لمن عنها اعتزل

واعمـرن بـالـذكـر عمـراً خـاربـاً | قـد تـقـضـى في همـوم وشـغـل
واجعـل الـتـوحيـد حصنـاً يوم لا | يـنـفـع المـرء الأخـلا والخـول

إلى (آخرها)، وهي طويلة أوردها المؤرخ زبارة في كتابه (نشر العرف).

حمينياته

شاعرنا هو أديب النظم الحيمني، وقد برز فيه وأصبح شغل الملحنين والمغنين في عصره، حتى غدا حديث البيوت والنزه. وولع بشعره ربات الحجال خاصة، وكان يسير في منهجه على طريقة سلفه حيدر آغا، إلا أنه لم يمل في نظمه إلى جانب الغزل الغلماني كما هي عادة حيدر، وإنما سار به في مسلكه السليم من الغزل بالنساء والتشبيب بالخدود والنهود والقدود.

بل ولع بعادة تفرد بها عصره ألا وهي الإمعان في الغزل بالحلى من العصائب والمسالس والأقراط، وقد وقفت له على حمينية كاملة خصصها في ذلك الموضوع:

قـد لبس فـاتني «قـايـد» مكلل بجـوهـر | أو بـيـاقـوت أحمـر
وتـتـوج تـاج كسـرى و«إكـليـل» قيصر | وبـحـسـنـه تـبـخـتـر
و«قميص» مثل لون العـاشق الصب أصفر | غـير أنـه مـزهـر

بيت

و«مسالس» ذهب في الرأس عليها «رفارف» | أرخيت في السـوالـف
و«وشـاح» لم يـزل لـلضـم لـلقـد إلـف | لـيس لي عنـه صـارف
وحمـام الحـلى من فـوق تلك المعـاطف | كـل ساعـة هـواتف
كيف أصبـر عـلى حب الغـزال «المصبر» | بـين عـينيـه تـصبـر

بيت

قـد نـظمت النجـوم يـا فـاتني والأهلة | في العقـود و«الإشـله»
وجـعلت الـثـريـا «قـرط» والبـدر قـبله | من فـوق تلك «الإكله»

ولبست «الأصيل» يا شمس الآصال حله	يا سنا كل مقله
هات قل لي ومن صاغ لك من التبر الاحمر	قد يزري بالاسمر
بيت

يا بروحي الذي صاغ الأهلة معاصر	واحتجب في المقاصر
وتقلد بحبات النجوم الزواهر	وطلع بدر زاهر
وصنع من سواد القلب سود الضفاير	فلذا صار ظافر
قد ركبت الخطر لما رأيته تخطر	ينثني كغصن أخضر
بيت

وسلب مهجتي أفديه بأربع ذوائب	صرت منهن ذائب
وبحاجب عليه اللحظ حارس وحاجب	قد حكى لون كاتب
غانية غانية عن لبسها للعصائب	بالجمال المناسب
فهي لما بدت من منظر الدار أنظر	ومن الزهر أزهر

وربما تابع هذه النغمة في شعره الفصيح، ووجدناه يحشد حشداً هائلاً من تلك الحلى فيقول:

لست أنسى الوصال ليلة لقيا	ك وسجع الأوصال في عذباتك
وهديل «البريم» و«الكشح» و«المسلس»	والقرط في حدائق ذاتك
وعلى جيدك النجوم اللواتي	تستفز الألباب من «لباتك»

ولم يترك شاعرنا خصلة من خصلات الحب التي تحدث عنها الشعراء في شعرهم الفصيح إلا تطرق إليها وصاغها في شعره الحميني، ونظمها في قالب يسيل رقة وعذوبة، اسمعه يخاطب الليل في هذه الحمينية فيقول:

يا ليل خمر المحبة ينشي	ولو قل في الكاس
يا ليل طيب المحبة	يزيد في طيب الأنفاس
يا ليل تاج المحبة	بالدر رصع وبالماس
يا ليل بدر المحبة	يفديه بدرك في الاغلاس

بيت

يـا لـيـل لـولا المـحـبـة   مـا شـاقـني الـبـرق إذ لاح
ولا شـجـاني ولا أشـجـى   غـير غـنـا بـلبـل «الجـاح»
يـا لـيـل عـنـدي جـوارش   اسـمـيـتـهـا روح الأرواح
لـلحـب مـا زلـت دهـري   أنسى بهـا خمـرة الـكـاس

بيت

يـا لـيـل أهـل المـصـلا   أصـلوا بـقـلبـي هـواهـم
ولـست أعـشـق ولا أهـوى   يـا لـيـل إلا لـقـاهـم
إذا اسـتـقلـت أقـالـوا   ومـن يـقـلني سـواهـم
فـكـم وكـم قـد أقـالـوا   وأمـنـوا كـل مـبـتـاس

بيت

يـا لـيـل راس المـحـبـة   ذُلّـك لهـم وانكسـارك
وأخـضـع لـعـز المـحـبـة   وذا يـظـهـر شـنـارك
فـما يـريـدوا بهـذا   وذا سـوى اخـتـبـارك
فـحسـنهـم كـم خـضـع لـه   يـا لـيـل رايس ومـرتـاس

بيت

يـا لـيـل أهـلاً وسـهـلاً   بمـن أتى فـيـك يـا لـيـل
يـا لـيـل كن لي مـسـاعـد   في الحـب بـالله يـا لـيـل
يـا لـيـل قـطر الـعـقـائـد   يـروي كـما يـروى السـيـل
يـا لـيـل في ظلمـة البـعـد   اجعـل لـك الـذكـر نبـراس

بيت

يـا لـيـل راس الأمـاني   أمـانـنـا مـن جـفـاهـم
وفـوزنـا بـالـتـلاقـي   إذا وردنـاه حمـاهـم
يـا لـيـل يـا لـيـل يـا لـيـل   يـا لَـيـل مـالي سـواهـم
يـا لـيـل إذا واصـلوني   فـالـدهـر كـلـه لي أعـراس

قلت وهذه الحمينية تدخل ضمن شعره في الحب الإلهي ، وذلك بعد تصوفه وهو لا يكاد يفتر عن ذكر محبوبه .

ويخلط بين غزله وخمرياته كما فعل في شعره الفصيح فيقول :

قد قمرت القلب يا شبه القمر   بغنا القمري
وبوجنة قد حكت عنها الزهر   مسند «الزهري»
وثنايا كالدراري والدرر   برقها يسري
وعذار عن دخولي ما عذر   في الهوى العذري

بيت

يا حبيب القلب في ثغرك حَبَبْ   ورحيق الريق
فاسقني ما لونها مثل الذهب   من فم الأبريق
هات شعشعها مثل اللهب   تخرس المنطيق
قد عصرها في الدناني من عصر   سالف العصر

بيت

صاح أكرمها فهي بنت الكروم   تشتهيها النفس
قد غدت كاساتها مثل النجوم   وهي مثل الشمس
رجمها اليوم شياطين الهموم   رجمها بالأمس
قم فباشرها ففي كل البشر   سرها يسري

بيت

هات بالراحات راحات النفوس   وحياة الروح
التي عند النصارى والمجوس   متنها مشروح
زفها يا فاتني زف العروس   تحت ظلال الروح
واسقني ما بين ترجيع الوتر   وغنا الفخري

وهو لا يكاد يحيد عن سنن الغزليين العذريين والحسيين في أوصافهم وتشابيبهم ، وإنما حول كل ذلك إلى شعر حميني عاميّ ، يفهمه العالم والجاهل ،

والمرأة والصغير، نعم نجده يلتزم في الحميني بالبيت، ولا يكاد يخرج عنه.

وقد اشتهرت له في القرن الثاني عشر حمينية رائعة غناها الناس وتناقلتها الحارات والأزقة وهي : -

قال (أبو محسن) نشينا   في هوى الغيد الحسان
والنبي صادفت هيفا   جننت عقلي جنان
مسبلة لأربع ذوائب   فوق الأرداف الرزان
ما دريت أربع ذوائب   أو ثلاث أو هن ثمان

بيت

صحت يا زين القلايد   اسمعي لي كلمتين
بالنبي أو تخبريني   أَيْن أَيْن البيت أَيْن
شاأجي عاني إليكم   قاصداً شي قبلتين
وأرشف الثغر المنعم   بس وأمص اللسان

بيت

وإن أجى والحال يمكن   سمرتي ليلة مطيل
عندكم وإلا جلسنا   يا رشا جلسة قليل
شا نعاهدكم على العفة   ومولانا وكيل
نشهده ما بيننا بين   وهو نعم المستعان

بيت

إن عشقي عشق ثان   ما أحب إلا المجون
أعشق البيض الكواعب   عشق عفة لا أخون
ما جسر في الحب مثلي   من يشاهد بالعيون
ما جسر إلا من أقدم   أو تعاهدكم وخان

بيت

فالتفت زين القلايد ... بالعصائب والعكيف
التفت بأعيان كحلا ... تقتل بالعاش نضيف
يا مسلم يا مسلم ... يا مسلم يا لطيف
والنبي أعيان كحلا ... دونها طعن السنان

الرقيحي

الأديب أحمد بن الحسين الرقيحي ، من شعراء العصر وأحد أعلام النهضة الأدبية في ذلك الوقت. ولد سنة١٠٨٦ بمدينة صنعاء ونشأ في طلب العلم وقد أخذ في علم العربية عن أستاذه محسن الشقري ، وأجاد في تلاوة القرآن وتجويده. . ولم يتكسب كعادة أقرانه بصناعة الشعر، بل احترف حرفة خاصة جعلها وسيلة لكسب عيشه، وهي حرفة الصباغة، وكان يفتخر بها ويقول في ذلك :

يقلن لـه دع صنعـة الكف وامتـدح   ملوك الـورى إن شئت أحمد تحمـدا
فقلت وهـل مجـد لمن بـاع حـره   وقـد نـالـه بـالكف وهـو مسـوّدا

وله في ذلك :

وهيفـاء قـد سـاومتها في وصـالهـا   فمـالت بعطف كـامل أي تكميـل
وقالت أنلك الوصل ما أنت صانـع   إليّ ومـا تهـديـه قلت لهـا (نيـلي)

وله

راحتي بـالنيـل قـد خلعـت   حـلل النـعـماء عـلى بـدني
ولمـاء الـوجـه قـد ضمنـت   بـالبـقـا حتى يـقـال فـني

إلى غير ذلك وكانت هذه الحرفة شـائعة في ذلـك الوقت إذ هي مـرادفة لصناعة النسيج المنتشرة في صنعاء وسائر بلاد اليمن. وكان كثير من الأدباء قد

احترفوا الصناعات والمهن، منهم الأديب أحمد بن عبد القادر الناخوذة كان يتكسب بالخياطة، والأديب أحمد بن علي مشرح، وعلي موسى، واليافعي وغيرهم.

ويبدو أن الرقيحي تعرض لأذية وأنه سجن كما ينبيء عن ذلك شعره.. فقد ذكر جامع ديوانه أنه كتب بيتين وهو في السجن إلى أحد أمراء عصره ليطلقه، (تورية).

مولاي يا علم الهدى عطفاً على ذي ربقة ملقى بقيد وثاق
إرحم أسيراً باكياً في سجنه تجري مدامعه على (الإطلاق)

وقد أبان شعره جانباً من الحياة المترفة التي كان يقضيها جماعة الأدباء في ذلك العصر، وقد جعلوا من الغزل بالغلمان،والحديث عن الخمر، نموذجاً لظرفهم ولطافتهم، وها هو شاعرنا يستعجل رمضان للانقضاء ليعود إلى لهوه يقول في حمينية:

قد تقضى الصوم هيا نستجل شمس الكاس بعد الهلال
إنما العيش الحميا وما عدا هذا فكلّه محال

شوال جامع شمل الأحباب جميع

ويقول في معربة أخرى:

شهر الصيام له فضل وبرهان وفيه حسن لمن والى وإحسان
صمنا فصامت عن الكاسات أنفسنا وللقلوب تباريح وأشجان
والعود أنّ اشتياقاً للقاء وقد أصغت له من قناني الشرب آذان
هل عودة لي بالجرعاء ثانية فلي على تلكم الأشجان أشجان

والشعر عنده لا يأتي إلا لثلاثة أغراض فهو إما مدح، أو مساجله إخوانية، أو غزل:

إن للشعر دواع عند أهليه مجابه

وهـو إمـا لـثـواب أو جـواب أو صـبـابـه
فـإذا وليـت عـن تـلك فـقـد أغـلقـت بـابـه

ولهذا سنتناول هذه الأغراض في شعره كما أشار إليها .

توفى سنة ١١٦٢

*** مدائحه**

على الرغم من دعوى الشاعر أنه لم يجعل الأدب حرفة للتكسب إلَّا أنه مدح جماعة من أعيان عصره، وكان أثيراً عندهم لهذه الناحية، وجعله بعضهم نديماً له. وكانت أغلب مدائحه في القاسم بن الحسين بن المنصور المتوفى سنة ١١٣٩ وهو يمدح ممدوحه بالشجاعة:

لـعـزمـك دانـت أرؤس ورقـاب وقـد أمـنت سـبـل بـه وشعـاب
أذقت العـدا كاس الـردى فتشـردوا ولـيس لهـم إلَّا إلـيـك ذهـاب
لسهمـك تسـديـد عـلى كـل مهجـة وللنصـل أعنـاق الـرجـال قـراب

وربما أبانت هذه المدائح عن معارك حقيقية صوَّرها في شعره، وقد يختلط المدح عنده بالتهنئة فهو يمدح ممدوحه ويهنئه على أمر حصل عليه. انظر إليه يهنيء أحدهم بقدومه إلى صنعاء فيقول:

أبـا أحمـد (صنعـا) إليـك مشـوقـة زمـاناً وقـد أعفى على منازلهـا الهجـر
إلى أن تَبـدّى نور وجهـك فاكتست به الشمس نوراً واكتسى نورها البدر
فعـادت مـع الأيـام واليـوم سـاعـة بهـا ولـدينـا كـل عـام بهـا شهـر

ويقترن المدح عنده بحشد هائل من الثناء والمحاسن يسبغها الشاعر على ممدوحه، فهو صاحب فتح ونصر وإقبال، ونصر للدين، وعلم راسخ، وجود وصيام وقيام. . . ورأفة وحلم، إلى غير ذلك مما يحشده في شعره:

هـذا الـذي قـرنت أيـام دولتـه بـالفتـح والنصر والإقبال والـظفـر

هذا الذي نصر الدين الحنيف على ... أعدائه بمواضي البيض والسمر
طود العلوم خضم الجود ليث وغا ... أقنى وأغنى دولة الغير
القايم الصايم البر الرءوف بنا ... العابد الزاهد الأواه في السحر
أعف أرأف خلق الله، أكرم من ... مشى على الأرض من باد ومحتضر

فهذا المدح إن لم يدل على رغبة في ثواب ممدوحه فهو يدل على رهبة من بطشه، أو إنها عادة الأدباء في ذلك الوقت أن يقولوا مدحاً فيمن عاصرهم من الرؤساء والأعيان.

*** إخوانياته**

للرقيحي قصائد كثيرة ساجل بها أقرانه، ودلت على مكانته الأدبية عند أدباء عصره، فهو قد ساجل من كبار الأدباء في عصره الأديب شعبان سليم المتوفى سنة ١١٤٩، والأديب أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١ صاحب (طيب السمر) وغيرهما... ويكتب إليه الأديب الكبير علي بن محمد العنسي مادحاً فيقول مشبهاً به المتنبي:

أقول وقد فاق شمس الهدى ... بني العصر في نظمه المطرب
ألا إنه أحمد بن الحسين ... فلم لا يكون أبا الطيب

وهو في إخوانياته يكثر من ذكر الربيع وبيئة صنعاء الساحرة، فهو يقول في إخوانية بعثها إلى الأديب محمد بن علي البصري وذلك في شهر شوال سنة ١١٣٥:

ضحك الربيع وجادت الأنواء ... وصفا الزمان وطابت الأهواء
وبدت تباشير الصباح وشببت ... ريح الصبا وغنت الورقاء
وتعانقت أغصان بانات النقا ... فرحاً وصفق حولهن الماء
ودعا مناد للصبوح بكفه ... شمس توقد والإناء سماء
فانهض بنا نحو الدنان مبادراً ... من قبل تذهب هذه الأشياء

ويتذكر أيامه السالفة وما فيها من عهود جميلة قضاها بين أحبابه وأقاربه فيقول في قصيدة بعثها إلى صديقه الحسين بن علي المتوكل:

رسيس هوى بين الجوانح قد شبا — فشاب به فود القنا عندما شَبَّا
وساجل أنواء الغمام بدمعه — فوابله عن صيب السحب قد أربا
تؤرقه ورق الحمام بسجعها — ويقلقه ساري النسيم إذا هَبَّا
ويهوى اعتناق الغصن شوقاً لمعطف — نأى يحيى البدر فقد لمن حبا
فيا طيب العرف الذي ضاع نشره — وأنبأ عن حال الأحبة ما أنبا
بعرفك صف لي كيف روضة حاتم — وكيف ظباها عادها تعهد السربا
وتذكر عهداً طالما قد حفظته — سواء نأت بعداً وإلّا دنت قربا
وإياك أسرار الهوى أن تذيعها — فتعسا عليها أن سيودعها الكتبا

ثم يطنب في وصف تلك الأيام الخالية.. وتتكرر هذه النغمة في أكثر إخوانياته، وربما جاء في بعضها ما هو على شكل تقريظ لبعض كتب معاصريه الأدبية، فهو حينما يقرأ كتاب (عطر نسيم الصبا) لمعاصره أحمد بن محمد الحيمي، يكتب إليه مقرظاً:

طالعت معجز أحمد فرأيته — من كل معنى آخذاً بنصيب
وإذا بعطر نسيمه متضوعاً — قد ضاع عنه نسيم ابن حبيب

* غزله

للحب في شعر شعرائنا حديث طويل وهو بيت القصيد في أغلب ما كتبوه وشاعرنا واحد ممن خصص أكثر شعره في الغزل والنسيب، وهو يدخل فيه بحب ولوعة صادقة في بعض الأحيان وبمجون وشذوذ في أحيان كثيرة، وهو ممن أطال في الغزل بالمذكر وربما صرح ببعض أسماء حقيقية لهؤلاء ممن كان قد شاهدهم في مدينته صنعاء فمن هؤلاء من يسمى سرور:

قلت أهلاً ومرحباً بسرور — حين وافى خوف الوشاة غرورا
وسباني بنظرة من رناه — فتلقيت (نظرة وسرورا)

وفي آخر اسمه رفيق:

هذا رفيق بديع حسن — له هلال السماء شقيق

فقل لأهل الغرام هذا نجّده أينع الشقيق
وإنني فيه مستهام عن سكرة الحب لا أفيق
ولا لشرع الغرام يهدي من لا له في الهوى «رفيق»

وهو في غزله هذا يكثر من استعمال الأساليب المعروفة عند أهل هذه المدرسة، فهو أحياناً يجمع في وصفه بين المؤنث والمذكر بقوله:

وأتاك مَيّال معا طفه من الردف اشتكت
والنرجس الغض الحيي لحاظه منه حكت
وبثغره راح يحل له النفوس تنسكت
وإذا تمايل قده خلت القلوب تحركت
ولما حوى من حسنه فالحور منه قد شكت

وغالباً ما يكون محبوبه ساقياً للقوم:

فانهض بنا نحو الدنان مبادراً من قبل تذهب هذه الأشياء
فاستجلها من دنها كرخية قد قلدتها عقدها الجوزاء
يسعى بها لدن المعاطف أهيف للبدر منه إذا بدا استحياء
وإذا تثنى فالقوام مثقف وإذا رنا فله العيون ظباء
وإذا تنسم خلت برقاً لامعاً من مرشف تجري به الصهباء
وبخده ورد تناثر فوقه در الحياء وما سقاه حياء
قاسوه بالظبي الغرير وما له خد يروق وقامة هيفاء

وفي الواقع أن مثل هذا الغزل يكثر في شعر الرقيحي وغيره من أدباء عصره، وكانوا يتناولونه في شعرهم من باب الظرافة والملح وكأن الشعر عندهم لا يكتمل إلا إذا تناولوا شيئاً من ذلك.

وقد فشا هذا النوع من الشعر من مصدرين أحدهما: ولوع الأدباء في هذه الفترة بإنتاج العصر المملوكي في مصر والشام، وعنايتهم التامة بكتب المدرسة البديعية وأعلامها كالصفدي وابن حجه، والنواجي، من الكتاب، وابن سناء

الملك، وابن النبيه، وابن نباته، وغيرهم من الشعراء وهم أعلام هذه المدرسة الشعرية في الولوع بالغزل المذكر.

وثانيهما: ولوع البيئة الأدبية المحيطة بهم في الحجاز ومصر والشام بهذه الناحية، وتأثر بعض الشعراء الأعجام في صنعاء بتلك البيئات وكان المجدد لها في صنعاء، إبراهيم الهندي، وشعبان سليم، وحيدر آغا، ومن حذا حذوهم.

فما كان من أدباء صنعاء إلّا أن سايروهم في هذا المنحى. على أنه إذا نظرنا إلى شعر الرقيحي في الغزل الطبيعي سنجده يبين عن حرارة صادقة في حبه وغزله وهو من القائلين بتوحيد المحبوب والإخلاص له:

وَحَّدتّ عشقي في الحبيب إذا العواذل أشركت

ويعلل نفسه عن فراق الحبيب بالكتب الصادرة منه وبالوعود:

وهل نافعي أن الديار قريبة ويومي بعقلي من فراقك ذاهب
ولولا كتاب منك أمَّن مهجتي عشي افترقنا واصلتنا النوادب
ولولا التعلل بالوعود لما وفى إلى النوم صبري والهوى لي صاحب

ويسائل النسيم عن محبوبه وايامه معه:

يا نسيم الروض هل من عودة لليلات تقضت في الربا
حيث أشجار التلاقي أينعت نجتني في الوصل منها رطبا

وشرح مذهبه في الحب بأنه العفاف وأن العمر ساعة اللقاء:

يا فتاة قد أفتنت كل صب مقلتاها وأفسدت كل راهب
واصلي الصب قبل أن يذهب ظلماً من تجافيك واللقاء منك واجب
إنما مذهبي العفاف لعلمي أن من عف نال أسنى المراتب
إنما العمر ساعة الوصل والحب اكتساب يغني كثير الشوائب

ينتهي الأمر به في الحب بالسقم والهزال كما هي العادة عند غيره:

يكفيك منظري الشهير فإنه جعل الغرام لي السقام ملابسا

. . . وقد ينتهي به إلى الجنون إذا عاد إليه الغرام مرة أخرى:

ما زالت الأشجان تعبث بي كما عبثت بصاحبها ابنة الزرجون
طوراً أنوح وتارة أهوى هوى نفسي وآونة أقول ذريني
إن عشت بعدكم وسلمني الهوى ثم اعتراني فاحكموا بجنوني

* أغراض أخرى

ولم ينحصر شعر الرقيحي عند أغراضه الثلاثة التي حددها للشعر في أبياته السابقة، وإنما تعدَّاها إلى اتجاهات أخرى سادت عند أهل زمانه. . . . فمن ذلك ولوعه بالحديث عن الخمر وتلك نتيجة طبيعية لحياة الترف فهنا يكثر الحديث عن الخمرة ونسمعه يقول في ذلك واصفاً ابنة الزرجون حسب تعبير الأدباء في ذلك الوقت:

فعاطني الكاس يا نديمي من التي في الدنان تحجب
صفراء كالتبر ليس عنها لسابقات السرور مذهب
كالشمس ما أشرقت بكفي إلا وجيش الهموم أغرب

وترى الخمر مدعاة السرور وأنها تخر لعظمتها الكؤوس:

وأبيك إن الخمر تحبو ربها ما عنه من فرص السرور حجاب
ما بين أخذ للزجاج وردها معنى به تتحير الألباب
ولو انها انتصبت على ساق لها خرت سجوداً نحوها الأكواب

ومذهبه في الخمر التصريح بشأنها حتى يكتمل السرور وقد اكتملت في عين محبها حتى لا يرى فرقاً بينها وبين ضوء المصابيح:

وصرح لسمعي لا عدمتك باسمها ليكمل معنى الخمر منها بتفريح
فمقترح الكاسات غير معنف سوى كل خال قلبه غير مقروح
مذهبه قد كللت تاج كاسها يد المزج دراً ثم حيَّت بتفريح

لقد لطفت معنىً وشكلاً فما ترى   لناظرها إلا كضوء المصابيح

وقد اقترن حديثه عن الخمر بالحديث عن الرياض فهو يصفها بما وصف الخمر ويحدثنا عن عليل النسيم، وحركات الغصون وتلبد الغيوم وجلجلة الرعود إلى غير ذلك:

أما ترى الروض قد تحلى   بتاجه الرومي المذهب
وفيه ساري النسيم أضحى   يجر أذياله ويسحب
ترقص فيه الغصون مهما   حمامها بالسجوع أطرب
أما ترى الغيم مثل ملك   فوق الدنا للخيام طنب
ونثر السحب عقد در   أربى على اللؤلؤ المثقب
والرعد جاووشها بأمر   يسوقها أينما يشا الرب
كأنما البرق حين لألا   بكفه صارم مخضب
والنهر اندفاق جيش   مزرد والكماة تلعب

وحديثه عن نزهتي صنعاء (بئر العزب) والروضة جزء من حديثه عن الروضات وهو يصفهما بما وصف الطبيعة المحيطة به:

سقا الروضة الغنا غب الحياء وهنا   وبل ثراها بل سقى السهل والحزنا
وجربها ساري النسيم ذيوله   وميَّل في أرجائها الغصن اللدنا
وعطر منها الأرض طيب نسيمها   وشحرورها من فوق أغصانها غنى
وصفق في ساحاتها النهر وانثنى   يقبل أقدام الغصون التي تجنى
وقد غض فيها النرجس الغض عينه   حياً وحياً وهو لا يرفع الجفنا
وافتر ثغر الاقحوان تبسماً   ومن أنمل الخيرى بالخير صبغنا
فيا حبذا الروض الأنيق وحبذا   معاهد أنس طاب فيها لنا المنى
نزلنا رباها بعد أن جنح الدجى   ولاح بوجه الصبح كوكبه الأسنى

ويصف نزهة (حدة) بما وصف الروضة:

(حدة) جنة الدنيا ففيها   زهر كالزواهر السيارة

نكس الماء رأسه من ذراها   وسعى باسطاً لديها اعتذاره
وأدارت جداول الماء بالغصن   فخلناه قد تحلى سواره
قد كساها الربيع إكليل ملك   كللته السحائب المدرارة
حجبت أرضها عن الشمس حتى   غربت في حجابها مختارة
عطر الأرض نشرها عندما فا   ح صَبَاها وفي صَبَاها أمارة
قد مررنا ساحاتها ونزلنا   تحت أغصان دوحها النواره
وعليها هواتف الورق تشدو   بمعان تذوب منها الحجارة

وهكذا نجد الرقيحي يعجب بحركة الطبيعة المسخرة، ويصفها بما وصفها شعراء الطبيعة الثائرة من أدباء العربية.

على أن شعر الرقيحي ليس كله مجون وأفراح وتكسب، فهنا أيضاً الحكمة والموعظة وقد غزا الشيب رأس أديبنا وآن له أن يرجع عما كان فيه، ونسمعه يقول وقد بلغت به السن مبلغها:

تقضى الشباب وولى الصبا   ولاح بفودي صبح المشيب
فمَرَّ كما مر طيف الخيال   على مقلة أفزعت بالرقيب
وهل خلفاني سوى قالب   به أفرغت موبقات الذنوب
وها نحن في موضع الانتظار   لقرب البعيد وبعد القريب

وكان معاصره الحيمي قد وصفه بالنسك والزهادة، وله ديوان شعر طبع منه مؤخراً القسم الحميني.

الخفنجي

شاعر الغزل والفكاهة

كان للأدب اليمني في هذه الفترة شخصيته المتميز بها عن آداب البلاد العربية الأخرى، وقد برز هذا في شعرهم الفصيح وبرز أكثر في شعرهم الحميني الدارج.

على أن مجدد هذا النوع من الشعر ورائده الأكبر هو الأديب علي بن حسن الخفنجي، ولقب الخفنجي ليس علماً على أسرته، وأغلب الظن أنه مما لقبه[1] به زملاؤه في الشعر الساخر وقد عرف لهؤلاء الزملاء ألقاب ساخرة يتعارفون بها.

كان الخفنجي خفيف الظل سريع الحركة يكره التكلف ويبغض الرياء، ولّما وجد الأدباء في عصره غارقين في محسنات البديع وزخرفة اللفظ، رجع عن طريقهم ورسم لنفسه طريقاً مبتكرة في الأدب ألاَ وهي طريقة النقد الاجتماعي الساخر. وقد خصص لها كل حياته وشعره وأصبح بذلك جديراً بالريادة والابتكار.

نعم سبقه كثير من شعراء الحميني في طريقته وأسلوبه ولكنهم لم يتناولوا الموضوع كما تناوله من حيث الكثرة والطرافة . . . على أن وجود الخفنجي قد أحدث ثورة في الشعر اليمني حيث فتح أبواباً مبتكرة في الإصلاح الاجتماعي الذي نهج أسلوب السخرية والاضحاك، وظهر بعده جمهور كبير من الشعراء الساخرين يقتفون طريقته ومنهاجه، كان آخرهم الأديب أحمد بن حسين شرف الدين المعروف بالقارة.

---

(١) وقيل إنه إسم ديوانه

وعلى الرغم من أثره الكبير في الأدب اليمني فإن المصادر الأدبية قد سكتت عن ترجمته وحتى الوفاة التي حددها له المؤرخ زبارة في (نشر العرف) وهي سنة ١١٨٠ مشكوك فيها .

وكل ما نظفر به من حياته عبارة عن نتف يسيرة وردت في شعره، فقد عرف عنه ولعه بصحبة الأدباء الظرفاء من شاكلته وكان له منزل في بئر العزب يسمى (السقيفة) يجتمع فيه بجماعة منهم وقد أشار إلى منزله هذا في شعره فقال :

سقيفتي ما مثلها مفرج ... ولا لها في شكلها مثيل
بستانها لونه كما الدهنج[1] ... ويقلب أصفر ساعة الأصيل
وبابها من خصرتين شنهج ... يزينها والمغلقة صميل
والبورعي فيها إذا عجفج ... خَلّا قلوب الحاضرين خثيل

وتلقى السخرية والمفاكهة من إخوانه كما تلقوها منه وهم يتعاطون المهاجاة ويفتخرون بها، كما لو كانت مدائح، أنظر إلى هذه الصورة المضحكة لشاعرنا وقد رسمها له زميله الأديب أحمد بن محمد أبو طالب (شغدر) .

وجك يا خفنجي لحوحة شعير ... إدامه مَرَقْ ذبان
ولك شاربان مثل سبلة بعير ... جرب قد علاه جحوان

. . . إلى آخرها .

فكان هذا الشعر طرفة الظرفاء في مجالسهم .

* مذهبه الشعري

الخفنجي شاعر حميني أخلص لهذا النوع من الشعر ولم يكتب غيره . . ولعله قال شعراً فصيحاً ولكنه لم يصلنا ولا يستبعد أن يكون قد كتب الكثير فيه . . فهو شاعر متمكن من صناعته من حيث التصوير والأوزان والمعارضات وهو ذو ثقافة شعرية كبيرة لا أدل عليها من معارضاته الكثيرة لغرر الشعر الحميني والفصيح :

عارض موشحة « يا حلول الأثل والبانا» :

فقال :

قـل لـسيـد الـغيـد يلقـانـا　　وقـد نـويت الحب مـن هـانـا

إلى آخرها . . .

وعارض قصيدة « اعتزل ذكر الأغاني والغزل» ،

فقال :

ملقـني سـنب وقـوس وارتجـل　　تمـدق حين طعم مـذغ العسل
وارتـقص لمـا تبـدى نـظمكـم　　وحمى رأسـه وقـد كـان ارتقـل

. . . إلى آخرها . .

ولكنها معارضات هازلة تجعل من الفكاهة والنكتة هدفها الأول . . وكانت أكثر معارضاته لقصائد الشعر الحميني عند أهل اليمن بعد أن يحول مضامينها من جد إلى هزل ، ولا يجد غضاضة في استعمال الفاحش من الألفاظ . . . وقد استعمل في شعره التعبيرات العامية الموغلة في عاميتها ، بل ربما ضمّن شعره تشابيههم وأمثالهم الدّارجة فنحن نجد في شعره من أقوالهم الدارجة «قمزة كوكبان» :

وتقم بـكـرة بقمـزه كـوكـبـان　　بـالهـوى　　مـعـجـون

و(ربع محوفر) :

مـا شفت أنـا مثله أديب عمـري　　وضحكته تسوي (ربـع محـوفـر)
و (لحـفـة　　جَـحّـافي)　　« يخـطر بـلحـفـة « جَـحّافي»

إلى غير ذلك من التعابير والتشابيه الدارجة في عصره خلال القرن الثاني عشر وهو ربما ضمن شعره أسماء شعبية لرجال حقيقيين عاصرهم منها « جابر دغيش » شيخ قبيلة في زمنه :

مـا يشبـهـك جـابـر دغيش　　ومـن سـكـن في كـل فـيش

وسالم شلق «خياط» :

تـشـتى تـقـع سـالم شـلق والله هـذا مـنـكـره

والحنبصي «مغني» :

وتسمـع غنـا الحنبصي والنـفـير أوِلاَّ قـدك دشـمـان

وشخصيات اجتماعية كثيرة يزخر بها شعره .

ويستعمل تعابير النساء في أحاديثهن ومجالسهن :

طـلبت قـبله خـال خـده جبـر فقلت لـه « يـا بي جبـرني »

ولهجات بعض البلدان، يقول على لسان أهل «خولان» :

قـال ابن خولان هـات إم مـوهفـة بـادق تـوهيف إلى وقت الغـروب
من بايغزر بشـدفـة مسـرفـة فيها نسيم الصبا جت من شعـوب
وإن حمى أم طست هات أو موطفـة وقرب أم مـلعقـة وقـت القـلوب
وغسـل أم مخبشـة وأم مغـرفـة واسقى أم شادن أم خشف أم لعوب

ويكثر هذا في شعره فهو لم يترك فئة من فئات المجتمع إلاّ وسجل عاداتها ولم يسلم منه حتى الفقهاء والعلماء. اسمعه يسخر من أحـدهم وهو يـطلب من تلميذه إحضار كتابه للدرس .

إليـك يـا مفتـاح جـر الكتـاب وقـرب الجـلاس نـشتى نـعيـد
وقـل لأخـوك يسـرع بشـرح « العبـاب » إذا مـراده مننـا يستـفيـد
مـا قصـدنـا إلاّ ننـال الثـواب وإلا فـذهنـه في الحقيقـة بعيـد
ومن قـرأ قـالـوا وعـادة شبـاب في سن «صالح» أو قريب من «سعيد»

ويقول :

جي عندنا المنزلة تطعم لحوح يصفي البـال قـد انتخب في النخـول
خل التتن وانتشق عندي برادق من العال من دق (زيـوان) عمـول
والشـرح والمتن والتلمذة وعـاده وفنقـال والتـحـشيـة والـنـقـول

وحتى الأدباء نجده قد مازحهم بشعره وسخر من مصطلحاتهم وأسماء شعرائهم يقول :

ألا يا ناظم الشعر خلي لك خميره
وفي تنتح المعاني يكون لك يد كبيره
وإن تعجن قوافي فلا تخبز فطيره

ويقول :

والبحتري شعره بقي بشمله وابن النبيه ما زاد لقي
ودور النحاس وابن مقلة وأبو دلف والمتقي

ويقول :

يا ريح بلغ «صردر» أزدمر وأقريه من علوى تحيه

وسخر حتى من نفسه فالإلهام الشعري عنده «فنقله» :

هات القلم يا صاح وامزج[1] لي واروع توطل[2]
واسمع وشيش الشعر والفت إلي قد بين[3] «افنقل[4]»

ودل هذا وغيره على اطلاع في الأدب والدين فهو مثقف يناقش بعلمه أهل العلوم بأسلوبهم كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد .

* الفكاهة في شعره

للفكاهة مادة كبيرة في شعره إن لم نقل كله . وقد اشتهر بين أدباء عصره بسبب ما أتى به من إبداع فريد في مجال الضحك والنكتة فهو يسخر من كل شيء ويضحك بكل وسائله . دون خشية وحياء ولعل سر النكتة عنده يعود أساساً إلى مفارقاته وتشبيهاته الغريبة وصوره الضاحكة . يصور لنا الجار فيصفه بهذه الصورة المضحكة :

---

(١) أي أمزج الحبر
(٢) وطلّ الماء : قطّر
(٣) بمعنى حين
(٤) أفكر

مـا صـاحب إلا إذا بيتـه قـريب   إذا ضـرط قلت هـذه شـرشـره

ويجمع بين المتضادات فيأتي بما يضحك الثكلى :

فـاسـتـمـع مـني درر
تـتـسـاقط كـالـبـعـر
لـيس مثـلي مـن شـعـر

وربما استعمل عبارات أهل الحرف والمزارعين في مواقف دقيقة من الغزل والتصوير ، فكان لهذا أثره في الإضحاك :

يعـرد بميضـاف جفـونـه   أيّـن حـسـام
شـريـم صـارم عيـونـه   يـبـري الـعـظام

ولعل أكثر ما أضحك الناس في شعر الخفنجي هو تشبيهاته الفريدة فهو يريد أن يصف محاسن الحبيب فاذا به يذمه اسمعه في هذه التشبيهات العجيبة :

يـا من رضـابـه مثـل الـصبـر   ويـشـبـه «المـوحـز» قـوامـه
الفي عـلى مضنى شجي ضـجـر   في الليـل كمع يـطلع «قعـامـه»

أو أن يقول مشبهاً طلعة حبيبه بشمس القبور وقد بعدت عن العمران :

واشكي عليك من ريم شادن نفـور   كـالـغصـن في قـده رشـاقـة
طلعـة مُحَيَّاه مثـل شمس القبـور   ووجـنـتـه مـثـل الـرقـاقـة
وشم عـرفـه مثـل شم البـخـور   وطـعم ريـقـه فيـه عـقـاقـة

إنه خلط بين التشابيه المتضادة . . .

وفي تشبيهاته الضاحكة طرائف عجيبة أنظر هذه الصورة المضحكة :

لي خـل رأسه مثـل زُبّ القعـود   قـد طـال في حبّـي قعـوده
وجـربة أو جـانـه بتضـرط ورود   وفي الـدّجـا مـا أحـلا وروده
خـالات خـده تشبـه الخنفسـود   والـشـعـر ذيـه خـنـفـسـوده

ويحول نظرات العيون من سهام ترمي العاشق بسحرها إلى بنادق مخيفة محشوة

بارود ومن عسل يجد طعمه في لمى الحبيب إلى خل تعافه النفوس أنظر هذا في قوله :

بندق جفونك هات كم هي قفال   وفي لماك الخمر خلّا

ويكثر من هذه التشابيه الضاحكة :

سلام يا من يسير سيره خبب   ومن حزامه محيط بالفنجتين
ومن قوامه ذراع فوق الركب   ومبسمه مثل رأس الكلبتين
ونخرته في وجه مثل المصب   وأعيان حمرى شبيه الجمرتين
وضحكته صوت ضرطه في مسب   يفعل معي صوتها والفهقتين

وهذه التشبيهات وغيرها جعلت للنكتة عند أديبنا طابعاً خاصاً وقد شجعه هذا على أن يسلك غزلاً ضاحكاً يكاد ينفرد به وحده فهو يتغزل في الحبيب فيصفه بتلك التشبيهات الضاحكة فهو في قوامه يشبه شجرة السلوة ومبسمه يشبه الفجوة ولماه طعم السليط إلى غير ذلك :

يا صاح خلّي من الخلوة   بدا وهو لابس المعود
وله قوام يشبه السلوه   طوله ثلاثين ذراع أو أزيد
ومبسمه يشبه الفجوة   وحاجبه من حروف أبجد
وفي لماه معصرة عطوه   إذا احتساها العليل فرهد

بيت

والخد يحتاج إلى بغله   إن زاد فيه الهيف في الجيد
وله عذار مختصر سبله   عليه سيف اللزق من سيد
لكن في طلعته بدره   ونخرته فار في مبزيد
والخال قطرة من القهوة   مصوره فوق صحن الخد

ويرى برد الثغر كلذة أكل خبز الفطير على جوع :

وريق الثغر بارد   يريح مثل خبز الفطير

وغزله من هذا النوع الضاحك . . .نعم قد تجد له شيئاً من الغزل الجاد إلّا أن هذا قليل في شعره . .

حياة المجتمع

شعر الخفنجي مرآة لعصره وهو وثيقة اجتماعية كبرى لحياة الناس في القرن الثاني عشر أغنت من عشرات المجلدات، ولو درسه الباحث دراسة متأنية لخرج بصورة اجتماعية نادرة . . . وهو يصور حياة الناس بأسلوبهم المتعارف عليه . عندهم بعيداً عن التكلف والصنعة الأدبية، بل نجده يستعمل في شعره لهجاتهم ومصطلحاتهم في الأشياء الدقيقة كما أشرت إلى ذلك فيما سبق .

وهو ناقد يفضح الناس في سلوكهم ويعرض بحياتهم الخاصة وقد استعمل مشرط تجريحه في الفئات التي تضع الوقار ستاراً لأعمالها السيئة .

وكان أكثر هجومه على المرائين الذين يجعلون من عبادتهم أمام الناس سلماً لمآربهم الشخصية وأطماعهم . . . هذا رجل يهدف من «برصصته» وركوعه أقراص «الملوج» و«القفوع» .

أو هو يفيد كثر التبرصاص (يعني) وتطويل الركوع
فقد يكون حيله للأقراص وللملايج والقفوع

ويقول :

لكنها « البرصصة » بنت الزنا قد كلفتنا على أيمان الفجور
إن ناكلك فأنت واحد مننا وإن قلت حقي بقي طبعه يفور

ويقول انتبه على ملابسك من هذا الرجل :

أروع لباسك كن رقدة تحت راسك وكعوته كالبنمجي
واجمع حواسك لا يطرقه سيد ناسك بالمسبحة والبروجي
واحفظ مداسك وشد جرمك وباسك ولا تكن شي سروجي

وكان أكبر سخطه على أولئك الذين يتصدون للفصل في قضايا الناس فهؤلاء لا همَّ لهم إلّا إثارة النزاع وسلب الأموال :

واحنث وزلبي والبس عباه حق حزبي ودولب الناس للصصك

واعــكــف لــربي وقسم الليــل وخبــي للسرق حَشّر مرفقك
وعــف واحــتــال على البصائر والأعطال وابسق لمن طالب يمين

وقد نفر الخفنجي من أولئك الناس وهـدد مجتمعه بقـطع الطريق إن لم يصلحوا من أمرهم :

إن بـه ديـانــة عـلى صحــة بنـا وإلاّ فقـطع الـطريق والله غفــور

وسخر حتى من حياة العلم والمتعلمين وقد عرّض بكتبهم ومتونهم الدراسية فقال :

كسـرت رأسـك مع رؤوس العبـاد ومــا بـدا لــك بعلمك بــاديــه
قــرايـتــك أصلهــا تـشتى بــلاد وبــالـلمــع والحــواشي نــاحيــه
وقيمـة الشـرح تــدى لـك بجــاد وتـشتــري بــالخـبيصى جــاريــه
والـشــاطبـيــه بهــا غثــة جــراد وشــل غثـة كــراث بــالشــافيــه
والتـذكـرة قـد تخـرِّج لــك رشـاد واشـرك من الكــزبر بـالكـافيــه
نهج البـلاغـة يقـع عيشـه سـداد وان هــو محـوشي فعيشــه هــانيــه
مـا يفعلوا بـالبيـاض هـو الســواد و«النــاظـري» تــرهنــه في رابيــه
وبـالشفا تشتـري من وقت الكساد إذا وصــل لبنتــين في الصــافيــه

هذه كتب الدراسة لا يرى الخفنجي فائدة منها يقول (ما يفعلوا بالبياض والســواد)؟

وهو يقارن بين حياة الطالب المتفرغ للعلم في(المنزلة) وبين المرتبط بعائلة فيقدم لنا صورة اجتماعية فريدة .

فالكبير عنده لا فائدة من تعليمه وخاصة إذا كان صاحب أولاد يطلبون منه ما يسد رمقهم :

هـا والكبـير يقـرأ قـرايــة خـراب مــع الشغـل يحضر وذهنــه بليــد
كـما مـع التكليف يعمى الصـواب من فجر و(الجهال) يشتـوا عصيد

بيت

وعـاد إلى العصيدة حليب أو عسـل ... ما هي خفيفة روح مثـل « الفتوت»
في « المنـزلـة يقنـع بمـا قــد حصـل ... ويـسلـم المـونــة وهــول الـبيــوت
يحتــاج إلى مقــلا وكــوز أو مــدل ... وصـحـن أيـضــاً يفـعله لـلشفــوت
وكـيس يـعــني هـكـذا أو جــراب ... لاجل (الشياطة) خل عنك الوقيد

توشيح

وبـيـت لـــلصَّــلا مــوكـف
وعـــطب للمغـزل ومنـــدَف
وخـــز للحـرمــة وشــرشف

تفضيل

نعم وحـــال منــه يشيب الـغـــراب ... أيضــاً إذا عاد صـاحبِ البيت وحيد
وحـــرمتـــه تؤذيــه بكــثر العقــاب ... وتشتـهي مـلبــوس منُّــه جــديــد

بيت

وتـشتى الـبسط الـعـجيـب لـلولاد ... ويـاتوا « الـوعـوع » إلـيك يـزبلوك
ومـا معـك مــا تشتـري بــه مـداد ... يكـاد تـدخـل في قميصـك شكـوك

هكذا كانت حياة المسكين موزعة بـين تجميع ذهنـه لفهم العلم ، وبين طلبات أولاده المتواصلة، لهذا نجده يضطر إلى توليـة القضاء في بلد بعيـدة أو الدخول في قسمة تركة أو طيافة مال :

هــذا الكـلام ممــا سنح لي وعــاد ... أشـيــاء تهبـل الـعـقــل لله أبــوك
نحتـاج نتـولى القضــاء في وصـاب ... لأجــل هــذا وأنــت مــني وديــد

توشيح

ومثــل قسـمــة أو طيــافــة
يقــع لنــا فيهــا ضـيــافــة
نتجــر إليهــا بــالإضــافــة

تلك صورة طالب العلم في عصره تعب ومشقة في سبيل توفير حاجاته . . . لهذا دعا إلى ترك الزواج :

كل الغثا من تحت رأس الذكر　　أصل الدياثة والهيانة

ثم ينحدر بشعره الاجتماعي إلى عرض صور من سلوك الناس البسطاء وتصوير حياتهم الخاصة فيأتي لنا بشيء جديد . . يصور بساطة الفلاح وصبره فيقول :

يسني ويشغب ويفعل كل شيء　　وتبصره ضبر ما يعرف تعب
يسرح بباكر ويضوي بالعشي　　يمسى ويصبح وهو مطلى خلب
يفعل بقارى ويبقى منتشي　　ويجترد موج إذا المزمار ضرب
كم سقف هايل من الموج اهتزر　　قالوا قرب هذه البقعة مزار

هذا الفلاح المسكين لا يعرف الراحة وهو يضل طول يومه يحرث ويأتي بالماء من أعماق الآبار فلا يكاد يصل بيته عند قرب العشاء إلا وهو مكدود القوى ، فيلقي بنفسه على فراشه دون أن ينظف حتى جسمه من التراب العالق به .

ومع ذلك فهذا الرجل حساس يتذوق الفن ويطرب عند سماع الغنا فما يكاد يسمع المزمار إلا وقد تمايلت أعطافه . وكم قد تساقطت سقوف نتيجة لهذا الفن المترسخ حسب تعبير الشاعر . . .

وكان الشاعر قد صور حياة الفلاح بقسوة وسخرية كما هي عادة أهل المدن مع أهل الأرياف، وهي أنهم يسخرون من حياة أهل الريف بدافع النكتة والمجون ، وليس هذا في اليمن وحده بل وفي سائر البلاد العربية ، ومن يتأمل كتاب (هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف) للشربيني يجد الكثير من هزل أهل المدن في مصر حول أهل الأرياف .

وكان الخفنجي مصوراً اجتماعياً باهراً ، يعطينا من حياة الفلاح هذه الصورة اليومية المتكررة ، وقد انخرط مع النساء في عمل متواصل .

توشيح

والولــد محكـوك شـاقي
في الشغـب مـالـه مـلاقي
بـين العيـال لـو يـتـاقـي

تفضيل

تــراه بـعـد الـثـور يـعـتصر سفـل الـوعـر مثـل الحمـامـة
والصبـح يـتغـذّى نـشـوف بـر وقـام يـقـفـز وطـن قـامـة

بيت

مـا يعـرف الخنجـر من الشـريم أيضـاً ولا المغـرس مـن الفـاس
إلا وكـان عَـصَّب مـع الحـريـم سـاعـة وبعـدا يقـلب الـراس
حـين يسمع الناقـوس قـال بـريم يـنغـم فضـحـك جملة الـنـاس
لـكـن في المـرنـع تـراه يـوثـر يـطلع ويـنـزل كـالـنـعـامـة

تلك حياة الفلاح وثقافته البسيطة . . . وصور عادات الناس في مأكلهم ومطاعمهم فأبان عن صور فريدة من الحياة الاجتماعية اليومية . هذا صاحب (حضور) يعجب بأكلاته الشعبية ، وينفر مما عداها يقول :

وخـيـره أم لحم مـا فيـه أم دسم وإم مـطبخية جميـع دون إم حنيـذ
وان تـلحمـت خضـرامـة غـنـم وإن شئت مشروب فامقـطرأم نبيذ
فـما احـيـلا تبـرطـام إم بـرم وأم مظر وأم عود في شم إم قـذيذ
وإم هيـل عليك بـه وخلى إم قفـه ولا تـعـطـر بـأنـواع إم طيـوب

توشيح

وقـبـل مـا رام حـامـج
لا تـشتـغـل بـام زلاغـج
ولا الـدجـاج وأم ضـرارج

تفضيل

خلى أم قوازى لأهل أم تيرفه لحم إم مخاصي يليق بك يا أم لعوب

بيت

وإم رز لأهل الفواديق وأم طبيخ وام رازبوت وأم (فرنج) وأم (بينيان)
كما أم خنازير ياكلها أم (فرنج) لحم أم (فرنج) ما يباه أم (قنطبان)
وأم فرسك أم عوف كامبلح وأم شيخ ما هو نفيسي أم سنان ؟

إنه يميل إلى اللحم الخالي من الدسم ، ويكره مأكولات الهنود والافرنج . ويبدع في تصوير الشهية ، فهذا عسكري أكول يصوره الشاعر بأسلوبه الساحر فيقول :

والشيخ جابر هو شديد إذا حضر وقت العصيد
وقد يسيِّخ من بعيد إن جاء وفيها بربره

بيت

أما إذا شم المرق تظن أنه قد زعق
فإن يرى المقلا برق تسمع لدقنه صرصره

بيت

وحين يجر الحميري تظن أنه قد خرى
ماذا فعال العسكري هذه شروط العومرة

بيت

كن جِرَّلَكْ في الكازرون من نشوته تنبت قرون
واطلب من العاقل زبون من المليح الأندرة

ويحشد في غزله الساحر طائفة من تلك المأكولات الشعبية فهنا (الأرز) واللحوح والعصيد إلى غير ذلك :

ما أطعم الرز والمدلاّ ألذ من جرم كوكبان
يا من محياه بنت صِلاّ وفي خدوده « خميشعان»
ومن رضابه عصيد مقلا إدامها دهن جلجلان
ومعبل الخد بالحليب يرد لك في الجمم صباك

وهكذا يمضي شعره عارضاً صوراً فريدة من حياة المجتمع والناس وهي أكثر بكثير مما أوردناه هنا .

*** القصة**

وقد تميز شعره الاجتماعي الساخر بموضوع خاص بشاعرنا لا نكاد نجده عند غيره من أدباء العربية قاطبة ، وهو القصة بأسلوبها المعاصر من حيث أخذها بجانب اجتماعي ناقد يتعلق بالناس ومشاكلهم وهي في عمومها تعتمد على لقطة واحدة يعرضها الشاعر على لسان صاحبها بدون أحداث أو عقدة كما هو معروف في القصص الإسلامية القديمة .

أنظر مثلاً إلى هذه المرأة وقد دعت خادمتها أن تأتي إليها بأشياء قبل أن تغادر بيتها إلى منزل خالتها :

قومي ادى ستارتي — واللباس حاشي المقام
شا أسير عند خالتي — زوجها جاء أمس من شبام
والحقيني بقهوتي — والسراج لا يقع ظلام
واسمري عند جدتي — لا تنعّس من الخرام

توشيح

وعربني في دف بنت قبان
واستكري اللبة وعقد مرجان
وادي لنا غتة شذاب وريحان

تقفيل

وان تجي بنت عمتي — فاروعي يخرج الكلام
واسمعي يا بَزيّتي — لُفي الكنس والقمام

بيت

واسخني في المدلَ ما — واخمدي دبية الحليب
لا تجيف من الحما — يضحكوا بيت أبي غريب
وسعيده لها العمى — لَيِّنة لَفَّت الزَّبيب

يـا عــوزي مــا لــصــونــتي فــوق دقــني بــقــت لــثــام

توشيح

قد جَرَّت الدبعة مع المشاقـر
بقى جبيني مثـل دقن شـاكـر

تقفيل

والــعــرق فــوق جــبــهــتي يــســتــكــب مــثــل الــغــمــام
قــد وصــل فــوق عــنــقــتي يــوه فــغــرتي ســلام

بيت

إبزي الــبــنــت والعــيــال واروعــي تــدسعــي ســعــود
وارعـفي عـصيـدة الـرجـال هـي هــريش خفَي السـفــود
عنـدهـم ظيف من (الـطيـال) جــاء بخـنجــر وكسر عــود
واســألي ســليــفــتي شي مــعــاهــا خــرى حمــام

هذه قصة كاملة تعتمد على الحدث الواحد ، أنها ربة بيت تهم بالخروج لمؤانسة خالتها بمناسبة قدوم زوجها من شبام ، وتطلب من خادمتها أن تحضر لها ثيابها وستارتها (خمارها) ، وأن تلحقها بالقهوة والسراج إذا أقبل الليل ثم تعود إلى بيتها لمؤانسة جدّتها حتى لا يدركها النعاس، وقبل أن تعود إلى البيت تطلب منها أن تمر إلى بيت قبان وتستأجر منهم الدف أو تعربن فيه (تعـطيهم مقدم الأجر)، ثم تمر على البستان لقطف باقة شذاب وريحان (نوع من الورود) وكأنها تستعد للاحتفال بمناسبة عائلية .

ويستمر خطاب ربة البيت فهي تؤكد على خادمتها أن تكتم خروجها عن ابنة عمتها إذا حضرت ويبدو أن بينهما خصام ، ثم تطلب من خادمتها أن تلف الكنس وأن تسخن ماء وأن تغسل ظـرف الحليب إلى غير ذلك . وربة البيت هذه من النوع الذي يحدث نفسه ، فهي تلتفت إلى نفسها فتجد خمارها قد نزل إلى أسفل دقنها فتحدثنا بذلك، وتحدثنا عن العرق وقد تصبب من وجهها وغيره

ثم تعود بالكلام إلى خادمتها وتطلب منها طلبات أخرى فعليها أن تهتم بالأولاد وأن تعجن العصيد ، وأن هناك ضيوف آتون من خولان الطيال ، وأن تسأل زوجة أخي زوجها إذا كان عندها ما توقد به فهذا حدث قصصي كامل يعتمد على الصورة الواحدة وهي طريقة لا نجدها إلاّ عند الأدباء المحدثين .

ويبرع الشاعر في قصصه الاجتماعية تلك ويعالج فيها قضايا أخلاقية إنسانية . . هذه قصة طالب مع أستاذه :

قرأ في النحو معصار على صالح شرف واتقنه
وقلنا يقرأ (الأزهار) ويفعل فيه ما امكنه
بقي يدي لنا أعذار بأن الشيخ حمل يحضنه
وأنه كلما سار وقنبر يستمع مرننه
بيت
وأن قد حَطَّ رأسه يقل له جي قم ارقد هنا
وقال يخلّس لباسه تقل ما قِصَّته ابن الزنا

إلى آخرها . . .

وهذه قصة حسين الحرازي بائع القرانع :

قال الحرازي حسين يا ولد هات الغرارة والرطل حق القرانع
عندي قرانع طري في الصيف يطفي الحرارة من حقكم يا رفاع
يا ولد إلى البونيه مشوار وجي من شرارة وكن لطيف الطباع
وقل لمفتاح حسن عند الحرازي (غراره) من حق بيت المطاع

إلى آخرها .

وقد أبدع الشاعر في قصته (بيت البسيس) وصور فيها مجتمع النساء وما يحدث فيه من مشاكل ومسائل .

وهي قصة حوارية طويلة تقوم على الحدث والحركة ، وقد درسناها في بحث سابق منشور في مجلة الثقافة الجديدة سنة ١٩٧١ فلا نعود إليه هنا .

محسن بن عبد الكريم

إذا كان لا بد من الوقوف عند شاعر من شعراء القرن الثالث عشر في اليمن فليكن الأديب الكبير محسن بن عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن إسحاق شاعر الجمال والغزل، وهو من آل إسحاق أسرة العلم والأدب. . . ولد الأديب في صنعاء سنة ١١٩١ وعرف عنه نبوغ مبكر، فقال الشعر قبل سن البلوغ.

ذكروا عنه أنه خرج جماعة من علماء صنعاء في أيام الربيع إلى حدة، وفيهم العلامة عبد القادر بن أحمد الكوكباني فلمح أديبنا وهو طفل صغير يلعب مع الصبيان فاستدعاه، وأعطاه قرطاساً وأمره أن يكتب من شعره فاستحيى استحياء عظيماً ثم أخذ القرطاس وكتب:

يا إمام العلوم عقلاً ونقلا	وإمام الأصول ثم الفروع
اعذروني عن كتب شعري فإني	في حيائي غدوت أي مروع[1]

وقد دوَّن جامع ديوانه الكثير من شعره في أيام الصبا، من ذلك حمينية يقول فيها:

لي خل مثل القمر كامل ضياه	من مقلته يا أمان الخائفين
على صدوده على كثرة نواه	على جفاه يا معين الصابرين
بعيد كالبدر طالع في سماه	إلى لقاه يا دليل الحائرين

(١) نيل الوطر ج٢ ص ٢٠٢

وإن تـثـنى قـوامـه مـن حـلاه أقـول أنـا يـا مقيـل العـاثـرين
إلى آخرها .

وراسل شيخه العلامة عبد القادر بن أحمد بالشعر وهو دون البلوغ . . وحتى قال عنه أحد معاصريه متنبئاً بمستقبله الأدبي وقد وقف على شعره المبكر :

ولكن عجيب يـافـع من يجيـده علمناه هـذا معجـز كيف يـوجـد
فهـذا لـه شـأن سيعلو ويـرتقي إلى رتبـة فوق الـزواهـر تصعـد

وهو في حياته هادىء البال يميل إلى التفاؤل والمباسطة ، فهو يتمنى على نفسه أن يتم «شاذروان» أمام منظر له ببئر العزب :

يـعـلـم الله هـل يـسـاعـد دهـرنـا بـالـذي نـريـده
نـنظـر الشـذروان صـاعـد يـنـثر الـدر مـن عـقـوده
والـبـرك تجـمـع الـفـرايـد والـعقـود حـولهـا جـديـدة
بعـدمـا تصلح الـدعـامـة والقصـاطـير[1] يستقيمـين

ويصف حياته بالتنقل المستمر وراء المعيشة من صنعاء إلى الوادي «وادي ضهر» فالروضة :

تـارة في الـوادي وطـوراً إلى الـرو ضـة أغـدو وتـارة في أزال
وعـلى ذا مضى الـزمـان ولم أحـ ـظ بشيء إلا كـطالـب آل

ويا ليت الأمر وقف عند هذا ، فإن له رحلة إلى (وصاب) وأخرى إلى كوكبان ، وثالثة إلى تهامة وهو قنوع راض بما قسم له . . . . ولعله مارس حياة المزارعين ولمس بعض همومهم فقد عرض في حمينية عناء الفلاح في زراعة العنب فقال :

من قـد ملك في روضـة أحمـد عنب بـقـى مـشـعـبـك[2] في حـبـالـه

(١) ذوب العسجد « خ »
(٢) ملتوي

يحتاج هيجه في تهامة سلب | سره وللعدة إطاله
قد زادت المرنع وزاد التعب | ها أفرغ ربع مرنع عجاله
والبير قد نزت وماها نضب | والمحل كاين لا محاله
ها عجل المسر المسر الخلب | وأسأل من الله الجماله
حتى تخال الماء حوله حبب | مثل القمر في وسط هاله

هكذا كانت حياة الفلاح في تحصيل زراعته عناء وشدة.. ومن منهجه في الحياة التواضع الموصوف به العلماء فهو يكره تسميته بالعالم وينكر على من يصفه بذلك فيقول:

انشد الله صاحباً لي حميها | كتبتني كفاه بالعلامة
أن يسوي تقرين عين لها ثم | ليبدل بنقطتين القلامه
لقب لست والذين برأ العا | لم منه ولا بقدر قلامه

ويكره الشهرة:

وإن كنت لرفع الذكر تبغي | فحظك من متاعبك الكلام

نعم ربما تبرم بالأصدقاء على الرغم من انبساطه بهم ووجدناه يصفهم بقل الوفاء.

ولكم أخ صافيته زمنا | ووددته ما أمكن الود
حتى إذا ما غاب عن نظري | ذهب الوَفا وتبين الحقد

ومع ذلك فإن له أياماً جميلة في شبابه لا يزال يذكرها وهو في شيخوخته ويقول:

لله روضة حاتم فهي التي | روض الأماني في رباها مخصب
أيام كنت أجر في عرصاتها | ذيل البشاشة والسرور وأسحب
حتى تجهمني الزمان بفرقة | قد كنت منها خائفاً أترقب
عجباً له ما كان أسرع سيره | أولا فإن البطء منه أعجب

تلك أيامه وحياته توفي رحمه الله سنة ١٢٦٦ .

* حبه للوطن

لعل أهم ما يميز شعره هو ارتباطه بالبلاد اليمنية والتغني بجمالها في أغلب قصائده وهو ينظم أكثرها بدافع الحب والإحساس بالطبيعة في مناطق بلاده المختلفة، وحيث أنه استقر بالروضة فإن أكثر شعره جاء فيها، وقد أوردنا بعضاً منه فيما سبق.

ولا يدع مناسبة إخوانية أو قصيدة غزلية أو وعظية، إلا ويحشر بلده فيها فهو بحق من أكثر الشعراء تعلقاً باليمن إذا اعتبرنا ذلك بكثرة ما يردده من أسماء بلدان ومواطن.. يشيد ببئر العزب «ضاحية صنعاء» فيقول في قصيدة حمينية:

جو بئر العزب قد راق ... والطبع في سوحها رايق
ودوحها قد نَظَمْ أطواق ... في الغصن ترصيعها فايق
والنهر من تحتها دفاق ... وعرف أزهارها عابق

وقد عَرَض جمال بلده في أشكال وصور أدبية مختلفة فهو يكتب إلى أحدهم رسالة شعرية يعرض فيها محاسن كوكبان:

يا من سكن في سفح بئر العزب ... بالله قل لي كيف حالك
وهل لهجرانك لنا من سبب ... وما الذي عنا أمالك
فزورتك أقصى المنى والطلب ... وكلنا نهوى وصالك
طيب الهوا فاتك وفات الشنب ... وفاتنا باهي جمالك
وفاتك الجو الذي كالذهب ... وقت الأصيل ما زاد تمالك
وإن نظرت الروض تنظر عجب ... أخواض[1] ما تخطر ببالك
وكوكبان بالتاج أرخى العذب ... سيول كاللؤلؤ تهالك[2]
والند يصعد من مجامر ذهب ... مثل الغمائم في خيالك

إلى آخرها.

ويقحم الوطن في غزله وحبه فيقول «من حمينية»:

---

(١) شؤون

(٢) تدهشك

لكن طرفي إلى وصلك مشوق   فما رأى قط من بعدك حسن
فله على حسنك الباهر حقوق   ما ينفعه إن قلبي لك وطن
فهات بالله هل لك من شروق   يا بدر قل لي على صنعاء اليمن
وهل لحبل التجافي اتصال   وهل لطيب التلاقي من شميم

بل وفي مدحه. فهو يقرن أوصاف ممدوحه بمحاسن الطبيعة يقول في مدحه للشريف حمود بن محمد صاحب تهامة:

شاق الفؤاد إلى تهامه   برق تألق في غمامه
شوقاً إلى ذاك الحمى   شوق السقيم إلى السلامه
حلق به نعم الكريم   وصافحته يد الكرامه
وأطار هتان الحيا   لوجوه تربتها التثامه
حتى أرى ذاك الأرا   ك مطنباً فيها خيامه
والطلع في أكمامه   ككميها المرخى لثامه
وشقيقها كلوائه المنصـ   ـور منشوراً أمامه
وأرى السيول كجيشه   والسحب مشبهة قتامه
والبرق يحكي رمحه   فوق الكريهة أو حسامه
والقطر في غدرانها   كسهامه في ظهر لامه

إلى آخرها.

وكثير من هذه الأنماط حفل بها شعره.

* الروضيات

ولعل هذا الشعر جاء من طبيعة مرهفة تميل إلى تتبع الرياض والإحساس بمباهج الطبيعة فالرياض هي متعته الأولى وهو يفضلها أحياناً على الغزل فهو يقول مفضلاً الغدير على الحبيب:

لا تعذليه فليس ذاك بشافي   ما نال من ألم الصبابة كافي
سكن الهوى منه بحيث تقاصرت   عنه سراير خلص الألّاف

شغلته عن سمع الملامة لوعة تزداد إن ذكر الغدير الصافي
حيّاه منهل الغمام بجوده وهمي عليه بدلوه الغراف
ورد وقاه عن النوازح غلفق أحوى وصفقه النسيم الهافي
الزهر في أرجائه غرقى فمن راس هنالك لا يبين وطافي
كم فيه من متكبر بجماله متبختر في بردة الأفواف

..... نعم قد شغلته عن الحبيب رقرقة الجداول وخرير المياه وهو يعتذر عن ذلك بأعذار واهية:

وقالوا هويت الروض بعد فراقنا وآثرته أين الوفا المتقدم
نعم صدقوا نهوى الرياض وزهرها لما أخذت من أوجه الحسن عنهم

وما برح يشدو بمحاسن الطبيعة ويحث الأصدقاء على تتبع مواطنها ويكتب إلى أحدهم يقول:

بادر لتشهد أي يوم جمعت في فرده كل المحاسن بادر
فالسحب زانت جوها بمطارف والنهر حلّا غصنه بأساور
من أبيض يفق وأصفر فاقع سمع الأصيل به وأخضر ناشر
والقطر في شمس النهار كأنجم منقضة أو لؤلؤ متناثر

ويتفاءل بلمعان البرق فيقول:

تضاحك البرق خلال الغيوم في ظلمة السحب وجنح الظلام
فقلت نعم الفال قد آذنت أيامنا البهم لنا بابتسام

* تأمله في الكون وفلسفته

على أن حبه للطبيعة دفعه إلى التأمل في الكون والتفكر في صنع الله فبرع في ذلك وأجاد وكتب تأملات لا تكاد تخرجه عن شعر الصوفية المعظم لجلال الله وقدرته .

انظر إليه في هذه التأملية الحمينية ليتضح لك ما قلناه:

ما ترى كيف تقليب أطوار الفلك واختلاف الأمور النواشي
بينما الليل لابس جلابيب الحلك إذ أتى الصبح بالنور غاشي
يهتدي في المسالك بنوره من سلك ويفك الكتب والحواشي
يا تعالى الله الذي للعوالم قد ملك كل ساعة وله شأن ناشي

ويخلص في هذه الحمينية إلى الهدف الوعظي من تأمله فيدعو إلى التسليم للقدرة الإلهية وعدم الاعتراض:

سلم الأمر سلم وفوض للقدير كل أمرك إليه وإياه فارهب
واجعل العمر مركب إلى بندر يسير تذهب الريح به كل مذهب
واتجر من بضاعة وفيها ربح لك من نفيس الحلى والقماش

إنه يدعو إلى اغتنام ساعات العمر في التزود للمسير. . . وتمضي تأملاته في الكون تسبح عظمة الله وتقدسه. وفي أخرى يدرجها بما اعتاد من وصف الرياض فيقول:

اطفي الشمع بالمقص لنا لا تقل أف واترك الجفوه
أما ترى الصبح في ملابسه الحمراء قد جاء حاجزاً حقوه
قال للنيّرات أجمعها اسجدوا للمليك ذي السطوه
وجلا شمسه وقد كشفت وجهها كالعروس في الجلوه
تشمل الأرض بالحياة إذا رشفت من لعابها حسوه
وترى كل ذرة خلقت وبها من نظارها طلوه
وسبيل المعاش واضحة في حضيض الجبال والذروة
والعدو المبين منكشف ونقوش الكتاب في جلوه
وهي تجري بأمر خالقها لم تفارقه قط في خطوه
لم تزل والسماء راكضة ما أتت من جوادها كبوه
لا ملال في السير يلحقها لا خرقة ولا رخوه
ولها منه حيث يعلمه مستقر تؤمه سطوه
فإذا تم نفعها غربت وانقضى اليوم وابتدأ غدوه

إلى آخرها.

فهو في تأملاته الكونية لا يخرج عن طبيعته الفنية التي تميل إلى تسبيح الله في مخلوقاته والإشادة بما فيها من محاسن طبيعية وجمالية.

نعم هو يفكر ويتفلسف ولكنه بطريقة الأديب الصوفي، وربما كان لفلسفته وقع وعظي لا يخرجه عن جادة الصوفية:

القياس القياس تفعلوا لكم غفوه ... القياس القياس
انقضى دهرنا على سلوه ... بالكرا والنعاس
منسدح في مراقد الشهوة ... عند ظبي الكناس
وانقضى يوم وابتدا غدوه ... وعلى ذا يقاس

وكان لهذا الشعر أثر كبير في سلوكه الصوفي فهو يدعو الله ويتوسل إليه بحرارة وقد صدّر جامع ديوانه قصائده الصوفية تلك قوله في بعضها:

لك من قلبي عقد الندم ... ومن النطق اعتراف المجرم
رب إن تعف فعن عبد عصى ... وعليه لك مَنُّ المنعم
أو تواخذ فبعدل صدعت ... لك فيه حجة المنتقم
غير أن الفضل والرحمة والعفو من (م) ... شأنك يا ذا الكرم
أنا إن فكرت فيما جئته ... من كبير في الخطا أو لمم
كاد أن يفسد خوفي ظني ... وتوقعت حلول النقم
كم حقوق لك قد ضيعتها ... ولإخواني وأدنى رحمي

له هذا الشعر وغيره فالرجل صاحب التزام ديني لا يحيد عنه ولا يرى في ذلك منافسة لموهبته الأدبية... لعلك تلمس هذه الجرأة الدينية عند وداعه لقبر الرسول ﷺ في حجته الأولى سنة ١٢٣٧:

كأني إذ أودعه ... أودع مهجتي قسرا
وأرسل أدمعاً بيضاً ... وأتبع بيضها حمرا
كدر أو كياقوت ... وأغلى منهما قدرا
فيا عين اكففي دمعاً ... ويا قلب ادّرع صبرا
لعل لياليا سلفت ... سترجع مرة أخرى

* غزله

كان لا بد للأديب محسن بن عبد الكريم أن يشعر ولكي يقول شعراً لا بد أن يتغزل ويحب ويتفنن فيه، فذلك هو مقياس الشعر عند الأدباء قديمهم وحديثهم، إذ لا شعر إلاّ بغزل ولا غزل إلا بشعر وهو يحب فيمس محبوبه بشفقة وعتاب رقيق تحسس منه رقة الشاعر وحنانه:

هنيئاً نم فإني لا أنام ... فدع جسمي يقلبه الغرام

ويقول:

يا رافلاً من برود الحسن في حلل ... ومن به شغلي عن كل أشغالي
ليهنك اليوم إني بت ذا قلق ... عليك فارقد هنيئاً ناعم البال

فهو يؤثر حبيبه على نفسه.

وتلك سمة رئيسية للغزل عنده ألاَ وهي نكران الذات، فهو لا يرجو المتعة لنفسه بقدر ما يريدها لمحبوبه.... غاية عتابه هو أن يذكر الحبيب بقانون العدل والإنصاف:

أسير هو لا يخرق العذل سمعه ... طريح جو عن دمية القصر سأال
ولا يوم توديعي لها حين لا سوى ... إشارة كف أو تلفت معطال
وكتمي هواها ظنة ومدامعي ... تحدث عن قلبي المشوق بإجمال
وأنّى لدمعي أن يكفكف بعدما ... تعثر من هدب الجفون بأذيال
ولله قلبي إذ حكى خفق قرطها ... فهلا روى عنها توقر خلخال

وهو يؤكد حبه بشهوده المعروفة نحول الجسم وانسكاب الدموع وغيرهما:

يا أيها القمر الذي ... من ثغره انتظمت عقوده
أتعيد لي زمناً مضى ... بالوصل مشرقة سعوده
أم قد نقضت عهود من ... تالله ما نقضت عهوده
لك من تصبره اليسير ... ومن توده مزيده
أبلى هواك عظامه ... والحب لا يبلى جديده

مـضـنى حـليف صـبـابـة   جـرحـت بـأدمعـه خـدوده
يـا لايمي مهـلاً فـحـكـم   الحـب لـيس كـما تـريـده
لاقـى ضعيف القـلب فـيـه   كـمثـل مـا لاقـى جليـده
هـيـهـات تجـحـد حـب مـن   مـن دمعـه قـامت شـهـوده

ويقول:

وأنـا المستـهام من غـير شـك   وشـهـودي عـلى الغـرام كـبـار
إصفـراري نحول جسمي خفـوق   لـفـؤادي ومـدمـعـي المغـزار

ويجعل من محاسن الحبيب عذراً له في كلفه به، يقول في حمينية:

بـيـاض المـبـسـم الـدري   وتـوريـد الخـدود
ولـيـل الشعـر إذ يسـري   عـلى لـيـم[1] الـنـهـود
ونـظم الـدر في الـثـغـر   وتـرصـيـف الـعـقـود
أقـامت في الهـوى عـذري   عـلى رغـم الحـسـود

وها هو الحب وقد ترسخ في نفس الشاعر نجده يحلله ويفلسف دقائقه فمن رأيه في الحب الإخلاص فيه وإلا فالهجر أولى:

هجـرت عـلى كـره حبيبي لحبـه   لمـا لم يكن لي في هـواه نـصيـب
وعـاتبتـه في حـب من أنـا كـاره   فقـال ودعـوى الحب منـك عجيب
وهـل يستقيم الحب حتى تحب مـا   أحب فمـحبـوب الحـبيـب حبيب
فـقلت لـه شـتـان بيـني وبينـكم   ولـيس سـواء خـالص ومشـوب
فحبـي مقـصـور عليـكم وحبـكم   يـكـدره حـب السـوى ويشـوب

ويرى أن صفو الزمان ما هو إلاَّ في لقاء الحبيب.

إنمـا يـبـسـم الـزمـان إذا غـو   لط يـومـاً عـلى لقـاء خبيب

وربما صحح أوهام من قبله من الشعراء في تشبيه البرق بالثغر أو محاكاته له،

---

(١) ليمون

فهو يرى أن البروق ما هي إلا سهام مرسلة إلى قلوب المحبين:

غلط الــذي قــال البــروق شبيهــه ... بــالثغــر لا فهــو البــرود الأشنب
أو قــال إن الــبــرق رام تـعــلــماً ... كــذبـت أمــانيــه وعــز المــطلب
مــا البــرق إلا مــرســل لقلوبنــا ... بـعض يجيء بهــا وبـعض يــذهب

تلك ملامح من أفكاره في الحب والغزل، وهو لا ينسى في غمرة غزله هوايته الأولى وهي الرياض فيجمع بين الأمرين في عدة مقاطع أوردنا بعضاً منها فيما سبق، وفي إحداها يفضل محاسن الحبيب على الروض فيقول:

وإذا قــلـت مــرة أنــزل الــرو ... ض لــعــلي بــحــسـنهــا أتمــلا
اذكــرتـني محــاسنــاً منــك أبهـى ... من سنــاهــا نــوراً وأحــلى وأعــلى
أين زهــر الأقــاح من ذلــك الثغــر ... الــذي لا أرى لــه الــدر مــثــلا
أين ورد الغصــون من وردة الخــد ... الــتي تــبهــر الــنــواظــر شــكــلا

وهذا على خلاف عاداته.

* مذهبه الفني

هو شاعر لا يجعل من الشعر همه الأول، وهـو عنده فترات يزجي بهـا أوقاته، فيمدح أحياناً ويجيب على من ساجله أحياناً أخرى، فهو في كثير من شعره شاعر مناسبات ينظم حين تدعو إلى نظمه الحاجة . . .

لا يكتب شعره إلا لمن ساجله به.

وكثير من أولئك الشعراء الذين ساجلوه قد حواهم ديوانه، وهم نخبة من أدباء العصر، لعل أكثرهم مساجلة له هو الأديب يوسف بن إبراهيم الأمير وأخوه علي بن إبراهيم الأمير، وبعض من أقاربه آل إسحاق وقد جمعهم ديوانه «ذوب العسجد».

وعلى الرغم من عدم أهمية الشعر عنده فإن له مدرسته فيه التي تنحو إلى جانب من التجديد، فهو يثور على الشعر القديم في بكـاء الرسـوم، ويرى أن

الذي يستحق البكاء هو التحسر على أيام الشباب :

دع عنـك تـذكـار الـديـار ... وخـطاب مـوحشـة الجـوار
لله أيـامـي ولـيـلا ... تي الحـقـيـقـة بـادكـار
وظـلال أيـام الـشـبـيـبـة ... حـاجب شمس اعـتـبـاري
وطـلأ صـبـائـي يجـول في ... عـودي فـيـسـلبني وقـاري

فهذه الجديرة بالبكاء عند الشاعر .

وربما هزه الطرب وأخذه الإعجاب بشعره فنجده يصرح بالثناء عليه فيقول في القصيدة السابقة :

وإذا نـظمـت الـشـعـر جئـ ... ـت بما يجـل عـن المبـاري
وهـززت أعـطاف القـريحـة ... بـاخـتـراع وابـتـكـار

فهو يحس بما يأتي به من تجديد في الشعر .

ولم يكن مقلداً فإن أكثر ما يسوءه هو أن يحذو حذو الشعراء في خيرهم وشرهم ، لذا نجده لا ينساق في مجونهم وخلاعتهم . فلم يعرف عنه شيء من الغزل الغلماني ووصف الخمور والغزل المكشوف ، إنما هو الأدب الوقور المحتشم .

نعم هو يقرأ الشعر الجيد ويتأثر به وأنت ستلمح كثيراً من آثار قراءاته في شعره من أخذه للمعاني وتضمينه للأبيات المشهورة كقوله متأثراً بأبي فراس الحمداني :

أيـذوي روض ودّكـم الـنـضـير ... ويخـبـت مـاء مـورده الـنـمـير
فـلا هـطلت بمخصبـه سحـاب ... ولا هـبـت بـصـافـيـه دبـور
إذ ذهـبـت بـودكـم الـليـالي ... فـلا ذهبت بـطلعتهـا الـبـدور

ويكثر من أخذ المعاني صراحة كقوله آخذاً من بيت ابن هتيمل الشهير :

إنمـا الـعـيش والهـوى قـبـل أن ... ينجم ثـدي أو أن يـدب عـذار

أخذه شاعرنا فقال :

ما العيش إلا قبل نجم ... الشدي أو نبت العذار

وعنترة، يقول مضمناً:

ما للرعابيب الضعيفات القوى ... يفتكن بالبطل المعد لفيلق
يضعفنه عن حمل أسلحة الوغا ... فيظل يرعد بالسنان الأزرق
(ويود تقبيل السيوف لأنّها ... برقت كبارق ثغرها المتألق)

وقرأ لعلي بن الجهم ، وأبي تمام ، وابن النحاس وغيرهم .

أما الحصري فقد عارض قصيدته الشهيرة بقصيدة جيدة يقول فيها :

صب أضناه تلهفه ... إذ ودع سرباً يألفه
أضناه الهجر وأتعبه ... شكواه لمن لا ينصفه
يا أهل السفح غريم غرا ... م هل منكم من يسعفه
يتسربل ثوب تَكَتُّمه ... ونسيم الصبح يكشفه
صاح من غير محبتكم ... ثمل والذكرى قرقفه

. . . إلى آخرها . . .

على أن شاعرنا ابن اسحاق يعجب أيضاً بالأوزان الخفيفة ، وقد كتب فيها العديد من القصائد أشرنا إلى بعضها عند استشهادنا بها .

*** إخوانياته**

قلنا أن أكثر شعر ابن اسحاق جاء وليد مساجلات إخوانية ولم يتكلف الشعر لذاته، فأكثر ما كتبه في الروض والبديع ما هو إلاّ بمثابة دعوة لإخوانه وأصدقائه إلى النزهة معه . أو إجابة على طلباتهم بالحضور . وحتى قصائده ذات الطابع الأدبي المتكامل أتت لمحاولات إخوانية سابقة له .

بل نجد من هذه الإخوانيات ما توسع أمرها ولم تعد بين اثنين وإنما انتشرت بين أكبر عدد من الأدباء .

ففي عصر شاعرنا ثار الجدل حول تفضيل الطيور بعضها على بعض فمنهم من فضل الحمام ، ومنهم من فضل القمري (من أنواع الطير) وكان أديبنا ممن فضل (الهزار) يقول في حمينية :

غنّ بصوتك يا هزار الغصون ويا حمام الروض غنّ
غناك أغنى عن سماع اللحون فهات ردّدْ لي وثنّ
أصوات تشجي بل تثير الشجون جالت مجال الروح منّي
أوتارها من صنع كن لا يكون شبيه أوتار المغنّي

إلى آخرها . . .

وعارضه فيها ابن عمه اسماعيل بن علي إسحاق ففضل (الحمامة)[1] :

أبدت إشارات الغرام المصون ورق الحمايم في التغنّي
وبينت أسرارها في اللحون فإن شئت خذها اليوم عنّي
قالت أقاسمها الأسى والشجون على الوفا منها ومنّي
دَرَتْ بأني في الهوى لا أخون وأن حفظ العهد مني

إلى أن يقول في الرد على ابن عمه في تفضيل الهزار :

وكل من شبب بوصف الهزار فإنما قصده يكابر
فكل صادح من غناك استعار فافخر وقل هل من مفاخر
وليس هذا القول منا انتصار حسنك كفاك عن كل ناصر

. . . إلى آخرها .

ثم عارضها الأديب يوسف بن إبراهيم الأمير وفضل (القمري)[2] :

قمري على الأفنان يروي فنون أفصح بها عما أكنّي
شرح معاني الوجد فوق المتون بلحن حقق فيه ظنّي

---

(١) ذوب العسجد « خ »
(٢) ذوب العسجد « خ »

وعلم الورقا وملد الغصون   علم الأغاني والتشني
قد كان سر الحب عندي مصون   والقلب صابر للتجني

إلى آخرها . .

وتلك نماذج يسيرة مما كان يدور بين الإخوان من قصائد ومناظرات أدبية .

*** شعره الحميني**

شاعرنا الأديب محسن بن عبدالكريم ، معروف بين أدباء عصره بالشعر الحميني الملحون أو أنه أراد أن يقول هذا الشعر لمّا وجد أكثر أهل عصره يتعاطون هذا الجانب من الشعر، وإلا فهو أديب متضلع في علوم الآلة، وقد نظم شطراً كبيراً من كتاب (مغني اللبيب) في النحو، وشرح (الموشح) في النحو للخبيصي . . . ولكن لم يكن من عادته على توسع علمه الترفع عن هذا الفن الشعبي كما هي العادة عند غيره من فطاحلة علماء عصره.

فهو ينظم الحميني بأسلوب تتجلى فيه شاعريته الجمالية مع خفة وبساطة . . . وربما سلك في هذا النظم طريقة نادراً ما تجدها عند غيره ، فهو ينظم هذه الموشحات بالفصحى على خلاف القاعدة في هذا الشعر ويكتب فيه مثل هذه الحمينية :

أنظام أم مدام في قدح   عتّقت في القدم
نفحت من دنها لما نفح   نفحات الكرم
ملأت قلبي سروراً وفرح   وشفت من ألمي

توشيح

أذكرتني من ثوى في أضلعي   ونأت أربعة عن أربعي
الذي لقياه أقصى منطمعي

تقميع

منتهى الهم إذا الفكر طمح   في مجال الهمم

وإذا دار المـنى والمـقـتـرح كـان أقسى قـسـمـي

بيت

ليت شعـري كيف كـانـوا بعـدنـا عنـدهم مـا عنـدنـا
أم تـنـاسـوا بـالتـنـائي ودنـا وأحـالـوا عـهـدنـا
لا وَجَـبَّـار الـسـما أمَّـا أنـا إنهم كـل المـنى

إلى آخر هذه الموشحة الفريدة

وهو في موشحاته لا يكثر من الخرجات والتقافيل والأدوار ، شأنه في ذلك شأن أكثر شعراء الحميني في اليمن وإنما يكتبه غالباً من نوع البيت والقصيد. . . فمن النوع الأول :

يـومنـا في فم الـدنيـا ابتـسـام فـهـو كـل المـنى لـلآمـل
تضحـك الزهـر من دمـع الغمـام فيـه مـثـل الحـبيـب المـايـل
كـأن الـغصـون سـقـت مـدام فـهي تختـال مـثـل الـشـامـل
والهـوى مـد من سحبـه خيـام مـذهـبـة بـالأصيـل الهـائـل

بيت

والـصـبـا حـين وافـانـا وقـف يـرتعـد كـالعـليـل النـاحـل
والحـبيـب الـذي زان الـغـرف بـالحـلا والجـمـال الـكـامـل
حـين أهـوى بكـاسـه وارتشف خـلت شـكـل الهـلال الآفـل

إلى آخرها .

وهو قد يلتزم قافية واحدة في أبياته ويكتبها على عادة أسلافه متعددة القوافي على ثلاثة أشطر أو أكثر مع التزام الشطر الأخير بقافية المطلع . كهذه الحمينية :

اسقني يا شقيق النفس من خمرة الراح صب في الكأس لي أم المسرة والأفراح
قد سمح باللقا بعد الجفا روح الأرواح قلت لما بدا كالبدر والصبح قد لاح

بيت

ألف أهلاً بمن وافى على الراس والعين وسرى مثل مسرى الطيف من خيفة العين
وهو لابس قناع أصفر بحردة ذهب عين فوق نور الجبين مثل الشفق عند الإصباح

بيت

والعقود يا حبيب شبهتها بالأهلّة قارنت بذر خدّك يا حويلي الأشلة
إن هذا القران ما قد سمعنا بمثله غير عقدك وخدك يا مغير سمر الأرماح

إلى آخرها .

وقد يكون عنده ثنائي مع التزام المطلع الأول في آخر كل مقطع كهذا الذي يذم فيه (بئر العزب) ويمدح الروضة :

صحت البير شعبة من شعوب للعزب مثل بير « البينيان »
جوها مثل ما تزرط حبوب أو كأنك تقرِّط هندوان
مثل (حدة) ولكن في الكروب شبهوها تقاريس الزمان
فالشمال وريحه كالذنوب بل ولا الريح فعله كالشنار

بيت

من رأى روضة الحسن الأنيق وشرب من طلاها وطلتين
صار نشوان فيها لا يضيق يفتتن في هواها فتنتين
فلهذا سميت روضة حقيق وجميع المخارف يشبهين
صح لي أنها روض القلوب من برود الأصايل طيلسان

وقد يأتي رباعي متشابهة قوافيه إلا في الشطر الرابع حيث يلتزم فيه قافية واحدة تكون للقصيدة كلها كهذا :

سقى دار الوصال هتّان هطّال ودامت في ظلال اليسر تختال
ففيها قد رأيت الأرض في بيت وفيها قد طويت الزهر في الحال
وندمة كالبدور تفديهم الحور وثناهم للدهور أقراط وأحجال

وأحياناً ثنائي ملتزماً قافية المطلع الأول في البيت الأخير :

لم أنس يوم التلاقي غربي (أزال)
حبي زارني وهو راقي برج الكمال
ودار بالكاس ساقي باهي الجمال
وأطفى لهيب اشتياقي بالاتصال

بيت

أهلاً وسهلاً على الرؤوس
بذا الجمال المولى على النفوس
من تحسده حين يجلى نور الشموس
من صار جاعل فراقي له رأس مال

إلى آخرها .

ومن النوع الثاني:

يا بارق السحب في جنح الدجى مسراك هل في خباياك قطرة من لمى الأغيد
يروي بها ظامي الأحشا فما يخفاك حال الذي ذاق بعد الوصال طعم الصد

إلى آخرها . .

وهذا النوع هو أغلب شعره الحميني وقد برع فيه أكثر من غيره .

تلك هي أنماط الحميني عنده ولا يخرج عنها إلا في الحالات النادرة . وقد تجلى على سجيته في هذا الشعر وكتب غرر القصائد الروحية والغزلية والإخوانية ، وقد أعجب بها أهل عصره وغنوها كما غنو غيرها من شعر الحميني الجيّد وفي (شعر الغناء الصنعاني) قصيدة مغناة لأديبنا مطلعها:

نعم نعم شكري لمولى النعم في كل حالة فرض لازم
أغنى وأقنى كل سائل وعم بالجود أصناف العوالم
هو الذي قد أوجدك من عدم وكان بك في الغيب عالم

. . . إلى آخرها . .

الفهرس